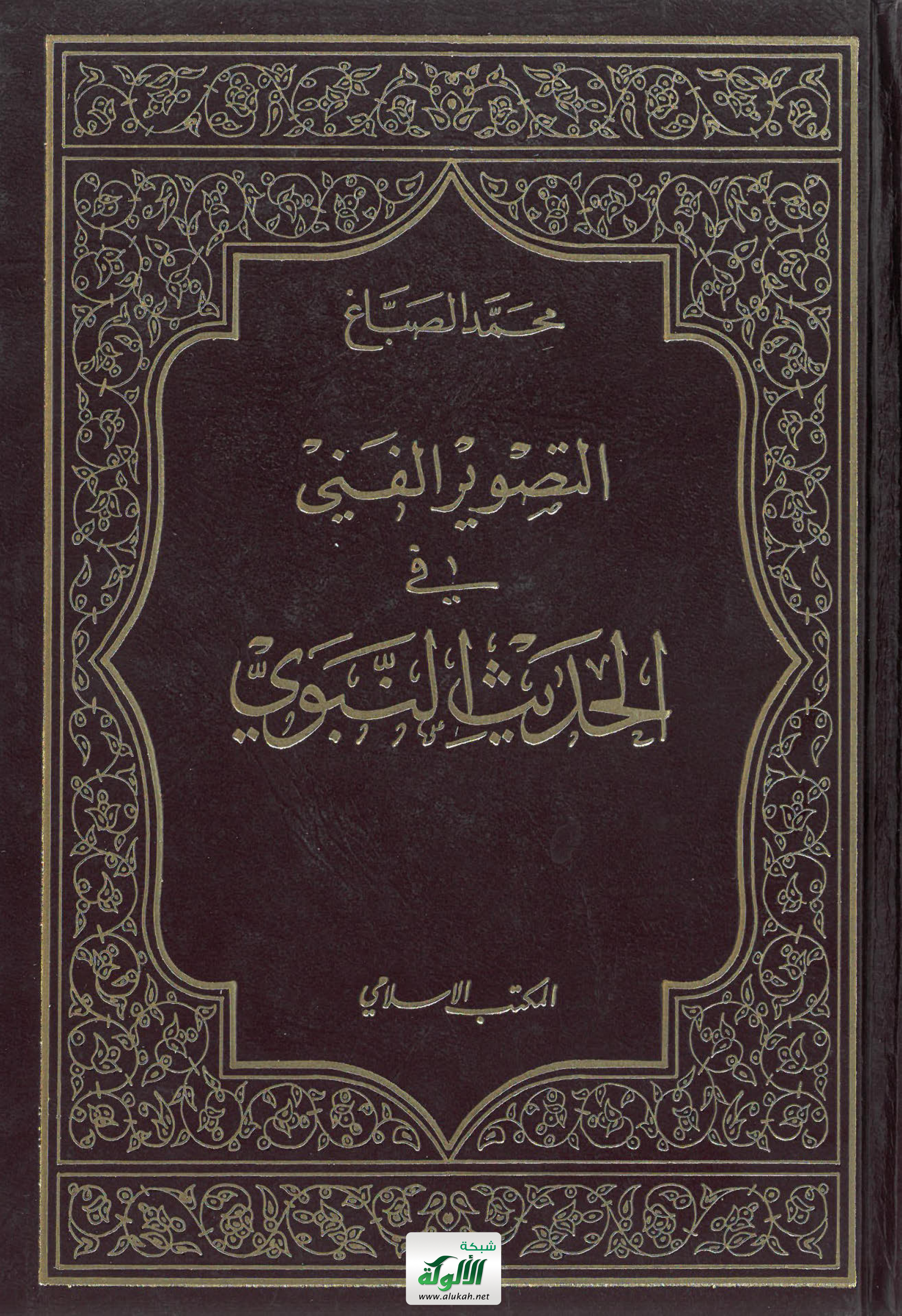
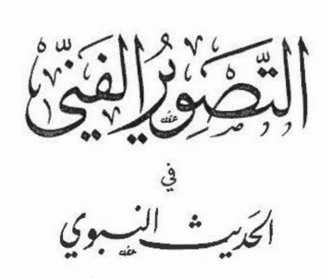
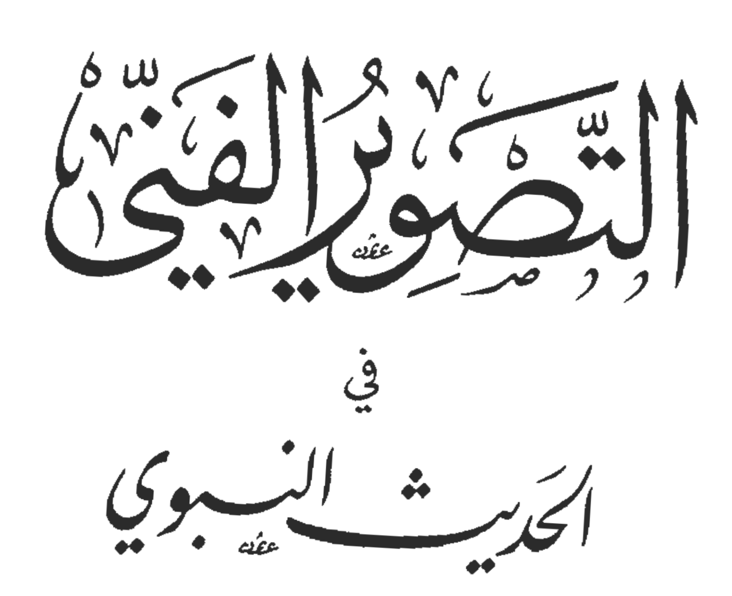

محمد الصباغ
التصوير الفني
في
الحديث النبوي
المكتب الإسلامي
شبكة الألوكة
www.alukah.net


التصوير الفني
في
الحديث النبوي





# التصوير الفني في الحديث النبوي

تأليف

الدكتور محمد بن لطفي الصباغ

المكتب الإسلامي



الطبعة الأولى

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

المكتب الإسلامي

بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلاميا

دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: اسلامي

# الإهداء

إلى أخي عبد الرحمن الياني
أهدي هذا الكتاب .
اعترافاً بفضله .
حفظه الله
ونفع به عباده الصالحين .

محمد بن لطفي الصباغ







بسم الله الرحمن الرحيم

# تقديم

**للدكتور محمد مصطفى هدارة**

أحمدك الله حمدا كثيراً وأصلي وأسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله وآله الأطهار وصحبه الأخيار وبعد ،

فهذه ليست مقدمة تعريف بكتاب ولا مؤلف ، فالكتاب يدل على نفسه بنفسه ، ويدل عليه صاحبه الذي يستغني عن كل تعريف به وتقديم له ، فقد طالت صحبته للعمل مذ تخرج في كلية الآداب بجامعة دمشق منذ نحو ثلاثين عاما ، وارتبط بعقله ووجدانه بالعلوم الاسلامية وخاصة علم الحديث ، فأكب عليه يستلهمه ويستهدي به ، ويغوص على درره و يواقيته، يستخرج كل يوم منها جديدا لا تبلى جدته ، وعظيما لا تحد عظمته ، وهو في كل ما تصرم من سني حياته لا يفكر في نيل درجة علمية عالية ، محتسبا عند الله ما يقدمه من جهد يبذله راضيا لخدمة دينه الحنيف وسنة نبيه المطهرة ، حتى اتصلت بيننا الأسباب منذ نحو عشرة أعوام بمدينة الرياض الزاهرة ، وعرفت في الرجل علما ثرا، وتواضعا جما ، وفضلا سابغا ، وعقيدة ثابتة صحيحة ،وإيمانا نقيا قويا، وجهدا في مجال العلم تنوء به العصبة من الرجال ، فحاورته وحاورني حتى شاء الله له أن يقتنع بأن يفرد بعض جهده العلمي لاستكمال درجاته العلمية العالية في زمن قد تنبهم فيه على الناس أقدار العلماء إلا من خلال هذه الإجازات العلمية التي قد لا تساوي في حقيقتها شروى نقير .





ولم يطل بنا البحث والتنقير عندما حان وقت اختيار موضوع لرسالة الدكتوراه فقد آل محمد بن لطفي الصباغ إلى ما أفنى فيه سني شبابه وكهولته ، إلى النبع الإسلامي الرقراق ، إلى عمود الدين بعد كتاب الله ، إلى حديث رسول الله ﷺ فاختار موضوع (التصوير الفني في الحديث النبوي ) لتكون دراسته تتويجا لجهده العلمي في مصاحبة الحديث النبوي سنوات طوالاً . وقد رأى أن دراسات الباحثين في التصوير الفني في كتاب الله الكريم وفي الشعر العربي في مختلف عصوره قد كثرت في الآونة الأخيرة ، دون أن يحظى الحديث النبوي بدراسة علمية جادة تكشف عن العناصر الجمالية الرائعة في أقوال الرسول ﷺ .

وكانت دون غايته لإدراك ذلك عقبات جسام ، لعل أهمها قضية جواز رواية الحديث بالمعنى دون النص ، وكثرة الأحاديث النبوية كثرة هائلة بحيث تقتضي من الباحث المُنة والجلد في محاولته الإحاطة بهذا البحر الخضم .

ولكن ذلك كله لم يزد الباحث إلا إصرارا على المضي في بحثه متجاوزا كل عقبة ، وقد عقد تمهيدا بين يدي بحثه درس فيه ثلاث قضايا ذات أهمية خاصة ؛

أولها أن الحديث النبوي نص أدبي يرتفع إلى أعلى درجة من البيان ، وهذا أساس مهم ينهض عليه بناء البحث ،

والقضية الثانية أن هذا النص الأدبي موثوق به وأن رواية الحديث بالمعنى لا تعني أن الأحاديث كلها ليست بلغة الرسول ﷺ نصا .

وآخر النقاط التي تناولها الباحث في تمهيده جهود الباحثين الأقدمين والمحدثين الذين درسوا الحديث النبوي ، فقد عرض لها الباحث جميعها وقومها بميزان خبير عدل ، وانتهى فيها إلى نتيجة واضحة وهي

أن القدماء من أمثال الجاحظ ، وأبي حيان التوحيدي ، والشريف الرضي ، وابن رشيق القيرواني ، وعبد القاهر الجرجاني ، وابن الأثير قد التفتوا إلى نواح جمالية في الحديث النبوي بصفة عامة ، ولكن ما أغفلوه كان أكثر بكثير مما التفتوا إليه ، وأن معظمهم لم يتناول الحديث النبوي بوصفه نصا أدبيا .




أما المحدثون فقد لاحظ الباحث أن دراساتهم تتفاوت تفاوتا بينا بين السطحية والعمق ، وأنها تتفق فيما بينها على التخلي عن النظريات النقدية الحديثة التي تسعى وراء مواطن الجمال في التعبير الأدبي .

ثم بنى المؤلف بحثه على ثلاثة أبواب رئيسية درس فيها دراسة تحليلية مفصلة الصورة الفنية في الحديث النبوي .

فكان الباب الأول عن الصور الحسية والمعنوية في عالم الغيب ، وانقسم الباب بحسب طبيعة موضوعاته إلى فصول قصيرة تناولت: الله جل وعلا ، يوم القيامة ، الجنة والنار ، الملائكة ، الشيطان ، الفتن .

ثم كان الباب الثاني دراسة تحليلية للصور الفنية في الأحاديث التي تناولت عالم الشهادة ، وانقسم الباب بحسب طبيعة موضوعاته إلى فصول قصيرة تناولت الصلاة ، الصدقة ، الزكاة ، الصوم ، الحج ، الجهاد ، الذكر والدعاء ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بر الوالدين ، صلة الأرحام ، المؤمن ، المسلم ، الإنسان .

والمفهوم الذي اعتمد عليه الباحث في تحليل الصور الفنية في هذين البابين كان متحررا من الأطر والقوالب التي حددها علماء البلاغة ، فلم يكن همه تبيان نوع الصورة التي كانت تستخدم الاستعارة التصريحية أو التبعية ، أو تستخدم التشبيه من حيث هو عقلي أو حسي ، وذلك لأنه رأى أن هذه الوسائل المحدودة ليست غاية الصورة ، أو ليست كل وسائلها لإدراك عناصر الجمال فيها ، بل إنه من الظلم الفادح الاقتصار عليها لتحديد جمال التصوير في هذا الإطار البلاغي الجامد . ورأى أن يتسع فهمه لجمال الصورة بحيث يتسع لكل عناصر الجمال في التعبير من حيث بلاغة نظم العبارة وموسيقاها ، ومن حيث استخدام وسائل التصوير المختلفة من وصف وتشبيه واستعارة وقصة ، والاعتماد على الحواس المختلفة وعناصر التأثير المتباينة ، وهو يعرض ذلك كله على ذوقه الأدبي محاولا التعليل لما يحسه من جمال في كل هذه الصور التي يعرضها من مئات الأحاديث الصحيحة التي اقتصر عليها في بحثه بحيث نفى منه الضعيف أو المرسل أو المنقطع . وكان جل اعتماده على كتب





الصحاح الستة مع بعض المختارات الأخرى ، وقد آلى على نفسه أن يخرج كل ما ساقه من الأحاديث وأن يعتمد على شروح العلماء الثقات ، الأمر الذي أضفى على بحثه العمق والشمول والاستقصاء .

وعني الباحث في الباب الثالث بدراسة جوانب الصورة الفنية كما استقرت في نفسه بعد طول صحبة لأحاديث الرسول ﷺ ، فجعل دراسته في قسمين :

تناول في أولهما وسائل التصوير الفني وقد حصرها الباحث فيما يأتي :

التصوير بالوصف ، التصوير بالقصة ، التصوير بالموازنة ، التصوير بالاستعارة ، والتشبية والكناية .

أما القسم الثاني من هذا الباب فكان دراسة تحليلية من خلال الأحاديث النبوية لعلاقات التصوير الفني ، فاهتم الباحث بدراسة علاقة التصوير بالنفس ، وعلاقته بالبيئة والمجتمع ، وعلاقته بالحس في أشكاله المختلفة .

وليس من شك في أن الباحث بهذا العمل العلمي الجليل قد أضاف جديداً إلى المكتبة الإسلامية ، وهيأ لنا دراسة تعتمد على المنهج العلمي القديم ، وعلى المصادر الحديثية الكبرى ، وعلى منجزات النقد الأدبي الحديث ، تجلو لكل مسلم روعة البيان في حديث رسول الله ﷺ محللة معللة ، وليست غائمة مبهمة كما نجدها في كتابات كثير من الباحثين الذين يرددون كلاما بعضه من بعض يعتمد على وصف الظواهر دون تحليلها أو استقصائها ودون استخدام وسائل النقد الأدبي الحديث التي تعين على إدراك المعنى الكلي لجمال التصوير في التعبير .

والله أسأل أن ينفع بهذا العمل الذي كان خالصاً لوجه الله ، وأن ينفع بصاحبه علما وعملا ، وهو المستعان والمأمول .

**محمد مصطفى هدارة**

**وكيل كلية الآداب للدراسات العليا والبحوث بجامعة الاسكندرية**

**ورئيس قسم اللغة العربية وقسم الدراسات الصوتية**

١٣ من رمضان المبارك ١٤٠١ هـ ١٤ يوليو ١٩٨١م

## مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدا عبده ورسوله .

**﴿ يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله حقّ تقاته ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون﴾ . ﴿يا أيها الناس اتّقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيرا ونساءً واتّقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إنّ الله كان عليكم رقيباً﴾ . ﴿يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله وقولوا قولا سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾ .**

### أما بعد :

فإنّ موضوع بلاغة الحديث شغل ذهني منذ أكثر من عشرين عاماً ، ولذلك فقد سعدت أيما سعادة عندما قدّر الله لي أن أتوفر على هذا الموضوع .

وكنت أتوقع أنّني سألقى عناء ومتعة على نحو ما ، ولكنّ الذي لقيته من العناء والمتعة فاق ما كنت أتوقع أضعاف المرات .

لقد سبق لي أن قرأت الكتب الستة خاصة ، وأقرأت بعضها وما كانت تبدو لي قسمات الجمال الساحرة في البيان النبوي كما بدت لي في هذه القراءة الجديدة حتى كنت أظن أنني أقرأ الحديث المشهور الذي قرأته واستشهدت به مراراً أظنّ أنّني أقرؤه للمرة الأولى .





والشيء الذي أثـار عجبي أن يكون هذا الموضـوع الشيّق بعيداً عن اهتمام العلماء والمتذوقين من الأدباء هذه المدة الطويلـة . ويبـدو أنّ بلاغـة القـرآن واستجلاءها والكشف عن وجوه الإعجاز فيه شغلت أصحاب الطاقات وصرفتهم عن الخوض في هذا الميدان البكر الثر البديع .

***

كان عنوان البحث هو : « التصوير الفنّي في الحديث النبوي »

وقدمت للبحث بتمهيد درست فيه ثلاث قضايا :

* أما أولاها ، فكانت إشارة إلى أن الحديث النبوّي نصّ أدبيّ يرتفع في أدبنا العربي إلى أعلى مستوى يمكن أن يبلغه بيان البشر . وذكرت أنّ هناك جناية على مناهج تدريس الأدب في مراحل التعليم في بلادنا عندما يهضم الحديث النبوي أدبيا .

* وكانت القضية الثانية توثيق نصه ، وقد قررت أنّ الحديث ظفر بجهود ضخمة في التحرّي والتثبّت من نسبته إلى النبيﷺ على وجه لم يظفر به نصّ آخر . . . . حتى إنّ الحديث الذي يحكم العلماء بضعفه أوثق بكثير من النصوص الشعرية والنثرية التي تنسب لشعراء الجاهلية وصدر الإسلام ، وتصدّيت لشبهة كان يشغب بها كثير من الناس على الحديث النبوي وهي رواية الحديث بالمعنى ، وبينت المذهب الحقّ في هذه المسألة .

* وكانت القضية الثالثة عرض جهود الباحثين المتقدمين والمحدثين في دراسة الصورة الفنية في الحديث فمررت بأهم القمـم في تاريخنـا الأدبـي أبحـث عن الصـورة الحديثية في آثارهم ونظرت فيما وقعت عليه يدي من إنتاج المحدثين في هذا الموضوع وقوّمته سالكا في هذا العرض مسلك الإيجاز .

وجعلت هذا البحث في ثلاثة أبواب كما يلي :

**١ ـ الباب الأول وكان في الصور الحسية والمعنوية في عالم الغيب**

وقد أوردت نماذج من الصور المتعلّقة بالغيب في أهمّ موضوعات هذا العالم.

وكانت هذه الموضوعات هي:

الله جلّ جلاله، ويوم القيامة، والجنّة والنّار، والملائكة، والشيطان، والفتن، ومتفرقات.

**٢ ـ والباب الثاني كان في الصور الحسيّة والمعنويّة في عالم الشهادة.**

وقد أوردت نماذج من الصور المتعلقة بأهمّ موضوعات هذا العالم. وكانت هذه الموضوعات هي: الصلاة والصدقة والزكاة والصوم والحجّ والجهاد والذكر والدعاء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبرّ الوالدين وصلة الأرحام والمؤمن والمسلم والإنسان.

وكنت في دراستي للصور في هذين البابين أهتّم بدراسة الصورة الفنّية وتحليلها متحرّراً من كل الأطر والقوالب التي حدّد علماء البلاغة.

فلم يكن من همّي تبيان نوع الصورة إن كانت استعارة تصريحية أو تبعية، مرشّحة أو مجرّدة أو كانت هذه الصورة تشبيهاً من نوع تشبيه العقليّ بالحسّي أو تشبيه الحسّي بالعقليّ.

ذلك لأنّني في استعراضي لجهود العلماء في دراسة الصورة البيانيّة وجدت أن هذه الأطر في كثير من الأحيان كانت تشغل الدارسين عن التعّمق في دراسة الصورة ذاتها وتحليلها.

لقد كنت أحاول أن أنقل ما تمتلىء به نفسي من تفاعل بالصورة واستحسان وتذوّق لها، وهذا النهج هو الذي انتهت إليه دراسات الأساليب لاستكناه نواحي الجمال الفنّي في الأسلوب.

**٣ ـ والباب الثالث كان في دراسة جوانب من الصورة الفنّية**

بحثت فيه وسائلها من موازنة وقصة وتشخيص وما إلى ذلك، ودرست علاقاتها بالنفس والبيئة والمجتمع والحسّ.

وختمت البحث بخاتمة موجزة :

وكانت مصادري في هذه الدراسة كتب السنة الستة وهي صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ، ورجعت في أحيان كثيرة إلى مسند أحمد وموطأ مالك وسنن الدارمي كما رجعت إلى بعض المختارات الحديثية مثل « رياض الصالحين » و«الترغيب والترهيب » وغيرهما .

٤ ـ وأرى من المفيد أن أنبه إلى أمر مهم قد يسبق إلى الذهن عند قراءة عنوان الرسالة ( التصوير الفني في الحديث النبوي ) وهو أنَّ هذا البحث مضاهاة لعمل الأستاذ النابغة الذواقة سيد قطب رحمه الله رحمة واسعة في كتابه القيّم : «التصوير الفني في القرآن »[١] .

ومع اعترافي الكبير بفضله عليّ وعلى جيلي الذي نشأت فيه فإنني أحب أن أقرر هنا في هذه المقدمة أنّ هذا البحث يختلف اختلافا بينًا عن اتجاه كتاب الأستاذ سيد من حيث المنهج والمعالجة .

رحم الله الأستاذ سيد قطب وجزاه عن الفكر الإسلامي الحديث أطيب الجزاء .

٥ ـ وأخيراً فإنني أود أن أذكر للقراء الكرام أن النصوص الرائعة النبوية التي سيقفون عليها في هذا الكتاب ليست هي كل النصوص التي اخترتها في أثناء قراءتي في كتب السنة ، بل هي نماذج مختارة مما اخترته . وتقوم في نفسي رغبة ـ يسرّ الله تحقيقها ـ في أن أصدر كتاباً يجمع هذه النصوص التي تجمعت معي من خلال هذه القراءة ، وهي محفوظة عندي في جزازات ، ولن يكون في هذا الكتاب تحليل ولا تبويب . إنّ في ذلك تيسيراً على دارسي الصورة في الحديث النبوي في وفرة من الأمثلة . . . وكم من مشروعات نافعة تقوم في الذهن . . . ولكنني لا أجد الوقت اللازم لها . اسأل الله التوفيق والسداد إنه سبحانه نعم المولى ونعم النصير .

---

(١) درست هذا الكتاب في أثناء تعريفي بكتاب « في ظلال القرآن » في كتابي « لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير » .

ولا يفوتني أن أقدم الشكر موفوراً لأخي وأستاذي الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة الذي أدين له بفضل كبير في هذا البحث، فلقد كنت ألقى مدة إقامتي في القطر الحبيب العزيز : مصر من إكرامه وإرشاده ومعونته ما لا أستطيع القيام بواجب شكره، فجزاه الله خير الجزاء . وكذلك فإني أشكر كل من أعان على إخراج هذا البحث سواء بإعارتي بعض المراجع أو بمساعدتي في تصحيح تجارب الطبع .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

**٢٠/ ذي القعدة سنة ١٤٠٠هـ**

**وكتبه**

**محمد بن لطفي الصباغ**


التصوير الفني
في
الحديث النبوي

# تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

## ١ ـ الحديث نصّاً أدبياً

هناك صفحات مشرقات من تاريخنا الأدبيّ ضمت نصوصاً جميلة جداً من روائع البيان الاسلامي . . . هناك كنوز ثمينة في تراثنا جنت عليها مناهج تدريس الأدب ودراسته ، فاختفت عن أنظار دارسي الأدب . . . لا من زمن قريب . . . بل من عهد موغل في القدم .

إن في تراثنا الفكريّ رصيداً عظيماً لم يراجعه كثير من الخلف ، وفي مدوّنات السنّة نصوص أدبية عالية لم تمتدّ إليها أيدي الدارسين في حدود علمي . . . وإن كانت امتدت إليها بعض الأيدي فلم يكتب لهذه الدراسات أن تنتشر وتروج في الناس .

وفي بطون كتب التاريخ نصوص رائعة وقصص ومحاورات وفي كتب السيرة أيضا روائع مدهشة . . . لم يدربها كثير من المشتغلين بالأدب . . . وقد سبق أن رأيت كتابا في النصوص الأدبية العربية لمؤلف هندي هو العلامة الأستاذ أبو الحسن الندوى جمع فيه نصوصا من هذا القبيل . . .

ولا بد من تحديد لكلمة ( الحديث ) في مطلع هذه الدراسة لتتضح المعالم . .

عرّف علماء المصطلح ( الحديث ) بأنه قول النبيﷺ وفعله وتقريره ووصفه . والذي يعنينا أول ما يعنينا هو قولهﷺ .

ولكنّني مع ذلك أودّ أن أقرّر أنّ في مدوّنات السنّة نصوصا جميلة ندر أن تقف

على مثلها في تراثنا . من ذلك الحديث الذي عرف بحديث الإفك[1] . ومن ذلك حديث الثلاثة الذين خلّفوا[2] وهذه النصوص ليست من كلام النبيّ ويصدق عليها تعريف الحديث بمفهومه الاصطلاحي . إنّ مثل هذه النصوص لن نعتمد عليها كثيراً في دراستنا ولكنّنا نودّ أن ننبه إلى جمالها وضرورة العناية بها . . . إنهّا من كلام الصحابة وهم أئمّة البيان وأرباب اللغة . . لا سيما وأن كثيراً منها جاء في أثناء حوار قام بين الرسولﷺ وبين واحد من هؤلاء الصحابة . . . فكلام الرسولﷺ جزء من هذا الحوار الجميل الحي .

وقد نجد في بعض هذه النصوص كلاماً لصحابيّ أمام النبّي يقره عليه .

الحديث النبوي نص أدبيّ في الذروة من البيان ، ولا يرتفع فوقه في مجال الأدب الرفيع إلا كتاب الله بلاغةً وفصاحةً وروعةً .

وما أجود ما قال فيه الجاحظ:

« هو الكلام الذي قلّ عدد حروفه ، وكثرت معانيه ، وجلّ عن الصنعة ونزه عن التكلف . . . واستعمل[3] المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب والوحشيّ ، ورغب عن الهجين السوقيّ ، فلم ينطق إلاّ عن ميراث حكمة ، ولم يتكلّم إلا بكلام قد حفّ بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، وييسرّ بالتوفيق ، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة ، وغشّاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام . . . لم تسقط له كلمة ، ولا زلّت به قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذّ الخطب الطوال بالكلم القصار . . . ولا يحتجّ إلاّ بالصدق ولا يطلب الفلج إلاّ بالحق ، ولا يستعين بالخلابة . . . .

---

(١) أنظر هذه القصة الممتعة في صحيح مسلم ١٧/ ١٠٢ ١١٦ ، وقد درسها النووي واستخرج منها ٥٤ فائدة .

(٢) انظر الحديث في صحيح مسلم ١٧/ ٨٧ وقد استخرج منه النووي ٣٧ فائدة وانظره في «رياض الصالحين » باب التوبة .

(٣) الضمير هنا يعود إلى كلمة « الرسول » المذكورة في الكلام الذي حذفته وأشرت إلى حذفه بهذه النقط .

ولم يسمع الناس بكلام قطُّ أعمّ نفعا ، ولا أقصد لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح معنىً ، ولا أبين في فحوى من كلامه ﷺ »[1] ثم قال :

« . . . ولعلّ بعض من يتّسع في العلم ولم يعرف مقادير الكلام يظن أنّا تكلّفنا له . من الامتداح والتشريف ، ومن التزيين والتجويد ما ليس عنده ولا يبلغه قدره كلاّ والذي حرّم التزيد على العلماء ، وقبّح التكلف عند الحكماء ، وبهرج الكذابين عند الفقهاء ، لا يظن هذا إلا من ضل سعيّه »[2] .

وقال أبو حيّان يصف بلاغة السنة :

« والثاني سنة رسول الله ، فإنها السبيل الواضح ، والنجم اللائح ، والقائد الناصح ، والعلم المنصوب ، والأمم المقصود ، والغاية في البيان ، والنهاية في البرهان ، والمفزع عند الخصام ، والقدوة لجميع الأنام »[3] .

وفصاحته ﷺ أمر لا يشك فيه عاقل ، ذلك أنّ القوم الذين أرسل إليهم هم أئمة البيان ، وهم في خصومته قوم لُدّ ، لا تنقطع بهم حجّة ، ولا يعوزهم منطق بليغ ، قد نعتوا الرسول بأوصاف عديدة كيداً ومخاصمةً ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينعتوه بما ينال من فصاحته لأنهّم يعلمون أنّ مثل هذه الفرية زائفة باطلة لدى دهماء الناس قبل خاصّتهم من ذوي البصر بالأساليب الجميلة .

وقد كان للنشأة اللغوية الصافية التي نشأها ﷺ تأثير في فصاحته ، فهو من هاشم من قريش ، وأخواله من بني زهرة واسترضع في بني سعد بن بكر .

وخالط في حياته بطون قريش والأنصار ، فكانت هذه النشأة اللغويّة النقيّة الخالصة صقلت موهبة الرسول الفذّة التي لا نظير لها في المواهب البشريّة . . . وتتمثل هذه الموهبة في فطرة صافية ، وذهن جوّال ، وبصر نفّاذ ، ونفس مجتمعة فاضلة وإحساس دقيق مرهف ، وبديهة حاضرة .

(١) «البيان والتبيين » ٢/ ١٧ .
(٢) البيان والتبيين ٢/ ١٨
(٣) البصائر والذخائر ١/ ٨ .





وليس غريبا أن يجتمع ذلك كله لرسول الله ﷺ لأنَّ الله أعلم حيث يجعل رسالته . وكذلك فإنّ الذي مكّن لفصاحته ﷺ أن تنمو وتقوى ويشتد أسرها تأثر الرسول ﷺ بأسلوب القرآن ، وذلك أمر طبيعيّ ، فعلى قلبه المتصّل بجلال الله تنزّل القرآن :

﴿ نَزَلَ بِهِ الروحُ الأمينُ عَلَىَ قَلْبِكَ لِتكُونَ مِنَ المُنْذِرينَ ﴾(١)

ومن لسانه تلقّاه المسلمون :

﴿ يا أيهُا الرسولُ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إليكَ مِنْ ربِّكَ ﴾(٢)

وبالقرآنِ كانَ ﷺ يحكم بين الناس ﴿ وأنِ آحكُمْ بَيْنَهُمْ بما أَنْزَلَ اللهُ ﴾(٣)

وبتلاوته أمر ، فكان يقرؤه آناءَ الليل وأطراف النهار :

﴿ وأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المُسْلِمينَ وأَنْ أَتْلُوَ القُرْآنَ ﴾(٤)

لقد توافرت للحديث كلّ أسباب الجودة ، وسنحاول إيضاح ذلك بإيجاز في أدائه ﷺ وفي معنى الحديث وأسلوبه .

لم تكن فصاحته ﷺ مقصورة على جودة الأسلوب وعمق المعنى ، بل جاوزت ذلك إلى الأداء ، فلقد كان إلقاؤه الحديث بالغاً درجة الكمال ، وساعده على ذلك أنّه صلوات الله عليه كان ضليع الفم ، وكان يستعمل فمه جميعه إذا تكلّم ، ولا يقتصر على تحريك الشفتين فحسب .

وكان عليه الصلاة والسلام طويل السكوت ، لا يتكلّم في غير حاجة ، وإذا تكلّم لم يسرد سرداً ، بل فصّل وتمهّل ، وأبان ورتّل .

---

(١) الشعراء ١٩٤
(٣) النحل ٤٤
(٢) المائدة ٤٩
(٤) النمل ٩١ - ٩٢

روى البخاريّ والترمذّي عن أنس أنّ النبيﷺ كان إذا تكلّم بكلمة أعادها ثلاثا حتّى تفهم عنه[1] .

ويعطي الكلام ما يستحق من اللهجة ، حتى إنّ ما يختلج في صدره كان يبدو على وجهه . وصفه جابر فقال : كان إذا خطب احمرّت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنّه منذر جيش يقول : صبحكم ومساكم[2] .

وكان يستخدم الإشارة لتلفت الأنظار ، وتنبّه الغافل ، وتعين على الحفظ والتذكّر .

أمّا معاني الحديث ففيها صفات قلّ أن تجتمع في كلام سواه ومن هذه الصفات الغنى في الأفكار ، والعمق ، والجدّة ، والإحكام ، والغوص في أغوار النفس الإنسانية ،وملامسة أبعاد هذه النفس ، مما مكّن لهذه المعاني أن تكون خالدة على وجه الدهر .

إنّنا نرى في الحديث غنى مدهشاً في المعاني ، فمعاني الحديث الواحد كثيرة متنّوعة ، وإذا نظرنا إلى معاني الأحاديث بشكل عامّ وجدنا أن السنّة لم تترك معنى من معاني الحياة والعقيدة والتشريع والخلق إلا وقرّرته وفصلّت فيه القول .

وعمق هذه الأفكار واضح من موازنة معاني الحديث بمعاني الشعر الجاهليّ والسجع المعروف في ذلك الزمان قال الأستاذ الرافعي في الحديث :

« إنه كلام كلما زدته فكراً زادك معنى »

وكثير ممّا في هذه الأحاديث من معانٍ جديد جدّة فاجأت الدنيا كلها ، ولم تفاجىء العرب وحدهم . فالدعوة إلى المساواة دون تمييز مثلا معنى جديد تأخذه من قوله ﷺ : « أيها الناس كلّكم لآدم وآدم من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربّي على عجميّ فضل إلا بالتقوى »[3] .

---

(١) رياض الصالحين ٣٠٧ والترمذي ٤/ ٣٠٤ و «صحيح البخاري» ١/ ٢٥

(٢) رواه مسلم ٣/ ١١

(٣) رواه أحمد وغيره بسند صحيح (أنظر «الحديث النبوي» ص ١٢٦).





وكذلك فإنّ معنى الحديث يلمّ بالحقيقة من كلّ أطرافها ، فلا يندّ منه جانب . وهذا ما نريد من كلمة الإحكام . ومما يتصل بالإحكام الدقة المتناهية والانسجام والتسلسل . فكلامه صلوات الله عليه وسلامه بريء من التنافر والتناقض والاختلاف .

ومعاني الحديث تغوص في أعماق النفس الإنسانيّة وتؤثر فيها تأثيرا كبيرا . ومعاني الحديث إنسانية لم تقيد بظرف الزمان ولا بظرف المكان ، فلم ينظر فيها إلى العرب وحدهم ، ولا إلى الناس في زمن النبوة فحسب ، ولا إلى جزيرة العرب وحدها ـ ولا إلى طبقة دون طبقة ، وإنما كانت هذه المعاني تنظر إلى الإنسان من حيث هو إنسان .

وأسلوب الحديث النبويّ يمتاز بالجزالة والوضوح ، والدقة في الوصف والتعبير ، والإبداع في التشبيه والتصوير ، والموسيقى الرائعة في الألفاظ والإيجاز في القول ومجانبة التكلّف .

* فمن خصائص أسلوب الحديث جمعه بين الجزالة في المفردات والديباجة والوضوح في الدلالة وإذا اقترن الوضوح بالجزالة في الكلام كان قطعة رائعة من البيان الساحر وأضحى صالحا لأن يلقى على جماهير الناس ، وإنه حينئذ لخليق أن يفتح مغاليق قلوبهم إلى النور ، ويقودهم على درب الخير . وهذا ما نقرأه في السيرة النبوية من تأثير الحديث في الصحابة واستحواذه على إعجابهم .

* ومن هذه الخصائص بعده عن التكلّف مع تجديده في أساليب النثر المألوفة فلا يجد القارىء التكلف في سجع ، ولا التصنّع السمح في صورة ، بل تطالعه سجيّة مرسلة ، وأسلوب حر من كل قيد خال من كل زخرف مستكره . وأوضح مثال على ذلك موقف الرسول ﷺ من السجع الذي كان سمة النثر الفنّي في ذلك الزمان .

* ومن خصائص أسلوب الحديث القدرة الرائعة على التصوير مما سنفصّل القول فيه في هذا البحث .

*وكذلك فإن الموسيقى الموفقة العذبة التي تنساب من العبارة الحديثيّة من الخصائص الواضحة في أسلوب الحديث .

* ومنها الإيجاز في القول وقد قرر صلوات الله عليه وسلامه أنه أعطى جوامع الكلم .

إلى غير ذلك من الخصائص التي تجعل أسلوب الحديث في القمة من أساليب البيان البشري .

إن هذه المنزلة السامية والمنزلة الرفيعة في البلاغة واحتلاله من الأدب المتألق الممتاز أعلى المراتب . . . إن ذلك كله يدفعنا إلى أن نخصه بهذه الدراسة التي نرجو أن نوفق فيها إلى تقديم خدمة لحديث رسول الله ﷺ وللأدب العربي الذي يمثل منه الحديث قمة بيانيّة سامية .

### ٢ ـ توثيق نصه

تعريف الحديث في اصطلاح المحدثين هو ما أثر عن النبي ﷺ من قول وفعل وتقرير وصفه .

والذي يعني الدارسين للحديث المهتمين بالأدب واللغة والبيان إنما هو قوله ﷺ وإن كان ـ كما سبق أن ذكرنا ـ في مدونات السنة نصوص للصحابة هي من عيون الأدب الجميل . وإننا لنقرر بكثير من الجزم أن الحديث النبوي قد ظفر بجهود ضخمة في التحري والدقة والتثبت من صحة نسبته إلى النبي ﷺ على وجه لم يظفر بها نص من النصوص الأخرى .

إن الحديث الذي يحكم العلماء بضعفه أوثق بكثير من النصوص الشعرية والنثرية التي تنسب لشعراء الجاهلية وصدر الإسلام ، وهي عند كثير من المشتغلين بالأدب من المسلمات التي لا تحتمل شكا . والمحدثون عندما يحكمون لحديث بأنه صحيح أو حسن فإن هذا الحديث يكون من أوثق النصوص لاصطناعهم وسائل في منتهى الدقة والإحكام في توثيقه .

وكان موقف العلماء من مجموعة الأحاديث المنقولة على مختلف درجاتها الموقف السليم ، فلم يقبلوها كلها ، لأنهم لو فعلوا ذلك لحرفوا دين الله ، ففيها المكذوب ، ولم يتركوها كلها ، لأنهم لو فعلوا ذلك لضيعوا دين الله ، ولكنهم شمروا عن ساعد الجد ، وصرفوا في سبيل ذلك أوقاتهم كلها ، فتتبعوا أحوال الرواة التي تساعد على عملية النقد ، وتمييز الخبيث من الطيِّب ، ودوَّنوا في ذلك المدوَّنات ، وأحصوا فيها تفصيلات حياة الرواة ذكروا في ترجمة كل راو : متى ولد ؟ وبأي بلد ؟ وما منزلته في الدين والأمانة والعقل والمروءة والحفظ ؟ ومتى شرع في طلب العلم ؟ وكيف سمع ؟ ومع من سمع ؟ وهل رحل وإلى أين ؟ وذكروا شيوخه الذين يحدث عنهم وبلدانهم ووفياتهم وفصلوا القول في أحوال الشخص الواحد تفصيلا يدل على التتبع الدقيق لكل حوادث حياته ، فقد يقبلون رواية شخص في أول حياته ويردونها في آخرها لأنه اختلط أو يقبلون رواية رجل عندما يروي عن أبناء بلده لأنه يعرفهم ، ويردون روايته عندما يروي عن الآخرين لقلة معرفته بهم .

قال ابن أبي حاتم :

« وجب الفحص عن الناقلة والبحث عن أحوالهم ، وإثبات الذين عرفناهم بشرائط العدالة والتثبت في الرواية مما يقتضيه حكم العدالة في نقل الحديث وروايته بأن يكونوا أمناء في أنفسهم علماء بدينهم ، أهل ورع وتقوى وحفظ للحديث وإتقان ، وتثبت فيه ، وأن يكونوا أهل تمييز وتحصيل ، لا يشوبهم كثير من الغفلات ، ولا تغلب عليهم الأوهام فيما حفظوه ووعوه . . . . »[1]

ووضعوا قواعد لنقد المتن وأحكموها ، حتى يتبين لهم الحديث الصحيح من الضعيف . وكان موقفهم تحقيقا لقول عمرو بن قيس ينبغي لصاحب الحديث أن يكون مثل الصيرفي الذي ينقد الدراهم فإن الدراهم فيها الزيف والبهرج وكذلك الحديث[2] .

---

(١) مقدمة الجرح والتعديل لابن أبي حاتم صفحة ٥ .

(٢) الكفاية للخطيب البغدادي ٥٦٠ .




قال الأستاذ المعلمي اليمانيّ :

« فلا تكاد تجد حديثاً بيِّن البطلان إلا وجدت في سنده واحداً أو اثنين أو جماعة قد جرحهم الأئمة ، والأئمة كثيراً ما يجرحون الراوي بخبر واحد منكر جاء به فضلا عن خبرين أو أكثر . ويقولون للخبر الذي تمتنع صحته أو تبعد : « منكر » أو «باطل »[1] » .

وهكذا فقد استطاع هؤلاء العلماء أن ينفوا عن أحاديث رسول الله المكذوب الموضوع ، وأن يأخذوا بالأحاديث الثابتة السليمة ، وبذلك تحقق وعد الله من حفظ هذه الشريعة وحمايتها من كل ما أصاب غيرها من عوامل التحريف والبطلان .

حتى نقل الأستاذ المعلمي اليماني أن المستشرق مرجليوث قال :

«ليفتخر المسلمون ما شاءوا بعلم حديثهم »[2] وما زالوا في جد واجتهاد حتى استطاعوا أن يصلوا إلى قواعد نقدية راقية ، بما يميزون الخبيث من الطيّب من الحديث . وكانت هذه القواعد أرقى ما يمكن أن يصل إليه عقل بشري في تحقيق نسبة الأقوال إلى أصحابها ، وقد شهد بذلك القريب والبعيد ، والصديق والعدو .

قال ابن قتيبة يمدح أهل الحديث :

« . . . . التمسوا الحق من وجهته ، وتتبعوه من مظانه ، وتقربوا إلى الله باتباعهم سنة رسول الله ﷺ ، وطلبهم لأخباره برا وبحرا وشرقا وغربا . . . ولم يزالوا في التنقير عنها ، والبحث لها ، حتى عرفوا صحيحها وسقيمها ، وناسخها ومنسوخها ، وعرفوا من خالفها إلى الرأي ، فنبهوا على ذلك حتى نجم الحق بعد أن كان عافيا ، وبسق بعد أن كان دارسا ، واجتمع بعد أن كان متفرقا ، وانقاد للسنّة من كان عنها معرضا ، وتنبّه عليها من كان غافلا . . . وقد يعيبهم الطاعنون بحملهم الضعيف وطلبهم الغريب ، وفي الغرائب الداء ، ولم يحملوا الضعيف

---

(١) الأنوار الكاشفة ٦ ـ ٧ .

(٢) صفحة ب من مقدمة الجرح والتعديل .





والغريب لأنهم رأوهما حقا ، بل جمعوا الغث والسمين ، والصحيح والسقيم ليميّزوا بينهما ويدلّوا عليهما »[1] .

ومما يبينّ لنا مدى توثيق الحديث أن نذكر الشروط الخمسة التي يجب أن تتوافر في الحديث ليكون الحديث صحيحا وهي :

١ ـ إتصال السند
٢ ـ عدالة الرواة
٣ ـ ضبط الرواة
٤ـ سلامة الحديث من الشذوذ
٥ ـ سلامة الحديث من العلة .

فإن خلا من السند راو واحد سقط اعتبار الحديث وعدّوه ضعيفا ، والعدالة يشمل معناها جميع الصفات التي تشترك في تكوين الثقة بصدق الراوي من حيث العقيدة والقيام بأوامر الشرع واجتناب ما نهى عنه وترك كل ما يخل بالمروءة ، والاتصاف بمحاسن الأخلاق والورع والتقوى ، والضبط يشمل معناه كمال الملكات العقلية والنباهة وعدم الغفلة واليقظة وحسن الفهم وجودة الحفظ والمعرفة بأحوال الناس وصفة الضبط من أهم الصفات التي تجعل الحكم على الحديث موضوعيًا لا يتأثّر بعوامل أخرى خارجيّة ، فليس الصلاح كافيا ليكون الراوي ثقة مقبول الرواية .

قال عليّ بن المديني : سئل يحيى بن سعيد القطّان عن مالك بن دينار ومحمد ابن واسع وحسّان بن أبي سنان فقال :

« ما رأيت الصالحين في شيء أكذب منهم في الحديث[2]

وأورد الإمام مسلم الجملة السابقة عن يحيى بن سعيد في مقدمة صحيحة كما يأتي :

« لم نر الصالحين في شيء أكذب منهم في الحديث ، ولم نر أهل الخير في شيء أكذب منهم في الحديث »[3] .

---

(١) تأويل مختلف الحديث ٧٣ ـ ٧٤ وانظر تنزيه الشريعة ١/ ١٦ .
(٢) الميزان ٤/ ٥٨ .
(٣) صحيح مسلم ١/ ١٣ ـ ١٤ .

وعلّق مسلم على ذلك بقوله : « يجري الكذب على لسانهم ولا يتعمدون الكذب » وقال الحافظ العراقي :

« وهذا يحتمل تأويلين :
أحدهما : أنهم يحسنون ظنهم بمن يحدثهم ولا يميزون بين الصحيح والضعيف .
والثاني : أن يراد بذلك من ينسب للصلاح وليس بصالح »[1] .

وسلامة الحديث من الشذوذ أمر يعود إلى المتن ، أي لا بدّ أن يكون المتن مطمئنا إليه بعيدا عن كل ما يثير الشكّ في صحّة الحديث ، وذلك بأن لا يخالفه رواة أوثق من رواته ، لأن الشاذ هو ما يخالف فيه الثقة من هو أوثق منه وسلامة الحديث من أي علة فادحة لا يعرفها إلا المختصون. هذا هو الحديث الصحيح .

أما الحسن فهو ما توافرت فيه شروط الحديث الصحيح إلا أن راويه خفيف الضبط وهناك في نقد متن الحديث قواعد كثيرة أشار إليها العلماء[2] . من مثل ركاكة الأسلوب وفساد المعنى وأن يكون مخالفا للحس والمشاهدة أو مخالفا لمقصد من مقاصد الشريعة أو مخالفا لصريح القرآن أو مخالفاً لحقائق التاريخ المعروفة أو ما إلى ذلك.

أقول: أين نجد هذه الدقة والتثبت وشدة التحري؟ أين نجد ذلك كلّه أو بعضه في النصوص الأخرى؟ .
وهناك شبهة لا بد من إلقاء الضوء عليها لبيان وجه الحق في هذا الموضوع، وهي: إذا كان جمهور علماء الحديث ذهبوا إلى جواز رواية الحديث بالمعنى أفلا يحتمل أن يكون الحديث منقولا بالمعنى، وعندئذ فليس الأسلوب أسلوب النبيﷺ .

---

(١) الباعث على الخلاص من حوادث القصاص بتحقيق محمد الصباغ ص ١٤٢ .
(٢) من أشهر العلماء الذين تعرضوا لهذا الموضوع ووفوه حقه الإمام ابن القيم في كتابه المنار وقد لخصه العلامة ملا علي القاري في كتاب «الأسرار المرفوعة». فقد ذكر قواعد عدة . وقد نقل الشيخ طاهر الجزائريّ عن الأئمة الشيرازيّ والغزاليّ والقرافيّ نقولا جيّدة في نقد المتن (أنظرها في توجيه النظر ص ٨٢) وانظر كتاب الأسرار المرفوعة بتحقيقي وكتاب الحديث النبوي ٣٢٥ ـ ٣٣٢.

والجواب :

لا يجوز أن نهدر نصوصا جميلة رائعة أيّا كان قائلها. شهد بسحرها البالغ عمالقة في التذوّق من أمثال الجرجاني وحلّلوا بعضا منها . . . من أجل ذلك فإننا نرى أن هذه النصوص تستحق الدراسة . . . فإن لم يكن ـ كما تزعم هذه الشبهة ـ للنبي ﷺ لفظها كاملا فإن له معناها ومعظم لفظها وغاية ما يفعل الراوي أن يضع لفظا محل لفظ في أكثر الأحيان .

ولا خلاف بين أهل العلم بالحديث في أن المحافظة على لفظ الحديث ونصه كما ورد عن رسول الله ﷺ أمر جليل يحرص عليه أشد الحرص ، وأنه الأولى بكل ناقل والأجدر بكل راو[1] .

وقد اتفق العلماء على أن الراوي إذا لم يكن عالما بالألفاظ ومدلولاتها ومقاصدها ، ولا خبيرا بما يحيل معانيها ولا بصيرا بمقادير التفاوت بينها لم تجزله رواية ما سمعه بالمعنى .

هكذا نقل ابن الصلاح[2] والنووي[3] وغيرهما[4] ، الاتفاق عليه .

قال الغزالي :

« نقل الحديث بالمعنى دون اللفظ حرام على الجاهل بمواقع الخطاب ودقائق اللفظ .

أما العالم بالفرق بين المحتمل وغير المحتمل ، والظاهر والأظهر ، والعام والأعم ، فقد جوز له الشافعي ومالك وأبو حنيفة وجماهير الفقهاء أن ينقله على المعنى إذا فهمه »[5] .

(١) جامع الأصول لابن الأثير ١/ ٥١ .
(٢) علوم الحديث لابن الصلاح ١٩٠
(٣) تدريب الراوي ٣١١
(٤) من أمثال الرامهرمزيّ في « المحدث الفاصل » ٥٣٠ والخطيب البغدادي في « الكفاية » ٢٦٤ والغزالي في « المستصفى » ١/ ١٦٨ وانظر « الرسالة » للشافعي ٣٧٠ ـ ٣٧١ و« توجيه النظر » للجزائري ص ٢٩٨
(٥) المستصفى ١/ ١٦٨

وقد أجاز الرواية بالمعنى عدد من الصحابة والتابعين من أمثال عليّ بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وأبي الدرداء وأبي هريرة والحسن البصريّ والشعبيّ والزهريّ وإبراهيم النخعيّ ومجاهد وعكرمة.

إذن فالعالم الخبير البصير أجاز له هؤلاء العلماء رواية الحديث بالمعنى بشروط ذكروها تضمن الدقة في إيراد الحديث دون زيادة ولا نقصان.

أما هذه الشروط فأهمها ما يأتي:

١ ـ أن يكون الراوي عارفا بدقائق الألفاظ، بصيرا بمقدار التفاوت بينها، خبيرا بما يحيل معناها، ضابطا لمعنى الحديث، عالما بالمحتمل وغير المحتمل، والظاهر والأظهر، والعام والأعم.

٢ ـ وأن يكون ذلك في خبر ظاهر. أما الخبر المحتمل فلا يجيزون روايته بالمعنى. لأنه ربما نقله بلفظ لا يؤدي مراد الرسول ﷺ.

٣ ـ وأن تكون رواية الحديث غير قاصرة عن الأصل في إفادة المعنى، وألاّ يكون فيها زيادة ولا نقصان.

وهناك نفر من العلماء منعوها على الإطلاق... منهم ابن سيرين وعليّ بن المدينيّ والقاسم بن محمد والقاضي عياض الذي يقول:

«ينبغي سدّ باب الرواية بالمعنى لئلا يتلسط من لا يحسن ممن يظن أنه يحسن، كما وقع لكثير من الرواة قديما وحديثا».

ويرى أبو بكر بن العربي المتوفى ٥٤٤هـ أن غير الصحابة ممنوعون من رواية الحديث بالمعنى، وإنما جاز للصحابة ذلك لاجتماع أمرين فيهم:

أحدهما: الفصاحة والبلاغة إذ جبلتهم عربية ولغتهم سليقة.

---

(١) أنظر «تدريب الراوي» ٣١٤ و«قواعد التحديث» ٢١١ و«الباعث الحثيث» ١٤٣.

والثاني : أنهم شاهدوا قول النبي ﷺ وفعله فأفادتهم المشاهدة عقل المعنى جملة ، واستيفاء المقصد كله ، وليس من أخبر كمن عاين[1] .

ويستدلّون بالحديث المشهور وهو : « نصر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلّغه كما سمعه ، فإنه ربّ مبلّغ هو أوعى من سامع »[2] .

ورأي الخيل بن أحمد رحمه الله أن من رواه بالمعنى فقد أزاله عن موضعه ومعرفة ما فيه[3].

ويستدلّون بامتناع بعض الصحابة عن رواية الحديث خوفا من التزيد والنقصان من أمثال صهيب والمنقع التميمي وغيرها[4] :

ويستدلّون بقولهم : إن المتأخر ربما استنبط من فوائد آية أو خبر ما لم يتنبه له السابقون من العلماء .

ويستدلّون بقولهم : لو جاز للراوي تبديل اللفظ الذي سمعه بلفظ نفسه كان للراوي الثاني أن يبدل اللفظ الذي سمعه من الراوي الأول بلفظ جديد . . . وإن كان ذلك في الطبقة الثالثة والرابعة فذلك يفضي إلى سقوط الكلام الأول لأنه إذا توالت التفاوتات كان التفاوت الأخير تفاوتا فاحشا بحيث لا يبقى بين الكلام الأخير والأول نوع مناسبة .

والحق أن هذه الأدلة فيها نظر ، وقد ردها العلماء الذين يرون جواز رواية الحديث بالمعنى كما يلي :

قالوا : أما قوله «فأداها كما سمعها » فالمراد حكمها لا لفظها ، لأن اللفظ غير معتد به .

---

(١) أحكام القرآن لأبي العربي ١/ ١٠

(٢) رواه أحمد وغيره بسند صحيح .

(٣) الباعث الحثيث ١٤٢ .

(٤) انظر « تحذير الخواص » الصفحات ١٦ و٢٨ و٣٦ وطبقات ابن سعد ٧/ ٦٣ وتذكرة الحفّاظ ١/ ٢-٨ .

ويدلّك على أن المراد من الخطاب حكمه قوله : «فربّ حامل فقه غير فقيه ، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه» ثم إن هذا الحديث نفسه قد نقل بألفاظ مختلفة .

وردّوا على استدلالهم بامتناع عدد من الصحابة عن رواية الحديث بأن هذا كان تورّعا منهم واحتياطا وقد وجدوا آخرين غيرهم من الصحابة يقومون بمهّمة رواية حديث رسول الله ﷺ فلم يتعينّ عليهم التّحديث .

وردّوا على الدليلين الأخيرين بأن من شروط رواية الحديث بالمعنى معرفة الراوي للألفاظ وكون الخبر ظاهراً وأن تكون هناك دقة في رواية الخبر بحيث لا تكون زيادة ولا نقصان، أما الدليل الأخير فهو وهميّ دون شك ، لأننا نعلم أن الحديث كتب معظمه في القرن الأول الهجري ، فلم تكن هناك وسائط في نقله ، والرواة الذين كانوا ينقلون الحديث عن طريق السماع كانوا يعتمدون على أوراق وأصول .

واستدل الجمهور على جواز رواية الحديث بالمعنى بأدلة منها :

١ ـ أجمع المسلمون على جواز شرح الشرع للعجم بلسانهم ، فإذا جاز إبدال العربيّة بعجميّة ، فلأن يجوز إبدال عربيّة بعربيّة أولى .

ونحن نعلم أنه لا تعبّد في لفظ الحديث ولا تحدّي وإنما المقصود فهم المعنى وإيصاله إلى الخلق ، وليس ذلك كالتشهدّ وما تعبّد فيه باللفظ كالدّعاء .

٢ ـ وقالوا : إن القصة الواحدة والخطبة الواحدة رواها الصحابة بألفاظ مختلفة ، ولم ينكر بعضهم على بعض فدلّ ذلك على الجواز .

وأورد أبو خيثمة والخطيب البغداديّ عن واثلة بن الأسقع قوله : « إذا حدّثناكم بالحديث على معناه فحسبكم »[1] .

---

(١) كتاب «العلم» لأبي خيثمة ١٣٤ و« الكفاية » للخطيب ٣٠٩

وقال قتادة : عن زرارة بن أوفى قال :

لقد لقيت عدة من أصحاب النبيﷺ فاختلفوا عليّ في اللفظ واجتمعوا في المعنى[1] .

٣ ـ واستدلّوا بما يروى عن ابن مسعود أنه كان يقول بعد رواية الحديث : قال رسول الله ﷺ كذا أو نحوه .

٤ ـ واستدلوا بأن كثيرا من الصحابة كانوا أميينّ لا يكتبون وقد رووا الأحاديث بعد زمان فلا بدّ أن تكون بعض الألفاظ قد بدلّت .

والذي نرجّحه أن رواية الحديث بالمعنى لم تقع كثيرا للأسباب الآتية :

* لأننا في حياتنا كثيرا ما ينقل بعضنا أقوال بعض معتمدين على السماع ، وغالبا ما تنقل هذه الأقوال بألفاظها كما نطق بها قائلوها ، وقد يتكلّف الناقل غير لهجته ليقلد المتحدث الأصلي ، فإذا غاب عن ذهنه لفظ كلمة أتى بما يدل عليها ، هذا ما يفعله النّاس العاديّون الصّادقون دائما في أحاديثهم . فما بالك بمن يروى حديث رسول الله ﷺ وكلامه دين .

لا شك في أنه سيكون أكثر تحريّا وأدقّ نقلا .

* ولأن التدوين بدأ في وقت مبكر وما زال ينمو حتى قامت به الدولة رسميّا أيّام عمر ابن عبد العزيز.

* ولأن حافظة العرب وكل أمة بدويّة حافظة مشهورة بسرعة الحفظ فقد نقلوا إلينا الشعر الجاهلي ، وقول النبيﷺ من روائع البيان التي يحرص الناس على حفظها وروايتها.

* ولأنهم لا يعدلون عن اللفظ النبوي إلا عندما ينسونه ، فيبدلون عندئذ لفظا بلفظ ، وهذا أمر هينّ لا سيما وأن الصحابة عرب .

(١) «تفسير القرطبي» ١/ ٤١١

* كل ذلك يجعلنا نظنّ أن بعض الأحاديث الطويلة هي وحدها التي رويت أجزاء منها بالمعنى .

أما الأحاديث القصيرة البليغة والأحاديث التي يتعبّد بها فهي منقولة بلفظها دون شك .

**٣ ـ عرض جهود الباحثين السابقين والمحدثين في دراسة الصّورة الفنيّة في الحديث :**

سيكون كلامنا هنا عرضا سريعا موجزا ، فهو موضوع تاريخيّ واسع ، ومن أجل ذلك فسأمر بأهم القمم في تاريخنا الأدبي . . . أبحث عندهم عن الصورة في الحديث .

ولقد مررت بمؤلفاتهم واستعرضتها من جديد فلم أجد أنهم توفّروا على دراسة الصّورة دراسة مستفيضة ولا مستقلة . لقد كان كلام الذين تحدّثوا موّزعا في مواطن قلّما يحلّل هذه الصّورة التحليل الأدبي الذي تستحقه ، وإن حللوا فلقد كانت التسميات التي وضعوها لأقسام التشبيه والاستعارة متحكمّة في تحليلهم . لقد كان أكثرهم يورد النصوص الجميلة من الحديث كما سنرى في هذا الفصل ولا يعقّب عليها ولا يرتّبها فلم تكن الصور الفنيّة مجموعة على حدة . . . بل كانت ترد إلى جانب نصوص تعتمد السجع أو غيره مما يستحسنه المؤلفون .

***

ونبدأ بشيخ كتاب العربيّة أبي عثمان الجاحظ المتوفى ٢٥٥ ونودّ أن نذكر أن أكثر كلامه في الحديث كان في كتابه البيان والتبيّن ، وربمّا يكون خصّ هذا الموضوع بمزيد من التفصيل في كتبه الأخرى التي لم تصل إلينا ، هذا مع أنّ الجاحظ معتزليّ ، ومعلوم ذاك الصرّاع العنيف الذي كان بين المعتزلة وأصحاب الحديث، حتى كان كلٌّ من الفريقين يتوسّل إلى رجال السُّلطة لنصرته على خصومه .

إن الجاحظ الذي أشاد بالحديث كان يعيش في ظلال هذه الأوضاع المتوتّرة وللجاحظ اهتمام بالحديث وكأنه أراد أن يقطع الحجة على من يريد التشكيك به فلقد صنّف كتاباً في حجج الرسول ودلائله وشرائعه وسننه وإيراد علاماته وبرهاناته





ودلائله وآياته وصنوف بدائعه وأنواع عجائبه في مقامه وظعنه وعند دعائه واحتجاجه في الجمع العظيم[1]

قال الأستاذ الدكتور الحاجري :

« إذن فهو كتاب صنّف فيه الجاحظ معجزات الرسول التي ظهرت على يديه تثبيتا لنبّوته واحتجاجاً لدعوته كما صنعت بعد طائفة من المحدّثين الذين عنوا عناية خاصة بهذا النحو من التأليف كأبي نعيم الأصفهانيّ والبيهقي ، فهو بهذا أدنى إلى أن يكون كتاباً من كتب السُّنة ، وقد بقيت لنا من هذا الكتاب بقايا لا بأس بها احتفظت بها إحدى المجموعات التي عنى فيها باختيار قطع مختلفة من آثار الجاحظ »[2] .

وقد ذكر في الجزء الثاني من البيان والتبيين من كلام رسول الله ﷺ مما لم يسبقه إليه عربي ولا شاركه فيه أعجميّ ولم يدّع لأحد ولا ادّعاه أحد مما صار مستعملا ومثلا سائرا[3] وأورد جملا عدّة .

ثم قارن بين قوله عليه السلام « لا تنتطح فيه عنزان » وقول عدي بن حاتم « لا تحبق فيه عناق »[4] ثم قال : «فلم يصر كلامه مثلا وصار كلام رسول الله ﷺ مثلا . »

ثم وصف الحديث بكلام رائع نقلته في مطلع هذا البحث وقال :

« قال محمد بن سلام قال يونس بن حبيب :

ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله ﷺ » .

ثم أورد عدة أحاديث وأورد بيتين من الشعر ووازن بينهما فقال :

فمن كلامه ﷺ حين ذكر الأنصار فقال :

---

(١) رسائل الجاحظ ١١٨ ط . الرحمانية ١٩٣٣

(٢) الجاحظ تأليف الدكتور الحاجري ص ٣١٦ط . دار المعارف سنة ١٩٦٣ .

(٣) البيان والتبيين ٢/ ١٥ .

(٤) أي أمر لا يعبأ به وثار لا يدرك .

«أما والله ما علمتكم إلا لتقلّون عند الطمع وتكثرون عند الفزع» وقال: «النّاس كلّهم سواء كأسنان المشط.»

و«المرء كثير بإخوانه ولا خير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له»

وقال الشاعر:

سواء كأسنان الحمار فلا ترى لذي شيبة منهم على ناشيء فضلا

وقال آخر:

شبابهم وشيبهم سواء فهم في اللؤم أسنان الحمار

وإذا حصلت تشبيه الشاعر وحقيقته وتشبيه النبيﷺ وحقيقته عرفت فضل ما بين الكلامين »

هذه الجملة الأخيرة هي الموازنة بين البيتين وقوله ﷺ

وإنها لجملة موجزة ليس فيها شيء من التحليل وإنما تردّ القارىء إلى نفسه وقال أيضا :

« وقال ﷺ :«المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمّتهم أدناهم ويردّ عليهم أقصاهم ، وهم يد على من سواهم» فتفهّم رحمك الله قلة حروفه وكثرة معانيه » .

يشير إلى أن هذا الكلام فيه إيجاز

ثم أورد طائفة غير قليلة من الأحاديث سردها سرداً دون تعليق أو تحليل أو دراسة وأورد خلال ذلك خطبة النبيّ في حجة الوداع ثم استمر يورد أحاديث بدون أسانيد من ص ١٨ حتى صفحة ٢٣ ثم أورد بعد ذلك أحاديث فيها بعض الأسانيد حتى صفحة ٣٩ .

وقد لاحظت أن عدداً من هذه الأحاديث غير صحيح بل قد ذكر العلماء أن بعضها من الموضوعات .

ومن مثل قوله :

« إن الأحاديث ستكثر عني كما كثرت عن الأنبياء من قبلي ، فما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله فما وافق كتاب الله فهو عني قلته أو لم أقله »[1] .

***

وأبو حيّان التوحيديّ علم مشهور من أعلام الأدباء والكتابة والتذوق شهد للحديث شهادة طيبة سبق أن نقلتها . وهي في كتابة البصائر والذخائر .

وأورد في كتابه الإمتاع والمؤانسة طائفة جميلة من الأحاديث من الصفحة ٩٢ حتى الصفحة ١٠٤ من الجزء الثاني . ولكنه سردها سرداً دون تحليل ولا دراسة .

من ذلك قوله ﷺ :

« ظهر المؤمن مشجبه ، وبطنه خزانته ، ورجله مطيَّتــه، وذخيرته ربّه»

***

ولعل العالم الوحيد الذي درس الصّورة البيانيّة وجمع من الأحاديث نماذج منها وشرحها بأسلوبه هو الشريف الرضي المتوفى سنة ٤٠٦ هـ وقد اشترط أن يكون كل ما يأتي به من مختار أحاديث النبي ﷺ مشتملا على مجاز طريف أو كناية دقيقة .

وقد جمع من ذلك ٣٦٠ حديثا . ويبدو كما ذكر المؤلف في مقدمته أن تأليف هذا الكتاب كان استجابة لطلب من إنسان استحسن عمله في الكشف عن مجازات القرآن فرغب إليه أن يفعل مثل تلك الطريقة في مجازات الأحاديث قال :

« . . . فإني عرفت ما شافهتني به من استحسانك الخبيئة التي أطلعتها ، والدفينة التي أثرتها من كتابي الموسوم بـ :

«تلخيص البيان عن مجازات القرآن »[2] وإن سلكت من ذلك محجة لم تسلك ، وطرقت بابا لم يطرق ، وما رغبت إلي فيه من سلوك مثل تلك الطريقة في

---

(١) البيان والتبيين ٢ / ٢٨ وقد روى الحديث بلفظ مقارب في كتب الموضوعات وهو : « إذا سمعتم عني حديثا فاعرضوه على الكتاب والسنة فان وافق فاروره عني وإن لم يوافق الكتاب والسنة فلا ترووه عني وانظر « الرسالة » للشافعي ٢٢٤ وأحاديث القصاص ١٠١ والفوائد الموضوعة للكرمي ٩٤ وغيرها .

(٢) وهو مطبوع .

عمل كتاب يشتمل على مجازات الآثار الواردة عن رسول الله ﷺ ، إذ كان فيها كثير من الاستعارات البديعة ، ولمع البيان الغريبة ، وأسرار اللغة اللطيفة ، يعظم النفع باستنباط معادنها واستخراج كوامنها وإطلاعها من أكمتها وأكنانها ، وتجريدها من خللها وأجفانها فيكون هذان الكتابان باذن الله لمعتين يستضاء بهما . وعر نينين لم أسبق إلى قرع بابهما فأجبتك إلى ذلك مستخيرا الله سبحانه منه على كثرة الأشغال القاطعة والعوائق المانعة ، والأوقات الضيّقة ، والهموم المخنقة »[1] .

ثم ذكر أنه يشير إلى مواضع النكت البيانية بإشارات وجيزة رغبة في ألا يطول الكتاب فيجفو على الناظر ويشق على الناقل قال :

« وعملت بتوفيق الله على تتبع ما في كلامه ﷺ من ذلك والإشارة منه إلى مواضع النكت ، ومواقع الغرض ، بالاعتبارات الوجيزة والإيماءات الخفيفة على طريقين في كتاب « مجازات القرآن » لئلا يطول الكتاب فيجفو على الناظر ، ويشق على الناقل »[2] وتوقع أن يكون ما فاته من هذه المجازات أكثر مما وقع إليه قال :

« ولست شاكّاً في أن ما يفوتني من الجنس الذي أقصده أكثر من الحاصل لي والواقع إلي ، ولكنني أقتصر على ما تناله في هذا الوقت يدي ، ويقرب من تصفحي وتأملي »[2] . وذكر أنه يقتصر على حديث واحد مما تكرر موضع المجاز فيه طلبا للاقتصاد .

وأنه استبعد الخوض في الأحاديث التي تتعلق بالأسماء والصفات لأن أحد العلماء وهو أبو علي محمد بن عبد الوهاب سبقه إلى البحث في هذه الأخبار في كتاب عنوانه «شرح الحديث » وكذلك فإن عدداً من المعتزلة استقصوا هذه الأخبار في مواضع من كتبهم ولولا ذلك لتتبعها تتبعا يكشف الشبه غير أنه سيورد في كتابه هذا من هذه الأحاديث ما كان داخلا في باب الاستعارات فقال :

« وإذا ورد بمشيئة الله من هذه الآثار ما فيه موضع مجاز قد تقدم الكلام على

---

(١) المجازات النبوية ص ١٩

(٢) المجازات النبوية ص ٢٠ .





نظير له أو ما يقوم مقامه اقتصرت على القول الأول طلبا للاقتصاد . . . ولولا أن أبا علي محمد بن عبد الوهاب قد سبق إلى تفسير متشابه الأخبار التي ظاهرها التشبيه والتجسيم . . . واستقصى هذا المعنى في كتابه الموسوم بـ «شرح الحديث» وتعاطى ذلك جماعة غيره من علماء أهل العدل[1] في مواضع من كتبهم لتتبعت هذا الفن جميعا تتبّعا يكشف الشبه ويوضح المشتبه على طريقي في كتابي الكبير الموسوم بـ : «حقائق التأويل في متشابه التنزيل» إلا أنني بعون الله أورد من ذلك ما كان داخلا في باب الاستعارات اللغويّة بكليّة ، أو بسعة كثيرة من سعته »[2] .

وذكر مصادره فقال : « والذي أعتمد عليه في استخراج ما يتضمن الغرض الذي أنحو نحوه وأقصد قصده كتب غريب الحديث المعروفة ، وأخبار المغازي المشهورة ، ومسانيد المحدثين الصحيحة » .

ولم يذكر لنا أسماء هذه الكتب على أن كتب غريب الحديث ليست مصدرا من مصادر الحديث والمغازي من الكتب التي لم يشدّد الرواة في توثيق أخبارها مثلما فعلوا في كتب الحديث الأخرى .

قال الإمام أحمد : « ثلاث كتب لا أصل لها المغازي والملاحم والتفسير »[3] وجاء في الفوائد الموضوعة للعلامة الكرمي :

« قال المحققون : مراده أن الغالب ليس لها أسانيد صحاح متصلة . قال السيوطي : الذي صح من ذلك قليل جداً »[3] .

ولو أنه ذكر أسماء هذه المسانيد التي اعتمد عليها لكان أتاح لنا مزيداً من الثقة بعمله . لا سيماً وأننا عندما نظرنا في الكتاب وجدنا فيه بعض الأحاديث مما لم يصح . وذكر أنه يضيف إلى المجازات جملة من كلامه ﷺ الذي لم يسبق إلى لفظه

---

(١) أي المعتزلة

(٢) المجازات النبوية ص ٢٠ ـ ٢١ .

(٣) الفوائد الموضوعة ص ٥٠ وانظر المقاصد الحسنة ٤٨١ وتمييز الطيّب من الخبيث ١٩٨ والأسرار المرفوعة ٣٩٩ وكشف الخفاء ٢/ ٤٠٢ والفوائد المجموعة ٣١٥ .

فقال : « مضيفاً إلى ذلك ما يليق بهذا المعنى من جملة كلامه عليه الصلاة والسلام الموجز الذي لم يسبق إلى لفظه ولم يفترع من قبله »[1] .

ومن المفيد أن نورد أمثلة لما ساق من الأحاديث مشفوعة بدراسته لها حتى تستبين لنا معالجته وطريقته وما قدّم في هذا المجال .

قال الشريف الرضي :

« ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في ذكر الخوارج :

«يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة » الحديث بطوله إلى قوله قد سبق الفرث والدم . وفي هذا القول مجاز ؛ ، لأنه عليه السلام شبَّه دخولهم في الدين وخروجهم منه بسرعة من غير أن يتعلقوا بعقدته أو يعيقوا بطينته بالسهم الذي أصاب الرميّة وهي الطريدة المرميّة ، ثم خرج مسرعاً من جسمها ولم يعلق بشيء من فرثها ودمها . وذلك من صفات السهم الصائب لأنه لا يكون شديد السرعة إلا بعد أن يكون قويّ النزعة »[2] .

والحديث بتمامه كما في صحيح البخاريّ :

« عن أبي سعيد قال :

بينا النبي ﷺ يقسم جاء عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي فقال : إعدل يا رسول الله .

فقال : ويلك من يعدل إذا لم أعدل ؟

قال عمر بن الخطاب : دعني أضرب عنقه .

قال : دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة ، ينظر في قذذه[3] فلا يوجد فيه

---

(١) المجازات النبوية ص ٢١ .

(٢) المجازات النبوية ص ٣٥ .

(٣) القذة : بالضم ريش السهم جمعة قذذ .

شيء ثم ينظر في نصله[1] فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر في رصافه[2] فلا يوجد فيه شيء ينظر في نضيه[3] فلا يوجد فيه شيء . قد سبق الفرث والدم . . . »

ولو أنه أورد الحديث بتمامه لكان أعون له على إقدار القارىء على تذوّق الصورة الفنيّة الرائعة .

وقال الشريف :

«ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام :

«الرؤيا على الرجل[4] طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت فلا تحدثن بها إلا حبيبا أو لبيبا» .

روى هذا الخبر عن النبيّ ﷺ أبو رزين العقيليّ، وهو لقيط بن عامر بن المنتفق، وفي هذا الكلام مجاز.

والمراد بالطائر ههنا الأمر الذي يتطير[5] ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وكلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ يريد ما يتطير منه ويخاف وقوعه به من جزاء أعماله السيئة وأوزاره المثقلة وذلك مأخوذ من زجر الطير على مذاهب العرب ، وكانوا يتيمّنون بأيامنها ، ويتشاءمون بأشائمها ، وعلى ذلك قول الشاعر :

ولقد غدوت وكنت لا ... أغدو على واق وحاتم
فإذا الأشائم كالأيامن ... والأيامن كالأشائم

والواق الصُرَد، كأنهم سموه بحكاية صوته . قال الشاعر :

ولست بهيَّاب إذا شد رحله ... يقول عداني اليوم واق وحاتم

---

(١) النصل : حديدة السهم .
(٢) الرصاف : مدخل سنخ النصل ، وهو عقب يلوي على مدخل النصل فيه .
(٣) النضي: كغني السهم بلا نصل ولا ريش .
(٤) كذا في المجازات والذي في مدونات السنة « على رجل طائر » كما ستراه في موضعه .
(٥) بل نرى أن الصواب أنه الطائر العادي .

والخاتم : الغراب .

فكأنه عليه الصلاة والسلام جعل رؤيا الإنسان التي يتروع لها ويخاف ضررها بمنزلة الشيء الذي يتطيّر به، وقد يجوز أن يكون ويجوز ألا يكون، فإذا عبرها فعبرت له على ما يكره وقع متوقَّعها، وخلص للشر مجوزها. . .

ولما جعل عليه الصلاة والسلام الرؤيا بمنزلة الطائر المتطيّر به جعل تعبيرها على الأمر المكروه بمنزلة وقوع الطائر موافقة بين أنحاء الكلام حتى يقع مواقعها وتطبق مفاصلها . وقوله عليه الصلاة والسلام من بعد :

« فلا تحدثن بها إلا حبيباً أو لبيباً »

يريد به النهي عن قصتها إلا على محبّ ناصح، أو لبيب راجح، لأن المحب للإنسان يتعمَّد حمل أموره على أجملها ، ويتوخَّى مسرَّته بتحسين ما يحسن منها ، وبخلاف ذلك يكون المبغض المباعد والكاشح الموارب .

وأما اللبيب وهو العاقل فهو يعبرها على الوجه الصحيح الذي لا يوطىء فيه عشوة ولا يطلب مضرّة . وبخلاف ذلك يكون الأخرق الجاهل ، والغبي الغافل »[1] .

والملاحظ أن نظرته جزئيّة تتصل بكل نص وقد يوافقه الصوّاب وقد يخالفه ، ولكنه لم يستخلص من هذه النصوص الوفيرة قاعدة ولا نظرّية ولا دراسة تنتهي به إلى ضوابط تتعلق بالصورة الفنيّة ولا إلى أقسام يمكن أن ترتب فيها ومهما يكن من أمر فإن الجهد الذي بذله الشريف في هذا المجال جهد رائد ، وعمل نافع كان يمكن أن يؤدي إلى بعض النتائج لو تعاونت القوى اللاحقة وتوفرت الإمكانات لخدمة هذا الموضوع .

***

وتعرض ابن رشيق القيروانيّ في مواضع من العمدة إلى التنويه بالحديث ولكنّه

---

(١) المجازات النبويّة ص ٢٥١ ـ ٢٥٣ .





كان يأتي به للتمثيل على القاعدة التي يضعها وقلّما كان يعمد إلى الدراسة والتحليل بل لم أجد له إلا هذا التحليل الموجز وذلك في قوله :

«وقد قال النبي ﷺ : « إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكماً » وقيل : « لحكمة » .

فقرن البيان بالسحر فصاحة منه ﷺ وجعل من الشعر حكما لأن السحر يخيّل للإنسان ما لم يكن للطافته وحيلة صاحبه وكذلك البيان يتصور فيه الحق بصورة الباطل والباطل بصورة الحق لرقّة معناه ولطف موقعه[1] » .

أما في المواضع الأخرى فكان يكتفي بإيراد الكلام العام ، والاستحسان المجرد كما في الأمثلة الآتية :

قال ابن رشيق :
« وقال النبيّ ﷺ للأنصار :
« إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع »

وقال : « كفى بالسلامة داء »

ومثل هذا كثير في كلامه ﷺ . ومن أولى منه بالفصاحة وأحق بالإيجاز وقد قال : « أعطيت جوامع الكلم »؟[2] .

وقال أيضاً :

«ومن كلام رسول الله ﷺ قوله ﷺ :
« فالمسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمّتهم أدناهم وهم يدٌ على من سواهم »
و « المرء كثيرٌ بأخيه » .

---

(١) العمدة لابن رشيق ١/ ٢٧ .
(٢)العمدة لابن رشيق ١/ ٢٥٣ .

وأورد في مبحث التمثيل عدداً من الأحاديث دون أيّ تعليق فقال:

( ومن كلام النبي ﷺ في التمثيل قوله :

«الصوم في الشتاء الغنيمة الباردة »

وقوله :

« ظهر المؤمن مشجبه ، وخزانته بطنه ، وراحلته رجله، وذخيرته ربه»

وقوله :

«المؤمن في الدنيا ضيف ، وما في يديه عارية ، والضيف مرتحل ، والعارية مؤداة ، ونعم الصهر القبر[1] »[2] .

وبعد أن أورد عدداً من الأحاديث قال :

« وكثير من هذا يطول تقصيه »[3]

وسنأتي بأمثلة من التعليقات التي علّق بها على الأحاديث، فمن ذلك أن ابن رشيق أراد أن ينتصر للرأي الذي لا يعد الإشارة المصحوبة عيبا بالحديث ، فأورد حديثاً فيه إشارة مرفقة بالكلام ، وقال : إذا كان هذا في كلام أفصح البشر فكيف يكون عيباً قال :

« ومن الإشارات مصحوبة ، وهي عند أكثرهم معيبة كأنها حشو واستعانة على الكلام نحو قول أبي نواس . . . ولم يأت بها أبو نواس حشواً ولكن شطارة وعبثاً بالكلام ، وإن شئت قلت بياناً وتثقيفاً كما قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمرو ابن العاص:

« وكيف بك إذا بقيت في حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم واختلفوا فكانوا هكذا »وشبك بين أصابع يديه .ولا أحد أفصح من رسول الله ﷺ ولا أبعد كلاماً منه من الحشو والتكلف »[4] .

(١) وهذا الشطر الأخير من الحديث موضوع أنظر « الأسرار المرفوعة » .
(٢) العمدة ١/ ٢٧٨ .
(٣) العمدة : ١/ ٢٩٩ .
(٤)العمدة : ١/ ٣٠٩





فهذا كلام في نهاية البيان والإيجاز »[1]

وهذا كلام عام جداً « هذا كلام في نهاية البيان والإيجاز » فقط .

وقال يتحدث عن أثر المجاز في نفس القارىء والسامع من حيث كونه مجازاً :

« والمجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة ، وأحسن موقعاً في القلوب والأسماع . وما عدا الحقائق من جميع الألفاظ ثم لم يكن محالاً محضاً فهو مجاز»[2] .

ثم أورد أشعاراً وآيات من كتاب الله . . . ثم قال :

« وقول النبيّ ﷺ : «العين وكاء السه»

وقوله لحادٍ كان يحدو به ، « إياك والقوارير » كنايةً عن النساء لضعف عزائمهنّ إلى أكثر من هذا»[3] .

وقال :

« والاستعارة كثيرة في كتاب الله عز وجل وكلام نبيه ﷺ . . .

. . . وقول النبيّ ﷺ : « الدنيا حلوة خضرة » وقوله لحالب حلب ناقة : «دع داعي اللبن » يعني بقية من اللبن في الحلب .

وقوله : « تمسحوا بالأرض فانها بكم برة »

قال أبو عبيد : يريد أنها منها خلقهم وفيها معادهم وهي بعد الموت كفاتهم[4] .

وقوله : «ربّ تقبل توبتي واغسل حوبتي » فغسل الحوبة استعارة مليحة »[5] .

---

(١) العمدة ١/ ٢٥٥

(٢) العمدة ١/ ٢٦٦

(٣) العمدة ١/ ٢٦٨

(٤)الكفات : الموضع يضم فيه الشيء ويجمع

(٥) العمدة ١/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦ .




وقال ابن رشيق يثنى بكلام عام على الحديث وبلاغته : ( ومن أفضل كلام البشر قول رسول الله ﷺ في بعض خطبه :

« فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبـر ، ومن الحياة قبل المهات ، فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب وما بعد الدنيا دار إلاّ الجنّة أو النّار » .

فهذا هو المعجز الذي لا تكلّف فيه ولا مطمع في الإتيان بمثله )[1].

وقال في باب التقسيم يذكر دقّة الرسول واستقصاءه قال :

« ومن أشرف المنثور في هذا الباب قول رسول الله ﷺ : « وهل لك يابن آدم من مالك إلاّ ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت » .

فلم يبق عليه الصلاة والسلام قسما رابعا لو طلب يوجد »[2].

***

ولا بد لنا من وقفة مع الإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفى ٤٧١ ذلك الرجل الذي عرفت البلاغة به والذي وضع أساسها .

وقد استعرضت كتابيه « الأسرار » و« الدلائل » فلم أجد له عناية بالحديث على النحو الذي كان بالنسبة للقرآن، وهذا طبيعي لأن موضوع الإعجاز كان همه الأول.

وسنورد نماذج من كلام الإمام على بعض الأحاديث من وجهة النظر البيانية .

قال في مبحث التجنيس :

( وإن أنت تتبعته من الأثر وكلام النبي ﷺ تثق كل الثقة بوجـودك له على الصفة التي قدمت .

---

(١) العمدة : ٢/ ٨ .

(٢) العمدة : ٢/ ٢١ .





وذلك كقول النبي عليه السلام :

« الظلم ظلمات يوم القيامة » .

وقوله صلوات الله عليه :

«لا تزال أمتي بخير ما لم تر الغنى مغنما والصدقة مغرما »

وقوله :

« يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » .

فأنت لا تجد في جميع ما ذكرت لفظا اجتلب من أجل السجع وترك له ما هو أحق بالمعنى به وأبربه ، وأهدى إلى مذهبه »[1] .

وقال في مبحث الاستعارة :

( وكما جاء في الخبر :

« كلما سمع هيعة طار إليها »[2])[3]

ولم يعقّب على ذلك بتحليل .

وقال عبد القاهر :

(وهكذا استعارة (الفرسن) للشاة في قول عائشة رضي الله عنها : « ولو فرسن شاة »[4] وهو للبعير في الأصل ليس لأن يشبه هذا العضو من الشاه به من البعير كيف ولا شبه هناك ، وليس إذن في مجيء الفرسن بدل الظلف أمر أكثر من العضو نفسه )[5] .

---

(١) أسرار البلاغة ٩ ط المنار

(٢) أسرار البلاغة ٤٢ ط المنار

(٣) ولفظ الحديث : «خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله كلما سمع هيعة طار اليها » والهيعة الصوت تفزع منه وتخافه من عدو .

(٤) الحديث هو : « لا تحقرن من المعروف شيئا ولو فرسن شاة » والفرسن ( بكسر الفاء والسين ) وهو خف البعير ، ويستعار لظلف الشاة كما في هذا الحديث .

(٥) أسرار البلاغة ص ٤٨ .

وقال عبد القاهر : ـ

(ومثال الأصل الثاني وهو أخذ الشبه من المحسوس للمحسوس ثم الشبه عقلي قول النبي ﷺ : « إيّاكم وخضراء الدّمن » .

الشبه مأخوذ للمرأة من النبات كما لا يخفى ، وكلاهما جسم إلا أنه لم يقصد بالتشبيه لون النبات وخضرته ولا طعمه ولا رائحته ولا شكله وصورته ولا ما شاكل ذلك . ولا ما يسمى طبعاً كالحرارة والبرودة المنسوبتين في العادة إلى العقاقير وغيرها مما يسخن بدن ـ الحيوان ويبرد بحصوله فيه ، ولا شيء من هذا النبات بل القصد شبه عقلي بين المرأة الحسناء في المنبت السوء وبين تلك النابتة على الدمنة وهو حسن الظاهر في رأي العين مع فساد الباطن وطيب الفرع مع خبث الأصل)[1] .

وقال عبد القاهر رحمه الله :

(ومما لا يكون الشبه فيه إلا عقليا قولنا في أصحاب رسول الله ﷺ « ملح الأنام » وهو مأخوذ من قوله عليه السلام :

«مثل أصحابي كمثل الملح في الطعام ، لا يصلح الطعام إلا بالملح »

قالوا : فكان الحسن رحمه الله يقول : فقد ذهب ملحنا فكيف نصنع ؟

فأنت تعلم أن لا وجه ههنا للتشبيه إلا من طريق الصورة العقلية ، وهو أن الناس يصلحون بهم كما يصلح الطعام بالملح ، والشبه بين صلاح العامة بالخاصة ، وبين صلاح الطعام بالملح لا يتصور أن يكون محسوسا )[2] .

وقال عبد القاهر الجرجاني :

( . . . وعلى ذلك ما جاء في الخبر من أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون ما المفلس ؟

قالوا : المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع .

---

(١) أسرار البلاغة ص ٥١ .

(٢) ثم مضى الجرجاني في تحليل هذا الحديث تحليلاً يبرز الصورة وما تنطوي عليه من أسرار ومعان .

قال : « المفلس من أمتى من يأتي يوم القيامة بصلاته وزكاته وصيامه فيأتي وقد شتم هذا ، وأكل مال هذا ، وقذف هذا ، وضرب هذا ، وسفك دم هذا .

فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يفنى ما عليه من الخطايا أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار » .

وذاك أنه ﷺ بين الحكم في الآخرة ، فلما كان الإنسان إنما يعد غنياً في الدنيا بماله ، لأنه يجتلب به المسرة ، ويدفع المضرة ، وكان هذا الحكم في الآخرة للعمل الصالح ثبت لا محالة أن يكون الخالي ـ نعوذ بالله من ذلك ـ المفلس ، إذ قد عرى مما لأجله يسمى الخالي من المال في الدنيا مفلساً وهو ما يوصله إلى الخير والنعيم ، ويقيه الشر والعذاب ، نسأل الله التوفيق لما يؤمن من عقابه »[1] .

وقال الجرجاني :

(وعلم أن المثل قد يضرب بجمل لا بدّ فيها من أن يتقدمها مذكور يكون مشبهاً به ، ولا يمكن حذف المشبه به والاقتصار على ذكر المشبه ، ونقل الكلام إليه حتى كأنه صاحب الجملة ، إلا أنه مشبه بمن صفته وحكمه مضمون تلك الجملة .

بيان هذا أن قول النبي ﷺ :

« الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة » لا بد فيه من المحافظة على ذكر المشبه به الذي هو الإبل .

فلو قلت : الناس لا تجد فيهم راحلة
أو قلت : لا تجد في الناس راحلة .
كان ظاهر التعسّف )[2] .

وقد ذكر الإمام الجرجاني قيمة التشبيه وتأثيره في قوّة المعنى فقرّر أن المعنى يزداد به فخامة وتأثيراً في النفس وأن قائله يستطيع أن يحقق غرضه كاملاً ، ثم أورد طائفة

---

(١) أسرار البلاغة ٦٧ ـ ٦٨ .

(٢) أسرار البلاغة ٩١

من روائع الأمثلة وازن بينها وبين أمثالها من الجمل التي تؤدي المعنى نفسه دون صورة . ثم قال :

( وإن أردت اعتبار ذلك في الفنّ الذي هو أكرم وأشرف فقابل بين أن تقول :

إن الذي يعظ ولا يتعظ يضر نفسه من حيث ينفع غيره . وتقتصر عليه ، وبين أن تذكر المثل على ما جاء في الخبر من أن النبيﷺ قال :

« مثل الذي يعلم الخير ولا يعمل به مثال السراج الذي يضيء للناس ويحرق نفسه )[١] .

وقال أيضا :

(فقابل . . . وبين أن تقول:

هي ظل زائل ، وعارية تسترد ، ووديعة تسترجع وتذكر قول النبيﷺ :

« من في الدنيا ضيف ، وما في يديه عارية ، والضيف مرتحل والعارية مؤداة )[٢] .

وقال الإمام الجرجانيّ في مبحث الفرق بين الاستعارة والتخييل :

(. . وهو كقول النبيﷺ :

« الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة »

قل الآن : من أي جهة تصل إلى الاستعارة ههنا وبأي ذريعة تتذرع إليها ؟

هل تقدر أن تقول : رأيت إبلاً مائة لا تجد فيها راحلة ، في معنى : رأيت ناساً والإبل التي لا تجد فيها راحلة تريد الناس ، كما قلت : رأيت أسداً ، على معنى رجلاً كالأسد ، وأطلقت الأسد على معنى : الذي هو كالأسد ؟

---

(١) أسرار البلاغة ١٠١

(٢) أسرار البلاغة ١٠١

وكذا قول النبي ﷺ :

«مثل المؤمن كمثل النّخلة ـ أو ـ مثل الخامة »

لا تستطيع أن تتعاطى الاستعارة في شيء منه فتقول:
«رأيت نخلة ـ أو ـ خامة »
على معنى : رأيت مؤمناً . . . )[1] .

وقال عبد القاهر أيضاً :
( . . . وكذلك قول النبي ﷺ : « المؤمن مرآة المؤمن »

ليس على إثبات المرآة من حيث الجسم الصَّقيل ، لكن من حيث الشبه المعقول ، وهو كونها سببا للعلم بما لولاها لم يعلم لأن ذلك العلم طريقة الرواية ، ولا سبيل إلى أن يرى الإنسان وجهه إلا بالمرآة وما جرى مجراها من الأجسام الصقلية فقد جمع بين المؤمن والمرآة في صفة معقولة وهي أن المؤمن ينصح أخاه ويريه الحسن من القبيح كما تري المرآة الناظر فيها ما يكون بوجهه من الحسن وخلافه .

وكذا قوله ﷺ :
«إيَّاكم وخضراء الدمن »

معلوم أن ليس القصد إثبات معنى ظاهر اللفظين ولكن الشبه الحاصل عن مجموعهما وذلك حسن الظاهر مع خبث الأصل . . )[2] .

وقال الجرجاني :

( . . . وأمَّا إذا أريد باليد القدرة فهي إذن أحنّ إلى موضعها الذي بدئت منه وأضبث[3] بأصلها، لأنك لا تكاد تجدها تراد معها القدرة إلا والكلام مثل صريح .

ومعنى القدرة منتزع من اليد مع غيرها ، أو هناك تلويح بالمثل .

---

(١) أسرار البلاغة ٢١٣
(٢) أسرار البلاغة ٢٣٨
(٣) من ضبث بالشيء قبض عليه قبضاً شديداً

فمن الصريح قولهم: (فلان طويل اليد ) يراد فضل القدرة، فأنت لو وضعت (القدة ) ههنا في موضع ( اليد ) أحلت ، كما أنك لو حاولت في قول النبي ﷺ وقد قالت له نساؤه ﷺ :

أيّتنا أسرع لحاقا بك يا رسول الله ؟

فقال :

«أطولكن يداً » .

يريد : السَّخاء والجود وبسط اليد بالبذل .

أن تضع موضع اليد شيئا مما أريد بهذا الكلام خرجت عن المعقول ، وذلك أن الشبه مأخوذ من مجموع الطول واليد مضافا ذلك إلى هذه .

وطلبه من اليد وحدها طلب الشيء على غير وجهه)[1]

وقال أيضا :

( . . وهكذا قول النبي ﷺ :

« تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتّهم أدناهم وهم يدٌ على من سواهم »

المعنى وإن كان على قولك وهم عون على من سواهم فلا تقول : إن اليد بمعنى العون حقيقة .

بل المعنى إن مثلهم مع كثرتهم في وجوب الإتفاق بينهم مثل اليد الواحدة ، فكما لا يتصور أن يخذل بعض أجزاء اليد بعضاً وإن تختلف بها الجهة في التصرف كذلك سبيل المؤمنين في تعاضدهم على المشركين لأن كلمة التوحيد جامعة لهم فلذلك كانوا كنفس واحدة . فهذا كله مما يعترف لك كل أحد فيه بأن اليد على انفرادها لا تقع على شيء فيتوهم لها نقل من معنى إلى معنى على حد موضع الاسم واستئنافه )[2].

(١) أسرار البلاغة ٣٠٨
(٢) أسرار البلاغة ٣٠٩





تعمدت أن أنقل هنا كل المواضع التي درس فيها الإمام عبد القاهر الناحية البلاغيّة في الحديث وقد أورد أحاديث أخرى غير هذه لم نوردها لأنه لم يفصّل فيها القول على النحو الذي رأيناه في هذه النماذج ، فمن الأحاديث التي ساقها قوله ﷺ : «أتيتكم بالحنيفيَّة البيضاء، ليلها كنهارها»[1]

وقوله ﷺ : « ليدخلنّ هذا الدين ما دخل عليه الليل »[2]

وقوله ﷺ : « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[3]

وقوله ﷺ : «يا بني هاشم لا تجيئني الناس بالأعمال وتجيئوني بالأنساب »[4]

وقوله ﷺ : «إن أحدكم إذا تصدق بالتمرة من الطيّب ولا يقبل الله إلا الطيّب جعل الله ذلك في كفه فيربيها كما يربي أحدكم فلوه حتى يبلغ مثل أحد »[5] .

وقوله ﷺ : « إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم[6] » .

وقوله ﷺ : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين »[7] .

أما كتابه دلائل الإعجاز فلم أجد له مثل هذه الوقفات ولم يورد في الكتاب إلاّ قريبا من ستة أحاديث على سبيل الاستشهاد لتأييد رأيه والأمثلة التي أوردناها من أسرار البلاغة .

كان الجرجاني يأتي بالحديث مثلاً يوضح القاعدة التي يقرّرها ، ولم يقصد لدراسة الحديث وبالتالي لم يستخلص من وقوفه أمام هذه الأحاديث ضابطاً ينظمها ولا قاعدةً تشملها ولا تعرض لذكر الخصائص الفنيّة التي يمتاز بها الحديث النبويّ .

---

(١) أسرار البلاغة ١٩٧

(٢) أسرار البلاغة ٢٢١

(٣) أسرار البلاغة ٢٢٩

(٤) أسرار البلاغة ٢٢٩

(٥) أسرار البلاغة ٣١٥

(٦) أسرار البلاغة ٣٣٣

(٧) أسرار البلاغة ٣٤١



وينطبق عليه ما قاله الأستاذ سيد قطب في تقويمه لجهود السابقين في فهم القرآن قال رحمه الله :

( وأيًّا ما كانت تلك الجهود التي بذلت في التفسير وفي مباحث البلاغة والإعجاز فإنها وقفت عند حدود عقليّة النقد العربيّ القديمة تلك العقليّة الجزئية التي تتناول كل نص على حدة فتحلله وتبرز الجمال الفنّي فيه إلى الحدّ الذي تستطيع دون أن تتجاوز هذا إلى إدراك الخصائص العامة في العمل الفنّي كلّه )[1] .

***

ونختم جولتنا في بحوث المتقدمين باستعراض ما كتبه في هذا الموضوع ابن الأثير المتوفى ٦٢٢ في كتابه « المثل السائر »

وقد وجدته من أكثر المتقدمين ضرباً للأمثلة من الحديث في كتابه المذكور ، ويبدو أنه كان ذا عناية جيدة بالسُّنة كما ذكر هو نفسه قال :

( وكنت جرَّدت من الأخبار النبويَّة كتاباً يشتمل على ثلاثة آلاف خبر كلها تدخل في الاستعمال وما زلت أواظب مطالعته مدة تزيد على عشر سنين ، فكنت أنهي مطالعته في كل أسبوع مرة ، حتى دار على خاطري وناظري ما يزيد على خمسمائة مرة وصار محفوظاً لا يشذّ عنّي منه شيء )[2] .

وكتب ابن الأثير فصلاً طويلاً يدور حول الفكرة الآتية :

إن قراءة الحديث وتذوّقه ومعاناته تكسب المرء قدرةً على الكتابة والاستشهاد بالأحاديث . وكذلك فإن حل معاني الأحاديث واستعارة بعض جملها يرفع من مستوى كتابة الكاتب وأورد أمثلة كثيرة من إنشائه اقتبسها من الأحاديث .

وسأورد نماذج من دراسته للأحاديث وتعليقه على بعض النكت البلاغيّة التي نواجهها في طائفة من جوامع كلمه ﷺ .

---

(١) التصوير الفنّي في القرآن ٣٢
(٢) المثل السائر ١/ ١٩١

قال ابن الأثير :

(.. ومن ذلك قول النبي ﷺ لأزواجه :

« أطولكن يداً أسرعكن لحوقاً بي »

فلما مات ﷺ جعلن يطاولن بين أيديهن حتى ينظرن أيتّهن أطول يداً . ثم كانت زينب أسرعهن لحوقاً به ، وكانت كثيرة الصدقة فعلمن حينئذ أنه لم يرد الجارحة وإنما أراد الصدقة )[1] .

وقال :

(وأما مثال المعنيين إذا كانا حقيقيّين فقول النبي ﷺ :

«التمسوا الرزق في خبايا الأرض »

والخبايا جمع خبيّة كائنا ما كان .

وهذا يدلّ على معنيّين حقيقيّين :

أحدهما الكنوز المخبوءة في بطون الأرض

والآخر الحرث والغراس .

وجانب الحرث والغراس أرجح لأن مواضع الكنوز لا تعلم حتى تلتمس والنبيّ ﷺ لا يأمر بذلك لأنه شيء مجهول غير معلوم ، فبقي المراد بخبايا الأرض ما يحرث ويغرس .

وكذلك ورد قوله ﷺ :

« إذا ابتلت النّعال فالصّلاة في الرِّحال »

وهذا الحديث مرخّص في ترك صلاة الجماعة بسبب المطر . وله تأويلان :

أحدهما أنه أراد نعال الأرض وهو ما غلظ منها .

والآخر أنه أراد الأحذية .

---

(١) المثل السائر ١/ ٨١



والوجه هو الثاني لظهوره في الدلالة على المعنى ، وأكثر العلماء عليه )[1]

وقال ابن الأثير :

( . . . فمما ورد منه قول النبي ﷺ :

«من جعل قاضياً بين الناس فقد ذبح بغير سكّين » .

فهذا يستخرج منه المعنيان المشار إليهما :

فالتّام منهما يدلّ على أنه من جعل قاضياً فقد عرّض نفسه لخطرٍ عظيمٍ كالذّبح بغير سكّين .

وأما المقدّر فإنّه يدلُّ على أنه من جعل قاضياً فقد أمر بمفارقة هواه . وهذا لا يدلّ عليه اللفظ بنفسه . بل يستدلّ عليه بقرينةٍ أخرى ، ولكنّها ليست من توابعه . ووجه ذلك أن لفظ الحديث عامّ يشمل القضاة على الإطلاق ولا يخلو إما أن يُراد به عذاب الآخرة أو عذاب الدنيا ، ولا يجوز أن يكون المراد به عذاب الآخرة ، لأنه ليس كل قاضٍ معذّباً في الآخرة ، بل المعذب منهم قضاة السوء ، فوضح بهذا أنّ المراد بالحديث عذاب الدنيا .

وعلى هذا فلا يخلو إما أن يكون العذاب صورة أو معنىً . ولا يجوز أن يكون صورة لأنّا نرى الإنسان إذا جعل قاضيا لا يذبح ولا يناله شيء من ذلك ، فبقي أن يكون المراد به عذاباً معنوياً ، وهو الذّبح المجازيّ غير الحقيقيّ .

وفحوى ذلك أن نفس الإنسان مركبة على حبِّ هواها ، فإذا جعل قاضياً فقد أمر بترك ما جبل على حبّه من الامتناع عن الرشوة ، والحكم لصديقه على عدوه ، ورفع الحجاب بينه وبين الناس ، والجلوس للحكم في أوقات راحته ، وغير ذلك من الأشياء المكروهة التي تشق على النفس ، وتجد لها ألما مبرحا .

والذّبح هو قطع الحلقوم ، والألم حاصل به ، وهو كالذّبح الحقيقي بل أشدّ منه لأن ألم الذّبح الحقيقيّ يكون لحظة واحدة ثم ينقضي ويزول .

(١) المثل السائر ١/ ٨٩

وألم قطع النفس عن هواها يدوم ولا ينقضي ، وهو أشدُّ العذاب . قال الله تعالى : ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ وقال في نعيم أهل الجنة : ﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين ﴾ . وكثيراً ما رأينا وسمعنا من حمله حبُّ الشيء على إتلاف نفسه في طلبه وركوب الأهوال من أجله ، فإذا امتنع عنه مع حبه إيَّاه فقد ذبح نفسه أي قطعها عنه كما يقطع الذابح حلق الذبيحة )[1] .

وقال ابن الأثير :

(الفصل الخامس في جوامع الكلم

قال النبيّ ﷺ : « أوتيت جوامع الكلم » فالكلم جمع كلمة ، والجوامع جمع جامعة ، والجامعة اسم فاعلة من جمعت فهي جامعة ، كما يقال في المذكر جمع فهو جامع . والمراد بذلك أنه ﷺ أوتي الكلم الجوامع للمعاني .

وهو عندي ينقسم قسمين :

**القسم الأول** : هو ما استخرجته ونبهت عليه ولم يكن لأحد فيه قول سابق ، وهو أن لنا ألفاظا تتضمن من المعنى ما لا تتضمنه أخواتها مما يجوز أن يستعمل في مكانها فمن ذلك ما يأتي على حكم المجاز ومنه ما يأتي على حكم الحقيقة .

أما ما يأتي على حكم المجاز فقوله ﷺ يوم حنين : « الآن حمي الوطيس »

وهذا لم يسمع من أحد قبل رسول الله ﷺ . ولو أتينا بمجاز غير ذلك في معناه فقلنا : ( استعرت الحرب ) لما كان مؤديا من المعنى ما يؤديه « حمي الوطيس » . والفرق بينهما أن الوطيس هو التنُّور ، وهو موطن الوقود ومجتمع النَّار ، وذلك يخيِّل إلى السامع أن هناك صورة شبيهة بصورته في حميِّها وتوقّدها ، وهذا لا يوجد في قولنا « استعرت الحرب » أو ما جرى مجراه .

وكذلك قال ﷺ : « بعثت في نفس الساعة »

(١) المثل السائر ١/ ٩٣ .

فقوله ( نفس الساعة ) من العبارة العجيبة التي لا يقوم غيرها مقامها ، لأن المراد بذلك أنه بعث والساعة قريبة منه ، لكن قربها منه لا يدلّ على ما دلّ عليه النفس ، وذلك أن النفس يدلّ على أن الساعة منه بحيث يحس بها كما يحس الإنسان بنفس من هو إلى جانبه وقد قالﷺ في موضع آخر : « بعثت أنا والساعة كهاتين »

وجمع بين أصبعيه السَّبابة والوسطى. ولو قال: «بُعثتُ على قربٍ من الساعة» أو: «والساعة قريبة مني» لما دلَّ ذلك على ما دلَّ عليه نفس الساعة، وهذا لا يحتاج إلى الإطالة في بيانه لأنه بيِّن واضح . . .

***

**وأما القسم الثاني** : من جوامع الكلم فالمراد به الإيجاز الذي يستدل به بالألفاظ القليلة على المعاني الكثيرة ، أي : إن ألفاظه صلوات الله عليه جامعة للمعاني المقصودة على إيجازها واختصارها . وجُلُّ كلامه جارٍ هذا المجرى فلا يحتاج إلى ضرب الأمثلة به ، وسيأتي في باب الإيجاز منه ما فيه كفاية ومقنع )[1].

وقال ابن الأثير :

( . . وعليه ورد قول النبيﷺ ، فإنه نظر إلى أُحدٍ يوماً فقال: «هذا جبل يحبنا ونحبه»

فإضافة المحبة إلى الجبل من باب التوسع ، إذ لا مشاركة بينه وبين الجبل الذي هو جماد ). [2]

وقال ابن الأثير أيضاً :

---

(١) المثل السائر ١/ ٩٦ وما بعدها وانظر المجازات ٣٦
(٢) المثل السائر ٢/ ٨٢







( . . ومما ورد من الإستعارة في الأخبار النبوية قول النبيﷺ :«لا تستضيئوا بنار المشركين»

فاستعار النار للرأي والمشورة أي لا تهتدوا برأي المشركين ولا تأخذوا بمشورتهم . وروي عنهﷺ أنه دخل يوماً مصلّاه فرأى أناساً كأنهم يكثرون فقال :

« أما إنكم لو أكثرتم من ذكر هادم اللذّات لشغلكم عمّا أرى»

وهادم اللذات أراد به الموت ، وهو مطوي الذكر ) .[1]

وقال ابن الأثير وهو يتحدَّث عن أقسام التشبيه :

( . . فالثاني كقول النبي ﷺ : « الكمأة جدري الأرض » .

وهذا يتنوَّع نوعين . فإذا كان المضاف إليه معرفة كهذا الخبر النبوي لا يحتاج في تقدير أداة التشبيه إلى تقديم المضاف إليه . بل إن شئنا قدَّمناه وإن شئنا أخرناه فقلنا :

الكمأة للأرض كالجدري
أو : الكمأة كالجدري للأرض

وإذا كان المضاف إليه نكرة فلا بدّ من تقديمه عند تقدير أداة التشبيه » .[2]

وقال في المبحث نفسه مبحث التشبيه :

« . . وأما الثالث فكقول النبيّ ﷺ :

« وهل يكبُّ الناس على مناخرهم في نار جهنم إلاَّ حصائد ألسنتهم »

كأنه قال : كلام الألسنة كحصائد المناجل ، وهذا القسم لا يكون المشبَّه به مذكوراً فيه ، بل تذكر صفته . ألا ترى أن المنجل لم يذكرهنا وإنما ذكرت صفته

(١) المثل السائر ٢ / ٩٧
(٢) المثل السائر ٢ / ١١٧



وهي الحصد . وكل ما يجيء من هذا القسم فإنه لا يرد إلاّ كذلك ) .[1]

وقال : ( . . فقوله « حصائد ألسنتهم » من تشبيه المركب بالمركب ، فإنه شبَّه الألسنة وما تمضي فيه من الأحاديث التي يؤاخذ بها بالمناجل التي تحصد النبات من الأرض ) .[2]

وقال ابن الأثير :

«ومما ورد منه في الأخبار النبوية قول النبيّ ﷺ : «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجَّة . . .»

وهذا من باب تشبيه المركب بالمركب ألا ترى أن النبيﷺ شبَّه المؤمن القارىء وهو متصف بصفتين هما الإيمان والقراءة بالأترجّة ، وهي ذات وصفين هما الطعم والريح ، وكذلك يجري الحكم في المؤمن غير القارىء ، وفي المنافق القارىء ، والمنافق غير القارىء» .[3]

وقال ابن الأثير :

( . . وأما ما ورد منه مضمر الأداة فكقول النبي ﷺ : « هو الوأد الخفي »

وهذا تشبيه بليغ ، والوأد هو ما كانت العرب تفعله في دفن البنات أحياء ، فجعل العزل في الجماع كالوأد إلاّ أنه خفى ، وذاك أنهم كانوا يفعلون بالبنات ذلك هرباً منهن ، وهكذا من يعزل في الجماع فإنما يفعل ذلك هرباً من الولد .

وكذلك قال النبيﷺ : «هو الوأدة الصغرى»

وهذا من الحسن إلى غاية تغض لها العيون طرفها ، ولا ينتهي الوصف إليها ، فيكون ترك وصفها كوصفها ) .[4]

---

(١) المثل السائر ٢ / ١١٨
(٢) المثل السائر ٢ / ١٣٨
(٣) المثل السائر ٢ / ١٤٠
(٤) المثل السائر : ٢ / ١٥١

وقال ابن الأثير في مبحث الإيجاز :

( . . وقد ورد في الأخبار النبوية من هذا الضرب شيء كثير وسأورد منه أمثلة يسيرة: فمن ذلك قول النبي ﷺ : «الحلال بيِّن والحرام بيِّن ، وبينهما أمور مشتبهات»

وهذا الحديث من أجمع الأحاديث للمعاني الكثيرة ، وذاك أنه يشتمل على جُلِّ الأحكام الشرعية ، فإن الحلال والحرام إما أن يكون الحكم فيهما بيِّناً لا خلاف فيه بين العلماء ، وإما أن يكون خافياً يتجاذبه وجوه التأويلات ، فكل منهم يذهب فيه مذهباً. وكذلك جاء قوله ﷺ : «الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى»

فإن هذا الحديث من جوامع الأحاديث للأحكام الشرعية .

وكذلك قوله ﷺ : «المضعف أمير الركْب»

وقد ورد هذا الحديث بلفظٍ آخر : «سيروا بسير أضعفكم»

إلا أن الأول أحسن ، لأنه أبلغ معنىً ، فإن الأمير واجب الحكم فهو يتبَّع ، وإذا كان المضعف أمير الركب كانوا مؤتمرين له في سيرهم ونزولهم ، وهذا المعنى لا يوجد في قوله « سيروا بسير أضعفكم » .

وأحسن من هذا كله ما ورد عنه ﷺ في حديث مطول يتضمن سؤال جبريل عليه السلام فقال من جملته: ما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

فقوله : « تعبد الله كأنك تراه » من جوامع الكلم لأنه ينوب مناب كلام كثير كأنه قال :

تعبد الله مخلصاً في نيتك، واقفاً عند أدب الطاعة من الخضوع والخشوع ، آخذاً أهبة الحذر وأشباه ذلك ، لأن العبد إذا خدم مولاه ناظراً إليه استقصى في آداب الخدمة بكل ما يجد إليه السبيل وما ينتهي إليه الطوق .

ومما أطربني من ذلك حديث الحديبيَّة ،وهو أنه جاء بديل بن ورقاء إلى النبي ﷺ فقال له: إني تركت كعب بن لؤيّ. . . معهم العوذ المطافيل[1] وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت. فقال له النبي ﷺ:

« إن قريشاً قد نهكتهم الحرب ، فإن شاءوا ماددناهم مدة ويدعوا بيني وبين الناس . فإن أظهر عليهم وأحبوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس ، وإلا كانوا قد جموا . وإن أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهَّم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي هذه ، ولينفذنَّ الله أمره ».

وهذا الحديث من جوامع الكلم وهو من الفصاحة والبلاغة على غاية لا ينتهي إليها وصف الواصف ).[2]

وقال ابن الأثير :

(. . . ومن ذلك قول النبي ﷺ : «الخراج بالضمان».

وذاك أن رجلاً اشترى عبداً فأقام عنده مدَّة ، ثم وجد به عيباً فخاصم البائع إلى النبي ﷺ فردَّه عليه، فقال: يا رسول الله إنه استغل غلامي، فقال: «الخراج بالضمان».

ومعنى قوله « الخراج بالضمان » أن الرجل إذا اشترى عبداً فاستغلَّه ثم وجد به عيباً دلسَّه عليه البائع فله أن يردَّه ويسترجع الثمن جميعه ، ولو مات العبد أو أبق أو سرقه سارق كان في مال المشتري وضمانه عليه.

وإذا كان ضمانه عليه فخراجه له ، أي له ما تحصل من أجرة عمله ).[3]

---

(١) العوذ : الحديثات النتاج من الظباء وكل أنثى .
والمطافيل : جمع مطفل ، والمطفل ذات الطفل ، يقال : طفلنا إبلنا تطفيلاً إذا كان معها أولادها فرفقنا بها في السير . هذا هو الأصل . وقد أورد ابن الأثير قطعة من الحديث فيها ( العوذ المطافيل ) في باب الكناية والتعريض في المثل السائر : ٣ / ٦٤ ـ ٦٥

(٢) المثل السائر ٢ / ٣٤٠ وما بعدها

(٣) المثل السائر ٢ / ٣٥٠

وقال ابن الأثير في مبحث الكناية :

( وأما ما ورد في الأخبار النبويّة فقول النبي ﷺ :

« أنه كانت امرأة فيمن كان من قبلنا ، وكان لها ابن عم يحبها فراودها عن نفسها ، فامتنعت عليه حتى إذا أصابتها شدة ، فجاءت إليه تسأله ، فراودها ، فمكنته من نفسها فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة قالت له :

«لا يحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه» فقام عنها وتركها: وهذه كناية واقعة في موقعها.

ومن ذلك أيضاً قول النبي ﷺ : «رويدك سوقك بالقوارير»

يريد بذلك النساء ، فكنَّى عنهنَّ بالقوارير ، وذاك أنه في بعض أسفاره وغلام أسود اسمه أنجشه يحدو فقال له :

« يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير »

وهذه كناية لطيفة ) .[١]

وقال ابن الأثير :

( ومن ذلك ما ورد في إقامة الحد ، على الزاني : « وهو أن يشهد عليه برؤية الميل في المكحلة». وذلك كناية عن رؤية الفرج في الفرج.

ومن لطيف الكنايات : أن امرأة جاءت لعائشة رضي الله عنها فقالت لها : « أقيِّد جملي ؟ »

فقالت عائشة رضي الله عنها : لا .

أرادت المرأة أن تضع لزوجها شيئاً يمنعه عن غيرها ، أي تربطه أن يأتي غيرها .

---

(١) المثل السائر ٣ / ٦٤

فظاهر هذا اللفظ هو تقييد الجمل . وباطنه ما أرادته المرأة وفهمته عائشة .

وكذلك ما يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وذاك أنه جاء إلى النبيّ ﷺ فقال :

- يا رسول الله هلكت .

- قال : وما أهلكك ؟

- قال : حولّت رحلي البارحة .

- فقال النبي ﷺ : «أقبل وأدبر واتق الدُّبر والحيضة .»[1]

وقال ابن الأثير :

( ومن خَفَيِّ التعريض وغامضه ما ورد في الحديث الشريف وهو أنَّ النبيّ ﷺ خرج وهو محتضن أحد ابني بنته وهو يقول :

« والله إنكم لتجبنون وتبخلون وتجهلون ، وإنكم من ريحان الله ، وإنَّ آخر وطأة وطئها الله بوج» .

اعلم أن وَجّاً بالطائف والمراد به غزوة حنين . وحنين وادٍ قبل وَجٍّ ، لأن غزاة حنين آخر غزاة أوقع بها رسول الله ﷺ مع المشركين .

وأما غزوتا الطائف وتبوك اللتّان كانتا بعد حنين فلم يكن فيهما وطأة أي قتال ، وإنما كانتا مجرد خروج إلى الغزو من غير ملاقاة عدوٍّ ولا قتالٍ . ووجه عطف هذا الكلام وهو قوله ﷺ : «وإنَّ آخر وطأة وطئها الله بِوَجٍّ»

على ما قبله من الحديث هو التأسف على مفارقة أولاده لقرب وفاته لأن غزوة حنين كانت في شوال سنة ثمان ، ووفاته ﷺ كانت في ربيع الأول من سنة إحدى عشرة ، وبينهما سنتان ونصف فكأنه قال :

(١) المثل السائر ٣ / ٦٥

وإنكم من ريحان الله ـ أيّ من رزقه ـ وأنا مفارقكم عن قريب إلاّ أنه صانع عن قوله : وأنا مفارقكم عن قريب بقوله : (وإن آخر وطأة وطئها الله بِوَجٍّ). وكان ذلك تعريضاً بما أراده وقصده من قرب وفاتهﷺ) ـ .[1]

وبعد فلقد أوردت كثيراً من كلام ابن الأثير في بلاغه الحديث وسقت كل ما له صلة بالصورة الفنيّة في الحديث .

وعلى الرغم من أنه أكثر المتقدمين دراسة للأحاديث في مجال البلاغة فإنه لم يزد عمله كما يبدو من هذه النصوص عن أمرين اثنين :

(١) تعليقات عامّة تدلُّ على استحسانه دون أيٍّ دراسة أو تحليل . كقوله : (وهذا من الحسن إلى غاية تغض لها العيُون طرفها ولا ينتهي الواصف إليها ، فيكون ترك وصفها كوصفها ) .[2]

وكقوله بعد أن أورد الحديث : « إن قريشاً قد نهكتهم الحرب » (وهذا الحديث من جوامع الكلم وهو من الفصاحة والبلاغة على غاية لا ينتهي إليها وصف الواصفين ) .[3]

وقد يعلّق بكلمة موجزة جداً كما في قوله :( وهذه كناية واقعة في موضعها)[4]

وقوله عن كناية أخرى :(وهذه كناية لطيفة) .

(٢) ملاحظات تبقى في حدود التقسيمات الجامدة التي وضعها البلاغيُّون كالتشبيه المركب والتشبيه العقلي والحسي وما إلى ذلك . فقد كان يعمد إلى التعقيب بذكر هذه المصطلحات والتقسيمات وتطبيق القاعدة على نص الحديث ، لقد كان يشبه من يملأ الجداول بهذه الكلمات حسبما تقتضي قواعد البلاغة التي قررت هذه التقسيمات . وذلك كقوله :

---

(١) المثل السائر ٣ / ٧٤
(٢) المثل السائر ٢ / ١٥١
(٣) المثل السائر ٢ / ٣٤١
(٤) المثل السائر ٣ / ٦٤




( وهذا من باب تشبيه المركب بالمركب ، ألا ترى أن النبي ﷺ شبَّه المؤمن القارىء وهو متصف بصفتين هما الإيمان والقراءة بالأُترجَّة وهـي ذات وصفين هما الطعم والريح ).(١)

لم يجاوز هذين الأمرين إلى غيرهما ولم يخرج بدراسة الحديث بيانياً إلى مجال أوسع ولم يستخلص الخصائص الفنيَّة التي يقف عليها الدارس للحديث .

وأودُّ أنْ أشير إلى أن عدداً من المشتغلين بالأدب جمع طائفة من الأحاديث من أمثال السيُّوطيّ في « المزهر » والأبشيهي في « المستطرف » وغيرهما .

***

## جهود العلماء المحدثين في دراسة الصُّورة الفنِّية :

قامت في العصر الحاضر محاولات عِدَّة في دراسة البيان النبوي ، بعضها كان مستقلاً بالبحث ، وبعضها كان في ثنايا بحث آخر أو مقالة في مجلة . وسنمر مروراً سريعاً بأكثرها وسنقف عند محاولتين اثنتين :

أمّا أولاهما فلأنها من الخطوات الرائدة وهي محاولة الأستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله .

وأمّا الأخرى فلأنها أوسع هذه المحاولات وهي دراسة الدكتور عزّ الدين علي السيِّد .

## مصطفى صادق الرافعي المتوفى ١٣٥٦ هـ ( ١٩٣٧ م ) :

كتب الأستاذ الرافعي في البلاغة النبويّة أعمـق كتابة وكان ما كتبـه ـ على إيجازه ـ أصيلاً . فقد كتب ٦٦ صفحة في « إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة » وكتب في وحي القلم ( ٣٠ ) صفحة .

(١) المثل السائر ٢ / ١٤٠

وواضح أنه بذل جهداً كبيراً في صياغتها معنىً وأسلوباً وموسيقى ، خذ مثلاً قوله في مفتتح حديثه عن البلاغة النبويّة :

قال : ( **ألفاظ النبُوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه ، فهي وإن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيله ، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله ، محكمة الفصول ، حتى ليس فيها عروة مفصولة ، محذوفة الفضول ، حتى ليس منها كلمة مفضولة ، وكأنَّما هي في اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم** ) .[١]

وكتابته في بلاغة الحديث أقرب إلى المديح النبويّ في كثير من جوانبها منها إلى الدراسة التحليليَّة التذوقيَّة يقول :

( . . . . فإن هذا الكلام النبويّ لا يعتريه شيء مما سميناه لك آنفاً ، بل تجده قصداً محكماً متسايراً ، يَشُدُّ بعضه بعضاً وكأنه صورةٌ روحيةٌ لأشدِّ خلق الله طبيعة ، وأقواهم نفساً ، وأصوبهم رأياً وأبلغهم معنًى ، وأبعدهم نظراً ، وأكرمهم خُلُقاً ، وهذا وشبهه لا يتأتى إلاَّ بعنايةٍ من الله تأخذ على النفس مذاهبها الطبيعيَّة وتتصرف بِشِدَّتها على غير ما يبعث عليه الطبع الحديد والخلق الشديد . ويخرجها من كل أمر متكافئة متوازنة ) .[٢]

ويستعمل بعض المصطلحات التي لم تسمع عن غيره من المشتغلين بالأدب والبلاغة كالأسلوب العصبيّ ، وهي لا تخلو من غموض ، وإليك هذا المقطع الذي فيه شيء من هذه المصطلحات ويلفُّه الغموض ويتسم بالعموم ، قال :

« . . . فإذا تأملتها متَّسقةً وتمثلتها قائمةً في جملة النفس ، وأنعمت على تأمل صورها الكلاميَّة التي تبعث الكلام وتزنه وتنظمه وتعطيه الأسلوب وتجمله بالرأي وتزينه بالمعنى فإنك ستجد من ذلك أبلغ ما أنت واجده من الأساليب العصبيَّة في هذه اللغة وأشدّها وأحكمها مما لا يضطرب به الضعف ، ولا تزايله الحكمة ولا

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة : ٣١٢
(٢) المرجع نفسه : ٣٢٥

تخذله الرَوِيَّة ، ولا يباينه الصّواب، بل يخرج رضياً غير متهافت ، متسقاً غير متفاوت لا يغلب على النفس التي خرج منها بل تغلب عليه ، ولا تسترسل به المخيلة بل يضبطه العقل ، ولا يتوثب به الهاجس بل يحكمه الرأي ، ولا يتدافع من جهاته ولا يتعارض من جوانبه ، بل تراه على استواء واحد في شدة وقوة واندماج وتوثيق » .[1]

ويبدو أنه اعتمد في كلامه عن البلاغة النبويَّة على كتابات الجاحظ وابن الأثير والشريف الرضي .

كان ذلك شيئاً من كلامه في البلاغة النبويَّة بعامة ، أما حديثه عن الصورة الفنيّة في الحديث فقد أورد نماذج من الأحاديث فيها صور ودرسها ، وسنذكر معظم هذه الصُور . من ذلك أنّه أورد الحديث «هدنة على دخن» فقال :

« والهدنة الصلح والموادعة . والدخن تغير الطعام إذا أصابه الدخان في حال طبخه فأفسد طعمه .

وهذه العبارة لا يعد لها كلام في معناها ، فإنَّ فيها لوناً من التصوير البياني لو أذيبت له اللغة كلها ما وفت به ، وذلك أن الصلح إنما يكون موادعة ولينا وانصرافاً عن الحرب وكفّاً عن الأذى وهذه كلها من عواطف القلوب الرحيمة ، فإذا بني الصلح على فساد وكان لعلة من العلل غلب ذلك على القلوب فأفسدها حتى لا يستروح غيره من أفعالها ، كما يغلب الدخن على الطعام فلا يجد آكله إلا رائحة هذا الدُخان ، والطعام بعد ذلك مشوب مفسد .

فهذا في تصوير معنى الفساد الذي تنطوي عليه القلوب الواغرة وثَمَّ لون آخر في صفة هذا المعنى وهو اللون المظلم الذي تنصبغ به النِّية السوداء وقد أظهرته في تصوير الكلام لفظة ( الدخن ) ثم معنىً ثالث وهو النكتة التي من أجلها اختيرت هذه اللفظة بعينها، وكانت سر البيان في العبارة كلها، وبها فضلت كل عبارة تكون في هذه المعنى، وذلك أن الصُلح لا يكون إلاّ أن تطفأ الحرب، فهذه حرب قد طفئت نارها بما سوف يكون فيها ناراً أخرى كما يلقى الحطب الرطب على النار تخبو به قليلاً

---

(1) إعجاز القرآن ٣٢٤





ثم يستوقد فيستعر فإذا هي نار تلظّى، وما كان فوقه الدخان فإن النار ولا جرم من تحته.

وهذا كله تصوير لدقائق المعنى كما ترى ، حتى ليس في الهدنـة التـي تلك صفتها معنى من المعاني يمكن أن يتصور في العقل إلا وجدت اللون البياني يصوره في تلك اللفظة لفظة « الدخن » » .[1]

***

وقال : « ومنها قوله عليه الصلاة والسلام : « بعثت في نفس الساعة » يريد أنه بعث والساعة قريبة منه ، فوصف ذلك باللفظة التي تدلُّ على أدقّ معاني الحس بالشيء القريب وهي لفظة ( النفس ) كما يحس المرء بأنفاس من يكون بإزائـه ولا يكون ذلك إلاَّ على شِدَّة القرب . وإنمَّا أفرد اللفظة ولم يقل : بعثـت في أنفـاس الساعة ، لأنها نفخة واحدة ، وهذا معنًى آخر ، فإن النفخة الشديدة متى جاءت من بعيد كانت كالنفس من الأنفاس .

وليس المراد من قرب الساعة أنها قدر اليوم أو غد على التعيين ولكن المراد أنها آتية لا ريب فيها ، وأن ما بقى من عمر الأرض ليس شيئاً فيما مضى ، وأن لا نظام لإنسان الدنيا إلاَّ أن يتمثل في نفسه إنسان الآخرة فالساعة من القرب كأنهامن كل إنسان في آخر أنفاسه ، وهذا كله قد أصبح من الحقائق التي لا مرية فيها .

وفي تلك اللفظة معنىً ثالث كأنه يقول : إن عمر الأرض كان طويلاً فكانت الساعة بعيدة ، ثم قصر هذا العمر فبدأت الساعة تتنفس ، وما يدرينا أنه قد حان أجل الأرض كما يحين أجل النهار عندما تبدأ الدقيقة الأولى من ساعة الغروب ثم لا ينقضي هذا الأجل إلاَّ في الدقيقة الأخيرة من هذه الساعة ؟ » .[1]

وقال الأستاذ الرافعي :

( في الحديث الشريف « ليدْخُلَنَّ هذا الدين على ما دخل عليه الليل » وكأن

---

(١) إعجاز القرآن ٣٦٣ - ٣٦٤

العبارة نص على أن الإسلام يعم حين تظلم الدنيا ظلامها الشعري . . . إذا طمست الإنسانية بلذاتها ، وأظلمت أفاقها الروحانية فيجيء الإسلام في قوة أخلاقه كشباب الفجر يبعث حياة النور الإنساني بعثاً جديداً ، وهذا هو رأينا في مستقبل الإسلام ، لا بدّ من انحلال أوروبا وأمريكا ، كما يصفرُّ النهار ثم يختلط ثم يظلم ، ثم تطلب الطبيعة نورها الحي من بعد ) .[1]

وقال في شرح حديث السفينة :

( وقفت عند قوله ﷺ « إن قوماً ركبوا في سفينة . . . » فكان لهذا الحديث في نفسي كلام طويل عن هؤلاء الذين يخوضون معنا البحر ويسمُّون أنفسهم بالمجددين وينتحلون ضروباً من الأوصاف كحرية الفكر والغيرة والإصلاح ، ولا يزال أحدهم ينقر موضعه من سفينة ديننا وأخلاقنا وآدابنا بفأسه أي بقلمه . . . . زاعماً أنَّه موضعه من الحياة الاجتماعية يصنع فيه ما يشاء ويتولاه كيف أراد موجهاً لحماقته وجوها من المعاذير والحجج من المدنية والفلسفة ، جاهلاً أنّ القانون في السفينة إنما هو قانون العاقبة دون غيرها ، فالحكم لا يكون على العمل بعد وقوعه كما تحكم على الأعمال الأخرى ، بل قبل وقوعه ، والعقاب لا يكون الجرم يقترفه المجرم . . . بل على الشروع فيه ، بل على توجّه النيّة إليه ، فلا حريَّة هنا في عملٍ يفسد خشب السفينة أو يمسه من قرب أو بعد ما دامت ملججة في بحرها ، سائرة إلى غايتها . إذ كلمة ( الخرق ) لا تحمل في السفينة معناها الأرضي ، وهناك لفظة ( أصغر خرق ) ليس لها إلاّ معنًى وهو ( أوسع قبر ) .

ففكر في أعظم فلاسفة الدنيا مهما يكن من حريَّته وانطلاقه فهو ههنا محدود على رغم أنفه بحدود من الخشب والحديد تفسيرها في لغة البحر القبر والغرق والهلاك .

فكلمة ( الفلسفة ) يكون من بعض معانيها في الاجتماع الحماقة والغفلة والبلاهة .

---

(١) وحي القلم ٣ / ٥





وكلمة ( الحريَّة ) يكون من معانيها الجناية والزيغ والفساد .

وعلى هذا القياس اللغويّ فالقلم في أيدي بعض الكتَّاب من معانيه الفأس ، والكاتب من معانيه المخرِّب ، والكتابة من معانيها الخيانة) .[1]

وقال الأستاذ الرافعي :

( .. ثم تأمل قوله ﷺ : « ولو أنْ تعضَّ بأصل شجرة » فإنَّ معناه الاستمساك بما بقي على الطبيعة مما لا يستطيع أولئك أنْ يُغَيروه ولا أنْ يجددوه أيْ بالاستمساك ولو بأصل واحد من قديم الفضيلة والإيمان .

وعبارة العضّ بأصل شجرة تمثل أبدع وأبلغ وصف لمن يلزم أصول الفضائل في هذا الزمن ، وَمَبْلَغ ما يعانيه المتمسك بفضيلته وهي وحدها فن كأجمل ما يبدعه مصور عبقري ) .[2]

وقال الرافعي في شرح حديث البخيل والمنفق :

( عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله (ﷺ) يقول : « مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما فأمّا المنفق فلا ينفق إلاّ سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفي بنانه وتعفو أثره . وأمّا البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلاّ لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع » .

فأنت ترى ظاهر الحديث ، ولكن فنّه العجيب في هذا الحديد الذي يراد به طبيعة الخير والرحمة في الإنسان ، فهي من أشدّ الطبائع جموداً وصلابة واستعصاء متى اعترضتها حظوظ النفس الحريصة وأهواؤها ومع ذلك فإن السخاء بالمال يبسط منها وينتهي في الطبع إلى أن يجعلها ليِّنة ، فلا تزال تمتد وتسبغ حتى يكون كمال طبع السخاء وهو كمال طبع الخير في النفس الكريمة . فمن ألزم نفسه الجود والإنفاق راضها رياضة عمليّة كرياضة العضل بأثقال الحديد ومعاناة القوة في الصراع ونحوه .

(١) وحي القلم ٣ / ٦ ـ ٨
(٢) وحي القلم ٣ / ٨



أما الشُّح فلا يناقض تلك الطبيعة ولكنه يدعها جامدة مستعصية لا تلين ولا تستجيب ولا تتيَسر .

وقد جعل الجبَّة من الثدي إلى التراقي . وهذا من أبدع ما في الحديث ، لأن كل إنسان فهو منفق على ضروراته يستوي في ذلك الكريم والبخيل ، فهما على قدر سواء من هذه الناحية ، وإنمَّا التفاوت فيما زاد وسبغ من وراء هذا الحد ، فههنا يبسط الكريم بسطه الإنساني . أمَّا البخيل فهو يريد لأنه إنسان ، والإرادة عمل عقلي لا أكثر ، فإذا هو حاول تحقيق هذه الإرادة وقع من طبيعة نفسه الكزة فيما يعانيه من يوسع جبة من الحديد لزقت كل حلقة من حلقاتها في مكانها فهي مستعصية متماسكة فهو يوسعها فلا تتسع ) .[1]

وقال الرافعي :

( . . . وقوله لأُسامة بن زيد وقد كساه قبطيَّة فكساها امرأته :

« أخاف أنْ تصف حجم عظامها » .

قال الشريف الرضي في شرح هذه الكلمة : وهذه استعارة ، والمراد أنَّ القبطية برقتها تلصق بالجسم فتبين حجم الثديين والرادفتين وما يشتد من لحم العضدين والفخذين فيعرف الناظر إليها مقادير هذه الأعضاء حتى تكون كالظاهرة للحظه ، والممكنة للمسه فجعلها عليه الصلاة والسلام لهذه المحال كالواصفة لما خلفها والمخبرة عمّا استتر بها .

وهذه من أحسن العبارات عن هذا المعنى ، ولهذا الغرض رمى عمر بن الخطاب في قوله : إيَّاكم ولبس القباطي ، فإنها إلاّ تشف تصف . فكان رسول الله ﷺ أبا عذرة هذا المعنى ، ومن تبعه فإنمَّا سلك فجه ) .[2]

قلت : وهذا كلام حسن ، ولكن في عبارة الحديث سرّاً هو من معجزات

---

(١) وحي القلم ٣/ ١٤

(٢) انظر : المجازات للشريف ١٢٩





البلاغة النبويّة لم يهتد إليه الشريف على أنّه هو حقيقة الفَنّ في هذه الكلمة بخلاصتها ، ولا نظن أن بليغاً من بلغاء العالم يتأتى لمثله ، فإنّه عليه الصلاة والسلام لم يقل أخاف أن تصف حجم أعضائها ، بل قال حجم عظامها . . . من أن المراد لحم الأعضاء في حجمه وتكوينه ، وذلك منتهى السمو بالأدب .

إذ ذكر ( أعضاء ) المرأة في هذا السياق وبهذا المعرض هو في الأدب الكامل أشبه بالرفث .

ولفظة ( الأعضاء ) تحت الثوب الرقيق الأبيض تنبِّه إلى صور ذهنية كثيرة هي التي عدها الشريف الرضي في شرحه، وهي تومىء إلى صور أخرى من ورائها، فتنزه النبّي ﷺ عن كل ذلك ، وضرب الحجاب اللغويّ على هذه المعاني السافرة ، وجاء بكلمة ( العظام ) لأنها اللفظة الطبيعية المبرأة من كل نزعة ، ولا تقبل أنْ تلتوي ، ولا تثير معنى ، ولا تحمل غرضاً ، إذ تكون في الحي والميت ، بل هي بهذا أخص .

وفي الجميل والقبيح ، بل هي هنا أليق .

وفي الشباب والهرم بل هي في هذا أوضح .

والأعضاء لا تقوم إلاَّ بالعظام ، فالمجاز على ما نرى، الحقيقة هي ما علمت »[1]

وقال الرافعي :

(وكقوله ﷺ : « إنَّ المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإنَّ الفاجر يرى ذنوبه كذباب مَرَّ على أنفه » .

وهذا كلام أبْلَغ ما أنت واجد من تفسيره تلك النفس المؤمنة بإحساسها الرقيق كأنه حاسة من النور كبت في شعورها ، وتلك النفس الفاجرة بإحساسها الغليظ حاسة من التراب . . .

(١) وحي القلم ٣ / ٢٢ ـ ٢٣



ويكاد المؤمن الذي يسمع هذا الوصف يذكره ذنوبه أنْ يحسَّ بحركة جبل يهمُّ أنْ ينقلع فيميل عليه .

أمَّا الفاجر فيسمعه يذكره ذنوبه فإذا هي في خياله نقط سود تمر مر الذباب ، ليس منه إلاَّ الحس به كما يحس من يضرب على أنْفِه برجل ذبابة ، وجعل الذباب يمر على أنفه دون عينه أو فمه ، وذلك منتهى الجمال في التصوير ، لأن الذباب إذا وقع على الفم أوْ العين ثبت وألح ، فإذا وقع على قصبة الأنف لم يكد يقف ومر مروره ) .[1]

ولدى النظر في دراسته للصور الفنية الحديثية وجدت :

* أنّ المؤلف في حديثه عن الصور كان يعنى بالاستنباط والتعمق في فهم ألفاظ الحديث أكثر من العناية بدراسة الصُّورة .

* وأنّه قد يستنبط معنًى يبدو غامضاً ومهما حاولت أنْ تقف عليه وتربط بينه وبين الصورة استعصى ذلك عليك .

* وأنّه كان يوجه الحديث أحياناً لمعنًى يعيش في أحداثه كالمعركة القلمية التي نشأت في عصره بينه وبين أدعياء التجديد كما ترى في دراسته لحديث السفينة .

* وأنّه كان يعتمد أحياناً على الرمز والتوسع في مدلول بعض الكلمات بتكلُّف واضح كما ترى في تفسيره لحديث «ولو أن تعض بأصل شجرة» بأنه الإستمساك بأصل واحد من قديم الفضيلة والإيمان.

* وأنّه لم ينته في دراسته لهذه الصور في الحديث إلى قاعدة يرجع إليها .

* وأنّه استطاع أنْ يأتي في دراسته لهذه الصور بكتابةٍ ممتعةٍ رائعةٍ لغةً ومعنًى وموسيقًى .

* وأنّه كان متأثراً إلى حدٍ بعيد بضرورة التعبير عن المعاني الحديثية بلغة العصر ، وذلك كقوله :

---

(١) وحي القلم ٣/ ٢٥ ـ ٢٦

(إنَّ كلام نبينا ﷺ يجب أنْ يترجم بفلسفة عصرنا وآدابه فستراه حينئذٍ كأنَّما قيل مرة أخرى من فم النبوة ) .[1]

* ووجدت أنَّ نصيب الصور في بحثه الذي نشر في وحي القلم أكبر من نصيبها في «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية».

وأحسب أنَّه لو أفرد موضوع الصُّورة في الحديث بالكتابة وتجنَّب الرمزيَّة والمبالغة في الاستنباط وابتعد عن حصر نفسه في ألفاظ ومصطلحات إذن لاستطاع أنْ يأتي بكثير مما نتطلع إليه الآن .

* ومهما يكن من أمر فإنَّ كتابته في البلاغة النبوية كانت ذات تأثير كبير على المعاصرين ، فما من باحث اشتغل في بلاغة الحديث إلاَّ تأثَّر بها قليلاً أو كثيراً .

***

**دراسات أخرى :**

وقامت دراسات أخرى لا تخلو من لمحات موفَّقة ولكنها كانت تأتي في أثناء بحث فلا يكاد المرء يلتفت إليها .

ومن أشهر الكتَّاب الذي كتبوا في البلاغة النبويَّة الأستاذ أحمد حسن الزيَّات في مجلة « الرِّسالة » فقد كتب عدة مقالات في هذا الموضوع في أوقات مختلفة ثم ضمها مع غيرها في كتاب دعاه « وَحي الرِّسالة » .

ومنهم الأستاذ عبَّاس محمود العقَّاد في كتابه « عبقرية محمد » ، فقد كتب فصلاً بعنوان « البليغ » ، ويقع هذا الفصل في نحو عشر صفحات .

ومنهم الأستاذ عبد الرحمن عزَّام في كابه « بطل الأبطال » فقد كتب فصلاً بعنوان : فصاحته وبلاغته ، ويقع هذا الفصل في نحو عشر صفحات .

---

(١) وحي القلم ٣ / ١٥



ومنهم أستاذنا الشيخ مصطفى الزَّرقا في رسالته القيِّمة «في الحديث النبوي» .

ومنهم أستاذنا الشيخ السيد محمد الخضر حسين في الكتاب الموسوم «بـ محمد رسول الله وخاتم النبيِّين» .

وهناك كتاب عنوانه «أدب الحديث النبوي» للدكتور بكري الشيخ أمين ، وهو يتألَّف من ثلاثة أبواب: الباب الأول في مصطلح الحديث، والباب الثاني في أدب الحديث وقد استغرق ٢٤ صفحة فقط وليس للمؤلف من هذا الباب إلا الجمع فقط. والباب الثالث تحليل أدبيّ لنماذج من الحديث وأورد فيه ٢٨ حديثاً وقد شرحها واستطرد في شرح بعضها[1] ولم يُعنَ بدراسة الصورة.

وإن تعجبْ فعجبٌ صنيع المؤلِّف الذي سمى الكتاب باسم الباب الثاني وهو أقلها حجماً وعلماً وهو لا يجاوز ٢٤ صفحة من ٢٤٠ .

وهناك دراسات تحليلية لعدد من الأحاديث نشرها مؤلِّفوها لتلاميذهم الذين يدرسونهم أو لقرائهم. من هذه الدراسات كتاب «أدب الأحاديث القُدْسيَّة» للدكتور أحمد الشرباصي ، ومنها كتاب «قبسات من الرَّسول» للأستاذ محمَّد قطب ، ومنها كتاب «روائع من أقوال الرسول». للأستاذ عبد الرحمن حبنكة ، ويشرح عشرة أحاديث وهو كتاب مدرسي يدرس الحديث وفق خطة بيَّنها المؤلف.

ومنها كتاب «من كنوز السُّنَّة» للأستاذ محمد علي الصَّابونيّ ، وقد ذكر أربعة وثلاثين حديثاً ثم أورد عدة أحاديث دون شرح ، وشرحه يغلب عليه الإيجاز .

وليس لهذه الكتب عناية بالصورة الفنية وما ذكرتها إلاّ لأنها كتب تحمل عناوين توهم أنها تبحث الحديث من الناحية البلاغيَّة ، وبعضها خصص جانباً من

(١) انظر مثالاً على ذلك ما كتبه في شرح الحديث الأخير من لقاح النبات وحركة النجوم وعلم البصمات والجاذبية والانشطار النووي في القرآن والفضاء وأن ذلك كله في القرآن يشرح الحديث (كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم ..)





جوانب شرحه للحديث يتصل بالبلاغة لكنه كان في هذا الجانب تقليدياً يطبق النص على القواعد الجافة التي قررها العلماء المختصون .

ومن الكتب التي بحثت موضوع الصُّورة الفنية وذلك في ثنايا البحث في بلاغة الحديث كتابنا « الحديث النَّبوي » .

ونختم هذا البحث بإعطاء فكرة عن كتابين :

أما أحدهما فكتاب « الحديث النبوي » من الوجهة البلاغِيَّة للدكتور عز الدين السيِّد ـ صدر هذا الكتاب سنة ١٣٩٣ هـ ( ١٩٧٣ م ) عن مكتبة وَهْبَة في القاهرة ( في مصر ) .

وقد وجدته يُطَبِّق قواعد البلاغة التقليدية على الحديث . فترى المؤلِّف يتحدث عن التأكيد اللَّفظي بالتكرار ، وبالاداة إنَّ ، وبالنون ، وبالحرف الزائد ، وبالقصر وطرقه ، ويورد الأمثلة على ذلك من الحديث . وتراه أيضاً يتحدث عن التأكيد المعنوي بالتشبيه ، والتمثيل . ويعمد هنا إلى الأقسام التي ذكرها علماء البلاغة فيُوردُ شيئاً منها كتشبيه الحسي بالحسِّي والعقليّ بالحسّي . ويُوردُ التشبيه البسيط وتشبيه الهيئات ويتحدث عن المجاز المرسل والعقليّ وعن الفَصْل والوَصْل . ويتحدَّث أيضاً عن المُحَسِّنات البديعية كالالتفات وأسلوب الحكيم ، وعن خروج الكلام عن مقتضى الظاهر ويتحدث عن الاستفهام في البيان النبويّ . . . وهكذا .

أمّا حديثه عن الصُّورة الفنيَّة فقد كان عن طريق الدراسة لبعض الأحاديث وقد استغرق ذلك حيِّزاً لا بأس به وذلك من صفحة ١٣٦ حتى صفحة ٢٢٠ .

والحق أنَّ دراسته هذه للصورة الفنيَّة هي أوفر دراسات المحدثين قَدراً ولكنه لم يتحرر من أقوال علماء البلاغة وقوالبهم فأفقد بتطبيق النصوص على تلك القوالب كثيراً من حرارتها وروعتها ولم نشعر أنَّه تفاعل مع نصوص السُّنة التي أخضعها لتطبيقاته ، فغابت في بحثه كثير من معالم الأصالة والتعمُّق في مواضع متعدِّدة من بحثه .

والمآخذ الذي يَرِدُ على المؤلف أنّه لَمْ يرجع إلى كتب السُّنة الأصليَّة كالكتب الستة ومسند أحمد وموطّأ مالك وسُنَنِ الدارمي بل كان رجوعه إلى كتابي : تَيْسير الوصول ، والجامع الصغير ، رجع إلى الأول كثيراً وإلى الثاني قليلاً .

وأنا لا أنكر أنْ يرجع باحث إلى هذين المرجعين ، غيرَ أنَّ الذي أنكره أنْ يقتصر عليهما المؤلف وبحثه في الحديث النبويّ ، إنَّ هذا عَيْبٌ دون شك . بل لقد وجدته أحياناً يُخَرِّجُ حديثاً بِأنْ يقول : ورد في مقدمة الفائق للزمخشري وما إلى ذلك .

ومهما يكن من أمر فكتابه يعد بحقّ خطوة طيبة في دراسة البلاغة النبوية عامَّة والصُّورة خاصَّةً .

وأمَّا الثاني فكتاب « أمثالُ الحديث مع تقدمة في علوم الحديث » تأليف الدكتور عبد المجيد محمود ، صدر هذا الكتاب عن دار التراث وطبع في مطبعة السُّنة المحمدية في مصر سنة ١٩٧٥ .

وهو كما يَدُلُّ عليه عنوانه مؤلف من قسمين :

القسم الأول في علوم الحديث ويبدأ من أول الكتاب حتى صفحة ٨٠ .

والقسم الثاني في أمثال الحديث ويبدأ من ص ٨٢ حتى ص ٣٢٦ .

وقد ذكر معنى المثل أولاً ثم ذكر أنواعه .

وذكر أنْ العسكري[1] ألَّف كتاباً في الأمثال النبوية ، ونقل عن الميداني في مقدمته قوله :

( وأمَّا الكلام النبوي من هذا الفنْ فقد صَنَّفَ العسكريُّ فيه كتاباً برأسه ، ولم يألُ جهداً في تمهيد قواعده وأساسه ) .

وذكر أيضاً أنَّ الميدانيّ وضع في آخر كتابه فصلاً للكلام النبويّ المندرج تحت المثل الموجز السائر جمع فيه ٥٨ حديثاً .

ونقل عن فؤاد سِزْكِينْ أنَّ أبَا عروبة الحسيْن بن محمد بن أبي معشر الحراني المتوفى سنة ٣١٨ له كتاب « الأمثال السائرة » .

---

(١) هو الحسن بن عبد الله أبو هلال العسكري ، وذكر ذلك حاجي خليفة في « كشف الظنون » ١٠٨٦

وأشار إلى أن الترمذيّ في جامعه خَصَّ الأمثال بمجموعة من الأبواب ، فهناك في جامع الترمذي « أبواب الأمثال عن رسول الله ﷺ » ، وذكر أيضاً أنَّ ابن خلاَد الرامهرمزيّ له كتاب : « أمثال الحديث المروية عن رسول الله ﷺ » ، وهذا الكتاب كتاب صغير ، وقد احتفظ معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بميكروفيلم له تحت رقم ٩٤ حديث .

أمَّا الأمثال التي درسها المؤلِّف فهي ٢٨ حديثاً وقد شرحها شرحاً مطوَّلاً .

ثم نقل في آخر الكتاب الأحاديث التي أوردها الميدانيّ في مجمع الأمثال وبلغت ٥٨ حديثاً ، وفي هذه الأحاديث مجموعة من الصُّوَر .

***

# البَابُ الأوّلُ

## الصُّوَرُ الحسِّيَّة وَالمعَنوِيَّـة

### في عالم الغيب

نبحث في هذا الباب الصور الحسية والمعنوية في عالم الغيب .

والغيب هو ما يغيب عن الإنسان ، والإيمان به أعظم أركان الإيمان .ومنكره كافر بإجماع المسلمين ، وقد ورد ذكر الإيمان بالغيب في غير موضع من كتـاب الله تبارك وتعالى .من أولها قولها تعالى في مطلع سورة البقرة :

﴿ ألم . ذلك الكتـاب لا ريب فيه هدى للمُتقـين الـذين يؤمنـون بالغيب ويقيمون الصلاة وممّا رزقناهم ينفقون ﴾ .

إلى قوله :

﴿ . . . . أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ .

والغيب قسيم الشهادة ، وعالـم الشهـادة هو ما يقـع تحـت حس الإنسـان وشهادته ، وقد وجدت أن الصوّر المتعلقـة بالغيب متضمّنـة في هذه الموضوعـات الرئيسية التي أجملها فيما يأتي :

الله جـل جلاله ، يوم القيامة ، الجنَّة والنَّار، الملائكة، الشيطان ، الفتن ، متفرقات .

***





## (١) اللهّ جلّ جلاله

استبعدت في هذا الموضوع كثيراً من النصوص التي يذهب جمهور من علماء المسلمين إلى أنها من الصور ، لأنهم يجيزون تأويل النصوص الدينية المتعلقة بذات الله تبارك وتعالى . وأوَدُّ أن أعترف بأنّني وقفت طويلاً عند كثيرٍ منهـا أجيل طرفي وفكري في كلام العلماء في شرحها وتحليلها ودراستها .

هـذا وقـد قام جدل طويل ، ونقـاش حاد بـين العلماء ولاسيما في القـرون المتأخرة ، وأخذت هذه القضية حيِّزاً ضخماً جدّاً عند السبكي وابن تيمية وأمثالهما ، نلمس ذلك في قراءتنا لطبقات الشافعية للسبكي وفي قراءتنا لكتاب الإيمـان لابـن تيمية ولآثار الرجلين عامة .

والرأي الذي أرى أنه الصواب هو أخـذ هذه النصـوص على ظاهرهـا دون تأويل ، وذلك للأسباب الآتية :

(١) لأنَّ هذا المنهج هو المنهج الذي نقل عن الصحابة والسلف في القرن الأوَل .

(٢) لأنَّ العقل البشريّ محدودٌ بحـدود الزَّمـان والمكان والمدركات البشريَّة ،فهو لا يستطيع أنْ يمضي في مجالات بعيدة عن اختصاصه وطاقاته، فليس لنا أنْ نقيس وأنْ نفصل في القضـايا الغيبيَّة ، ولا نستـطيع أن نزيد على ما ورد إلينـا من نصوص صحيحة .

(٣) لأن طبيعة اللغة العربية تقضي أن الكلام لا يحمل على المجاز إلاّ أن تكون هناك قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي . وهذا هو تعريف المجاز عند علماء البلاغة

إذْ قالوا : المجاز هو استعمال الكلمة في غير معناها الأصلي لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي .

فإذا كان النص غيبيّاً يتحدَّث عن أمر لا أَمْلِكُ بحدود عقلي أن أحكم عليه فما المانع من أنْ يكون ذلك حقيقة؟

من أجل ذلك كلّه استبعدت نصوصاً كثيرة جدّاً يذهب أنصار التأويل إلى أنها من المجاز .

ولكنني على الرغم من التزامي بهذا المنهج وجدّت صوراً كثيرة سأذكر نماذج منها في هذا الباب . لأن الصورة بمفهومي ، كما ذكرت ذلك في مقدمتي للرسالة ليست مجازاً فقط . . . بل هناك ألوان من الصّور أخرى كالموازنة والوصف والكناية ، وعلماء البلاغة يقرّرون أنّ الكناية يمكن أن يراد بها المعنى الأصلي بالإضافة إلى إرادة لازم المعنى كما هو معروف .

وبناءً على ما تقدم سأحلّل فيما يلي الصور التي تتعلق بالذّات الإلهيّة من خلال جوانب مختلفة .

## أ ـ وصف الله تعالى :

عن أبي موسى قال : قام فينا رسول الله ﷺ فقال :

« إنّ الله عزّ وجلّ لا ينام ولا ينبغي له أنْ ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع له عمل اللّيل بالنّهار ،وعمل النّهار باللّيل ، حجابه النُّور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » .[1]

إنّ عقل الإنسان كما قلنا لا يستطيع أنْ يدرك كنه الله تبارك وتعالى لأنّه سبحانه ﴿ليس كمثله شيء وهو السّميع البصير﴾ ، ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللّطيف الخبير﴾ .

---

(١) صحيح مسلم ١ / ١١١ ط . إستانبول ، صحيح مسلم بشرح النووي ٣ / ١٢ ـ١٤ ، وابن ماجه ١ / ٧١ .

ونحن هنا أمام نص يورد للخالق صفات خاصَّة لا تتوافر في أحد من مخلوقاته ، فهو عزَّ وجلَّ لا ينام ولا ينبغي له ذلك ،لأن النَّوم من مستلزمات الضَّعف والتَّعب ، وتعالى الله عن ذلك ، وهو ـ عَزَّ وجَلَّ ـ القائم بشؤون الكون المُصرِّفُ لأحواله فَمَا ينبغي له أنْ ينام .

وقال ﷺ : « يخفض القسط ويرفعه »

قال ابن قتيبة : ( القسط الميزان ، وسُمِّي قسطاً لأنَّ القسط العدل ، وبالميزان يقع العدل » . وهذا ما يدعوه علماء البلاغة بالمجاز المرسل وعلاقته الآلية ، قال : « والمراد أنَّ الله تعالى يخفض الميزان ويرفعه من أعمال العباد المرتفعة ، ويوزن من أرزاقهم النازلة وهذا تمثيل لما يقدر تنزيله فشبَّه بوزن الميزان ) .[1]

وأنا أفضِّل أنْ نقبل النَّص على ظاهره جرياً مع القاعدة التي قرَّرتها في مطلع الباب ، ومع ذلك تبقى هناك صورة رائعة :

هناك ميزان لا نعلم حقيقته لأنه من عالم الغيب ، وكلّ شيء من هذا العالم لا نستطيع أنْ نذكر فيه إلاَّ بمقدار مايرد إلينا عن الله ورسوله، وهذا الميزان توزن فيه أعمال العباد، والذي يخفضه ويرفع هو الله تبارك وتعالى على وجه يليق بجلاله ،يقول تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبَّة من خَرْدَلٍ أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ .[2]

إنَّ هذه الصورة الغيبية التي لا ندرك حقيقتها تنتهي بنا بعد تأملها والنظر فيها إلى أن هناك محاسبة دقيقة لا تفوتها جزئية عمل من الأعمال مهما صغرت .

ويمضي الحديث ليقرِّر لنا أنَّ أعمال الناس تبلغ إلى الله فوراً، وهو أعلم بها ولكن هذا المعنى عرض بصورة الرفع : «يرفع له عمل الليل بالنهار، وعمل النَّهار بالليل» .

---

(١) شرح صحيح مسلم للنَّوويّ ٣ / ١٣ .
(٢) سورة الأنبياء ٤٧ .

إذَنْ ليست الحياة عبثاً ، ولا يستطيع النَّاس أنْ يفرُّوا من سلطان الله تبارك وتعالى ، ولا أن يُخْفُوا عنه شيئاً مِمّا يعملون ، ولا أن يُفلتوا من قبضته ولا أنْ يتخلصوا من جريرة ما يعملون ، فرفع الأعمال مستمر ، والأعمال ـ كما تدل نصوص اخرى ـ محصيَّة مسجَّلة ، والإنسان سيجدها مُحْضَرَةً يوم القيامة ﴿يوم تجد كلُّ نفس ما عملت من خير مُحْضراً﴾[1] ﴿فمن يعمل مثقال ذرَّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرَّة شراً يره﴾ .[2]

« وحجابه النُّور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » .

الحجاب مفروض أن يكون ظلاماً كثيفاً لا يُبينُ ما وراءه أمَّا أنْ يكون نوراً فهو أمر غريب في التَّصوير ، وهذا النّور يشبه أن يكون ناراً ، لأنَّه يحرق من يقترب منه ، ومن أجل ذلك كان حجاباً مانعاً ، لا تستطيع المخلوقات بتركيبها الدنيويّ احتمال التعرُّض لرؤيته تبارك وتعالى ، فلو كشف حجاب النّور لأحرقتها سبحات وجهه .

وهذه العبارة الأخيرة تأتي في محلِّها من الصُّورة ، فاللهُ لا ينام وهو يزن أعمال العباد التي ترفع إليه أولاً بأول ، ثم جاءت هذه الجملة لتنبّه على أنّ الذي يقوم بهذه الأعمال ليس كمثله شيء وأنَّ مجرّد تَعَرُّضِ المخلوقات لسبحات وجهه يحرقها ، فَأَدَّتْ غرضين هما : التنزيه : تنزيه الخالق عن المماثلة ، والتَّرهيب : ترهيب المخلوق من التهاون في حياته مما يُعَرِّضه لوزن أعمال خطير خطير .

والتماُسك بين أجزاء الحديث واضح لمن يتأمله بأناة ، وهو بمجموعه يؤدِّي غرضاً دينياً مهماً هو الخوف من الله وإجلاله والحذر من الوقوع في معصيته .

وقد استطاع الحديث بكلماته المحدودة أنْ يُعبِّر عن موضوع في غاية الدِّقة لأنه يتعلق بذات اللهّ ، وأنْ يستخدم الصُّور الحسيَّة بأسلوب رائع يحقق الغرض الديني على أتم وجه .

***

---

(١) سورة آل عمران ٣٠ .

(٢) سورة الزلزلة ٧ ـ ٨ .





**ب ـ رحمته ومغفرته ، وغضبه وعقوبته :**

هذه الصِّفات الإلهية العلويَّة موضوع تقرِّره الصُّور الفنيِّة في الحديث على نحو يجمع بين تنزيه الله تعالى ومحبته ومخافته وهي أغراض دينية أصيلة .

والإسلام ـ بمصدريه الكتاب والسُّنة ـ يُرَبِّي المسلم على حبِّ الله ويجعله أبداً يعيش بين الخوف من عقوبة الله والرَّجاء الواسع في رحمته . وهو بذلك يعصم الأنفس التي تزلّ مرة أو مرات يعصمها من اليأس الذي قد يحُوِّل المرء إلى إنسان هدَّامٍ مجرمٍ أو إلى إنسانٍ مسرفٍ على نفسه مستهترٍ عابثٍ . والمرء فيه نوازع الخير والشرّ ، وفيه التّطلُّعات السَّامية والشَّهوات الحسيَّة ، وفيه الميول والأهواء . . . والتوازن بين التَّرغيب والتَّرهيب ، والمغريات والمخاوف هو الذي ينهض بالإنسان إلى المستوى الايجابي السَّوِيّ البنَّاء .

ولنأت إلى النُّصوص التي تعرض هذه المعاني بالصُّور الحسيَّة الرائعة :

ـ عن عمر بن الخطَّاب قال :

« قدم على رسول الله ﷺ بسبي ، فإذا امرأة من السَّبي كانت فقدت صبيَّها ، وتضرَّرت باجتماع اللبن في ثدييها ، فكانت تحلب ثديها تسقى ، وإذا وجدت صبياً في السبي أخذته فأرضعته ليخفَّ عنها ، فلمَّا وجدت صبيَّها بعينه أخذته فالتزمته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا النَّبيُّ ﷺ : «أتَرونَ هذه طارحة ولدها في النَّار؟»

ـ قلنا : لا ، وهي تقدر على أنْ لا تطرحه .

ـ فقال : « لله أرحم بعباده من هذه بولدها» . [1]

---

(١) صحيح البخاري ٨ / ٩ ط الشَّعب ، ٧٨ ، كتاب الأدب : ١٨ باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ، وصحيح مسلم : ٤٩ كتاب التَّوبة ، ٤ باب سعة رحمه الله ، ط . استانبول ٨ / ٩٧ وشرح النَّووي : ١٧ / ٧ ، وانظر : اللؤلؤ والمرجان : ٣ / ٢٤٠ وأقيسة النَّبي ﷺ ١٢٦ ، ١٩٢ ، والحديث بنصه من روايات جمعتها ، واستعنت بزيادة من رواية الاسماعيلي أوردها ابن حجر في « الفتح » .





رحمة الله بعبادة كبيرة واسعة ، وهذا الحديث يُقَـرِّب الفـكرة تقريبـاً يلامس القلوب .

ونهج الرَّسول ﷺ في الاستفادة من الحوادث الواقعيَّة التي يراها المخاطبون والتعليق عليها نهج تعليميّ رائع ، سنجد أمثلة كثيرة عليه في أثناء إيرادنا للنّصوص الفنّية الجميلة .

النَّاس ـ كما يقصُّ ذلك عمر بن الخطَّاب ـ يرون منظراً مؤثراً حقّاً ، أمٌ أسيرة فقدت صبيَّها الرَّضيع ، وقد امتلأ ثدياها باللبَّن ، وهو إنْ لم يفرَّغ بالرَّضاعة تألَّمت الأم ، فلم تجد هذه الأم المحزونة بُدّاً من أنْ تحلب ثديها تتخفَّفُ مِمّا في صدرها . . . وإذا وجدت صبيّاً أخذته فأرضعته وبينما هي كذلك إذا المفاجأة السَّارة التـي تكاد تذهب بعقلها فرحاً وسروراً إذا بها تجد صبيَّها بعينه ، فسارعت إليه ، وأخذتـه ، وألتزمته ، وأَلْصَقته ببطنها وأرضعته .

رأى النَّاس هذا المشهد الانسانيّ المؤثِّر ، وهذه الصورة الـواقعيَّة التـي تهـزُّ النَّفس البشريَّة هزّاً عنيفاً ، ذلك لأنه ليس شيء يعدل حنان الأم وحبَّها وحرصها على وليدها . . . واستولى عليهم العجب والرَّأفة والدَّهشة ، فيُعلِّق رسول الله ﷺ على هذه الحادثة تعليقاً يُرَسِّخ عقيدة دينيَّة في نفوس أتباعه ، وما كان لها أن ترسخ لو ألقيت فكرة مجرَّدة ولم يكن التعليق تقريراً مباشراً ولكنَّه كان على صورة الحوار فقال صلوات الله وسلامه عليه :

ـ أترون هذه طارحة ولدها في النَّار ؟

هذه التي وجدت وليدها الرَّضيع بعد فقدان . . . . والتي التزمته وألصقَتـه ببطنها . . . . والّتي لو استطاعت أنْ تفديه بنفسها لفعلت . . . . هل تطرح ولدها في النَّار ؟

سؤال مثير . وكان الجواب أنْ لا ، ما دامت قادرة على أنْ لا تطرحه وهنا يقرِّر الرَّسول الكريم ﷺ الفكرة التي أراد تقريرها عن رحمة الله : « للهّ أرحم بعباده من هذه بولدها » .





موازنة بين أمرين أحدهما رآه المشاهدون لوحة واقعيَّة حيَّة فيها الرحمة مجسَّدة بكل ما يمكن أنْ تحفل به الدُّنيا من تجسيد لمعنى الرَّحمة ،والثَّاني أمر غيبيّ يريد الرَّسول ﷺ تقريره . . . . فكانت هذه الحادثة والتعليق عليها أقدر في التعبير عن هذا الأمر من ألفاظ لغات الدُّنيا .

هذه القمَّة البشريَّة للرحمة في دنيا الواقع لا تعدُّ شيئاً أمام رحمة الله تبارك وتعالى لعباده « للهّ أرحم بعباده من هذه بولدها » .

***

ولا بدَّ من أنْ نشير إلى العامل النَّفسي الذي دخل في عناصر الصُّورة فجعلها أكثر إثارة .

فهذه الأم التي فقدت رضيعها بسبب أحداث الحرب والفوضى التي تنتاب المجتمع ،فاجتمع عليها ذُلُّ الأسر وفقد الولد واحتقان اللَّبن في الثديين ، إنَّ هذا ليجعلنا نعيش في جوٍّ نفسيٍّ متوترٍ نشفق على هذه المرأة ونرثي لها .

ويبرز العامل النَّفسي في إقبال هذه المرأة على أيٍّ وليد تعوِّض عن وليدها ، وتخفِّفُ عن نفسها وثدييها حتى إذا رأت ابنها أمسكت به وَضَمَّته إلى صدرها .

***

هذه الرَّحمة الواسعة التي وسعت كلَّ شيء كما قال تعالى في القرآن :

﴿ ورحمتي وسعت كلَّ شيء ﴾ .[1]

والتي رأينا صورتها الرَّائعة في تعليق الرَّسول ﷺ على الحادثة الواقعيَّة ، هذه الرَّحمة يعرضها علينا رسول الله ﷺ في صورة أخرى :

« عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

---

(١) سورة الأعراف ١٥٦



« جعل اللهُ الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين ،وأنزل في الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق ،حتى ترفع الدّابة حافرها عن ولدها خشية أنْ تصيبه » .[1]

وفي رواية :

« أنزل منها رحمة بين الجنّ والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون ، وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحش على ولدها وأخّرَ الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة » .[2]

ما أكبر رحمة الله !! وما أجلّها !! إن الرّحمة التي في الخلائق من جنّ وإنس وبهائم وهوامّ . . . الرّحمة التي يتراحم بها أفراد هذه الخلائق هي جزء واحد . . . . وادخر ربُّنا الرّحمن الرّحيم الرّؤوف تسعاً وتسعين رحمةً يرحمنا بها يوم القيامة .

فماذا تُشَكِّلُ رحمة الأم لولدها التي هي جزء من الرّحمة التي أنزلها الله وتقاسمتها الخلائق تتراحم بها . . . فإذا سألنا ماذا تُشكِّلُ رحمة الأم هذه من رحمة الله لم تستطع الأرقام تقدير نسبة هذه الرّحمة الجزئية من الأجزاء المائة .

ونرى في هذه الصُّورة كيف استخدم الحديث ألفاظاً ومعاني متصلة بحياة النّاس فالأم من البهائم والدوابّ والهوامّ ورحمتها بأولادها مما يقع تحت حسِّهم وهم قوم يعتمدون على الأنعام من إبل وبقر وغنم وعلى الخيل في أسفارهم وحروبهم ومصادر عيشهم ، ويحيون في الصحراء الزّاخرة بالبهائم والدوابّ .

بهذه الموازنة تتجلى لنا سعة رحمة الله تبارك وتعالى لعبادة . فعلام ييأس العصاة والمنحرفون ؟ إنَّ الطريق مُعَبَّد إنْ أرادوا سلوكه . . . . ألاَ فلتمتلىء النُّفوس بالرّحمة النّدية الحلوة الخيرة المعطاء .

وقد يفيد أنْ نبينّ اختلاف الصُّور في هذا الموضوع ، ففي الصُّورة السابقة

---

(١) صحيح مسلم ١٧ / ٦٨
(٢) صحيح مسلم ١٧ / ٦٩





كانت الأم،وفي هذه الصُّورة الدَّابة التي أودع اللهُ في قلبها الرحمة على وليدها ، ثم نرى في هذه الصُّورة استخدام الأرقام لتعظيم معنى الرَّحمة بصورة حسِّية .

***

ومن الصُّور الرَّائعة التي تقرِّر رحمة الله وحبَّه لعبادة وفرحه الشَّديد بتوبة عبده حين يتوب إليه هذه اللَّوحة التصويرية التي صيغت على شكل قصة سريعة على النَّحو الآتي :

هذا رجل يمشي في الصَّحراء . . . فأدركه التَّعب والجهد ، فنزل يبغي الرَّاحة بعد أنْ وضع على ناقته زاده وشرابه . . . ثم نفاجأ بالرَّجل لا يجد ناقته . . . . فيوقن بالموت المحقق ، الموت جوعاً وعطشاً . . . ويأتي شجرة فيضطجع في ظلِّها ينتظـر الأجل المحتوم ثم نفاجأ مرَّة أخرى بالرجل يرفع رأسه فيرى ناقته فوق رأسه ، فيفرح فرحاً يعقد لسانه ويحمله على الغلط في كلامه . . . إنَّ فرح اللهَ بتوبة عبده يفوق فرح هذا الرَّجل .

عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ :

« لله أشَدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرضٍ فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجـع في ظلِّها وقد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذْ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شِدَّة الفرح :

اللَّهمَّ أنت عبدي وأنا ربُّك
أخطأ من شِدَّةِ الفرح » .[1]

إنَّ هذا الفرح الشَّديد مظهر من مظاهر رحمة الله لعباده ، ورأفته بهم تبارك وتعالى ، فهو يفرح لتوبة عبده الذي ينقذ نفسه بهذه التوبة من النَّار .

---

(١) صحيح البخاري ٣ / ٩٧ و ١١٦ ، صحيح مسلم ط . إستانبول ٨ / ٩ ، وشرح النَّووي ١٧ / ٦٠ - ٦٤ وأنظر « الحديث النَّبوي » ٧٤ و ٧٥ ورياض الصالحين - باب التَّوبة ٥٣ ، وابـن ماجه ٢ / ١٤١٩ من حديث أبي سعيد .



وقد بلغت هذه القصة السرِّيعة منزلة كبيرة من التَّأثير في نفوس العرب أبناء الصحراء وأصحاب الابل، ومكنَّت هذا المعنى المجرَّد عندهم، لأنها حدَّثتهم عن أمر غيبيّ بأسلوب هم أكثر النَّاس إدراكاً له لأنَّهم يعيشون في هذه الأوساط وربَّما تعرَّض بعضهم لمثل هذه الأزمات أوْ سمعوا بنبأ من تعرَّض لها .

ومما يدلُّ على عظيم رحمة الله ووافر كرمه أنه يضاعف عمل المرء إن كان هذا العمل طيِّباً .

وقد بَينَّ الحديث الآتي هذا المعنى بصورة مادية تتصل بحياة العرب المخاطبين بأوثق الأسباب :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« ما تَصَدَّق أحد بصدقة من طيِّب ـ ولا يقبل اللهّ إلا الطيِّب ـ إلا أخذها الرَّحمن بيمينه ، وإنْ كانت تمرة ، فتربو في كَفِّ الرَّحمن حتى تكون أعظم من الجبل ، كما يُرَبِّي أحدكم فلوَّه[1] أو فصيله . »[2]

في هذا النَّص صور عدَّة وأحِبُّ قبل أن أذكرها أنْ ألفت النَّظر إلى أنَّ الرَّسول ﷺ آثر أنْ يذكر الله تعالى باسم الرَّحمن في الحديث لأن هذا الاسم ينسجم مع مضمون الحديث المفعم بالرَّحمة .

فالصُّورة الأولى أنَّ الصَّدقة يأخذها الرَّحمن بيمينه فما تزال تنمو حتى تصبح شيئاً كبيراً ، حتى انَّ التَّمرة تكون أعظم من الجبل ، والصُّورة الأخرى أنَّ الرَّحمن تبارك وتعالى يُرَبِّيها كما يُرَبِّي الواحد من النَّاس الفلو والفصيل بالرِّعاية التَّامة والاهتمام البالغ .

وفي رواية الترمذي عن أبي هريرة أيضاً :

---

(١) الفلو : المهر ، والفصيل : ولد الناقة .
(٢) صحيح مسلم ٧/ ٩٨ ـ ٩٩، والتِّرمذيّ ٢/ ٢٣ ، والبخاريّ ٢/ ٩٣ وابن ماجه ٥٩٠ ورياض الصالحين ٣٨٢، وسيمرُّ بنا هذا الحديث في مبحث الزَّكاة، أنظر صفحة ( ٣٢٨ ) من هذا البحث.





« إنَّ اللهَ يقبل الصَّدقة ويأخذها بيمينه فيربِّيها لأحدكم كما يربِّي أحدكم مهره ، حتى إنَّ اللُّقمة لتصير مثل أحد » .[1]

فالصُّورة الأولى هنا في هذه الرِّواية هي نفسها ، ولكن الثانية في هذه الرواية ( اللُّقمة تصير مثل جبل أحد ) .

والحقيقة أنَّ في التَّمثيل بتربية المهر لتربية الأجر براعة فائقة ودقَّة متناهية ، لأن المهر يبذل من الجهد في تربيته ما لا يبذل في غيره من الحيوان ، وقد اقتصرت الرِّواية الثانية على المهر وذكر الفصيل في الرواية الأولى لمزيد من التَّوضيح إذ لا يكاد يخلو بيت من بيوت العرب من فصيل ، أما المهر فربمَّا لا يتوافر للناس جميعاً .

ومن الصُّور الفنية التي تصوِّر رحمة اللهَ تبارك وتعالى الحديث الآتي : عن أبي ذَرٍّ قال : قال رسول الله ﷺ :

« يقول الله عزَّ وجلَّ :

« من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أوْ أزيد ، ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها أوْ أغفر ، ومن تقرَّب منِّي شبراً تقربت منه ذراعاً ، ومن تقرَّب منِّي ذراعاً تقربَّت منه باعاً ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة ، ومن لقيني بقراب[2] الأرض خطيئةً لا يشرك بي شيئاً لقيته بمثلها مغفرة » .[3]

تَدُلُّ الصُّور التي تضمَّنها هذا الحديث على أنَّ رحمة الله واسعة كبيرة فَلِلَّذي يعمل حسنة عشر أمثالها أوْ يزيد ربُّنا عزَّ وجلَّ أضعافاً مضاعفة ،وجزاءُ من يعمل سيئة مثلها أو يغفر الله له .

نحن إذن أمام رجلين محسن ومسيء ،

أما المحسن فَيُكَافَأ بعشر أمثال ما قدَّم أو أكثر من ذلك حتى يبلغ السَّبعمائة

---

(١) التِّرمذي ٢ / ٢٣ .

(٢) قال النَّووي : هو بضمِّ القاف على المشهور ، وهو ما يقارب ملأها ،وحكي كسر القاف .

(٣) صحيح مسلم ١٧ / ١٢ ، وانظر رياض الصَّالحين ـ باب الرَّجاء صـ ٣٠١ ، وانظر المجازات النَّبويَّة للشريف صـ ٢٧٢ .

ويجاوزها كما ورد في حديث آخر .[1] بل لقد جاء هذا المعنى في القرآن وذلك في قوله تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبَّة أنبتت سبع سنابل ، في كلِّ سنبلة مائة حبَّة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم ﴾ .[2]

وأمَّا المسيء فلا يجُازى على السَّيئة إلاّ بمثلها أوْ يشمله غفران الله وتضمُّه رحمته فيتجاوز عنه .

إن الموازنة بين الرَّجلين في هذا المشهد الذي يتملاَّه الخيال لتدلّ أعظم الدَّلالة على رحمة الله وكرمه وعفوه .

ويمضي الحديث لتأكيد هذا المعنى بعرض ثلاث صور أخرى تدلُّ على مقابلة الله القليل من العمل بالعظيم من الثَّواب يقول :

ومن تقرَّب منِّي شبراً تقرَّبت منه ذراعاً
ومن تقرَّب منِّي ذراعاً تقربت منه باعاً
ومن أتاني يمشي أتيته هرولة

وواضح من النَّص هذا الجو العاطفي المملوء بالودِّ والمحبَّة والحرص على اللِّقاء والمقابلة الحسنة .

فالتقرُّب شبراً يقابله التقرُّب ذراعاً
والمجيء مشياً يقابله الإتيان هرولةً

إنَّ المؤمن الذي امتلأ قلبه بحبِّ الله يتيه على العالمين عندما يتصوَّر هذا من الله نحوه .

---

(١) وهو حديث أبي هريرة الذي أخرجه مالك في الموطأ في باب الصيام صـ ١٢٤ والترمذي في باب فضل الصوم وهو قوله ﷺ : « كلُّ حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف » ، وفي رواية ابن ماجة ١ / ٢٥٨ بلفظ« كل عملِ ابن آدم يضاعف : الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله إلاّ الصوم فإنَّه لي وأنا أجزي به » .

(٢) سورة البقرة ٢٦١ .

هـذا الإنسـان الضـعيف يكون موضعـاً لمثـل هذا الـودِّ والحنـان والاقبـال والقربى .

لنترك لخيال المسلم وقلبه الشَّفاف أنْ يتأمل هذه الحركة التي يحملهـا لفـظ الهرولة ويسعد بها السَّعادة الكاملة .

إنَّ تَصَوُّر ذلك كلِّه يجعل النُّفوس تقبل على الطَّاعات مبالغةً فيها مؤدِّيَة لها عن طواعية ورغبة .

وأمَّا الجملة الأخيرة :

« ومن لقيني بقراب الأرض خطيئةً لا يشرك بي شيئاً لقيته بمثلها مغفرة » .

فهي تدلُّ على عفوه العظيم ومغفرته الواسعة ، وواضح في هذه الصُّورة بروز عنصر الحركة .

وقريب من حديث أبي ذَرٍّ هذا حديث أبي هريرة الذي يرويه عن النَّبي ﷺ قال :

« يقول اللهُ عزَّ وجلَّ : أنا عند ظَنِّ عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني إنْ ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإنْ ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منه وإنْ تقرَّب منِّي شبراً تقربَّت إليه ذراعاً وإنْ تقرَّب منِّي ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » .[1]

والقسم الأخير من هذا الحديث وقفنا على صورته الرَّائعة ودلالته الدِّينيَّة من نظرتنا في حديث أبي ذَرْ ، أمَّا القسم الأول من هذا الحديث فهو كذلك يدلُّ على عظيم رحمة الله وسعة مغفرته ، فالله تبارك وتعالى يقول : « أنا عند ظَنِّ عبدي بي » فَلْيَظُنَّ العبد بربِّه خيراً يجده وَلْيُؤمِّل العفو يحظَ به .

فإذا ظَنَّ العبدُ الغفران فاستغفر كانت له المغفرة ، وفي ذلك ما فيه من الرَّجاء

---

(١) صحيح مسلم ١٧ / ٣ وابن ماجه ٢ / ١٢٥٥ ـ ١٢٥٦

العريض ، وقوله « وأنا معه حين يذكرني إنْ ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإنْ ذكرني في مَلأ ذكرته في مَلأ خيرٍ منه » .

أيُّ شرف يكون للذّاكر ؟ وأيَّةُ مقابلة لعمله هذه المقابلة ؟ إنَّ من يتأملّها لا يشكّ في سعة رحمة الله . . . إنَّ ذكر الله للعبد لا بدَّ أنْ يكون معه التَّوفيق والهداية والرِّعاية والاعانة . . . . وذلك كلّه من رحمة الله وعلى نسق ما مرَّ معنا من إكرام الله فإن المكافأة تكون أضعافاً مضاعفة وقد عبَّر عنه الحديث بطريقة الموازنة :

| | |
|---|---|
| مـن ذكر الله في نـفسه | ذكـره الله في نـفسه |
| مـن ذكره في مـلأ | ذكره الله في ملأ خير منه |

هذه الطريقة التي تبرز بوضوح جليّ رحمة الله تبارك وتعالى .

وينبغي أن نلفت النَّظر إلى عنصر مهم في هذه الصُّور :

إنَّ هذه الرَّحمة الواسعة التي تغمر العباد في الحياة الدُّنيا ويوم القيامة وإنَّ هذا الودّ العلوي الرفيع يجب ألا يجعلنا من المقصرِّين . . إنَّنا لو نظرنا في مقابل هذه الرَّحمة في الصُّور لوجدنا عملاً في المقابل . . . مهما يكن هذا العمل يسيراً لكنَّه عمل . . . إنه يمثل الخطوة المتقدِّمة .

فهناك حسن ظنٍ بالله وذكرٌ له وتقرُّب منه وبُعْدٌ عن الشرِّك . . . فمثل هذا قوبل بذلك الفيض المتدفِّق من الرَّحمة .

وعلى الرَّغم من هذا فإنَّ المسلم ينبغي أنْ يكون على حذرٍ وتخوفٍ . .
إنَّ الرحمة جانب وهناك أيضاً العقوبة
إن المغفرة أمر وهناك أيضاً الغضب

ولننظر إلى الصُّورة التي تعرض عقوبة الله ورحمته بآن:

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

« لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنّته أحد ولو يعلم الكافر

ما عند الله من الرَّحمة ما قنط من جنَّته أحد » .[1]

عقوبة شديدة حاسمة ، ومحاسبة دقيقة لا تفوتها مثقال ذَرَّة، لوعلم بحقيقتها المؤمن لما طمع بالجنة أحد ،

ورحمة كبيرة واسعة . . .ومغفرة سمحة تتجاوز عن مِلءِ الأرض خطايا، لو علم بها الكافر لأمن ورجا أن يكون من المرحومين ولما قنط من جنته أحد .

والموازنة بين امتناع الطَّمع وامتناع القنوط تؤكِّد ضرورة المراوحة بين الخوف والرَّجاء .

فالعقوبة مخيفة . . . والرَّحمة واسعة

هذه المغفرة وتلك العقوبة يعرضهما علينا الحديث في صورة أخرى قائمة على أساس من الحوار والحسيَّة :

عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« يدنى المؤمن يوم القيامة من ربِّه عزَّ وجلَّ حتى يضع عليه كنفه فيقرِّره بذنوبه ، تعرف ذنب كذا ؟

فيقول : هل تعرف؟

فيقول : أيْ رَبِّ أعرفُ

قال : فإني قد سترتها عليك في الدُّنيا ، وإني أغفرها لك اليوم . فيعطى صحيفة حسناته .

وأمَّا الكفَّار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله » .[2]

الموازنة تتمُ مرجِّحة جانب الرَّحمة . . . . فنحن نسمع طرفاً من الحوار بين

(١) صحيح مسلم ١٧ / ٧٠ .

(٢) رواه البخاري ٦ / ٩٣ ط . كتاب الشعب في كتاب التَّفسير ( سورة هود ) وفي كتاب المظالم والأدب والتَّوحيد ورواه النسائي في التفسير والرقائق، وابن ماجه في السُّنة ١/ ٦٥ ومسلم ١٧/ ٨٧.

المؤمن وربِّه وينتهي هذا الحوار بمغفرة ذنوبه وإعطائه صحيفة الحسنات وكأنها شهادة البراءة أو جواز المرور إلى النَّعيم المقيم والفوز العظيم في الجنَّة .

أمَّا الكفار والمنافقون فلا يسمع لهم صوت بل يفضحون ويُشَهَّرُ بهم وينادون على رؤوس الخلائق تقريعاً وتبكيتاً :

هؤلاء الذّين كذبوا على الله

كأنَّنا أمام مشهدين خاطفين يعرضان أمام أعيننا يمتدُّ الأول منهما قليلاً بالنسبة إلى الثاني وعلى الرَّغم من أن في النَّص صورة العقوبة الصَّارمة المهينة إلاَّ أنَّ الجو الغالب على الحديث هو جوُّ المغفرة ، وممَّا مكَّن الغلبة لجوِّ المغفرة أن الحديث سكت عمّا يحصل لهؤلاء بعد ذاك التقريع .

ولقد كان التناسق رائعاً .

فلم يذكر ما يكون للمؤمن بعد أنْ يأخذ صحيفة الحسنات كذلك لم يذكر ما سيكون للمنافقين والكافرين بعد التَّوبيخ .

ظهور الحوار من سمات التّكريم للمؤمن .

وخفوت الصَّوت وانعدامه من دلائل الخزي والانهيار عند الكفار والمنافقين .

وننتهي من عرضنا للصُّور الدَّائرة حول رحمة الله ومغفرته وعقوبته وغضبه إلى أنَّ المسلم لا بدَّ من أنْ يكون متردِّداً بين هذين التَّصورين وأنَّه يجب أنْ يكون بين الخوف والرجاء ، وليطمئنَّ ما دام مؤمناً ، إلى المستقبل الرَّغيد والفوز التَّام والجنَّـة والغفران لأن الله تبارك وتعالى كتب على نفسه أنَّ رحمته تغلب غضبه ، فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« لَمَّا قضى الله الخلق كتب في كتابه على نفسه فهو موضوع عنده : أنَّ رحمتي تغلب غضبي » .[1]

(١) صحيح مسلم ١٧ / ٦٨ ، والبخاري ٩ / ١٤٧ ط . الشعب في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ ، والترمذي وابن ماجه ١ / ٦٧ ، ٢ / ١٤٣٥

ولنا أنْ نتصوَّر هذه المغالبة وأنَّ النتيجة للرَّحمة التي تغلب الغضب .

***

### جـ ـ سعة ملكه وكرمه وإنفاقه واستغناؤه عن خلقه :

إنَّ ملك الله واسع . . فالسَّموات والأرض وما فيهن ملكه تبارك وتعالى . . وهو كريم منَّان ، يمدُّ النَّاس بالعطاء والرِّزق مؤمنين وكافرين منذ خلقهم وإلى أنْ تقوم السَّاعة ، وهو غَنِيٌّ عن عباده لا تضره معصيتهم ولا تنفعه طاعتهم .

هذه المعاني المتصلة بالله عزَّ وجلَّ عرضها لنا رسول اللهِّ ﷺ من خلال صور حسيَّة رائعة تستحوذ على اللُّب وتنتهي بسامعيها إلى الايمان العميق إن هم تفاعلوا معها وتذوقوها .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« قال الله تبارك وتعالى : يا بن آدم أنفق أنفق عليك» وقال :

« يمين اللهّ ملأى سَحَّاء لا يغيضها شيء الليل والنهار » .

« وقال : « أرأيتم ما أنفق مذ خلق السَّماء والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه » .[1]

نحن مع تسليمنا بأنَّ لله تبارك وتعالى يداً ليست كالأيدي وإثباتنا له ما أثبت لنفسه نقرِّر أنَّ في هذا النَّص صورة رائعة لا تتصل بتأويل اليد . إنَّ إكرام الله لعباده غزير كثير ، فيد الله ملأى سَحَّاء وكلمة ( سحَّاء ) تعنى دائمة الصَّب والهطل بالعطاء ، ووصفها بالامتلاء لكثرة عطائها ، فجعلها كالعين التي لا ينقصها كثرة الاستقاء منها .

---

(١) صحيح البخاري ٦ / ٩٥ ط الشعب كتاب التفسير ( سورة هود ) باب قوله تعالى ﴿وكان عرشه على الماء﴾ وصحيح مسلم ٧ / ٨٠ وابن ماجه ١ / ٧١ وانظر المجازات للشريف الرضي صـ ٨١ .

وهل يشكُّ في إكرام اللهّ وعطائه ورزقه عاقل يثبت وجوده ؟

من الذي يرزق الخلق منذ خلق السَّماء والأرض ؟

هل من رازق غير الله ؟

ومع هذا العطاء القديم الموغل في أعماق الزمن يغمر عباده من النَّاس والمخلوقات الأخرى من الأنعام والدَّواب والكائنات الحيَّة بصنوف الرِّزق والطَّعام والشرَّاب . . . فهل نقص ما عنده ؟

إنَّه دائم العطاء والرِّزق في اللَّيل والنَّهار . . . لا يتوقَّف عطاؤه ولا ينقطع رزقه ﴿ما عندكم ينفد وما عند اللهّ باق ﴾ .

وقبل أنْ يقرِّر هذا الوصف الحق لنفسه عزَّ وجلَّ أمر عبده ابن آدم بالانفاق فقال : « يا ابن آدم أنفق أنفق عليك » .

وإذا أدرك العبد أنَّ هذا الذي معه هو من عطاء الله . . . وأنَّ هذا العطاء تقدَّم له ولمن سبق من أسلافه من عبادِ الله ، وأنَّ الله الغزير عطاؤه يعده بالانفاق عليه إنْ هو أنفق . . . إذا أدرك ذلك كلّه جادت يداه بالبذل وطابت نفسه بهذا البذل .

وبذلك تكون الصُّورة الفنية قد استخدمت للغرض الدِّيني الذي هو الحضُّ على الانفاق . . . فلننفق ، وسيعوضنا الله أضعاف ما أنفقنا ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾ .

***

وصورة أخرى :

عن أبي ذرّ قال : قال رسول الله ﷺ :

« يقول الله تبارك وتعالى :

يا عبادي لو أنَّ أولَّكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني





فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك ممّا عندي إلاَّ كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر » .

وفي رواية الترمذي وابن ماجه :

« ولو أنَّ أوَّلكم وآخركم وحيَّكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا في صعيد واحد فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته فأعطيت كل سائل منكم ما سأل ما نقص ذلك من ملكي إلاَّ كما لو أنَّ أحدكم مرَّ بالبحر فغمس فيه إبرة ثم رفعها إليه ، ذلك بأني جواد ماجد أفعل ما أريد » .[1]

لنتصوَّر عدد السائلين وهم الخلق جميعاً منذ بداية الخليقة إلى أن تقوم السَّاعة وضخامة مسائلهم التي عبَّرت عنها الرِّواية الأخرى « ما بلغت أمنيته » وما أكثر الأماني وما أشدَّ طمع الناس ، ماذا ينقص البلل الذي يعلق على الإبرة من البحر ، إنَّه لا يكاد يكون شيئاً ، وكذلك فإنَّ خزائن الله وما عند الله لا ينقص منه شيء إلاَّ بهذه النِّسبة .

وربُّنا غنيٌّ عن عبادة ، لا تضرُّه معاصيهم ، ولا تنفعه طاعاتهم وقد صور ذلك حديث أبي ذَرّ نفسه كما يأتي :

« يا عبادي لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي إنمَّا هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إيَّاها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه » .

تصوير لطاعة الخلق كلهم . . . وليست طاعة عاديَّة . . . بل طاعة أتقى رجل . . . ما زاد ذلك في ملك الله شيئاً .

---

(١) صحيح مسلم ١٦ / ١٣٢ ـ ١٣٣ ، والترمذي وابن ماجه ٢ / ١٤٢٢



وتصوير لمعصية الخلق كلهم . . . وليست معصيةً عاديَّة . . . بل معصية أفجر رجل . . . ما نقص ذلك في ملك الله شيئاً . . .

ويقرِّر الحديث الغرض الدِّيني وهو أنَّ الأعمال لأصحابها وأنَّهم هم الذين يجدون الخير أو غير ذلك ، فليواجهوا أنفسهم بهذه الحقيقة .

## د ـ عظمته وقدرته :

أكتفي هنا بعرض صورتين : إحداهما تصوِّر عظمة الله تبارك وتعالى والثانية تصوِّر قدرته .

« عن أبي هريرة قال ٠ قال رسول الله ﷺ :

« قال الله عزَّ وجلَّ : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النَّار » .[1]

وفي رواية مسلم عن أبي سعيد وأبي هريرة قالا قال رسول الله ﷺ :

« العزُّ إزاره ، والكبرياء رداؤه ، فمن ينازعني عذَّبته» .[2]

والنَّص يحوي أمرين هما :

اختصاص الله تبارك وتعالى بالعظمة والكبرياء ، فالكبرياء رداء الله والعظمة إزاره .

إنَّ الكبرياء والعظمة صفتان من صفاته اللاَّزمة التي لا تنفك عنه أبداً . . . والتي لا يستحق أحد أن يتصف بهما سواه .

---

(١) أبو داود ٤ / ٨٤ ، وقد رواه ابن ماجه ٢ / ١٣٩٧ عن أبي هريرة وابن عبَّاس ، وفي رواية ابن ماجه لحديث أبي هريرة : « فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنَّم » ولحديث ابن عباس : « فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النَّار » .

(٢) صحيح مسلم ١٦ / ١٧٣ ، وانظر المجازات النبوية للشريف ٣١٦ .





وجعله الكبرياء رداءه والعظمة إزاره ليبينَّ لصوق هاتين الصِّفتين به كما يلصق الازار والرداء بجسد الإنسان .

فالذي يتكبَّر ويدعي العظمة كأنه ينازع الله . . . وما هذا المخلوق الضَّعيف الذي يريد أن ينازع الله ربَّ العالمين ، جبَّار السَّموات والأرض ، مالك يوم الدِّين ، ملك الملوك ، ماذا تكون عاقبة أمره ؟

إنهَّا العذاب الأليم في النَّار والالقاء في جهنَّم .

عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« يقبض الله الأرض ويطوي السموات بيمينه ثم يقول : أنا الملك . أين ملوك الأرض ؟ »

رواه البخاريّ [١]

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ :

« إنَّ الله ليقبض الأرض ـ أو الأرضين ـ وتكون السَّموات بيمينه ثم يقول : أنا الملك » ـ رواه البخاري . [٢]

وفي روايةللبخاري عن ابن مسعود :

« . . . . ثُمَّ يهزُّهنَّ ثم يقول : أنا الملك . أنا الملك »[٢]

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ :

« يطوي الله السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهنَّ بيده اليمنى ثم يقول : أنا الملك . أين الجبَّارون ؟ أين المتكبِّرون ؟ ثم يطوي الأرض بشماله ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبَّارون ؟ أين المتكبِّرون ؟ »[٣]

(١) صحيح البخاري ٦ / ٥٨ ط الشعب كتاب التفسير ـ سورة الزمر ﴿ وما قدروا الله حقَّ قدره ﴾ ، وابن ماجه ١ / ٦٩ .

(٢) صحيح البخاري : كتاب التوحيد ٩ / ١٥٠ .

(٣) صحيح مسلم ٨ / ١٢٦ ط إستانبول وأبو داود ٤ / ٣٢٤ ، وابن ماجه ١ / ٧١ و ٢ / ١٤٢٩ .

صورة غيبية رهيبة ، السَّموات يطويها الله عزَّ وجلَّ ، ثم يأخذها بيمينه ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ ، أين المتكبِّرون ؟

وكذلك يعمد إلى الأرض فيطويها بشماله تبارك وتعالى وينادي أين هؤلاء الذين كانوا يدَّعون أنهَّم ملوك ؟ أين هؤلاء الذين كانوا يدَّعون أنهَّم جبابرة ؟

إنهَّا صورة تنبىء عن قدرة الله ـ هذه السَّموات التي لم نستطع بعد أنْ نتصوَّر بعد كثير من نجوم سمائها الدُّنيا وكواكبها عنَّا ، فما بالنا ببعد السماء نفسها ؟ وما بالنا بالسَّموات السَّبع التي فوقها ؟ يطويها الله عزَّ وجلَّ ثم يأخذها بيمينه .

إنهَّا لقدرة خارقة استطاع هذا النَّص أنْ يحملنا على تصوُّرها على وجه لا تستطيع العبارات ولا الصَّفحات العديدة أنْ تقدِّمها لنا . والصُّورة متأثِّرة بالصُّورة القرآنيَّة الواردة في الآية الكريمة :

﴿ وما قدروا الله حقَّ قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسَّموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عماَّ يشركون ﴾ .[1]

***

## هـ ـ رؤية الله يوم القيامة :

لا يستطيع الإنسان بطبيعته البشرية أنْ يرى الله تبارك وتعالى ، ولقد طلب موسى عليه الصلاة والسَّلام أنْ يرى ربَّه فبيَّن له أنَّه لا يستطيع ، وأراه الدَّليل كما قال تعالى :

﴿ ولمَّا جاء موسى لميقاتنا وكلَّمه ربُّه قال : ربِّ أرني أنظر إليك قال : لَنْ تراني ، ولكن انظر إلى الجبل فإن استْقر مكانه فسوف تراني . فلماَّ تجلى ربُّه للجبل جعله دكّاً ، وخرَّ موسى صعقاً فلماَّ أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أوَّلُ المؤمنين ﴾ .[2]

---

(١) سورة الزُّمر ٦٧ .

(٢) سورة الأعراف ١٤٣ .

ومرَّ بنا الحديث الذي يقول : « حجابه النُّور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » .

ولكنَّ هذا في الحياة الدُّنيا ، فإذا جاء يوم القيامة وبعث النَّاس وحوسبوا ودخل أهل النَّار النَّار ، ودخل أهل الجنَّة الجنَّة ، كان تركيب أجسامهم شيئاً آخر كما أخبرتنا بذلك الأحاديث الصَّحيحة من أنهم لا يتغوطون ولا يبولون ، أيْ إنهم على حالة تخالف حالتهم في الدُّنيا ، ويكونون قادرين على تحمُّل رؤية الله . . . بل تكون هذه الرؤية هي ذروة السَّعادة وقمة النَّعيم الذي يكرمون به في الجنَّة .[1]

وقد وردت أحاديث الرُّؤية في مواضع عدَّة من كتب السُّنة وفي أثناء أحاديث ستمرُّ بنا في كلامنا على يوم القيامة من هذا الباب .

ـ عن أبي هريرة قال :

قال ناس : يا رسول الله أنرى ربَّنا يوم القيامة ؟

قال : هل تضارون في رؤية الشمس في الظَّهيرة ليست في سحابة ؟

قالوا : لا

قال : هل تضارُّون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة ؟

قالوا : لا .

قال : والذي نفس بيده لا تضارُّون في رؤيته إلاَّ كما تضارون في رؤية أحدهما » .[2]

---

(١) أخرج مسلم عن صهيب عن رسول الله ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنَّة يقول الله تبارك وتعالى تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيِّض وجوهنا ألم تدخلنا الجنَّة وتنجنا من النار ؟ قال فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النَّظر إلى ربهِم عزَّ وجلَّ » (صحيح مسلم بشرح النووي ٣ / ١٧ ) .

(٢) البخاري في أكثر من موضع ومسلم ٣ / ٤٨ ـ ٤٩ و ١٨ / ١٠٣ وأبو داود ٤ / ٣٢٣ وفتح الباري ٢ / ٥٢ وابن ماجه ٢ / ١٤٥١ ، وقوله ( تضارون ) روى بتخفيف الرَّاء وتشديدها ، ففي التخفيف معناها : هل يضيركم ويضرُّكم أحد ، والكلمة عندئذ مأخوذة من الضَّير بمعنى الضرَّر ، وفي=

وفي رواية للبخاري وغيره : « لا تضامون في رؤيته » .[1]

إنَّ رؤية القمر والشَّمس ليسا في سحابة تتمُّ دون عناء ودون أنْ يضايق أحد أحداً ، وهكذا رؤية الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة .[2]

وهناك ظلٌّ محبَبٌ للشَّمس والقمر والتعرُّض لأشعتهما ، فرؤيتهما تبعث في النَّفس سروراً وأُنساً ، فهل يكون هذا الظِّل المحبَّب سبباً في عقد هذه المشابهة بمعنى أنَّ رؤية اللهَّ يوم القيامة تتمُّ بسهولة ويسر ويكون معها سرور وأُنس وسعادة .

لعلَّ النَّصوص التَّي تقرِّر أنهَّا ذروة سعادة أهل الجنَّة تجعلنا نرعى لهذا الظِّل قيمته في هذه المشابهة .

وواضح أنَّ هذا التصوير قائم على أساس المحاورة وطرح السُّؤال .

## و - أمور تتعلَّق بأعمال العباد وطاعاتهم :

هناك طاعات وقربات تعرض في الحديث عرضاً يرغب المؤمنين بفعلها فالطاعات التي تكون في الإحسان إلى النَّاس يُعَبِّر عنها الحديث بأنهَّا موجهة إلى الله على النَّحو الآتي :

عيادة المريض عيادة لله ، وإطعام الجائع إطعام لله وسقي الظَّمآن سقي لله ، وإعطاء المحتاج قرض لله . . . وهكذا . . .

= التشديد معناها : هل تضرُّون أحداً أو يضركُم أحد عند رؤية الشَّمس أوْ القمر دون حجاب ، بمنازعة أو مضايقة .

(١) ( تضامُّون ) رويت أيضاً بتشديد الميم وتخفيفها ، فمن شدَّدها فتح التَّاء والمعنى : هل تتضامُّون وتتلطفون في التوصل إلى رؤيته ، ومن خففها ضمَّ التَّاء والمعنى : هل يلحقك ضيم وهو المشقة والتَّعب .

(٢) ينكر المعتزلة إمكانيَّة رؤية الله حتَّى في يوم القيامة وقد أورد الشَّريف الرضي في المجازات النبوية هذا الحديث وتعسَّف في ردِّه ونقل عن أئمة الاعتزال أقوالهم في تأويله ويبدو من كلامه هناك حقده على السَّيدة عائشة ، فلم يرض أن يصرِّح باسمها فقال : ( وروى أيضاً عن بعض أزواج النبي عليه الصلاة والسَّلام أنها قالت: من زعم أنَّ محمَّداً رأى ربَّه فقد أعظم الفريَة على الله ) . أنظر كتاب المجازات من ٤٥ - ٤٩ ورقم الحديث ٢٧ .





إنَّ مثل هذا التعبير ليدفع المؤمن إلى فعل هذه الأمور بحماسة وحرارة واندفاع . . . إنَّه عندئذٍ يقدم على هذه الأمور من أعماق قلبه بطيب خاطر ويعدُّ نفسه سعيداً جداً إنْ وُفِّقَ لأدائها .

ولننظر في هاتين الصورتين :

ـ عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

« إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول يوم القيامة : يا بن آدم مرضت فلم تعدني .

قال : يا ربِّ كيف أعودك ، وأنت ربُّ العالمين ؟

قال : أما علمت أنَّ عبدي فلاناً مرض فلم تعده . أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟

يا بن آدم ! استطعمتك فلم تطعمني .

قال : كيف أطعمك وأنت ربُّ العالمين ؟

قال : أما علمت أنَّه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ، أما علمت أنَّك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ؟

يا بن آدم ! استسقيتك فلم تسقني .

قال : يا ربِّ ! كيف أسقيك وأنت ربُّ العالمين ؟

قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه ، أما إنَّك لو سقيته وجدتَ ذلك عندي » .[1]

إذا عرفنا أنَّ الغرض من الصُّور التي يؤثر الرَّسول ﷺ التعبير بها عن المعاني غرض ديني أدركنا جلال شأن هذه الصورة .

---

(١) صحيح مسلم ١٦ / ١٢٥ ـ ١٢٦ وانظر « الأحاديث القدسيَّة » ١ / ٢٦٣ ورياض الصالحين كتاب عيادة المريض ٥٤٩ ـ ٥٥٠

فالعيادة للمريض عيادة لله ، وتعالى الله عن أنْ يمرض ، وتعالى الله عن أن يكون بحاجة إلى عيادة .

وتفسير هذه الصورة ورد في الحديث نفسه عندما قال : « أما علمت أنَّ عبدي فلاناً مرض » ، ثم بينَّ أنَّه لو قام بعيادته ( لوجده عنده ) وكذلك الطَّعام والسقّي ، فالمستطعم في الحقيقة هوالعبد المحتاج ولكنَّ الحديث يجعله هو الله ، فالذي يطعم الجائع يجد الثَّواب عند الله يقول : « أما علمـت أنَّـك لو أُطعمتـه لوجـدت ذلك عندي ؟ » .

إنَّ قلب المؤمن العامر بحبِّ الله عندما يسمع هذا الكلام لا يمكن أنْ يقعد عن فعل هذه الصُّنوف من الخير مهما وجد من الصُّعوبات ما دام قادراً على فعلها .

فعيادة الله وإطعام الله وسقي الله فسرَّها الحديث نفسه على وجه رائع .

ولقد زاد الحوار من حيويَّة الحديث وقوَّة تأثيره ، ومما يدلُّ على الرغبة في الحوار أنَّ ابن آدم استمر في السُّؤال عن أمر مشابه لما سأله قبل قليل وتلقَّى عنه الجواب . لماذا ؟

ربمَّا كان هذا لأن الدَّهشة لم تتح له أنْ يعي أنَّ الجـواب متضمَّـن في الـكلام السابق . . .

ولكن مهما يكن من أمر فالحوار زاد من عنصر التَّشويق الذي يعتمد عليه هذا الحديث اعتماداً واضحاً وذلك كقول الله في هذا الحديث :

(مرضت فلم تعدني . . . استطعمتك فلم تطعمني . . . استسقيتـك فلـم تسقني ) .

ـ وقريب من هذا الحديث، الحديث المشهور بحديث النُّزول وهـو عن أبـي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

« ينزل الله في السَّماء الدُّنيا لشطر الليل أو لثلث الليل الآخر فيقـول : من

يدعوني فأستجيب له ؟ أوْ يسألني فأعطيه ؟ ثم يقول : من يقرض غير عديم ولا ظلوم ؟ »[1]

إنَّ الذي يقرض ماله يبحث عن المقترض ليكون مليئا غير معدم وعادلا غير ظلوم ، لأنَّ إقراض المعدم خسارة محقَّقة وكذلك إقراض الجائر الظَّلوم الَّذي لا يؤدي الحقوق إلى أهلها لا عن عدم. . . . ولكن عن ظلم خسارة محتومة أيضاً، ولذلك جاء في هذا الحديث قول الله تبارك وتعالى :

« من يقرض غير عديم ولا ظلوم؟ »

يريد : من يقرض الله ، والله عزَّ وجلَّ ليس عديما ولا ظلوما .

ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ هذه الصُّورة في إطارها العام صورة قرآنيَّة وهي قرض الله وذلك في قوله سبحانه :

﴿ مَنْ ذَا الَّذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾[2]

ولكن الصُّورة ههنا ذكرت صفتين للمقترض هما : كونه غير عديم ولا ظلوم ، لتشجيع المحسنين .

---

(١) صحيح مسلم ٦/ ٣٨ وانظر الأحاديث القدسيّة ١/ ٧٣ وابن ماجه ١/ ٤٣٥

(٢) سورة البقرة ٢٤٥

## (٢) يوم القيامة :

إنَّ المتأمِّل في كتاب الله تبارك وتعالى وسنَّة رسوله ﷺ ليلفت نظره كثرة النُّصوص التَّي تدور حول يوم القيامة ، حتَّى قام مؤلِّفون قدامى ومحدثون بتأليف كتب تجمع النُّصوص المتعلِّقة بيوم القيامة[1] .

ولقد كان تصوُّر يوم القيامة ماثلاً في وجدان المسلمين مجاهدين وعابدين ، وعلماء وكاسبين ، فاستقامت حياتهم على منهج الإسلام وقدَّموا بطولات فذَّة في الجهاد والفتح وإحقاق الحقّ ، وخلَّفوا للإنسانية تراثا فكرياً عظيما .

والإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان ، من كفر به كان كافرا بإجماع المسلمين .

فلا عجب أن نجد في الحديث النبويّ عناية بالغة بهذا اليوم العصيب لأثره التَّربويّ العظيم ، ولأن توضيحه وهو أمر غيبيّ يعمل على ترسيخ العقيدة .

ويدخل تحت عنوان (يوم القيامة) أمور كثيرة منها الجنَّة والنَّار، ولكنني أفردت لهما عنوانا خاصًّا لوفرة النُّصوص الواردة فيهما ، وذكرت ههنا كل ما يتعلق بيوم القيامة وليس قائما على موضوع الجنَّة والنَّار.

---

(١) من أشهرها كتاب «التذكرة في أمور الآخرة» للقرطبيّ، وهو كتاب جليل ويقع في جزأين ، ومنها كتاب «النِّهاية» لابن كثير وهو في جزأين ويتحدَّث عن الفتن كثيراً ، ومن كتب المحدثين «مشاهد القيامة في القرآن» لسيِّد قطب وغيرها كثير. . . .





والصُّور الَّتي وقفنا عليها في هذا الموضوع صور فنيَّه رائعة فيها جِدَّة وطرافة وكثير منها غير شائع في النَّاس .

## أ ـ قرب يوم القيامة :

دلَّت النُّصوص الكثيرة من الكتاب والسُّنة على أن يوم القيامة قريب جداً . فمن ذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿ اقتربت السَّاعة وانشقَّ القمر﴾[1] ، وقوله : ﴿ وما يدريك لعل السَّاعة تكون قريباً﴾[2] ، وغير ذلك ، وليس هناك أحد من النَّاس يعلم متى تقوم السَّاعة . فهذا مما اختص الله تعالى بعلمه وعندما سئل صلوات الله عليه وسلامه عن ذلك قال :

« ما المسؤول عنها بأعلم من السَّائل »[3]

ولكنه حدَّد علامات لها وهي كثيرة ، وقد أُلِّفت في ذلك مؤَلَّفات تُحصي أشراطها وتبين أماراتها . ولقد عبَّر الرَّسول الكريم عن قرب السَّاعة بصور حسيَّة رائعة نذكر منها الأحاديث الآتية :

ـ عن أبي سعيد الخدري قال ، قال رسول الله ﷺ :

« كيف أنعم وصاحب القرن[4] قد التقم القرن واستمع الإذن : متى يؤمر بالنَّفخ فينفخ » .

فكأن ذلك ثقل على أصحاب رسول الله ﷺ فقال لهم :

«قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل»[5]

---

(١) سورة القمر : ١

(٢) سورة الأحزاب : ٦٣

(٣) رواه مسلم ١/ ٣٠ ط استانبول وابن ماجه ١/ ٢٤ ـ ٢٥

(٤) القرن : هو الصُّور الذي ذكر في القرآن ( ونفخ في الصُّور ) قال النَّووي : كذا فسره رسول الله ﷺ .

(٥) رواه التِّرمذي وقال : حديث حسن . وانظر «رياض الصَّالحين» باب الخوف ص ٢٩٨ وابن ماجه ٢/ ١٤٢٨ .

صورة مليئة بالحركة والإثارة والحسيَّة ، ها هوذا الملك صاحب الصُّور وضع القرن على فمه لينفخ .

وقد عبَّر الرَّسول الكريم ﷺ عن هذه الحركة بالا لتقام فالقرن كأنَّه لقمة وقد وضعها الملك في فمه . وأصغى يستمع ينتظر الإذن : متى يؤمر بالنَّفخ فينفخ ، لم يبق إذن إلا قليل وقت حتى تنتهي هذه الحياة ويأتي يوم القيامة .

ويوم القيامة يوم عصيب ، تضع فيه كلُّ ذات حمل حملها وترى النَّاس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، من أجل ذلك داخل الصَّحابة همٌّ شديد ، وثقل عليهم هذا الموضوع ، فلما رآهم ﷺ على هذه الحالة قال لهم : «قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل» .

أمرهم أن يستعينوا بالله وهو حسبهم نعم المولى ونعم النَّصير .

ومطلع الحديث يؤكد المعنى نفسه ، كيف أنعم ؟

إنَّ النَّعيم يحتاج إلى استقرار . . . ولا استقرار . . . إنَّ صاحب القرن لم يمسك القرن فقط بل التقمه واستعد للنَّفخ ، وهو ينتظر الإذن . . . وإنَّه لقريب .

**

ـ عن أنس قال ، قال رسول الله ﷺ :

«بعثت أنا والسَّاعة كهاتين » ، وأشار بالوسطى والسبَّابة[1]

ـ عن عبد الله بن حواله قال ، قال رسول الله ﷺ :

« . . . والسَّاعة يومئذ أقرب من النَّاس من يدي هذه من رأسك »[2]

---

(١) رواه البخاريّ باب قول النبي ﷺ بعثت أنا والسَّاعة كهاتين ٨/ ١٣١ ط. الشَّعب، ومسلم : ٨/ ٢٠٨ . ومسند أحمد ٣/ ١٢٤ ، وأقيسة النَّبي ﷺ ١٤٣ ، وابن ماجه ١/ ١٧ عن حديث جابر بن عبد الله ، ٢/ ١٣٤١ عن حديث أبي هريرة .
(٢) أبو داود ٣/ ٢٨ .





الحديثان تصوير لقرب السَّاعة، ويعتمدان على الإشارة، وهذا نوع كان رسول الله ﷺ يستخدمه، لأنه يشدُّ السَّامعين إلى المتكلِّم، ويقرِّب للأذهان البعيد، ويمثِّل المعنى المجرد بصورة حسيَّة، فالرَّسول الكريم بعث هو والسَّاعة متلازمين متجاورين كما تلازم السَّبابة الوسطى وكما تجاورها.

وفي حديث ابن حوالة يقرِّر الرَّسول ﷺ قرب السَّاعة بعد أنْ يذكر بعض علاماتها ويدني يده الشرَّيفة من رأس ابن حوالة ويقول :

«والسَّاعة يومئذ أقرب من النَّاس من يدي هذه من رأسك»

والقرب أمر نسبي يختلف من موضوع إلى آخر، وكلُّ تقدير لهذا القرب بعدد من السِّنين خطأٌ[1].

ويكفينا في هذا أنَّ رسول الله ﷺ لم يكن يعرف عن ميعاد قيامها شيئا، ومما جاء في تصوير إمارات السَّاعة حديث جبريل الَّذي يرويه عمر بن الخطاب قال :

« . . قال : متى السَّاعة ؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السَّائل . قال فأخبرني عن أماراتها، قال : أنْ تلد الأمة ربتَّها وأنْ ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشَّاة يتطاولون في البنيان»[2]

وفي رواية أخرى لمسلم « وإذا كانت العراة الجفاة رؤوس النَّاس فذاك من أشراطها »[3].

وفي رواية ثالثة « وإذا رأيت الحفاة العراة الصمّ البكم ملوك الأرض فذاك من أشراطها، وإذا رأيت رعاء البهم يتطاولون في البنيان فذاك من أشراطها »[4].

---

(١) شغل هذا الموضوع بال المسلمين في كلِّ العصور، ولا سيما في الأزمان المتأخرة واهتم به العلماء، وألَّفوا في ذلك رسائل من أشهرها رسالة مطبوعة للسيِّوطي عنوانها : « الكشف عن مجاوزة الأمة الألف » .

(٢) صحيح مسلم ١/ ١٥٨ .

(٣) صحيح مسلم ١/ ١٦٣ .

(٤) صحيح مسلم ١/ ١٦٥ .

إنَّ من علامات السَّاعة اختلال الموازين ، وانتكاس الأمور . . . فالأمَة تكون بمنزلة الوالدة ، والرَّبة تضحي بمنزلة الأمَة وتكون تحت أمرها .

**

ومن الصُّور الحديثيَّة الَّتي تعبِّر عن قرب يوم القيامة قوله ﷺ :

«بعثت في نفس السَّاعة»[1]

فقد جعل للسَّاعة نفسا كالإنسان ، وقال : بعثت في وقت أحسُّ فيه بنفسها وقربها ، كما يحس الإنسان بنفس الإنسان إذا قرب من شخصه[2] .

**

## ب ـ اضطراب معالم الكون واختلال سننه يوم القيامة :

فصَّلت آيات من القرآن نواحي الاضطِّراب والاختلال هذه . وهناك في الجزء الأخير من أجزاء المصحف سور عدَّة تولَّت ذلك ووردت أحاديث توضِّح هذا المعنى ، ولن يعنينا منها إلا ما كان قائما على التصوير .

ـ فمن مظاهر اختلاف سنن الكون في ذلك اليوم أنَّ الشَّمس تطلع من مغربها ، فالرَّسول الكريم ﷺ عندما أراد أنْ يذكر يوم القيامة لم يذكره باسمه وإنَّما كنَّى عنه بهذه الصُّورة الواقعيَّة الغيبيَّة :

ـ عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

« من تاب قبل أنْ تطلع الشَّمس من مغربها تاب الله عليه »[3]

ـ عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال :

---

(١) المجازات النبويَّة ٣٦ والمثل السائر ١/ ٩٦

(٢) المجازات النبويَّة ٣٧ .

(٣) روى مسلم هذا الحديث والذي بعده ١٧/ ٢٥ ، وانظرهما أيضاً في رياض الصَّالحين ـ باب التَّوبة ص ٥٣ ـ ٥٤ .





« إنَّ الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النَّهار ويبسط يده بالنَّهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشَّمس من مغربها » .

وفي الحديث الثَّاني موسيقى واضحة تتجلى في هذا التَّقابل بين طرفي الحديث ، وقد كنَّى الرَّسولﷺ عن يوم القيامة بأمر عرف عنه وهو طلوع الشَّمس من مغربها .

ـ ومن الصُّور الَّتي تبيِّن تَغَيُّر معالم الكون في هذا اليوم الصُّورة الَّتي تضمنَّها الحديثان الآتيان :

ـ عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة ، يكفؤها الجبَّار بيده كما يكفؤ أحدكم خبزته في السَّفر ، نزلاً لأهل الجنَّة »[1]

ـ وعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ :

« يحشر النَّاس يوم القيامة على أرض عفراء كقرصة النَّقي ليس فيها علم لأحد »[2] .

إنَّ الأرض تتغيرَّ معالمها يوم القيامة . . حتى تبدو كأَنها غير الأَرض الَّتي كان عليها النَّاس ، وهذان الحديثان يعرضان صورة واحدة لهذا التَّغيير .

---

(١) رواه البخاريّ ومسلم (صحيح البخاري ٨/ ١٣٥ ط الشَّعب ـ ٨١ ـ كتاب الرَّقاق : ٤٤ ، باب يقبض الله الأرض ٧/ ١٩٤ ، وصحيح مسلم بشرح النَّووي ١٧/ ١٣٥ ، وفتح الباري ١١/ ٣٧٢ ) وأنظر أقيسة النَّبيﷺ ١٣٣ ، ويكفؤها : يميلها ، وخبزة السَّفر : يعني خبز الملة الذي يصنعه المسافر ، فإنها لا تدحى كما تدحى الرُّقاقة وإنَّما تقلب على الأيدي حتى تستوي ، والنزل : ما يقدم للضيف والعسكر ، ويطلق على الرِّزق وعلى الفضل .

(٢) رواه مسلم ( أنظر صحيح مسلم بشرح النَّووي ١٧/ ١٣٤) قال النووي في شرح صحيح مسلم : ١٧/ ١٣٤ : ( العفراء : بيضاء إلى حمراء ، النقي هو الدّقيق الحوري ، قال القاضي : كأن النَّار غَيرَّت بياض وجه الأرض إلى الحمرة ، قوله (ليس فيها علم لأحد) هو بفتح العين واللام أي ليس بها علامة سكنى أو بناء ولا أثر ) . والقرصة : الخبزة كما في القاموس .

إنهَّا على هيئة واحدة . . إنهَّا خبزة واحدة لا ترى فيها عوجا ولا أمتاً ، لقد قلبت قلبا . . . يقلبها الجبَّار تبارك وتعالى كما يقلب أحدنا خبز الملَّة .

لقد أضحت أرضا بيضاء كالخبزة من النقيّ الأبيض الخالص ، مستوية لا معالم فيها ، ولا جبال ولا أنهار ، ولا علامات تدلُّ على أنهَّا كانت مسكونة ، ولا آثار .

هناك على هذه الأرض يحشر النَّاس . . . وفيها من الوحشة ما فيها ، وفيها الغربة الحقيقيَّة .

قربت هذه الصُّورة الحسِّية أمراً غيبيًّا سيحصل لهذه الأرض وهو تغيرُّ معالمها عن طريق ذكر أمر يكثر استخدامه من السَّامعين في أسفارهم .

**

## جـ - المؤمن الطَّائع يوم القيامة :

يوم القيامة إمَّا أنْ يكون يوم الفوز أوْ يوم الخسران ، وإنَّه للمؤمن يوم الفوز والإكرام ، والرَّاحة والهناء ، يوم تذلَّل له فيه الصُّعوبات ، يوم يجد فيه الظِّل الظَّليل ، والحلل الفاخرة يلبسها . . . . يوم تميَّز المؤمن فيه علامة خاصَّة به فتكون هذه العلامة سبب نجاته وسعادته ، يوم يشمله نور تام وغيره يخبُّ في ظلمات دامسة . . . وإنْ كان المؤمن مؤذِّناً شهد له الجنّ والإنس ممن كان يبلغهم صوته ، وإنْ كان شهيداً في سبيل الله جاء جرحه يثعَبُ ريحه ريح مسك ، وإنْ كان قارئاً للقرآن ارتقى في معارج الإكرام وأكرم والداه ، فلنعش مع هذه الصُّور لحظات في الأحاديث الَّتي تعرض لحال هؤلاء المؤمنين .

- عن أبي هريرة عن النَّبيﷺ أنَّه قال :

«سبعة يظلُّهم الله في ظلِّه يوم لا ظلّ إلاَّ ظلُّه : إمام عادل . وشابٌّ نشأ في عبادة الله عزَّ وجلَّ . ورجل قلبه معلَّق بالمساجد . ورجلان تحابًّا في الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه . ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنِّي أخاف الله . ورجل

تصدَّق بصدقة فأخفاها حتَّى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه . ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه »[1] .

نص زاخر بالصُّور الرَّائعة :

ـ أولى هذه الصُّور صورة الظِّل الوحيد . الظِّل الوارف الظَّليل . . . في يوم تدنو الشَّمس فيه من الخلائق حتَّى يلجمهم العرق . . . في هذا اليوم لا يكون إلاَّ هذا الظِّل الَّذي ينعم سبعة من النَّاس به يظلُّهم ويسعدهم .

وقد جاء في بعض الرِّوايات أنَّ هذا الظِّل ظلُّ العرش ، ومهما يكن من أمر فإنَّه ظلُّ الله الوحيد في ذلك اليوم .

والحديث يصوِّر لنا هذا الواقع الغيبي عن طريق الوصف .

ـ وقد عبَّر الحديث عن يوم القيامة بأنَّه (يوم لا ظلَّ إلاَّ ظلُّه ) لأنَّ الأرض تبدَّل غير الأرض ، والسَّموات تبدَّل غير السَّموات.

ـ ومن الصُّور في الحديث قوله ( ورجل قلبه معلَّق بالمساجد) ، عبَّر الحديث عن حبِّ الرَّجل للمساجد بأنَّ قلبه معلَّق بها ، فلا يطيب له عيش إلاَّ أنْ يكون فيها . . . أنْ يكون إلى جانب قلبه . . . ولا يخرج منها إلاَّ وهو يتمنَّى أنْ يعود إليها .

إنَّه يجد فيها الأُنس بمناجاة الله وذكره والتَّوجُّه إليه .

ـ وعبَّر الحديث عن عفَّة الرَّجل بقصة سريعة جدًّا لا تتجاوز السَّطر فقال :

(ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنِّي أخاف الله ) .

دعته امرأة ذات منصب ( وبهذا يتحقَّق الأمان من الفضيحة وكسب المال

---

(١) رواه البخاريّ ومسلم (البخاريّ ١/ ١١١ ومسلم بشرح النووي ٧/ ١٢٢) وانظره في رياض الصَّالحين : ٢٨٠ ـ ٢٨١ ، ومسلم ط استانبول ٣/ ٩٣ ومسند أحمد ٢/ ٤٣٩ وفتح الباري ١/ ١٤٢ .

وضمان قضاء المصالح) ، وهي امرأة جميلة ، ( وبهذا يتوافر عنصر الإغراء الشّهوانيّ الجسديّ والجماليّ ) ورغم ذلك فإنّه يمتنع . يمتنع لا ضعفاً ولا خوفاً من أحد لكنّه يمتنع عن ذلك خوفاً من الله .

- ولم يذكر الحديث امتناعه وإباءه ، ولكنّه عبّر عن ذلك بقوله ( إنّي أخاف الله ) أيْ « أخاف الله فامتنع عن الاستجابة » .

إنّ قلبه عامر بالإيمان الّذي يستلزم العفّة ، فخوفه من الله يحول دون إقدامه على المعاصي ، والحق أنّ هذا النّجاح في هذه التجربة دليل على طيب عنصره وصدق إيمانه وعظيم رجولته .

- ومن الصُّور في الحديث قوله « ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتّى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه » .

نحن هنا أمام يد ليست كالأيدي ، إنّها يد تدري وتعرف ، وقد كان ذاك الرّجل موفقا عندما استطاع إخفاء الصّدقة عن تلك اليد . لقد نفخ هذا الحديث الحياة في اليد فأصبحت شخصاً ، ويلزم عن هذا أنّ الصّدقة كانت خفيّة حقاً ، فإذا لم تدر اليد الأخرى عما فعلت أختها فكيف يعلم أحد عن هذه الصّدقة ؟

في هذه الجملة صورتان : صورة اليد التي لا تعلم والكناية عن إخفاء الصّدقة ، وليس من شك في أنّ إخفاءها ابتغاء ما عند الله من الثّواب دليل على إيمان المتصدّق ونبله .

- ومن الصُّور في الحديث أيضا قوله « ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .
إنّه رجل صادق في بكائه ومخافته من الله ، فقد ذكر الله خالياً فبكى خوفاً من الله ، ولم يبك أمام النّاس ليظهر أمامهم بمظهر الخائف من الله وهو في حقيقته بعيد عن ذلك كلّ البعد كما نرى في عدد من الدّجّالين الممثّلين . وقد عبّر الحديث عن البكاء بقوله ( ففاضت عيناه ) إنّ الدّموع انهمرت فيضاً لا دمعات معدودات .





ـ عن معاذ بن أنس أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« من ترك اللِّباس تواضعاً لله وهو يقدر عليه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتَّى يخيرِّه من أيِّ حلل الإيمان شاء يلبسها »[1] .

في يوم القيامة حلل تعرف بحلل الإيمان ، يدعى المتواضعون في الدُّنيا الَّذين تركوا التَّفاخر على عباد الله بالثِّياب ، ويخيرَّون من أيِّ هذه الحلل شاءوا يلبسون .

إنهَّا صورة الإكرام العظيم ، والمكافأة الجزيلة . . . وإذا تذكَّرنا ما في هذا اليوم العصيب من أهوال وما يلاقيه النَّاس من عناء وشدَّة بدا الإكرام جليلاً ضخماً ، ولم يكن إلباس لكن تخيِّير فيما يروق له من الثِّياب ، ولم يحصل هذا سرًا بل على رؤوس الخلائق .

ويلفت نظرنا في الحديث قوله « من ترك اللِّباس تواضعاً لله وهو يقدر عليه » فقد ذكر قيدين لترك اللِّباس وهما :

التَّواضع لله ، والقدرة على لباس الفخر .

لتتمَّ عناصر الجودة في الصُّورة ، فمثل هذا الإكرام لا بدَّ أنْ يكون في مقابلة فعل طيِّب ، لأن ترك اللِّباس الجيِّد بخلاً لا يفيد صاحبه ،وكذلك ترك اللباس لأنَّه غير قادر لا يدلُّ على صدق التواضع وصدق الإيمان ، وكأنَّ الإيمان شيء له حلل يكافأ بها المتواضعون الصَّادقون .

ـ عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال :

« السَّلام عليكم . دار قوم مؤمنين . وإنَّا إنْ شاء الله بكم لاحقون . وددت أنَّا قد رأينا إخواننا » .

---

(١) رواه التّرمذي وقال : حديث حسن ( وانظر رياض الصَّالحين ٥١٣ )

قالوا : أولسنا إخوانك يا رسول الله ؟

قال : أنتم أصحابي - وإخواننا الّذين لم يأتوا بعد .

فقالوا : كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله ؟

فقال : أرأيت لو أنّ رَجلاً له خيل غرٌّ محجّلة بين ظهري[1] خيل دهم بهم[2] ألا يعرف خيله ؟

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : فإنهّم يأتون غراً محجّلين من الوضوء . وأنا فرطهم[3] على الحوض .

ألا ليذادَنَّ رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضّال .

أناديهم : ألا هلمَّ .

فيقال : إنهّم قد بدّلوا بعدك .

فأقلو : سحقا[4] سحقاً[5]

في هذا النّص صور عدّة :

- المسلمون خيل غرٌّ محجّلة ، وغيرهم دهم بهم .
- الرّسولﷺ فرطهم على الحوض .
- يذاد رجال عن الحوض كما يذاد البعير الضّال

وقد أوردت الحديث في هذا الموضع لأنّه يصوِّر المؤمنين بالخيل الغرّ لهم علامة خاصّة تميِّزهم يوم القيامة ، وإنْ كان في الحديث صور أخرى .

والمؤمنون يأتون إذن يوم القيامة غرّا محجّلين .

---

(١) بين ظهري خيل : أيْ بينها .

(٢) الدُّهم : جمع أدهم وهو الأسود ، والدهمة السّواد ، والبهم : السُّود أيضاً. وقيل الّذي لا يخالط لونه لونا سواه .

(٣) أيْ أنا أتقدّمهم على الحوض ، يقال فرط القوم إذا تقدّمهم ليرتاد لهم الماء ويهيء لهم الدّلاء والرِّشاء .

(٤) سحقا سحقا : أي بعدا بعدا .

(٥) صحيح مسلم ٣/ ١٣٧ - ١٣٩ ، وابن ماجه ٢/ ١٤٣٩ - ١٤٤٠ .





والغرَّة بياض في جبهة الفرس يقال فرس أغرّ وجمعه غرّ والتَّحجيل بياض في قوائم الفرس[١] ـ.

إنَّ هذا لشرف للّمؤمنين أَنْ يكون الرَّسول ﷺ يود أنْ يراهم وقد ذكر لأصحابه أنَّه يعرفهم بعلامة التَّحجيل الَّتي ستكون لهم بسبب الوضوء في الدَّنيا ، وأنَّه يسبقهم على الحوض ينتظرهم . أوليس هذا كلُّه يدفع المؤمنين دفعاً إلى المحافظة على العبادة والوضوء .

والصُّورة الثَّانية صورة الرَّسول ﷺ يتقدَّم المسلمين إلى الحوض يسبقهم إليه وينتظرهم هناك . وسندرسها عند كلامنا عن الحوض .

والصُّورة الثَّالثة صورة أولئك الأفراد من أمَّة محمَّد الَّذين بدَّلوا وغيرَّوا وأحدثوا بعده ﷺ أموراً لم يشرعها الله وسلكوا سبلاً غير سبيل النَّبي ﷺ ، فيأتون ليردوا الحوض ولكنَّهم يذادون كما يذاد البعير الغريب الضَّال الَّذي يدخل في الإبل يشاركها الطَّعام والشراب فيذاد ويضرب ضرباً شديداً حتَّى صار مضرب المثل « ولأضربنَّكم ضرب غرائب الإبل »[٢] ، فعندما يراهم رسول الله ﷺ يدعوهم للإقبال عليه ، فيقال له حينئذ : إنهَّم قد بدَّلوا بعدك[٣] ، فيدعو عليهم بالبعد ويقول : سحقاً سحقاً .

صيغت هذه الصُّورة على أسلوب قصَّة سريعة تعتمد على التَّشبيه المتَّصل بحياة السَّامعين وهو التَّشبيه بالبعير الضَّال الَّذي يذاد ويدفع بالشِّدة والعنف وفي ذلك تجسيد للخزي والعذاب والهلاك الَّذي يصيب من يبدِّل ما كان عليه رسول الله ﷺ .

**

---

(١) جاء في «القاموس» والمختار : « والتَّحجيل بياض في قوائم الفرسِ أوْ في ثلاث منها أو في رجليه قلَّ أَوْ كثر بعد أنْ يجاوز الأرساغ ولا يجاوز الرُّكبتين والعرقوبين ، والحجل بفتح الحاء وكسرها القيد ، ولا يكون التَّحجيل في اليدين خاصَّة إلاَّ مع الرِّجلين ، ولا في يد واحدة دون الأخرى إلاَّ مع الرِّجلين » .

(٢) من خطبة الحجَّاج عندما جاء العراق أوَّل مرَّة .

(٣) وفي رواية مسلم لحديث أم سلمه : « فيقال إنَّك لا تدري ما أحدثوا بعدك » مسلم ٥/ ٥٦ .

ـ عن بريدة الأسلمي عن النَّبيﷺ قال :

بَشِّر المشَّائين في الظُّلَم إلى المساجد بالنُّور التَّام يوم القيامة »[٢] . صورة تكتنفها الواقعيَّة من الجانبين ، واقعيَّة في عالم الشَّهادة إذ كان هؤلاء الصَّالحون يمشون في الظَّلمة إلى المساجد .

وواقعيَّة ستكون في عالم الغيب إذ سيشملهم نور تام يحيط بهم من جميع جهاتهم .

والجزاء مكافىء للعمل . . . فكم قاسوا من مشقَّة المشي في ظلمة الليل وقد يكوْن الليل ليل شتاء بارد عاصف تزمجر فيه الرِّياح ، وتهبُّ العواصف الرَّعديَّة والأمطار الغزيرة ويكون الوحل . . . وربمَّا تعرَّضوا للهوام المنتشرة هنا وهناك في وسط الظَّلام .

فلما فعلوا ذلك جوزوا يوم القيامة بنور يضيء لهم ويحوطهم ويزهو بهم في ذاك المحشر المزدحم .

وما أعظم فائدته عندما يكونون على الصِّراط وهو نور موصوف بأنَّه تام وذلك مما زاد جمال الصُّورة ههنا ، فهذه المقابلة بين ( الظُّلم ) في الدُّنيا وبين « النُّور التَّام » يوم القيامة من التناسق الفني العجيب ، وينبغي أن نشير إلى أنَّ هذه الصُّورة متأثِّرة بالصُّورة القرآنيَّة في قوله تعالى ﴿ نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربَّنا أتمم لنا نورنا﴾[١]

وقوله تعالى﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾[٢]

وليس من شك في أنَّ مثل هذا التصوير يؤدِّي غرضه الدِّيني في الاستمساك

---

(١) أبو داود ١/ ٢٩ والترمذيّ ١/ ١٩٢ .
(٢) سورة التَّحريم ٨
(٣) سورة الحديد ١٣





بالصَّلاة والمشي لها مهما كان هناك من الظلمات والمتاعب.

**

عن أبي سعيد قال ، قال رسول الله ﷺ :

«فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذَّنت بالصَّلاة فارفع صوتك بالنداء ، فإنَّه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنّ ولا إنس ولا شيء إلاً شهد له يوم القيامة »[1].

هذه صورة تعتمد على السَّمع والنُّطق .

فكلُّ جنّ وإنس وشيء سمع مدى صوت المؤذِّن يشهد له يوم القيامة . . . وهذا يدلُّ على عظيم فضله وأجره وفي الصُّورة انسجام وتقابل بين سماعهم في الدُّنيا وشهادتهم ،وذكر الغنم والبادية يبين أنَّ الأذان مطلوب في كل مكان ولو لم يكن هناك ناس ولا بنيان .

ـ عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ :

«لا يكلم أحد في سبيل الله ـ والله أعلم بمن يُكْلَمُ في سبيله إلاً جاء يوم القيامة وجرحه يثعب : اللون لون دم والرِّيح ريح مسك »[2] .

وفي رواية :

« والذي نفس محمد بيده ما من كلم يكلم في سبيل الله إلاً جاء يوم القيامة كهيئته حين كلم : لونه لون دم وريحه ريح مسك »[3] .

المجاهد الَّذي يجرح في سبيل الله ، والله أعلم بمن يكلم في سبيله ، فما أَكثر ما

---

(١) صحيح البخاري ١/١٥٨
(٢) صحيح مسلم ١٣/ ٢١ .
(٣) صحيح مسلم ١٣/ ٢٠ وفي ط استانبول ٦/ ٣٣ .

يغلِّف النَّاس أعمالهم بشعارات الدِّين والسُّمو والاستقامة وتكون في حقيقتها نفعيَّة ذاتيَّة . . إنَّ هذا لا ينطلي على الخالق العظيم الَّذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصُّدور هذا المجاهد الصَّادق في قتاله في سبيل الله يأتي يوم القيامة وجرحه يتفجَّر دَماً على هيئته حين كلم : اللون لون دم والرِّيح ريح مسك .

والتَّعبير بالفعل المضارع يثعب يساعد على تصوُّر المشهد وكأنَّه يعرض الآن علينا .

إنَّ المسك يتفجَّر منه وساما يفخر به على الخلائق فخراً لم يكن له فيه اختيار . . . ولكنَّها المكافأة الربَّانية .

صورة غيبيَّة تنبىء عن الإكرام الكبير للمجاهد والشَّهيد في سبيل الله .

وهذا يدفع المؤمن إلى إخلاص نيَّته في الجهاد والمضّي فيه إلى أبعد مدى عسى أنْ يكون ممَّن يشرف بحمل هذا الوسام الرَّفيع .

ويلاحظ في الصُّورة الحركة ( جرحه يثعب ) كما يلاحظ فيها اللون « اللون لون دم » . كما يلاحظ فيها الرَّائحة « الريح ريح مسك » .

فاكتملت لها بذلك جوانب ثلاثة تمنحها الحياة بإشتراك عدد من الحواس في اجتلائها .

**

ـ عن معاذ الجهني أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« من قرأَ القرآن وعمل بما فيه أُلبس والداه تاجاً يوم القيامة ضوءه أحسن من ضوء الشَّمس في بيوت الدُّنيا لو كانت فيكم . فما ظنُّكم بالذي عمل بهذا ؟ »[1] .

---

(١) أبو داود ٢/ ٩٥ .

ـ وعن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ :

«يقال لصاحب القرآن : إقرأ وارتق . ورتِّل كما كنت ترتِّل في الدُّنيا فإنَّ منزلك عند آخر آية تقرؤها »[1] .

هذان الحديثان يعرضان لنا موقف المؤمن القارىء للقرآن والعامل به يوم القيامة .

ففي الحديث الأَول لم يذكر جزاء قارىء القرآن صريحاً ، لكنَّ الَّذي ذكر ما يصيب والديه من الثَّواب والإكرام بسببه في ذاك اليوم الرَّهيب العصيب فقال :

« ألبس والداه تاجا يوم القيامة ضوءه أحسن من ضوء الشَّمس في بيوت الدُّنيا » .

فضوء هذا التَّاج أحسن من ضوء شمس الدُّنيا .

ثم قال : « فما ظنُّكم بالَّذي عمل بهذا ؟ »

نرى أنَّ الحديث بني على الموازنة في أكثر من موضع . فالموضع الأول كانت موازنة بين ضوء التَّاج وشمس الدُّنيا ، وذكر الحديث أنَّ ضوء التَّاج أَحسن . والموضع الثَّاني لم تذكر نتيجتها بل ترك لنا أنْ نقدِّرها على النَّحو الآتي :

إذا كان مثل هذا الإكرام لوالدي الانسان القارىء للقرآن فما الظنَّ بإكرام من عمل هذا العمل نفسه؟

لا بدَّ أنْ يكون كبيراً جدًّا .

وهذا الأسلوب يجعل المرء مهما تصوَّر المكافأة يجد أنهَّا أقل مما يدخر الله له .

وأمَّا الحديث الثَّاني فإنَّه كناية عن منزلة قارىء القرآن وفيه نسمع الصَّوت المترع بالإكرام فيقال له : « إقرأ وارتق ، ورتِّل كما كنت ترتِّل في الدُّنيا . فإنَّ منزلك عند آخر آية تقرؤها » .

---

(١) أبو داود ٢/ ٩٩ وابن ماجه ٢/ ١٢٤٢ عن أبي سعيد الخدريّ بلفظ مقارب .




ولنا أنْ نتصوَّر هذا القارىء يرتِّل بصوته الجميل، وكلَّما قرأ آية ارتقى وصعد في منازل الجنَّة، إنها صورة تتميَّز بالحركة والتشخيص المعنوي الرَّائع، فالقارىء يتدرَّج فوق سلَّم الإيمان آية آية، حتَّى يصعد إلى الغاية الَّتي ليس وراءها غاية.. إلى الجنة.

***

## د ـ العاصي والكافر يوم القيامة:

يوم القيامة على العصاة والكفَّار ثقيل جَدُّ ثقيل... عسير عسير، وقد عرض الكتاب والسُّنة نماذج عن فظاعة العقوبة الَّتي يلقاها العصاة والكفَّار في ذلك اليوم.

وسنرى قدراً مناسباً منها عندما نعرض للصُّور الفنِّية للجنَّة والنَّار، ونورد هنا بعض هذه الصُّور الرَّائعة الَّتي تمثِّل لنا حال هؤلاء البائسين في يوم القيامة.

ـ عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ:

«إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكلِّ غادرٍ لواء فقيل: هذه غدرة فلان بن فلان»[1].

في يوم القيامة حيث يجمع الله الأوَّلين والآخرين... في ذلك اليوم الَّذي تودُّ فيه كلُّ نفس لو أنَّ بينها وبين ما عملت من سؤ أمداً بعيداً ﴿يوم تجد كلُّ نفس ما عملت من خيرٍ محضراً وما عملت من سؤ تودُّ لو أنَّ بينها وبينه أمداً بعيداً﴾[1].

في هذا المـوقف الَّذي يجمع الخلق كلهم، تكون الفضيحة المخزية، فيرفع لواء ويقال: هذه غدرة فلان بن فلان. والغالب أنَّ الغدر في الدُّنيا يخفيه صاحبه، فجزاؤه أنْ يشهَّر به ويفضح على رؤوس الخلائق.

---

(١) رواه البخاريّ ومسلم وأبو داود (صحيح البخاري ٨/ ٥١ و ٤/ ١٢٧ ط الشَّعب ٧٨ ـ كتاب الأدب: ٩٩ ـ باب ما يدعى النَّاس بآبائهم وفي ٥٨ كتاب الجزية: ٢٢ ـ باب إثم الغادر. وصحيح مسلم ٣٢ ـ كتاب الجهاد ٤ باب تحريم الغدر، وشرح النَّووي ١٢/ ٤٢. وأبو داود ٣/ ١٠٩).

(٢) سورة آل عمران ٣٠





وهذا دليل على أنَّ العقوبة الَّتي تنتظره عقوبة شديدة ، وحتَّى إذا لم تكن هناك عقوبة فيكفي هذا الخزي الَّذي لحق بالغادر بإشهاره في هذا المشهد الرَّهيب يوم القيامة .

ـ عن سعيد بن زيد أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« من اقتطع شبراً من الأَرض ظلماً طوقَّهُ الله إيَّاه يوم القيامة من سبع أَرضين »[1] .

ما أَثقل هذا الحمل ! وما أَشدَّ هذه العقوبة !

إنَّ المرء في ذلك اليوم العصيب الَّذي يعسر عليه المرور بنفسه ، وفي ذلك الموقف الرَّهيب الذي يشيب الولدان ، يُطوَّق في عنقه ما لا يستطيع أُحد بقواه الحاليَّة أَنْ يحمله ، يُطوَّق مثل ما اقتطعه ظلماً من الأرض من سبع أَرضين مهما قلَّت المساحة المغتصبة ، أَوْ كثرت حتى ولو كانت شبراً .

والصُّورة هنا كانت عن طريق الوصف والموازنة .

ـ عن أَبي مالك الأَشعريّ أَنَّ النَّبي ﷺ قال :

« النَّائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع[2] من جرب »[3]

يعرض هذا النَّص عقوبة النَّائحة الَّتي تنوح على الموتى : تقام يوم القيامة وعليها سربال ودرع ، ولكنَّهما من نوع لا نظير له :

السِّربال من قطران ، والدِّرع من جرب .

عذاب مهين ، وفضيحة مخزية ، ولباس مستقذر يقزَّز النَّاس منه .

---

(١) صحيح مسلم ١١/ ٤٨ .
(٢) السربال : القميص أو الدِّرع ، والدِّرع من المرأة : قميصها (قاموس مختار ) .
(٣)صحيح مسلم ٦/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦ وابن ماجه ١/ ٥٠٤ .

إنَّ للقطران رائحة كريهة ولوناً أسود وإنَّ مرأى المصاب بالجرب يدعو إلى التَّقزُّز والقرف فما القول في ثوب مصنوع من الجرب .

وذكر الملابس للنَّائحة لأنهَّا في الدُّنيا غالباً ما تشقُّ ثيابها فهي ستكسى في ذاك اليوم ثياباً ولكن من هذا النَّوع الفريد البغيض .

ـ عن ميمونة ابنة سعد قالت : قال رسول الله ﷺ :

« مثل الرَّافلة[1] في الزِّينة في غير أَهلها كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها »[2] .

هذا المثل لأمر مشاهد ولا سيماً في أَيامنا هذه حيث نرى المرأة وهي في زينتها تخلب الأَلباب وتعجب الأبصار، في الطُّرقات والجلسات المختلطة، وكأَنها كوكب يعمُّ ضياؤه كلَّ ما يحيط به، ولكنها سوف تأتي يوم القيامة مظلمة كابية جزاء إظهارها لزينتها في الدُّنيا لغير أَهلها .

وفي الصُّورة مقابلة بين التبرُّج في الدُّنيا والتَّبختر في الزِّينة والظُّهور، وبين الظُّلمة الدَّاكنة التَّي لا نور لها .

ـ عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ :

« من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجَّة له »[3] .

في هذا النَّص صورتان :

أَمَّا الأُولى فالتَّعبير عن مفارقة الجماعة والخروج عليها بصورة مادِّية تعتمد على الحركة ( خلع يداً من طاعة ) ولا علاقة لهذه الصُّورة بعالم الغيب .

وأَمَّا الصُّورة الثَّانية فهي صورة من يلقى الله يوم القيامة ويقف بين يديه وليس له حجَّة . كم هو حزين بائس ذاك الذي يكون في هذا الموقف الصَّعب .

---

(١) رفل في ثيابه : أطالها وجرَّها متبختراً بها .
(٢) الترمذي ٢/ ٢٠٥ .
(٣) رواه مسلم ٦/ ٢٢ ط استانبول ( وانظر رياض الصَّالحين ٤٣٧) .

لا شك أنَّه يعتيريه الخزيُ والحرج والندم على عمله واليأس من الخلاص .

إنَّه موقف ترتعد له الفرائص وتنخلع لهوله القلوب . وعندما يكون واقفاً بين يدي الله ولا حجَّة له يكون معرَّضاً للعذاب الأليم .

ويصوِّر الرَّسول الكريم عقوبة اختلاس مال الدَّولة عندما يكون الاختلاس غلولاً بعد الانتهاء من معركة أوْ عندما يكون الاختلاس بسبب تولٍّ عمل من أعمال الدَّولة يصوِّرها بأنَّ هؤلاء العصاة الذين يرتكبون هذه المعصية يأتون يوم القيامة يحملون ما اختلسوا على رقابهم أوْ على ظهورهم فيثقلهم هذا الحمل ويعنيهم ويفضحهم . . ثُمَّ ينتهي بهم إلى النَّار .

وقريب من هذه الصُّورة صورة مانعي الزَّكاة الَّذين يأْتون يوم القيامة ومعهم الأنعام التي لم يؤدُّوا زكاتها أُسمن ما تكون فتقوم معركة بينهم وبينها ، وتنطحهم هذه الأنعام بقرونها وتلقيهم أرضاً ، وتطؤهم بأخفافها وأظلافها ويستمرُّون في هذا العذاب والإهانة حتى يقضى بين النَّاس .

ولنعرض النُّصوص هذه :

ـ عن أبي هريرة قال :

قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم فذكر الغلول فعظَّمه وعظَّم أمره ثم ثال :

« لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء .

ـ يقول : يا رسول الله ! أغثني .

ـ فأقول : لا أملك لك شيئاً . قد أبلغتك .

ـ لا أُلفين أُحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة .

ـ فيقول : يا رسول الله ! أغثني .

ـ فأقول : لا أملك لك شيئاً . قد أبلغتك .

ـ لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء .

- يقول : يا رسول الله ! أغثني .
- فأقول : لا أملك لك شيئاً . قد أبلغتك .

- لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح .
- فيقول : يا رسول الله ! أغثني .
- فأقول : لا أملك لك شيئاً . قد أبلغتك .

- لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع[1] تخفق .
- فيقول : يا رسول الله ! أغثني .
- فأقول : لا أملك لك شيئاً . قد أبلغتك .

- لا ألفين أُحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت .[2]
- فيقول : يا رسول الله ! أُغثني .
- فأقول : لا أُملك لك شيئاً . قد أُبلغتك » .[3]

صورة حيَّة ومشهد مثير حتَّى كأنَّ هذا المشهد يجرى أمام أعيننا وقد اتخذ العرض أسلوب التَّحذير والتَّهديد ، وذكر ستة أصناف أمثلة على الغلول ، وذكر حال صاحبها يوم القيامة واستغاثته برسول الله ﷺ وعدم استفادته من هذه الاستغاثة شيئاً لأنَّ الوقت المناسب مضى وفات .

أمَّا الأصناف السِّتة التي ذكرها فهي : البعير والفرس والشاة والرَّقيق والثِّياب والذَّهب والفضَّة . وهي أمثلة لما كان قد تقدَّم منه ﷺ من التحذير من الغلول .

وقد استكملت الصُّورة بذكر تفصيلات تبثُّ في المشهد الحيويَّة والحركة والصَّوت :

---

(١) الرِّقاع : الخرق ويريد بها الملابس . وتخفق : تضطرب .

(٢) الصامت : الذَّهب والفضَّة ، يقال : ماله صامت ولا ناطق . ويريدون بالنَّاطق الإبل والغنم ، أي ليس له شيء .

(٣) رواه البخاري ومسلم ( البخاري : ٥٦ ـ كتاب الجهاد : ١٨٩ ـ باب الغلول ومسلم : ٣٣ ـ كتاب الإمارة : ٦ ـ باب تحريم الغلول وشرح النَّووي لمسلم ١٢ / ٢١٧ ) .

فالبعير فوق عنق هذا الغالّ له رغاء ، بحيث لا يلفت حمله له على رقبته أنظار النَّاس فحسب ، ولكنْ يشارك رغاؤه في مزيد من الفضيحة والتشهير .

وإنَّنا لنكاد نلمحه وهو بين الزِّحام ينوء بحمله الثَّقيل ويتمنَّى الخلاص فلا يجد له سبيلاً ، فيأتي رسول الله ﷺ وقد عرف أنَّ له الشَّفاعة ويناديه :

ـ يا رسول الله ! أغثني .

فأنا على ما ترى من الغمِّ والكرب والفضيحة والعذاب . ويأتي الجواب المؤلم كأنَّه صاعقة تزيد من ألمه :

« لا أملك لك شيئاً . قد أبلغتك »

والفرس فوق رقبة الرَّجل له حمحمة . . . . . . . .

والمشهد نفسه متكرِّر . . والاستغاثة تنطلق . . ويتلقَّى الجواب ذاته وكذلك الشَّاة التي نكاد نسمع ثغاءها ويئن صاحبها ويستغيث . . ولا إغاثة . . فقد أبلغ وأنذر .

وكذلك الرَّقيق المحمول على العنق وصياحهُ الذي يملأُ الرَّحب وشكوى حامله واستغاثته . . ومصيره مصير زملائه .

والرِّقاع على عنق صاحبها تخفق . . والذَّهب والفضّة .

ومن الأمور التي تذكر في هذه اللَّوحة المؤثرة المحزنة والمشهد الحيِّ هذا التكرار في عرض الصُّور المتشابهة وإن اختلف المعروض . . وهو يؤدِّي غرض التَّحذير والإنذار .

والحوار المتكرِّر يحوِّل الصُّورة إلى مشهد يعرض أمام أعين خيالنا . والنَّص كله كناية عن خسران الذي يغلّ وفضيحته وعذابه .

ـ عن أبي مسعود الأنصاري قال :

بعثني النَّبي ﷺ ساعياً ثم قال :

« انطلق أبا مسعود . لا أُلفينَّك يوم القيامة تجيء على ظهرك بعير من إبل الصَّدقة قد غللته » .

ـ قال : إذاً لا أنطلق .

ـ قال : «إذاً لا اكرهك» .[1]

ـ عن أبي حميد السَّاعدي أنَّ النَّبي ﷺ قال :

« لا يأتي أحد منكم بشيء من ذلك إلا جاء به يوم القيامة إنْ كان بعيراً فله رغاء ، أو بقرة فلها خوار ، أو شاة تيعر » .[2]

ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة[3] إبطيه ، ثم قال :

« الَّلهم هل بلَّغت ؟ اللهم هل بلَّغت ؟ . » [1]

وهذا تحذير لمن يلي عملاً من أعمال الدولة من أنْ يستحوذ على شيء من المال العام، فإنَّ ذلك يعرِّضه للعذاب والفضيحة يوم القيامة ، يحمل ما غلَّه إنْ كان بعيراً فله رغاء أو بقرة فلها خوار أو شاة فلها يعار .

ويبدو أنَّ هذا التَّحذير جعل أبا مسعود يطلب من النَّبي ﷺ إعفاءه فقبل منه وقال : لا أكرهك .

ـ عن أبي ذر ـ قال :

جئت إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في ظلِّ الكعبة ، فرآني مقبلاً فقال :

« هم الأخسرون وربِّ الكعبة يوم القيامة » .

---

(١) أبو داود ٣ / ١٨٦ .
(٢) واليعار : صوت الغنم أو المعزى أو الشَّديد من أصوات الشَّاء . يعرت تيعر من بابي ضرب ومنع .
(٣) العفرة : البياض وجاء في « المختار » : والأعفر الأبيض وليس بالشديد البياض .

ـ فقلت : ماله ؟ لعليٍّ أنزل فيَّ شيء . قلت : من هم ؟ فداك أبي وأمي .

ـ فقال رسول الله ﷺ :

« هم الأكثرون إلاَّ من قال هكذا وهكذا وهكذا » .

فحثى بين يديه وعن يمينه وعن شماله ثم قال :

« والذي نفسي بيده لا يموت رجل فيدع إبلا أو بقرا لم يؤدِّ زكاتها إلاَّ جاء يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تطوءه بأخفافها وتنطحه بقرونها ، كلّما نفدت أُخراها عادت عليه أولاها حتَّى يقضي بين النَّاس » .[1]

قدَّم الرَّسول ﷺ لذكر عقاب ما نعي الـزَّكاة بأنْ أقسـم بربِّ الكعبـة أنَّ الأغنياء هم الأخسرون إلاَّ من أنفق ، ولم يصرِّح بذكر الأغنياء إلاَّ بعـد أنْ أثـار تشويق أبي ذر فسأله .

وعبَّر صلوات الله وسلامه عليه عن الإنفاق بالإشارة الدَّالة على الحثي أمامه وعن يمينه وعن شماله ، ثم قرَّر أنَّ الذين يموتون وقد تركوا أنعاماً لم يؤدُّوا زكاتها تأتي هذه الأنعام يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمن ما كانت ، وتنكل بصاحبها فتنطحه بقرونها وتطوءه بأخفافها كلَّما انتهت أُخراها عادت عليه أولاهـا حتَّـى يقضى بـين النَّاس .

لقد كان الذي تركه دون زكاة أُداة تعذيبه في ذاك اليوم العصيب .

ـ عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ :

« ما من صاحب ذهب ولا فضَّة لا يؤدِّي فيها حقَّها إلاَّ إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنَّم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره كلَّما بردت أُعيدت له في يوم كان مقداره خمسين أَلف سنة حتَّى يقضى بين العباد فيرى سبيله إمَّا إلى الجنَّة وإمَّا إلى النَّار » .

---

(١) الترمذي ج ٢ صـ ١ ، وابن ماجه ١/ ٥٦٨ .

قيل : يا رسول الله فالإبل ؟

قال : « ولا صاحب إبل لا يؤدِّي منها حقَّها ، ومن حقِّها حلبها يوم وردها ، إلاَّ إذا كان يوم القيامة بُطِحَ[1] لها بقاع قرقر أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلاً واحداً تطوءه بأخفاقها ، وتعضُّه بأفواهها كلَّما مرَّت عليه أولاها رُدَّ عليه أُخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتَّى يقضى بين العباد فيرى سبيله إمَّا إلى الجنَّة وإمَّا إلى النَّار . »

قيل : يا رسول الله فالبقر والغنم ؟

قال : « ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي منها حقَّها إلاَّ إذا كان يوم القيامة بطِحَ لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئاً ليس فيها عقصاء[2] ولا جلحاء[3] ولا عضباء[4] تنطحه بقرونها وتطوءه بأظلافها كلّما مرَّت عليه أُولاها رُدَّ عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتَّى يقضى بين العباد فيرى سبيله إمَّا إلى الجنَّة وإمَّا إلى النَّار » .

قيل : يا رسول الله فالخيل ؟

قال : « الخيل ثلاثة هي لرجل وزر ، وهي لرجل ستر ، وهي لرجل أجر . فأمّا التي هي وزر فرجل ربطها رياء وفخراً ونواء[4] على أهل الإسلام فهي له وزر .

وأمّا التي هي له ستر فرجل ربطها في سبيل الله ، ثم لم ينس حقَّ الله في ظهورها ولا رقابها[5] فهي له ستر .

---

(١) أي ألقي على وجهه . والقاع المستوي الواسع من الأرض . والقرقر: المستوي أيضاً .
(٢) أي ملتوية القرنين .
(٣) التي لا قرون لها .
(٤) التي انكسر قرنها الداخل .
(٥) أي مناوأة .
(٦) قال أبو حنيفة : حقُّ الله فيها الزكاة . وخالفه الآخرون وقالوا إنَّه الجهاد بها، قيل يحتمل أنَّ المراد بالحقّ في رقابها الاحسان إليها والقيام بعلفها وسائر مؤنها، والمراد بظهورها إطراق فحلها إذا طلبت عاريته، وقيل المراد حقّ الله مما يكسب من مال العدو على ظهورها .





وأمَّا التي هي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام في مرج وروضة فما أكلت من ذلك المرج أَوْ الرَّوضة من شيء إلا كتب له عدد ما أكلت حسنات وكتب له عدد أرواثها وأبوالها حسنات ، ولا تقطَع طِوَلَها[1] فاستنَّت[2] شرفاً أو شرفين إلاَّ كتب الله له عدد آثارها وأرواثها حسنات ولا مرَّ بها صاحبها على نهر فشربت منه ولا يريد أَنْ يسقيها إلاَّ كتب الله له عدد ما شربت حسنات » .

قيل : يا رسول الله فالحمر ؟

قال : « ما أُنزل على في الحمر شيءٌ إلاَّ هذه الآية الفاذَّة الجامعة :﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرَّة شرّاً يره ﴾ .[3]

وفي رواية عن جابر :

« . . . ولا صاحب كنز لا يفعل منه حقَّه إلاَّ جاءه كنزه يوم القيامة شجاعاً أَقرع يتبعه فاتحاً فاه . فإذا أتاه فَرَّ منه فيناديه خذ كنزك الذي خبَّأته فأنا عنه غني ، فإذا رأى أنْ لا بدَّ منه سلك يده في فيه فيقضمها قضم الفحل » .[4]

حديث أبي هريرة الطويل حديث يصوِّر العذاب بصور حسِّية مخيفة مفزعة من الكيِّ المستمر للجنب والجبين والظهر ومن وطء الابل بالأخفاف والعضِّ بالأفواه ومن نطح البقر بالقرون والوطء أيضاً بالأظلاف ومن تحول الكنز إلى ثعبان مخيف يقضم يد صاحبه قضم الفحل .

***

ـ وعن أسماء بنت يزيد أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« أيمَّا أمرأة تقلَّدت قلادة من ذهب قُلِّدت في عنقها مثله من النَّار يوم القيامة .

---

(١) أي حبلها.

(٢) أي جرت.

(٣) صحيح مسلم ٧ / ٦٤ ـ ٦٧ وأبو داود ٢ / ١٦٧ .

(٤)صحيح مسلم ٧ / ٧٠ .




وأيمّا امرأة جعلت في أذنها خرصاً من ذهب جعل في أذنها مثله من النار يوم القيامة » .[1]

ـ وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه أنَّ امرأة معها بنتها وفي يدها مسكتان من ذهب قال، قال رسول الله ﷺ :

ـ أتعطين زكاة هذا ؟

ـ قالت : لا .

ـ قال : أيسرك أنْ يسورك الله يوم القيامة بسوارين من نار؟ .

ـ قال : فألقتهما إلى النبي ﷺ وقالت: هما لله ورسوله[2]

حديثان يصوران عذاب جهنّم بصور مادِّية حسِّية مفزعة ولكنَّ الصورة هنا كانت عن طريق الموازنة .

فالقلادة من الذَّهب تتحوّل إلى قلادة من النار يوم القيامة .

والخرص من الذهب يتحوَّل إلى خرص من النار يوم القيامة .

والمسكتان من الذهب يتحولان إلى سوارين من نار .

ومن الصور الجميلة الرائعة ما جاء في الكلام عن أعضاء العصاة أو الكفرة وكيف تكون يوم القيامة .

ـ عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ :

« ضرس الكافر ـ أو ناب الكافر ـ مثل أحد . وغلظ جلده مسيرة ثلاث ، وما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع » .[3]

---

(١) أبو داود ٤ / ١٣١ .
(٢) أبو داود ٢ / ١٢٨ .
(٣) صحيح مسلم ١٧ / ١٨٦ والترمذي (وانظر صحيح الجامع ٤/ ٤).





وفي رواية لأحمد والحاكم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

« ضرس الكافر يوم القيامة مثل أحد ، وعرض جلده سبعون ذراعاً ، وعضده مثل البيضاء ،[1] وفخذه مثل ورقان ،[2] ومقعده في النار ما بيني وبين الربذة[3] »[4].

ضرس الكافر مثل جبل أحد . . كم سيلاقي صاحبه من العذاب والثِّقل . إنَّ الذي يضع في فمه حصاة صغيرة يضيق بها ذرعاً إنْ طال وضعها ، فكيف يكون الحال لو أنَّ ضرسه تحوَّل إلى جبل . . .

إنَّه ـ مع كونه عذاباً ـ قبح وشناعة ليس بعدها شناعة . . إنَّنا إذا رأينا رجلاً أسنانه كبيرة شيئاً ما عددنا هذا من عناصر القبح الشَّديد ، وليس ضرسه هو الكبير فقط بل كذلك جلده ، وما بين منكبيه ، وفخذه ، وعضده .

وكلَّما كبرت المسافة المعرَّضة للعذاب زاد الإحساس به ، وقد شبَّه الحديث أعضاءه التي ستضخَّم في يوم القيامة بمواضع يعرفها المخاطبون ، فجبل أُحد والرَّبذة وورقان والبيضاء كلٌّ هذه مواضع يعرفونها ، والتصوير بها يزيد من شناعة العقاب لضخامتها ، حتَّى لتبدو هذه الصُّورة رسماً خيالياً بالغ التأثير يشبه ما يطلق عليه الآن فنَّ الكاريكاتير .

ـ عن عبد الله بن عمر قال رسول الله ﷺ :

« ما يزال الرَّجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة[5] لحم » .[6]

---

(١) البيضاء : موضع في بلاد العرب .
(٢) ورقان : جبل أسود على عين المار من المدينة إلى مكَّة .
(٣) الرَّبذة : قرية قرب المدينة .
(٤) أنظر صحيح الجامع الصغير ٤/ ٥ .
(٥) المزعة : القطعة .
(٦) صحيح مسلم ٧ / ١٣٠ .

صورة منكرة للسائل . . تقوم على وصف حاله يوم القيامة . إنَّ المسألة تذهب بلحم وجهه ، فلا يبقى عليه من اللحم شيء . وفي ذلك من الفضيحة المخزية والقبح المتناهي ما فيه، وإنَّ هذا لتنفير من سؤال النَّاس دون حاجة وتحذير لهم من أن يقعوا في هذا المصير السيىء البائس .

ـ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال :

« من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقُّه مائل » .[1]

صورة للرَّجل الذي يظلم إحدى زوجتيه ولا يعدل بينهما ، فيميل إلى إحداها ميلاً يؤدي به إلى الجور في المعاملة والمعاشرة والعطاء والنَّفقة . أما الميل القلبي فلا شيء عليه فيه، وهذا ما يوضحه حديث آخر : « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تحاسبني على ما لا أملك » .

إنَّ مجيئه يوم القيامة بشق مائل يعرضه إلى خطر السُّقوط عند مروره على الصرِّاط ،ويفضحه على رؤوس الخلائق فيعلمون أنه كان ظالماً لزوجته، هذا إلى الألم الذي يعانيه صاحب الجسم المشوَّه .

ونختم هذا الفصل بحوار رائع طريف يجرى بين العبد المسرف على نفسه وبين ربِّه تبارك وتعالى ، ثم يجري حوار بين العبد وجوارحه .

ـ عن أنس قال :

كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال :

ـ هل تدرون مِمَّ أضحك ؟
ـ قال قلنا : الله ورسوله أعلم .
ـ قال : من مخاطبة العبد ربَّه :
ـ يقول العبد : يا ربِّ ! ألم تجرني من الظلم ؟
ـ قال يقول : بلى

(١) أبو داود ٢ / ٣٢٦ ، وابن ماجه ١ / ٦٣٣ .





ـ قال فيقول : فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني .
ـ قال فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً .
ـ قال : فيختم على فيه .
ـ فيقال لأركانه : انطقي .
ـ قال : فتنطق بأعماله .
ـ قال : ثم يخلى بينه وبين الكلام .
ـ قال فيقول : بعداً لكنَّ وسحقاً فعنكنَّ كنت أناضل .[1]

حوار ممتع ومليء بالمفاجآت وفيه تصوير حال الناس يوم القيامة .

ويذكرنا هذا الحديث بآيتين من القرآن وهما :

قوله تعالى ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ .[2]

وقوله تعالى ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون حتَّى إذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم : لم شهدتُّم علينا ؟ قالوا : أنطقنا الله الذي انطق كلَّ شيء ، وهو خلقكم أوّل مرَّة وإليه ترجعون وما كنتم تستترون أنْ يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أنَّ الله لا يعلم كثيراً ممَّا تعملون . وذلكم ظنُّكم الذي ظننتم بربِّكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾ .[3]

يذكر أنس أنَّ هذا الحوار ، هذه المفاجأة غير السارَّة التي فوجىء بها العبد أضحكت رسول الله .

وكان هذا العبد ظَنَّ أنَّ مخاطبته على النَّحو الذي زينه في نفسه ستضمن له النَّجاة .

---

(١) صحيح مسلم ١٨ / ١٠٥
(٢) سورة يس ٦٥ .
(٣) سورة فصلت ١٩ ـ ٢٣ .

فهو الذي طلب ألاَّ يكون شاهد عليه إلاَّ من نفسه فقبل هذا الطلب وقال : كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً . وختم على فيه ثم طلب من أعضائه أن تتكلَّم ، فنطقت معترفة بذنوبه وخطاياه كلّها .

ثم يخلّيّ بينه وبين الكلام فشرع يشتم أعضاءه ويقول : بعداً لَكُنَّ وسحقاً، عنكُنَّ كنت أُناضل حتَّى لا تعذّبن . ويستسلم لقضاء الله فيه .

مشهد حيّ قائم على الحوار يصف أمراً غيبياً يكون يوم القيامة .

***

## هـ ـ متفرِّقات :

من الأُمور الغيبيَّة المتعلِّقة بالقيامة صور تتعلَّق بالمحاسبة والحشر والحوض وما إلى ذلك نقدِّم أمثلة منها فيما يلي :

ـ عن أبي هريرة أن رسولَ الله ﷺ قال :

«لتؤدُّن الحقوق إلى أهليها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشّاة القرناء [١]» . [٢]

يقرر النَّص العدالة التَّامة في يوم القيامة . . تلك العدالة التي لا تضيِّع حقاً حتَّى للعجماوات . . ليس هناك حق يضيَّع . . . فكلُّ حق يؤدَّى إلى صاحبه حتَّى يقاد للشاة الجلحاء التي كانت تتعرَّض إلى هجمة شرسة مؤذية من الشاة القرناء تستغلُّ ضعف التي لا قرون لها .

وعلى الرَّغم من أنَّ الحيوانات سيقال لها كوني تراباً في اليوم الآخر [٣] ولكنَّها تحشر قبل ذلك للمحاسبة وينتصف الجبَّار العادل للضعيف فيها من القوي . إنَّ عرض

---

(١) القرناء : ذات القرون . والجلحاء : التي لا قرون لها . ويقاد : مشتقة من القود وهو القصاص .

(٢) صحيح مسلم ١٦ / ١٣٦ .

(٣) جاء في سورة النبأ ﴿يوم ينظر المرء ما قدَّمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾

هذا المشهد الغيبي الذي سيقع في يوم القيامة ليرسِّخ في النُّفوس معنى العدالة الإِلهيَّة في ذاك اليوم .

وإنَّ هذا ليضفي على النَّفس سعادةً ورضى لا سيَّما إنْ كان الإِنسان مظلوماً وقعدت سلطات الدُّنيا عن نصرته والانتصاف له من ظالمه .

ـ عن المقداد بن الأسود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« تدنى الشَّمس يوم القيامة من الخلق حتَّى تكون منهم كمقدار ميل[1] فيكون النَّاس على قدر أعمالهم في العرق :

فمنهم من يكون إلى كعبيه
ومنهم من يكون إلى ركبتيه
ومنهم من يكون إلى حقويه[2]
ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً[3]

قال : وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه .

مشهد يصوِّر العناء والضِّيق والشِدَّة والعذابِ ممَّا يلقاه النَّاس في يوم القيامة . وقد ذكر أمرين هما :

ـ وقوفهم تحت الشَّمس وقد دنت منهم .
ـ خوضهم في بحيرات من العرق متفاوتة العمق .

والمعاناة من الشَّمس اللاَّهبةِ ممَّا يدركه النَّاس جميعاً والعرب أبناء الصَّحراء من أعرف النَّاس بأضرار التَّعرض لحرارتها وهي بعيدة بعيدة ، فكيف ستكون حالهم وقد دنت الشَّمس منهم وأضحت على بعد ميل فقط ، إنَّ المرء العادي الذي عانى من

---

(١) قال سليم بن عامر راوي الحديث : فوالله ما أدري ما يعني بالميل : أ مسافة الأرض أم الميل الذي تكتحل به العين (من الصحيح نفسه)

(٢) الحقو : (بالفتح ويكسر) : الخصر ومعقد الازار .

(٣) صحيح مسلم ١٧/ ١٩٦ (وانظر المجازات للشريف الرضي ٢٣٩) .

التعرُّض لوهج أشعَّتها يستطيع أنْ يعلم أنَّ وضعه سيكون على حال من السُّوء تزيد أضعافاً مضاعفة على ما كان يعانيه في الدُّنيا .

أمّا المرء الذي أدرك نصيباً من المعرفة بأحوال هذا الكون فإنَّه يعلم أنَّ الشَّمس لو اقتربت من الكرة الأرضية شيئاً قليلاً لدمَّرت الحياة كلها . إنَّ هذا المرء ليهوله هذا الوضع الغيبيّ الرَّهيب ، ولولا أنَّنا نعلم أنَّ تركيب جسم الانسان سيكون على هيئة أُخرى يتحمَّل ما لم يكن يتحمَّله من قبل وأنَّ نظام الكون كلَّه سيتبدَّل على غير ما نعرف لولا ذلك كلّه لكان مجرَّد اقتراب الشَّمس من الأرض التي عليها البشر سبباً في القضاء عليهم وهلاكهم .[1]

والخوض في الماء شيء صعب ، فما القول بالعرق المقرف ؟ عرق الآخرين الذي تحدَّر من أجسامهم بسبب الشَّدة والضِّيق والمعاناة .

إنَّ الإنسان ليشمئزُّ من عرق نفسه فتراه في الدُّنيا يغسل جسمه وثوبه ليتخلَّص من رائحة العرق .

في ذاك اليوم الرَّهيب يخوض في بحيرة من العرق ، ويكون ارتفاعه على وفق أعماله التَّي كان يعملها في الدُّنيا .

والصُّورة قائمة على الوصف الدَّقيق .

ـ عن عدي بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ :

« ما منكم من أحد إلاَّ سيكلِّمه الله ليس بينه وبينه ترجمان .
فينظر أيمن منه فلا يرى إلاَّ ما قدَّم
وينظر أشأم منه فلا يرى إلاَّ ما قدَّم
وينظر بين يديه فلا يرى إلاَّ النار تلقاء وجهه
فاتقُّوا النَّار ولو بشقِّ تمرة».

---

(١) ذكر ذلك كتاب العلم يدعو إلى الايمان أنظر صفحة ٥٣ وفيها يقول إنَّ درجة الحرارة لو زادت على الكرة الأرضيَّة بمعدَّل خمسين درجة في سنة واحدة لمات كل نبات واحترق الإنسان .

وفي رواية زاد :

« ولو بكلمة طيبة »[1]

المحاسبة مع الله العلي الجبَّار . . كلُّ إنسان مهما كان شأنه سيكلِّمه الله مباشرة ، ليس بينه وبينه ترجمان .

إنَّ ذلك دون شك عندما يتصوَّره المؤمن يجعله في موضع المتهيِّب . . الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصُّدور . . الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السَّماء هو الذي سيكلِّم كلَّ واحد من الخلق .

أمَّا حال الإنسان في ذاك الموقف فإنَّه ينظر جهة اليمين فإذا أعماله التي قدَّمها ماثلة . . فيحوِّل نظره إلى جهة الشِّمال فلا يرى إلا ما قدَّم من أعمال . . . إنهَّا تكتنفه وتحيط به ، فينظر أمامه وإذا الهول المروِّع . . النَّار تلقاء وجهه .

المحاسبة دقيقة . . والأعمال التَّي قدَّمها تبدو قائمة من عن يمينه وعن شماله . ماذا يعمل ؟ هل يستطيع الإنكار والتَّهرُّب ؟ وفي هذه اللحظة التَّي كان المرء فيها في أشدِّ حالات الخوف والشَّفافية والرَّغبة في الخلاص تأتي الموعظة الدِّينية في وقتها المناسب ، تقول :

إذا كان ذلك اليوم هو المصير فاتَّقوا النَّار بما تستطيعون ، ولا يزهدنَّكم في المعروف قلَّته فاتَّقوا النَّار ولو بشقِّ تمرة . . ولو بكلمة طيِّبة .

تصوير دقيق لما سيقابل المرء يوم القيامة بوصف وافٍ يهيِّء الجوَّ والنَّفس للموعظة التي تتغلغل إلى أعماق القلوب .

ـ عن أبي هريرة في حديثه الطَّويل عن الشَّفاعة قال قال رسول اللَّه ﷺ :

« . . . فيأتون محمَّداً ﷺ فيقوم فيؤذن له وترسل الأمانة والرَّحم ، فتقومان

---

(1) متفق عليه ( صحيح البخاري ٩ / ١٨١ ط الشعب وصحيح مسلم ٧ / ١٠١ وانظر في رياض الصالحين ١٣٨ و ٢٩٦ وابن ماجه ١ / ٥٩٠ .

جنبتي الصرّاط يميناً وشمالاً فيمرّ أوّلكم كالبرق »

قال قلت : بأبي أنت وأمي ! أيُّ شيء كمرِّ البرق ؟

قال : « ألم تروا إلى البرق كيف يمرّ ويرجع في طرفة عين ؟ ثمّ كمرِّ الرِّيح ، ثمّ كمرِّ الطَّير ،وشدّ الرِّجال[1] ، تجري بهم أعمالهم ،ونبيُّكم قائم على الصراط يقول: ربِّ سلِّم سلِّم ، حتّى تعجز أعمال العباد حتّى يجيء الرَّجل فلا يستطيع السَّير إلاّ زحفاً »[2] .

في هذه القطعة من الحديث صور عدّة :

- منها صورة الأمانة والرَّحم ، فقد أُرسلتا لعظم أمرهما تقومان كأنهما شخصان على الصِّفة الَّتي قدَّرها الله عزّ وجلّ وتقفان على جنبتي الصرّاط من اليمين والشّمال تطالبان كل من يريد الجواز عليه بحقِّهما .

وهذا يدلُّ على أنّ أمرهما عظيم جدًّا .

المرور على الصراط درجات عرضه علينا الحديث بتصوير دقيق معبِّر :

فهناك من يمرُّ على الصرّاط كالبرق

وهنا من يمرُّ على الصراط كالرِّيح

وهناك من يمرُّ على الصراط كالطَّير

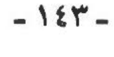
وهناك من يزحف زحفاً ولا يستطيع السَّير. والأعمال هي الّتي تجري بالنَّاس فقد تبطىء بصاحبها وقد تسرع به .

والرِّجال تجري بهم أعمالهم ورسول الله ﷺ الرَّؤوف بالمؤمنين الرَّحيم بهم قائم على الصراط يدعو الله ويقول: ربِّ سلِّم سلِّم .

ففي هذه القطعة تشخيص ووصف وتشبيه وفيها تبيان لأهميَّة الأمانة والرَّحم

(١) الشد: العدد

(٢)صحيح مسلم ٣/ ٧١ ـ ٧٢ .







وفيها وصف للّمرور على الصراط ودرجاته وأنّ الّذي يجري بالنّاس في ذاك اليوم هو أَعمالهم وفيها بيان لرأفة الرّسول ﷺ وشفقته وشفاعته ودعائه .

## الحَـــوْض :

من الأُمور الغيبيَّة الّتي آختصّ بها الرّسول ﷺ في يوم من القيامة الحَوض[1] وقد جاءت الأَحاديث في وصفه وتصويره .

إِنَّه حوض رسول اللَّه ﷺ . . . وهو حوض واسع عريض جدًّا وماؤه طيِّب من شرب منه لم يظمأْ بعده أبداً وكيزانه كثيرة جدًّا وجميلة إِنهَّا كنجوم السَّماء وكواكبها ، والرَّسول ﷺ يسبق أُمَّته إِليه وينتظرهم هناك ، ويدعوهم إِذا أَقْبلوا ، أَمَّا الذين أَحدثوا بعده وبدَّلوا فجزاؤهم الحرمان من وروده والطَّرد .

وما بين ناحيتيه بعيد كما بين أَيلة إلى عدن، وزواياه سواء، وماؤه أَبيض من الفضَّة بل أَشدّ بياضاً من الثَّلج واللَّبن، وأَحلى من العسل باللَّبن، وريحه أَطيب من المسك ، ويصبُّ فيه ميزابان من الجنَّة.

إِنّ الأَحاديث الَّتي تحدَّثت عن الحوض قربت هذا الأمر الغيبيّ بذكر أوصاف وتشبيهات معروفة .

ولنورد الأَحاديث :

ـ عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله ﷺ :

« إِنّي فرطكم على الحوض ، وإِنّ عرضه كما بين أَيلة إلى الجحفة »[2] .

ـ وعن أَنس بن مالك ، قال قال رسول اللَّه ﷺ :

---

(١) هل الحوض نهر الكوثر أم غيره؟ للعلماء رأيان في هذا وهناك في مسلم ٤/ ١١٢ ـ ١١٣ حديث عن أنس يدلُّ على أَنّه هو، والمسألة لا مجال لتحقيقها في هذا البحث.

(٢) صحيح مسلم ١٥/ ٥٧

« إِنَّ قدر حوضي كما بين أيلة وصنعاء من اليمن ،وإِنَّ فيه من الأَباريق كعدد نجوم السَّماء » [١]

ـ وعن أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ قال :

« إِنَّ حوضي أَبعد من أَيلة من عدن ، لهو أَشَدُّ بياضاً من الثَّلج وأَحلى من العسل واللَّبن ، ولآنيته أكثر من عدد النُّجوم . وإِنِّي لأَصدُّ النَّاس عنه كما يصدُّ الرَّجل إِبل النَّاس عن حوضه »

وفي رواية :

« إِنِّي لأَذود عنه الرِّجال كما يذود الرَّجل الإِبل الغريبة عن حوضه »

قالوا : يا رسول اللَّه ! أَتعرفنا يومئذ

قال : نعم لكم سيما ليست لأَحد من الأُمم تردون عليّ غراً محجَّلين [٢]

ـ عن أبي ذر قال :

قلت : يا رسول اللَّه ! ما آنية الحوض ؟

قال : « والَّذي نفس محمد بيده لآنيته أَكثر من عدد نجوم السَّماء وكواكبها ، أَلاَ في اللَّيلة المظلمة المصحية آنية الجنَّة [٣] . من شرب منها لم يظمأْ . آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنَّة من شرب منه لم يظمأْ . عرضه مثل طوله ما بين عمان إلى أيلة . ماؤه أَشَدُّ بياضاً من اللَّبن وأَحْلى من العسل » [٤] .

---

١ ـ البخاري ( ٨١ ـ كتاب الرِّقاق : ٥٣ ـ باب في الحوض وقول اللَّه ﴿ إِنَّا أَعطيناك الكوثر﴾

٢ ـ مسلم ٣/ ١٣٥ وابن ماجه ٢/ ١٤٣٨ عن حذيفة . والغرَّة : بياض في جبهة الفرس والتحجيل بياض في يدي الفرس ورجليه . قال العلماء سمِّي النُّور الذي يكون على مواضع الوضوء غرَّة وتحجيلاً تشبيهاً بغرَّة الفرس .

٣ ـ أَيْ هي آنية الجنَّة

٤ ـ صحيح مسلم بشرح النَّووي ١٥/ ٦٢ ـ ٦٥

ـ عن ابن عمرو بن العاص قال قال رسول اللّه ﷺ :

«حوضي مسيرة شهر وزواياه سواء وماؤه أَبيض من الورق ، وريحه أَطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السَّماء ، فمن شرب فلا يظمأ بعده أبدًا»[1]

ـ عن ابن عمر قال رسول اللّه ﷺ :

« إِنَّ أَمامكم حوضاً ما بين ناحيتيه كما بين جرباء وأُذرح »[2]

ـ وعن أُمِّ سلمة قالت قال رسول الله ﷺ :

« إِنِّي لكم فرط على الحوض ، فإِيَّاي لا يأْتينَّ أحدكم فيذبُّ عنِّي كما يذبُّ البعير الضَّال .

فأَقول : فيم هذا ؟

فيقال : إِنَّك لا تدري ما أَحدثوا بعدك .

فأَقول : سحقاً[3]

في أَحاديث الحوض هذه رأَيْنا أَنَّ الرَّسول الكريم ﷺ استعان بأَدوات عدَّة في التَّصوير .

ـ استعان بالأَلوان ، وسلك لذلك مسلك الموازنة من نحو قوله :

«أَشدُّ بياضاً من الثَّلج والورق واللَّبن »

---

١ ـ متَّفق عليه ( البخاري : ٨١ : ـ كتاب الرِّقاق : ٥٣ ـ باب الحوض ومسلم : ٤٣ ـ الفضائل : ٩ ـ إثبات حوض نبيِّنا وصفاته شرح مسلم ١٥/ ٥٥ )

٢ ـ أبو داود ٤/ ٣٢٧ وقال الفيروزبادي : ( وأذرح بضم الراء بلد بجانب جرباء بالشَّام ، وغلط من قال بينهما ثلاثة أيام ) القاموس مادة ذرح . وقال أيضاً : ( وإنَّما الوهم من رواة الحديث من إسقاط زيادة ذكرها الدَّارقطني وهي : ( ما بين ناحيتي حوضي كما بين المدينة وجرباء وأذرح » )

٣ ـ صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/ ٥٦



- وبالذَّوق من نحو قوله « أحلى من العسل »

- وبالشَّم وذلك في قوله « أَطيب من المسك »

- وبالمسافات والأَبعاد الَّتي بين المدن من نحو قوله « ما بين أَيلة إلى عدن »

- وبالمشاهد الطَّبيعيَّة وذلك عندما أَراد أَنْ يذكر كيزان الحوض وأباريقه وآنيته فقال :

«لآنيته أكثر من عدد نجوم السَّماء وكواكبها ألاَ في اللَّيلة المظلمة المصحية »

إِنَّ نجوم السَّماء في اللَّيلة المظلمة الَّتي لا سحاب فيها تكون كثيرة لا تغطِّيها حجب السَّحاب ولا يخفيها ضياء القمر .

- وبالتَّحديد الهندسِّي الدَّقيق فالحوض مربع ( عرضه مثل طوله ، وزواياه متساوية) «زواياه سواء»

- وبذكر الحيوان المعروف عندهم وهو البعير في حالة وروده حوض رجل غير صاحبه . وقد أشار هنا إلى عادة شائعة وهي أَنَّ صاحب الاِبل يقف على الحوض يرعى أنعامه ويذود الغريب عنها .

وكثير من هذه الصُّور كانت أمثـالاً كقولـه « أَحلى من العسـل وأَبيض من الورق وأَطيب من المسك » ولا شكَّ في أَنَّ شيوع هذه الأَمثال يدلُّ على معرفة العرب لعناصرها .

## سدرة المنتهى :

جاء ذكرها في حديث الإسراء الَّذي أَخرجته كتب السُّنة ، وفيه تصوير لأُمور ثلاثة وهي : ورقها وثمرها وحسنها .

أَمَّا الورق فقد شبَّهه رسول اللَّه ﷺ بآذان الفيلة ، وهو تشبيه روعيت فيه الغرابة ، فسدرة المنتهى شيء غريب ولذلك فقد اختيرت لهـا أَداة غريبـة لتصـوير أوراقها ، فالفيلة ليست بالحيوان الشَّائع في الجزيرة .





وأمَّا الثمر فقد شبَّهه رسول اللَّه ﷺ بالقلال .

وأمَّا الحسن فقد ذكر جملة عامَّة ليذهب الخيال في تقدير ذلك الحسن مذاهب واسعة ، قرَّر ﷺ أنَّ أحداً من خلق اللَّه لا يستطيع أنْ يصفها من حسنها .

يقول صلىّ اللَّه عليه وسلم فيما رواه عنه أنس بن مالك :

« ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال [١] ، فلما غشيها من أمر اللَّه ما غشي [٢] تغيرَّت فما أحد من خلق اللَّه يستطيع أنْ ينعتها من حسنها [٣] »

ونختم حديثنا عن يوم القيامة بقصَّة النَّاس في المحشر :

ـ عن أبي هريرة قال :

كنَّا مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في دعوة فرفع إليه الذِّراع وكانت تعجبه فنهس منها نهسة وقال :

« أنا سيِّد النَّاس يوم القيامة ! هل تدرون مِمَّ ذاك ؟ يجمع اللَّه الأوَّلين والآخرين في صعيد واحد ، فينظرهم النَّاظر [٤] ، ويسمعهم الدَّاعي [٥] ، وتدنو منهم الشَّمس ، فيبلغ النَّاس من الغمِّ والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون .

« فيقول النَّاس : ألا ترون ما أنتم فيه إلى ما بلغكم ؟ ألا ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟

---

١ ـ القلَّة : الجرَّة العظيمة تسع قربتين أو أكثر

٢ ـ وهذا ما جاء في الآية ١٤ من سورة النَّجم وما بعدها ﴿ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السِّدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى﴾ .

٣ ـ صحيح مسلم ٢/ ٢١٤

٤ ـ قال المعلِّق على رياض الصَّالحين : ينظرهم بضم حرف المضارعة . . أي يحملهم على الإنتظار والنَّاظر من يقول لهم : أنظروا . والمراد أنَّ ذاك اليوم سيكون يوم الهول والفزع الأكبر الذي يدعى فيه النَّاس إلى مواقف عدَّة إلى الإنتظار .

٥ ـ وقال المعلِّق : أيْ يناديهم المنادي بصوت يبلغهم ويسمعهم .

فيقول بعض النَّاس لبعض : أَبوكم آدم .

فيأْتونه فيقولون : يا آدم ! أَنت أَبو البشر ، خلقك اللَّه بيده ونفخ فيك من روحه ، وأَمر الملائكة فسجدوا لك ، وأَسْكنك الجنَّة . أَلا تشفع لنا إِلى ربِّك ؟ أَلا ترى إِلى ما نحن فيه وما بلغنا ؟

فقال : إِنَّ ربِّي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، وإِنَّه نهاني عن الشَّجرة فعصيت . نفسي ، نفسي ، نفسي .

إِذهبوا إِلى غيري ، إِذهبوا إِلى نوح .

- فيأتون نوحاً فيقولون : يا نوح أَنْتَ أَوَّل الرُّسل إِلى الأَرض وقد سمَّاك اللَّه عبداً شكوراً ، أَلا ترى إِلى ما نحن فيه ؟ أَلا ترى إِلى ما بلغنا ؟ أَلا تشفع لنا إِلى ربِّك ؟

فيقول : إِنَّ ربِّي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله . وإِنَّه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي . نفسي ، نفسي ، نفسي . إِذهبوا إِلى غيري ، إِذهبوا إِلى إِبراهيم .

- فيأتون إِبراهيم فيقولون : يا إِبراهيم ! أَنْت نبيُّ اللَّه وخليله من أَهل الأَرض ، إِشفع لنا إِلى ربِّك ، أَلا ترى إِلى ما نحن فيه ؟

فيقول لهم : إِنَّ ربِّي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله . وإِنِّي كنت كذبت ثلاث كذبات . نفسي ، نفسي ، نفسي . إِذهبوا إِلى غيري . إِذهبوا إِلى موسى .

- فيأْتون موسى فيقولون : يا موسى ! أَنْت رسول اللَّه ، فضَّلك اللَّه برسالاته وبكلامه على النَّاس . إِشفع لنا إِلى ربِّك ، أَلا ترى إِلى ما نحن فيه ؟

فيقول : إِنَّ ربِّي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإِنِّي قد قتلت نفساً لم أُومر بقتلها . نفسي ، نفسي ، نفسي . إِذهبوا إِلى غيري . إِذهبوا إِلى عيسى .





ـ فيأْتون عيسى فيقولون : يا عيسى أَنت رسول اللَّه وكلمته أَلقاها إِلى مريم ، وروح منه ، وكلَّمت النَّاس في المهد ، إِشفع لنا إِلى ربِّك ، أَلا ترى إِلى ما نحن فيه ؟

فيقول عيسى : إِنَّ ربِّي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر ذنباً . نفسي ، نفسي ، نفسي . إِذهبوا إِلى غيري . إِذهبوا إِلى محمَّد ﷺ

وفي رواية :

« فيأْتوني فيقولون : يا محمَّد ! أَنتَ رسول اللَّه وخاتم الأَنبياء وقد غفر اللَّه ما تقدَّم من ذنبك وما تأَخَّر . إِشفع لنا إِلى ربِّك . أَلا ترى ما نحن فيه ؟

فأَنطلق فآتي تحت العرش ، فأقع ساجداً لربِّي ، ثمَّ يفتح اللَّه عليَّ من محامده وحسن الثَّناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد من قبلي . ثمَّ يقال:

يا محمَّد ! إِرفع رأسك ، سل تعطه ، وآشفع تشفَّع .

فأَرفع رأسي فأقول: أمَّتي يا ربّ، أُمَّتي يا ربّ، أمتي يا ربّ. فيقال: يا محمَّد! أَدخل من أُمَّتك من لا حساب عليهم من الباب الأَيمن من أَبواب الجنَّة، وهم شركاء النَّاس فيما سوى ذلك من الأَبواب»

ثم قال :

« والَّذي نفسي بيده إِنَّ ما بين المصراعين من مصاريع الجنَّة كما بين مكَّة وهجر ، أَوْ كما بين مكَّة وبصرى»[1] .

الخلق أَجمعون في صعيد واحد . . يا له من زحام رهيب . . . والشَّمس تدنو منهم والعرق يغمس أَرجلهم أَو أَجسامهم ويبلغ الغمّ والكرب من النَّاس ما لا يطاق . . . ويفكِّرون في طريق الخلاص ممَّا هم فيه . . . وتخطر لهم فكرة الشَّفاعة

---

١ ـ متَّفق عليه (صحيح البخاري ٦/ ١٠٥ ـ ١٠٧ ط الشَّعب ـ وصحيح مسلم ٣/ ٦٦ ـ ٦٩ ـ) وانظر رياض الصَّالحين ١٠١٩ ـ ١١٠٢٣

فيذهبون إلى آدم ، ويذكرون له المنن العظمى الَّتي مَنَّ اللَّه بها عليه ، ويطلبون منه أَنْ يشفع ، فيردُّ عليهم بأَنَّ اللَّه غضب في هذا اليوم غضباً شديداً ويذكر لهم ذنبه ، ويقول : نفسي ، نفسي ، نفسي ، ويقول لهم إِذهبوا إِلى نوح .

ويتكرَّر الموقف نفسه فيرسلهم إلى إِبراهيم ، وإِبراهيم إِلى موسى وموسى إلى عيسى ، ويرسلهم عيسى إِلى محمَّد صلى اللَّه عليه وسلم فيذهب ﷺ ويسجد تحت العرش ، ويحمد اللَّه ، ويثني عليه ما شاء اللَّه أَنْ يفعل ، ويظلُّ ساجداً حتى يسمع النِّداء العلويّ الكريم ( إِرفع رأْسك واشفع تشفَّع ) ، ويشفع لأمَّته ، ثم يذكر لنا عرض أبواب الجنَّة .

هذا ملخَّص القصَّة ومن خلالها ترتسم في أذهاننا صورة متكاملة لوقوف النَّاس في المحشر ، ونتبينَّ مدى الأَهوال الرَّهيبة الَّتي ستكون في ذلك اليوم . . . حتَّى أَنَّ الأَنبياء يطلبون السَّلامة لأَنفسهم ويمتنعون من الدُّخول في الشَّفاعة .

ومن خلال هذه القِّصة تبدو لنا مكانة النبيِّ ﷺ عند اللَّه ، ونعرف شيئاً عن سعة أبواب الجنَّة الَّتي تقدَّر بالمسافات الَّتي تكون بين بلاد معروفة من جزيرة العرب .

وفي النصِّ تصوير لغضب اللَّه على لسان الأَنبياء .

## ٣ ـ الجنَّة والنَّار

هذا الموضوع هو أغنى موضوعات عالم الغيب بالنُّصوص الحديثيَّة ، فلقد وجدتُ في الحديث صورًا للجنَّة والنَّار كثيرة جدًّا، وكلّها صور حيَّة مؤثِّرة تعرض مشاهد منهما كأنها ترى رأي العين، وسأختار نماذج منها فقط.

ولقد وجدت أَنَّ عددًا من النّصوص مشترك بين الجنَّة والنَّار من أجل ذلك لم أفرد كلاًّ من الجنَّة والنَّار بقسم خاص . . بل آثرت أَنْ يكون الكلام عنهما مجموعاً في مكان واحد وتحت عنوان واحد .

ويبدو لي أنَّ تصويرهما في نص واحد إِمَّا بصورة مشتركة أَو متعاقبة يؤدِّي

غرضاً بيانيًّا يخدم الغرض الدِّيني ذلك لأَنَّ الأَشياء تتميّز بذكر أضدادها، فارتفاع شأن الجنَّة واستفظاع النَّار ممَّا ينتهي بالسَّامع الَّذي يتجاوب مع النَّص بوضعه على الطَّريق السَّوي .

## أ ـ وصف الجنَّة :

الجنَّة تلك الأُمنية الغالية الَّتي يسعى لها السَّاعون من المؤمنين على مرِّ العصور . . . الجنَّة الَّتي كانت في قلوب السَّلف الصَّالح وأَعصابهم شعلة تحرِّكهم لضرب أعلى أمثلة البطولة في الجهاد والتضحية . . الجنَّة تلك الغاية الكريمة الَّتي ترنو إليها العيون الحالمة وتهفوا إليها الأرواح المشوقة في كلِّ زمان ومكان . . يستعذبون العذاب من أجل الحصول عليها .

إِنهَّا أعظم مرغوب عند المؤمن . . ودخولها والانتهاء إليها أمل يتراءى له في رحلة العمر الَّتي تستغرق حياته كلَّها .

وما أكثر ما كانت الجنَّة حافزاً إلى الخير والحق مهما كان في هذه الطَّريق من المخاطر والعقبات والأشواك . . بل لو كان فيها الموت المحقَّق .

كان هذا في أَيَّام النَّبي ﷺ كما أَخْبَر أَنَسٌ قال :

إنطلق رسول اللَّه ﷺ وأَصحابه حتَّى سبقوا المشركين إلى بدر وجاء المشركون فقال رسول اللَّه ﷺ :

« لا يقدمنَّ أحد منكم إلى شيء حتَّى أَكون أنا دونه »

فدنا المشركون ، فقال رسول الله ﷺ :

« قوموا إلى جنَّة عرضها السَّموات والأَرض »

قال عمير بن الحمام الأَنصاري : يا رسول اللَّه جنَّة عرضها السَّموات والأَرض ؟

قال : نعم

قال : بخ بخ

فقال رسول اللّه : ما يحملك على قولك بخ بخ ؟

قال : لا واللّه يا رسول اللّه إلاّ أن رجاءةَ أكون من أهلها .

قال : فإنّك من أهلها .

فأَخرج تمرات من قرنه[1] فجعل يأكل منهنّ ثمّ قال :

لئن أنا حييت حتَّى آكل تمراتي هذه ، إنهَّا لحياة طويلة ! فرمى بما كان معه من التَّمر ثمّ قاتلهم حتَّى قتل[2]

وكان مثل هذا الموقف أيضاً في الأيام من بعده .

فلقد قال أبو موسى الأشعري وهو بحضرة الموت قال رسول اللّه ﷺ :

« إنّ أبواب الجنَّة تحت ظلال السُّيوف » فقال رجل رثُّ الهيئة : يا أبا موسى ! أَأَنْتَ سمعت رسول اللّه ﷺ يقول هذا ؟

قال : نعم . فرجع إلى أصحابه فقال : أَقرأُ عليكم السَّلام . ثم كسر جفن سيفه فألقاه ، ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتَّى قتل[3] .

كما كانت الجنَّة عاملاً يثبِّت المؤمنين على الحق ويخفِّف عنهم ما يعانون من ألم التَّعذيب وما يحلِّيهم بالصَّبر كما كان حال آل ياسر في مكة ، يمرُّ عليهم رسول اللّه ﷺ فيقول لهم :

« صبراً آل ياسر فإنّ موعدكم الجنَّة »

وصفحات تاريخ المجاهدين والدُّعاة مترعة بالشَّواهد الكثيرة على ذلك . . . فلنتعرَّف الصُّور الفنيَّة الَّتي تعرض مشاهد من الجنَّة :

---

(١) القرن ( بفتح القاف والراء ) هو جعبة النَّشاب

(٢) رواه مسلم ٦/ ٤٤ ط إستانبول ( وانظر رياض الصَّالحين ٧٢٧ )

(٣) رواه مسلم ٦/ ٤٥ ط إستانبول ( وانظر رياض الصَّالحين ٧٢٢ )







ـ عن أنس بن مالك عن رسول اللّه ﷺ في حديث الإسراء قال :

« . . ثمَّ أدخلت الجنَّة فإذا فيها جنابذ [١] اللُّؤلؤ وإذا ترابها المسك » [٢]

ـ وعن أبي موسى عن النَّبي ﷺ قال :

« جنَّتان من فضَّة : آنيتهما وما فيهما

وجنَّتان من ذهب : آنيتهما وما فيهما

وما بين القوم وبين أَنْ ينظروا إلى ربهِّم إلاَّ رداء الكبرياء على وجهه في جنَّة عدن » [٣] .

ـ وعن أبي مسعود قال قال رسول اللَّه ﷺ :

« لقيت إبراهيم ﷺ ليلة أُسرى بي فقال :

يا محمَّد ! أَقرىء أُمتك منِّي السَّلام ، وأَخبرهم أَنَّ الجنَّة طيِّبة التُّربة ، عذبة الماء ، وأَنهَّا قيعان ، وأَنَّ غراسها سبحان اللَّه والحمد للّـه ولا إلـه إلاَّ اللَّـه واللَّـه أَكبر » [٤] .

هذه الأَحاديث الثَّلاثة تصف لنا أشياء من الجنَّة ، فالقباب فيها لؤلؤ وترابها المسك ، وهي طيِّبة التُّربة ، عذبة الماء ، وأَرضها مستوية ، وغراسها أذكار مأثورة جميلة وهي ( سبحان اللَّه ، والحمد للَّه ، ولا إِله إلا اللَّه ، واللَّه أَكبر ) .

هذه هي الغراس ، فمن سارع إلى هذه الغراس وجـد ثمرتهـا يوم القيامـة وكانت له في الجنَّة .

ومن هذه الأَحاديث وغيرها نعلم أَنَّ الجنَّة ليست واحدة بل هناك جنَّات . وقد ذكر لنا رسول اللَّه ﷺ مجموعتين من الجنان ، الأولى وتتأَلَّف من جنَّتين فضِّيتين هما وأوانيهما وجدرانهما وقصورهما ، وكلّ ما فيهما فضَّة .

---

١ ـ الجنابذ ج جنبذة ومعناها القباب

٢ ـ صحيح مسلم ٢/ ٢٢٢

٣ ـ صحيح مسلم ٣/ ١٦ وابن ماجه ١/ ٦٦ ـ ٦٧

٤ ـ الترمذي ( وانظر رياض الصالحين ٧٧٩ ) .

والثَّانية وتتألَّف من جنَّتين ذهبيَّتين ، هما وأوَانيهما وجدرانهما وقصورهما وكلُّ ما فيهما من ذهب .

وليذهب خيالنا في تصوُّر هذه الجنَّات ما يحلو له ، فربمَّا بدت في خيال إنسان على وجه يخالف ما تكون عند الآخرين ، ولكنَّها ـ على أيَّة حال ـ تبقى شيئاً جميلاً غريباً .

وواضح أنَّ التَّنسيق سمة من سمات هذه الجنَّات فإذا كانت الجنَّة من فضَّة فكلُّ ما فيها من فضَّة ، وكذلك عندما تكون ذهباً فإنَّ كلَّ ما فيها ينبغي أنْ يكون من الذَّهب .

والجو الَّذي يسيطر على الصُّور في هذه الأحاديث جو التَّرف والبذخ ، والرَّفاهية فنحن نسمع اللُّؤلؤ والذَّهب والفضَّة والمسك .

وهناك جوٌّ زراعي واضح فالتُّربة طيِّبة والماء عذب وهي قيعان مستوية تصلح للزَّرع ، وإنَّ غراسها ميسورة الآن وليست تكلِّف عناءً ولا جهداً ولا نفقة ، إنهَّا أذكار جميلة .

ويفيض منها جو الحنان ، فهو ﷺ يحدِّثنا عن رؤية شاهدها بنفسه ليلة الإسراء ويحمل لنا تحيَّة أبينا إبراهيم وبشراه لنا ووصيَّته إلينا .

ـ عن عقبة بن عامر قال ، قال رسول اللَّه ﷺ :

« ما منكم من أحد يتوضَّأ فيبلِّغ ـ أو فيسبغ ـ الوضوء ثم يقول : أَشهد أنْ لا إله إلاَّ اللَّه وأَنَّ محمَّدًا عبد اللَّه ورسوله إلاَّ فتحت له أَبواب الجنَّة الثَّمانية يدخل من أيها شاء » (١)

هذه الأَبواب الثَّمانية تفتح لمن يعمل الصَّالحات في الدُّنيا ، وفي الحديث واحد من هذه الأعمال الصَّالحة وهو أن يسبغ الوضوء ويعقبه بذكر مأثور فيه الشَّهادتان ، وهذا عمل هينٌ ميسور فما البال بالأَعمال الأُخرى التي تحتاج إلى جهد وبذل ومخاطرة ؟

والحديث دالٌّ على رحمة اللَّه الواسعة وكرمه الفيَّاض ومقابلة للعمل اليسير

١ ـ صحيح مسلم ٣/ ١١٨ ـ ١٢٠

بالمكافأة الجزيلة . . . وفي الحديث تعبير عن دخول الجنَّة بسهولة ويسر وإكرام فالأَبواب الثَّمانية مفتَّحة وهو يخيرّ في الدُّخول من أيِّها شاء، لا عناء ولا مدافعة على الرَّغم من أنَّه سيأتي يوم تكون فيه هذه الأَبواب كظيظة من الزحام ، فقد ورد أنَّ « ما بين مصراعين من مصاريع الجنَّة مسيرة أربعين سنة وليأتين عليها يوم وهي كظيظ من الزِّحام »

ـ عن أبي سعيد وأبي هريرة قالا قال رسول اللَّه ﷺ :

« إذا دخل أهل الجنَّة الجنَّة ينادى مناد :

إِنَّ لكم أَنْ تحيوا فلا تموتوا أبدًا . وإِنَّ لكم أن تصحُّوا فلا تسقموا أبدًا

وإِنَّ لكم أَنْ تشبُّوا فلا تهرموا أبداً . وإنَّ لكم أَنْ تنعموا فلا تبأسوا أبداً »[١] .

ما أحلى هذا النِّداء!! وما أحسن وقعه على النَّفس!!

ذلك أنَّ المرء في كثير من الأَحيان عندما يرى نفسه في سرور وسعادة سرعان ما يتبدَّد ذلك السرُّور وتلك السَّعادة إذا تذكَّر أنَّ دوام الحال محال. وقديماً قال الشَّاعر:

وحسبك داء أن تصحَّ وتسلما

أمَّا في الجنَّة دار النَّعيم المقيم فإنَّ المنادي ينطلق لتطمئن الخواطر ولتزداد في التَّمتع بالسَّعادة:

حياة بلا موت وصحَّة بلا سقم ، وشباب بلا هرم ونعيم بلا بؤس .

وماذا يبتغي النَّاس أكثر من هذا . على أَنَّ إِكرام اللَّه لأَهل الجنَّة يتجاوز هذه الغاية إلى أخرى من السَّعادة والمنن الغيبيَّة سنذكر بعضها في الحديث الآتي :

ويدلُّنا حديث آخر على وسيلة نصل بها إلى أبواب الجنَّة وهي مبذولة في الدُّنيا لكنَّها غالية الثَّمن جداً . . وهي امتشاق السُّيوف والجهاد في سبيل اللَّه . فأبواب الجنَّة تحت ظلال السُّيوف :

(١)ـ رواه مسلم ( وانظر « رياض الصَّالحين » ١٠٤٦ ـ ١٠٤٧ )



ـ عن أبي موسى قال قال رسول اللَّه ﷺ :

« إنَّ أبواب الجنَّة تحت ظلال السُّيوف » (١)

ـ وعن عبد اللَّه بن أَبي أَوفى قال قال رسول اللَّه ﷺ :

« يا أيهًا النَّاس لا تتمنّوا لقاء العدو ، وآسألوا اللَّـه العـافية فإذا لقيتموهـم فاصبروا وآعلموا أنَّ الجنَّة تحت ظلال السُّيوف » (٢)

والصُّورة الرَّائعة أنَّ المجاهدين عندما يجتمع بعضهم إلى بعض صفًا متراصّاً والسُّيوف بأيديهم أصبحت كأنهَّا تظلّ الضَّاربين بها المعرَّضين للّشهادة . . . فالجنَّة هناك تحت تلك الظِّلال . وفي الرِّواية الأولى أبواب الجنَّة هناك .

وبهذا تبدو الغاية المبتغاة من هذا التَّصوير وهي نداء الرَّاغبـين في الجنَّـة أن يلجوا بابها وهو الجهاد في سبيل اللَّه . فمن أراد الجنَّة فعليه أن يجاهد لأنَّ باب الجنَّة تحت ظلال السُّيوف .

والجنَّـة شيء نفيس ، ونعيمهـا نعيم عظيم ، والعقـل البشريّ بطاقاتـه لا يستطيع أنْ يتوصَّل إلى معرفة كنهها وإِدراك ما فيها من النَّعيم والمتعـة والسرُّور ، وليس لنا إلاَّ أنْ نعيش مع الصُّـور الرَّائعـة في الحـديث الَّتـي تتحـدَّث عن الجنَّـة ونعيمها .

ـ عن أبي هريرة عن النَّبي ﷺ أنَّه قال :

« قال اللَّه عزَّ وجلَّ : أَعددت لعبادي الصَّالحين مالا عـين رأت ، ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، مصداق ذلك في كتاب الله ﴿ فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرَّة أُعين جزاءً بما كانوا يعملون﴾(٣) ، (٤)

(١) ـ صحيح مسلم بشرح النَّووي ١٢/ ٤٦

(٢) ـ متَّفق عليه ( مسلم : ٣٢ ـ كتاب الجهاد : ٦ ـ باب كراهة تمنِّي العدو والأمر بالصَّبر . والبخاري ٤/ ٧٧ ط كتاب الشَّعب : ٥٦ ـ كتاب الجهاد : ١٥٦ ـ باب لا تمنَّوا لقاء العدو شرح مسلم ١٢/ ٤٦ـ ٤٧ ) وأبو داود ٣/ ٥٨ وانظر رياض الصَّالحين ٧٣١ .

(٣) ـ سورة السَّجدة ١٧

(٤) ـ البخاري ٤/ ١١٨ باب صفة أهل الجنَّة و٦/ ١١٥ من كتاب التَّفسير سورة تنزيل السَّجدة ومسلم بشرح النَّووي ٧/ ١٦٦ وابن ماجه ٢/ ١٤٤٧ والتَّرمذي باب سورة الواقعة .





إنَّ النَّعيم الَّذي أَعدَّه اللَّه لأَهل الجنَّة لا يمكن أَنْ يوصف لأَن مصادر المعرفة البشريَّة هي الرُّؤية والسَّماع والتَّفكير والخيال ، وفي الجنَّة أمور لا تقع تحت وسيلة من هذه الوسائل .

إذن يكفينا في تصوُّره أنَّه غاية في النَّعيم وأَنَّه قرَّة للعين وأنَّه جزاء من الكريم وعطاء من الجواد الَّذي يضاعف الحسنة بأضعاف كثيرة وهذا الحديث يحلُّ المتع الَّتي ستكون في الجنَّة منزلة لا تبلغها الأوصاف الطَّويلة ولا الصَّفحات الكثيرة .

- عن أبي هريرة قال قال رسول اللَّه ﷺ

« لقاب قوس في الجنَّة خير مما تطلع عليه الشَّمس أَو تغرب »[1]

وفي رواية : « . . . خير من الدُّنيا وما فيها » [2]

في هذا الحديث على قصره صورتان حلوتان ، أَمَّا الأُولى فالكناية عن المساحة الصَّغيرة في الجنَّة . . وذلك أَنْ تكون بمقدار القاب .

والثَّانية وهي قوله ( ما تطلع عليه الشَّمس أَو تغرب ) يريد الدُّنيا .

ومِمَّا يدلُّ على أَنَّ الجنَّة شيء ثمين هذا الحديث :

- عن أبي هريرة قال قال رسول اللَّه ﷺ :

« من خاف أَدلج ، ومن أَدلج بلغ المنزل [3] ، أَلا إِنَّ سلعة اللَّه غالية أَلا إنَّ سلعة اللَّه الجنَّة » [4]

هذا مثل لمن أراد الجنَّة وٱبتغى رضوان اللَّه وهو يعلم أَنَّ الشَّيطان قاعد له على الطَّريق، وأنَّ الشَّهوات عاصفة، ولذلك فقد شمَّر للعمل بالطَّاعة ومضى في طريق اللَّه.

---

١ - متَّفق عليه ، وانظر « رياض الصَّالحين » ١٠٤٥ . وقاب القوس هو مقدار ما بين المقبض والسية . ولكلِّ قوس قابان . والسية ( بالكسر مخففة ) ما عطف من طرفي القوس .

٢ - التَّرمذي : كتاب التَّفسير باب سورة الواقعة .

٣ - أدلج : سار من أول الليل ، والمراد التشمير في الطاعة .

٤ - رواه الترمذي وقال : حديث حسن ، وانظر « رياض الصالحين » ٢٩٩

وهو مثل يتَّصل بالسَّفر . . . وإِنهَّا لصورة واقعيَّة ، ما أكثر ما يتعـرَّض لهـا العرب في أسفارهم ، فالَّذي يخاف أنْ تنقطع به السُّبل فلا يبلغ المنزل ولا يحصل على السِّلعة النَّفيسة الَّتي ارتحل من أجلها . . تراه يسير من أوَّل اللَّيل مشمِّراً صابراً على التَّعب وما يلقاه في الطَّريق . وهكذا ينبغي أنْ يكون حال من أَراد الجنَّة . . يجب أن يكون مشمِّرا في الطَّاعة والجدِّ والاجتهاد . . إِنَّ المطلوب جليل . . إنها الجنَّة وهي سلعة اللَّه وإِنهَّا لغالية .

وهذه الصُّورة الواقعيَّة تقرِّر بجلاء عظم شأن الجنَّة .

- عن أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ أنَّه قال :

« إنَّ في الجنَّة لشجرة يسير الرَّاكب في ظِلِّها مائة سنة » [1]

وعن أبي سعيد الخدريّ قال قال رسول اللَّه ﷺ :

« إنَّ في الجنَّـة شجـرة يسـير الـرَّاكب الجـواد المضمـر السَّريع مائـة سنـة ما يقطعها » [2]

شجرة عظيمة من أَشجار الجنَّة ، لا يمكن أَن نتصوَّر حجمها وحـقّ لنـا أَلاَّ نتصوَّره ذلك لأَنَّ الجنَّة فيها ما لا يخطر على قلب بشر .

شجـرة لو سار فارس على صهوة جواد مضمر سريع مائـة سنـة دون توقف وبالسرُّعة القصوى للجواد لما قطعها إِنهَّا صورة تبـينِّ لنـا ضخامـة الشَّجـرة بذكر المَسافة الَّتي يكون فيها ظلُّها .

وتقدير المسافة بالمقياس الزَّمني لمشية معينة معروفة أَسلوب قديم ولا يزال حتَّى الآن قائماً في لغة النَّاس ، وقد حدَّد الحديث المشية بأَنهَّا مشية راكب فوق جواد مضمر سريع .

وذكر صلوات اللَّه وسلامه عليه في حديث آخر أَنَّ لهذه الأَشجار ثمراً .

---

١ - متفق عليه ( رواه مسلم ١٧/ ١٦٧ ) وابن ماجه ٢/ ١٤٥٠ وانظر « رياض الصَّالحين ١٠٤٤

٢ - متَّفق عليه : صحيح البخاري ٦/ ١٨٣ ط الشَّعب وصحيح مسلم ٨/ ١٤٤ إستامبول وانظر « رياض الصَّالحين » ١٠٤٤





قال رجل من القَوم : إنَّ النَّبي ﷺ قال :

« كم من عذق معلَّق ـ أو متدلي ـ في الجنَّة لابن الدحداح »[1]

وفي هذا الحديث صورة للثَّواب الَّذي أعدَّه اللَّه لابن الدحداح في الجنَّة وفيه أنَّ هناك ثمرا للأشجار ، وربمَّا كان هذا الثَّمر خاصًّا بأشخاص لعمل صالح عملوه في الدُّنيا .

ـ عن سهل بن سعد أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال :

« إنَّ أَهل الجنَّة ليتراءون الغرفة في الجنَّة كما تراءون الكوكب في السَّماء .

قال الرَّاوي : فحدَّثت بذلك النُّعمان بن أبي عباس فقال : سمعت أبا سعيد الخدري يقول : « كما تراءون الكوكب الدُّري في الأُفق الشرَّقي أو الغربي »[2] .
وفي رواية أَبي سعيد تَتمَّة لطيفة يحسن أَن نوردها :

قال أبو سعيد الخدريّ قال رسول اللَّه ﷺ :

« إنَّ أَهل الجنَّة ليتراءون أَهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدُّري الغابر في الأُفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم »

قالوا : يا رسول اللَّه ! تلك منازل الأَنبياء لا يبلغها غيرهم ؟

قال : بلى ، والَّذي نفسي بيده . . رجال آمنوا باللَّه وصدَّقوا المرسلين »[3]

هناك درجات في الجنَّة على حسب أعمال أَهلها في الحياة الـدُّنيا . . فهنـاك منازل عالية ومنازل دونها . . وفي أعلى الجنَّة غرف . . هذه الغرف يراها أهل الجنَّة ويرون سكَّانها في أَي مكان كانوا في الجنَّة ولتقريب هذا الأمر الغيبي جيء بالتَّشبيه الآتي :

يرونهم كما كانوا يرون في الدُّنيا الكوكب في كبد السَّماء سواء كان في الأُفق

---

١ ـ صحيح مسلم ٧/ ٣٣ والعذق ( بالكسر ) : القنو من النَّخلة أو العنقود من العنب
٢ ـ متَّفق عليه ( وانظر صحيح مسلم ١٧/ ١٦٩ ) وانظر « رياض الصَّالحين » ١٠٤٦
٣ ـ متَّفق عليه .

الشرّقي أو الغربي .

ولكنَّ الصُّورة هنا عبَّرت بفعل يدُلُّ على المشاركة وهو يتراءون فكما أنَّ أَهلَ الجنَّة يرونهم من أيِّ موضع في الجنَّة فكذلك سكَّان هذه الغرف يرون أهل الجنَّة .

هذه الغرف هي منازل الأَنبياء ورجال آمنوا باللَّه وصدَّقوا المرسلين .

ـ عن أبي سعيد الخدري أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال :

« يا أبا سعيد ! من رضي باللَّه ربّاً ، وبالإِسلام ديناً ، وبمحمَّد نبياً ، وجبت له الجنَّة . »

فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدها عليَّ يا رسول اللّـه. ففعـل ،ثم قال ﷺ

« وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة في الجنَّة ، ما بين كلّ درجتـين كما بـين السَّماء والأرض .

قال : وما هي يا رسول اللَّه ؟

قال : الجهاد في سبيل اللَّه ، الجهاد في سبيل اللَّه » [1]

الحديث ـ كما هو واضح ـ يقرِّر أنَّ في الجنَّة درجات ، وأَنَّ الفرق بين الدرجة والأخرى فرق كبير هائل يفوق حد الخيال ، وهذا كله يؤكد سعة الجنَّة .

إِنَّ الَّذي بين كلّ درجتين كالَّذي بين السَّماء والأرض مئات الألوف من ملايين السنين الضَّوئية يفصل بين السَّماء والأَرض فلنتصوَّر هذا المدى البعيد الواسع بين درجتين . . ولنتصوَّر الدَّرجات الكثيرة الَّتي ذكر الحديث أَنَّ اللَّه يرفع المجاهد في سبيله مائة درجة وقد اعتمدت الصَّورة على التَّشبيه . . والحديث بمجموعة كناية عن فضل الجهاد في سبيل اللَّه . . وفيه هذا الجو السَّمح من الحنان والرَّحمة والفضـل والإِكرام . حتَّى إنَّ أبا سعيد عجب للَبشرى العذبة الَّتي توجب الجنَّة لمن رضي بالله ربًّا وبالإِسلام ديناً ومحمّد نبيًّا ، فطلب من النَّبي ﷺ أَنْ يعيدها عليه ، ففعل ، وزاده بشارة أخرى .

---

١ ـ صحيح مسلم ١٣/ ٢٨





عن عبد اللَّه بن قيس [١] عن النَّبي ﷺ :

« إِنَّ للّمؤمن لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة ، طولها ستُّون ميلا ، للّمؤمن فيها أهلون ، يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضها»[٢]

ياالله ما أوسعها . . إِنهَّا خيمة لا كالخيام . . إِنهَّا من لؤلؤة واحدة مجوفة . . لا يرى سكَّانها بعضهم بعضا لتباعد ما بين أطرافها ولسعتها العظيمة .

وهذه اللَّوحة الجميلة كناية عن الثَّواب الكبير الَّذي أعَدَّه اللَّه تبارك وتعالى للّمؤمنين .

ففي الجنَّة قصور وغرف . . وفيها خيام . . فإلى أُولئك الَّذين يرغبون في سكنى الخيام يقدم الحديث إليهم هذاالوصف ، فلتقرَّ أعينهم بخيمة اللُّؤلؤ الواسعة العامرة بالأهل .

وقد عبَّر الحديث عن الأَهل بلفظ ( أَهلون ) ليطرُد أَيَّ ظلٍ للوحشة يمكن أَنْ يخطر على الذِّهن في سكنى هذه اللؤلؤة المجوَّفة الَّتي هي على هيئة خيمة .

ـ عن أَبي موسى الأَشعري قال قال رسول اللَّه ﷺ :

« يا عبد اللَّه بن قيس أَلا أَدُلُّك على كنز من كنوز الجنَّة ؟ »

فقلت : بلى يا رسول اللَّه .

ـ قال : « قل لا حول ولا قوَّة إِلاَّ باللَّه » [٣]

إِنَّ هذه الكلمة ( لا حول ولا قوَّة إِلاَّ باللَّه ) كنز من كنوز الجنَّة ، من قالها فقد كسب كنزاً . . وإِنَّه لكسب عظيم .

---

١ ـ هو أبو موسى الأشعري رضي اللَّه عنه .
٢ ـ متَّفق عليه ( وانظر صحيح مسلم ١٧/ ١٧٥ ) وانظر « رياض الصَّالحين » ١٠٤٤
٣ ـ صحيح مسلم ١٧/ ٢٦ وابن ماجه ٢/ ١٢٥٦

إذن في الجنَّة كنوز ، يستطيع المرء وهو في الدُّنيا أنْ يحصل عليها وأنْ يستكثر منها ، وقد دلَّنا عليها رسول اللَّه ﷺ . . إنهَّا كنوز غيبيَّة ، وهي مبذولة لمن يؤدّي حقَّها ، وهو هنا أمر يسير . . أن يقول المرء كلمة .

وهذا ممِّا يدلُّ على فضل هذه الكلمة .

- قال البراء : أُهديت لرسول اللّه ﷺ حلَّة حرير ، فجعل أَصحابه يلمسونها ويعجبون من لينها .

فقال ﷺ : أَتعجبون من لين هذه ؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنَّة خير منها وألين » [١]

رأى الصَّحابة حلَّة الحرير الَّتي أُهديت لرسول اللّه ﷺ لينة الملمس فأُعجبوا بها أيمَّا إعجاب ، فكان هذا مناسبة ممتازة ليبيِّن صلىَّ اللّه عليه وسلَّم أنَّ مناديل الجنَّة خير منها وأَلين . . واستغلال المناسبات يجعل الأمر المقرَّر أعلق بالنُّفوس وأكثر تأثيراً على السَّامعين .

وذكر لهم أنَّ هذه المناديل الرَّائعة في الجنَّة ستكون لسعد بن معاذ وهو صحابي يعرفونه جيِّداً .

والصُّورة كانت بالموازنة بين شيء رأوه وأعجبهم وأمر غيبي يريد أن يقرِّب معالم حقيقته إلى أذهانهم .

***

كان هذا وصفاً للّجنَّة ذاتها : تربتها وأَشجارها وخيامها وكنوزها ومناديلها ومكانتها . . فما صفات أهلها ؟ وما الأعمال الَّتي آستحقوا بها دخول الجنَّة . هناك صور فنِّيَّة رائعة عرضت لهذا الجوانب وسنسعد بالعيش معها لحظات فيما يلي :

- عن أنس قال قال رسول اللَّه ﷺ

---

١ - متَّفق عليه ( البخاري : ٥/ ٤٤ ط كتاب الشّعب : ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار : ١٢ مناقب سعد بن معاذ وصحيح مسلم بشرح النَّووي ١٧/ ٢٢ - ٢٣) .

« إنَّ في الجنَّة سوقاً يأتونها كلَّ جمعة ، فتهبُّ ريح الشَّمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسناً وجمالاً . فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنًا وجمالاً . . .

فيقول لهم أهلوهم : واللَّه لقد ازددتم حسناً وجمالاً .

ـ فيقولون : وأنتم واللَّه لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالاً »[1]

النَّاس في الجنَّة يزدادون حسنًا وجمالاً . . النَّاس كلُّهم سواء كانوا من أولئك الَّذين تعرَّضوا لريح الشَّمال فحثت في وجوههم وثيابهم الجمال والحسن أَمْ كانوا من أولئك الَّذين بقوا في بيوتهم .

والنَّاس في الدُّنيا عادة يتناقص جمالهم إذا تقدَّمت بهم السِّن . . أمَّا في الجنَّة فالأمر على خلاف ذلك . وفي الحديث حركة تتمثَّل في إتيان السُّوق كلَّ جمعة والرُّجوع منها ، وهبوب الرِّيح ، وحتى الجمال والحسن .

وفيه توقيت زماني فهذا الذَّهاب كلَّ جمعة ، وفيه تحديد مكاني للموضع المقصود وهو سوق ، وفيه تحديد لجهة الرِّيح فهي ريح الشَّمال ، وريح الشَّمال في الدُّنيا ريح تأتي بالنَّسيم البارد والهواء العليل .

وفيه حوار يستعمل فيه القسم من الطرفين .

وفيه مفاجآت :

« في الجنَّة سوق

وهناك ريح تحثو الحسن والجمال

وهناك مفاجأة القوم بأهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً . . حتَّى تتمَّ السَّعادة فلا ينظر المرء في الجنَّة إلاَّ إلى جميل .

---

١ ـ رواه مسلم ٨/ ١٤٥ ط إستانبول ( وانظر رياض الصَّالحين ١٠٤٥ ـ ١٠٤٦ ) وفي التِّرمذي في باب ما جاء في سوق الجنَّة حديث طويل ولكنِّي لم أذكره لضعفه وأخرج ابن ماجه قريبًا منه ٢/ ٣٠٧ من الطبعة القديمة .

وفي الحديث تكرار لكلمتي الحسن والجمال مِمّا يجعل جوّ الحديث عامراً بهما . إنها صورة جميلة لا يكاد المرء يشبع من ترديدها والنَّظر فيها .

ـ عن صهيب عن النَّبي ﷺ أنَّه قال :

«إذا دخل أهل الجنَّة الجنة يقول الله تبارك وتعالى :

ـ تريدون شيئاً أزيدكم ؟

ـ فيقولون : ألم تبيِّض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنَّة وتنجنا من النَّار ؟

قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النَّظر إلى ربهِّم عزَّ وجلَّ » .

وفي رواية : وزاد : ثمَّ تلا هذه الآية ﴿للَّذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾[1]

إنَّ أهلَ الجنَّة بعد أن دخلوا واطمأنُّوا إلى هذا النَّعيم المقيم ، وعاشوا في بحر النِّعم والمنن والمنح والعطايا الربَّانية التي لا يحيط بها وصف جرى بينهم وبين الرَّبِّ تبارك وتعالى هذا الحوار الموجز الجميل ، فلقد سألهم : تريدون شيئاً أزيدكم ؟

فلم يروا أنَّ هناك شيئاً يستزيدونه إياه . . إنَّ الَّذي رأوه لم تره عين ولا سمعت به أذن ولا خطر على قلب بشر، فأجابوا معدِّدين نعمه من مثل تبييض وجوههم وإدخالهم الجنَّة وإنجائهم من النَّار.

وهنا تكون المفاجأة ، ولا يرد عليهم بالقول . . فيكشف الحجاب ويتاح لهم النَّظر إلى ربهِّم ، فتصغر أمام هذه النِّعمة الجليلة الجديدة كلُّ هاتيك النِّعم .

هذه الصُّورة لنعيمهم البالغ كانت عن طريق الوصف .

ـ عن أبي سعيد الخدري أنَّ النَّبي ﷺ قال :

---

١ ـ صحيح مسلم ٣/ ١٧ وابن ماجه ١/ ٦٧ والآية من سورة يونس: ٢٦

« إنَّ الرَّجل من أهل عَلِّيِّين ليشرف على أهل الجنَّة فتضيء الجنَّة لوجهه كأنهَّا كوكب درّي »[1]

- عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه ﷺ :

« إِنَّ أَوَّل زمرة تدخل الجنَّة على صورة القمر ليلة البدر والَّتي تليها على أضوأ كوكب درّي في السَّماء .

لكلِّ امرىء منهم زوجتان اثنتان يرى مخُّ سوقهما من وراء اللَّحم من الحسن وما في الجنَّة أعزب »[2]

- وفي رواية :

« . . . ثمَّ الَّذين يلونهم على أشدِّ نجم في السَّماء إِضاءة ثمَّ هم بعد ذلك منازل .

لا يتغوَّطون ولا يبولون ، ولا يمتخطون ولا يبزقون، أمشاطهم الذهب ، ومجامرهم الألوة[3] ، ورشحهم المسك ، على خلق رجل واحد على طول أبيهم آدم »[4]

- وفي رواية عن جابر :

« . . . ولكن طعامهم ذلك جشاء كرشح المسك »[5]

هذه الرِّوايات تدلُّ على أمور هي :

١ ـ أنَّ أَهل الجنَّة درجات ومنازل ، وأَنَّ هناك منزلة عالية تدعى علّيين، وقد جاء ذكرها في القرآن[6] .

---

١ ـ أبو داود : ٤/ ٤٨

٢ ـ متَّفق عليه صحيح مسلم ١٧/ ١٧١

٣ ـ الألوة : بفتح الهمزة وضم اللاّم وتضعيف الواو ) العود الذي يتبخَّر به .

٤ ـ متَّفق عليه ( مسلم ١٧/ ١٧٢ وانظر رياض الصَّالحين ١٠٤١ )

٥ ـ رواه مسلم وانظر « رياض الصَّالحين » ١٠٤٠

٥ ـ رواه مسلم وانظر « رياض الصَّالحين ١٠٤٠

٦ ـ سورة المطففين الآية ١٨ و١٩

٢ ـ أنهَّم علىَ اختلاف درجاتهم على خير ، ومنزلتهم منزلة رفيعة .

٣ ـ أنهَّم على أوصاف خلقيَّة معيَّنة فوجوههم تشعُّ بالنُّور والضِّياء وهـم لا يتغوَّطون ولا يبولون وهم على طول واحد طول أبيهم آدم .

٤ ـ أنهَّم يتنعَّمون بصنوف السَّعادة، وذكرت إحدى هذه الرِّوايات أنَّ لكلِّ امرىء منهم زوجتين من الحور العين .

وقد استخدمت الصُّورة هنا التَّشبيه والوصف ، فالجنَّة تضيء لوجهه كأنهَّـا كوكب دريّ وأوَّل زمرة على صورة القمر ليلة البدر والَّتي تليها على أضوأ كوكب دّري في السَّماء .

ووصف الزَّوجة بالشَّفافية الَّتي تجعل مخ السُّوق يبدو من وراء اللَّحم شيء عجيب حقاً .

ـ عن عبد اللَّه بن مسعود قال قال رسول اللَّه ﷺ :

« . . . أرواحهم في جوف طير خضر ، لها قناديل معلَّقة بالعرش ، تسرح من الجنَّة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل .

فاطَّلع إليهم ربهُّم اطلاعة فقال :

ـ هل تشتهون شيئًا ؟

قالوا : أيَّ شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنَّة حيث شئنا ؟

ـ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلماَّ رأوا أنهَّم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا :

يا ربِّ ! نريد أنْ تردَّ أرواحنا في أجسادنا حتَّى نقتل في سبيلك مرَّة أخرى .

فلماَّ رأى أنْ ليس لهم حاجة تركوا » [١] .

وصف دقيق لما يحصل لأرواح الشُّهداء بعد أن تغادر هذه الدُّنيا وتصعد إلى

---

١ ـ صحيح مسلم ١٣/ ٣١ ـ ٣٣

بارئها من ميدان المعركة ، فلنسمع ولنتعرَّف على هذه الأَحوال الغيبيَّة في عالـم لا نراه .

إنَّ هذه الأَرواح في جوف طير خضر . . تطير حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل المعلَّقة بالعرش . . وفي ذلك ما فيه من التَّكريم . . فهـي في جوف طـير خضر ، واللَّون الأخضر له دلالته وتفاؤله ، ومأواهـا في قنـاديل ذهبيَّة عالية معلَّقـة بالعرش . . وليست مسجونة فيها . . لا . . إنَّ لها أن تتقلَّب في أنحاء الجنَّـة . . وتسرح أنَّى شاءت .

ويجري حوار بين الرَّب تبارك وتعالى وبين هذه الأرواح :

يسألها هل تشتهي شيئاً ؟ ويكون الجواب : أيّ شيء نشتهي ونحن في الجنَّة نسرح منها حيث شئنا ؟

ويتكرَّر الجواب . . وبعد مرات ثلاث تقدَّمت أرواح الشُّهداء بطلب فحواه أَنْ يردَّ اللَّه أَرواحهم في أَجسادهم ليعودوا إلى الدُّنيا ويقاتلوا حتَّى يقتلوا في سبيل اللَّه مرَّة أخرى . وهذا أمر لا يكون . . فتركوا وشأنهم . . أرواح مكرَّمـة سعيدة ليس هناك شيء يمكن أَنْ تشتهيه .

ونحسُّ بالعناصر المأنوسة المحبَّبـة لهـذه الصُّـور الغيبيَّة فالـطُّيور الخضر . . والقناديل المعلَّقة . . والرَّحلات الممتعة في رياض الجنَّة . . والعيش في مكان قريب من العرش ، إنهَّا على الرّغم من جلالها وغيبتها أمور يأنس لها المؤمن أيمَّا أنس .

ـ عن ابن عبّاس قال قال رسول اللَّه ﷺ :

« لمَّا أُصيب أخوانكم بأُحد جعل اللَّه أرواحهم في جوف طير خضر ، ترد أَنهار الجنَّة : تأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل ذهب معلَّقة في ظلِّ العرش .

فلماَّ وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا :

من يبلِّغ إخواننا عنَّا أنَّنا أحياء في الجنَّة نرزق ؟ لئلا يزهـدوا في الجهـاد ولا ينكلوا عند الحرب ؟



فقال اللَّه سبحانه : أنا أبلّغهم عنكم . فقال : فأَنْزل اللّـه سبحانه :﴿ ولا تحسبنَّ الَّذين قتلوا في سبيل اللَّه أمواتًا . . . ﴾ [١]

في هذه الرِّواية أَنَّ الشّهداء طلبوا أَنْ يبلِّغ إخوانهم الَّذين ما زالوا في الحياة الدُّنيا عن تلك الحياة الرَّغيدة والعيشة السَّعيدة الَّتي ينعمون بها وعن أَنهَّم أَحياء عند ربهِّم يرزقون ، رغبةً منهم في أَنْ يمضي إخوانهم على النَّهج الحقّ والجهاد في سبيل اللَّه والحرص على الشَّهادة . . . فتكفَّل اللَّه لهم بذلك وأنزل الآية .

وفي هذه الرِّواية أَنَّ القناديل ذهبيَّة ، وأنَّ هذه الأرواح تأكل وتشرب ( ترد أنهار الجنَّة وتأكل من ثمارها )

- عن أنس عن النَّبي ﷺ أنَّه قال :

« ما من نفس تموت لها عند الله خير، يسرُّها أَنهَّا ترجع إلى الدُّنيا، ولا أنَّ لها الدُّنيا وما فيها إلاَّ الشَّهيد ، فإنَّه يتمنَّى أن يرجع فيقتل في الدُّنيا، لما يرى من فضل الشَّهادة » [٢]

- وفي رواية عنه :

« ما من أحد يدخل الجنَّة يحب أنّ يرجع إلى الدُّنيا وأنَّ له ما على الأرض من شيء غير الشَّهيد ، فإنَّه يتمنَّى أَنْ يرجع فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة» .

الصُّورة هنا مؤكَّدة للصّورة السَّابقة وهي تدلُّ على عظيم الإكرام وجليل الاحسان وبالغ التفضّل وما إلى ذلك من صنوف الخير الّتي يلقاها الشَّهيد عند اللَّه . . . إنَّ ذلك يغريه بالرُّجوع إلى الدُّنيا فيتمنّى لو استطاع أَنْ يرجع ليقتل عشر مرات .

وفي صياغة الحديث دقَّة بالغة تجدها في قوله ( ما من نفس تموت لها عند الله

---

١ - أبو داود ٣/ ٢٢ والآية من سورة آل عمران : ١٦٩

٢ - متفق عليه ( البخاري ٤/ ٢٦ ط كتاب الشّعب : ٥٦ - كتاب الجهاد : ٢١ - باب تمنِّي المجاهد أنْ يرجع إلِى الدُّنيا . ومسلم ١٣/ ٢٤ ) .





خير ) ( ما من أحد يدخل الجنة ) أمّا الّتي تموت وليس لها عند الله خير والّتي تدخل النّار فهذه النّفس تكون العودة إلى الدنيا أكبر أمانيها .

وهناك أعمال صالحة تجعل صاحبها مع النّبيﷺ في الجنَّة من مثل كفالة اليتيم وتربية البنات :

عن أبي هريرة قال قال رسول اللهﷺ :

« كافلُ اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنَّة »
وأشار بالسبَّابة والوسطى[1] .

وعن أنس قال : قال رسول اللهﷺ :

« من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين ، وضمَّ أصابعه[2]»

وفي الحديثين تصوير بالإشارة .

عن ثوبان عن رسول اللهﷺ قال :

« من عاد مريضاً لم يزل في خرفة[3] الجنَّة »

قيل : يا رسول الله وما خرفة الجنَّة ؟
قال : « جناها »[4] .

إنَّ عيادة المريض قربة يكون ثوابها أنَّ صاحبها يكون في جنى الجنَّة .

ولا يخفى ما في هذا الحديث من حرص على إثارة الحوار ، وذلك عندما جاء

---

(١) متّفق عليه (صحيح البخاري ٨/ ١٨ ط كتاب الشّعب ، كتاب الأدب باب فضل من يعول يتيما وصحيح مسلم ١٨/ ١١٣ ورياض الصّالحين ٢٦٦ وأقيسة النبّي ١٢٧ .
(٢) صحيح مسلم ٨/ ٣٨ ـ ٣٩ وانظر رياض الصّالحين ٢٢٧ .
(٣) الخرفة (بالضمّ ) اسم ما يخترف من النخل حين يدرك . وهو الجنى .
(٤) صحيح مسلم ط إستانبول ٨/ ١٣ وبشرح النوويّ ١٦/ ١٢٥ .

رسول الله ﷺ بكلمة غريبة على السّامعين وهي « خرفة الجنّة » حتّى سئل عنها فأجاب .

عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ :

« إنّ المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرّحمن عزّ وجلّ وكلتا يديه يمين : الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولّوا »[١] .

يقرِّر الحديث جزاء العادلين عند الله فيبدو لنا أنّه جزاء عظيم جد عظيم فالحلول على المنابر رفع للمكانة ، وعناية بمن يحلها .

وهذه المنابر لا عهد لنا بها . . . أنهّا منابر من نور .

وبهذه الصّورة تتحقّق الإشارة ولفت نظر الناس جميعا إلى الّذين يرتقونها لأنهّا من نور، والنّور يلفت الأنظار، ولأنها منابر مرتفعة، وكونها عن يمين الرّحمن شيء بالغ التكريم والعناية، ذلك أنّ مجرّد القرب من الله تبارك وتعالى غاية الإكرام . . ترى الواحد من النّاس يفخر بأنه يجالس رجلاً ذا مكانة فكيف بمن يجلس على منبر من نور عن يمين الرحمن عزّ وجلّ .

ولليمين مكانة عالية في الإسلام والمجتمع الإسلامي ويسارع الحديث لتنزيه ذات الله عن النقص فيقول :

وكلتا يديه يمين .

وممّا نودُّ التّنبيه إليه في هذا الحديث العموم في العدل ، سواء كان ذلك في الحكم أو الأرض أو أي أمر يلونه .

عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ :

« عجب الله عزّ وجلّ من قوم يدخلون الجنّة في السّلاسل »[٢]

---

(١) صحيح مسلم ١٢/ ٢١١ .

(٢) صحيح البخاري وأبو داود (انظر رياض الصّالحين ١٠٠٣ ) .

صورة تثير العجب . . . إنها صورة قوم يقادون إلى الجنَّة بالسَّلاسل حتَّى يدخلوا فيها . . . ولذلك فقد أخبرنا رسول الله ﷺ أنَّ الله عجب منهم .

قال النَّووي :

« معناه يؤسرون ويقيَّدون ثم يسلَّمون فيدخلون الجنَّة »[1] .

والحديث أَعمُّ من هذه الحالة الَّتي تنطبق على الحديث ، ولكن معناه ليس مقصوراً عليها ، إذْ هناك ناس تضطَّرهم ظروف قاهرة إلى عمل الخير والإسهام في أعمال البر . . . ثمَّ لا يلبثون أن تنشرح صدورهم لهذه الأعمال وتخلص نيَّاتهم فيدخلوا الجنَّة رغماً عنهم .

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . . . . ولقد رأينا في حياتنا ناساً لم يتَّجهوا الاتجاه الطَّيب باختيارهم ولكنَّهم حملوا عليه في بادىء الأمر ، ثم انطلقوا فيه وكانوا من المسارعين إلى الأَعمال الصَّالحة الَّتي ترشِّحهم لدخول الجنَّة .

عن ابن مسعود قال :

كنَّا مع رسول الله ﷺ في قبَّة نحواً من أربعين فقال :

« أترضون أنْ تكونوا ربع أهل الجنَّة » ؟

قلنا : نعم

قال : « أترضون أنْ تكونوا ثلث أهل الجنَّة ؟ »

قلنا : نعم .

قال : « والَّذي نَفسُ محمد بيده إنِّي لأَرجو أَن تكونوا نصف أهل الجنَّة ، وذلك أَنَّ الجنَّة لا يدخلهاألاَّ إلا نفس مسلمة .

وما أنتم في أهل الشرك إلاَّ كالشَّعرة البيضاء في جلد الثَّور الأَسود أَوْ كالشَّعرة السَّوداء في جلد الثور الأحمر »[2] .

---

(1) رياض الصَّالحين ١٠٠٣ .

(2) متفق عليه صحيح البخاري ٧/ ١٩٥ ـ ١٩٦ وصحيح مسلم بشرح النَّووي ٣/ ٩٥ ـ ٩٨ وانظر =

المسلمون بالنسبة إلى أهل الشِّرْك قليلون جداً .

هذه الحقيقة ضرب لها رسول الله ﷺ مثلاً يراه النَّاس كثيرا . ثور أسود غطَّى الشَّعر جسده كلَّه بالشَّعر الأسود وفيه شعرة بيضاء واحدة . . . ما نسبتها إلى الشَّعرات السُّود . . . . إنهَّا لا تكاد ترى . . . . وهكذا المسلمون في النَّاس . . . والكرام قليل .

وعلى الرَّغم من قلَّة المسلمين بالنِّسبة للآخرين إلاَّ أنهَّم يكونون في الجنَّة نصفها .

والمثل واقعي منتزع من بيئة المخاطبين .

والحديث دالٌّ على رحمة الله بالمسلمين وإكرامه لهم .

والحوار أسلوب اتخَّذه الرَّسول لتقرير ما يريد أنْ يقرِّره فقد تدرَّج معهم بالسُّؤال « هل تريدون أنْ تكونوا ربع أهل الجنَّة » ثم ثلثهم . . . ثم يقسم رسول الله ﷺ بأنه يرجو أنْ يكون المسلمون نصف أهل الجنَّة .

**

عن المغيرة بن شعبة قال قال رسول الله ﷺ :

« سأَل موسى ربَّه : ما أَدنى أهل الجنَّة منزلة ؟

قال : هو رجل يجيء بعدما أدخل أهل الجنَّة الجنَّة فيقال له :

- ادخل الجنَّة .
- فيقول : أيْ ربِّ ! كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أَخذاتهم ؟
- فيقال له : أترضى أنْ يكون لك مثل ملك من ملوك الدُّنيا ؟
- فيقول : رضيت ربِّ .

---

= « رياض الصَّالحين » (٢١١ - ٢١٢) وابن ماجه ٢/ ١٤٣٢ والأحمر الأبيض . وفي مسلم حديث أبي سعيد وهو قريب من حديث ابن مسعود .





ـ فيقول : لك ذلك ومثله ومثله ومثله .

ـ فقال في الخامسة : رضيت ربِّ .

ـ فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ولذَّت عينك .

ـ فيقول : رضيت ربِّ .

ـ قال : ربِّ ! فأعلاهم منزلة ؟

ـ قال : أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيديّ وختمت عليها ، فلم ترعين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر »

ـ قال : و مصداقه في كتاب الله عزَّ وجلَّ ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرَّة أعين ﴾[1]

النَّص ـ في الأَصل ـ حوار بين موسى وربِّه وقد حكى الله لرسوله موسى ما يجري من حوار بينه تبارك وتعالى وبين أَدنى أَهل الجنَّة منزلة .

. . إنَّه رجل يجيء بعد ما أدخل النَّاس واستقرُّوا ، فيقول الرَّب تبارك وتعالى له : أدخل الجنَّة .

فيقول العبد : يا ربِّ كيف أدخل وقد أَخذ النَّاس ما يريدون أَخذه ونزلوا منازلهم ؟ لم يبق لي شيء يا ربِّ !

فيقول الله له : أَترضى أَنْ يكون لك مثل ملك من ملوك الدُّنيا ؟

فرضي ، وكيف لا يرضى وهو يرى أنَّ الملوك تسخَّر لهم خيرات الشُّعوب وإمكانات البشر لحمايتهم وطعامهم ولذَّاتهم وسلطانهم ؟

وهنا تكون المفاجأة ، فيقول الله له : لك ذلك ومثله ومثله ومثله . وعندما بلغ الخامسة قال رضيت يا ربِّ فقال : لك هذا وعشرة أمثاله . أي له ما يعادل خمسين ضعفاً مما كان للملك من ملوك الدُّنيا وله أيضاً فوق ذلك ما اشتهت نفسه ولذَّت عينه .

---

(١) صحيح مسلم ٣/ ٤٥ ـ ٤٦ . والآية من سورة السجدة: ١٧

إنَّ هذه الصُّورة القائمة على المشابهة صورة تهزُّ النَّفس هزًّا . . . . وهذا أدنى أهل الجنَّة منزلة . ويبدو أنَّ هذا هو الَّذي حرَّك سيدنا موسى عليه السَّلام إلى أنْ يسأل ربَّه عن أَعلاهم منزلة فقال : أولئك الَّذين أردتهم واصطفيتهم ، فتوليت إكرامهم بنفسي « غرست كرامتهم بيديّ وختمت عليها » فأضحت شيئا لا يمكن الوصول إليه « فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر » .

* *

عن ابن مسعود أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« آخر من يدخل الجنَّة رجل ، فهو يمشي مرَّة ويكبو مرَّة وتسفعه النَّار مرَّة فإذا ما جاوزها التفت إليها فقال : تبارك الَّذي نجَّاني منك . لقد أعطانيَ الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأوَّلين والآخرين !!

فترفع له شجرة فيقول : أيْ ربِّ ! أُدنني من هذه الشَّجرة فلأستظلَّ بظلِّها وأشرب من مائها .

ـ فيقول الله عز وجل : يا بن آدم لعلِّي إنْ أعطيتكها سألتني غيرها ؟

ـ فيقول : لا يا ربِّ ! ويعاهده أنْ لا يسأله غيرها .

وربُّه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظلُّ بظلِّها ويشرب من مائها .

ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى فيقول :

ـ أيْ ربِّ أُدنني من هذه لأشرب من مائها وأستظلَّ بظلِّها . لا أسالك غيرها .

ـ فيقول : يا بن آدم ! ألم تعاهدني أنْ لا تسألني غيرها ؟ لعلِّي إن أدنيتك منها تسألني غيرها ؟

فيعاهده أنْ لا يسأله غيرها، وربّه يعذره لأنَّه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها فيستظلُّ بظلِّها ، ويشرب من مائها ثم ترفع له شجرة عند باب الجنَّة هي أحسن





من الأُولِيين . . .

ـ فيقول : أيْ ربِّ ! أدنني من هذه لأَستظلَّ بظلِّها وأشرب من مائها لا أسألك غيرها .

ـ فيقول : يا بن آدم ! ألم تعاهدني أنْ لا تسألني غيرها ؟

ـ قال : بلى يا ربِّ . هذه لا أسألك غيرها . وربُّه يعذره لأنَّه يرى ما لا صبر له عليه ، فيدنيه منها .

فإذا أدناه منها فيسمع أصوات أهل الجنَّة ، فيقول :

ـ أيْ ربِّ أدخلنيها .

ـ فيقول : يا بن آدم ! ما يصريني[1] منك ؟ أيرضيك أنْ أعطيك الدُّنيا ومثلها معها ؟

ـ قال : يا رب أتستهزىء منِّي وأنت ربُّ العالمين؟ .

فضحك ابن مسعود وقال : ألا تسألوني : مِمَّ أضحك ؟

فقالوا : مِمَّ تضحك ؟ قال : هكذا ضحك رسول الله ﷺ فقالوا : مِمَّ تضحك يا رسول الله ؟

قال : « من ضحك ربّ العالمين حين قال : أتستهزىء منِّي وأنت ربُّ العالمين؟ »

فيقول : إنِّي لا أستهزىء منك ولكنِّي على ما أشاء قادر »[1]

نص مملوء بالصُّور الكثيرة :

تطالعنا في أوله صورة الرَّجل الَّذي يمشي مرَّة ويكبو مرَّة وتسفعه النَّار مرَّة . . . . ويبقى على هذه الحالة من التَّعثر والمشي حتَّى يجاوز النَّار . وهناك يلتفت إليها ويقول مثنياً على الله الَّذي نجَّاه منها ، معترفاً بنعمه الَّتي غمره بها ويقول :

---

(١) أي ما يقطع مسألتك منِّي .والصري القطع . وروي في غير مسلم (ما يصريك مني) والمعنى : أي شيء يرضيك ويقطع السُّؤال بيني وبينك ؟

(١) مسلم بشرح النَّوَوي ٣/ ٤٢ ـ ٤٣ .

« لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين » . يقول هذا وهو في منتهى الرِّضى وأتمِّ السَّعادة .

والَّذي تعرَّض إلى أذى بلاء معينٍّ يكون تقديره للنَّجاة منه كبيراً وقد كبا صاحبنا مرَّة والكبو هنا خطير فقد يلقي بصاحبه إلى النَّار ، وقد سفعته النَّار مرّة فذاق آلامها وويلاتها .

فعندما جاوزها أحس أنَّ سعادة الدُّنيا قد حيزت له بحذافيرها وشكر الله من أعماقه أنْ يسرَّ له النَّجاة منها .

ولكنَّه في غمرة الثَّناء على الله واستشعار فضله عليه ترفع له شجرة رائعة الجمال ، ظلُّها ظليل ، وبجانبها ماء عذب ، لها جاذبية وجمال لا يطيق من يراها أن يصبر على ألاَّ يطلبها . . فلما رآها قال : أيْ ربِّ ! أدنني من هذه الشَّجرة فلأستظلَّ بظلِّها ولأَشرب من مائها . فيقول الله عزَّ وجلَّ : يابن آدم لعلِّي إنْ أَعْطيتُكَهَا سألتني غيرها ؟

فيقول : لا ياربِّ . ويعاهده أنْ لا يسأله غيرها . يقول ﷺ : وربُّه يعذره لأنَّه يرى ما لا صبر له عليه ويدنيه منها فيستظلُّ بظلِّها ويشرب من مائها . . . ثم ترفع له شجرة أَحسن من الأولى فيرى شيئاً لا يستطيع أَنْ يصبر عليه فينسى عهده ويطلب من ربِّه أَنْ يدنيه منها . ويقول : لا أسألك غيرها .

ويدور حوار رائع بين العبد وربِّه تبارك وتعالى ، فيعاهده من جديد أَنْ لا يسأله غيرها إنْ هو استجاب له . ولكنَّه عندما تبدو له الشَّجرة الثَّالثة كذلك ينسى العهد ويطلب ، ويستجيب الله لطلبه غير أنَّه في هذه المرَّة يكون قريباً من الجنَّة يسمع أصوات أهلها. فيقول: أيْ ربِّ أُدخلنيها فيقول له الله : يا بن آدم ما يصريني منك أيرضيك أنْ أُعطيك الدُّنيا ومثلها معها؟ فيتجرأ هذا العبدُ ويقول ببراءة: يا ربِّ! أتستهزىء بي وأنت ربُّ العالمين ، فيضحك الله من قوله هذا. ويضحك رسول الله من ضحك الله .

فيبيِّن له أنَّه تبارك وتعالى لا يستهزىء ولكنَّه على كل شيء قدير .

الحديث قصة غيبيَّة تدلُّ على كرم الله وجزيل فضله .

وإذا كان هذا شأن آخر من يدخل الجنَّة فما يكون حال السَّابقين الأوَّلين ؟

والحديث يدلُّ على اتساع الجنَّة كما يدلُّ على جمالها وجاذبيَّتها الَّتي لا يصبر من يراها على عدم طلبها ولو تقدَّم العهد منه على ذلك .

وفي الحديث واقعيَّة تتجلى بالحوار الحي وبتصوير الحركات الَّتي تطابق الواقع .

وعن أَبي ذر قال قال قال رسول الله ﷺ :

« إنّي لأعلم آخر أَهل الجنَّة دخولاً الجنَّة ، وآخر أَهل النَّار خروجاً منها ،رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها .

فتعرض عليه صغار ذنوبه .

ـ فيقال : عملت يوم كذا كذا وكذا ، وعملت يوم كذا كذا وكذا ؟
ـ فيقول : نعم .
لا يستطيع أنْ ينكر ، وهو مشفق من كبار ذنوبه أَنْ تعرض عليه .
ـ فيقال له : فإنَّ لك مكان كلّ سيئة حسنة .
ـ فيقول : ربِّ قد عملت أَشياء لا أَراها ههنا »

فلقد رأَيت رسول الله ﷺ ضحك حتَّى بدت نواجذه[1] .

مشهد تجرى حوادثه أَمام أَعين خيالنا ونحن عرفنا من أَسراره كلَّ شيء . . . مشهد يكون بطله رجلاً له ذنوب كثيرة كبار وصغار . . . يؤتى به يوم القيامة فيقال للملائكة الَّذين يتولون الحساب : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، وارفعوا عنه كبارها .

ويفعلُ الملائكة ما أُمروا به فيعرضون عليه ذنوبه الصِّغار ذنباً ذنباً ، يحدِّدون له الذنب واليوم الَّذي كان فيه ، وهو يعترف ولا يستطيع أَنْ ينكر لأَنَّها بجانبه يراها . وبينما هم يعرضون هذه الذُّنوب الصِّغار ـ يفكرِّ في نفسه عن حالته الصَّعبة لو شرعوا يعدِّدون له تلك الذُّنوب . . . إنَّه خائف من ذلك أَعظم الخوف يتمنَّى أَنْ

---

(١) صحيح مسلم بشرح النَّووي ٣/ ٤٧ .

ينسوها . . . إنهم لو عرضوها لكان من الهالكين ولأعيد إلى النَّار بعد أنْ كان آخر أَهل النَّار خروجاً منها . . . وتمرُّ المحاسبة وهو يخشى هذا الأَمر . ثم يقال له : أرأيت هذه الذُّنوب إنَّ لك مكان كلّ سيئة حسنة . فعندئذ يتغيرّ وضعه وينطلق سائلاً عن ذنوبه الكبيرة الَّتي لم تذكر . . . يقول : ربِّ قد عملت أشياء لا أراها ههنا !! لقد تبدَّل موقفه . . . إذْ كان مشفقاً من أنْ يعرضوا عليه ذنوبه الأُخرى الكبيرة وأَنْ يحاسب عليها . . . لكنَّه لما رأى أنَّ نتيجة العرض أنْ يعطى مكان السَّيئة حسنة أَصبح يريد أنْ تذكر له كلُّها استكثاراً منه للحسنات . . . . فضحك لذلك رسول الله ﷺ .

**

وأخيراً نودُّ أَنْ نختم هذا الفصل الخاصّ بالجنَّة بذكر بعض الممنوعين من دخولها،وهم كثير جاءت أَحاديث عدَّة تصوِّر حالهم ،ولكنِّي أكتفي ههنا بنماذج ثلاثة هي :

المتكبِّر ـ والنِّساء الكاسيات العاريات ـ والحاكم الغاشُّ لرعيته.

عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ :

«لا يدخل الجنَّة من كان في قلبه مثقال حبَّة من خردل من كبر»[1]

وقد عبَّر الحديث عن الشَّيء القليل بأنه مثقال حبَّة من خردل وهو مقدار قليل جدًّا . . . فمن كان في قلبه مثل هذا المقدار منع من دخول الجنَّة .

عن أَبي هريرة : قال رسول الله ﷺ :

«صنفان من أَهل النَّار لم أَرهما :

ـ قوم معهم سياطٌ كأذناب البقر يضربون بها النَّاس.

ـ ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات،رؤوسهنَّ كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلْنَ الجنَّة ولا يجدنَ ريحها وإنَّ ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»[2]

(١) أبو داود ٤/ ٨٤ ، وابن ماجه ١/ ٢٢

(٢) صحيح مسلم بشرح النَّووي (١٤/ ١٠٩ ـ ١١٠) و(١٧/ ١٩٠) ورياض الصالحين ٨٩٧.







نصٌ جميل زاخر بالصُّور :

ـ السِّياط كأذناب البقر يحملها قوم يضربون بها النَّاس .

ـ نساء كاسيات عاريات : ليس هناك أَوجز من هذا التَّصوير للنِّساء اللاَّتي يمشين في الشَّوارع لابسات ثيابا قصيرة جدًّا بدون أكمام وربمَّا يكون ثوب إحداهنَّ مفتوحاً من موضع الصَّدر والظَّهر والجانبين فمن تلبسه تكون كاسية لأَن عليها كساء .

ومن تلبسه تكون عارية لأنهَّا لا تستر من جسمها ومفاتنها شيئاً بل لا تكاد تخفي إلاَّ القبيح المنفِّر .

ثم قال :

رؤوسهنَّ كأَسنمة البُخْت المائلة : والبخْت : إبل مشهورة يعظم سنامها ، فترى الواحدة من هؤلاء النِّساء الكاسيات العاريات قد أعدَّت شعرها ورفعته بتسريحة معيَّنة حتَّى بدا كأنَّه سنام بختية .

وهناك براعة في التَّشبيه : فالسِّنام أَعلى شيء في البخت ، وكذلك الشَّعر المرفوع أعلى شيء في المرأة .

وفي الحديث أنَّ لّلجنة رائحة قويَّة توجد من مسافة بعيدة « من مسيرة أَعوام كثيرة » .

وقد عبَّر الحديث عن حرمانهنَّ من الجنَّة بأَنهَّنَّ لا يدخلْنَ الجنَّة وأَكدَّ هذا المعنى بأَنهَّنَّ لا يقتربنَ من الجنَّة ، مبالغة في تأَكيد حرمانهنَّ :

« لا يجدنَ ريحها وإنَّ ريحها يوجد من مسيرة كذا وكذا »

وفي الحديث تكرار لكلمات مشتقة من الميل « مميلات ـ مائلات ـ مائلة » وهذا يلقي ظلاًّ على تصرُّف هؤلاء النُّسوة بأَنَّه ميل عن الحق وآنصراف عن جادَّة الفطرة .

هذا والحديث من أعلام نبوَّته صلى الله عليه وآله وسلم فقد أَخبر عن أَمور لم يرها . . . ثمَّ كانت وتحقَّقت نبوءته ﷺ .

عن معقل بن يسار قال قال رسول الله ﷺ :

« ما من عبد يسترعيه الله رعيَّة يموت يوم يموت وهو غاشٌ لرعيته إلاَّ حرَّم الله عليه الجنَّة »[1] .

في الحديث صورتان : عبد يسترعيه الله رعيةً ، أيْ يوليه أُمورها .

وقوله « حرَّم الله عليه الجنَّة » أي منع من دخولها.

الحكم آسترعاء من الله ، وليس حقاً للّحاكم لانتسابه إلى أُسرة أو طبقة أو حزب . . . ولا لأنَّه عبقريّ فذّ .

والحاكم الظَّالم لمحكوميه ظالم لنفسه لأنَّ الرَّاعي عندما يغشُ رعيَّته فلا يجعلها ترعى المرعى الجيِّد ولا يحميها من الوحوش وعوارض الأَذى فيصيبها الهزال والضَّعف والمرض ويدبُّ إليها الهلاك ، وهذا كلّه إساءةٌ إلى نفسه .

## ب ـ وصف النَّار :

النَّار الموقدة التَّي يعبَّر عنها أَحياناً بجهنَّم شيء مخيف ، وقد دعيت جهنَّم بالنَّار ، لأنَّ النار هي الوسيلة الأُولى والأَشدُّ في العذاب . . وهناك وسائل أُخرى كالضرب بالمقامع التي من حديد وكالبرد الشَّديد وكالحرمان من النَّوم وما إلى ذلك .

النَّار التي وقودها النَّاس والحجارة ، والتَّي تنضج الجلود ، وتقطع الأَمعاء نار جهنَّم التَّي جاء وصفها في كتاب الله . . كان الخوف منها حيّاً في أذهان الصَّحابة . . يدفعهم إلى القيام بالواجبات ، والبعد عن المحرَّمات . . وكانوا في صلواتهم وفي غيرها يسألون الله أَنْ ينجِّيهم منها .

النَّار من عالم الغيب . وسنورد فيما يأْتي لوحات تتضمَّن تصويراً لهذا الأَمر الغيبي المخيف :

---

(١) مسلم ٢/ ١٦٥ .





عن أبي هريرة عن النَّبي ﷺ قال :

« إذا أشتدَّ الحرُّ فأبردوا بالصَّلاة ، فإنَّ شِدَّة الحرِّ من فيح جهنَّم . واشتكت النَّار إلى ربهَّا فقالت : يا ربِّ أكل بعضي بعضاً ، فأذن لها بنفسين : نفس في الشتَّاء ونفس في الصيف ، فهو أشدُّ ما تجدون من الحرِّ وأشدُّ ما تجدون من الزَّمهرير » .[1]

هذا النَّص يقرِّر أنّ في جهنَّم حرّاً شديداً وبرداً شديداً . . والتَّعذيب بالنَّقل من هذا إلى ذاك هو من أشدِّ ألوان التَّعذيب وأنَّ النَّار لتتوقَّد وتسجر وتستعدُّ لاستقبال الرُّواد في يوم القيامة وهي الآن في انتظار الموعد المحدَّد . . وقد اشتكت إلى ربها . . فقالت: يا ربِّ أكل بعضي بعضاً.

لأنَّ النَّار تأْكل بعضها إِنْ لم تجد ما تأكله . . فأَذن لهـا بنفسـين : نفس في الشتَّاء ، ونفس في الصَّيف . نحن هنا أَمام كائن يشكو ويتكلّم ويتنفَّس . .

ويبدو أنَّ نفسها كان مخنوقاً فيها فلا يخرج منها . ممَّا يزيد في أَلمها . وهذا الذَّي نجده من أشدِّ أَنواع البرد والزَّمهرير أَثر من آثار هذين النَّفسين اللَّذين أَذن اللهُ عزَّ وجلَّ لجهنَّم أَنْ تتنفسهما . فما مقدار حرارتها الدَّاخلية وما مقدار برودتهـا ؟ إِنَّـه شيء ـ دون شك ـ يفوق الخيال .

وفي الحديث تناسق فنِّي رائع ، فإِذا كان الحرُّ من فيح جهنَّم فيحسن أَنْ تقع الصَّلاة في وقت أَبرد منه في وقت بعيد عن كلِّ ما يتَّصل بالنَّار ، ومن هنا كان الرَّبط بين الأُمرين .

***

عن أبي هريرة أَنَّ النَّبي ﷺ قال :

« ناركم هذه الَّتي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حرِّ جهنَّم » .

قالوا : والله إِنْ[2] كانت لكافية يا رسول الله .

---

(١) صحيح البخاري ١ / ١٤٢ كتاب الشّعب وصحيح مسلم بشرح النَّووي ٥ / ١١٩ .
(٢) ( إِنْ ) هذه هي المخففة من الثقيلة والمعنى « والله إنها كانت كافية »

قال : « فإنهَّا فضِّلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلُّها مثل حرِّها » .[1]

في الحديث تصوير يعتمد على النِّسبة ، وقد استخدمت الأَرقام لإبرازها . واستخدام النِّسبة للتَّعريف بأَمر غيبيّ شيء طبيعي ، فنحن لا نعرف إلاَّ هذه النَّار التي يوقدها ابن آدم ، وقد تصل درجة حرارتها إلى خمسين الف درجة كما يقرِّر العلماء المختصُّون .[2] فإذا ضرب هذا العدد بسبعين كان النَّاتج هو مقدار حرارة النَّار .

هذا وعدد السَّبعة ، وعدد السَّبعين ، والسَّبعمائة لا يُراد بها حقيقة مدلولاتها الرَّقمية دائماً ، ولكن يُراد بها الكثرة أَحياناً ، وهذا الاستعمال شائع في الشِّعر والنثر وما زال دارجاً في لهجاتنا العاميَّة .

والصُّورة بيان لارتفاع درجة حرارة نار جهنَّم وقد اعتمدت على النِّسبة الَّتي توازن بين نار الدُّنيا ونار جهنَّم .

وممِا يتَّصل بهذا المعنى الحديث الآتي :

عن أَبي هريرة عن النَّبي ﷺ أَنَّه قال :

« أُوقد على النَّار أَلف سنة حتَّى احمرَّت ، ثمَّ أُوقد عليها أَلف سنة حتَّى ابيضَّت ثمَّ أُوقد عليها أَلف سنة حتى اسودَّت فهي سوداء كاللَّيل المظلم » .[3]

وفي رواية : « . . . لهي أَشدُّ سواداً من القار » .[4]

إنهَّا تختلف عن النَّار الَّتي تعرف . . إنهَّا سوداء كاللَّيل المظلم وفي هذا تشبيه . . أَو هي أَشدُّ سواداً من القار وفي هذا تصوير بالموازنة .

---

(١) « صحيح مسلم » ١٧ / ١٧٩ والبخارى ومالك والترمذي وانظر « التَّرغيب والتَّرهيب » ٤ / ١٦١ .
(٢) ذكر لي الصَّديق الدُكتور عبد الله حجازي أُستاذ الكيمياء في جامعة الرِّياض أَنَّه قد جاء في المرجع العلمي Chemie - Lexikon المجلدة ٥ ص٢٧٢٥ أنَّ درجات الحرارة التي أمكن التَّوصل إليها بطريقة بلازما تقع ما بين ثلاثة آلاف وخمسين ألف درجة . وجاء في المصدر نفسه ٣ / ١٤٨٥ أنّ فرن بلازما جزئي الهيدروجين تصل درجته إلى ٢٥ مليون درجة . وترجم لي هذا عن الألمانية جزاه الله الخير .
(٣) رواه التَّرمذي وابن ماجه ٢ / ١٤٤٥ والبيهقي ( وانظر الترغيب والتَّرهيب ٤ / ١٦٢ )
(٤) رواه مالك ( وانظر التَّرغيب والتَّرهيب ٤ / ١٦٢ ) .





عن أنس أَنَّ نبي الله ﷺ قال :

« لا تزال جهنَّم تقول : هل من مزيد ؟ حتَّى يضع فيها ربُّ العِزَّة تبـارك وتعالى قدمه فتقول : قط قط وعزَّتك . ويزوي بعضها إلى بعض » .[1]

إنهَّا تطلب المزيد أبداً ، وما تزال كذلك تقول : هل من مزيد ؟ حتَّى يضع فيها ربُّ العزَّة قدمه فتقول : حسبي حسبي وعزَّتك يا ربِّ وتتضامّ .

صورة تعتمد على الوصف لحال جهنَّم .

ويدلُّ هذا الوصف على سعة جهنَّم وعلى تلهفها إلى المزيد من النَّاس لتعذِّبهم وتحرِّقهم .

وهذا ينظر إلى قول الله تبارك وتعالى ﴿ يوم نقول لجهنَّم هل امتلأْت وتقول : هل من مزيد ﴾ .[2]

وفي هذا الحديث تتجلى رحمة الله تبارك وتعالى متمثِّلة في أَنَّ جهنَّم لا تكفُّ عن طلب المزيد إلاَّ بعد أن يضع فيها ربُّ العزَّة قدمه .

عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ :

« يؤتي بجهنَّم يومئذ لها سبعون أَلف زمام ، مع كلِّ زمام سبعون أَلف ملك يجرُّونها » .[3]

إنهَّا صورة تثير العجب والدَّهشة . . صورة غيبيَّة في منتهى الغرابة ، كيف تجرُّ الملائكة جهنَّم بالأَزمَّة وهي متَّسعة مترامية الأَطراف ووديانها عميقة لو ألقي في واديها

(١) صحيح مسلم ١٧ / ١٨٤ و ( قط ) كـ ( عن ) بمعنى حسب . ويمكن أنْ تكون اسـم فعـل بمعنـى يكفي . ويزوي بعضها إلى بعض ، أي ينقبض بعضها إلى بعض وتتضامّ . وانظر حديث أبي هريرة في احتجاج النَّار والجنَّة الآتي : بعد وفيه « فأمَّا النَّار فلا تمتلىء فيضع قدمه عليها فتقول : ( قط قط ، فهناك تمتلىء ويزوي بعضها إلى بعض » .

(٢) سورة ق الآية ٣٠.

(٣) صحيح مسلم ١٧ / ١٧٩ والتِّرمذي ( وانظر الترغيب والتَّرهيب ٤/ ١٦١ ) .

حجر لظلَّ يهوي سبعين عاماً ولمَّا يبلغ قعرها . مهما يكن من أمر فإنَّ هذا العدد الضَّخم من الملائكة يجرُّونها بالأزمَّة .

عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ :

« إنَّ العبد ليتكلَّم بالكلمة ما يتبيَّن فيها يزلُّ بها إلى النَّار أبعد ممَّا بين المشرق والمغرب » .[1]

ما أضخم جهنَّم !!

إنَّ قعرها أبعد ممّا بين المشرق والمغرب ، ولذلك جاء عن أبي هريرة أنَّه كان يقسم فيقول :

« والذّي نفس أبي هريرة بيده إنَّ قعر جهنم لسبعون خريفاً » .[2]

صورة تعتمد على الموازنة :

إنَّ العبد ليسقط بسبب كلمة يقولها لا يلقي لها بالاً في جهنَّم مسافةً أبعد ممّا بين المشرق والمغرب ، وذلك كناية عن بعد المسافة .

والحديث يقرِّر أنَّ المرء قد يدخل النَّار بسبب كلمة يقولها . . فكلام الإنسان مؤاخذ به ومحسوب ومحاسب عليه !!

وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ :

« يقول الله تعالى : يا آدم !
ـ فيقول : لبيك ربَّنا وسعديك
فينادى بصوت : إنَّ الله يأمرك أنْ تخرج من ذريتك بعث النَّار .
قال : يا ربِّ ! وما بعث النَّار ؟
قال : من كلِّ ألف تسعمائة وتسعة وتسعين .

---

(١) متفق عليه ( البخاري ٧ / ١٨٤ ومسلم ١٨ / ١١٧ وفي رواية مسلم : « ينزل بها في النّار » ) وانظر « رياض الصالحين » ٨٢٥ .

(٢) صحيح مسلم ٣ / ٧٢ .





فحينئذٍ تضع الحامل حملها ، ويشيب الوليد ، وترى النَّاس سكارى وما هم بســـكارى ولـــكنَّ عذاب الله شديد »

فشقَّ ذلك على النَّاس حتَّى تغيرَّت وجوههم . فقال النَّبي ﷺ :

« من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسع وتسعون ومسلم واحد . ثمَّ أَنتم في النَّاس كالشَّعرة السَّوداء في جنب الثَّور الأَبيض ، أَو كالشَّعرة البيضاء في جنب الثَّور الأَسود» . [1]

الحديث فيه صورة للعذاب الشَّديد وكثرة المعذَّبين ، فمن كلِّ أَلف تسعمائة وتسعة وتسعون في النَّار .

وعندما يصدر هذا الأَمر من الله تبارك وتعالى لآدم يشتدُّ العذاب فتضع الحامل ويشبب الوليد ، وترى النَّاس سكارى وما هم بسكارى ولكنَّ عذاب الله شديد .

وفي هذه الجمل كنايات عن شدَّة العذاب وهوله وعن انخلاع القلوب لمرآه وتصوُّره وهذه الصُّور هي : إجهاض الحوامل ، وشيب الوليد ، وظهـور النَّـاس بمظهر السُكارى .

والصُّور الثلاث صور قرآنية نجدها في قول الله تعالى :

﴿ يوم ترونها تذهل كلُّ مرضعة عماَّ أَرضعت ، وتضع كلُّ ذات حمل حملها ، وترى النَّاس سكارى ومـا هم بسـكارى ولـكنَّ عذاب الله شديد ﴾[2] وفي قولـه سبحانه : ﴿ فكيف تتقون إنْ كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً ﴾ . [3]

---

(١) صحيح البخاري ٧/ ١٩٦ (كتاب الرقاق باب قوله ﴿ ولا تنفع الشَّفاعة إلاَّ لمن أذن له ﴾ وفي كتاب بدء الخلق وكتاب التفسير.)

وصحيح مسلم ١ / ١٣٩ ( كتاب الإيمـان باب كون هذه الأُمـة نصف أهـل الجنَّـة ) والترمـذي ٤ / ١٥٠ وانظر الأحاديث القدسية ٢ / ٣١ وأقيسة النَّبي ١١٨ و ١٣٤ .

(٢) الحج الآية ٢ .

(٣) المزَّمل الآية ١٧ .

فشقَّ ذلك على النَّاس حتَّى تغيَّرت وجوههم ، وفي رواية الترمذي حتَّى صاروا يبكون ، فبيَّن لهم صلوات الله وسلامه عليه أنَّ من رحمة الله عزَّ وجلَّ بالمسلمين أنَّ مسلماً واحداً مقابل تسعمائة وتسعة وتسعين من يأجوج ومأجوج .

ثم أعقب هذا بالتَّشبيه الموضِّح المبيِّن أنَّ المسلمين كالشَّعرة السَّوداء في جنب الثَّور الأبيض .

عن أسامة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« يؤتى بالرَّجل يوم القيامة ، فيلقى في النَّار ، فتندلق[1] أقتاب[2] بطنه فيدور بها كما يدور الحمار بالرَّحى ، فيجتمع إليه أهل النَّار فيقولون :

يا فلان ! مالك ؟ ما أصابك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟

فيقول : بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتية ، وأنهى عن المنكر وآتيه » .[3]

منظر شنيع ، ومشهد كئيب ، رجل كان في الدُّنيا يأمر بالمعروف ولكنَّه لم يكن يأتيه ، وكان ينهي عن المنكر ويأتيه يؤتى بهذا الرَّجل يوم القيامة ، فيلقى في النَّار وكأنَّهُ قِطْعَةٌ من الحَطَبِ، فتندلقُ أمعاؤهُ فيدورُ بالنّارِ كما يدور الحمار بالرَّحى.

وليس هناك صورة تبلغ من الفظاعة ومن إثارة التَّقزُّز من صورة الرَّجل الذَّي خرجت مصارينه من بطنه وهو يدور في النَّار كما يدور الحمار في الرَّحى .

واختيار ( الحمار ) من بين أنواع الحيوان يتناسب مع تحقير صورة هذا الرَّجل .

ويبدو أنَّ عذابه كان أليماً ومثيراً للانتباه ممَّا جعل أهل النَّار يجتمعون عليه وينادونه باسمه : يا فلان ! مالك ؟ ويذكِّرونه بماضيه في الدُّنيا حيث كان يأمر النَّاس بالمعروف وينهاهم عن المنكر .

---

(١) تندلق : تخرج .

(٢) اقتاب بطنه : أمعاء بطنه واحدها قتب .

(٣) صحيح البخاري ٨ / ٩٧ ( الفتن ـ باب الفتنة الَّتي تموج كموج البحر ) وصحيح مسلم ٨ / ٢٢٤ ( الزُّهد والرَّقائق ـ باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله ) ومسند أحمد ٥ / ٢٠٥ ( وانظر رياض الصَّالحين ١٨٤ وأقيسة النَّبي ١٤٠ ) .

فبيِّن السَّبب الذَّي جاء به إلى هذا العذاب في النَّار :

« قد كنت آمر بالمعروف ولا آتية وأَنهى عن المنكر وآتيه »

وردت صور عدَّة للعذاب الذَّي يلقاه مانع الزَّكاة ، ذكر منها طائفة في بحثنا عن يوم القيامة لأَنَّه لم يرد فيها ذكر للنار . وسأذكر فيما يلي صورة لعذاب مانع الزَّكاة في جهنَّم :

عن أَبي ذر يرفعه للنَّبيﷺ :

« بشر الكانزين برضف[1] يحمى عليه في نار جهنَّم ، فيوضع على حلمة ثدى أَحدهم حتَّى يخرج من نغض[2] كتفيه ، ويوضع على نغض كتفيه حتَّى يخرج من حلمة ثدييه ، يتزلزل » .[3]

وفي رواية :

« بشر الكانزين بكي في ظهورهم يخرج من جنوبهم ، وبكيٍّ من قبل أَقفائهم يخرج من جباههم » .[4]

صورة تبرز الإيلام والتَّعذيب مع التَّهكم السَّاخر . . ما أَشنع هذه البشارة ! ! التَّي تحتوي عقوبة تقشعرُ لها الأَبدان . . .

عقوبة أُولئك الكانزين أَموالهم الذَّين يمنعون زكاتها . . إنهَّم سيعذَّبون بالرَّضف التَّي يحمى عليها في نار جهنَّم ، ثمَّ توضع على ثديهم فتخرج من الخلف ، ثمَّ توضع من الخلف فتخرج من الأَمام . والرواية الأُخرى تذكر اتجاهاً آخر لسير الكيّ في أجسادهم يبدأ من قبل أَقفائهم ويخرج من جباههم .

والصُّورة كانت ههنا عن طريق الوصف المثير .

***

(١) الرَّضف : الحجارة المحماة .

(٢) النَّغض : (بالضم والفتح) غضروف الكتف .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي : ٧ / ٧٧ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي : ٧ / ٧٩ .

عن أنس عن النّبي ﷺ قال :

« يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النّار عذاباً :

ـ لو كانت لك الدُّنيا وما فيها : أكنت مفتدياً بها ؟

ـ فيقول : نعم .

ـ فيقول : قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أنْ لا تشرك ولا أدخلك النّار ، فأبيت إلاَّ الشرك» .[1]

وعن النُّعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إنَّ أهون أهل النّار عذاباً يوم القيامة لرجل يوضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه، ما يرى أنَّ أحداً أشدُّ عذاباً منه . وإنَّه لأهونهم عذاباً . »[2]

صورتان لأهون أهل النّار عذاباً، وإنَّ كلاً منهما لتصوِّر لنا ذاك الهول الشَّديد الذّي يعانيه أهل النّار . .

فالصُّورة الأُولى كانت حواراً فحواه أنَّ الرَّجل مستعدٌ ليفتدي نفسه بالدُّنيا وما فيها لما يقاسيه من العذاب .

ولا يبذل المرء مثل هذا البذل إلاَّ أنْ يكون في شدَّة بالغة وضنك كبير،وقد جاءت الموعظة عقب ذلك بتقريع فيه عبرة لمن لا يزالون في الحياة . هذا التَّقريع هو قول الله تعالى له :

« قد أردت منك أهون من هذا » وأنت في عالم الغيب لما كنت في صلب آدم أردت منك ألاَّ تشرك بي شيئاً . . فأبيت إلاَّ الشِّرك .

وأمَّا الصُّورة الثّانية فهي صورة رجل يوضع في أخمص قدميه جمرتان يغلى منهما دماغه . . وإنَّه ليحسُّ بآلام الخلق كلّهم قد تجمعت عليه وحيزت له ، ولا يرى أنَّ أحداً في أهل النّار أشدُّ عذاباً منه ، وهو في الحقيقة أهونهم عذاباً .

---

(١) صحيح البخاري ٧ / ٢٠١ وصحيح مسلم بشرح النَّووي ١٧ / ١٤٧ .
(٢) صحيح البخاري ٧ / ٢٠٢ وصحيح مسلم ٣ / ٨٦ وانظر « رياض الصالحين ٢٩٤ .





إنَّ هذا الوصف الدَّقيق الذِّي يتغلغل إلى أعماق النَّفس ليصوِّر لنا درجة إحساسه بالعذاب الذي هو أهون صور العذاب، فكيف حال أشدّها؟

عن أُمِّ سلمة أنَّ رسول الله ﷺ قال:

« الَّذي يشرب في آنية الفضَّة إنَّما يجرجر في بطنه نار جهنَّم ».[1]

روى هذا الحديث بنصب ( نار ) ورفعها . وقال النَّووي بشرح الحديث على الرِّوايتين[2]:

( يجرجر نار جهنَّم بالنَّصب ، أي يلقيها في بطنه بجرع متتابع يسمع له جرجرة ، وهو الصوت لتردُّده في حلقه ) .

وعلى رواية الرَّفع ( يجرجر نار ) تكون النَّار فاعلة ، ومعناه تصوّت النَّار في بطنه والجرجرة التَّصويت .

وسمِّي المشروب ناراً لأنَّه يؤول إليها كما قال تعالى: ﴿ إنَّ الذَّين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنَّما يأكلون في بطونهم ناراً ﴾ .[3]

إذن إنَّ الذي يشرب في آنية الفضَّة سيشرب يوم القيامة ناراً يلقيها في بطنه بجرع متتابع يسمع له جرجرة لتردُّده في حلقة . وإنَّه لأمر مخيف حقّاً .

عن جابر قال قال رسول الله ﷺ :

« كلُّ مسكر حرام . إنَّ على الله عزَّ وجلَّ عهداً لمن يشرب المسكر أنْ يسقيه من طينة الخبال »

قالوا : يا رسول الله ! وما طينة الخبال ؟

قال : « عرق أهل النَّار ».[1]

---

(١) البخاري ٦ / ٢٥١ ( ٧٤ ـ كتاب الأشربة : ٢٨ ـ باب آنية الفضة ) مسلم ٦ / ١٣٤ ( ٣٧ ـ كتاب اللِّباس والزِّينة : ١ ـ تحريم استعمال أواني الذَّهب والفضة ) شرح النَّووي ١٤ / ٢٧ .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ١٤ / ٢٨ .

(٣) سورة النساء ١٠

(٤)صحيح مسلم بشرح النَّووي ١٣ / ١٧١ .

إنَّ جزاء من يشرب المسكر في الدُّنيا أنْ يسقيه الله من عرق أهل النَّار . صورة غيبيَّة تتقزَّز منها النَّفس .

عرق أهل النَّار الذَّي يمرُّ على جروحهم التي تسيل بالصَّديد لا بدَّ أنْ يسقاه أولئك العصاة الذَّين خالفوا أمر الله واقترفوا شرب المسكرات .

إنَّ على الله عهداً أنْ يفعل ذلك ، ولن يخلف الله العهد . إنَّه أمرٌ محتوم .

وقد ذكر رسول الله ﷺ لهذا الشرَّاب اسماً يليق به : إنَّه طينة الخبال .

عن أنس بن مالك قال قال ﷺ :

« لمَّا عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم .

فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم النَّاس ويقعون في أعراضهم » .[1]

الصُّورة الأُولى هي الصُّورة الغيبيَّة التي رآها عليه الصَّلاة والسَّلام ونقلها نقلاً دقيقاً :

قوم لهم أظفار نحاسيَّة يخمشون وجوههم وصدورهم بها .

فلماً سأل عنهم قيل : إنهَّم الذين يغتابون النَّاس .

وقد عرض ﷺ ذلك بصورة قرآنية هي ( يأكلون لحوم النَّاس ) .

وهي تنظر إلى قوله تعالى : ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحبُّ أحدكم أنْ يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ﴾ .[1]

وصورة آكل لحوم الناس صورة منفرِّة من الغيبة .

---

(١) أبو داود ٤ / ٣٧١ .

(٢) سورة الحجرات الآية ١٢ .







وكذلك فإنَّ قوله ( ويقعون في أعراضهم ) صورة تنبىء عن اغتيابهم وإيذائهم .

عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ :

« من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ[1] بها في بطنه في نار جهنَّم خالداً مخلَّداً فيها أبداً .

ومن شرب سماً فقتل نفسه فهو يتحسَّاه في نار جهنَّم خالداً مخلَّداً فيها أبداً .

ومن تردَّى من جبل فقتل نفسه فهو يتردَّى في نار جهنَّم خالداً مخلَّداً فيها أبداً » .[2]

يحكى هذا الحديث لنا حال قاتل نفسه في نار جهنَّم ، ويعرض لوحة تصوره وكأنَّ الأمر يحدث أمامنا الآن ، ولذلك نرى أنَّ الرَّسول الكريم استعمل في وصفه هذا الفعل المضارع ( يتوجأ ) و ( يتحسَّاه ) و ( يتردَّى ) وقد ذكر الحديث بعض وسائل الانتحار من نحو استعمال الحديدة وتحسّي السُّم والتَّردي من جبل .

وكانت العقوبة من جنس العمل :

فالأوَّل يتوجأ بالحديدة في نار جهنَّم خالداً مخلَّداً فيها أبداً .

والثَّاني يتحسَّى السُّم في نار جهنَّم خالداً مخلَّداً فيها أبداً .

والثَّالث يتردَّى في نار جهنَّم خالداً مخلَّداً فيها، يكرِّر كلٌّ منهم منهم عمليَّة الانتحار ويقاسي الآلام التي قاساها أوَّل مرَّة في نار جهنَّم . . يقاسي ذلك بصورة مستمرَّة دائماً أبداً . وقد أكَّد الحديث التأبيد بقوله ( خالداً مخلَّداً فيها أبداً ) .

والتَّصوير كان عن طريق وصف مشاهد هؤلاء المنتحرين في نار جهنَّم .

عن ابن عبَّاس أنَّ رسول الله ﷺ رأى خاتماً من ذهب في يد رجل فنزعه فطرحه وقال :

---

(١) يطعن .

(٢) صحيح البخاري ٧ / ٣٢ وصحيح مسلم بشرح النَّووي ٢ / ١١٨ .

« يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده».

فقيل للرجل بعد ما ذهب رسول الله ﷺ : خذ خاتمك انتفع به .

قال : لا والله لا آخذه أبداً وقد طرحه رسول الله ﷺ .[1]

الخاتم الذهبي في يد الرَّجل جمرة من نار . . وهذا كما يقول علماء البلاغة من قبيل المجاز المرسل باعتبار ما سيكون . . لكن الصُّورة جعلته الآن جمرة .

وقد أشفق ﷺ على الرَّجل فنزعه من يده وطرحه .

ولم يرضَ الرَّجل الذي سمع هذه الموعظة فأثَّرت فيه لم يرض أنْ يأخذه لينتفع بثمنه أوْ يلبسه بعض نسائه .

عن أبي هريرة قال قال ﷺ :

« من سئل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار ».[2]

هناك في جهنَّم لجام من نار . . يعاقب به من أَلجم لسانه عن تبليغ العلم وقول الحق في الدُّنيا . وفي الصُّورة تناسق رائع وانسجام بين الذَّنب والعقوبة :

فالسُّكوت عن تبليغ العلم إلجام للسان فهو يستحقُّ أنْ يلجم يوم القيامة .

وشتَّان بين اللِّجامين !!

وفي الصُّورة امتهان للساكت عن الحق ولكاتم العلم . . إنَّه يبدو دابَّة من الأنعام من ذوات اللِّجام . .

عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله (ﷺ) :

« أزرة المسلم إلى نصف السَّاق ، ولا حرج ـ أوْلا جناح ـ فيما بينه وبين الكعبين .

(١) صحيح مسلم بشرح النَّووي ١٤ / ٦٥ وانظر «رياض الصالحين » ١٧٩ .

(٢) مسند أحمد ٢ / ٢٦٣ وأبو داود ٣ / ٤٣٧ وابن ماجه ١ / ٩٦ والتِّرمذي ٣ / ٣٧٠ وقال الترمذي : حديث حسن ( وانظر « رياض الصَّالحين » ٧٥٨ ) .







ما كان أسفل من الكعبين فهو في النّـار . من جرَّ إزاره بطـراً لـم ينظـر الله إليه » .[1]

في هذا النَّص صور ثلاث :

١ ـ صورة المتكبِّر الذَّي يجرُّ إزاره بطراً . وكلمة ( البطر ) تأْتي في محلها لتبيِّن الدَّافع الذَّي حمل على جرِّ الأزار ، ذلك أنَّ الإزار قد يجرُّ دون قصد وقد يكون بسبب آخر وعندئذٍ لا يكون تكبُّراً .

والمحرَّم هو جرُّ الإزار بطراً وخيلاء ، ويوضح ذلك الحديث الذَّي رواه ابن عمر عنه ﷺ قال : « لا ينظر الله إلى من جرَّ ثوبه خيلاء » .[2]

٢ ـ تحريم ما زاد عن الكعبين ، عبَّر عن ذلك بأنَّه في النَّار ويستلزم ذلك أنْ يتعرَّض صاحب الإزار الزَّائد للنار أيضاً . ومعلوم أنَّ الشيء الـذي يعاقـب عليه بالنَّار حرام .

٣ ـ العقوبة من الله ، عبَّر عنها بأنَّ الله لا ينظر إلى من يستحقُّها ، وقد دلَّت هذه العقوبة على الاحتقار بالإضافة إلى العقوبة .

والتَّناسق واضح في الحديث ، فالمتكبِّر الذي جرَّ إزاره كبراً ليعظم في أعـين النَّاس معاقب بالاحتقار وبأنَّ الله لا ينظر إليه .

وفي الحديث تسجيل لمادة اجتماعيَّة كانت موجودة وهي جرُّ الإزار لإظهار الغنى والرِّفعة وعلوِّ المكانة الاجتماعية للتعالي على عباد الله .

وهذه الصُّورة قرآنية قال الله تعالى :﴿ ولا يكلِّمهم الله ولا ينظـر إليهم يوم القيامة ولا يزكِّيهم ولهم عذاب أليم ﴾ .[3]

---

(١) أبو داود ٤ / ٨٥ وأخرجه النِّسائي وابن ماجه .
(٢) صحيح البخاري ٧ / ٣٣ ( ٧٧ ـ كتاب اللِّباس : ١ ـ باب قول اللهً تعالى﴿ قل من حرَّم زينة الله ﴾ وصحيح مسلم ٦ / ١٤٦ ( ٣٧ ـ كتاب اللِّباس والزِّينة : ٩ ـ باب تحريم جرِّ الثوب خيلاء ) وانظر شرح النَّووي ١٤ / ٦٠ .
(٣) آل عمران الآية ٧٧ .

بل إنَّ الأَثر القرآني أَوضح في رواية أَبي ذر الآتية :

« ثلاثة لا يكلِّمهم الله يوم القيامة ولا يزكِّيهم ولهم عذاب أَليم » .

قال أبو ذر : فقرأَها رسول الله ﷺ ثلاث مرَّات .

قال أبو ذر : خابوا وخسروا من هم يا رسول الله ؟

قال ﷺ : « المسبل ، والمنَّان ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » .[1]

وعن المغيرة بن شعبة قال : سمعت النَّبي ﷺ يقول :

« إنَّ كذباً على ليس ككذب على أَحد . من كذب على متعمِّداً فليتبوأْ مقعده من النَّار » .[2]

هناك مقاعد في النَّار معدَّة للَّذين يكذبون على النَّبي ﷺ متعمِّدين وهذا كناية عن العذاب الشَّديد الذي ينتظر هؤلاء المجترئـين المفترين .

عن جابر قال :

شهدت مع رسول الله ﷺ بالصلاة يوم العيد فبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أَذان ولا إِقامة .

ثمَّ قام متوكِّئاً على بلال فأمر بتقوى الله وحثَّ على طاعته ووعظ النَّاس وذكَّرهم ثمَّ مضى حتَّى النساء فوعظهنَّ وذكَّرهنَّ فقال :

« تصدَّقن فإن أَكثركنَّ حطب جهنَّم » .

فقامت أمرأَة من سطة النِّساء سفعاء الخدَّين فقالت : لم يا رسول الله !

قال : لأَنكنَّ تكثرن الشَّكاة وتكفرْنَ العشير .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النَّووي ٢ / ١١٤ .
(٢) البخاري ( مطبعة الفجَّالة ) ٢ / ٧٢ مسلم ١ / ٨ وهذا الحديث متواتر عنه صلوات الله عليه وانظر مواضع وجوده في كتب السنَّة في تعليقاتي على الأسرار المرفوعة وتحذير الخواص . فلقد جاوزت طرقه المائة .





فجعلن يتصدَّقن من حليِّهنَّ يلقين في ثوب بلال من أقرطتهنَّ وخواتمهنَّ » .[1]

وعن أبن عبَّاس قال :

انخسفت الشَّمس على عهد رسول الله ﷺ[2] . . . قال ﷺ :

« وأُريت النَّار فلم أر منظراً كاليوم قطّ أفظع ، ورأيت أكثر أهلها النِّساء » .

قالوا : بم يا رسول الله ؟
قال : « بكفرهنَّ » .
قيل : يكفرن بالله ؟

قال : « يكفرن العشير ويكفرن الإحسان . لو أحسنت إلى إحداهنَّ الدَّهر كلَّه ثمَّ رأت منك شيئاً قالت : ما رأيت منك خيراً قط » .[3]

رؤية الرَّسول لجهنَّم وحديثه عنها ورد في أحاديث عدَّة نقلت بطرق كثيرة وفي مواضع مختلفة من كتب السُّنة ، ويبدو أنَّ الرَّسول ذكر هذا المعنى أكثر من مرَّة ذكره في صلاة العيد وفي صلاة الخسوف .

وهذان الحديثان يقرِّران أنَّ أكثر أهل النَّار من النِّساء وقد عبَّر الحديث الأوَّل عن هذا المعنى بأنَّ أكثرهنَّ حطب جهنَّم وذكر السَّبب وهو كفران العشير ، فالمرأة سرعان ما تنسى ما تقدَّم من إحسان الزَّوج وإكرامه ،وعرض ذلك بالصُّورة الآتية :

« لو أحسنت إلى إحداهن الدَّهر كلَّه ثمَّ رأت منك شيئاً قالت : ما رأيت منك خيراً قط » .

وفي هذا تحذير للمرأة المسلمة ممَّا كان عليه أكثر النِّساء وتذكير بحسن العشرة الزَّوجية .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النَّووي ٦ / ١٧٥ وصحيح البخاري ٢ / ٩ .
(٢) هنا كلام لا علاقة له بالباب حذفته وأشرت إلى حذفه بالنقط .
(٣) صحيح البخارى ١ / ١٣ باب كفران العشير و ٢ / ٢٧ ـ ٢٨ باب صلاة الكسوف جماعة .

وفي الحديث أيضاً وصية للنساء بأنْ يتصدَّقن عسى أنْ تطفىء الصَّدقة غضب الرَّب وتمحو الخطيئة .

ونودُّ أنْ نختم هذا الفصل بذكر ما جاء عن النَّبي ﷺ من وسائل الزَّحزحة عن النَّار والمباعدة عنها والنَّجاة منها . . لأن رحمة الله غلاَّبة وهي قد وسعت كلَّ شيء فمن وسائل الزَّحزحة عن النَّار الصَّدقة ، وقد مرَّت بنا في وصيَّة الرَّسول ﷺ للنساء .

وهناك وسائل أُخرى من ذكر الله ، وإماطة الأذى عن الطَّريق ، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر ، والكلمة الطيِّبة .

ولنعش في ظلال هذا الحديث الآتي الذَّي يفصل هذا الموضوع ويعرضه بصورة ماديَّة واقعيَّة :

عن عائشة قالت : إنَّ رسول الله ﷺ قال :

« إنَّه خلق كلُّ إنسان من بني آدم على ستِّين وثلاثمائة مفصل . فمن كبَّر الله ، وحمد الله ، وهلَّل الله ، وسبَّح الله واستغفر الله وعزل حجراً عن طريق النَّاس أوْ شوكة وعظماً عن طريق النَّاس ، وأمر بمعروف أوْ نهي عن منكر عدد تلك السِّتين والثلاثمائة السُّلامى فإنَّه يمشي يومئذٍ وقد زحزح نفسه عن النَّار » .[1]

وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ :

« كلُّ سلامى من النَّاس عليه صدقة كلَّ يوم تطلع فيه الشَّمس : تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرَّجل في دابته فتحمله عليها أوْ ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطَّيبة صدقة ، وكلّ خطوة تمشيها إلى الصَّلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطَّريق صدقة » .[2]

هذه النَّار المخيفة التَّي عرضنا بعض مشاهدها ، يفصِّل لنا **هذان** الحديثان وسائل الزَّحزحة عنها .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النَّووي ٧ / ٩٣ .
(٢) صحيح مسلم بشرح النَّووي ٧ / ٩٤ - ٩٥ .

إنَّ هذه الوسائل ميسورة لكلٍّ من أراد النَّجاة ، وهي أنواع من الأعمال الصَّالحة التَّي تنفع المرء والمجتمع .

فالذِّكر من تهليل وتحميد وتسبيح كلٌّ اولئك صدقات تشارك في عمليَّة الزَّحزحة .

وإماطة الأذى عن الطريق سواء أكان حجراً أمْ شوكَةً أمْ عظماً والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر والعدل بين رجلين من المسلمين وإعانة المرء في دابته ـ والكلمة الطَّيبة ، والخطوة إلى الصَّلاة . . . . صدقات من الصدقات التي تسهم في زحزحة الإنسان عن النَّار . فمن مشى وقد استطاع أنْ يعمل ثلاثمائة وستِّين قربة من مثل هذه القربات مشى وهو مطمئن أنَّه قد زحزح نفسه عن النَّار .

ومن وسائل المباعدة عن النَّار صوم التَّطوع :

عن أبي سعيد قال قال رسول الله ﷺ :

« ما من عبد يصوم يوماً في سبيل الله إلا باعَد الله بذلك اليوم وجهه عن النَّار سبعين خريفاً » .[1]

إنَّ من كرم الله الواسع ورحمته الكبرى أنْ جعل صيام يوم واحد في سبيل الله يباعد وجه صاحبه عن النَّار مسيرة سبعين سنة .

فالبعد مقدَّر هنا بالسَّنوات
والسنَّة معبَّر عنها بالخريف
والنَّص صورة عن العمل الذي ينجِّي صاحبه من النَّار ويجعله بمنأى عنها .

***

ومِمَّا يتَّصل برحمة الله أنَّه جعل عزاء لمن يفقد ولده وبشرى له تسعده . . . فقد جعل فقد الأولاد حجاباً للوالدة من النَّار .

---

(١) صحيح البخاري ٣ / ٢١٣ وصحيح مسلم ٨ / ٣٣ وانظر رياض الصَّالحين ٧٣٥ .

عن أبي هريرة قال :

أتت امرأة النَّبي صلىّ الله عليه وسلم بصبي لها فقالت :

- يا نبيّ الله ! ادع الله له ، فلقد دفنت ثلاثة .

- قال : « دفنت ثلاثة ؟ » .

- قالت : نعم .

- قال : « لقد احتظرت بحظار شديد من النَّار » .[1]

أيُّ تعزية أكرم من هذه التَّعزية لهذه المرأة الثَّكلى ؟ فالأولاد الـذّين دفنتهـم حجاب شديد لها من النَّار إنهَّا صورة رائعة فيها تجسيد المعنى بشكل حسِّي وهي تدلُّ على رحمة الله تبارك وتعالى وفضله .

عن أنس عن النَّبي ﷺ قال :

« يخرج من النَّار من قال لا إله إلاَّ الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير » .
ويخرج من النَّار من قال لا إله إلاَّ الله وفي قلبه وزن برَّة من خير
ويخرج من النَّار من قال لا إله إلاَّ الله وفي قلبه وزن ذرة من خير » .[2]

إنهَّا رحمة الله تنهض بالمؤمن الذي في قلبه قليل من خير وتنأى به عن العذاب ، ويخرج من النَّار لينعم في جنَّة الخلد .

والصُّورة هنا متعدِّدة في جزء منها متشابهة في إطارها والمقصـود واحـد وهـو التَّعبير عن القليل من الخير .

***

(١) صحيح مسلم ١٦ / ١٨٣ . والحظار ( بكسر الحاء وضمها ) ما يجعل حول البستان وغيره من قضبان وغيرها كالحائط .

(٢) صحيح البخاري ١ / ١٦ وصحيح مسلم بشرح النَّووي ٣ / ٥٩ - ٦٠

## ج ـ الجنَّة والنَّار :

عرضنا فيما سبق نصوصاً تتحدَّث عن الجنَّة ، ونصوصاً تتحدَّث عن النَّار . ونعرض ههنا طائفة ثالثة من النُّصوص التَّي تتحدَّث عن الأَمرين جميعاً .

عن أَبي هريرة قال قال ﷺ :

« لَمَّا خلق الله الجنَّة قال لجبريل : اذهب فانظر إِليها . فذهب ، فنظر إِليها ، ثم جاء فقال : أَيْ ربِّ ! وعزَّتك لا يسمع بها أَحد إِلاَّ دخلها ، ثمَّ حفَّها بالمكاره ثمَّ قال لجبريل : اذهب فانظر إِليها . فذهب فنظر إِليها ، ثمَّ جاء فقال : أَيْ ربِّ ! وعزَّتك لقد خشيت أَنْ لا يدخلها أَحد .

فلَّما خلق الله النَّار قال : يا جبريل اذهب فانظر إِليها . فذهب فنظر إِليها ، ثم جاء فقال : أَيْ ربِّ ! وعزَّتك لا يسمع بها أَحد فيدخلها، فحفَّها بالشَّهوات ثم قال : يا جبريل ! اذهب فانظر إِليها فذهب فنظر إِليها ، ثم جاء فقال : أَيْ ربِّ ! وعزَّتك لقد خشيت أَنْ لا يبقى أَحد إِلا دخلها » .[١]

وعن أَنس قال قال رسول الله ﷺ :

« حفَّت الجنَّة بالمكاره ، وحفَّت النَّار بالشهوات » .[٢]

وعن أبي هريرة أَنَّ رسول الله ﷺ قال :

« حجبت النَّار بالشهوات وحجبت الجنَّة بالمكاره » .[٣]

الجنَّة سلعة غالية ، فلا بدَّ من دفعِ الثَّمن الكبير وإِلاَّ لما كانت شيئاً يكافأ به . ومن أَجل ذلك قضت حكمته تبارك وتعالى أَنْ تكون محفوفة بالمكاره فالقيام بالواجبات أَمر ثقيل على النَّفس لاسيَّماً إِنْ كان جهاداً أو أَداء للصلاة في وقتها وعلى

---

(١) أبو داود ٤ / ٣٢٧ .

(٢) صحيح مسلم ١٧ / ١٦٥ .

(٣) صحيح البخاري ٧ / ١٨٦ .

وجهها، وكذلك الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر والبعد عن المحارم المبذولة رغم ميل النَّفس إليها ودفع الغريزة نحوها.

إنَّ ذلك كلَّه أُمور ممَّا يصعب على الإِنسان القيام به وممَّا تكرهه النَّفس ، فإِنْ احتملها المسلم راضياً مطمئناً استحقَّ الجنَّة .

والجنَّة ـ كما صورَّها حديث أبي هريرة الأوَّل ـ لو عرفها النَّاس على حقيقتها لدخلوها ولما ترك سبيلها أحد . ولكان دخلها في هذه الحالة من يستحقَّها ومن لا يستحقَّها .

فأقام في طريقها المكاره حتَّى لا يدخلها إلاَّ من هو أهل لها .

والنَّار شيء مخيف تنفر منه النَّفس وتأباه . . فلو عرفها النَّار على حقيقتها لكان من الممكن أنْ يتحاماها كلُّ النَّاس حتَّى أولئك الذين يستحقُّونها . ولذلك وضع ربُّنا عزَّ وجلَّ حولها الشَّهوات المحرمة ليختبر من تكون إرادته موافقة لشرع الله فيأبى المعاصي ولو كانت تدفعه إليها شهوته .

والصُّورة هنا متمثِّلة في المكاره تحفُّ بالجنَّة من كلِّ جانب فكأنَّها جدار أو سور ، والشَّهوات كذلك تحفُّ بالنَّار من كلِّ جانب .

ووضع الصورتين إحداهما إلى جانب الأُخرى يزيد في وضوح الصُّورة بالنِّسبة لكلٍّ منهما .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« احتجَّت النَّار والجنَّة .

فقالت هذه : يدخلني الجبَّارون والمتكبِّرون ، وقالت هذه : يدخلني الضُّعفاء والمساكين .

فقال الله عزَّ وجلَّ لهذه : أنت عذابي أُعذِّب بك من أشاء .
ـ وربَّما قال : أُصيب بك من أشاء ـ





وقال لهذه : أَنت رحمتي أَرحم بك من أَشاء
ولكلٍّ واحدة منكما ملؤها » .[1]

وفي رواية :

« تحاجَّت النَّار والجنَّة :
فقالت النَّار : أوثرت بالمتكبِّرين والمتجبِّرين
وقالت الجنَّة : فما لي لا يدخلني إلاَّ ضعفاء النَّاس وسقطهم وعجزهم ؟
فقال الله للجنة : أَنت رحمتي أَرحم بك من أَشاء من عبادي .
وقال للنار : أَنت عذابي أُعذِّب بك من أَشاء من عبادي ولكلٍّ واحدة منكما ملؤها » .[2]

صورة طريفة تقوم على التَّشخيص والحوار .

فالجنَّة شخص يتكلَّم ، والنَّار كذلك .

وتبدأ النَّار بالافتخار فتقول : إنَّني أُوثرت بالجبَّارين والمتكبِّرين والأَكابر . . إنَّ هؤلاء هم الذِّين يدخلون إلى رحابي ، ويقيمون في ربوعي .

ومنطلق الفخر منطلق دنيويّ لا يعير للّمعاني حرمة ولا يلتفت إليها أيَّ التفات.

فترد الجنَّة ـ في الرِّواية الأُولى ـ مستخدمة مقياساً آخر فتقول :

أَما أَنا فيدخلني الضعفاء والمساكين ، فإذا كنت يا أَيَّتها النَّار تتأبين أَنْ ينزل فيك هؤلاء النَّاس الفضلاء الطَّيِّبون فإنَّني لفخورة بهم أَعظم الفخر ، لأَنَّ فيهم الخير الكثير .

وفي الرِّواية الثَّانية تبدو الجنَّة كأَنَّها تريد أَنْ يكون الجواب على هذا الفخر الكاذب من قبل الله جلَّ جلاله فتقول :

---

(١) صحيح مسلم ١٧ / ١٨٠
(٢) صحيح مسلم ١٧ / ١٨١ ـ ١٨٢ .

فمالي أنا لا يدخلني إلا ضعفاء النَّاس وسقطهم ؟

وهنا يأتي الحكم الرَّباني يقرِّر لكلٍّ منهما طبيعتها : فالجنَّة رحمة الله يرحم بها من يشاء ، والنَّار عذاب الله يعذب بها من يشاء ، ولكلٍّ منهما أنْ تمتلىء بسكَّانها ولا رادَّ لحكمه .

الصُّورة هنا صورة مفاخرة غيبيِّة كان من خلالها التَّشخيص ، وكان من خلالها تقرير أنَّ الجنَّة رحمة الله ، وأنَّ النَّار عذابه تبارك وتعالى .

عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ :

«يجاء بالموت يوم القيامة كأنَّهُ كبش أَملح ، فيوقف بين الجنَّة والنَّار

ـ فيقال : يا أَهل الجنَّة هل تعرفون هذا ؟

فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم . هذا الموت

ويقال : يا أَهل النَّار هل تعرفون هذا ؟

فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم . هذا الموت »

فيؤمر به فيذبح ، ثمَّ يقال : يا أَهل الجنَّة خلود فلا موت .

ويا أَهل النَّار خلود فلا موت»

قال : ثمَّ قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذْ قضي الأَمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾[١] وأشار بيده إلى الدُّنيا[٢] .

وفي رواية عن ابن عمر:

«فيزداد أهل الجنَّة فرحاً إلى فرحهم

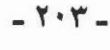
ويزداد أَهل النَّار حزناً إلى حزنهم »[٣]

الموت قاهر النَّاس . . . وهادم اللَّذات . . . وعدو الثَّكالى والأَرامل

---

(١) سورة مريم ٣٩
(٢) صحيح مسلم ١٧/ ١٨٥
(٣) صحيح مسلم ١٧/ ١٨٥





واليتامى . . وهو في الوقت نفسه بالنِّسبة إلى عدد من الزَّمنى المصابـين ، والمرضى المقعدين والمنكوبين البائسين والمعذبين المضطهدين نعمة من النِّعم .

وهكذا يكون شأنه في الآخرة . . فهو بالنِّسبة لأَهل النَّار أَمنية يطلبونها ولا يعطونها﴿ ونادوا : يا مالك لِيَقْضِ علينا ربك . قال : إنَّكم ماكثون﴾[1] .

أمَّا بالنِّسبة لأَهل الجنَّة أَهل النَّعيم المقيم فالموت شيء ممقوت ، فعندما يذبح يسعد هؤلاء بقدر ما يحزن الأَوَّلون ويزداد أَهل الجنَّة فرحا إلى فرحهم .

ويزداد أَهل النَّار حزنا إلى حزنهم .

والحديث يعرض علينا موت الموت بمشهد رائع ، فهو يؤتي به يوم القيامة في موضع بين الجنَّة والنَّار حتَّى يراه الفريقان ويسأَل أَهل الجنَّة وأَهل النَّار : هل تعرفون هذا ؟

ويجيب الفريقان بأَنهَّما يعرفانه ويسمِّيانـه فيقـول كلٌّ منهما : « نعـم . هذا الموت » . . . لقد استويا في معرفته لأَنَّ الموت حالة يمرُّ فيها كلٌّ مخلوق قبل أَنْ يصل إلى هذا الدَّار ثُمَّ يؤمر به فيذبح .

وفي هذا العرض صورة متحرِّكة :

« يؤتى به ويوقف به وينادى أَهل الجنَّة وأَهل النَّار ويشرئبُّون وينظرون فيؤمر به فيذبح ! فيزداد أَهل الجنَّة فرحاً ويزداد أَهل النَّار حزناً » .

كلُّ هذه الأَفعال تذكَر بصيغة المضارع مبالغة في إضفاء الواقعية حتَّى تبـدو أَحداثها وكأَنهَّا تجري الآن .

وفي هذا النَّص حوار يزيد من الحيويَّة في النَّص .

وفيه الإِشارة وفيه الاستشهاد بالقرآن﴿ وأَنذرهم يوم الحسرة . . . ﴾ .

---

(١) الزُّخرف ٧٧

والصُّورة الَّتي صوِّر بها الموت في النَّص هي صورة الكبش الأملح ، ويناسب الذَّبح الكبش الأملح ولذلك كان أداة إعدام الموت .

وهذا من التَّناسق في أجزاء الصُّورة .

وذكر أهل النَّار والجنَّة والفرح ممَّا يزيد الوضوح في الصُّورة . . . .

عن أنس قال قال رسول الله ﷺ :

«يؤتى بأنعم أهل الدُّنيا من أهل النَّار يوم القيامة ، فيصبغ في النَّار صبغة ثمَّ يقال :

- يا بن آدم ! هل رأيت خيراً قطّ ؟ هل مرَّ بك نعيم قطّ ؟
- فيقول : لا والله يا ربّ !

ويؤتى بأشدِّ النَّاس بؤساً في الدُّنيا من أهل الجنَّة ، فيصبغ صبغة في الجنَّة فيقال له :

- يا بن آدم ! هل رأيت بؤساً قطّ ؟ هل مرَّ بك شدَّة قطّ ؟
- فيقول : لا والله يا ربِّ ! ما مرَّ بي بؤس قطّ ولا رأيت شدَّة قطّ »[1]

إنَّ النَّعيم البالغ ينسي صاحبه ما كان لاقى من الشَّدائد .
وإنَّ البؤس الشَّديد ينسي صاحبه ما كان لاقى من النَّعيم .

فيؤتى يوم القيامة بأنعم أهل الدُّنيا من أهل النَّار فيصبغ صبغة في النَّار ، فيرى شيئاً ينسيه كلَّ ما كان قد رأى من مظاهر النَّعيم .

فيسأله ربُّه ، وهو أعلم به ، هل رأيت خيراً قطّ ؟

هل مرَّ بك نعيم قطّ ؟

فيقول : لا والله يا ربّ . نعم يقسم أنَّه ما رأى خيراً ولا نعيماً ، وما هو بكاذب ، ولكنَّ العذاب الشَّديد أنساه أنَّه كان أنعم أهل الدُّنيا .

(١) صحيح مسلم بشرح النَّووي ١٧/ ١٤٩ (وانظر رياض الصَّالحين ص ٣٣١) .





إنَّ هذا تصوير للنَّعيم العظيم في الجنَّة، وللبؤس الشَّديد في النَّار. فهذا الَّذي أنساه هو صبغة واحدة . . . فكيف حال العذاب الدَّائم المستمرّ أبد الآبدين .

عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ :

«أمَّا أهل النَّار الَّذين هم أهلها فإنهَّم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكنْ ناس أصابتهم النَّار بذنوبهم ـ أو قال بخطاياهم ـ فأماتهم إماتة حتَّى إذا كانوا فحماً أذن بالشَّفاعة ، فجيء بهم ضبائر ضبائر[1] فبثُّوا على أنهار الجنَّة ، ثمَّ قيل : يا أهل الجنَّة أفيضوا عليهم ، فينبتون نبات الحبَّة في حميل السَّيل » .

فقال رجل من القوم : كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية[2] .

وفي رواية البخاري :

«يدخل أهل الجنَّة الجنة وأهل النَّار النَّار، ثمَّ يقول الله تعالى: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبَّة من خردل من إيمان، فيخرجون منها قد اسودُّوا فيلقون في نهر الحياة، فينبتون كما تنبت الحبَّة في جانب السَّيل، ألَم ترأنهَّا تخرج صفراء ملتوية»[3]

وفي رواية أحمد للحديث :

« سيخرج قوم من النَّار أُحرقوا فكانوا مثل الحمم[4] ، ولا يزال أهل الجنَّة يرشُّون عليهم الماء حتى ينبتوا كما ينبت الغثاء[5] في حميل السَّيل »[6]

أهل النَّار قسمان :

قسم هم أهلها ، وهؤلاء لا يموتون فيها ولا يحيون.

---

(١) جماعات في تفرقة .
(٢) صحيح مسلم بشرح النَّووي ٣/ ٣٧ ـ ٣٨ .
(٣) صحيح البخاري ١/ ١٢ ط كتاب الشَّعب .
(٤) الفحم
(٥) ما يجيء فوق السَّيل ممَّا يحمله من الزَّبد والوسخ وغيره.
(٦) مسند أحمد ٣/ ٧٧ ( انظر أقيسة النبيِّ ١٥٥) .

وقسم أَصابتهم النَّار بذنوبهم ، ولكنْ في قلوبهم إيمان مهما قلَّ حتَّى ولو كان مثقال ذرَّة فإنَّه لا يجعلهم من أَهلها ، فيعذَّبون لخطاياهم عذاباً يصل بهم إلى درجة الموت لشدَّته . . . تحترق أجسامهم وتصبح كالفحم . . .

وعندما يؤذن بالشَّفاعة فإنهَّم يؤتى بهم جماعات ، فبثُّوا على أنهار الجنَّة .

ولا يزال أهل الجنَّة يفيضون عليهم من الماء ويرشُّونهم فينبتون كما تنبت الحبَّة في جانب السَّيل .

صورة بدويَّة كثر ما يلقاها المرء في البادية في أعقاب الأَمطار نبات ينبت في حميل السَّيل وغثائه .

حتَّى أنَّ رجلاً لما سمع النَّبيﷺ يقول ذلك قال : كأنَّ رسول الله ﷺ قد كان في البادية .

وفي الصُّورة مثال للقلَّة وهو مثقال حبَّة الخردل من الإيمان .

وهناك صورة أُخرى رواها جابر جاء فيها :

«يخرجون من النَّار بعد أنْ يكونوا فيها ، فيخرجون كأَنهَّم عيدان السَّماسم قال فيدخلون نهراً من أنهار الجنَّة فيغتسلون فيه فيخرجون كأَنهَّم القراطيس » .

المعنى السَّابق نفسه عرضه الرَّسولﷺ بصورة أُخرى . . . . إنهَّم يخرجون من النَّار كأنهَّم عيدان السَّماسم .

قال ابن الأَثير :

« معناه ـ والله أعلم ـ أنَّ السَّماسم جمع سمسم ، وعيدانه تراها إذا قلعت وتركت في الشَّمس ليؤخذ حبُّها دقاقاً سودا كأنهَّا محترقة ، فشبَّه بها هؤلاء » .

وفي استخدام عيدان السَّماسم في التَّشبيه تبرز الدِّقة في الدَّلالة على السَّواد وقابليَّة التَّكسر .





ثمَّ يضرب الجسر على جهنَّم ( في آخر الحديث قال مسلم : قال أَبو سعيد : بلغني أَنَّ الجسر أَدقُّ من الشّعر وأحدُّ من السَّيف ، وليس في حديث اللَّيث) وتحلُّ الشَّفاعة ويقولون : اللهمّ سلِّم سلِّم .

ـ قيل : يا رسول الله ! وما الجسر ؟

ـ قال : دحض[1] مزلَّة ، فيه خطاطيف وكلاليب وحسك[2] « تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السَّعدان » ، فيمرُّ المؤمنون كطرف العين ، وكالبرق وكالرِّيح وكالطَّير وكأجاويد الخيل والرِّكاب .

فناج مسلم ، ومخدوش مرسل ، ومكدوس في نار جهنم . حتَّى إذا خلص المؤمنون من النَّار، فوالّذي نفسي بيده ما منكم من أُحد بأشدّ مُنَاشدةً لله في استقصاء الحقِّ من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار.

ـ يقولون : ربنا كانوا يصومون معنا ، ويصلون ، ويحجون .

ـ فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم .

فتحرم صورهم على النار ، فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه .

ـ ثمَّ يقولون : ربَّنا ! ما بقى فيها أحد ممن أمرتنا به .

ـ فيقول : ارجعوا ، فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأَخرجوه .

فيخرجون خلقاً كثيراً .

ـ ثمَّ يقولون : ربَّنا ! لم نذر فيها أَحداً ممَّن أَمرتنا .

---

(١) الدَّحض والمزلَّة : بمعني واحد ، وهو الموضع الَّذي تزلُّ فيه الأَقدام ولا تستقرّ .

(٢) الخطاطيف : جمع خطَّاف . والكلاليب : جمع كلّوب وهي حديدة معطوفة الرَّأس يعلّق فيها اللّحم . والحسك : شوك صلب من حديد . والسَّعدان نبت معروف فيه شوك وقد يكون مرعى للإبل ، ومنه المثل : « مرعى ولا كالسَّعدان » .

ـ ثمَّ يقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيرا .

ـ ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها ممَّن أمرتنا أحداً .

ـ ثم يقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرَّة من خير فأَخرجوه . فيخرجون خلقاً كثيراً .

ثمَّ يقولون : ربَّنا لم نذر فيها خيراً[1] .

« وكان أَبو سعيد الخدريّ يقول : إن لم تصدِّقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إنْ شئتم : ﴿ إنَّ الله لا يظلم مثقال ذرَّة وإنْ تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾[2] .

ـ فيقول الله عزَّ وجلَّ : شفعت الملائكة ، وشفع النَّبيون ، وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلاَّ أرحم الرَّاحمين .

فيقبض قبضة من النَّار ، فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قطّ قد عادوا حمماً فيلقيهم في نهر في أفواه الجنَّة يقال له : نهر الحياة ، فيخرجون كما تخرج الحبَّة في حميل السَّيل[3] ؛ ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشَّجر ، ما يكون إلى الشَّمس أُصيفر وأُخيضر . وما يكون منها إلى الظِّل يكون أَبيض[4] .

فقالوا : يا رسول الله كأَنَّك كنت ترعى بالبادية .

قال : فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم ، يعرفهم أَهل الجنَّة هؤلاء عتقاء الله[5] الَّذين أَدخلهم الجنَّة بغير عمل عملوه ولا خير قدَّموه .

---

(١) أي صاحب خير .

(٢) سورة النِّساء الآية ٤٠

(٣) الحبَّة بالكسر : بذور البقول وحبُّ الرَّياحين .

(٤) ما يكون (في الموضعين الأولين ) فكان فيهما تامةً ليس لها خبر . ومعناها : ما يقع . وقوله يكون أبيض : فالفعل يكون في هذا الموضع ناقص ، وأبيض : خبره .

(٥) أي يقولون : هؤلاء عتقاء الله .

فإذا اغتسلوا من نهر الجنَّة خرجوا كأَنهَّم القراطيس في بياضها .

عن أبي سعيد الخدريّ أَنَّ ناساً في زمن رسول الله ﷺ قالوا :

« يا رسول الله ! هل نرى ربَّنا يوم القيامة ؟

ـ قال رسول الله ﷺ : نعم . قال : هل تضارُّون في رؤية الشَّمس بالظَّهيرة صحواً ليس معها سحاب؟ وهل تضارُّن في رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فيها سحاب؟

ـ قالوا : لا يا رسول الله .

ـ قال : ما تضارُّون في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلاَّ كما تضارُّون في رؤية أحدهما .

إذا كان يوم القيامة أَذَّن مؤذِّن : ليتّبع كلُّ أُمّة ما كانت تعبد. فلا يبقى أَحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأَصنام والأَنصاب إلاَّ يتساقطون في النَّار.

حتَّى إذا لم يبق إلاَّ من كان يعبد الله من برٍّ وفاجر وغُبَّر[1] أَهل الكتاب .

فيدعى اليهود، فيقال لهم : ما كنتم تعبدون؟

ـ قالوا : كنَّا نعبد عزير ابن الله .

ـ فيقال : كذبتم . ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد . فماذا تبغون ؟

ـ قالوا : عطشنا يا ربّنا ! فاسقنا .

ـ فيشار إليهم : ألا تردُون ؟

فيحشرون إلى النَّار كأَنهَّا سراب ، يَحْطِمُ بعضها بعضاً ، فيتساقطون في النَّار.

ثم يدعى النَّصارى فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟

ـ قالوا : كنَّا نعبد المسيح ابن الله .

ـ فيقال لهم : كذبتم ما اتخَّذ الله من صاحبة ولا ولد .

فيقال لهم : ماذا تبغون ؟

---

(١) جمع غابر أيْ بقاياهم .

- فيقولون: عطشنا يا ربَّنا! فاسقنا.
- قال فيشار إليهم: ألا تردون؟

فيحشرون إلى جهنَّم، كأنهَّا سراب يحطِم بعضها بعضاً، فيتساقطون في النَّار.

حتَّى إذا لم يبق إلاَّ من كان يعبد الله تعالى من برٍّ وفاجر أتاهم ربُّ العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من الَّتي رأوه فيها قال:

- فما تنتظرون؟ تتبع كلُّ أُمَّة ما كانت تعبد.
- قالوا: يا ربَّنا فارقنا النَّاس في الدُّنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم.
- فيقول: أنا ربُّكم.
- فيقولون: نعوذ بالله منك. لا نشرك بالله شيئاً «مرتين أو ثلاثاً» حتَّى إنَّ بعضهم ليكاد أنْ ينقلب.
- فيقول: هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها؟
- فيقولون: نعم.

فيكشف عن ساق[1] فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلاَّ أذن الله له بالسُّجود، ولا يبقى من كان يسجد اتقاءً ورياءً إلاَّ جعل الله ظهره طبقة واحدة كلَّما أراد أنْ يسجد خرَّ على قفاه.

ثمَّ يرفعون رؤوسهم وقد تحوَّل في صورته الَّتي رأوه فيها أوَّل مرَّة.

- فقال: أنا ربُّكم.
- فيقولون: أنت ربُّنا.

---

(١) فسرَّ ابن عبَّاس وجمهور أهل اللُّغة وغريب الحديث (السَّاق) هنا بالشدَّة، أيْ يكشف عن شدَّة وأمر مهول، وهذا مثل تضربه العرب لشدَّة الأمر، ولهذا يقولون: قامت الحرب على ساق وأصله أنَّ الإنسان إذا وقع في أمر شديد شمَّر ساعده وكشف عن ساقه للاهتمام به. وقيل: (السَّاق) النّور. وقيل: (السَّاق) علامة بينه وبين المؤمنين من ظهور جماعة من الملائكة.





ـ ثمَّ يقول : ادخلوا الجنَّة فما رأيتموه فهو لكم .
ـ فيقولون : ربَّنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين .
ـ فيقول : لكم عندي أفضل من هذا .
ـ فيقولون : يا ربَّنا ! أيُّ شيء أفضل من هذا ؟
ـ فيقول : رضاي ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً »[١]

يقرِّر هذا الحديث الجميل رحمة الله الواسعة وعقابه الأليم :

عاقبة الَّذين يعبدون أحداً أو شيئاً من دون الله هي نار جهنَّم . ولقد عرض رسول الله ﷺ هذا المعنى بهذه الصُّورة الرَّائعة واصفاً أحداثها بتفصيل دقيق ، إنهَّا غيب من الغيب ستكون كما أخبر بها صلوات الله وسلامه عليه .

وقد بدأ بعباد الأصنام، ثم ثنّى باليهود، ثمَّ ذكر النَّصارى . . . وهؤلاء يمثِّلون أهلَ النَّار، وفي أثناء حديثه عنهم مرَّت أُمور عدَّة تتَّصل بعذاب النَّار:

« إذا كان يوم القيامة أذَّن مؤذِّن : ليتبع كل أُمَّة ما كانت تعبد فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلاَّ يتساقطون في النَّار » .

ولنا أنْ نتصوَّر تجمّع فئات من النَّاس وراء معبودات باطلة . . . ثمَّ السُّقوط واحدة بعد أُخرى .

صورة تبدأ بسقوط الأصنام والأنصاب ويلحقها سقوط عبادهما في النَّار . ويسبق ذلك كلَّه نداء مؤذِّن يأمر بالتَّجمع .

وبعد أنْ يحيق العذاب بالكفرة عبَّاد الأصنام والأنصاب يتحدَّث النَّص عن مصير اليهود والنَّصارى :

« حتى إذا لم يبق إلاَّ من كان يعبدُ الله من برٍّ وفاجر وغبَّر أهل الكتاب[٢] .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النَّووي ٣/ ٢٥ ـ ٣٣ (ط عبد الباقي ١/ ١٦٧ ـ ١٧١) وقد أخرجه البخاري بنحو مقارب ٩/ ١٥٨ ـ ١٦١ ط الشَّعب .
(٢) أي بقاياهم .

فيدعى اليهود ، فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟

ـ قالوا : كنَّا نعبد عزيز ابن الله .

ـ فيقال : كذبتم ما اتخَّذ الله من صاحبه ولا ولد . فما تبغون؟

ـ قالوا : عطشنا يا ربَّنا فاسقنا .

ـ فيشار إليهم : ألا تردون ؟

فيحشرون إلى النَّار كأنهَّا سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النَّار .

يبدأُ الحوار مع اليهود بسؤالهم : من كانوا يعبدون؟ فيجيبون أنهَّم كانوا يعبدون عزيراً ويدعون أنَّه ابن الله ، تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً ، فيكذبون ثمَّ يسألون : ماذا تبغون ؟ فيشكون العطش ويطلبون الإغاثة . ويشار إليهم ليردوا النَّار الَّتي بدت كأنهَّا سراب ، والسراب يحسبه الظَّمآن ماء حتَّى إذا جاءه لم يجد إلاَّ نار جهنَّم الَّتي يحطم بعضها بعضاً ، والعياذ بالله تعالى .

وهكذا يكون الحال مع النَّصارى الَّذين يتساقطون في النَّار بعد أن يكذِّبوا في دعواهم أنَّ المسيح ابن الله .

هذا المشهد يشغل الحوار منه الجزء الأكبر، وينقطع الحوار لسقوطهم في النَّار .

ويبقى الَّذين كانوا يعبدون الله تبارك وتعالى من برٍّ وفاجر ، وبعضهم صادق وبعضهم كاذب .

وبعد حوار مع الرَّب تبارك وتعالى يكون اختبار تكشف فيه حقيقة هؤلاء النَّاس ويعرف الصادقون فيه والكاذبون يقول ﷺ :

« فيكشف عن ساق ، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلاَّ أذِنَ الله له بالسُّجود ، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلاَّ جعل الله ظهره طبقة واحدة كلَّما أراد أنْ يسجد خرَّ على قفاه » .

يقول تعالى :﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السُّجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلَّة وقد كانوا يدعون إلى السُّجود وهم سالمون ﴾[1] .

صورة قرآنية ولكنَّنا نجد في الحديث تفصيلاً لها ، إنَّ أولئك المرائين والمنافقين الَّذين يقفون في صفِّ المؤمنين ، والَّذين لم يكونوا يسجدون من تلقاء أنفسهم ، يجعل الله ظهر الواحد منهم طبقة واحدة، فكلَّما أراد أنْ يسجد خرَّ على قفاه، فيفتضح أمره ويظهر أنَّه ليس من الصادقين.

إنَّ المرء ليشفق على هذا الإنسان ، ويضحك من حركته الَّتي تبدو نشازاً في صفِّ السَّاجدين .

وههنا تناسب وتلاؤم بين جزئيات الصُّورة :

فهذا المنافق كان في صفِّ المؤمنين في الدُّنيا، وأراد أنْ يكرِّر التَّمثيلية مرَّة أخرى في يوم القيامة ، ولكنَّ الخزي يعلوه ويكشفه بكلِّ وضوح : النَّاس يسجدون لله وهو يخرُّ على قفاه !!

ولئن كان في الدُّنيا يسخر من المؤمنين ويستهزىء بهم إنَّه لحريٌّ أنْ يكون موضع السُّخرية والاستهزاء في الآخرة وفي الحديث تعليل لهذه الظَّاهرة المخزية لصاحبها المضحكة للرّائين . . . إنَّ ظهره طبقةً واحدةً .

وفي الحديث تصوير للصِّراط :

إنَّه جسر على جهنَّم، أدقُّ من الشَّعرة وأحدُّ من السَّيف إنَّه دحض ومزلَّة، تزلُّ فيه الأقدام ولا تستقرُّ ، فيه خطاطيف وكلاليب وشوك .

يمرُّ من فوقه المؤمنون زمراً: فبعضهم كطرف العين، وبعضهم كالبرق، وبعضهم كالرِّيح ، وبعضهم كالطير ، وبعضهم كأجاويد الخيل والرِّكاب . فناج مسلم ، ومخدوش مرسل ، ومكدوس في نار جهنَّم .

---

(١) سورة ن والقلم : ٤٢ ـ ٤٣ .

صورة تعتمد على الوصف والتَّشبيه والموازنة .

فالصِّراط موضع تزلُّ فيه الأَقدام ، وفيه خطاطيف . . . وهذا وصف ، والصِّراط أَدَقُّ من الشَّعرة وأَحدُّ من السِّيف . . . وهذه موازنة ، والنَّاس يمرُّون كطرف العين وكالبرق وكالرِّيح . . . وهذه تشبيهات .

وفي آخر الحديث صورة تنبىء عن رحمة الله الواسعة ومغفرته العظمى ، فرسول الله ﷺ والأَنبياء والملائكة والمؤمنون كلُّهم يشفعون . . . ويخرجون من النَّار خلقاً كثيرا ، وذكر الحديث بالتَّفصيل جهود الرَّسول والمؤمنين في موضوع الشَّفاعة . . . ثمَّ يقول الله عزَّ وجلَّ :

«شفعت الملائكة وشفع النَّبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلاَّ أرحم الرَّاحمين، فيقبض قبضة من النَّار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قطّ. »

وفي هذه القطعة من الحديث صور فنيَّة مزدحمة :

فهؤلاء الَّذين يخرجهم الله بقبضته من النَّار قد صاروا فحماً . . . فيلقيهم الله في نهر في أَفواه الجنَّة يقال له نهر الحياة . . . . فيخرجون كما تخرج الحبَّة في حميل السَّيل ما يقع في ضوء الشَّمس يكون أَصفر أو أُخضر، وما يقع في الظِّل يكون أَبيض .

وصورة الحبَّة في حميل السَّيل صورة بدويَّة استحوذت على إعجاب السَّامعين حتَّى قالوا :

«يا رسول الله كأَنَّك كنت ترعى بالبادية »

ذلك لأنَّه لا يقدر على مثل هذا الوصف إلاَّ من عاش في البادية يرعى ويشاهد مظهر السَّيل وما يعقبه.

وهؤلاء النَّاس بعد عمليَّة الغسل في نهر الحياة يخرجون كاللُّؤلؤ بياضاً ولمعاناً وإشراقاً وفي رقابهم الخواتم يعرفهم بها أَهل الجنَّة .

إنهَّا صور متراكبة متعدِّدة تدلُّ على عظيم رحمة الله وكبير مغفرته لمن كان في قلبه مثقال ذرَّة من إيمان .

ومادةُ الصُّور كلّها منتزعة من البيئة الَّتي يتذوَّقها المخاطبون ويعرفونها . وفيها من التَّناسق والانسجام الشَّيء الكثير .

عن أَبي هريرة أَنَّ ناساً قالوا لرسول الله ﷺ :

ـ يا رسول الله ! هل نرى ربَّنا يوم القيامة ؟

ـ فقال رسول الله ﷺ : هل تضارُّون[1] في رؤية القمر ليلة البدر ؟

ـ قالوا : لا ، يا رسول الله .
ـ قال : هل تضارُّون في الشَّمس ليس دونها سحاب ؟
ـ قالوا : لا ، يا رسول الله .
ـ قال : فإنَّكم ترونه كذلك ، يجمع الله النَّاس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه :

فيتبع من كان يعبد الشَّمس الشَّمس
ويتبع من كان يعبد القمر القمر
ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت
وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها .

فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون ، فيقول : أَنا ربُّكم

ـ فيقولون : نعوذ بالله منك . هذا مكاننا حتَّى يأتينا ربُّنا ، فإذا جاء ربُّنا عرفناه .

---

(١) أيْ هل تضارُّون غيركم في حالة الرُّؤية بزحمة أو مخالفة في الرُّؤية أَوْ غيرهما ( هذا إن كانت مشددة ) وإن كانت مخففةً فمعناها : هل يلحقكم في رؤيته ضير ، وهو الضرَّر .



فيأتيهم الله تعالى في صورته التي يعرفون فيقول : أنا ربُّكم .

ـ فيقولون : أنت ربُّنا .

فيتبعونه ، ويضرب الصرِّاط بين ظهري جهنَّم[١] ، فأكون أنا وأُمَّتي أوَّل من يجيز[٢] ولا يتكلَّم يومئذ إلاَّ الرُّسل ، ودعوى الرُّسل يومئذ : اللّهم سلّم سلّم . وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان .

هل رأيتم السَّعدان ؟

ـ قالوا : نعم يا رسول الله .

ـ قال : فإنهّا مثل شوك السَّعدان غير أنَّه لا يعلم ما قدر عظمها إلاَّ الله . تخطف النَّاس بأعمالهم .

فمنهم المؤمن بقي بعمله ، ومنهم المجازَى حتَّى ينجَّى . حتَّى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد ، وأراد أنْ يخرج برحمته من أراد من أهل النَّار أمر الملائكة أنْ يخرجوا من النَّار من كان لا يشرك بالله شيئاً ممَّن أراد الله تعالى أنْ يرحمه ممَّن يقول لا إله إلاَّ الله . فيعرفونهم في النَّار . يعرفونهم بأثر السُّجود ، تأكل النَّار من ابن آدم إلاَّ أثر السُّجود . حرَّم الله على النَّار أنْ تأكل أثر السُّجود ، فيخرجون من النَّار وقد امتحشوا[٣] ، فيصبُّ عليهم ماء الحياة فينبتون منه كما تنبت الحبَّة[٤] في حميل السَّيل[٥] .

ثُمَّ يفرغ الله تعالى من القضاء بين العباد ، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النَّار ، وهو آخر أهل الجنَّة دخولاً الجنَّة ، فيقول : أيْ ربِّ ! اصرف وجهي عن النَّار فإنَّه قد قشبني ريحها وأحرقني ذكاؤها[٦] . فيدعو ا ما شاء الله أنْ يدعوه .

---

(١) أيْ يمدُّ الصرِّاط عليها .

(٢) أي يكون أوَّل من يمضي عليه ويقطعه . يقال : أجزت الوادي وجزته لغتان بمعنى واحد .

(٣) أي احترقوا .

(٤) بكسر الحاء وهي بزر البقول والعشب .

(٥) حميل السَّيل : وهو ما جاء به السَّيل من طين ونحوه . ومعناه محمول السَّيل ، والمراد التَّشبيه في سرعة النبات وحسنه وطراوته .

(٦) قشبني : سمَّني وآذاني وأهلكني . وذكاؤها : لهيبها واشتعالها وشدَّة وهجها .





ـ ثُمَّ يقول الله تبارك وتعالى : هل عسيت إنْ فعلت ذلك بك أنْ تسأل غيره ؟
ـ فيقول : لا أسألك غيره. ويعطي ربَّه من عهود ومواثيق ما شاء الله .

فيصرف الله وجهه عن النَّار ، فإذا أَقبل على الجنَّة ورآها سكت ما شاء الله أَنْ يسكت ثُمَّ يقول :

ـ أَيْ ربِّ ! قدِّمني إلى باب الجنَّة.
ـ فيقول الله له : أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك لا تسأَلني غير الَّذي أَعطيتك ويلك يا بن آدم ! ما أَغدرك!!!
ـ فيقول : أَيْ ربِّ ! ويدعو الله حتَّى يقول له :
ـ فهل عسيت إنْ أعطيتك ذلك أَنْ تسأل غيره ؟
ـ فيقول : لا ، وعزَّتك . فيعطي ربَّه ما شاء الله من عهود ومواثيق . فيقدِّمه إلى باب الجنَّة .

فإذا قام على باب الجنَّة انفهقت[1] له الجنَّة فرأى ما فيها من الخير والسرُّور . فيسكت ما شاء الله أَنْ يسكت ثُمَّ يقول :

ـ أَيْ ربِّ ! أَدخلني الجنَّة .
ـ فيقول الله تبارك وتعالى له : أَليس قد أَعطيت عهودك ومواثيقك أَنْ لا تسأَل غير ما أُعطيت ؟ ويلك يابن آدم ما أَغدرك !!

ـ فيقول : أَيْ ربِّ ! لا أَكون أَشقى خلقك .

فلا يزال يدعو الله حتَّى يضحك الله تبارك وتعالى منه ، فإذا ضحك الله منه قال :

ـ ادخل الجنَّة .

فإذا دخلها قال الله له : تمنَّه .

---

(١) أي انفتحت واتسعت .




فيسأل ربَّه ويتمنَّى ، حتَّى إنَّ الله ليذكِّره من كذا وكذا حتَّى إذا انقطعت به الأماني قال الله تعالى : ذلك لك ومثله معه » .

.... قال أبو هريرة : وذلك آخر أَهل الجنَّة دخولاً الجنَّة[1] .

هذا الحديث في معنى الحديث السَّابق ويعرض الصُّور السَّابقة ويبسط بعضها ويجمل بعضها ، وفيه وصف الرَّجل الَّذي هو آخر أهل الجنَّة دخولاً[2] .

والحديث مشهد حيٌّ استكمل كلَّ عناصر الحيويَّة ، فالحوار المثير ، والمفاجآت الضَّخمة ، والتَّشبيهات الرَّائعة ، كلُّ ذلك مِمَّا زخر به هذا النَّص الجميل .

وفيه أُمور خمسة هي :

١ ـ رؤية الله عزَّ وجلَّ .

٢ ـ ومصير المؤمنين والكافرين .

٣ ـ والمرور على الصِّراط .

٤ ـ وإخراج كل من يقول لا إله إلاَّ الله من النَّار .

٥ ـ ووصف آخر أَهل الجنَّة دخولاً .

وهي أُمور غيبيَّة عرضها علينا هذا الحديث الرَّائع عرضاً جعلنا كأنَّنا نراها بأعيننا .

فرؤية الله تكون مشابهة لرؤيتنا القمر ليلة البدر أو الشَّمس ليس دونهما سحاب في الوضوح وزوال المشقَّة والاختلاف لا نضار فيها.

ثُمَّ مشهد اجتماع النَّاس مؤمنين وكافرين وقول الله : من كان يعبد شيئاً فليتبعه ويبدو أَمام أعين خيالنا انحياز عبَّاد الشَّمس وراء الشَّمس ، واتبّاع عبَّاد القمر

---

(١) صحيح مسلم بشرح النَّووي ٣/ ١٧ ـ ٢٥ (ط عبد الباقي ١/ ١٦٧ ـ ١٦٣) وصحيح البخاري ١/ ١٩٥ ـ ١٩٧ باب فضل السُّجود و٩/ ٥٦ ط كتاب الشَّعب )

(٢) وقد مرَّ بنا في (وصف الجنَّة) حديث ابن مسعود في آخر أهل الجنَّة دخولاً ( أنظر ص ١٨١ وما بعدها من هذا الكتاب ).





للقّمر ، وهكذا عبَّاد الطَّواغيت الأُخرى . . . ولا يذكر النَّص إلى أَين ينتهي بهم السَّير لأنَّه معروف . . . إنَّه ينتهي بهم إلى جهنَّم .

وهذه الصُّورة تختلف عن الصُّورة السابقة لأنَّنا ـ هنا ـ نشاهدهم في مسير يتبعون معبودهم . . . بينما رأيناهم ـ هناك ـ يتساقطون في النَّار .

وتبقى هذه الأُمة ، فيها منافقوها ، لأَنَّ المنافقين يدَّعون أَنهَّم يعبدون الله . . . ولنا أَنْ نعجب أَشدَّ العجب . . . كيف يستمرون في طريق النِّفاق حتَّى في يوم القيامة !!!

ثُمَّ يعرض لنا النَّص مقابلة بين المؤمنين وربهِّم . . . فيأْتيهم تبارك وتعالى في صورة غير صورته الَّتي يعرفونها . . . ونسمع حواراً موجزاً .

يقول : أنا ربُكم .

فيقولون : نعوذ بالله منك . . . إنَّنا نعرف ربَّنا . . لن نتبعك . . إنَّنا لن نبرح مكاننا هذا حتَّى يأتينا ربُّنا . . . فإذا جاء عرفناه .

وعندئذٍ يأْتيهم الله تعالى في صورته . . . ويجري حوار موجز بينهم وبينه تبارك وتعالى على نحو ما سمعنا . . ثُمَّ يتعبونه . فينجو المؤمنون ويهلك المنافقون . . إذ تخطف النَّاس أَعمالهم .

وأَمَّا الصرِّاط فينصب فوق جهنَّم . . . والمرور فوقه صعب رهيب . . . . إنَّ تهيُّبَ الموقف أسكت النَّاس وربط أُلسنتهم ، فلا يتكلَّم يومئذ أُحد إلاَّ الرُّسل ، وكلامهم دعاء وتضرُّع :

اللهُمَّ سلِّم سلِّم .

ويمرُّ صلوات الله وسلامه عليه ، ويكون هو وأُمَّته أَوَّل من يجوزه . . .

وفي جهنَّم كلاليب مثل شوك السَّعدان يبدو أَنهَّا تكون قريبة من الصراط . . . وهذه الكلاليب تخطف النَّاس بسبب أَعمالهم .

وشوك السَّعدان يعرفه العرب حق المعرفة، يكثر في بلادهم ومراعيهم، وضربوا به الأمثال، ولكن النبي ﷺ يستدرك فيقول: «غير أنه لا يعلم ما قدر عظمها إلاَّ الله»، إنهَّا تشبه شوك السَّعدان ولكنَّ عظمها وضخامتها أمر لا يعلمه إلاَّ الله.

والمؤمن الَّذي يعمل الصَّالحات ينجو، ويبقى بعيداً عن هذه الكلاليب المفجعة، وأمّا المؤمن المجازى فيعذَّب شيئاً من العذاب حتَّى يقدِّر الله له النَّجاة... وقد ذكر رسول الله ﷺ أن هؤلاء المؤمنين الذين وقعت منهم بعض المعاصي التي توجب مجازاتهم في النار يحترق كل شيء في أجسامهم إلاَّ أثر السُّجود...

ويأمر الله عز وجلَّ الملائكة أنْ يخرجوا من كان لا يشرك بالله شيئاً من الَّذين أراد الله أنْ يرحمهم ممَّن يقول لا إله إلاَّ الله.

فيعرفونهم بأثر السُّجود الَّذي لم يحترق... فيخرجون وقد احترقوا. وقد دلَّ هذا على أنَّ من علامات الإيمان أداء الصَّلاة وعلى التَّلازم بينهما.

وعندما يخرجون من النَّار يصبُّ عليهم ماء الحياة، فينبتون كما ينبت العشب في حميل السيل لأنه يكون تربة خصبة يسرع نمو النبات فيه، ويبدو نضرا رائع الحسن وأخيرا نأتي الى اخر أهل الجنَّة دخولا:

إنه رجل مقبل بوجهه على النار آذاه ريحها وأهلكه وأحرقه لهيبها.. ها هو ذا يتوجه إلى الله بالدُّعاء ويطلب منه طلباً، فيستجيب الله له بعد أنْ يأخذ منه العهود ألاَّ يطلب غيره، ويتكرَّر الطلب والمواثيق والاستجابة مرَّات... ثُمَّ يغمره الله بفيض من كرمه الواسع ويطلب الله تبارك وتعالى من هذا الرَّجل أنْ يتمنَّى فيؤتيه ذلك ومثله معه.

إنَّ هذا المشهد قصَّة رائعة تصور دقة الحساب وعظيم المغفرة والثواب وجليل الرحمة والرأفة ونزعة الانسان في الاستكثار من الخير، ورهبة الموقف العصيب.







## (٤) الملائكة .

الملائكة أَجسام نوارنيَّة ، لا يعصون الله ما أَمرهم ويفعلون ما يؤمرون . والإِيمان بهم ركن من أَركان الإِيمان ، وسنورد أَحاديث تتَّصل بهم وتدور حول أَمرين :

- وصفهم ووصف سكناهم وحركاتهم وصلاتهم .
- وقيامهم بالدُّعاء للصَّالحين والاستغفار لهم وكتابة أَعمالهم وحراستهم .

**

- عن أبي ذر قال ، قالﷺ :

« إنِّي أَرى ما لا ترون : أَطَّت السَّماء وحقَّ لها أَنْ تئطّ ، ما فيها موضع أَربع أَصابع إلاَّ وملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرا ، وما تلذَّذتم بالنِّساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات[٢] تجأرون[٣] إلى الله تعالى »[٤] .

السَّماء موضع إقامة الملائكة ، وهي ممتلئة بهم . . . وهم هناك ساجدون حتَّى بلغت كثرتهم مبلغاً جعل السَّماء تئطّ أطيطاً ،وحقّ لها أَنْ تئطّ، ذلك أَنَّه ليس هناك موضع أَربع أَصابع إلاّ وملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى . فالحديث فيه صورتان صورة أطيط السَّماء لازدحام الملائكة فيها وهي تعتمد على الصَّوت ، وصورة جاءت مسوّغة للأطيط وهي ازدحام السماء بالملائكة « وحقّ لها أَنْ تئط ما فيها موضع أَربع أَصابع إلاَّ وملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى » .

والتَّعبير بموضع أَربع أَصابع يريد به القلَّة والصِّغر في المساحة .

---

(١) الأطيط : صوت الرَّحل ، والقتب وشبههما ،ومعناه أنَّ كثرة من في السَّماء من الملائكة العابدين قد أثقلتها حتى أطَّت .

(٢) الصَّعدات : الطُّرقات .

(٣) تجأرون : تستغيثون .

(٤) جامع الترّمذي ٣/ ٢٥٩ وانظر رياض الصَّالحين ٢٩٦ ـ ٢٩٧ .

ويربط رسول الله ﷺ هذا الخبر الغيبي بأُمور أخرى، ثُمَّ ينتهي بالموعظة التي جاءت بعد أن استطاع أَنْ ينفذ ﷺ إلى قلوب السَّامعين. فإنَّ الخوف من الله يكون على قدر العلم ﴿ إنَّما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[1]، فلو علم النَّاس ما علم رسول الله ﷺ لازداد خوفهم من الله، ولبكوا كثيراً ولامتنعوا عن اللَّذائذ المباحةِ... لو أَنهَّم كانوا يعلمون ما يعلم رسول الله لتركوا حياة اللَّهو والعبث ولأَقبلوا على الله يتضرَّعون أَنْ يجيرهم من عذابه ويقيهم أَهوال يوم القيامة.

إنَّه ﷺ يرى ما لا يرون، ويسمع ما لا يسمعون، ويعلم ما لا يعلمون.

ـ وعن أَبي الدَّرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

« من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنَّة، وإنَّ الملائكة لتضع أَجنحتها رضًى لطالب العلم. وإنَّ العالم ليستغفر له من في السَّموات ومن في الأَرض حتَّى الحيتان في الماء.

وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإنَّ العلماء ورثة الأَنبياء، وإنَّ الأَنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً إنَّما ورثوا العلم، فمن أَخذ به فقد أَخذ بحظٍ وافر »[2].

يقرِّر هذا الحديث أَنَّ للملائكة أَجنحة، وهذا قد جاء في القرآن الكريم، قال الله تعالى:

﴿ الحمد لله فاطر السَّموات والأَرض جاعل الملائكة رسلاً أُولي أَجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إنَّ الله على كل شيء قدير ﴾[3].

وهذا من الاخبار بالغيب.

---

(١) سورة فاطر: ٢٨.
(٢) الترّمذي ٣/ ٣٨١ وجاء حديث آخر عن صفوان بن عسَّال فيه: ( الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يطلب )، رواه الترّمذي وقال: حديث حسن صحيح ٤/ ٢٦٩، وانظر: رياض الصَّالحين ٥٤ـ ٥٥.
(٣) سورة فاطر: الآية ١.





والنَّص زاخر بالصُّور الجميلة حتَّى إنَّه لا تخلو جملة من صورة رائعة .

فسلوك طريق لطلب العلم يسهِّل لصاحبه طريقاً إلى الجنَّة ، وإنَّ الملائكة تضع أَجنحتها لطالب العلم رضى بما يطلب ، ومعنى وضع الملائكة أَجنحتها أنهَّا تتواضع لطالب العلم توقيراً لعلمه، وكذلك يفهم من هذه الصُّورة أَنهَّا تكفُّ عن الطَّيران وتنزل احتفاءً بطالب العلم، ويفهم منها أَيضاً تليين الجانب والفيء عليه بالرَّحمة والانعطاف والانقياد والمعونة وتيسير الوسائل.

وإنهَّا لصورة يذهب الخيال في فهمها مذاهب شتَّى، كلّها تنطلق من تقدير طالب العلم وتشجيعه والثناء عليه وتقرير مكانة طلب العلم.

وفي ذلك أَيضاً بيان مهمة من مهمات الملائكة وهي تشجيع طلاب العلم .

والعوالم الأَرضية والعوالم السَّماوية تستغفر لطالب العلم حتَّى الحيتان في الماء . . .

إنَّ ذلك أَمر غيبي . كيف يكون هذا الاستغفار ؟ لا نعلم . . . ولكنَّه واقع . واختيار الحيتان الَّتي لا تصوِّت عادة وتقرير أنهَّا تستغفر يجعل الاستغفار من قبل غيرها وارداً بصورة آكد .

وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب . . . . هذه المشابهة توضح الأَمر . إنَّ الكواكب يكاد ضوءها يغيب عندما يبزغ القمر وينشر أشعَّته على الوجود ، ولا مجال للّموازنة بينهما . . . وهكذا فضل العالم على العابد . . . إنَّ الفرق بينهما كبير جداً .

والعلماء ورثة الأنبياء صورة أُخرى جديدة، وتتمَّتها أَنَّ الأَنبياء لم يورِّثوا مالاً ولا متاعاً، وإنمَّا ورثوا العلم فمن أَخذه أَخذ بحظٍ وافرٍ. الحق أَنَّ هذا النَّص من النُّصوص الَّتي تعاونت فيها الأَلوان المختلفة من التَّصوير لتقرير الحقيقة الَّتي أَراد النَّبي ﷺ أَنْ يقرِّرها وهي مكانة طالب العلم والاهتمام به .

وقد وجدنا الوصف للأمر الغيبي والتَّشبيه والموازنة وغيرها قد تعاونت على تأكيد معنىً نبويٍّ كريمٍ .

ـ عن أبي هريرة عن النَّبي ﷺ قال :

« إنَّ لله تبارك وتعالى ملائكة سيَّارة فضلاً[1] يتبعون مجالس الذِّكر . فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكر قعدوا معهم . وحفَّ بعضهم بعضاً بأجنحتهم حتَّى يملؤوا ما بينهم وبين السَّماء الدُّنيا فإذا تفرَّقوا عرجوا وصعدوا إلى السَّماء » .

قال : فيسألهم الله عزَّل وجلَّ ـ وهو أعلم بهم ـ :

من أين جئتم ؟
فيقولون : جئنا من عند عباد لك في الأرض يسبِّحونك ويكبِّرونك ويهلِّلونك ويحمدونك ويسألونك .
قال : وماذا يسألونني ؟
قالوا : يسألونك جنَّتك .
قال : وهل رأوا جنَّتي ؟
قالوا : لا . أيْ ربِّ !
قال : فكيف لو رأوا جنَّتي ؟
قالوا : ويستجيرونك ؟
قال : ومِمَّا يستجيرونني؟
قالوا : من نارك يا ربِّ.
قال : وهل رأوا ناري ؟
قالوا : لا .
قال : فكيف لو رأوا ناري ؟

---

(١) (فضلا ) روي بضم الفاء والضاد ، وبضم الفاء وتسكين الضاد وبفتح الفاء وتسكين الضاد . ومعناه على هذه الرِّوايات كلّها أنَّهم ملائكة زائدون على الحفظة وغيرهم من المرتبين مع الخلائق . فهؤلاء السَّيارة لا وظيفة لهم . وإنَّما مقصودهم حلق الذكر وانظر: شرح النووي ١٧/ ١٤ .

قالوا : ويستغفرونك .
فيقول : قد غفرت لهم ، فأَعطيتهم ما سأَلوا ، وأَجرتهم ممَّا استجاروا .
فيقولون : ربِّ ! فيهم فلان عبد خطَّاء ، وإنَّما مرَّ فجلس معهم .
فيقول : وله غفرت . هم القوم لا يشقى بهم جليسهم[1] »

في هذا الحديث الجميل وصف وحوار :

ـ وصف للملائكة الفضل ، يحدِّد طبيعة عملهم ، فهم سيَّارون . . . يطوِّفون أَنحاء الأَرض يتتبعون مجالس الذِّكر . . . إنهَّم غير الحفظة وغير الملائكة الآخرين الَّذين لهم مهامَّت أُخرى . فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكر قعدوا معهم وحفُّوهم بأَجنحتهم اهتماماً بهم وإكراماً لهم وتواضعاً معهم وعناية بهم . . . وهم من الكثرة بحيث يملؤون الفضاء ما بين مجلس الذِّكر وبين السَّماء الدُّنيا ، يقف بعضهم إلى جانب بعض ويحفُّ بعضهم بعضاً بأجنحتهم .

وبهذا الوصف ترتسم في خيالنا صورة على نحو ما لهذه المخلوقات الغيبيَّة .

أمَّا الحوار الرَّائع فإنَّه يدور بين الملائكة وبين الرَّب تبارك وتعالى . . . حوار يفيض بالرَّحمة والمغفرة والإحسان .

فعندما ينتهي مجلس الذِّكر ويتفرَّق النَّاس يعرجون ويصعدون إلى السَّماء ويقفون بين يدي الله تعالى . ويكون الحوار متعلِّقاً بالذَّاكرين من بني آدم ماذا يسألون ؟ وممَّ يستجيرون ؟ ويتضمَّن تقريراً من الملائكة لله ربِّ العالمين أنَّ لهؤلاء الذَّاكرين أُمنية يطلبونها ويسأَلون ربهَّم إيَّاها . . . إنهَّا الجنَّة .

وأنَّ هناك أَمراً مخوَّفاً يخشونه ويستجيرون بالله منه أَلا وهو النَّار مع الإشارة إلى أنهَم لم يروها .

وأنهَّم يستغفرون ربهَّم . . . يرجون مغفرته . وينتهي الحوار بمغفرة الله لذنوبهم وإعطائه إيَّاهم ما يسألون ، وإجارتهم ممَّا استجاروا منه . ويكون معهم

---

(١) صحيح مسلم بشرح النَّووي ١٧/ ١٤ ـ١٥ .

رجل خطّاء ليس منهم وإنّما مرّ فجلس معهم ، فيذكره الملائكة فيقول الله عزّ وجلّ : وله غفرت أيضاً . . . . هم القوم لا يشقى بهم جليسهم . . . عطاء جزيل ورحمة سابغة وكرم فيّاض . . . إنهم سعداء يسعد بهم من يلقاهم . إنّ هذا الحوار أقام أمام أعين خيالنا مشهداً حيّاً قرّر المعنى الّذي يرفع من شأن الذكر ويجعل له ما أشرنا إليه من عظيم الأجر ، فرسخ هذا المعنى في أذهان السّامعين على نحو لم يكن ليبلغه لو جاء على غير هذا الأسلوب .

وفي الحديث استدراك رائع وهو قوله ﷺ :
« فيسألهم الله عزّ وجلّ وهو أعلم بهم » . .

ـ وقال جابر بن عبد الله وهو يحدّث عن فترة الوحي ، قال رسول الله ﷺ :

« بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السّماء فرفعت بصري فإذا الملك الّذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السّماء والأرض فرعبت منه ، فرجعت فقلت : زمّلوني . فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيّها المدّثّر قم فأنذر ﴾ إلى قوله ﴿ والرّجز فاهجر ﴾ فحمي الوحي وتتابع »[1]

الملك الّذي جاءه بحراء هو نفسه الّذي رآه رسول الله ﷺ جالساً على كرسي بين السّماء والأرض . منظر تنخلع له القلوب ، فرعب النّبي ﷺ ورجع إلى أهله يقول : زمّلوني ، زمّلوني . إنّه جبريل الحبيب إلى قلب النّبي ﷺ غاب عنه مدّة عرفت في السّيرة بفترة الوحي، وقد استغلها الكفّار فزعموا أنّ ربّه قد قلاه فنزل في الرّد عليهم ﴿ما ودّعك ربّك وما قلى ﴾ .

وفي النّص وصف لأمرين :

سمعيّ ، وبصريّ . ولم يفصّل لنا النّص عن الأمرين كثيراً ، بل كان الوصف مجملاً (سمعت صوتاً ) ، (فرفعت بصري ، فإذا الملك الّذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السّماء والأرض ) ، ولكنّ النّص ذكر أثر ما سمع وأبصر إنّه

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٤ ط كتاب الشّعب .





الرُّعب الَّذي اضطرَّه إلى الرُّجوع وطلب التَّزميل، فكان ذلك سبباً في نزول سورة المدثر، وتتابع الوحي بعد ذلك وقوي.

وفي النَّص صورة نجدها في قولهﷺ :

« فحمي الوحي وتتابع »

وهذه الجملة صورة تدلُّ على اشتداد الوحي وقوَّته وتتابعه .

وتستعمل هذه العبارة في عاميتنا لتدل على الاشتداد والقوة يقولون (حمي الطَّلق) ، و ( حمي الشِّجار ) ، و (حمي الذِّكر ) و( حميت المناقشة ) .

ومهما يكن من أَمر فإنَّ صورة جلوس جبريل عليه السَّلام على كرسّي بين السَّماء والأَرض صورة تشدُّ الانتباه وتثير قريباً من الرُّعب الَّذي أَثارته لرسول اللهﷺ والعجب الَّذي لا ينتهي .

ـ عن أبي هريرة قال ، قال رسول اللهﷺ :

« إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأَول فالأَول .

ومثل المهجر كمثل الَّذي يهدي بدنة ، ثُمَّ كالذي يهدي بقرة ثُمّ كبشا ، ثمَّ دجاجة ، ثمَّ بيضة .

فإذا خرج الإمام طووا صحفهم ويستمعون الذِّكر[1] »

صورة الملائكة يقفون على أبواب المساجد وبأَيديهم الصُّحف والأَقلام يكتبون الَّذين يحضرون مبكرِّين الأَول فالأول ولكلٍّ جزاؤه .

فالَّذي يأتي في السَّاعة الأُولى يكون كمن أَهدى بدنة .

(١) صحيح البخاري ١/ ٢٢٣ وقد أوردته بلفظ البخاري ، وصحيح مسلم بشرح النَّووي ٦/ ١٣٥ و١٤٥ ، وأبو داود ١/ ١٤٧ والترمذي ١/ ٣٥٩ وانظر : فتح الباري ٢/ ٣٦٦ و٤٠٧ وأقيسة النَّبي ٩٣ .

ومن راح في السَّاعة الثَّانية يكون كمن قرَّب بقرة .
ومن راح في السَّاعة الثَّالثة فكأنَّما قرَّب كبشاً أقرن .
ومن راح في السَّاعة الرابعة فكأنَّما قرَّب دجاجة .
ومن راح في السَّاعة الخامسة فكأنَّما قرَّب بيضة .

فإذا خرج الإمام طووا صحفهم وأقلامهم وحضروا يستمعون الذِّكر .

في الحديث تقدير للثَّواب بصورة مادِّية ، فالمبكِّر يكون مثل من قدَّم أكبر شيء من الضَّحايا ، وما يزال المتأخر ينقص أجره حتَّى يصل إلى البيضة .

**

ـ عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

« إنَّ المدينة مشتبكة بالملائكة :
على كل نقب منها ملكان يحرسانها ، لا يدخلها الطاعون ولا الدَّجال .
من أرادها بسوْ أذابه الله كما يذوب الملح في الماء »[1]

هذا الحديث يذكر لنا مهمة فريق من الملائكة ، وهي حراسة المدينة المنوَّرة ، ويقرِّر لنا صلوات الله عليه أنَّ المدينة مشتبكة بالملائكة الَّذين يملؤون جوانبها ، وأنَّه على كلِّ طريق منها أو فجٍّ ملكان يحرسانها .

هذا الوصف لأمر غيبي صورة مبيِّنة مقرِّبة .

وفي النَّص صورة أُخرى قائمة على التَّشبيه ، فمن أراد أهلها بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء .

ـ عن حنظلة الأُسيدي قال : لقيني أبو بكر فقال : كيف أنت يا حنظلة ؟

---

(١) مسند أحمد ٢/ ٣٣٠ ـ ٣٣١ ، وجاء معنى الحديث ومعظم لفظه في صحيح مسلم في حديثين عن أبي هريرة . أحدهما في ٩/ ١٥٣ ونصُّه : ( على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطَّاعون ولا الدَّجال ) . والثاني في ٩/ ١٥٧ ونصُّه (من أراد أهلها بسوء ـ يريد المدينة ـ أذابه الله كما يذوب الملح في الماء) . وفي طبعة استانبول ٤/ ١٢٠ ـ ١٢٢ (وانظر أقيسة النَّبي ١٥٥) .





قلت : نافق حنظلة .

قال : سبحان الله ! ما تقول ؟

قلت : نكون عند رسول الله ﷺ يذكِّرنا بالنَّار والجنَّة حتَّى كأنَّا رأي عين ، فإذا خرجنا من عنده عافسنا الأزواج والأولاد ، والضَّيعات ، فنسينا كثيراً .

قال أبو بكر : فوالله إنَّا لنلقى مثل هذا .

فانطلقت أنا وأبو بكر حتَّى دخلنا على رسول الله ﷺ :

قلت : نافق حنظلة يا رسول الله .

فقال رسول الله ﷺ : وما ذاك ؟

قلت : يا رسول الله نكون عندك تذكِّرنا بالنَّار والجنَّة حتَّى كأنَّا رأي عين ، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضَّيعات نسينا كثيراً .

فقال رسول الله ﷺ : « والَّذي نفسي بيده أنْ لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذِّكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم . ولكن يا حنظلة ساعة وساعة »[1]

إنَّ الاستمرار على الحالة الَّتي يكون فيها المرء المسلم بين يدي رسول الله ﷺ وفي الحالة الَّتي يكون فيها في الذِّكر تجعله أقرب إلى الملائكة ، ولذلك فإنَّ رسول الله ﷺ يقرِّر أنهَّم لو داموا على ما كانوا عنده لصافحتهم الملائكة على فرشهم وفي طرقاتهم .

إنَّ ذلك كناية عن ارتقاء المرء في حالة الذِّكر أو في مجالسة النَّبي ﷺ إلى مستوى راقٍ جداً .

كما أنَّ في تعبير الصَّحابي حنظلة عن قدرة رسول الله ﷺ على السُّمو بنفوس أصحابه صورة رائعة يقول :

---

(١) صحيح مسلم ١٧/ ٦٦ .

«نكون عند رسول الله ﷺ يذكِّرنا بالجنَّة والنَّار حتَّى كَأَنَّا رأْي عين » .

هذا وقد جاءت نصوص حديثيَّة كثيرة تذكر أنَّ الملائكة درجات ومراتب وأَنهَّم مكلَّفون بأَعمال تتَّصل بالكون وأَعمال تتَّصل بالنَّاس . وأَنَّ منهم ملائكة يتعاقبون فينا ملائكة باللَّيل وملائكة بالنَّهار . . . إلى غير ذلك .

## (٥) الشَّيطان :[١]

قال أبو البقاء :

( الشَّيطان هو إمَّا من ( شاط ) بمعنى ( هلك ) أو من ( شطن ) بمعنى ( بعد ) . وهو المحرق في الدنيا والآخرة والعصي الأبي الممتلىء شرّاً ومكراً ، أو المتمادي في الطغيان الممتد إلى العصيان . وله في القرآن صفات مذمومة وأسماء مشؤومة ، خلق من قوة النَّار ، ولذلك اختص بفرط القوة الغضبيَّة ، والحميَّة الذميمة ، فامتنع من السُّجود لآدم عليه السَّلام . وإغواؤه إنمَّا يؤثِّر فيمن كان مختل الرَّأي مائلاً إلى الفجور كما قال تعالى﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلاَّ أَنْ دعوتكم فاستجبتم لي ﴾ .)[٢][٣]

وقد كان ذكر الشَّيطان في الحديث للتَّرهيب من مكره ونفثه ودسِّه وكيده . وسأورد بعض الأَحاديث الزَّاخرة بالصُّور التِّي تعالج هذا الموضوع .

---

(١) الشَّيطان كان موضوعاً لكتب أُلفت حوله في القديم والحديث فمن أَهم الكتب السَّابقة : ـ تلبيس إبليس لابن الجوزى وهو مطبوع عدَّة مرَّات ـ وإغاثة اللهفان من مصايد الشَّيطان لابن القيم وهو مطبوع ـ ومصائب الإنسان من مكايد الشَّيطان لابن مفلح . ومن أهم الكتب الحديثة : ـ مدرسة الشَّيطان لمحمد خير وانلي وهو مطبوع في دمشق ، ومن مكايد الشَّيطان لطه عبد الله العفيفي وهو مطبوع في مصر سنة ١٩٧٨ ـ وإبليس لعبَّاس محمود العقاد.

(٢) سورة إبراهيم : ٢٢ .

(٣) الكليات لأبي البقاء : القسم الثالث صـ ٨٢ .

## الشَّيطان والمرأَة :

يستخدم الشَّيطان سلاحين في نشر الفساد ، وهدم الكيان الخلقي للأُمة وهما الشَّهوة والمادة . ولذا فإنَّنا نجد أَعلى نسبة في الانحرافات متأتية عن هذين السبيلين .

فلننظر الصُّور التَّي وردت في هذه الأَحاديث :

ـ عن جابر أَنَّ رسول الله ﷺ رأَى امرأَة، فأَتى امرأَته زينب وهي تمعس[1] منيئة[2] لها ، فقضى حاجته، ثمَّ خرج إلى أُصحابه فقال :

« إِنَّ المرأَة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان . فإذا أَبصر أَحدكم امرأة فليأت أَهله فإِنَّ ذلك يردُّ ما في نفسه » .[3]

وفي رواية عن جابر عنه ﷺ :

« إذا أَحدكم أَعجبته المرأَة فوقعت في قلبه، فليعمد إِلى امرأته فليواقعها فإِنَّ ذلك يردُّ ما في نفسه » .[4]

وفي رواية عن جابر أَيضاً عنه ﷺ :

« إِنَّ المرأَة إِذا أَقبلت أَقبلت في صورة شيطان ، فإذا رأَى أَحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله فإِنَّ معها مثل الذي معها » .[5]

وفي رواية أَوردها أَبو داود عن جابر أَنَّ النَّبي ﷺ رأَى امرأَة فدخل على زينب بنت جحش فقضى حاجته منها ثم خرج إلى أَصحابه فقال لهم :

« إِنَّ المرأَة تقبل في صورة شيطان ، فمن وجد من ذلك شيئاً فليأت أهله ، فإِنَّه يضمر[6] ما في نفسه » .[7]

---

(١) تدلك .
(٢) جلداً .
(٣) صحيح مسلم بشرح النَّووي ٩ / ١٧٧ .
(٤) صحيح مسلم بشرح النَّووي ٩ / ١٧٨ .
(٥) الترمذي ٢ / ٢٠٣ .
(٦) أيْ يضعف .
(٧) أبو داود ٢ / ٢٣١ .



واضح من هذه الروايات لحادثة بعينها أَنَّ الرَّسول ﷺ صوَّر فتنة المرأة للرجل بإقبالها في صورة شيطان .

إنَّ الشَّيطان يستطيع أَنْ يفتن الإنسان برؤية المرأة فتقع في قلبه ، فإذا تعرَّض المسلم إلى مثل هذه الحالة فليردَّ ما في نفسه ، وليضعف هذا الوازع الشَّيطاني بأن يأتي أهله ، فإنَّ ذلك يدفع شهوته ويسكن نفسه ، ويدعه ينصرف لشأنه ، ولا يبدِّد عليه هدوءه ولا يهدِّد استقامته ، ولا يفسد عليه حياته .

وقد عبَّر الحديث عن الفتنة بالمرأة بأَنها أَقبلت في صورة شيطان .

قال النَّووي :

( قال العلماء : معناه الإشارة إلى الهوى والدُّعاء إلى الفتنة بها ، لما جعله الله تعالى في نفوس الرِّجال من الميل إلى النِّساء والالتذاذ بنظرهن وما يتعلَّق بهن ، فهي شبيهة بالشَّيطان في دعائه إلى الشرِّ بوسوسته وتزيِّينه ) .[١]

ـ عن صفيَّة قالت :

كان رسول الله ﷺ معتكفاً ، فأتيته أَزوره ليلاً ، فحدَّثته ثُمَّ قمت ، فانقلبت فقام ليقلبني ،[٢] وكان مسكنها في دار أسلمة بن زيد فمرَّ رجلان من الأنصار ، فلما رأيا النَّبي ﷺ أَسرعا فقال النَّبي ﷺ :

« على رسلكما ـ إنها صفيَّة بنت حيّي » .

قالا : سبحان الله يا رسول الله !!!

قال : « إنَّ الشَّيطان يجرى من الإنسان مجرى الدَّم ، فخشيت أَنْ يقذف في قلوبكما شيئاً » ـ أو قال شرّاً ـ[٣]

---

(١) شرح مسلم ٩ / ١٧٨ .
(٢) انقلبت : أي أردت العودة لبيتي ، وقام ليقلبني : أيْ ليردَّني إلى بيتي .
(٣) أبو داود ٢ / ٤٤٧ وصحيح البخاري ٢ / ٢٥٧ وابن ماجه ١ / ٥٦٥ ـ ٥٦٦ والنسائي .





ـ وعن أنس أنَّ النَّبي ﷺ كان مع إحدى نسائه ، فمرَّ به رجل فدعاه ، فجاء فقال :

« يا فلان ! هذه زوجتي فلانة »

فقال : يا رسول الله ! من كنت أظنُّ به فلم أكن أظنُّ بك فقال رسول الله ﷺ :

« إنَّ الشَّيطان يجرى من الإنسان مجرى الدَّم » .[1]

ما أقرب الشَّيطـان إلى الإنسـان !! ما أشـدَّ خفـاءه !! ما أصعـب ضبطـه وإمساكه !! وما أعظم اتصاله به وملاصقته إيَّاه !! إنَّ الشَّيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدَّم . . .[2] إنَّه يجري فلا يكاد يثبت في موضع إنَّه لا يرى . . إنَّه يرتبط بالحياة فلا ينفك عن إنسان ما دام حيّاً .

وإنَّ سبـب ورود الحـديث الشرَّيف المذكور هنـا ليسهـم في توضيح معنـى الحديث ، فرسول الله ﷺ المنزَّه عن النَّقائص الذي لا يفعل فاحشـة يقف مع زوجته ويرى خالياً بها في الطَّريق ، يسارع لبيان هوية هذه المرأة وأنهَّا زوجته فلانة ، ويعقب على تعجب المتعجب بتقرير هذه الحقيقة «إنَّ الشَّيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدَّم فخشيت أنْ يقذف في قلوبكما شرّاً » .

وعندما يكون الشَّيطان ملاصقاً للإنسان يجرى منه مجرى الدَّم يكون قريباً منه شديد التَّأثير عليه ، إنَّه يدخل على الإنسان في كل أمر بخفاء ومكر وفتنـة ، إنهَّـا صورة رائعة . . . فيها البيان والتَّحذير .

ـ عن أبي هريرة قال :

---

(١) صحيح مسلم ١٤ / ١٥٥ .

(٢) قال ابن حجر في فتح الباري ٤ / ٢٨٠ : في تفسير قوله يجرى مجرى الدَّم : ( قيل : هو على ظاهره يجري مجرى الدَّم وإنَّ الله أقدره على ذلك. وقيل : هو على الاستعارة من كثرة إغوائه وكأنه لا يفارقه كالدَّم ، فاشتركا في شدَّة الاتصال وعدم المفارقة ) .



.... ثُمَّ أقبل ﷺ على الرِّجال فقال :

« هل منكم الرَّجل إذا أتى أهله فأغلق عليه بابه وألقى عليه ستره واستتر بستر الله ؟ »

- قالوا : نعم .

- قال : « ثُمَّ يجلس بعد ذلك فيقول : فعلت كذا ، فعلت كذا ؟ »

- قال : فسكتوا . قال : فأقبل على النِّساء ، فقال : « هل منكن من تحدِّث ؟ » فسكتن .

فجثت فتاة : فتاة كعاب على إحدى ركبتيها ، وتطاولت لرسول الله ﷺ ليراها ويسمع كلامها فقالت :

- يا رسول الله ! إنهَّم ليتحدثون وإنهنَّ ليتحدثنه !!

- فقال : «هل تدرون ما مثل ذلك ؟ »

- فقال : «إنمَّا مثل ذلك مثل شيطانة لقيت شيطاناً في السِّكة ، فقضى منها حاجته والنَّاس ينظرون إليه .

ألاَ وإنَّ طيب الرِّجال ما ظهر ريحه ولم يظهر لونه
ألاَ وإنَّ طيب النِّساء ما ظهر لونه ولم يظهر ريحه» .[1]

في الحديث تصوير لعادة مستنكرة سيئة يقع فيها بعض النَّاس من التَّحدُّث عن أمورهم الخاصة المبنية علَى السِّتر والقائمة على الكتمان .

إنَّ الذَّي يتكلَّم بما يكون بينه وبين أهله مثل الشَّيطان ، وكذلك فإنَّ التي تتكلَّم بما يكون بينها وبين زوجها مثل الشَّياطنة ، ولا يكتفي التشبيه المنفر بالوقوف عند هذا الحد ، وإنمَّا يجاوز ذلك إلى أنَّ هذين الشَّيطانين يقومان بالعملية الجنسية أمام النَّاس .

---

(١) أبو داود ٢ / ٣٤٠ .





إنَّه يستحق مثل هذا التَّحقـير . . . وإنَّـه لمن شرار النَّـاس كما صرَّح بذلك حديث أبي سعيد الخدري الذي رواه مسلم في صحيحه قال قال ﷺ :

« إنَّ من أشرِّ النَّاس عند الله منزلة الرَّجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها » .

وتتمة الحديث لها أوثق الصِّلة بالحديث وهي أنَّ الإسلام يحرص على إخفاء ما هو أهون من ذلك مما يتصل بالفتنة ، فالطَّيب عندما تفوح روائحه من امرأة يكون سبباً من أسباب الاغواء والفتنة ، ولذلك فإنَّ طيب المرأة ما ظهر لونه ولم يظهر ريحه. والمرأة تتستر عادة فسيخفى هذا اللون ، ولا سلطان للستر على الروائح .

أمَّا الرجل فلا بأس وهو يتحرَّك بين الرِّجال بأن يكون طيبه ظاهر الرائحة .

***

## الشَّيطان والبيت :

ـ عن أبي هريرة قال ، قال ﷺ :
« لا تجعلوا بيوتكم مقابر . إنَّ الشَّيطـان ينفـر من البيت الـذَّي تقـرأ فيه سورة البقرة » .[1]

ـ عن جابر أنَّه سمع النَّبي ﷺ يقول :

« إذا دخل الرَّجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشَّيطان : لا مبيت لكم ولا عشاء .
وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشَّيطان أدركتم المبيت . وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال : أدركتم المبيت والعشاء » .[2]

---

(١) صحيح مسلم ٦ / ٦٨ وانظره في رياض الصَّالحين ٦٠٦ .
(٢) صحيح مسلم ١٣ / ١٩٠ .

- عن أبي هريرة يبلغ به النَّبي ﷺ :

«يعقد الشَّيطان على قافية رأس أحدكم ثلاث عقد إذا نام بكلٍّ عقدة يضرب : عليك ليلاً طويلاً .[1] فإذا استيقظ فذكر الله انحلَّت عقدة ، وإذا توضَّأ انحلت عنه عقدتان ، فإذا صلىَّ انحلَّت العقد ، فأصبح نشيطاً طيِّب النَّفس ، وإلاَّ أصبح خبيث النَّفس كسلان » .[2]

هذه النُّصوص تتحدَّث عن الشَّيطان في البيت . فقد ذكر رسول الله ﷺ أنَّ الشَّيطان ينفر من البيت الَّذي تقرأ فيه سورة البقرة . وقرَّر أنَّ الرَّجل إذا ذكر الله عند دخوله البيت وعند طعامه حرم الشَّيطان من المبيت والطعام ، وإذا نسي ذكر الله عند واحدة منهما أدرك الشَّيطان ذلك .

وذكر ﷺ أنَّ الشَّيطان يعقد على قافية رأس الإنسان عقداً ثلاثاً إذا نام يقول : عليك ليل طويل فنم ، ولا تحلّ هذه العقد إلاَّ بذكر الله وعبادته .

إنَّ هذه النُّصوص تتحدَّث عن أُمور غيبيَّة تتمُّ في بيوتنا . . فالبيوت التَّي لا يقرأ فيها القرآن ولا يصلىَّ فيها مقابر .

والبيت عندما يتحوَّل في خيالنا إلى قبر يضحي موحشاً محزناً يذكِّر بالفناء والحسرات . إنَّ هذه الصُّورة تؤدِّي غرضاً دينياً وهو الحرص على أنْ يصليِّ الرَّجل بعض الصَّلوات النَّوافل في بيته وعلى أنْ يقرأ فيه شيئاً من القرآن .

- وصورة أُخرى تتجلىَّ في قوله ﷺ : « إنَّ الشَّيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة » .

ها هوذا الشَّيطان ينفر مولّياً هارباً من البيت الذي تقرأُ فيه سورة البقرة .

وكلُّ المؤمنين يأبون أنْ يكون الشَّيطان معهم في بيوتهم ، لأنه لا يأمر إلاَّ بالسُّوء والفحشاء ولا يفعل إلاَّ الشرّ والسُّوء والإيذاء . إنَّ البيت الذي لا يقرأ فيه

---

(١) عليك ليلاً : بالنَّصب على الإغراء . ورواه بعضهم : عليك ليل طويل . أي بقي عليك ليل . . .
(٢) صحيح البخاري ٤ / ٩١ ، وصحيح مسلم ٦ / ٦٥ - ٦٦ وأبو داود ٢ / ٤٤ .





القرآن مأوى الشَّياطين، وهو قبر موحش لا تسمع فيه كلمة الحق، ولا تدخله الملائكة ولا تحفُّ به الرَّحمة، أمَّا بيوت المؤمنين فهي عامرة بقراءة القرآن، وهي من أجل ذلك رياض مؤنسة ومنزل للملائكة.

* * *

وعرض النَّص الثَّاني صورة قريبة من هذه الصُّورة، هذا رجل يريد أَنْ يدخل إلى بيته، والشَّيطان وجنده متربِّصون مصغون إليه، فأذا ذكر الله عند دخوله يئسوا من إمكانيَّة المبيت في هذا البيت وقال الشَّيطان لأعوانه : لا مبيت لكم .

وكذلك الشَّأن عند الطَّعام فإذا ذكر الله عنده قال الشَّيطان لأتباعه : لا عشاء لكم .

وإنْ لم يذكر الله في الحالين قال : أدركتم المبيت والعشاء .

إنَّ الرَّجل المؤمن : إذا دخل بيته ذكر الله وإذا أكل ذكر الله فيصون بهذا بيته وطعامه عن الشياطين.

إنَّ الشَّيطان يطرد من البيت المعمور بذكر الله .

أمَّا الرَّجل الغافل فإنَّ بيته وطعامه نهب مباح للشياطين يقول الشَّيطان لملئه : بشراكم أدركتم المبيت والطَّعام . إنهَّا صورة حيَّة ناطقة تصور لنا ضرر الغفلة عن ذكر الله تبارك وتعالى . وهي قائمة على وصف مشاركة الشَّيطان لمن لا يذكر الله في منامه وطعامه وخلوته .

* * *

والنَّص الثَّالث يعرض لنا حالة الشَّيطان مع المرء عند بداية النَّوم وخلال ساعات نومه وعند يقظته .

فالشَّيطان يعقد على قافية رأس الإنسان ثلاث عقد ، يقول عند كل عقدة : عليك ليل طويل فنم . فالمؤمن الموصول قلبه بالله تبارك وتعالى إذا استيقظ ذكر الله

وهلّله وسبّحه فتنحلّ بذلك عقدة . فإذا قام بعد هذا الذِّكر فتوضأ انحلّت عقدة أخرى . فإذا صلّى ما شاء الله له أنْ يصلّي انحلّت العقدة الثّالثة . وبذلك تنحلّ العقد كلّها، فأصبح نشيطاً طيّب النّفس وإلاّ أُصبح خبيث النّفس كسلان .

إنّ ذكر الله يطرد الشّيطان من البيت .

وإنّ ذكر الله وعبادته في اللّيل والنّاس نيام يحلّ تلك العقد التي يضربها الشّيطان على رأس الإنسان إذا نام . . . إنّ ذكر الله يذهب بكلّ آثار الشّيطان ويمحو علامات الكسل وخبث النّفس ، ويولد النّشاط والتّفاؤل وطيب النّفس .

قال النّووي : ( واختلف العلماء في هذه العقد ، فقيل : هو عقد حقيقي بمعنى عقد السِّحر للإنسان ومنعه من القيام . وقيل : يحتمل أنْ يكون فعلاً يفعله كفعل النّفاثات في العقد . وقيل : هو من عقد القلب وتصميمه فكأنّه يوسوس في نفسه ويحدّثه بأنّ عليك ليلاً طويلاً فتأخر عن القيام . وقيل : هو مجاز كنّى به عن تثبيط الشّيطان عن قيام اللّيل ) .[1]

وأيّاً كان التّأويل الصحيح فإنّ الحديث لا يخلو عن صورة تشدّ السّامعين إليها.

وقريب من ذلك الحديث الآتي :

ـ عن عبد الله بن مسعود قال :

ذكر عند رسول الله ﷺ رجل نام ليلة حتى أُصبح قال : « ذاك رجل بال الشّيطان في أذنيه » .[2]

ومن المفيد أنْ نورد أقوال العلماء في تفسيره :

( قال ابن قتيبة : معناه أفسده . يقال : بال في كذا : إذا أفسده . وقال المهلّب طّحاوي وآخرون : هو استعارة وإشارة إلى انقياده للشيطان وتحكمه فيه وإذلاله .

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ٦ / ٦٦ .
(٢) صحيح مسلم ٦ / ٦٤ .





وقيل : معناه استخف به واحتقره واستعلى عليه . يقال لمن استخف بإنسان وخدعه : بال في أُذنه . وأَصل ذلك في دابَّة تفعل ذلك بالأَسد إذلالاً له .

وقال الحربى : معناه ظهر عليه وسخر منه ) .[1]

ومهما يكن من أَمر فإنَّ الحديث صورة تدلُّ على انقياده للشيطان وتحكُّم الشَّيطان فيه وإذلاله إيَّاه واستخفافه به واحتقاره له .

والغفلة عن ذكر الله تمثّل هذا المستوى الضَّعيف من البشر الذين استذلهَّم الشَّيطان واحتقرهم واستخفَّهم فانقادوا إليه .

وإنهَّا لصورة تدعو إلى الرثاء .

***

## الشَّيطان ومعركته وعرشه وتعاظمه ومزماره واستراقه السَّمع :

ـ عن سعد بن أَبي وقَّاص أَنَّ عمر بن الخطَّاب قال :
أَي عدوات أَنفسهن ! أَتهبنني ولا تهبن رسول الله ﷺ ؟

ـ قلن : نعم أَنت أَغلظ وأَفظُّ من رسول الله ﷺ .

ـ قال رسول الله ﷺ :
«والذّي نفسي بيده ما لقيك الشَّيطان قط سالكاً فجاً إلاَّ سلك فجاً غير فجِّك » .[2]

الشَّيطان على كيده وقوة إغوائه يخاف الحقَّ وأَهله ، إنَّه يخاف عمر . . فما يلقاه قط سالكاً طريقاً إلاَّ سلك طريقاً آخر . إنَّ طريق عمر هو طريق السَّداد والاستقامة . . . وإنَّ إغواء الشَّيطان بعيد عنه بعداً شديداً . صورة رائعة تمثّل

---

(١) شرح صحيح مسلم للنَّووي ٦ / ٦٤ .
(٢) صحيح البخاري ٤ / ٩٦ وصحيح مسلم بشرح النَّووي ٥ / ١٦٥ وصحيح مسلم ط . إستانبول ٧ / ١١٥ وفتح الباري ٦ / ٣٣٩ .

الشَّيطان وهو يفرُّ من الطَّريق الذَّي يكون فيه عمر . إنهَّا تمثِّل سلوك عمر النَّظيف وبعده عن كلِّ ما يتَّصل بالغواية . . . بل إنَّ الدَّاعي للغواية شديد الخوف منه .

والحديث يعبِّر عن صلابة عمر في الحقِّ وشدَّته فيه ويعبِّر عن رقَّـة الرَّسـول ﷺ ولطفه وحسن عشرته واحتماله .

***

ـ عن سلمان قال ، قال رسول الله ﷺ :

« لا تكونَنَّ ـ إن استطعت ـ أوَّل من يدخل السُّوق ولا آخر من يخرج منها ، فإنهَّا معركة الشَّيطان وبها ينصب رايته » .[1]

في السُّوق فساد !

كان ذلك في قديم الزَّمان ، وما يزال ، وسيبقى ، وإنَّ نظرة في واقع الأسواق اليوم تدلُّ دلالة واضحة على هذه الحقيقة . وقد عبَّر سيدنا رسول الله ﷺ عن هذا الفساد بأنَّ السُّوق معركة الشَّيطان وبهـا ينصـب رايتـه . غش وحلف . . وظلـم وكذب . . وخداع وتغرير . . واحتـكار وخيانـة . . وتـطفيف للمـكيال والميزان ونظرات فاجرة وكلمات نابية . . كلُّ أُولئك ممَّا تحفل به الأسواق .

والذَّي يحضر فيها أقصر مدَّة ممكنة هو المرء الذَّي يكون قد دفع عن نفسه أكبر قدر من الإثم والعذاب ، ولذلك كان هذا الخطاب :

إن استطعت أنْ لا تكون أوَّل من يدخل السُّوق ولا آخـر من يخـرج منهـا فافعل .

ثُمَّ علَّل هذا بأنهَّا هي معركة الشَّيطان . . . وممّا يتَّصل بالتَّناسـق الفنِّـي في الصُّورة أنْ تذكر مع المعركة الرَّاية ، والرَّاية المنصوبة هنـا راية الشَّيطان ، وفي ذلك إشارة إلى أنّ هذه المعركة لصالح الشَّيطان في أكثر الأحيان .

(١) صحيح مسلم ١٦ / ٧ .

إذن نحن هنا أمام معركة تقوم هي معركة الشَّيطان، وأمام راية تنصب هي راية الشَّيطان . فالعاقل من يجنِّب نفسه المكوث وسط هذه المعمعة مدَّة طويلة وهنا يبرز الغرض الدِّيني .

***

ـ عن أبي هريرة أَنَّ النَّبي ﷺ قال في الجرس :

«مزمار الشَّيطان» .(١)

فالجرس مزمار الشَّيطان ، وفي ذلك تنفير شديد من الجرس الـذِّي شبَّهه الحديث بالمزمار .

ـ عن رجل قال :

كنت رديف النَّبي ﷺ فعثرت دابَّته فقلت : تعس الشَّيطان .

فقال : « لا تقل تعس الشَّيطان . فإنَّك إذا قلت ذلك تعاظم حتَّى يكون مثل البيت ويقول : بقوَّتي . ولكن قل : بسم الله ، فإنَّك إذا قلت ذلك تصاغر حتَّى يكون مثل ذباب »(٢)

سباب الشَّيطان يجعله يتعاظم ، حتَّى يكون مثل البيت . وذكر الله يجعله يتصاغر حتى يكون مثل الذُّباب . وفي هذا تأديب عظيم للمسلمين ليتنبَّهوا إلى أَنَّ الأُمور السَّلبية لا تصنع شيئاً ، وأَنَّ الأُمور الإيجابية مهما كانت يسيرة تستطيع أَنْ تفيد صاحبها فائدة كبيرة .

وفي هذا النَّص استغلال للّحوادث اليوميَّة الَّتي تقع ، فلقد قال رسول الله ﷺ كلمته هذه تعقيباً على سباب الرَّجل للشّيطان .

---

(١) أبو داود ٣ / ٣٥ .

(٢) أبو داود ٤/ ٤٠٥ .

وفي الحديث صورتان :

**الأولى** : إذا قلت ( تعس الشَّيطان ) تعاظم حتَّى يكون مثل البيت . . . . ويتراءى لنا وهو ينتفخ ويتيه اختيالا وافتخارا ويقول : بقوَّتي فعلت ما فعلت .

**والثَّانية** : إذا قلت (بسم الله) تصاغر حتَّى يكون مثل ذباب . . . ويتراءى لنا وهو يتضاءل ويتصاغر حتَّى يغدو شيئاً لا يكاد يرى بعد أنْ كان منتفخاً .

**

ـ عن جابر قال ، قال رسول الله ﷺ :

« إنَّ إبليس يضع عرشه على الماء ، ثُمَّ يبعث سراياه :
فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة . يجيء أحدهم فيقول : فعلت كذا وكذا .
فيقول : ما صنعت شيئا .

قال ثُمَّ يجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرَّقت بينه وبين امرأته قال فيدنيه منه ويقول : نعم أنت »[1]

في هذا النَّص كلام عن إبليس كبير الشيَّاطين وعن عرشه وسراياه وعن تفاوت منزلة جنوده .

إنه رأس الشر ، ومبعث الفتنة ، والمحرّض على الفرقة والخلاف ، والدّاعي إلى الزَّيغ والضَّلال .

يضع عرشه على الماء ، مبالغة منه في الكفر والعناد ، فالله عزَّ وجلَّ يقول : ﴿وهو الَّذي خلق السَّموات والأَرض في ستَّة أيَّام وكان عرشه على الماء ﴾[2] وغلوًّا من إبليس في المفاخرة والكفر يضع عرشه على الماء ، ويبعث سراياه لنشر الفساد والإلحاد

---

(١) صحيح مسلم ١٧/ ١٥٧
(٢) سورة هود ٧





والتَّحلُّل والفسق والانحراف والتَّفرقة . . . ثُمَّ يعودون إليه فيقول كلُّ واحد منهم ما صنع ، وهو يستقلُّ ما يفعلونه ويطلب المزيد في الإغواء والإفساد . حتَّى يأتي واحد من هؤلاء الأَجناد الخبثاء فيقول : ما تركته حتَّى فرَّقت بينه وبين امرأته ، فيدنيه منه ويهتزُّ طرباً وسروراً لفعلته ويستحسن عمله ويقول : نعم المفسد أنت .

إنَّ أَقربهم منه منزلة أَعظمهم فتنة .

جاء الحوار بين إبليس وجنوده بعد أَنْ صوَّر اتِّخاذ إبليس عرشاً له على الماء .

وقد بَدَا من خلال الحوار حرص إبليس الشَّديد على الإفساد واستحسانه التَّفريق بين الزَّوجين . . .

وهكذا فإنَّ وصف هذا المشهد الغيبيِّ يعدُّ صورة تبينُ بعض المعاني .

**

ـ عن ابن عبَّاس قال :

« ما قرأ رسول الله ﷺ على الجنِّ ، وما رآهم . انطلقَ رسول الله ﷺ في طائفة من أَصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشَّياطين وبين خبر السَّماء ، وأرسلت عليهم الشُّهب ، فرجعت الشَّياطين إلى قومهم فقالوا : ما لكم ؟

ـ قالوا : حيل بيننا وبين خبر السَّماء . وأُرسلت علينا الشُّهب .
ـ قالوا : ما ذاك إلاَّ من شيء حدث . فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الَّذي حال بيننا وبين خبر السَّماء .

فانطلقوا يضربون مشارق الأَرض ومغاربها ، فمرَّ النَّفر الَّذين أَخذوا نحو تهامة ، وهو بنخل ، عامدين إلى سوق عكاظ ، وهو يصليِّ بأصحابه صلاة الفجر . فلماَّ سمعوا القرآن استمعوا له ، وقالوا : هذا الَّذي حال بيننا وبين خبر السَّماء .

فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا إنَّا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرُّشد فآمنَّا به ولن نشرك بربِّنا أحداً. فأنزل الله عزَّ وجلَّ على نبيِّه محمد ﷺ :

﴿ قل أُوحي إليَّ أنَّه آستمع نفر من الجنِّ ﴾[1]

وصف دقيق لأمر غيبيّ . . . فيه حكاية واقع بعضه مرئي يتَّصل بالإنس وبعضه غيبيٌّ يتَّصل بالجنِّ. وفي هذا النَّص مفاجأة الجنّ بالدَّعوة الإسلاميَّة ، وذلك عندما رأوا ظواهر كونيَّة جديدة لم يسبق أنْ رَأوها من قبل، تحول بينهم وبين خبر السَّماء ، ذلك أنهَّم كانوا يقعدون من السَّماء مقاعد للسَّمع فينقلون الأخبار ويزيدون . . . وذهبوا كما كانوا يذهبون ، فحيل بينهم وبين خبر السَّماء . وأُرسلت عليهم الشُّهب كما جاء في الحديث ، هذا وكما قال ربُّنا تبارك وتعالى﴿ فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾[2] .

فرجعت الشَّياطين إلى قومهم ، ويبدو أنَّ رجوعهم كان في وقت مبكر يخالف ما اعتادوا عليه من قبل، فاستغربوا ذلك منهم وقالوا : ما لكم ؟

قالوا : حيل بيننا وبين خبر السَّماء وأَرسلت علينا الشُّهب .

عندئذ أُدركوا أنَّه لا بدَّ من أن يكون أمر قد حدث، ولكنَّهم لا يعلمون الغيب، فقرروا أنْ يقوموا بالبحث، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها فمرَّ نفرٌ منهم بسوق عكاظ وكان النَّبي ﷺ يصلي صلاة الفجر بأصحابه.

فلما سمع هذا النَّفر من الجنِّ القرآن عرفوا السرَّ ، وقالوا : هذا الَّذي حال بيننا وبين خبر السَّماء ورجعوا إلى قومهم فقالوا كما حكى ربُّنا في الكتاب الكريم : ﴿فقالوا إنَّا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرُّشد فآمنَّا به ولن نشرك بربِّنا أحداً ﴾[3].

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ١٦٧ ـ ١٦٨ وصحيح البخاري ١/ ١٨٧ ط استانبول باب الجهر بقراءة صلاة الفجر وفتح الباري ٢/ ٢٥٣

(٢) سورة الجن ٩

(٣) سورة الجن: ١ ـ ٢

وقال : ﴿ أنَّا لمَّا سمعنا الهدى آمنا به ومن يؤمن بربِّه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً﴾[1] .

في هذا الحديث صورة حيَّة تنبض بالواقعيَّة والحركة عن أمر غيبي. . . . صورة فيها تحديد للمكان وفيها سرد للحوار الموجز المركز . . . وفيها الوصف الدَّقيق الواقعي . . . . وقد دلَّت اللَّوحة على أنَّ مساكن الجنِّ والشَّياطين ليست في السَّماء . . . . بل ربمَّا كان قسم كبير منها في الأَرض ، ودلَّت على أنَّ من الشَّياطين قوماً أَسلموا وصلح حالهم .

**

## الشَّيطان والصَّلاة :

ـ عن أبي هريرة أَنَّ النَّبيﷺ قال :

« إذا نودي بالصَّلاة أَدْبَر الشَّيطان وله ضراط حتَّى لا يسمع التَّأذين .

فإذا قضى التَّأْذين أَقبل ، حتَّى إذا ثوِّب بالصَّلاة أَدبر ، حتَّى إذا قضى التَّثويب أَقبل حتَّى يخطر بين المرء ونفسه يقول له : اذكر كذا واذكر كذا ، لما لم يكن يذكر من قبل ، حتَّى يظلَّ الرَّجل ما يدري كم صلى[2]» .

صورة تظهر الشَّيطان بمظهر السَّخيف المسيء . . . . الذَّي يفرُّ من الخير ويكره سماع الحق .

ها هوذا يدبر له ضراط عال حتَّى لا يسمع كلمة التَّوحيد وشعار الإِسلام .

صورة تثير الاحتقار والاشمئزاز . ولسوء طويَّته وسخفه لم يختر وسيلة تصرفه عن الأَذان إلاَّ الضراط ،إنَّ ذلك يزيد في احتقاره، ثُمَّ يقبل إذا انقضى التَّأذين حتَّى إذا

---

(١) سورة الجن : ١٣ .

(٢) صحيح البخاري ١/ ١٥٨ ط . كتاب الشَّعب . وصحيح مسلم ٤/ ٩١ وجاء ثانية في مسلم ٥/ ٥٧ وتتمتَّه هناك : فإذا لم يدر أحدكم كم صلىَّ فليسجد سجدتين وهو جالس . وأبو داود ١/ ٢٠٥ والدَّارمي ١/ ٢٧٣ ومسند أحمد ٢/ ٣١٣ والحديث في الموطَّأ والنَّسائي وغيرهما .




أُقيمت الصَّلاة أدبر أيضاً . . . حتَّى إذا قضى التَّثويب أقبل يقوم بصرف الإنسان المصلي عن العبادة وشغل ذهنه حتَّى يخطر بين المرء ونفسه يقول له : اذكر كذا ، اذكر كذا ، لما لم يكن يذكر من قبل ، حتَّى يظلَّ الرَّجل لا يدري كم صلى أثلاثاً أمْ أربعاً؟

**

ـ عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال :

«رصُّوا صفوفكم وقاربوا بينها ، وحاذوا بالأعناق ، فوالَّذي نفس بيده إنِّي لأرى الشَّيطان يدخل من خلل الصَّف كأنَّها الحذف[١] »[٢] .

يحضُّ الرَّسول ﷺ المسلمين على أنْ يتراصُّوا في صلاتهم ويرصُّوا صفوفهم ، ويقاربوا بينها ، ثُمَّ يحذِّرهم من أنَّ مخالفة هذا الأمر يتيح للشَّيطان أنْ يدخل في صفوفهم وإنَّهم ليكونون في منجاة من هذا كلِّه بأن يلتزموا آداب الشَّرع في الصَّلاة صفوفاً مرصوصة .

ثُمَّ يشبِّه دخول الشَّيطان فيهم بدخول الغنم الصِّغار الَّتي تستطيع الدُّخول إلى كلِّ مكان والَّتي تراها تقفز يمنة ويسرة .

والصُّورة مأخوذة من البيئة العربية الَّتي يكثر فيها الغنم . وقد جاء بها ﷺ هنا ليوضِّح الحقيقة الغيبيَّة بالمشهد اليومي الَّذي يراه النَّاس كلَّ يوم .

وما جاء في شرح كلمة ( الحذف ) من أنَّها غنم سود يتلاءم مع الشَّيطان الشرِّير الَّذي من همِّه أنْ يدخل بين المسلم وأخيه في صفِّ الصَّلاة ، وأنْ يدخل بين المرء ونفسه في الصَّلاة ليصرفه عن الصَّلاة والانتفاع بآثارها العميقة .

**

(١) الحذف : جاء في عون المعبود ١/ ٢٥١ ما يلي : (قال النَّووي : بحاء مهملة وذالّ معجمة مفتوحتين ، ثُمَّ فاء ،واحدتها حذفة مثل قصب وقصبة، قال الخطَّابي : والحذف غنم صغار سود ، ويقال إنهَّا أكثر ما تكون في اليمن ) ، وانظر معالم السُّنن ١/ ٣٣٣ .
(٢) أبو داود ١/ ٢٥٢ .






## الشَّيطان وتأثيره والحرز منه :

نودُّ أَنْ نختم هذا الفصل بذكر الحرز من الشَّيطان ، ونـرى أَنْ نذكر تأثـيره الكبير على الإنسان ، وقد سبق أَنْ أُشرنا إلى أُطراف منه، فلقد قرَّر رسول الله ﷺ أَنْ بدء المحاولات لإغواء الإنسان تكون عند ولادته:

ـ عن أَبي هريرة أَنَّ رسول الله ﷺ قال :

« ما من مولود يولد إلا نخسه الشَّيطان ، فيستهلُّ صارخاً من نخسة الشَّيطان إلاَّ ابن مريم وأُمَّه »[1] .

إنَّه الشَّيطان الرَّجيم الَّذي يدأَب على الإغواء والإيذاء!!

هذا الوليد العاجز الَّذي لا يدرك بعد من الدُّنيا شيئاً لا يتركه الشَّيطـان بل يسارع وينخسه نخسة مؤلمة تجعله يبكي . . . .

ولنا أَنْ نفهم أَنَّ بدء الإغواء مبكر . وأَنَّ أَمل الشَّيطان في أَن يحرز كسباً أَمل واسع . . . إنَّه إنْ لم يستطع الوسوسة والمخادعة والتَّـدجيل فلا ينبغـي أَنْ يفوتـه الإيذاء . . . وهو هنا نخس يبلغ بالمولود درجة البكاء .

إنَّ الطِّفل يتأَثَّر منذ اللَّحظات الأُولى لوناً من التَّأثر كما يقرِّر ذلك المختصون بالتَّربية . ويبدو أَنَّ الشَّيطان يريد أَلاَّ تفوته الفرصة .

ويذكر الرَّسول الكريم ﷺ أَنَّه لم ينج من هذه النخسة إلاَّ عيسى ابن مريم وأُمَّه .

**

وأَمَّا الحرز من الشَّيطـان فإنَّـه ميسـور للإنسـان إنْ صدق في الحـرص على النَّجاة . . . .

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ٩٤ ، وصحيح مسلم بشرح النَّووي ١٥/ ١٢٠ ، وانظر : فتح الباري ٦/ ٣٣٧ .



إنَّه محُقَّقٌ لمن يسلكون طريق الخلاص والاستقامة والحق . إنه اللجوء إلى الله والعوذ به . . . والركون إلى جنابه ، والتوجه إلى بابه .

إنَّ الله مع الصَّادقين . . . وهو مع الذين اتقوا والَّذين هم محسنون . ورحمته تبارك وتعالى غلبت غضبه . ويكفي العبد في إحرازه النَّجاة من كيد الشَّيطان ومكره وإغوائه أنْ يذكر الله ، ويرجع إليه . . . فهو سبحانه يذكر من يذكره وهو يحبُّ التَّوابين ويحب المتطهِّرين .

وقد دلَّنا رسول الله على ذكر معين نردِّده مرَّات معينة نضمن لأنفسنا حرزاً من الشَّيطان وذلك في الحديث الآتي :

ـ عن أَبي هريرة أَنَّ رسول الله ﷺ قال :

« من قال : لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ـ في يوم مائة مرَّة كانت له عدل عشر رقاب . وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشَّيطان يومه ذلك حتَّى يمسي . ولم يأْت أَحد أَفضل ممَّا جاء به إلاَّ أَحد عمل أَكثر من ذلك .

ومن قال سبحان الله وبحمده . في يوم مائة مرَّة حطَّت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر[1] »

ذكران مأثوران . . . يقالان يوميًّا . . . لمن يقولهما أُجر عظيم عبَّر عنه بصور رائعة سنقف أَمامها وقفة يسيرة .

أَمَّا الذِّكر المأثور الأَول فهو :

« لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد . وهو على كل شيء قدير » .

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ٩٥ وصحيح مسلم ١٧/ ١٧ .





من قال ذلك مائة مرَّة في يوم كان ثوابه معادلاً لعتق عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة . وكانت له حرزاً من الشَّيطان يومه ذلك حتَّى يمسي . وعتق الرِّقاب شيء في الإسلام جليل وثوابه كبير .

ويلاحظ أنَّ الحديث اتجَّه في تقدير الثَّواب إلى الاعتماد على الأَرقام، فالصُّورة هنا تلجأ إلى الأرقام ، وذلك لأَن الأَمر الطَّيب الفاضل أمر متَّصل بالأَرقام وهو أَن يقول هذا الذِّكر مائة مرَّة، فمن التَّناسق أَنْ تكون الصُّورة أيضا من الاتِّجاه نفسه، له من الثَّواب ما يعادل ثواب عتق عشر رقاب . وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة .

نحن أَمام ثواب وحسنات معدودة تسجَّل وتكتب ، وأَمام سيئات معدودات تمحى .

وفي الحديث أَنَّ هذا الجزاء يوميّ ، فلا بدَّ من أَنْ يستمرَّ كلَّ يوم حتَّى يستمرَّ الجزاء يومياً يدلُّ على ذلك قوله ( حتَّى يمسي ) .

وأَمَّا الحرز فهو حصن يقيه من الشَّيطان . . . ما أَجلَّه من ثواب وما أَعظمها من مكافأة . . . إنَّ البقاء في حرز من الشَّيطان صاحب التَّأثير الكبير الَّذي رأينا والعداوة الأَصلية الَّتي بيننا وبينه والإِمكانات الهائلة المتاحة له . . . إنَّ البقاء في حرز منه نعمة جليلة .

وأَمَّا الذِّكر الثَّاني فهو :

« سبحان الله وبحمده »

من قال ذلك في يوم مائة مرَّة حطَّت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر .

وصورة الخطايا الَّتي تشبه زبد البحر صورة تدلُّ على الكثرة، فزبد البحر يملأُ جوانب الأُفق . . . هذه الخطايا الكثيرة تحطُّ عنه عندما يقول هذا الذِّكر مائة مرَّة في اليوم .



وفي مجموع هذا الحديث تصوير لرحمة الله الواسعة وكرمه الفيَّاض وعفوه تبارك وتعالى .

**

## (٦) الفتن[١] :

### فتنة المسيح الدَّجال :

فتنة وردت فيها الأَحاديث الصَّحيحة الثَّابتة الكثيرة التَّي تشكِّل جزءاً كبيراً لو جمعت . وسوف أَقتصر على عرض بعض الأَحاديث منها الَّتي تضمنَّت صوراً فنيَّة جميلة .

ـ عن النَّواس بن سمعان في حديثه الطَّويل عن المسيح الدَّجال يرفعه للنَّبي ﷺ قال :

« ... ويمرُّ بالخربة فيقول لها : أَخرجي كنوزك . فتتَّبعه كنوزها كيعاسيب النَّحل [٢] . ثُمَّ يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسَّيف ، فيقطعه جزلتين[٣] رمية الغرض ، ثُمَّ يدعوه فيقبل ويتهلَّل وجهه يضحك ، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدَّر منه جمان كاللُّؤلؤ »[٤] .

يمرُّ المسيح الدَّجال بالخربة الزَّاخرة بالكنوز فيقول لها : أَخرجي كنوزك ، فتتَّبعه كنوزها كيعاسيب النَّحل ، يفعل هذا ليفتن النَّاس به .

---

(١) هذا موضوع كثر فيه التأليف قديماً وحديثاً ، ولكنَّ الملاحظ أنَّ الوضع في أحاديثه كثير حتَّى رويت عن الإمام أحمد الكلمة الشَّهيرة : ( ثلاث كتب لا أصل لها : المغازي والملاحم والتفسير ) انظرها في المقاصد الحسنة (٤٨١ وتمييز الطيِّب من الخبيث ١٩٨ والأَسرار المرفوعة ٣٩٩ وكشف الخفاء ٢/ ٤٠٢ والفوائد المجموعة ٣١٥ والفوائد الموضوعة ٥٠ والدُّرر المنتثرة ٢٤١ ،

(٢) هي ذكور النَّحل هكذا فسره ابن قتيبة ، قال القاضي عياض : المراد جماعة النَّحل لا ذكورها خاصَّة ، لكنَّه كنى عن الجماعة باليعسوب وهو أميرها لأنَّه متى طار تبعته جماعته .

(٣) أي قطعتين .

(٤) صحيح مسلم ١٨/ ٦٧ ـ ٦٨ .





وفي هذا النَّص صورة تعتمد على الوصف الَّذي يحكي لنا أمراً سيحدث .

وفي هذا الوصف تشبيه الكنوز الَّتي تتَّبع الدَّجال بيعاسيب النَّحل في سرعتها ولحوقها من تريد قرصه . وفي اختيار هذا التَّشبيه روعة تتَّصل بالمعنى أوثق اتِّصال وتحقِّق التَّناسق الفنِّي .

فظلال لحوق يعاسيب النَّحل تبعث في النَّفس المخاوف والحذر وتوقُّع الشرِّ .

وصورة وصفيَّة أُخرى وهي :

يدعو الدَّجال رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيَّف فيقطعه جزلتين رمية الغرض . . . ثُمَّ يدعوه فيقبل ويتهللُ وجهه يضحك .

هذا أمر غيبي سيحصل من المسيح الدَّجال ليفتن النَّاس يوهمهم أَنَّه يميت ويحيى . . . وإنهَّا لفتنة .

وفي قوله « ممتلئاً شباباً » صورة تعرض الشَّباب كأَنَّه شيء مادِّي يلمس ، ويملأ الرَّجل .

وفي قوله «رمية الغرض» تشبيه للَّرجل بأَنَّه كالغرض المقصود بالرَّمي ، وهذا بناء على قول القاضي عياض الَّذي قال : « وعندي أَنَّ فيه تقديماً وتأخيراً وتقديره فيصيبه إصابة رمية الغرض فيقطعه جزلتين » .

وفي الحديث :

«فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم ، إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدَّر منه جمان كاللؤلوء » .

وفي هذا الكلام صورة مركبة ، فالماء الَّذي يتحدَّر منه جمان يشبه اللؤلؤ ، فالصُّورة الأُولى ( تحدَّر منه جمان ) وهي استعارة كما يقول علماء البلاغة ، والصُّورة الثَّانية ( جمان كاللؤلؤ ) وهي تشبيه بينٌ .

**

ـ عن ابن عمر أنَّ رسول الله ﷺ ذكر الدَّجال بين ظهراني النَّاس فقال :

« إنَّ الله تعالى ليس بأعور . ألا وإنَّ المسيح الدَّجال أعور العين اليمنى كأنَّ عينه عنبة طافية »[1] .

وفي رواية قال ﷺ :

« ما بعث الله من نبي الا أنذر أمته : نوح والنبيون من بعده . وإنّه إنْ يخرج فيكم فما خفي عليكم من شأنه فليس يخفى عليكم : إنَّ ربَّكم ليس بأعور وإنه أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية »[2] .

الدجال يدعي الألوهية . . . ويأتي بخوارق تخدع السذج والعوام . ورسول الله ﷺ حذَّر أمته منه . . . شأنه في ذلك شأن الأنبياء من قبله ، فلم يبعث الله نبياً إلا أنذر قومه المسيح الدَّجال من لدن نوح إلى محمد ﷺ .

ولقد ذكر رسول الله ﷺ علامته بشكل لا يمكنه بعد ذلك أنْ يخفى على المؤمنين .

إنه أعور العين اليمنى ، وإنَّ عينه اليمنى هذه كعنبة طافية أيْ ناتئة مرتفعة ، والله تبارك وتعالى ليس كذلك ، تعالى الله عما يدَّعي الكاذبون علوًّا كبيراً .

والنَّص صورة تعتمد على التَّشبيه .

## الحال أيَّام عيسى :

أوردت هذا في الفتن لأن أحاديث عيسى وردت في باب الفتن ، ولأَن نزوله يكون بعد فتن عدَّة تنتهي بفتنة الدَّجال ويأجوج ومأجوج .

---

(١) صحيح مسلم ١٨/ ٥٩ .
(٢) صحيح البخاري ٨/ ٨٢ .

ـ في حديث النَّواس بن سمعان الطَّويل يحدِّثنا رسول الله ﷺ أنَّ نتن أجساد يأجوج ومأجوج ملأ الأرض فيقول :

« . . . فلا يجدون في الأَرض موضع شبر إلاَّ ملأَه زهمهم[١] ونتنهم ، فيرغب نبيُّ الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ثمَّ يرسل الله مطراً لا يكنّ منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأَرض حتَّى يتركها كالزُّلفة[٢] ثمَّ يقال للأَرض : أنبتي ثمرتك وردِّي بركتك .

فيومئذٍ تأكل العصابة من الرُّمانة ويستظلُّون بقحفها، ويبارك الله في الرسل[٣] حتَّى إنَّ اللَّقحة من الإبل لتكفي الفئام[٤] من النَّاس .

واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من النَّاس.

واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من النَّاس .

فبينا هم كذلك إذْ بعث الله ريحاً طيِّبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كلِّ مؤمن وكلِّ مسلم ، ويبقى شرار النَّاس يتهارجون فيها تهارج الحمر[٥] ، فعليهم تقوم السَّاعة[٦] »

ـ وعن أَبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

« والله لينزلنَّ ابن مريم حكماً عادلاً، فليكسرنَّ الصَّليب وليقتلنَّ الخنزير ، وليضعنَّ الجزية ، ولتتركنَّ القلاص فلا يسعى عليها ، ولتذهبنَّ الشَّحناء والتَّباغض والتَّحاسد ، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد »[٧] .

---

(١) أي وسمهم ورائحتهم الكريهة .
(٢) أيْ كالمرآة
(٣) اللبن .
(٤) الفئام : الجماعة الكثيرة .
(٥) أي يجامع الرِّجال النِّساء بحضرة النَّاس كما يفعل الحمير ولا يكترثون لذلك .
(٦) صحيح مسلم ١٨/ ٦٩ ـ ٧٠ .
(٧) صحيح مسلم ٢/ ١٩٢ .

صوَّر الحديث الثَّاني الواقع الَّذي سيكون أيام نزول سيِّدنا عيسى عليه السَّلام ، بما يدلُّ على أنَّ ما عليه النَّصارى الآن باطل لا يرضاه المسيح الَّذي ينتسبون إليه ، بل إنَّه ليحطمه ، يكسر الصَّليب وهم يعبدونه ، ويقتل الخنزير وهم يبيحونه ، ويضع الجزية عليهم وهم يأبونها ، ويذكر رسول الله ﷺ أنَّ الرَّخاء سيعم وأنَّه يدعى إلى المال فلا يرضى أحدٌ أنْ يأخذه ، وتذهب الشَّحناء والبغضاء والحسد . . . وتترك القلاص .

**

أمَّا الحديث الأوَّل فقد صوَّر لنا آثار جثث يأجوج ومأجوج . لقد ملأت الأرض نتناً ، فلا يبقى في الأرض موضع مهما كان صغيراً لم يصل إليه زهمهم ، فتضيق صدور النَّاس ويضجرون ويألمون . . . فيرغب نبيُّ الله عيسى ـ عليه السَّلام ـ وأصحابه إلى الله أنْ يخلِّصهم ممَّا هم فيه من الضِّيق والحرج ، فيرسل الله طيراً عظيمة كأعناق البخت وهي إبل معينة معروفة ، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله في مكان لا تصل إلى النَّاس منه روائحهم المنكرة ، وتغسل الأرض من آثارهم القذرة فيرسل الله أمطاراً غزيرة يعبِّر عن غزارتها بأنْ بيوت الوبر والمدر لا تكن منه ولا تحمى سكَّانها عن التأثُّر بها ، وما تزال الأمطار كذلك حتَّى تنظف الأرض ، وتصبح كالمرآة . . ثُمَّ تردُّ البركة إلى الأرض فتنبت ثمراتها كأعظم ما تكون الثَّمرات ، حتَّى إنَّ الرُّمانة الواحدة لتكفي العصابة الكبيرة من النَّاس ، وقحفها يظلُّهم ويبارك لهم في اللبن ، حتَّى إنَّ لبن النَّاقة يكفي العدد الكبير ، ولبن البقرة يكفي القبيلة ، ولبن الشَّاة يكفي الفخذ من النَّاس .

حياة سعيدة ، رغداء ، لا بغضاء فيها ولا شحناء ، ولا عسر ولا ضيق . بل بحبوحة تامَّة ، وبركة وافرة . وتقترب السَّاعة وتأزف فيبعث الله ريحاً طيِّبة تأخذ النَّاس تحت آباطهم فتقبض روح كلِّ مؤمن وكلِّ مسلم ولا يبقى إلاَّ شرار الخلق الَّذين بلغوا من الانحطاط درجة تهون على مجتمعهم أنْ يجامع الرِّجال النِّساء بحضرة

النَّاس دون مبالاة ولا اكتراث كما يفعل الحمير وذلك قوله : « يتهارجون تهارج الحمر » فعلى هؤلاء تقوم السَّاعة .

هذه الصُّورة الواقعية المبنيَّة على تفصيل دقيق لأحوال النَّاس قبل قيام السَّاعة أَيام سيِّدنا عيسى عليه السَّلام انطوت على صور فنِّية نودُّ أَنْ نشير إليها إشارات سريعة :

ـ فإذا أَراد التَّعبير عن المكان الصَّغير قال : « موضع شبر » ، فإذا لم ينج من الأَرض المعمورة كلّها موضع شبر من روائحهم النَّتنة دلَّ ذلك على تأَذي الأَرض كلّها من روائحهم وليذهب الخيال في تصوُّر المساحة الَّتي تغطيها جثث هؤلاء القتلى النتنة ما شاء أَنْ يذهب .

إنَّ زهمها ونتنها ملأَ القارات المعمورة !!!

ـ وصورة الطُّيور الغريبة الَّتي بعثها الله عزَّ وجلَّ لتخلِّص النَّاس من هاتيك الرَّوائح ، صورة مدهشة تشدُّ انتباه النَّاس السَّامعين . . إنهَّا طيور طويلة كأَعناق البخت . . . . وإذا كان من الطبيعي أنْ لا نعرف طبيعة هذه الطُّيور الَّتي سيخلقها الله لأَنهَّا غيب من الغيب لكنَّنا نعرف البخت الَّتي هي نوع من الإبل معروفة وقد ورد ذكرها في الحديث النَّبوي في أكثر من موضع .

ـ ويصوِّر الحديث غزارة المطر المدرار الَّذي ينظف الأَرض من زهمهم ونتنهم بأنَّه لا يقي منه بيت وبر ولا مدر ، وهي كناية عظيمة الدَّلالة عن شدَّة الغزارة والانهار .

ـ وغسل الأرض وتنظيفها وتخليصها من كلِّ آثار القذارات الَّتي خلَّفتها جثث القتلى يعبِّر عنه الحديث بأَنَّ الأَرض أَصبحت كالمرآة .

ـ والبركة في الثَّمرات والأَلبان يبدو في هذا الحديث بصور أَربع :



(١) فالرُّمانة الواحدة يأكل منها العدد الجمُّ الغفير من النَّاس الَّذي يجاوز الأربعين ويشبعون .
قال علماء اللُّغة : ( العصبة من الرِّجال ما بين العشرة إلى الأبعين ، والعصابة : بالكسر : الجماعة من النَّاس والخيل والطير )[١] .

وقحف الرُّمانة يظلُّ هؤلاء الآكلين الَّذين قد يصلون إلى الأَربعين أَوْ يجاوزونهم .

ويريد بالقحف مقعر قشرها ، شبَّهها بقحف الرأس وهو الَّذي فوق الدِّماغ [٢] .

(٢) وناقة واحدة يكحفي لبنها الفئام من النَّاس .

(٣) وبقرة واحدة يكفي لبنها القبيلة من النَّاس .

(٤) وشاة واحدة يكفي لبنها الفخذ من النَّاس .

ـ وصورة رائعة أُخرى هي هذه الرِّيح الَّتي تقبض أَرواح المؤمنين وتأخذهم تحت آباطهم .

وقد ورد وصف لهذه الرِّيح في حديث أَخرجه مسلم أَيضاً عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«لا تزال عصابة من أُمتَّي يقاتلون على أمر الله ، قهاهرين لعدوِّهم لا يضرُّهم من خالفهم حتى تأتيهم السَّاعة وهم على ذلك»

فقال عبد الله بن عمرو : أجلْ ثُمَّ يبعث الله ريحاً كريح المسك ، مسُّها مسُّ

---

(١) مختار الصِّحاح : مادة عصب .
(٢) شرح النَّووي : ١٨/ ٦٩ .





الحرير ، فلا تترك نفساً في قلبه مثقال حبَّة من الإيمان إلاَّ قبضته ، ثُمَّ يبقى شرار النَّاس ، عليهم تقوم السَّاعة »[1] .

صورة تعتمد على حاسَّة الشَّم وحاسَّة اللَّمس ، فرائحة هذه الرِّيح رائحة المسك ، ومسُّها مسُّ الحرير . والظِّلال الَّتي تلقيها هذه الرِّيح المميتة في نفوس السَّامعين ظلال رحمة ورأفة ، واعجب لريح مميتة تلقي مثل هذه الظِّلال :

ريح تأتي فتأخذ أرواح النَّاس من تحت آباطهم ، ريح طيِّبة الرَّائحة ، ليِّنة الملمس .

ـ وصورة تعرض لنا مستوى شرار الخلق الَّذين يبقون بعد تلك الرِّيح ، والَّذين تقوم عليهم السَّاعة . إنَّه مستوى منحط . . . يصل إلى مستوى الحمير يفعلون ما تفعل دون مبالاة أو حياء ، إنهَّم يتهارجون تهارج الحمر . قوم أشرار منحطُّون انسلخوا عن إنسانيتهم إلى طبائع الحمير !!

وبعد فإنَّه نص مليء بالصُّور الفنِّية الرَّائعة . . . وقد وقفنا أمامها قليلاً وأَشرنا إليها إشارات سريعة .

**

## أنواع الفتن :

ذكرت الأحاديث أنواعاً من الفتن :

ـ فمنها فتن تكفِّرها الصَّلاة والصَّدقة وهي فتنة المال والولد والأهل والنَّفس .

ـ ومنها فتن تموج كموج البحر .

ـ ومنها فتن كرياح الصَّيف .

---

(١) صحيح مسلم ١٣/ ٦٨ .

- ومنها فتن كقطع اللَّيل المظلم .
- ومنها فتن صماًء عمياء بكماء .
- ومنها فتن يرقِّق بعضها بعضها .
- ومنها فتنة الأَحلاس .
- ومنها فتنة السرَّاء .
- ومنها فتنة الدَّهماء .

ونودُّ أَنْ نعيش لحظات مع بعض هذه الأَحاديث الَّتي تصوِّر بعض هذه الفتن :

- عن حذيفة قال :

كنَّا عند عمر فقال : أيُّكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن ؟
فقال قوم : نحن سمعناه .
فقال : لعلَّكم تعنون فتنة الرَّجل في أَهله وجاره ؟
قالوا : أجل .
قال : تلك تكفِّرها الصَّلاة والصِّيام والصَّدقة . ولكن أيُّكم سمع النَّبي ﷺ يذكر الفتن الَّتي تموج موج البحر ؟
قال حذيفة : فأَسكت القوم ، فقلت : أَنا .
قال : أَنت ؟ لله أبوك (وفي رواية قال : إنَّك لجريء وكيف قال )[1] .
قال حذيفة : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً . فأَيُّ قلب أُشربها نكت فيه نكتة سوداء . وأيُّ قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتَّى تصير على قلبين :

- على أَبيض مثل الصَّفاة ، فلا تضرُّه فتنة ما دامت السَّموات والأرض .

---

(١) صحيح مسلم ١٨/ ١٧ .







ـ والآخر أسود مرباداً[1] كالكوز ، مجخيا[2] لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً إلاَّ ما أُشرب من هواه » قال حذيفة : وحدَّثته أَنَّ بينك وبينها باباً مغلقاً يوشك أَنْ يكسر .

قال عمر : أكسراً لا أبا لك . فلو أنَّه فتح لعلَّه كان يعاد ؟ قلت : لا . بل يكسر .

وحدَّثته أنَّ ذلك الباب رجل يقتل أَوْ يموت حديثاً ليس بالأغاليط[3] (قال أَبو خالد « وهو أحد رواة الحديث» : فقلت لسعد « وهو شيخه في السَّند » : يا أَبا مالك ! ما أسود مرباداً ؟

قال : شدةً البياض في سواد[4] . قال : قلت : فما الكوز مجخياً ؟ قال : منكوسا )[5] .

وفي رواية :

فقال عمر : ليس هذا أُريد . إنمَّا أُريد الَّتي تموج كموج البحر .
فقلت : مالك ولها يا أَمير المؤمنين ؟ إنَّ بينك وبينها باباً مغلقاً .

---

(١) قال ابن الأثير : واربدَّ أَيْ تغيرَّ إلى الغبرة ، وقيل : الرَّبدة لون بين السَّواد والغبرة ، ومنه حديث حذيفة في الفتن : أي قلب أشربها صار (مربداً) وفي رواية ( مرباداً ) هما من ( اربدّ ) (واربادّ ) • ويريد اربداد القلب من حيث المعنى لا الصُّورة فإنَّ لون القلب إلى السَّواد ما هو ، انظر النِّهاية في غريب الحديث ٢/ ١٨٣ .

(٢) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث : ١/ ٢٤٢ : ( المجخي: المائل عن الاستقامة والاعتدال فشبَّه القلب الَّذي لا يعي خيراً بالكوز المائل الذي لا يثبت فيه شيء ) .

(٣) صحيح مسلم بشرح النَّووي ٢/ ١٧٠ ـ ١٧٣ و١٨/ ١٧ وصحيح البخاري ١/ ١٤٠ ط كتاب الشَّعب .

(٤) قال القاضي عياض : كان بعض شيوخنا يقول :إنَّه تصحيف وهو قول القاضي أبي الوليد الكناني قال : أرى أنْ صوابه ( شبه البياض في سواد ) وذلك أنَّ شدَّة البياض في سواد لا يسمى (ربدة ) وإنما يقال لها (بلق) إذا كان في الجسم و( حور ) إذا كان في العين ، والربدة إنما هو شيء من بياض يسير يخالط السَّواد كلون أكثر النَّعام ومنه قيل للنَّعامة (ربداء ) .

(٥)صحيح مسلم ٢/ ١٧٣ .

قال : أفيكسر الباب أَمْ يفتح ؟

قلت : لا . بل يكسر .

قال : ذلك أحرى أَلاَّ يغلق أبداً .

قال فقلت لحذيفة : هل كان عمر يعلم من الباب ؟

قال : نعم ، كما يعلم أن دون غد الليلة[1] .

حديث مملوء بالصُّور الفنِّية الجميلة ، وهو يقرِّر أَنَّ هناك فتنة يسيرة تكفِّرها الصَّلاة والصِّيام والصَّدقة ، وهي فتنة الرَّجل في أَهله وجاره وماله ونفسه وولده .

وهناك فتن تموج كموج البحر، إذا وقعت استمرت في تدميرها وإهلاكها، وليس لها حدٌ تقف عنده .

والفتن تعرض على القلوب . وللقلوب منها موقفان :

- فهناك موقف الإشراب والقبول والتَّعلق والتَّجاوب .
- وهناك موقف الإنكار والرَّفض والمعارضة والتَّحذير .

فأَيُّ قلب أُشربها وقبلها وتعلَّق بها نكت فيها نكتة سوداء . وأيُّ قلب أَنكرها ورفضها وعارضها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتَّى تصير القلوب إزاء الفتن على نوعين :

(١) فإمَّا أَنْ يكون القلب أَبيض مثل الصَّفاة ، فعندئذ لا تضرُّه فتنة ما دامت الدُّنيا . . إنَّه ناعم أَبيض مظنَّة للخير واللَّين .

هناك أَصحاب قلوب طاهرة ، قوية الصِّلة بالله ، تنكر المنكر وتعرف المعروف ، إذا عرضت لها الفتنة رفضتها أَعظم الرَّفض . . . إنَّ هؤلاء القوم لا تضرُّهم فتنة .

إنَّ القلب الأَبيض الَّذي مثل الصَّفاة الملساء لا تؤثر فيه الرِّياح الهوج ولا

---

(١) صحيح مسلم ١٨/ ١٧ .





الرُّعود ولا البروق . . . إنَّه في صفائه جسَّد معنى الصَّفاء ، واحتفظ بلونه الأبيض ورسوخه في موضعه .

(٢) وإمَّا أَنْ يكون أسود مغبرًّا مثل الكوز المنكوس الَّذي لا يعي خيراً ولا يثبت فيه شيء .

إنَّ القلب المنكوس لا يستقرُّ فيه أَمر فاضل . . . إنَّه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً وليس فيه إلا ما أُشرب من هواه .

إنَّ الكأس المنكوس مهما وضعته تحت الماء المنهمر لا يمتلىء ولو بقيت الدَّهر كلَّه .

وهو أَسود مغبرٌّ . . . قاتم كالح . . . ليس مظنَّة الخير وليس لديه شيء من التَّفاؤل وتوُّقع الخير . . .

إنَّ هذه الفتنة تموج موج البحر، فإذا تعرَّضت لشيء جرفته ما لم يكن صفاة ثابتة راسخة . . . أَمَّا الكوز المنكوس فإنَّه فارغ خفيف تجرفه أَوَّل ما تجرف .

ومن الصُّور الرَّائعة في هذا الحديث أَنَّ عمر هو الباب الَّذي كان يحول بين النَّاس وبين الفتنة وأَنْ مقتله هو كسر الباب .

وهذا الحديث من أَعلام نبوَّة محمد ﷺ فمنذ كسر الباب لم يغلق حتَّى الآن . . . . ولن يغلق ـ وا أسفاه ـ حتَّى يرث الله الأرض ومن عليها .

**

## ـ ومن الفتن فتن كرياح الصَّيف :

ـ قال حذيفة بن اليمان ، قال رسول الله ﷺ وهو يعدُّ الفتن :

« منهنَّ ثلاث لا يكدن يذرن شيئاً، ومنهن فتن كرياح الصَّيف منها صغار ومنها كبار »[1]

ليتصوَّر خيالنا الفتن الَّتي لا تكاد تذر شيئاً أتت عليه . . . إنهَّا صورة تترك للخيال أنْ يذهب في تصوُّر هذه الفتن مذاهب شتَّى في التَّدمير والإفساد والإغواء . . . لا تذر شيئاً إلاَّ أَتت عليه . . لا تذر حياً إلاَّ قتلته ، ولا نباتاً إلاَّ قطعته ، ولا بنياناً إلاَّ هدَّمته .

ومنهن فتن كرياح الصَّيف ، منها صغار ومنها كبار .

ورياح الصَّيف يعرفها العرب أتمَّ معرفة ، فقد تكون ريحاً لا يحسُّ النَّاس بها إلا بصعوبة ، وقد تكون ريحاً تملأ الرَّحب الكبير والفضاء الواسع وتثير الغبار الَّذي يحجب الرُّؤية ، ويدخل كل بيت ، ويضيِّق على النَّاس سبيل التَّنفس . إنهَّا صورة مأخوذة من الحياة في الجزيرة العربية .

## ـ ومن الفتن فتن كقطع اللَّيل المظلم :

ـ عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« بادروا بالأعمال فتناً كقطع اللَّيل المظلم : يصبح الرَّجل مؤمناً ويمسي كافراً . أوْ يمسي مؤمناً ويصبح كافراً . يبيع دينه بعرض من الدُّنيا » .[2]

ـ وعن أبي موسى الأَشعري قال :

« إن بين يدي السَّاعة فتناً كقطع اللَّيل المظلم : يصبح الرَّجل فيها مؤمناً

(١) صحيح مسلم ١٨/ ١٥ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النَّووي ٢ / ١٣٣ ، ط . إستانبول ١ / ٧٦ .





ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً . القاعد فيها خير من القائم ، والماشي خير من السَّاعي ، فكسِّروا قسِّيكم ، وقطِّعوا أوتاركم ، واضربوا سيوفكم بالحجارة ، فإنْ دخل ـ يعني على أحد منكم ـ فليكن كخير ابني آدم» .[1]

فتن كقطع اللَّيل المظلم . . فتن متواصلة لا تكاد تجد فاصلاً بين فتنة وأخرى . . . فتن تحيط بالإنسان أينما ذهب ، إنهَّا كاللَّيل الذَّي يدرك المرء لا محالة حيثما هرب وأنَّى اتجَّه .

إنهَّا فتن إغواؤها شديد ، وإضلالها كثير ، ولا يقوى على النَّجاة منها ومن شرورها إلاَّ قليل .

يصبح الرَّجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، إنَّه حيران لا يستطيع أنْ ينتهي إلى حكم نهائي .

يغدو النَّاس في غمرة هذه الفتن تبعاً لأهوائهم ومصالحهم ، يتقلَّبون كما تتقَّلب . . . يبيع دينه بعرض من الدُّنيا قليل .

ويكاد المرء يرى بعض ذلك في تصرُّفات عددٍ من الضُّعفاء :

ترى الواحد منهم يبيع دينه بعرض حقير زائل من الدُّنيا . . وربما باع دينه بتوهُّم الحصول على مثل هذا العرض القليل . وما هو ببالغه . فيكون بذلك قد خسر الدُّنيا والآخرة .

وفي حديث أبي موسى المتقدِّم دعوة إلى البعد عن المشاركة في الفتن والاعتزال بعيداً عنها ما استطاع المرء إلى ذلك سبيلاً ، وقد وردت أحاديث مشابهة ، فيها الصُّور ذاتها .

ـ من هذه الأحاديث حديث أبي هريرة قال ، قال النَّبي ﷺ :

« تكون فتنة : النَّائم فيها خير من اليقظان ، واليقظان فيها خيرٌ من القائم ،

---

(١) أبو داود ٤ / ١٤١ .




والقائم فيها خير من السَّاعي ، فمن وجد ملجأ أو معاذاً فليستعذ » .[1]

- ومنها حديث أبي بكرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

« إنها ستكون فتن ، ألا ثُمَّ تكون فتنة : القاعد فيها خير من الماشي فيها ، والماشي فيها خير من السَّاعي إليها .

ألا فإذا نزلت - أوْ وقعت - فمن كان له إبل فليلحق بإبله ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه ، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه » .

قال : فقال رجل : يا رسول الله ، أرأيت من لم يكن له إبل ولا غنم ولا أرض ؟

قال : « يعمد إلى سيفه فيدقُّ على حدِّه بحجر ، ثُمَّ لينج إن استطاع النَّجاء ، اللَّهم هل بلغت ؟ اللَّهم هل بلَّغت ؟ اللَّهم هل بلَّغت ؟ »

قال فقال رجل : يا رسول الله ، أرأيت إنْ أُكرهت حتَّى ينطلق بي إلى أحد الصَّفين - أو إحدى الفئتين - فضربني رجل بسيفه أو يجيء سهم فيقتلني .

قال : « يبوء بإثمه وإثمك ويكون من أصحاب النَّار » .[2]

في هذه الأحاديث دعوة إلى عدم المشاركة في الفتن ، وقد سلك الرَّسول ﷺ إلى ذلك سبيل التَّصوير بالموازنة . فذكر أنَّ النَّائم في هذه الفتنة خير من اليقظان ، وأنَّ المضطجع خير من الجالس ، والجالس خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الساعي ، أيْ كلَّما استطاع المرء أنْ يكون أبعد عن المشاركة في الفتنة كان ذلك أسلم وأفضل ، وقد عبَّر عن الهادىء في الفتنة والتَّارك لها بالنَّائم ، وعن المشارك باليقظان وعن الأكثر مشاركة بها بالقائم والماشي ، وعن الدَّاعي لها بالسَّاعي إليها .

---

(١) صحيح مسلم ١٨ / ٩ .
(٢) صحيح مسلم ١٨ / ٩ - ١٠ ، وأبو داود ٤ / ١٤٠ .






فإذا نزلت الفتنة ولم يكن للإنسان بدٌّ من الاشتراك بها إن بقي مقيماً في أرضه فليلحق بإبله إنْ كانت له إبل وليهاجر إلى هناك .

ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه ، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه . ومن لم يكن له إبل ولا غنم ولا أرض فليلق سلاحه ولينج من أتونها إن استطاع النَّجاء .

فإنْ أُكره المرء حتَّى انطلق به إلى أحد الصَّفين فقتل كان يوم القيامة ناجياً ، وكان مثل ابن آدم المقتول ظلماً ، وباء القاتل بإثمه وإثم المقتول ، وكان من أصحاب النَّار .

ويشير الحديث إلى آية ابني آدم وهي : ﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدم إذْ قربا قرباناً فتقبِّل من أحدهما ولم يُتَقَبَّلْ من الآخر قال لأَقتلنَّك قال إنمَّا يتقبَّل الله من المتقين لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إنِّي أخاف الله رب العالمين إنِّي أُريد أنْ تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظَّالمين ﴾ .[1]

وفي هذه الأَحاديث كناية عن اعتزال القتال وإلقاء السِّلاح وذلك بقوله :

« يعمد إلى سيفه فيدقُّ على حدِّه بحجر»

***

ومن الفتن فتن ذكرها الحديث الآتي :

ـ عن عمير بن هانىء العبسي قال :

كنَّا قعوداً عند النَّبي ﷺ فذكر الفتن فأكثر في ذكرها حتَّى ذكر فتنة الأحلاس .[2]

فقال قائل : يا رسول الله وما فتنة الأَحلاس ؟

---

(١) سورة المائدة ٢٧ ـ ٢٨٩ .

(٢) الأحلاس : جمع حلس وهو الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت القتب .

قال : «هي هرب وحرب .[1]

ثمَّ فتنة السرَّاء دخنها[2] من تحت قدمي رجل من أهل بيتي يزعم أنَّه منِّي وليس منِّي . وإنمَّا أوليائي المتَّقون .

ثمَّ يصطلح النَّاس على رجل كورك على ضلع .[3]

ثمَّ فتنة الدَّهياء لا تدع أحداً من هذه الأمَّة إلاَّ لطمته لطمة ، فإذا قيل : انقضت تمادت . يصبح الرَّجل فيها مؤمناً ويمسى كافراً حتَّى يصير النَّاس إلى فسطاطين :

فسطاط إيمان لا نفاق فيه

وفسطاط نفاق لا إيمان فيه

فإذا كان ذاكم فانتظروا الدَّجال من يومه أو من غده» .[4]

فتن عدَّة سماَّها رسول الله ﷺ . فمن هذه الفتنة فتنة الأحلاس شبَّهها بها للزومها ودوامها وسواد لونها ، وكذلك تكون الأحلاس ملازمة لظهر البعير بصورة دائمة وتكون سوداء اللَّون غالباً .

وقد وصف هذه الفتنة بأنهَّا قائمة على الهرب والحرب ، أمَّا الهرب فإنَّ النَّاس يفرُّ بعضهم من بعضهم لما بينهم من العداوة والمحاربة والخوف والفزع .

وأمَّا الحرب فإنَّه النَّهب والسَّلب ومصادرة الأموال حتَّى لا يبقى عند المرء شيء .

وهي فتنة طويلة لا تكاد تنتهي ملازمة للنَّاس . ليس لها من دون الله كاشفة .

ومن هذه الفتن فتنة السرَّاء وهي الفتنة التَّي تكون بسبب تنعُّم النَّاس بالرَّخاء واليسر والصِّحة . وقد ذكر أنَّ هذه الفتنة يكون صدورها في عهد رجل من أهل بيت

---

(١) الحرب ( بالتحريك ) نهب مال الإنسان وتركه لا شيء له .
(٢) الدَّخن ( بالتَّحريك ) : مصدر دخنت النَّار تدخن إذا ألقي عليها حطب رطب فكثر دخانها .
(٣) هو مثل معناه الأمر الذي لا يثبت ولا يستقيم وذلك أنَّ الضِّلع لا يقوم بالورك ، وبالجملة يريد أنَّ هذا الرَّجل غير خليق للملك ولا مستقل به وجاء في النِّهاية : أي يصطلحون على أمر واه لا نظام له ولا استقامة لأن الورك لا يستقيم على الضِّلع ولا يتركَّب عليه لاختلاف ما بينهما وبعده .
(٤) أبو داود ٤ / ١٣٥ ، وانظر عون المعبود ٤ / ١٥٢ ـ ١٥٣ .





النَّبي ﷺ ويقرِّر بهذه المناسبة براءته من المنحرفين عن الجادَّة وأنَّ أولياءه هم المتَّقون . وقد شبَّه ظهورها وإثارتها بالدُّخان المرتفع النَّاشيء عن حطب ما يزال رطباً ، فدخانه يكون أشدُّ . ثُمَّ يصطلح المختلفون على رجل غير خليق للملك وقد عبَّر عن ذلك بهذه الصُّورة :

ثُمَّ يصطلح النَّاس على رجل كورك على ضلع ، وهي صورة مبنيَّة على مثل يستعمل للأمر الواهي الذي لا نظام له ولا استقامة .

ومن هذه الفتن فتنة الدَّهيماء ، والتصغير هنا للتَّعظيم كما هو معروف ، والدَّهماء السَّوداء . وقد وصف الرَّسول ﷺ فتنة الدَّهماء بصور واقعيَّة عظيمة فهي أولاً لا تدع أحداً من هذه الأُمَّة إلاَّ لطمته لطمة ، ولنتصوَّر الفتنة تلطم النَّاس فرداً فرداً حتَّى لا تدع أحداً . وهي طويلة فإذا قيل انقضت تمادت ( وقد وردت هذه الكلمة مشدَّدة ومخففة ) وفي كلِّ صورة . وهي فتنة تجعل النَّاس متقلبين يصبح الرَّجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، حتَّى يحصل تمايز بين النَّاس فينقسمون إلى معسكرين :

- فسطاط إيمان لا نفاق فيه .
- وفسطاط نفاق لا إيمان فيه .

ويكون بعد ذلك الدَّجال .

- وممَّا يتَّصل بنعمة السرَّاء ما أخبر النَّبي ﷺ أنَّ الأرض سيعمُّها اليسار والثَّراء .

- عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

« تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذَّهب والفضَّة » .[1]

صورة فنِّية رائعة ، الأرض حبلى بالمعادن الكثيرة ،والحديث يذكر هنا المعدنين : الذَّهب والفضَّة . والولادة عادة تكون من الأسفل ولكن الأرض في آخر الزَّمان عندما تنتكس الأُمور تطرح أفلاذ كبدها عن طريق القيء . ولهذه الصُّورة

(١) صحيح مسلم ٧ / ٩٨ .

ظلال التنفير من الدُّنيا، فهـذه المعـادن من الذَّهـب والفضَّـة قيء، فلا يغتـرَّ بهـا الإنسان.

**ـ ومن هذه الفتن فتنة عمياء صمّاء بكماء :**

ـ عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« ستكون فتنة صماَّء بكماء عمياء . من أشرف لها استشرفت له . وإشراف اللِّسان فيها كوقوع السَّيف » .[1]

ـ وعن حذيفة قال :

قلت : يا رسول الله ، هل بعد هذا الخير شر ؟

قال : «فتنة وشر» .

قلت : يا رسول الله ، هل بعد هذا الشرِّ خير؟

قال : «يا حذيفة ، تعلَّم كتاب الله ، واتبع ما فيه» (ثلاث مرار)

قلت : يا رسول الله ، هل بعد هذا الشرِّ خير ؟

قال : «هدنة على دخن ، وجماعة على أَقذاء فيها ـ أو فيهم» .

قلت : يا رسول الله ، الهدنة على الدَّخن وماهي ؟

قال : «لا يرجع قلوب أقوام على الذِّي كانت عليه» .

قال : قلت : يا رسول الله أُبعد هذا الخير شر ؟

قال : فتنة عمياء صمَّاء ، عليها دعاة على أبواب النَّار فإنْ تمت يا حذيفة وأنت عاض على جذل خير لك من أن تتبع أحداً منهم» .[1]

فتنة عمياء لا تبصر طريق الحق ، صمَّاء لا تسمع كلمة الرَّشاد ، بكماء لا تقول كلمة الخير . . . إنهَّا امرأة شريرة تمسك بيدها السِّلاح ، تضرب ذات اليمين وذات الشِّمال ، لا تفهم ولا يمكن أنْ تفهم ولا أنْ يتفاهم معها . وعندما توصـد منافـذ الإدراك يتعينَّ المضي في طريق الفتنة والعنف الشَّديد .

---

(١) أبو داود ٤ / ١٤٣ .
(٢) أبو داود ٤ / ١٣٧ .

إذا كانت هذه الفتنة فخير موقف منها هو البعد عنها وعن المشاركة فيها، فمن تطلّع لها تطلّعت له ، ولا يقل اللّسان في الفتنة عن السّيف .

الحديث ـ على إيجازه ـ زاخر بالتّصوير الرّائع ، فالفتنة عمياء صمّاء بكماء ، والسّيف أداة من أدواتها، واللّسان أداة أخرى وهو كالسّيف.

فإن استطاع المرء الاعتزال عن الدّخول في هذه الفتن كان ناجياً، وقد عبّر الرّسول الكريم ﷺ عن ذلك بأنْ يموت وهو عاض على جذل شجرة، فذلك خير له من أنْ يتّبع واحداً من دعاة الفتنة ، لأنّ هؤلاء الدّعاة يقفون على أبواب النّار ومن أجابهم أدخلوه فيها . . وهي صورة متحرّكة حيّة صورة تبدو لأعين خيالنا أبواب النّار وقد وقف على كل باب داع من دعاة هاتيك الفتنة يجرّ النّاس إلى الهلاك المحقّق والنّار المحرّقة .

وقد حدّد الحوار الذّي جرى بين حذيفة والنّبي ﷺ وقت هذه الفتنة الصّماء العمياء البكماء . . . إنهّا تأتى بعد سلسلة من التّحوّلات والتّقلّبات في المجتمع الإسلامي . . فهناك شر وفتنة بعد الخير العظيم الذّي عمّ النّاس أيام النّبي ﷺ ثمّ يأتى خير فيه دخن وقد بيّنه ﷺ أنّه لا ترجع قلوب النّاس إلى ما كانت عليه ، فتكون منطوية على شيء في نفوسها .

ثُمّ تأتي هذه الفتنة العمياء الصماّء بعد هذا الخير المشوب وقد مرّت بنا صورة الدّخن في الحديث السّابق ، ولكن صورة الدّخن هنا تأتي على وجه آخر إنّه العواطف المنحرفة المتمثّلة في الحقد والحسد والأثرة . . . . . إنّ هذه العواطف دخان يحجب كثيراً من معالم الخير في الأُمّة .

وهناك رواية أُخرى لحديث حذيفة يحسن أنْ نوردها كما جاءت في صحيح مسلم :

قال حذيفة بن اليمان :

ـ قلت : يا رسول الله ، إنّا كنّا بشرٍّ ، فجاء الله بخير فنحن فيه ، فهل من وراء هذا الخير شر ؟

ـ قال : «نعم .»

ـ قلت : هل وراء ذلك الشرِّ خير؟

ـ قال : «نعم .»

ـ قلت : فهل وراء ذلك الخير شر ؟

ـ قال : «نعم .»

ـ قلت : كيف ؟

قال : «يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي، ولا يستنون بسنَّتي ، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشَّياطين في جثمان إنس . . . ».[1]

وهذه الرِّواية فيها مزيد تحديد دقيق لهؤلاء الدُّعاة إنهَّم لا يستنُّون بسنَّة النَّبي ولا يهتدون بهداه . . وقلوبهم قلوب الشَّياطين وإنْ كانت أجسادهم أجساد إنس .

وفي رواية أُخرى :

قال : «نعم دعاة على أبواب جهنَّم من أجابهم إليها قذفوه فيها.

فقلت : يا رسول الله ! صفهم لنا.

قال : «نعم قوم من جلدتنا ويتكلَّمون بألسنتنا ».[2]

وما أكثر وجود هذه الصُّورة في عالمنا اليوم .

هذه أنواع من الفتن التَّي جاءت في الأحاديث معروضة من خلال صور فنيَّة جميلة ، وأود أنْ أختم الحديث عن هذه الأنواع بذكر حقيقة أشار إليها رسول الله ﷺ من أنْ الفتن العظيمة التي ستكون في آخر الزَّمان يرقِّق بعضها بعضاً ، فالأمور نسبيَّة والمسألة قد تكون شديدة ، ولكنَّها إذا قيست بمسألة أخرى بدت يسيرة رقيقة .

ـ عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال ، قال ﷺ :

« إنَّه لم يكن نبيٌّ قبلى إلاَّ كان حقاً عليه أن يدلَّ أُمتَّه على خير ما يعلمه لهم ،

(١) صحيح مسلم ١٢ / ٢٣٧ ـ ٢٣٨ .
(٢) صحيح مسلم ١٢ / ٢٣٧ .



وينذرهم شر ما يعلمه لهم ،وإنَّ أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها . وسيصيب آخرها بلاء وأمور ينكرونها ،و تجيء فتنة فيرقّق بعضها بعضاً[1] وتجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه مهلكتي . ثُمَّ تنكشف وتجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه . . هذه . . فمن أحب أَنْ يزحزح عن النَّار ويدخل الجنَّة فلتأته منيَّته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى النَّاس الذي يحبُّ أنْ يؤتي إليه . ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع ، فإنْ جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر » .[2]

إنَّ نهج الانبياء دلالة أممهم على خير ما يعلمون ، وإنذارهم شرَّ ما يعلمون .

إنَّ عافية هذه الأُمَّة من الفتن والمخالفات والمعاصي والبلاء في أوَّلها. وأخبر رسول الله ﷺ أنَّه سيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها وفتن حتَّى تجيء فتنة متعدِّدة الحلقات كل حلقة تالية أعظم من السَّابقة ، ويحسب المؤمن أنَّ كلَّ حلقة منها مهلكته . . ثُمَّ تنكشف وتجيء الأُخرى فيظنُّ المؤمن أنَّها هذه التَّي سيهلك فيها .

هذا وصف دقيق لما سيكون في آخر الزَّمان من الفتن ووصف لأحوال النَّاس فيما يتوقَّعون من آثارها .

فمن أحبَّ أنْ ينجو فليمت وهو ثابت على عقيدته ، محسن للناس ، وفيٌّ لبيعته لإمامه ما أستطاع إلى ذلك سبيلاً ، ولا يبايع الرَّجل إماماً آخر مهما كان السَّبب .

إنَّ الأُمور نسبيَّة ، فالفتنة الشَّديدة تبدو رقيقة إذا جاءت فتنة أشدُّ، والتَّصوير هنا كان عن طريق الموازنة . والفتنة تبدو في هذا النَّص ترقُّ وتغلظ، وذلك تجسيد لأمر معنوي . وهناك أيضاً في النَّص صور كانت عن طريق الوصف .

***

---

(١) قال النَّووي : أي يصيِّر بعضها بعضاً رقيقاً أي خفيفاً لعظم ما بعده ، فالثاني يرقق الأول ، رياض الصَّالحين ٤٣٨ ـ ٤٣٩

(٢) صحيح مسلم ١٢ / ٢٢٦ ، وانظر : رياض الصَّالحين ٤٣٨ ـ ٤٣٩ .

## (٧) متفرقات

نذكر في هذا الفصل أحاديث فيها صور لأمور تتّصل بعالم الغيب في موضوعات متعدّدة .

### الرُّوح :

ـ عن أبي هريرة قال :

« إذا خرجت روح المؤمن تلقّاها ملكان يصعدانها ـ قال حمّاد : فذكر من طيب ريحها وذكَر المسك ـ قال : ويقول أهل السّماء : روح طيِّبة جاءت من قبل الأرض !! صلىّ الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه .
فينطلق به إلى ربّه عزّ وجلّ ، ثمّ يقول : انطلقوا به إلى آخر الأجل .[1]

قال : وإنّ الكافر إذا خرجت روحه ـ قال حمّاد : وذكر من نتنها وذكر لعنا ـ ويقول أهل السّماء : روح خبيثة جاءت من قبل الأرض !!
قال فيقال : انطلقوا به إلى آخر الأجل .
قال أبو هريرة : فردّ رسول الله ﷺ ريطة[2] كانت عليه على أنفه هكذا .»[3]

إنّ الرُّوح من عالم الغيب ، وهذا الحديث يبينّ لنا كيف تستقبل روح كلٍّ من المؤمن والكافر بعد أنْ تغادر جسد صاحبها .

ـ أمّا روح المؤمن فإنّها إذا خرجت تلقّاها ملكان يصعدانها إلى السّماء بالتّكريم والاحترام ، وتكون طيِّبة الرِّيح كأنّما يفوح المسك من جوانبها . فعندما تصل إلى السّماء يقول أهل السّماء :

« روح طيِّبة جاءت من قبل الأرض . صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرنيه » .

---

(١) آخر الأجل : أورد العلماء شروحاً لها عدّة ، أرجحه في نظرنا هو : انقضاء أجل الدُّنيا .
(٢) الرَّيطة : ثوب رقيق ، وكان سبب ردّها على الأنف ما ذكر من نتن ريح روح الكافر .
(٣) صحيح مسلم ١٧ / ٢٠٥ .





ثناء طيِّب ، ودعاء كريم لهذه الرُّوح ،وللجسد الذَّي كانت فيه ، وفي ذلك ما فيه من بداية الإكرام الذي يستمر حتَّى ينتهي بصاحبه إلى الجنَّة .

والصلاَّة من الله رحمة ، ومن الملائكة دعاء . . ورحمة الله عندما تشمل روحاً فإنهَّا في سعادة وطمأنينة ورضى ونعيم لا يوصف .

ثُمَّ ينطلق بالرُّوح إلى الرَّب عزَّ وجلَّ فيأمر بها أنْ تبقى في الرَّحمة إلى آخر أجل الدُّنيا ،عندما تبعث الأجساد مرَّة أُخرى وتعود الأَرواح إليها ، إنهَّا ستكون في النَّعيم والسَّعادة إلى آخر الأجل .

ـ وأمَّا روح الكافر فإذا خرجت خرجت نتنة يلعنها النَّاس والملائكة ، فعندما تصل إلى السَّماء يقول أهل السَّماء : « روح خبيثة من قبل الأَرض » .
وإنَّنا لنتوقع أنَّ اللَّعنات تحفُّها ، والازدراءات تسبقها وتلحقها ، لكنَّ النَّص لا يذكر ذلك صراحة . ثمَّ يؤمر بها أَنْ تبقى في هذا الذي كانت فيه إلى آخر أجل الدُّنيا عندما تبعث الأجساد .
إنهَّا ستكون في عذاب إلى آخر الأَجل .

صورة تعتمد على وصف ما سيكون لهاتين الرُّوحين وفيها كلام الملائكة ودعاؤهم .

وقد زاد من وضوح الصُّورة ذكر حالة كلٍّ من روح المؤمن والكافر . وبضدِّها تتميَّز الأَشياء .

***

ـ عن حذيفة قال ، قال رسول الله ﷺ :

« تلقَّت الملائكة روح رجل ممَّن كان قبلكم
فقالوا : أعملت من الخير شيئاً ؟
قال : لا .
قالوا : تذكَّر .



قال : كنت أُداين النَّاس ، فآمر فتياني أنْ ينظروا المعسر ويتجوَّزوا عن الموسر .[١]

قال الله عز وجل : تجوَّزوا عنه » .[٢]

يبدو من خلال الحوار الحيّ الموجز في هذا النَّص أنَّ الرُّوح عندما تخرج من جسد صاحبها تتلقَّاها الملائكة وإنَّها تتعرَّض لمحاسبة .

والحديث يعرض لنا قصَّة روح رجل من الأمم التَّي كانت قبلنا . . . إنَّه رجل لم يعمل من الخير شيئاً ، فلمّا مات تلقَّت الملائكة روحه وسألوه : أعملت من الخير شيئاً ؟

وقد صدَقهم في الجواب ، وليس له في ذاك اليوم إلا الصِّدق ، فقال : لا وأعمال العباد مسجلة لا تضيع على صاحبها ولو نسيها ، وهم ينظرون في سجله ويعرفون شيئاً لم يذكره هو، فقالوا : تذكَّر، وشرع يتذكَّر . . . فذكر أمراً أخبرهم به وقال : كنت أداين النَّاس فأنظر المعسر وأتجوز عن الموسر ، أي أنتظر المعسر إلى أن يأتيه مال يقضى به ديني عليه ، وأتجوز مع الموسر في السّكة أو في النَّقد أو ما إلى ذلك . فقال الله عزَّ وجلَّ : تجوَّزوا عنه .

وفي رواية : « فكنت أُنظر المعسر وأتجوز في السّكة أو في النَّقد فغفر له » .

وفي رواية : « فكنت أتيسر على الموسر وأنظر المعسر فقال الله : أنا أحقُّ بذا منك » .

أوردت الحديث هنا لعلاقته بالرُّوح وهي من عالم الغيب . والصُّورة قائمة على الوصف .

وفي الحديث مكافأة من ينظر المعسرين ويتجاوز عن النَّاس ولا يكون في معاملته قاسياً .

---

(١) والتَّجوز المسامحة في الاقتضاء والاستيفاء وقبول مافيه نقص يسير . وفي رواية: أقبل الميسور وأتجاوز عن المعسور .

(٢) صحيح مسلم ١٠ / ٢٢٤ .





إنَّ الله يحبُّ الرَّجل السَّمح اللَّين في معاملة النَّاس .

***

ـ عن أَبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

« نفس المؤمن معلَّقة بدينه حتَّى يقضى عنه » .[1]

إنَّ أَمر الدَّين عظيم ، وقد يتهاون به كثير من النَّاس ، ولقد أراد رسول الله ﷺ أَنْ يبينً عظم أُمر الدّين ، وأَنَّ على المرء أنْ يسارع بتبرئة ذمَّته ، فجاء بهذه الصُّورة الرَّائعة المؤثِّرة :

إنَّ نفس المؤمن معلَّقة لا يبت في أُمرها بعد الموت إنْ كانت مدينة حتَّى يقضى الدَّين عنه .

ولنا أَنْ نتصوَّر نفس المؤمن معلَّقة كما تعلَّق الشَّاة الذَّبيحة ، لا تنزل حتَّى يقضى دينها . . . . وما أَشدَّ عذاب الإنسان المعلَّق الذي لا ينتهي فيه إلى شيء .

فإذا قضي دينه وهو مؤمن عمل الصَّالحات تحوَّل إلى الجنَّة وأُمر به إلى ما ينتظره من السَّعادة ، وإنَّ المسلم المرهف الحس عندما يتفاعل مع هذا الحديث يتخلَّص من الدُّيون التي عليه بسدادها حتَّى لا يداهمه الموت وهو مدين فتتعلَّق نفسه ولا يفكُّ أَسرها إلاَّ أَنْ يقضي ورثته دينه . . . وهيهات .

***

## الإيمان :

ـ عن أبي هريرة عن النَّبي ﷺ قال :

« الإيمان قيد الفتك . لا يفتك مؤمن » .[2]

---

(١) التِّرمذي : ٢ / ١٦٦ .
(٢) أبو داود ٣ / ١١٦ .

إنَّ الايمان يبدو في هذا النَّص قيداً يمنع صاحبه من الفتك ، كما يمنع القيد المرء من الحركة والدُّخول والخروج ، فالمؤمن لا يفتك .

إنَّ الايمان وحده هو الذِّي يمنع الجريمة منعاً حقيقيّاً ، أمَّا العوامل الأُخرى كالقانون أو الضَّعف أوْ المصلحة فإنهَّا قد تحول دون وقوع الجريمة ما دام سيف سلطان هذه العوامل مصلتا فوق الرُّؤوس ، ويتغيرَّ الحال إذا ضعف سلطانها أوْ زال بل إنَّنا لنرى كم جنى العلم والتَّقدم الماديّ على النَّاس والحق ووضع في يد الجريمة أسلحة فتَّاكة ماضية .

إنَّ الايمان قيد الفتك .

***

ـ عن العباس بن عبد المطلب أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول :

« ذاق طعم الايمان من رضي بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمّد رَسولاً » .[1]

الإيمان له طعم وحلاوة ، ويذوق طعمه من رضى بهذه المعتقدات وهي أنَّ الله ربّه والإسلام دينه ومحمداً ﷺ رسول من عند الله . فمن رضي هذه المعتقدات من قلبه ذاق طعم الايمان .

وفي ذلك تصوير المعاني بأُمور محسَّة ، فالإيمان أمر معنوي ، ولكنَّه يبدو هنا في النَّص شيئاً طيِّباً يذوق طعمه ناس معيَّنون .

***

ـ عن أنس قال ، قال رسول الله ﷺ :

« ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الايمان :
من كان الله ورسوله أَحبَّ إليه ممَّا سواهما
وأنْ يحب المرء لا يحبُّه إلاَّ لله

(١) صحيح مسلم ٢ / ٢ .







وأنْ يكره أنْ يعود في الكفر بعد أنْ أنقذه الله منه كما يكره أنْ يقذف في النَّار » .[1]

للإيمان حلاوة يذوقها من كانت فيه خصال ثلاثة عالية كريمة ذكرها الحديث وهي :

حبُّ الله ورسوله حبّاً يفوق حبَّه كلَّ شيء آخر
والحبُّ في الله
وكراهية العودة إلى الكفر

فمن وجدت فيه هذه الخصال تذوق حلاوة الإيمان .

وقد قال العلماء : معنى حلاوة الإيمان استلذاذ الطَّاعات وتحمُّل المشقَّات في رضى الله عزَّ وجلَّ ورسوله ﷺ ، وإيثار ذلك على عرض الدُّنيا ، ومحبَّة العبد ربَّه سبحانه وتعالى بفعل طاعته وترك مخالفته ، وكذلك محبَّة رسول الله ﷺ وفي النَّص صورة أخرى قائمة على التَّشبيه وهي قوله ﷺ : « وأنْ يكره أنْ يعود في الكفر بعد أنْ أنقذه الله منه كما يكره أنْ يقذف في النَّار » .

فإذا كانت كراهيته للعودة في الكفر مثل كراهيته أنْ يقذف في النَّار كان بسبب ذلك من الذَّين يجدون حلاوة الايمان .

والصُّورة فيها تناسق رائع فالدُّخول في الكفر دخول في النَّار والخروج منه إنقاذ من الله .

## الشَّيب نور المسلم يوم القيامة :

ـ عن عبد الله بن عمرو قال ، قال ﷺ :

« لا تنتفوا الشَّيب فإنَّه نور المسلم يوم القيامة » .[2]

الشَّيب نور المسلم يوم القيامة . . إنَّ هذا الشَّيب الذَّي يحزن لحلوله النَّاس ،

(١) صحيح مسلم ٢ / ١٣ ، وصحيح البخاري ١ / ٩ ـ ١٠ و ١١ .
(٢) رياض الصَّالحين ٩٠٣ وعزاه إلى أبي داود والتِّرمذي والنَّسائي ، وقرَّر النَّووي أنَّه حسن .

ويفرُّون منه بالنَّتف أو الصَّبغ أو ما إلى ذلك إنَّه يكون نور المسلم يوم القيامة، وما أغلى النُّور في ذلك اليوم العصيب ، وما أشدَّ حاجة النَّاس إليه .

وهناك تناسق جميل في الصُّورة فإنَّ مِمَّا يناسب الشَّيب الأبيض النُّور، والصُّورة هنا قائمة على التَّشبيه .

***

## عمل الإنسان :

ـ عن أنس قال ، قال رسول الله ﷺ :

« يتبع الميت ثلاثة ، فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يتبعه أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله ، ويبقى عمله » .[1]

إنَّ عمل الإنسان باقٍ والأمور الأخرى إلى تحوُّل . يعرض الرَّسول الكريم ﷺ هذا المعنى المجرَّد من خلال هذه الصُّورة التَّي نطالعها في الحديث .

إنَّ النَّاس يتفاوتون بأمور ويرتفع بسببها بعضهم على بعض ، وهي زائلة عن أصحابها، أمَّا الشَّيء الباقي الذي لا يفارق صاحبه فهو عمله الطَّيب والخبيث. يتبع الميت أهله يشيِّعونه ، وهذا أمر مشاهد ، وربمَّا لا يحدث إمّا لأنَّ الرَّجل غريب ليس في بلد أهله أو كان عديم الأهل . وقد يتبعه عبيده إنْ كان هناك عبيد أو دواب كثيرة مِمَّا كان يملك أوْ كان ماله سبباً في خروج كثير من النَّاس. وهذا كلّه يندرج تحت كلمة ( المال ) . وهذا أمر قد يشاهد في عدد من النَّاس . وربمَّا لا يحدث إمّا لأنَّ الرَّجل الميت قليل المال أو عديمه .

أمَّا العمل فإنَّ خروجه مع الميت أمر محقَّق وإن كان غير مرئي .

وهذا أمر لا بدَّ أنْ يحدث لأنَّ لكلِّ إنسان عملاً سواء أكان العمل طيِّباً أو خبيثاً .

---

(١) صحيح البخاري ٧ / ١٩٣ وصحيح مسلم ١٨ / ٩٥ وانظر : رياض الصالحين صـ ١٢٠ .

إنَّ عمل الإنسان هو الذي يتبعه ويرافقه في حالاته وأوضاعه وهو الذّي يبقى له ويكافأ عليه ، فالصُّورة فيها أجزاء مرئية ممكنة الحدوث وقد تتخلف . وفيها جزء غير مرئي ولكنَّه محقَّق .

إنهَّا صورة يرى بعضها ويخفى بعضها ، ويستطيع الخيال أَنْ يقيس هذا على ذاك .

***

**الضَّلال ختم :**

من الأُمور المتَّصلة بعالم الغيب الضَّلال ، وقد عبَّر الحديث عنه بصورة فنيَّة وذلك عندما صوَّره بالختم . . زجاجة مختومة . . . إناء مختوم . . لا يدخل فيه شيء مهما عمل الإنسان في ذلك .

عن ابن عمر وأبي هريرة أَنهَّما سمعا رسول الله ﷺ يقول على أعواد منبره :

« لينتهينَّ أَقوام عن ودعهم الجمعات أَو ليختمنَّ الله على قلوبهم ثُمَّ ليكونُنَّ من الغافلين » .[1]

وهذه صورة قرآنية جاءت في أوَّل سورة البقرة وذلك في قوله تعالى :

﴿ إنَّ الذّين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أَمْ لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أَبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾ .[2]

إنهَّم قوم أَغلقوا على أنفسهم نوافذ الخير وأَبواب الهدى وسدُّوا في وجوههم كلَّ طريق ينتهي بهم إلى الضِّياء والنُّور ، إنهَّم ألفوا الظَّلام فلم يعودوا يستطيعون أَنْ يتحوَّلوا عنه .

---

(١) صحيح مسلم ٦ / ١٥٢ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٧ .



وعندما يغلق المرء منافذ الخير وأبواب الهدى ويسدُّ طرق النُّور في وجهه لا بدَّ من أنْ يكون مقيماً في الشرِّ والضَّلال والظُّلمات .

إنَّ له أُذناً وعيناً وقلباً ولكنَّه قد عطَّلها جميعاً فالأُذن والقلب مختوم عليهما مقفولان بقفل غليظ . . إنَّه لا يعي لأنَّه لا يسمع ولا يرى . ولو كان يسمع ما وعى لأنَّ قلبه ختم عليه كما قال تعالى :

﴿ ولقد ذرأنا لجهنَّم كثيراً من الجنِّ والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أُولئك هم الغافلون ﴾ .[١]

هذه الصُّورة القرآنية وردت في هذا الحديث تهديداً لمن يتركون صلاة الجمعة . . وإنَّه والله لتهديد مخيف شديد . . . يهبط بالإنسان في الدُّنيا إلى دركة الحيوان وينتهي به في الآخرة إلى جهنَّم وبئس المصير .

- وعن أبي الجعد الضمري قال ، قال رسول الله ﷺ :

« من ترك الجمعة ثلاث مرَّات تهاوناً بها طبع الله على قلبه » .[٢]

وفي رواية عنه :

« من ترك ثلاث جمع تهاوناً بها طبع الله على قلبه » .[٣]

والحديث في معنى الحديث المتقدِّم .وفيه كناية عن استحكام الغفلة وامتناع وصول الخير إليه .

***

---

(١) سورة الأعراف ١٧٩ .
(٢) الترمذي ١ / ٣٥٩ .
(٣) أبو داود ١ / ٣٨٠ .





## الظُّلم ظلمات :

ـ عن جابر أنَّ رسول الله ﷺ قال :

«اتَّقوا الظُّلم ، فإنَّ الظُّلم ظلماتٌ يوم القيامة . واتقوا الشحَّ ، فإنَّ الشحَّ أهلك مَنْ كان قبلكم حملهم على أنْ سفكوا دماءهم واستحلُّوا محارمهم» .[1]

الظُّلم الذَّي هو من شيم النُّفوس ، وتجدُ في اقترافه شفاء لها وانتصاراً لإرادتها . . هذا الظُّلم يكون يوم القيامة ظلمات تحيط بالظَّالم . . فلا يدري أين طريق الخلاص ؟

وقد تكون هذه الظُّلمات في نار جهنَّم . . إنهَّا ظلمات منوعة لا يعلم حقيقتها إلاَّ الله تعالى . صورة رائعة . وفي الحديث تعبير عن الشحِّ بذكر أثره في الأُمم السَّابقة ، فلقد كان الشُّح سبباً في هلاك الأُمم واندثارها ، وصوَّر الهلاك بأنَّه سفك بعضهم دماء بعض وبأنه استحلال المحارم ، وفي هذا التَّصوير إبراز لحقيقة الشح على نقيض ما كان يحسب الأشحاء ، فهم إنمَّا يضنُّون ويحرصون على المال إيثاراً منهم للذَّة والهناء والعيش الرَّغيد وما دروا أنَّه سبب للشقاء والموت والهلاك .

وفي الحديث مراعاة لبعض المحسنات اللَّفظية ، فهذا الجناس في قوله « الظُّلم ظلمات » أضفى على النَّص جمالاً على جمال .

***

## قصَّة اللَّعنة :

ـ عن أبي الدَّرداء قال : قال رسول الله ﷺ :

« إنَّ العبد إذا لعن شيئاً سعدت اللَّعنة إلى السَّماء فتغلق أبواب السَّماء دونها ، ثُمَّ تهبط إلى الأرض فتغلق أبوابها دونها ، ثمَّ تأْخذ يميناً وشمالاً فإذا لم تجد مساغاً

---

(1) صحيح مسلم ١٦ / ١٣٤ ، وقد أورد البخاري في صحيحه ٣ / ٩٩ حديث ابن عمر عنه ﷺ أنَّه قال : « الظُّلم ظلمات يوم القيامة » .

رجعت إلى الذّي لعن ، فإن كان لذلك أهلاً وإلاّ رجعت إلى قائلها » .[1]

حديث يعرض قصّة اللّعنة ويرصد حركاتها ويذكر مآلها ونهايتها .

والغرض من هذا التّصوير التّنفير من اللّعن والتّخويف منه ، ذلك لأن اللّعن ليس من صفات المسلمين ، وها نحن أولاء نشاهد قصّة اللّعنة وتحرُكاتها :

إذا لعن المرء شيئاً ( إنساناً أو دابّة أو أيّ شيء ) صعدت اللّعنة إلى السّماء . . . ولكنّنا نفاجأ بأنّها لا تستمرُّ في صعودها لأنّها تجد أبواب السّماء مغلقة دونها . . . فتحاول عندئذٍ أن تعود إلى الارض لتستقرَّ في أيِّ مكانٍ منها ، ولكنّها تجد أبواب الأرض مغلَقة دونها . . . تأخذ يميناً فلا تجد مساغاً وتأْخذ شمالاً فلا تجد مساغاً . . . فعندئذٍ ترجع إلى الذّي لعنه اللاعن وتنظر في حاله ، فإنْ كان لذلك أهلاً أصابته وحلّت عليه . . . وإنْ لم يكن أهلاً للعن رجعت إلى قائلها وحلّت عليه .

إنّها قصّة تبدو من خلالها اللّعنة شيئاً يصعد ويهبط ويسير ذات اليمين وذات الشّمال وإنّها لا تتوجّه إلى الملعون إلا بعد رحلة طويلة وربّما رجعت إلى قائلها إن لم يكن ذاك مستحقاً لها .

إنّ هذا الحديث يصوِّر مسؤوليّة اللّعن ويصوِّر عاقبته على هذا النّحو الحسّي المتحرِّك .

وهذه القصّة تتصل بأمر غيبي .

***

## البراق :

ـ عن أنس أنّ رسول الله ﷺ قال :

« أتيت بالبراق ، وهو دابة أبيض طويل ، فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه » .[2]

---

(١) أبو داود ٤ / ٣٨١ .

(٢) صحيح مسلم ٢ / ٢١٠ .





وفي رواية :

« يقع خطوه عند أقصى طرفه » .[1]

صورة تعتمد على الوصف الدّقيق ، والموازنة :

فهو أبيض طويل .

وهو أكبر من الحمار ودون البغل .

أمَّا سرعته الفائقة فقد عبَّر الحديث عنها بهذه الصُّورة الفريدة : إنَّه يضع حافره عند منتهى طرفه .

ما هذا الحافر الغريب الذي يستطيع أنْ يمتد بقفزة يندهش الخيال لتصورها؟ إنَّ مسافة الخطوة الواحدة أقصى ما تراه العين .

جاء في النِّهاية : « وفي حديث المعراج ذكر البراق ، وهو الدَّابة التي ركبها النَّبي ﷺ ليلة الإسراء ، سُمِّي بذلك لنصوع لونه وشدَّة بريقه . وقيل : لسرعة حركته . شبهه فيهما بالبرق » .[2]

ففي كلام ابن الأثير ما يشعر بأنَّه شبَّه هذه الدَّابة الغيبيَّة بالبرق إمَّا لسرعتها وهذا الأرجح في نظري وإمَّا لنصوع لونها وشدَّة بريقه .

***

**الوحي :**

ـ عن عائشة أنَّ الحارث بن هشام سأل النَّبي ﷺ :

ـ كيف يأتيك الوحي ؟

---

(1) صحيح مسلم ٢ / ٢٢٣ .

(2) النِّهاية : ١ / ١٢٠ .



! فقال : «أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشدُّ علي ، ثمَّ يفصم عنِّي وقد وعيته» .[1]

يأتي الوحي أحياناً رسول الله ﷺ في مثل صلصلة الجرس ، وهو أشدُّ ما يكون على النَّبي ﷺ .

صورة تعتمد على التَّشبيه ، يتحدَّث عن حالة من حالات الوحي ، ذلك كلَّه أمر غيبي لا نعلم بوسائلنا البشريَّة العاديَّة حقيقته وماهيتَّه .

***

## بعث النَّاس كنبات البقل :

ـ عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

« . . . ويبلى كل شيء من الإنسان إلاَّ عجب ذنبه فيه يركب الخلق ثمَّ ينزِّل الله من السَّماء ماء فينبتون كما ينبت البقل » .[2]

الحديث يبحث في أمر غيبي يتصَّل بيوم البعث والحشر . . فهذا الإنسان يبلى كل شيء فيه إلاَّ عظم صغير الله أعلم بحجمه . . هذا الجزء الصَّغير فيه يركب الخلق ، فينزِّل الله من السَّماء ماء . . فتتم عملية التَّركيب . . ينبت النَّاس من قبورهم كما ينبت البقل .

خلق يعاد تركيبه . . وينمو ويتصاعد وينبت كما ينبت البقل . . .

والأَصل الَّذي يكون منه الخلق هو عجب الذَّنب ذاك العظم الصَّغير .

صورة فيها وصف لأَمر غيبي سيتم في يوم البعث ،وفيها تشبيه لما سيحصل من النُّمو بنبات البقل .

**

(١) صحيح مسلم ١٥ / ٨٨ وصحيح البخاري ١ / ٢ ط كتاب الشَّعب وانظر ما كتبته عن الوحي في كتابي « لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير » .

(٢) متفق عليه ، وانظره في « رياض الصَّالحين » ١٠٠١ وانظر كلام العلماء في تأويل الحديث في فتح الباري .





## الثَّواب كالجبال :

الثَّواب أَمر معنويّ وقد صوَّره الرَّسول ﷺ بصورة حسيَّة تعتمد على التَّشبيه .

ـ عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

« من شهد الجنازة حتَّى يصليَّ عليها فله قيراط ومن شهدها حتَّى تدفن فله قيراطان » .

قيل : وما القيراطان ؟

قال : « مثل الجبلين العظيمين »

وفي رواية :

قال : « أَصغرهما مثل أحد »[1]

وفي رواية البخاري عن أَبي هريرة أَنَّ رسول الله ﷺ قال :

« من اتَّبع جنازة مسلم إيماناً واحتساباً وكان معه حتَّى يصلى عليها ويفرغ من دفنها فإنَّه يرجع من الأَجر بقيراطين كل قيراط مثل أُحد ومن صلى عليها ثم رجع قبل ان تدفن فانه يرجع بقيراط»[2] .

تصوير لقيراط الثواب أنه مثل الجبل العظيم . وفي ذلك تجسيد للأمور المعنويَّة بصورة حسيَّة .

وفي رواية البخاري زيادة اشتراط أن يكون عمله الَّذي قام به خالصاً لله سبحانه إيماناً واحتساباً .

**

(١) صحيح مسلم ٧/ ١٣ وفي الترمذي ٢/ ١٥٠ : « من صلىَّ على جنازة فله قيراط ومن تبعها حتَّى يقضي دفنها فله قيراطان أَحدهما أو أَصغرهما مثل أحد » . وقريب من هذه الرِّواية رواية أَبي داود ٣/ ٢٧٥ .

(٢) صحيح البخاري ١/ ١٨ ـ ١٩ ط كتاب الشَّعب .

تبينَّ لي بعد دراسة الصُّور الواردة في أَحـاديث موضوعـات عالـم الغيب ما يأتي :

(١) كان أكبر قدر من الصُّور في موضوع الجنَّة والنَّار ويوم القيامة ، وهي من الأُمور المغرقة في الغيبيَّة الَّتي تحتاج إلى بيان وتقريب وإفهام وكان التَّصوير وسيلة فعَّالة لإدراك ذلك كلِّه .

(٢) معظم الصُّور حسيَّة ، وهذا ينسجم تماماً مع معنى الصورة ، لا سيماً عندما تكون الصُّورة لإيضاح أمر غيبيّ لا يخضع للّحواس .

(٣) كثير من الأحاديث يعتمد على أكثر من طريقة فنيَّة في التَّصوير ويبلغ درجة دقيقة من التَّحليل الَّذي يتغوّر في أَعماق الشَّيء سواء أكان موصوفاً عياناً أَوْ رمزاً .

(٤) تعتمد الصُّور غالباً على مشاهد حيَّة من البيئة العربية الَّتي يعيش فيها السَّامعون .

(٥) صور كثيرة واردة في أَحاديث قدسيَّة ولا بدَّ أَنْ نشير إلى أَنَّ الحديث القدسِّي هو كلام الله في المعنى .

وأمَّا اللفظ فهو للَّرسول ﷺ ومن هنا أَدخلنا الأحاديث القدسَّية في بحثنا .

وتفصيل القول في هذه المسألة ذكرته في كتابي ( الحديث النَّبوي )[1] ولا أُريد أَنْ أَستطرد فأُورد ما ذكرته هناك . ولكنَّني أَكتفي بأَنْ أُقرِّر أَنَّ هذا القول هو القول الرَّاجح لأَدلَّة عدَّة استوفيتها في الموضع المشار إليه .

---

(١) الحديث النبويّ : ص ١٦٠ ـ ١٦٩ الطَّبعة الثَّالثة .

# الباب الثاني

## الصور الحسيّة والمعنويّة

### في عالم الشهادة

إنَّ أكثر الصور الجميلة التي وقفت عليها في حديث رسول الله ﷺ ممَّا يتَّصل بعالم الشَّهادة تعود إلى تقريره ﷺ أحكام الأَركان العمليَّة وهي الصَّلاة والزَّكاة والصَّوم والحجّ ، وهذه الأَركان بطبيعتها العمليَّة تختلف اختلافا واضحاً عن عالم الغيب من ناحية الإدراك العقلي وقدرة البشر على الإحساس به وتخيُّله ، ولهذا اختلفت الصُّور بحسب اختلاف طبيعة العالمين ، وكانت حاجة الرسول ﷺ إلى تصوير عالم الشَّهادة للمؤمنين أقل من حاجته إلى التَّصوير في عالم الغيب الَّذي يبعد إدراكه والإحساس به وتستحيل معاينته ولا بدَّ للمرء فيه من قدرة على التَّخيل ، فكان التَّصوير في الحديث النَّبوي تمكيناً له من هذه القدرة .

**(١) الصَّلاة :**

الصَّلاة من أعظم أركان الإسلام حتَّى ذهب علماء الحنابلة إلى أنَّ تاركها كسلاً كافر يقتل كفراً . وأجمع المسلمون على أنَّ تاركها جحوداً كافر مرتد ليس من الإسلام في شيء ، وذهب جمهور العلماء إلى أن تاركها كسلاً يقتل حدًّا بعد أنْ يستتاب .

وقد رأيت صوراً فنيَّة كثيرة في كتب السُّنة في موضوع الصَّلاة سأختار عدداً منها في هذا الفصل :





والوضوء هو المقدمة الَّتي تسبق الصَّلاة ولا تصحُّ إلاَّ به لقوله تعالى :

﴿ يا أيُّها الَّذين آمنوا إذا قمتم إلى الصَّلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾[1].

ـ ومن الأُمور المتَّصلة بالوضوء ، الماء :

فالماء يبرز في الحديث كائناً حيًّا وذلك كما في الحديث الآتي :

ـ عن ابن عمر قال :

سمعت رسول الله ﷺ وهو يسأل عن الماء يكون في الفلاة من الأَرض وما ينوبه من السِّباع والدَّواب قال :

« إذا كان الماء قلَّتين لم يحمل الخبث »[2]

ـ ومن الأُمور المتَّصلة بالوضوء التي تسبقه قضاء الحاجة، وهناك أَحاديث عدَّة تعرض إلى هذا الموضوع وتبينً آدابه :

ـ عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

« إنما أَنا لكم بمنزلة الوالد أُعلِّمكم . فإذا أَتى أَحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطب بيمينه»[3]

فهذا التَّشبيه الَّذي افتتح به الحديث :

« إنمَّا أَنا لكم بمنزلة الوالد »

كان مقدمة تسوِّغ الكلام الَّذي سيأتي بعد ، لأن بحث هذه الأُمور وتعليمها إنمَّا يكون عادة من الوالد للولد ، فيقول عليه الصَّلاة والسَّلام: أنمَّا أنا لكم بمنزلة الوالد وأَنتم بعد أَنْ دخلتم في هذا الدِّين من جديد فأنتم ما تزالون تحتاجون في كلِّ

---

(١) المائدة : ٦

(٢) الترمذي ١/ ٧٠ ، وأبو داود ١/ ٤٨ .

(٣) سنن أبي داود ١/ ٣٠ .

أَمر يتَّصل بالدِّين إلى رعاية وعناية . ثُمَّ نهاهم عن استقبال القبلة واستدبارها والاستنجاء باليمين . وإبداع التَّصوير هنا ليس في المطابقة بين الاستقبال والاستدبار ولا في المجانسة الاشتقاقية بين الاستقبال والقبلة ، ولكن في نظم العبارة والبدء بالاستقبال ثُمَّ الاستدبار واستخدام الفعل استطاب بدلاً من مادة الاستنجاء .

والأَمر الثَّالث وهو الاستنجاء عبَّر عنه النَّبي ﷺ في حديث آخر :

ـ عن أَبي قتادة أَنَّ النَّبي ﷺ « نهى أَنْ يمسَّ الرَّجل ذكره بيمينه » قال التِّرمذي : هذا حديث حسن صحيح ، والعمل على هذا عند أَهل العلم كرهوا الاستنجاء باليمين[1] .

فقد عبَّر ـ كما ترى ـ عن الاستنجاء بالمسِّ.

وقد صوَّر النَّبي ﷺ فضل الوضوء بصور رائعة ندرس بعضها فيما يأتي :

ـ عن أنس بن مالك قال : قال النَّبي ﷺ :

« من توضَّأ فأَحسن الوضوء وعاد أخاه المسلم محتسباً بوعد من جهنَّم مسيرة سبعين خريفاً» .

قلت : يا أبا حمزة ! ما الخريف ؟
قال : العام[2] .

كون المرء دائماً على وضوء أَمارة على حرص صاحبه على أَداء العبادة وعلى استعداده للاتصال بالله عزَّ وجلَّ عندما يأتي وقت الصَّلاة أَو تتطلَّع نفسه إلى مناجاة خالقه جلَّ وعلا .

وقد رغبَّ الشرَّع في أَنْ يكون المرء على وضوء في حالاته كلّها ، والحديث الَّذي ننظر فيه الآن يرغِّب في أَنْ تكون عيادة المريض متَّصفة بأَمرين :

---

(١) التِّرمذي ١/ ٢٦ .
(٢) سنن أبي داود ٣/ ٢٥٢ .





أوَّلهما : أَنْ تكون خالصة لله لا يريد المرء من ورائها مصلحة دنيويَّة

وثانيهما : أَنْ تكون على وضوء أحسنه صاحبه وذلك بأَنْ يكون أتى به على الوجه الأَكمل ، فمن توضَّأ وأحسن الوضوء وذهب لأَمر طيِّب باعده الله من جهنَّم مسيرة سبعين عاماً . إنَّ هذا يدلُّ على فضل الوضوء .

وقد عبَّر الحديث عن النَّجاة من النَّار بالمباعدة عن النَّار مسافة طويلة :

« بوعد من جهنَّم سبعين خريفاً »

إنَّ النَّجاة من النَّار أَمر معنويّ ، لكنَّ الحديث ههنا يعرضها بشكل حسّي واضح . وفي هذا التَّعبير أيضاً تقدير المسافة بالزَّمن ، وهذا هو المهم بالنِّسبة لمن سيقطع هذه المسافة ، وهذا اللَّون من التَّعبير كثير الورود في الحديث والكلام العربي وما يزال مستعملاً حتَّى الآن في حديثنا اليومي .

ـ عن عثمان قال ، قال رسول الله ﷺ :

« من توضَّأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتَّى تخرج من تحت أظفاره »[1] .

يقرِّر هذا الحديث أَنْ الوضوء يكفِّر الذُّنوب ويحطُّ الخطايا وسيأتي في الأحاديث المقبلة تفصيل لهذا التكفير . وتكفير الذُّنوب أمر معنويّ مجرَّد وقد عبَّر عنه الحديث بخروج الخطايا من جسده .

إنَّ الخطايا تبدو كأَنَّها كائنات كانت تثقل كاهل صاحبها وتهبط به وتقعده عن متابعة الطَّريق الأَقوم . . . فعندما يتوضَّأ ويحسن الوضوء تخرج من جسده حتَّى من تحت أَظفاره . . . إنَّها الخطايا المستكنَّة الدَّقيقة تخرج بالوضوء .

ـ عن عمرو بن عبسة قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١)، صحيح مسلم ٣/ ١٣٣ ، وانظر : رياض الصَّالحين ٦١١

« ما منكم رجل يقرب وضوءه[1] فيتمضمض ويستنشق فينتثر إلاَّ خرَّت خطايا وجهه وفيه وخياشيمه[2] ثُمَّ إذا غسل وجهه كما أمره الله إلاَّ خرَّت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء .

ثُمَّ يغسل يديه إلى المرفقين إلاَّ خرَّت خطايا يديه من أنامله مع الماء، ثُمَّ يمسح رأسه إلاَّ خرَّت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء .

ثِمَّ يغسل قدميه إلى الكعبين إلاَّ خرَّت خطايا رجليه من أنامله مع الماء »[3]

يمضي الحديث يشرح مراحل خروج الخطايا من جسد الإنسان فيذكر خمس مراحل :

**المرحلة الأولى :**

المضمضة والاستنشاق ، لا يتمضمض الرَّجل ولا يستنشق ويستنثر إلاَّ خرَّت خطايا الوجه والفم والأنف .

إنَّنا نحسُّ أنَّ هذه الخطايا قاذورات تسقط مع خروج الأقذار من الفم والخياشيم. وهذا من التَّناسق في الصُّورة الَّذي لا يكاد يتخلَّف في صورة من صور الحديث.

**المرحلة الثانية :**

غسل الوجه

يقرِّر الحديث أنَّ الرَّجل لا يغسل وجهه كما أمره الله إلاَّ خرَّت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء. ويدخل في خطايا الوجه خطايا العين والفم من النظرات المحرّمة، والكلمات الآثمة وما أكثرها. . . وهكذا فإنَّ الخطايا المستكنَّة تخرج من أطراف لحيته مع الماء.

---

(١) الوضوء (بفتح الواو ) الماء الَّذي يتوضأ به المسلم .
(٢) الخياشيم : الأنف .
(٣) صحيح مسلم ٦/ ١١٧ - ١١٨ .

**المرحلة الثالثة : غسل اليدين :**

ثُمَّ لا يغسل يديه إلى المرفقين إلاَّ خرَّت خطايا يديه من أنامله مع الماء، وخطايا اليد كثيرة جداً لأَنَّ اليد هي الجارحة الَّتي بها تتم تصرُّفات الإنسان من صواب وخطأ وطاعة ومعصية . . . فالخطايا تخرج من أنامل الإنسان مع الماء .

**المرحلة الرَّابعة : مسح الرأس :**

قال ثُمَّ لا يمسح رأسه إلاَّ خرَّت خطايا رأسه من أَطراف شعره مع الماء .

**والمرحلة الخامسة والأخيرة غسل القدمين:**

فلا يغسل قدميه إلاَّ خرَّت خطايا رجليه من أنامله مع الماء.

إنَّ الخطايا ههنا كائنات تخرج من أَماكن معيَّنة في جسم الإنسان . . . وإنهَّا لصورة في تكفير الذُّنوب تأخذ بالألباب .

وهذا المعنى يبسط بعضه حديث أَبي هريرة الآتي :

ـ عن أَبي هريرة أَنَّ رسول الله ﷺ قال :

« إذا توضَّأ العبد المسلم ـ أَو المؤمن ـ فغسل وجهه خرج من وجهه كلُّ خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء ـ أو مع آخر قطر الماء ـ

فإذا غسل يديه خرج من يديه كلُّ خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء ـ أو مع آخر قطر الماء ـ

فإذا غسل رجليه خرجت كلُّ خطيئة مشتها رجلاه مع الماء ـ أَو مع آخر قطر الماء ـ

حتَّى يخرج نقيًّا من الذُّنوب »[1]

---

(١) صحيح مسلم ٣/ ١٣٢ ـ ١٣٣ ، والترمذي ١/ ٩ ـ ١٠ .



إنَّ الَّذي يتوضَّأ يتخلَّص من ذنوبه حتَّى يخرج نقيًا . . وفي الحديث ربط بين أَشياء مرئية مثل قطرات الماء الَّتي تنحدر من وجه المتوضِّىء ويديه ورأسه ورجليه وبين أَشياء غير مرئية مثل الذُّنوب .

قال القاضي عياض :

« المراد بخروجها مع الماء المجاز والاستعارة في غفرانها لأنهَّا ليست بأجسام فتخرج حقيقة »[1] .

وقال ابن العربي في «عارضة الأحوذي » :

(قوله : «خرجت الخطايا » يعني غفرت ، لأَنَّ الخطايا هي أَفعال وأَعراض . . . فكيف توصف بدخول أَو خروج ؟ ولكنَّ الباري لمَّا أوقف المغفرة على الطَّهارة الكاملة في العضو ضرب لذلك مثلاً بالخروج )[2] .

وروى هذا الحديث عن رسول الله ﷺ عبد الله الصنابحي على الوجه الآتي :

« إذا توضَّأ العبد المؤمن فمضمض خرجت الخطايا من فيه ،وإذا استنثر خرجت الخطايا من أَنفه . وإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتَّى تخرج من تحت أَشفار عينيه ، فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتَّى تخرج من تحت أظفار يديه ، فإذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه حتَّى تخرج من أُذنيه ، فإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتَّى تخرج من تحت أَظفار رجليه ، ثُمَّ كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له »[3] .

وفي هذه الرِّواية زيادة خروج الذُّنوب من تحت أَشفار العين ومن تحت أظفار اليدين والرِّجلين ومن الأذنين ، وإنَّ هذا الإنسان الَّذي تخلَّص من ذنوبه يكون له مشيه إلى المسجد وصلاته فيه نافلة زائدة .

---

(١) نقلاً عن تحفة الأحوذي ١/ ٩ ـ ١٠ .
(٢) المرجع السابق نفسه .
(٣) رواه مالك في الموطأ والنسائي ، وانظر : تحفة الأحوذي ١/ ١٢ .





ـ عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« أَلا أَدلُّكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدَّرجات »

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : « إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصَّلاة بعد الصَّلاة ، فذلكم الرِّباط »[1]

أمور ثلاثة يمحو الله بها الخطايا وهي :

ـ إسباغ الوضوء على المكاره كالبرد الشَّديد وغلاء الماء وندرته وأَلم الجسم وما إلى ذلك . وهذا القيد ( على المكاره ) قيد مهم لأنَّه يبرز الرَّغبة في الثَّواب والطَّاعة الخالصة .

ـ وكثرة الخطا إلى المساجد وتكون بكثرة التَّكرار وببعد الدَّار .

ـ انتظار الصَّلاة بعد الصَّلاة . هذا الانتظار الَّذي شبَّهه رسول الله ﷺ بالرباط من ناحية عظم أجره .

فإنَّ أجر المرابط الَّذي يرابط في الثُّغور ينتظر التَّصدي للأعداء وردَّهم عن بلاد المسلمين أجر عظيم وكذلك شأن انتظار الصلاة في المسجد بعد الصَّلاة .

ومن الملاحظ اشتراك طرفي الصُّورة ( انتظار الصَّلاة والرِّباط ) بالانتظار .

هذه الأُمور الثَّلاثة يمحو الله بهنَّ الخطايا ويرفع بهن الدَّرجات ، فمغفرة الذُّنوب يعبِّر عنها الحديث بمحو الذُّنوب ، والقبول والارتقاء في المنزلة يعبِّر عنها الحديث برفع الدَّرجات . إنَّها صورة حسيَّة .

ـ عن علي بن أَبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ :

«وكاء السَّه العينان . فمن نام فليتوضأ »[2]

---

(١) مسلم ٣/ ١٤١ والتِّرمذي ١/ ٥٥ ـ ٥٦ .
(٢) أبو داود ١/ ٩٢ ، والسَّه : الاست .



إنَّ المرء عندما ينام لا يبقى مسيطراً على نفسه . فهو في اليقظة يتحكَّم فيما ينقض الوضوء لا سيماً في مسألتي الرِّيح واللمس ، ولكنَّه إذا نام ذهبت تلك السَّيطرة وهذا التَّحكم .

فشبَّه رسول الله ﷺ يقظة العينين بالوكاء الَّذي يحفظ الموجود في الوعاء ولا يدع شيئاً منه يخرج .

فإذا غابت هذه اليقظة أصبح ( السَّه ) بدون وكاء ! يخرج ما يخرج من الإنسان دون إرادة ولا وعي .

ولذلك قرَّر ﷺ أنَّ على من نام الوضوء ، ولم يبدأ عليه الصَّلاة والسَّلام بهذا التَّقرير ، وإنَّما جاء به بعد تلك الصُّورة ليكون الحكم مبنياً على علَّة تجعل الحكم مقبولاً فمن نام فليتوضَّأ لأنَّ العينين بمثابة الوكاء الذي يربط ذاك الموضع فإذا ما نام المرء انفكَّ الوكاء ، حتَّى اليقظةَ عبَّر عنها بالعينين مبالغة منه في التَّعبير عن المعاني بصور ماديَّة محسَّة .

## الأذان والإقامة :

ـ عن جابر أنَّ رسول الله ﷺ قال لبلال :

« يا بلال إذا أَذَّنت فترَسَّل في أَذانك . وإذا أَقمت فاحدر ، واجعل بين أذانك وإقامتك قدر ما يفرغ الآكل من أكله والشَّارب من شربه والمعتصر إذا دخل لقضاء حاجته ولا تقوموا حتَّى تروني »[1] .

الحديث في أداء الأذان والإقامة والمدَّة الَّتي تكون بينهما ، أمَّا الأداء فقد عبَّر عنه بقوله : « إذا أَذَّنت فترسَّل في أذانك وإذا أقمت فاحدر » جملتان تتعلقان بطريقة الأداء فالبطء والأناة في الأذان ، والسرعة والحدر في الإقامة . وأمَّا المدَّة الَّتي بينهما فقدرها بصورة واقعيَّة عمليَّة يستطيع أنْ يعرفه النَّاس جميعاً وذلك قوله :

« قدر ما يفرغ الآكل من أكله والشَّارب من شربه والمعتصر إذا دخل لقضاء حاجته » .



(١) الترمذي ١/ ١٧٥ .





هذه الحاجات الضرَّورية التي لا بدَّ لكلِّ إنسان من فعلها كلِّها أو بعضها كلَّ يوم يقدَّر بها الوقت الفاصل بين الأذان والإقامة :

مدَّة الأكل والشرُّب وقضاء الحاجة .

وأقفُ أمام كلمة ( المعتصر ) التي تدلُّ دلالة تصويريَّة على قاضي الحاجة .

## فضل الصَّلاة :

سأختار طائفة من الأحاديث الكثيرة الواردة في هذا الموضوع وهي كلّها حافلة بالصُّور الرَّائعة :

ـ عن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري قال قال رسول الله ﷺ :

« الطَّهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن ـ أو تملأ ـ ما بين السَّموات والأرض ، والصَّلاة نور ، والصَّدقة برهان ، والصَّبر ضياء ، والقرآن حجَّة لك أو عليك . كلُّ النَّاس يغدو فبائع نفسه : فمعتقها أوموبقها . »[1]

الحديث يعالج موضوعات متعدِّدة ، ويدخل في أبواب كثيرة ، ونحن نورده هنا في ( باب الصَّلاة ) لهذه الصُّورة الجميلة التي جاءت فيه ( الصَّلاة نور ) ويدعون هذه الصُّورة في علم البلاغة تشبيهاً بليغاً .

و ( النُّور ) معناه معروف ، وهوالضِّياء ، وقد وردت كلمة ( الضِّياء ) في الحديث نفسه ، ومن أجل ذلك استعرضت الآيات التي وردت فيها هاتان الكلمتان ، فوجدت أنَّ كلاً منهما استعملت في القرآن على سبيل المجاز والحقيقة ، غير أنَّ أكثر ما استعملت كلمة النَّور في المعنى المجازي ، وأكثر ما استعملت كلمة الضِّياء في المعنى الحقيقي .

إنَّ هذا ليلقي ظلاً على كلمة ( النُّور ) الواردة في هذا الحديث .

---

(١) صحيح مسلم ٣ / ٩٩ ـ ١٠٠

فالصَّلاة نور : أي هدى ورشاد ، وهذا ما نطقت به نصوص دينية أخرى من نحو قوله تعالى : ﴿ أقم الصَّلاة إنَّ الصَّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾[1]

والواقع العملي يؤكِّد هذه الحقيقة ، فنحن نرى أنَّ أكثر المصلِّين على هدى في حياتهم وسلوكهم .

هذا وقد ذهب بعض شرَّاح الحديث إلى أنَّ الصَّلاة نور لأصحابها يوم القيامة ، وهذا التَّفسير يتضمَّن صورة لأمر غيبي سيقع يوم القيامة . وفي مطلع الحديث جملة تتَّصل بالصَّلاة بأوثق الأسباب وهي قوله ﷺ : « الطَّهور شطْر الإيمان » ولم يربط الحديث بين الطَّهور والصَّلاة بل قرَّر ذلك تقريراً عاماً فقال : إنَّ النَّظافة نصف الإيمان. وأخيراً فإنَّ هذا الحديث حافل بالصُّور، إذْ كلُّ جملة صورة فنيَّة ، فسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماَّء والأرض بالثَّواب ، والصَّدقة برهان على صدق إيمان صاحبها، والصَّبر ضياء يبدِّد ظلمات المصيبة ويبينٍّ لصاحبه الطَّريق السَّوي ، والقرآن حجَّة لك أو عليك ، والوقت هو الإطار الذَّي يكون فيه هلاك الإنسان ونجاته ، فكلٌّ واحد من النَّاس يغدو في الصَّباح ليبيع نفسه فمنهم من يعتقها ومنهم من يوبقها .

ـ عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ :

« مثل الصَّلوات الخمس كمثل نهر غمْر[2] (وفي رواية : جار عذب ) على باب أحدكم . يغتسل منه كلَّ يوم خمس مرَّات فما يبقي ذلك من الدَّنس ؟ » .[3]

ـ وعن ابي هريرة قال قال رسول الله ﷺ :

« أرأيتم لو أنَّ نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كلَّ يوم خمس مرَّات : هل يبقى من درنه شيء ؟ »

---

(١) العنكبوت : ٤٥

(٢) الغمر : الكثير .

(٣) مسند أحمد ٢ / ٣٥٧ وصحيح البخاري ١ / ١٤١ ط الشَّعب وصحيح مسلم ٢ / ٣٢ ـ وغيرهم وانظر رياض الصَّالحين ٣١١ وأقيسة النَّبي ١٥٠ و ١٨٦ .

قالوا : لا يبقى من درنه شيء .

قال : « فذلك مثل الصلَّوات الخمس يمحو الله بهنَّ الخطايا » .

إنَّ الإنسان خطَّاء ، يرتكب كثيراً من المخالفات . والصَّلاة تكفِّر هذه المخالفات والخطايا .

ومن التَّناسق الفنِّي الجميل في الحديث أنْ يجعل المعصية وسخاً ودرناً تتقزَّز النَّفس السَّوية منه وتنفر، والصَّلوات الخمس كنهر جارٍ يغتسل فيه المرء خمس مرَّات كلَّ يوم فماذا يبقى عليه من درنه ودنسه ؟ إنَّه لا يبقى شيء . فذلك مثل الصَّلوات الخمس يمحو الله بهنَّ الخطايا .

إنَّ هذا النَّهر جار كثير عذب ، ليس راكداً يمكن أنْ تتجمَّع فيه القاذورات . . لا . . إنَّه غزير كثير ، لا يحمل خبثاً ، وهو بعد ذلك عذب غير ملوَّث .

والاغتسال يتمُّ فيه خمس مرَّات في اليوم الواحد . فلا يكاد يعلق ببدن الإنسان شيء من الدَّرن حتَّى يزال بهذا الغسل المتجدِّد .

وفي رواية أبي هريرة للحديث حوار يزيد من حيويَّة النَّص .

ـ عن عثمان بن عفَّان قال :

رأيت رسول الله ﷺ توضَّأ فأحسن الوضوء ثم قال :

«من توضَّأ نحو وضوئي هذا، ثُمَّ قام فركع ركعتين لا يحدِّث نفسه فيهما غفر له ما تقدَّم من ذنبه». [1]

وفي رواية :

« . . من توضَّأ هكذا ثُمَّ خرج إلى المسجد لا ينهزه إلاَّ الصَّلاة غفر له ماخلا من ذنبه » . [2]

(١) مسلم ٣ / ١٠٨ ـ ١١٠

(٢) صحيح مسلم ٣ / ١١٦ .

وهذا الحديث يبيِّن تكفير الصَّلاة للذنوب السَّابقة ، وقد شرط الحديث لذلك الجزاء العظيم شرطين :

أنْ يتوضأ المصلِّي قبل صلاته وضوءاً مقارباً لوضوء رسول الله ﷺ وأنْ لا يحدِّث نفسه بشيء من أمور الدُّنيا ممَّا لا يتعلَّق بالصَّلاة .

فإذا توافر الشرَّطان كان الجزاء أن يغفر له ما تقدَّم من ذنبه . والحديث ههنا يصوِّر النَّفس كأنهَّا مخاطب تحدَّث ، وهو تشخيص للنَّفس .

وفي الرِّواية الأُخرى تشخيص يتجلىَّ في قوله ( لا ينهزه إلا الصَّلاة ) أيْ لا يدفعه ولا ينهضه ولا يحركه إلاَّ الصَّلاة . وبذلك بدت الصَّلاة ههنا كأنهَّا شخص يدفع ويحرِّك .

ـ عن سلمان قال قال رسول الله ﷺ :

« المسلم يصلِّي وخطاياه مرفوعة على رأسه كلَّما سجد تحاتّت عنه » .[1]

ـ وعن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :
« إنَّ العبد إذا قام يصلِّي أُتي بذنوبه فجعلت على رأسه وعاتقه ، فكلَّما ركع أو سجد تساقطت عنه » .[2]

الحديثان يقرِّران تكفير الذُّنوب بصورة غاية في الجمال والتَّجسيم ، فالذُّنوب والخطايا أثقال وأوزار معنوية ، ولكنَّها ههنا في الحديث تبدو أمام أعين خيالنا أثقالاً حسيَّة ملموسة .

فالخطايا مرفوعة على رأسه وعلى عاتقه ، وكلَّما سجد أو ركع تحاتّت عنه وتساقطت من حوله .

إنَّنا نعلم أنَّ في الصَّلاة حركات كثيرة من سجود وركوع وجلوس ، فكلَّما تحرَّك سقطت عنه من الخطايا طائفة ، لأنهَّا موضوعة في مكان لا يتيح لها استقراراً .

---

(١) أخرجه البزار والطبراني ( انظر تحفة الأحوذي ١ / ٩ ـ ١٠ )
(٢) أخرجه البيهقي في سننه ( انظر تحفة الأحوذي ١ / ٩ ـ ١٠ )

ـ عن أبي أُمامة أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« من خرج من بيته متطهِّراً إلى صلاة مكتوبة فأجره كأَجر الحاج المحرم ، ومن خرج إلى تسبيح الضُّحى لا ينصبه إلاإيَّاه فأجره كأجر المعتمر ، وصلاة على إثر صلاة كتاب في عليين » .[1]

كانت الأَحاديث السَّابقة دالَّة على تكفير الصَّلاة للذنوب ، والحديث هنا يذكر عظيم الأَجر الذي أَعدَّه الله لمن يؤدِّي الصَّلاة . فمن خرج إلى أَداء المكتوبة كان أَجره كأَجر الحاج المحرم ، ومن خرج إلى أداء نافلة كان أَجره كأَجر المعتمر .

ومعلوم أنَّ الحج المبرور ليس له جزاء إلاَّ الجنَّة ، وأنَّ من حجَّ فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمُّه .

إنَّها صورة تعتمد على هذا المفهوم الدِّيني المعلوم وهي قائمة على التَّشبيه .

والصَّلاة تصون دم فاعلها وذلك واضح في حديث مسلم :

ـ إنَّ خالد بن الوليد قال في شأن رجل :
يا رسول الله ! أَلا أَضرب عنقه ؟

ـ قال ﷺ : « لا ولعلَّه أَنْ يكون يصلِّي . »
ـ قال خالد : وكم من مصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه .
ـ فقال رسول الله ﷺ :

« إنِّي لم أُومر أَنْ أُنقِّب عن قلوب النَّاس ولا أَشقَّ بطونهم » .[2]

أَبى رسول الله ﷺ أَن يسمح لخالد بضرب عنقه خشية أَنْ يكون من المصلِّين .

وعندما قال خالد : وكم من مصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه ، أَجابه عليه الصَّلاة والسَّلام :

---

(١) أبو داود ١ / ٢١٨ .
(٢) صحيح مسلم ٧ / ١٦٣ .

« إنِّي لم أُومر أَنْ أُنقِّب عن قلوب النَّاس ولا أشقَّ بطونهم » .

وفي هذا الجواب تصوير معرفة الأَسرار بشقِّ البطون ، وفي هذا الجواب أَيضاً تنفير من تتبِّع أَحوال النَّاس والتَّجسس عليهم حتَّى تعرف حقائقهم ، وذلك عبَّر عن هذا المعنى بشقِّ البطون .

إنَّ لنا أنْ نحكم على النَّاس بما يبدون من الظاهر، والله هوالذّي يتولَّى السَّرائر، وهو الذي يحاسب النَّاس على نيَّاتهم ، وهو سبحانه وحده العليم بما تكنُّه الصُّدور .

ـ عن أَبي الدَّرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« ما من ثلاثة في قرية ولا بَدْوٍ لا تقام فيهم الصَّلاة إلاَّ قد استحوذ عليهم الشَّيطان ، فعليك بالجماعة فإنمَّا يأكل الذِّئب القاصية » .[1]

هذا الحديث يبينِّ فضل الصَّلاة عامَّة ، وفضل صلاة الجماعة خاصَّة ، فيقرِّر أَنَّ وجود ثلاثة في بدو أَو حضر يوجب أَن تقام فيهم الصَّلاة فإن لم يفعلوا استحوذ عليهم الشَّيطان ومن يستحوذ عليه الشَّيطان فقد هلك .

إنَّ هذا تهديد شديد لأولئك الذين يتهاونون في إقامة صلاة الجماعة ، وإنَّه لتهديد مخيف . ويرغِّب عليه الصَّلاة والسَّلام بالجماعة ويقول إنمَّا يأكل الذِّئب من الغنم الشَّاة القاصية المنفردة عن الجماعة .

صورتان رائعتان : صورة الذين قد استحوذ عليهم الشَّيطان بسبب تركهم صلاة الجماعة ، وصورة الشَّاة القاصية التي انفردت عن الجماعة فمكنت بذلك الذِّئب من نفسها فأكلها .

والرَّبط بين صلاة الجماعة والتزام الجماعة يشير إلى أَنَّ الحرص على صلاة الجماعة ممِّا يحفظ وحدة الأُمَّة ويضمن سلامتها من كيد الأَعداء .

وفي النَّص تأثُّر بالقرآن قال تعالى ﴿ استحوذ عليهم الشَّيطان فأَنساهم ذكر الله

(١) أبو داود ١ / ٢١٤ .

أُولئك حزب الشَّيطان أَلا إِنَّ حزب الشَّيطان هم الخاسرون ﴾ .[1]

وأَمَّا الصُّورة الثَّانية فمتأثرة بالبيئة العربية التي فيها المراعي والغنم والذِّئب .

ـ عن أَبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ :

« صلاة الرَّجل جماعة تزيد على صلاته في سوقه وبيته بضعاً وعشرين درجة ، وذلك أَنَّ أَحدهم إِذا توضَّأ فأَحسن الوضوء ، ثُمَّ أَتى المسجد لا يريد إِلاَّ الصَّلاة لا ينهزه إِلاَّ الصَّلاة لم يخط خطوة إِلاَّ رفع له بها درجة وحطَّ عنه خطيئة حتَّى يدخل المسجد .

فإِذا دخل المسجد كان في الصَّلاة ما كانت الصَّلاة هي تحبسه ، والملائكة يصلُّون على أَحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه يقولون :
اللهم اغفر له ، اللَّهم ارحمه ، اللَّهم تب عليه ما لم يؤذ فيه أَو يحدث فيه » .[2]

سلك هذا الحديث لتصوير ثواب الجماعة طرقاً عدَّة : منها التَّعبير عن فضل صلاة الرَّجل في جماعة بذكر زيادتها على صلاته في بيته أَو سوقه منفرداً بضعاً وعشرين درجة فالتَّصوير ههنا بالأَرقام .

ومنها التَّعبير عن فضل صلاة الرَّجل في جماعة بحطِّ السَّيئات ورفع الدَّرجات وربط ذلك بالخطوات :

« لم يخط خطوة إِلاَّ رفع له بها درجة وحطَّ عنه خطيئة حتَّى يدخل المسجد » .

ومنها تشخيص الصَّلاة إِذ نراها في النَّص تتجسَّد كأَنَّها كائن حي يدفع « ثُمَّ أَتى المسجد لا يريد إِلاَّ الصَّلاة لا ينهزه إِلاَّ الصَّلاة » .

وهذه الصُّورة تعبِّر عن إِخلاصه في عمله وقصده وجه الله تبارك وتعالى ، لا يريد من ذلك دنيا ولا سمعة وإِنَّما يريد العبادة الخالصة .

---

(١) سورة المجادلة ١٩ .

(٢) متفق عليه ( انظر رياض الصالحين ٤٦ ـ ٤٧ ) وأبو داود ١ / ٢١٩ .



وفي النَّص صورة تبدو الصَّلاة فيها أيضاً كائناً يحبس المصلّي ( ما كانت الصَّلاة هي تحبسه ) .

وفي النَّص أخيراً صورة غيبيَّة تخبر أنَّ الملائكة تصلّي على المرء ما دام في مجلسه الذي صلى فيه تدعو له وتقول : اللَّهم اغفر له اللَّهم ارحمه .

وهذه الصُّور كلُّها في خدمة الغرض الدِّيني وهو هنا الحضُّ على صلاة الجماعة والتَّرغيب في أدائها بغية الحصول على هذا الثَّواب العظيم .

ـ عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ :

« من تطهَّر في بيته ثُمَّ مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطوتاه : إحداهما تحطُّ خطيئة والأُخرى ترفع درجة » .[١]

هذا الحديث يقرِّر المعنى نفسه الوارد في الحـديث السَّابـق لكن فيه تفصيلاً للخطوتين إنَّ إحداهما تحطُّ خطيئة والأُخرى ترفع درجة .

. عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ :

« لو يعلم النَّاس ما في النِّداء والصَّف الأوَّل ، ثُمَّ لم يجدوا إلاَّ أنْ يستهموا عليه لاستهموا ، ولو يعلمون ما في التَّهجير لاستبقوا إليه ، ولو يعلمون ما في العتمة والصُّبح لأتوهما ولو حبوا » .[٢]

وعن أبي هريرة أيضاً قال قال رسول الله ﷺ :
« إنَّ أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً » .[٣]

ـ وعن أُبي بن كعب قال قال رسول الله ﷺ :

---

(١) صحيح مسلم : ٥ / ١٦٩ .
(٢) صحيح البخاري ١ / ١٦٠ ط الشَّعب ، وصحيح مسلم ٤ / ١٥٧ ـ ١٥٨
(٣) صحيح البخاري ١ / ١٦٧ وصحيح مسلم ٥ / ١٥٤ .





«إنَّ هاتين الصَّلاتين أثقل الصلوات على المنافقين. ولو تعلمون ما فيهما لأتيتموهما ولو حَبْواً على الرُّكب.
إنَّ الصَّف الأُول على مثل صف الملائكة، ولو علمتم ما فضله لا بتدرتموه، وإنَّ صلاة الرَّجل في جماعة أزكى من صلاته وحده».[1]

تثبت هذه الرِّوايات الفضل العظيم للنِّداء[2] والصَّف الأَوَّل والتَّهجير[3] **والعشاء والصُّبح**.

والنَّاس يجهلون ما أعدَّ الله عزَّ وجلَّ من الثَّواب الكثير لمن يقوم بها ولو يعلم النَّاس ما فضلها، وما الثَّواب الذي أَعدَّه الله لفاعليها لتسابقوا إليها ولحرصوا عليها أَشدَّ الحرص.

ولقد صوَّر رسول الله ﷺ هذا الحرص الشَّديد على الأَمر الفاضل بصور معروفة عندهم وهي: الاستباق، والاستهام، والمجيء إليها ولو حبواً على الرُّكب والاستباق عادة لا يكون إلاَّ للشَّيء النَّفيس الثَّمين والاستهام أي الاقتراع كذلك لا يكون إلاَّ في الأمر النَّفيس الذي يسعى إليه المرء بكل ما يستطيع.

والحبو على الرُّكب لا يفعله المرء العاجز عن المشي إلاَّ من أجل أمر بالغ الأَهمية والمنفعة كأن يكون فيه إنقاذ حياة أو بلوغ أَمل عزيز.

وفي هذه الأَحاديث أنَّ أثقل صلاة على المنافقين هي صلاة العشاء والفجر لأَنهَّما من الصَّلوات التي يكون النَّاس في وقتيهما قد أخلدوا إلى الرَّاحة والنَّوم والدِّفء، والأُنس بالأَهل والفراش والدِّثار. ولو كان هؤلاء المنافقون يعلمون ما فيهما من الفضل لأَتوهما ولو حبْوا على الرُّكب.

وفي الحديث الثَّالث تشبيه الصَّف الأَوَّل بصفِّ الملائكة والموازنة بين صلاة الرَّجل في جماعة وصلاته وحده.

---

(١) أبو داود ١ / ٢١٧.
(٢) النِّداء هو الأذان.
(٣) التهجير هو التَّبكير.

ـ عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال:

« والذي نفسي بيده لقد هممت أنْ آمر بحطب فيحطب، ثُمَّ آمر بالصَّلاة فيؤذَّن لها، ثُمَّ آمر رجلاً فيؤمَّ النَّاس، ثُمَّ أخالف إلى رجال فأُحرِّق عليهم بيوتهم والذي نفسي بيده لو يعلم أحدهم أنَّه يجد عرقاً سميناً أوْ مرماتين حسنتين لشَهِدَ العشاء ». [1]

وفي رواية مسلم عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ فقد ناساً في بعض الصلوات فقال الحديث.

الحديث في فضل صلاة الجماعة وفي بيان عظيم إثم من يتركها حتَّى لقد همَّ رسول الله ﷺ بأمر خطير ذكره وهو أنْ يأمر فتيانه أنْ يحطبوا حطباً ثم يأمر بالصَّلاة فيؤذَّن لها ثُمَّ يأمر رجلاً فيؤمَّ النَّاس .. ثُمَّ يعمد إلى أولئك الرِّجال الذين تخلَّفوا عن الصَّلاة فيحرِّق عليهم بيوتهم.

إنَّ حكاية عزمه ﷺ صورة واقعية لعقوبة شديدة كان قدْ هَمَّ بإيقاعها عليهم ... صورة متعاقبة الحلقات تنتهي بحرق بيوتهم وهم فيها .. وإنَّه لأمر رهيب.

ثمَّ عرض الرَّسول ﷺ لبيان تفاهة هؤلاء الذَّين لا يشهدون صلاة الجماعة وحرصهم على أي شيء يسير تافه من حطام الدُّنيا فقال:

« والذي نفسي بيده لو يعلم أحدهم أنَّه يجد عرقاً سميناً أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء ».

إنهَّم قوم انتهازيون منافقون لا يعلمون ما أَعَدَّ الله من الثَّواب العظيم لمن يشهد الجماعة، لأنهم لو كانوا يعلمون هذا ويصدِّقون به لسارعوا إلى المسجد، والدَّليل على ذلك أنَّه لو علم أحدهم أنَّه سيجد عظماً سميناً في صلاة العشاء لحضرها مع أنهَّا أثقل صلاة على المنافقين.

(١) صحيح البخاري ١ / ١٦٥ ط الشَّعب وصحيح مسلم ٥ / ١٥٣ وأبو داود ١ / ٢١٥ والتِّرمذي ١ / ١٨٨.

وليس من شك في أنَّ هذه الموازنة بين عزوفهم الخالي عن الصَّلاة وبين الاقبال على المسجد عند وجود عظم فيه تكشف لنا طبيعة هؤلاء القوم الزَّاهدين في الخير والثَّواب الحريصين على حطام الدُّنيا مهما كان تافهاً .

ـ عن أنس قال قال رسول الله ﷺ :

« من صلى أربعين يوماً في جماعة يدرك التكبيرة الأُولى كتبت له براءتان براءة من النَّار ، وبراءة من النِّفاق » .[1]

النَّجاة من النَّار والنَّجاة من النِّفاق تبرزان في هذا الحديث على صورة حسيَّة ملموسة ، وذلك بكتابة براءة من النَّار وبراءة أُخرى من النِّفاق . وهاتان البراءتان تكتبان لمن يصليٍّ أربعين يوماً الصَّلوات كلَّها في جماعة يدرك التكبيرة الأُولى .

ـ عن ابن عمر أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« الذي تفوته صلاة العصر فكأنَّما وتر أَهله وماله » .[2]

صلاة العصر هي الصَّلاة الوسطى التِّي قد تضيع على كثير من النَّاس بسبب العمل أو النَّوم ، ومن أجل ذلك كانت هناك عناية خاصة بها فقال تعالى: ﴿ حافظوا على الصَّلوات والصَّلاة الوسطى ﴾ .[3]

وقالت عائشة : هي صلاة العصر .

والحديث يبيِّن أَهمية هذه الصَّلاة بأُمور حسيَّة ملموسة ، فالذي تفوته صلاة العصر يكون كمن فقد أَهله وماله .

صورة قائمة على التَّشبيه بين إنسان خسر أَهله كلَّهم وماله أجمعه وبين الَّذي تفوته صلاة العصر .

---

(١) الترمذي ١ / ٢٠١ .

(٢) البخاري ١ / ١٣٥ ط الشَّعب وفتح الباري ٢ / ٣١ وصحيح مسلم ٢ / ٢١١ وأبو داود ١ / ١٦٨ والتِّرمذي ١ / ١٥٦ وقد روى مثل هذا الحديث عن أبي هريرة البخاري وأنظر أقيسة النَّبي ٩٠ و ١١٤ .

(٣) سورة البقرة : ٢٣٨ .



ألا ما أعظم خسارته ، وما أشدَّ اضطراب حالته النَّفسية ، وما أعظم حزنه .

ـ عن عثمان بن عفَّان قال قال رسول الله ﷺ :

« من صلَّى العشاء في جماعة كان له كقيام نصف ليلة . ومن صلَّى العشاء والفجر في جماعة كان له كقيام ليلة »[1] .

مَرَّ بنا أنَّ هاتين الصَّلاتين من أثقل الصَّلوات على المنافقين، لأنهَّما في وقت يكون النَّوم فيه مسيطراً، وربمَّا كان البرد فيهما شديداً. من أجل ذلك كانت هناك بهما هذه العناية الخاصَّة.

والحديث يعرض ثواب صلاة العشاء في جماعة معادلاً لإحياء نصف ليلة ، وثواب العشاء والفجر في جماعة معادلاً لقيام ليلة كاملة، والصُّورة هنا قائمة على التَّشبيه .

ـ عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ :

« من غدا إلى المسجد أو راح أعدَّ الله له نزله من الجنَّة كلَّما غدا أو راح »[2] .

إعداد متواصل متكرِّر لنزل المسلم في الجنَّة كلَّما ذهب إلى صلاة الجماعة . . . . وفي كل مرَّة يزدان هذا النُّزل وتكثر فيه وسائل الإكرام ما دام الله تبارك وتعالى هو الَّذي يتولىَّ هذا الإعداد .

ولنا أنْ نتصوَّر مدى الإكرام الَّذي يفوق الخيال عندما يعد الله للمرء المصلِّي نزله في الجنة كلَّما غدا أو راح إلى المسجد .

إنهَّا صورة قائمة على الإخبار عماَّ سيكون لمن يعمر بيوت الله ويؤدِّي صلاة الجماعة وهي ترمي إلى التَّرغيب في هذه الطَّاعة الدِّينية الرَّفيعة .

ـ عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال :

---

(١) أبو داود ١/ ٢١٧ والترّمذي ١/ ١٩١ .

(٢) صحيح البخاري ١/ ١٦٨ ط الشَّعب .





« اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ، ولا تتَّخذوها قبوراً »[1]

إنَّ البيت الَّذي لا يصلىًّ فيه قبر . . . لا تجد فيه الحياة الحقَّة الكريمة . . . بل إنَّهُ موحش مغرق في الوحشة .

وإذا عرفنا أنَّ المقابر من المواضع الَّتي تكره فيها الصَّلاة ولا يكاد يصليٍّ فيها أحد أَدركنا التَّرابط بين جزأى الحديث الَّذي يأمرنا شطره الأوَّل بأَنْ نجعل شيئاً من الصَّلاة في بيوتنا كصلاة السُّنن الرَّواتب والنَّوافل الأُخرى وقد ورد في هذا قوله ﷺ :

« أَفضل صلاة المرء في بيته إلاَّ المكتوبة»

أمَّا أَنْ تكون صلاة الإِنسان كلُّها في المسجد وأَنْ يمتنع عن أداء أَيٍّ صلاة في بيته فإِنَّه بذلك يكون قد حوَّل بيته إلى مقبرة !!

إنَّ هذه الصُّورة المعبِّرة تضفي على الصَّلاة ظلاًّ محبَّباً مرغوباً .

والحياة الحقَّة المستكملة لعناصر الجودة هي الحياة الَّتي تكون العبادة لحمتها وسداها، أمَّا عندما تخلو من العبادة فإنهَّا تصبح موتاً وقبوراً.

ـ عن أَبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثُمَّ راح فكأنَّما قرَّب بدنة . ومن راح في السَّاعة الثَّانية فكأنَّما قرَّب بقرة . ومن راح في السَّاعة الثَّالثة فكأنَّما قرَّب كبشاً أقرن . ومن راح في السَّاعة الرَّابعة فكأنَّما قرَّب دجاجة ومن راح في السَّاعة الخامسة فكأنَّما قرَّب بيضة .

فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذِّكر »[2] .

وفي رواية أُخرى للَّحديث عن أَبي هريرة قال قال ﷺ : « إذا كان يوم الجمعة كان على

---

(١) مسلم ٦/ ٦٧ أبو داود ١/ ٣٧٦ و٢/ ٢٩٣ .
(٢) صحيح البخاري ٢/ ٣ط الشَّعب وفتح الباري ٢/ ٤٠٧ وصحيح مسلم ٦/ ١٣٥ و١٤٥ والترمذي ١/ ٣٥٩ وأبو داود ١/ ١٤٧وانظر أقيسة النَّبي ٩٣ .



كلِّ باب من أَبواب المسجد ملائكة يكتبون الأَول فالأَوَّل . فإذا جلس الإمام طووا الصُّحف وجاءوا يستمعون الذِّكر .

ومثل المهجر الَّذي يهدي بدنة ، ثُمَّ كالَّذي يهدي بقرة ثُمَّ كالَّذي يهدي الكبش ثُمَّ كالَّذي يهدي الدَّجاجة ثُمَّ كالَّذي يهدي البيضة »[1] .

سبق أَنْ رأَينا هذا النَّص في بحث الملائكة[2] ودرسناه والَّذي يهُمنا هنا أَنْ نذكر فضل صلاة الجمعة والتَّبكير فيها . والصُّورة قائمة على التَّشبيه الحسِّي الملموس .

ـ عن ابن عبَّاس أَنَّ النَّبي ﷺ قال :

« أَمنَّى جبرئيل عند البيت مرَّتين :

فصلىَّ الظُّهر في الأُولى منهما حين كان الفيء مثل الشرِّاك[3] .
ثُمَّ صلىَّ العصر حين كان كُلُّ شيء مثل ظلّه .
ثُمَّ صلىَّ المغرب حين وجبت الشَّمس وأَفطر الصَّائم .
ثُمَّ صلىَّ العشاء حين غاب الشَّفق .
ثُمَّ صلىَّ الفجر حين برق الفجر وحرم الطَّعام على الصَّائم
وصلىَّ المرَّة الثانية الظُّهر حين كان ظلُّ كلُّ شيء مثله لوقت العصر
ثُمَّ صلىَّ العصر حين كان ظلُّ كلُّ شيء مثليه .
ثُمَّ المغرب لوقته الأَوّل .
ثُمَّ العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل .
ثُمَّم صلىَّ الصُّبح حين أَسفرت الأَرض .
ثُمَّ التفت إليَّ جبرئيل فقال :

يا محمَّد هذا وقت الأَنبياء من قبلك والوقت فيما بين هذين الوقتين»[4] .

---

(١) صحيح مسلم ٦/ ١٤٥ .
(٢) انظر ص ٢٢٨
(٣) أي قدره ، قال ابن الأثير ، الشرِّاك أَحد سيور النَّعل الَّتي تكون على وجهها .
(٤) التِّرمذي ١/ ١٤٠ وأَبو داود ١/ ١٦١ .





عبَّر رسول الله ﷺ في الحديث عن أوقات الصَّلوات بصور حسيَّة ، وفي ذلك توضيح للّوقت وتيسير على النَّاس ، وذلك عندما يربط عبادتهم بأُمور مشاهدة حسيَّة . ولننظر في هذا التشبيه ( حين كان الفيء مثل الشرِّاك ) أي في أوَّل وقت يلي الزَّوال حين يكون فيء الشَّمس صغيراً قدر سير من سيور النَّعل .

وكان في الحديث هذه الصُّورة ( حين برق الفجر ) الَّتي تدلُّ على السرُّعة والضِّياء وكان في الحديث أيضاً ( حين أَسفرت الأَرض ) فالأَرض كانت متلفِّعة بثوب الظَّلام تخبىء وجهها فعندما انزاح الظَّلام وازداد الضِّياء كان هناك إسفار من الأرض عن وجهها فبدا لكلِّ ناظر ، وكذلك كان فيه ربط وقت بعض هذه الصَّلوات بعبادة الصِّيام من مثل إفطار الصَّائم وتحريم الطَّعام عليه .

عن عمرو بن عبسة قال قال رسول الله ﷺ :

« . . . ثُمَّ صلِّ فإنَّ الصَّلاة مشهودة محضورة حتَّى يستقلَّ الظِّل بالرُّمح ، ثُمَّ أقصر عن الصَّلاة ، فإنَّ حينئذ تسجر جهنَّم ، فإذا أَقبل الفيء فصلِّ . . »[1]

في الحديث تصوير دقيق لاستواء الشَّمس ، وهذا الوقت تحرم فيه الصَّلاة . وذلك في قوله ﷺ : « حتَّى يستقلَّ الظِّل بالرُّمح » .

قال النَّووي :

( معنى يستقلَّ الظِّل بالرُّمح ، أي يقوم مقابله في جهة الشَّمال ليس مائلاً إلى المغرب ولا إلى المشرق وهذه حالة الاستواء)[2]

وفي الحديث تصوير بالوصف ( تسجر جهنَّم ) أيْ في وقت الاستواء تسجر جهنَّم ، فليس من المناسب أَنْ تكون فيه الصَّلاة .

وفي الحديث أَيضاً تشخيص تجده في قوله ﷺ « فإذا أَقبل الفيء » ففي هذه

---

(١) صحيح مسلم ٦/ ١١٦ .

(٢) شرح صحيح مسلم ٦/ ١١٦ .



الجملة بيان لوقت صلاة الظُّهر وذلك عندما يقبل الفيء . . . فكأنَّما الفيء إنسان يقبل .

ـ عن علي أنَّ رسول الله ﷺ قال يوم الخندق :

«حسبونا عن صلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً »(١).

شغل الكفرة المسلمين يوم الخندق حتَّى فات وقت العصر ، فتألَّم لذلك رسول الله ﷺ ودعا عليهم بأَنْ يملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً ، وقد عبَّر عن الشغل المنسي للصَّلاة بالحبس .

ـ عن أَبي أَيوب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«لا تزال أمَّتي بخير ـ أو قال على الفطرة ـ ما لم يؤخروا المغرب إلى أَنْ تشتبك النُّجوم »(٢) .

وقت المغرب ضيِّق جدًّا وعلى المسلمين أَنْ يسارعوا إلى أداء هذه الصَّلاة في أَوَّل وقتها عندما يكون الضِّياء ما يزال موجوداً وقبل أَنْ يأتي الظَّلام . وقد بينَّ الوقت المكروه الَّذي ينبغي لهم أَنْ لا يوقعوا الصَّلاة فيه بياناً حسيًا بالصُّورة الآتية « . . . ما لم يؤخِّروا المغرب إلى أَنْ تشتبك النُّجوم » أَيْ قبل أَنْ تشتدَّ الظُّلمة فتشتبك النُّجوم وإنهَّا لصورة حسيَّة .

ولا تزال الأُمَّة بخير ـ أو على الفطرة ـ ما لم يؤخِّروا هذه الصَّلاة إلى وقت اشتداد الظُّلمة .

ـ عن أنس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« . . . تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشَّمس حتَّى إذا كانت بين قرني الشَّيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلاَّ قليلاً »(٣) .

---

(١) أبو داود ١/ ١٦٧ .
(٢) أبو داود ١/ ١٦٩ .
(٣) التِّرمذي ١/ ١٤٩ .





صلاة المنافق تكون في آخر الوقت . . . ففي صلاة العصر مثلاً . . لا يسارع هذا المنافق إلى أدائها ، لكنَّه يجلس يرقب الشَّمس حتَّى إذا كانت بين قرني الشَّيطان أَيْ كادت أَنْ تغرب قام فصلىًّ العصر صلاة سريعة ليس فيها طمأنينة ولا خشوع . . . ولا يذكر الله فيها إلاَّ قليلاً .

في هذا الحديث صورتان :

أولاهما ـ صورة الرَّجل ينتظر الشَّمس حتَّى تكون بين قرني الشَّيطان وقد ورد أَنَّ الشَّمس تغرب بين قرني شيطان وهي صورة غيبيَّة .

وثانيتهما صورته وهو ينقر الأَربع ركعات ، قال ابن الأثير في « النِّهاية » : ( يريد تخفيف السُّجود وأنَّه لا يمكث فيه إلاَّ قدر وضع الغراب منقاره فيما يريد أَكله )[1] .

والصُّورة متحركة منفِّرة من هذا الفعل فالمصليِّ الَّذي لا يكاد يلامس وجهه الأَرض حتَّى يرتفع ما أشبهه بالغراب أو بالديك الَّذي لا يكاد يلامس منقاره الحبَّة حتَّى يرتفع .

والحديث بصورتيه يؤدِّي غرضاً دينياً هو الحضُّ على أَداء صلاة العصر في أَوَّل وقتها مستكملة لعنصر الطُّمأنينة والأناة . وينفِّر من تأْخيرها والإسراع في تأديتها .

ـ عن أبي ذر قال رسول الله ﷺ :

« كيف أنت إذا كانت عليك أمراء يؤخرون الصَّلاة عن وقتها ؟ أو يميتون الصَّلاة عن وقتها ؟ »

قلت : فما تأمرني ؟

قال : « صلِّ الصَّلاة لوقتها ، فإنْ أَدركتها معهم فصلِّ فإنَّها لك نافلة »[2]

---

(١) النِّهاية : مادة (نقر)

(٢) صحيح مسلم ٥/ ١٤٧ وأبو داود ١/ ١٧٣ والتِّرمذي ١/ ١٥٧ وأخرجه أيضاً أحمد والنَّسائي .



ـ وفي مسلم عن ابن مسعود قال :

« إنَّه ستكون عليكم أُمراء يؤخِّرون الصَّلاة عن ميقاتها ، ويخنقونها إلى شرق الموتى ، فإذا رأيتموهم قد فعلوا ذلك فصلُّوا الصَّلاة لميقاتها واجعلوا صلاتكم معهم سبحة »[1] أي نافلة .

صورة رائعة متحرِّكة ، إذْ تبدو الصَّلاة ههنا كائناً حيًّا . . . ويكون أُمراء يخنقونها من عنقها حتَّى إلى الشرَّق الَّذي يشرق فيه الموتى عادة قبل لفظ الرُّوح ، فإذا بلغت الصَّلاة هذا المبلغ أقاموها .

قال النَّووي : معنى يميتون الصَّلاة يؤخِّرونها ويجعلونها كالميِّت الَّذي خرجت روحه ، والمراد بتأخيرها عن وقتها أيْ وقتها المختار لا جميع وقتها .

فإذا أخَّر الأمير الصَّلاة عن الوقت المختار كان على المسلمين أنْ يصلُّوها لوقتها ، فإذا أَدركوها مع الإمام كانت لهم نافلة .

ـ عن أَبي هريرة عن النَّبي ﷺ قال :

« من صلىَّ صلاة لم يقرأ فيها بأمِّ القرآن فهي خداج (ثلاثاً ) غير تمام »[2]

قراءة الفاتحة ركن من أركان الصَّلاة، فمن لم يقرأ بها في صلاته فصلاته ناقصة غير تامة.

وكلمة ( خداج ) تستعمل غالباً في النَّاقة الَّتي لا تتمُّ مدَّة الحمل ، بل تولد قبل أَنْ تستكمل مدَّتها .

والصُّورة هنا تعتمد على البيئة العربية الَّتي تقوم على النَّاقة . ومن ثمَّ فإنَّ المخاطبين يدركون المراد من الصُّورة أَتمَّ إدراك .

ـ عن عليّ عن النَّبي ﷺ قال :

« مفتاح الصَّلاة الطَّهور ، وتحريمها التَّكبير ، وتحليلها التَّسليم »[3] .

---

(١) صحيح مسلم ٥/ ١٦ .

(٢) صحيح مسلم ٤/ ١٠١ .

(٣) التِّرمذي ١/ ١٣ وأبو داود ١/ ٤٧ ورواه التِّرمذي أيضاً عن أبي سعيد ١/ ٩٩ .





الصَّلاة بيت فيه الرَّحمة والمغفرة ورضوان الله ، ومفتاح هذا البيت هو الوضوء فإذا ما استخدم المرء هذا المفتاح استطاع أنْ يلج في رحاب هذا البيت الكريم لتغمره السَّكينة ويفوز بلذَّة الطَّاعة وحلاوة المناجاة .

والصُّورة هنا قائمة على التَّشبيه البليغ .

ـ عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ :

« اعتدلوا في السُّجود ولا يبسط أَحدكم ذراعيه انبساط الكلب »[1] .

ـ وعن جابر أَنَّ النَّبي ﷺ قال :

« إذا سجد أحدكم فليعتدل ولا يفترش ذراعيه افتراش الكلب »[2] .

ـ وعن عائشة قالت :

نهى النَّبي ﷺ أَنْ يفترش الرَّجل ذراعيه افتراش السَّبع[3] .

ـ وعن عبد الرَّحمن بن شبل قال :

نهى رسول الله ﷺ عن نقرة الغراب وافتراش السَّبع وأَنْ يوطِّن الرَّجل المكان في المسجد كما يوطِّن البعير[4]

هذه الأحاديث في صفة السُّجود وفيها الأَمر بالاعتدال والنَّهي عن أَنْ يفترش المرء ذراعيه افتراش الكلب أَو السَّبع، وذلك بأَنْ يجعل ذراعيه على الأَرض كالفراش ، والبساط كما يجعلهما الكلب أو السَّبع .

والنَّهي عن هذه الكيفيَّة المكروهة في السُّجود بوساطة هذه الصُّورة المعروفة فيه

---

(١) صحيح البخاري ١/ ١٤١ و٢٠٨ وصحيح مسلم ٤/ ٢١٠ والترّمذي ١/ ٢٣٣ ، وأبو داود ١/ ٣٢٨ .
(٢) الترمذي ١/ ٢٣٣ .
(٣) مسلم ٤/ ٢١٠ .
(٤) أَبو داود ١/ ٣٠٦ وأَخرجه النَّسائي وابن ماجه ١/ ٤٥٩ .



تحديد دقيق يفوق أيّ وصف. والكلب والسَّبع من الحيوانات الَّتي تعرف أوضاعها وحالاتها.

والصُّورة مستقاة من حياة المخاطبين ممَّا يجعل تأثُّرهم بها وإدراكهم لها في الذروة من الرِّقة .

وفي الحديث الأخير النَّهي عن نقرة الغراب وقد مضت ، وعن أن يوطِّن المكان في المسجد كما يوطن البعير ، ومعنى هذه الجملة على وجهين ، وفي كلٍّ منهما صورة :

الأَوَّل : أنْ يألف الرَّجل مكاناً معلوماً من المسجد لا يصليِّ إلاَّ فيه كالبعير لا يأوي من عطنه إلاَّ إلى مبرك دمث قد أوطنه واتَّخذه مناخاً لا يبرك إلاَّ فيه .

والثَّاني : أنْ يبرك على ركبتيه قبل يديه إذا أراد السُّجود وألاَّ يهوي في سجوده فيثني ركبتيه حتَّى يضعهما بالأرض على سكون ومهل .

ـ عن العبَّاس أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول :

« إذا سجد العبد سجد معه سبعة آراب [1] : وجهه وكفَّاه وركبتاه وقدماه »[2] .

ـ وعن ابن عمر رفعه قال : قال ﷺ :

« إنَّ اليدين تسجدان كما يسجد الوجه . فإذا وضع أحدكم وجهه فليضع يديه وإذا رفعه فليرفعهما »[3] .

في الحديثين تشخيص يضفي صفات الأحياء على الأعضاء ، فالوجه يسجد والكفَّان يسجدان ، والرُّكبتان والقدمان كلُّ أولئك كائنات تسجد مع الإنسان .

---

(١) الآراب : جمع أرب وهو العضو.
(٢) أبو داود : ١/ ٣٢٦ .
(٣) أبو داود : ١/ ٣٢٦ .





ـ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ في شأن ركعتي سنَّة الفجر :

« لا تدعوهما وإنْ طردتكم الخيل »[1]

لركعتي سنَّة الفجر من الأهمية ما ليس لسنة راتبة أُخرى إلاَّ الوتر، والنَّص المذكور يحضُّ على المحافظة عليهما في أشدِّ حالات الضِّيق والحرج، يقول : إنْ طردتكم خيل العدو يريدون قتلكم فلا تدعوا هاتين الرَّكعتين .

والمقصود التَّأكيد من الشَّارع على الإتيان بهما وعدم تركهما وإنْ كان الإنسان في حال شاقَّة كمن يطلبه العدو خلفه على الخيل ليقتله .

إنَّ النَّص كناية عن الحرص على ركعتي الفجر حتَّى في الشِّدة .

ـ عن معاذ أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« من قعد في مصلاَّه حين ينصرف من صلاة الصُّبح حتَّى يسبح ركعتي الضُّحى لا يقول إلاَّ خيراً ، غَفَرَ الله له خطاياه وإنْ كانت أكثر من زبد البحر »[2] .

صلاة الضُّحى من السُّنن المؤكَّدة الَّتي رتب الشَّارع على أدائها ثواباً كبيراً يرغِّب المؤمن في المحافظة عليها . وهذا رسول الله ﷺ يقول في الحديث : من بقي في مصلاَّه بعد صلاة الصُّبح حتَّى تطلع الشَّمس فيصلِّي ركعتي الضُّحى وهو في مجلسه ذاك ، لا يقول إلاَّ خيراً غفرت له خطاياه مهما كانت كثيرة حتَّى وإنْ كانت أكثر من زيد البحر .

ـ عن أَبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

«أَما يخشى أَحدكم ـ أَو ألا يخشى أَحدكم ـ إذا رفع رأْسه قبل الإمام أَن يجعل الله رأْسه رأْس حمار ـ أَو يجعل الله صورته صورة حمار ـ»[3] .

---

(1) أبو داود ٢/ ٢٨ وانظر عون المعبود ١/ ٤٨٧ .
(2) أبو داود ٢/ ٣٧ .
(3) صحيح البخاري ١/ ١٧٧ ط الشَّعب .

تهديد شديد مخيف يوَّجه إلى أُولئك الَّذين يسابقون الإمام فيرفع أَحدهم رأسه قبل الإمام ويدعوهم إلى التَّفكير في المصير الَّذي ينتظرهم يوم القيامة :

ألا تخشى أيهُّا السَّابق أنْ يجعل الله رأسك رأس حمار . . . ؟

تهديد جاء عن طريق الموازنة . . . وإنَّها لفضيحة منكرة.

وإذا كان أهمُّ ما يميِّز الإنسان هو الرأس فإنَّ جعل رأسه يوم القيامة رأَس حمار كارثة ضخمة تورث صاحبها عذاباً نفسيًا لا يوصف ولا يحد .

والأمر الآن بيد الإنسان ، ولكنَّه لن يكون كذلك في يوم القيامة ذاك اليوم العصيب .

وهنا يتحقَّق الغرض من الحديث ، وهو الكفُّ عن مسابقة الإمام .

ـ قال أَبو جهيم قال رسول الله ﷺ :

«لو يعلم المارُّ بين يدي المصلِّي ماذا عليه لكان أَنْ يقف أَربعين خيراً له من أنْ يمرَّ بين يديه»

قال أَبو النَّضر ـ ( أحد الرُّواة ) ـ : لا أَدري أَقال أَربعين يوماً أَوْ شهراً أَوْ سنة[1] .

ـ وقال التَّرمذي : حديث أَبي جهيم حديث حسن صحيح ، وقد روي عن النبيِّ ﷺ أَنَّه قال :

« لأنْ يقف أَحدكم مائة عام خير له من أَنْ يمرَّ بين يدي أَخيه وهو يصلِّي»[2] .

إنَّ المرور بين يدي المصلِّي محظور ، والحديث يبيِّن عظيم إثمه بأَنَّ هذا المارّ لو كان يعلم ما عليه من الإثم والعذاب لكان يفضِّل أَنْ يقف أَربعين عاماً على المرور بين يدي المصلِّي .

---

(١) صحيح البخاري ١/ ١٣٦ط الشَّعب ، وصحيح مسلم ٢/ ٥٨ط . استانبول ، والتِّرمذي ١/ ٢٧٥ .
(٢) التِّرمذي ١/ ٢٧٥ .

لو وزان بين المرور والوقوف أربعين سنة وكان يعلم عقوبة المار لآثر أن يقف أربعين .

والحديث الآخر الَّذي رواه التِّرمذي يقرِّر أنَّ الوقوف مائة عام خير من المرور بين يدي المصلي.

ـ عن طلحة قال : قال رسول الله ﷺ :

« إذا وضع أحدكم بين يديه مثل مؤخَّرة الرَّحل فليصلِّ ولا يبالي من مرَّ من وراء ذلك»[1]

يسن للمصليّ أَنْ يضع أَمامه سترة . . . ولكن ما قدر هذه السُّترة ؟ الحديث يقرِّر أَنهَّا ينبغي أَنْ تكون مثل مؤخَّرة الرَّحل . وما أكثر ما يعرف العربي ذلك ، لأنَّ النَّاقة عماد حياته في تلك الأيّام . . . فإذا وضع مثل هذه السُّترة فليصلِّ ولا يبالي من مرَّ من وراء ذلك .

ـ عن أبي سعيد الخدريّ أنّ رسول الله ﷺ أَبصر رجلاً يصلِّي وحده فقال :

«ألا رجل يتصدَّق على هذا فيصليِّ معه ؟ »[2]

الصَّلاة مع الرَّجل الَّذي يصليِّ وحده ليكسبه أجر الجماعة دعاها الرَّسول ﷺ صدقة .

ـ قال أبو وليد العدويّ :

خرج رسول الله ﷺ فقال :

« إنَّ الله عزَّ وجلَّ أَمركم بصلاة وهي خير لكم من حمر النَّعم وهي الوتـر ، فجعلها لكم فيما بين العشاء إلى طلوع الفجر »[3] .

---

(١) التِّرمذي ١/ ٢٧٤ .

(٢) أبو داود ١/ ٢٢٣ ورواه التِّرمذي أيضاً .

(٣) بو داود ٢/ ٨٣ .

صلاة الوتر خير من حمر النَّعم ، ووقتها بين العشاء والفجر . والنَّص صورة قائمة على الموازنة وتنتهي بسامعها إلى الحرص على أداء الوتر.

ـ عن الأرقم بن أَبي الأَرقم قال : قال رسول الله ﷺ :

« إنَّ الَّذي يتخطَّى رقاب النَّاس يوم الجمعة ويفرِّق بين اثنين بعد خروج الإمام كالجارِّ قصبه في النَّار »[1].

يحرصُ الإسلام على رعاية مصالح الآخرين ولا سيماً في الأَماكن التَّي يتجمَّع فيها عدد كبير من النَّاس .

ففي صلاة الجمعة تجد عدداً من الَّذين تأخرَّوا عن الحضور في وقت مبكر إلى الصَّلاة يعمدون إلى تخطِّي رقاب النَّاس ، فيسيئون بذلك إساءات بالغة ، من أجل ذلك نهى الرَّسول الكريم عن هذا الفعل السَّيء ، وشبَّه فاعله بالَّذي يجر أمعاءه في النَّار. وفي ذلك ما فيه من التَّنفير من هذا العمل .

ـ عن جابر بن سمرة قال :

كُنّا إذا صلَّينا خلف رسول الله ﷺ فسلَّم أَحدنا أَشار بيده من عن يمينه ومن عن يساره . فلماَّ صلى قال :

«ما بال أُحدكم يومىء بيده كأَنهَّا أَذناب خيل شمس ؟ إنمَّا يكفي أَحدكم أَنْ يقول هكذا ـ وأشار بأصبعه ـ يسلِّم على أَخيه من عن يمينه ومن عن شماله » .

وفي رواية :

« مالي أَراكم رافعي أَيديكم كأَنهَّا أَذناب خيل شمس ؟ اسكنوا في الصَّلاة »

وفي رواية :

« علام تومئون بأيديكم كأنهَّا أَذناب خيل شمس ؟ إنمَّا يكفي أَحدكم أَنْ يضع

(١) مسند أحمد ٣/ ٤١٧ والقصب : الأمعاء .

يده على فخذه ثُمَّ يسلِّم على أَخيه من على يمينه وشماله »[1] .

يؤدِّب الرَّسول ﷺ أصحابه في موضوع السَّلام عند الخروج من الصَّلاة، إذ كانوا يشيرون بأيديهم من عن أيمانهم وعن شمائلهم، فنهاهم ﷺ عن رفع الأَيدي والإيماء بها، وأَمرهم أَنْ يقتصروا على السَّلام على إخوانهم من اليمين والشّمال.

والجميل في الصُّورة اختيار هذا التَّشبيه ، فالخيل الشُّمس عادة تحرِّك أَذنابها ولا تكاد تستقرُّ ، وفي تشبيه أَيدي هؤلاء المشيرين بِأذناب الخيل الشُّمس تنفير من هذه العادة .

ـ عن النُّعمان بن بشير قال :

كان رسول الله ﷺ يسوِّي صفوفنا ، فخرج يوماً ، فرأى رجلاً خارجاً صدره عن القوم فقال :

«لتسوُّن صفوفكم أَو ليخالفنَّ الله بين وجوهكم »[2] .

الحديث في موضوع تسوية الصُّفوف وضرورتها في صلاة الجماعة . ومعنى قوله ﷺ « أو ليخالفنَّ الله بين وجوهكم » أَيْ ليوقعنَّ بينكم العداوة والبغضاء واختلاف القلوب .

يقال : تغيرَّ وجه فلان عليَّ ، أَي ظهر لي من وجهه كراهته لي وتغيرُّ قلبه عليَّ ، لأنَّ مخالفتهم في الصُّفوف مخالفة في ظواهرهم ، واختلاف الظَّواهر سبب لاختلاف البواطن .

قال الحافظ في (الفتح ) : ويؤيده رواية أَبي داود وغيره « أَو ليخالفنَّ الله بين قلوبكم » .

وفي الحديث كناية عن العداوة واختلاف القلوب دلَّ عليها قوله ﷺ « أو ليخالفنَّ الله بين وجوهكم » .

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ١٥٢ ـ ١٥٤ وأَبو داود ١ / ٣٦٠ ـ ٣٦١ .

(٢) الترِّمذي ١/ ١٩٣ ورواه البخاري ومسلم وأبو داود (عون المعبود) ١/ ٢٥٠ والنّسائي وابن ماجه .

ـ عن أبي أُمامة قال : قال رسول الله ﷺ :

« ثلاثة لا تجاوز صلاتهم آذانهم :
العبد الآبق حتَّى يرجع
وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط
وإمام قوم وهم له كارهون »[1]

العبد الآبق والمرأة المسخطة لزوجها والإمام المكروه ثلاثة لا تقبل صلواتهم .

ولكنَّ الحديث عبَّر عنها بأَنَّ صلاتهم لا تجاوز آذانهم ، فهي لا ترتفع إلى السَّماء . . . وتردُّ حتَّى يعودوا عن مظالمهم .

**

## ٢ ـ الزَّكاة :

وهي الرُّكن العملي الثَّاني من أركان الإسلام ، ولعظم شأنها قرنت في مواضع كثيرة من كتاب الله بالصَّلاة . وقد مرَّت بنا في مبحث عالم الغيب أحاديث عدَّة تَتَّصل بعذاب مانع الزَّكاة يوم القيامة .

والزَّكاة والصَّدقة والعطاء والإنفاق ألفاظ وردت في الكتاب والسُّنة بمعان متقاربة[2] .

وسأُورد فيما يلي نماذج من الأحاديث الَّتي حوت بعض الصُّور الفنِّية الجميلة :

ـ عن أُبَي بن كعب قال :

« . . . ولو أنفقت مثل أُحد ذهباً في سبيل الله ما قبله الله منك حتَّى تؤمن بالقدر وتعلم أنَّ ما أَصابك لم يكن ليخطئك وأَنَّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك » .

(١) التِّرمذي ١/ ٢٨٧ .
(٢) فمن ذلك ما جاء في الكتاب الكريم من إقام الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة ، ومن قوله تعالى في مصارف الزَّكاة ﴿ إنَّما الصَّدقات للفقراء والمساكين﴾ ( التوبة ٦٠) ومن مثل قوله تعالى في مواضع كثيرة ﴿ أنفقوا﴾ ومن مثل قوله ﴿ فأمَّا من أعطى واتَّقى﴾ إلى غير ذلك.






قال الرَّاوي : ثُمَّ أتيت ابن مسعود فقال مثل ذلك ، ثُمَّ أَتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك ، ثُمَّ أَتيت زيد بن ثابت فحدَّثني عن النَّبيﷺ مثل ذلك[1] .

إنَّ الله طيِّب لا يقبل إلا طيِّباً ، ولا يقبل من الأَعمال إلاَّ ما كان صادراً عن عقيدة صحيحة ، أَمَّا الأَعمال الَّتي تصدر من الكفرة فإنهَّا هباء كما قال تعالى ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾[2] ، وقال ﴿مثل الَّذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظَّمآن ماء حتَّى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفَّاه حسابه والله سريع الحساب﴾[3] ، وقال : ﴿ مثل الَّذين كفروا بربهِّم أعمالهم كرماد اشتدَّت به الرِّيح في يوم عاصف لا يقدرون ممَّا كسبوا على شي ﴾[4] . والإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان ، فمن لم يكن مؤمناً بالقدر لم يتقبَّل الله صدقته مهما كانت كبيرة جليلة . ولقد عبَّر الحديث عن كثرتها بأَنهَّا لو كانت مثل أُحد من الذَّهب وأَنفقها صاحبها في سبيل الله ولم يكن يؤمن بالقدر لم يقبلها الله . . ثُمَّ أَتبع ذلك بذكر الإيمان بالقدر مفصَّلاً فقرَّر أَنَّه الإيمان بأَنَّ ما أَصاب المرء لم يكن ليخطئه وأَنَّ ما أَخطأه لم يكن ليصيبه .

والعقيدة الصَّحيحة أَساس في قبول الأعمال كلِّها ومنها الإنفاق في سبيل الله .

ـ عن أَبي ذر قال :

انتهيت الى النَّبيﷺ وهو جالس في ظلِّ الكعبة ، فلماَّ رآني قال : « هم الأخسرون وربِّ الكعبة» .

قال: فجئت حتَّى جلست، فلم أتقارَّ أَنْ قمت فقلت: يا رسول الله فداك أبي وأُمي. من هم؟

---

(١) أبو داود ٤/ ٣١٠ ـ ٣١١ .

(٢) الفرقان : ٢٣

(٣) النُّور : ٣٩ .

(٤) إبراهيم : ١٨ .

قال: «هم الأكثرون أموالاً إلاَّ من قال هكذا وهكذا وهكذا. من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ـ وقليل ما هم»[1].

ـ وفي رواية عنه قال:

كنت أَمشي مع النَّبي ﷺ في حرَّة بالمدينة، فاستقبلنا أُحد:

فقال: «يا أبا ذر!»

قلت: لبيَّك يا رسول الله.

فقال: «ما يسرُّني أنَّ عندي مثل أُحد هذا ذهباً، تمضي عليَّ ثلاثة أيَّام وعندي منه مائة دينار، إلاَّ شيء أَرصده لدين، إلاَّ أَنْ أَقول له في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا». عن يمينه وعن شماله وعن خلفه ـ ثمَّ سار فقال: «إنَّ الأكثرين هم الأَقلُّون يوم القيامة إلاَّ من قال بالمال هكذا وهكذا ـ عن يمينه وعن شماله وعن خلفه ـ وقليل ما هم»[2].

ـ وعن أَبي هريرة أَنَّ النَّبي ﷺ قال:

«ما يسرُّني أَنَّ لي أُحداً ذهباً تأتي عليَّ ثالثة وعندي منه دينار إلاَّ دينار أَرصده لديْن عليَّ»[3].

للنَّاس مقاييس في تقويم الأشخاص فاسدة، ومن ذلك أنَّهم يعظِّمون أصحاب الأَموال الكثيرة ويحلُّونهم في المنزلة العالية من التَّقدير والإجلال.

ولكنَّ رسول الله ﷺ يقسم بربِّ الكعبة أنَّهم هم الأخسرون وأنَّهم هم الأقلُّون يوم القيامة إلاَّ رجلاً وزَّع ماله هنا وهناك فأنفق في سبيل الله وأعطى المساكين. ومثل هذا قليل في الأغنياء.

إنَّ كثرة المال إنْ كانت شيئاً كبيراً عند بعض النَّاس فهي في ميزان الله ليست كذلك.. إنَّها اختبار وابتلاء... وما أَقَلّ النَّاجحين في هذا الاختبار.

(١) صحيح مسلم ٧/ ٧٣ ـ ٧٥.

(٢) متَّفق عليه (وانظر رياض الصَّالحين ٣٣٣).

(٣) متَّفق عليه (صحيح مسلم ٧/ ٧٤ وانظر رياض الصَّالحين ٣٣٤).

وفي هذه الرِّوايات المتقدِّمة يقرِّر رسول الله ﷺ أنَّه لو كان له من الدَّنانير مثل أُحد لا يسرُّه أنْ تمضي ثلاثة أيَّام وعنده منه شيء إلاَّ شيئاً يسيراً يرصده لدين . . . ورسول الله ﷺ هو القدوة ﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة﴾[1] وهذه الرِّوايات تبينِّ أنَّ الأكثرين مالاً ليسوا هم المقدَّمين وليسوا هم النَّاجين وليسوا هم الأكثرين يوم القيامة . . إنهَّم هم الأخسرون الأقلون إلاَّ قليلاً منهم ممِّن ينفق ماله في سبيل الله . وتبيِّن كذلك أنَّ رسول الله ﷺ لا يدَّخر شيئاً ولو كان عنده مثل أُحد من الذَّهب إلاَّ شيئاً يرصده لدين .

والصُّورة الأُولى في النَّص التَّعبير عن الكثرة بحيازة ذهب قدر جبل أُحد ، والصُّورة الثَّانية التَّعبير عن الإنفاق بالإشارة نحو اليمين والشِّمال والإمام والوراء .

ـ عن أبي هريرة عن النَّبي ﷺ أنَّه قال :

« السَّاعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله ـ وأحسبه قال ـ وكالقائم الذِّي لا يفتر وكالصَّائم الذي لا يفطر » .[2]

ـ وعن صفوان بن سليم يرفعه إلى النَّبي ﷺ قال:

« السَّاعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو كالذي يصوم النَّهار ويقوم اللَّيل » .[3]

الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام ، وأجره أجر عظيم ، نطقت بذلك الآيات القرآنية والأحاديث النَّبوية واستفاض ذلك عند المسلمين . فالذي يسعى على الأرملة والمسكين ينفق عليهما كالمجاهد في سبيل الله هذه صورة . وكالصَّائم الذي يصوم الدَّهر لا يفطر والقائم الذي لا يفتر من الصَّلاة طوال اللَّيل لا ينام، وهذه صورة أخرى . وهاتان الصُّورتان جيء بهما للدَّلالة على عظيم ثواب المتصدِّق على هؤلاء

---

(١) الأحزاب : ٢١ .

(٢) متفق عليه ( انظر رياض الصالحين ٢٢٦ ) .

(٣) صحيح البخاري ٨ / ٥٨ ط الشعب كتاب الأدب : باب السَّاعي على الأرملة .




المعوزين ، كالارملة التِّي فقدت رجلها ولم يعد هناك من ينفق عليها ولا من يقوم بحاجتها، وكالمسكين الذي لا يكفيه ما عنده لسدِّ حاجاته الكثيرة.

والصُّورة هنا قائمة على التَّشبيه .

ـ عن أسلم أنَّ عمر بن الخطَّاب قال :

حملت على فرس عتيق في سبيل الله ، فأضاعه صاحبه فظننت أنَّه بائعه برخص فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال :

« لا تبتعه ولا تعد في صدقتك ، فإنَّ العائد في صدقته كالكلب يعود في قيئه » .[1]

ـ وعن ابن عبَّاس أنَّ النَّبي ﷺ قال :

« مثل الذي يرجع في صدقته كمثل الكلب يقيء ثُمَّ يعود فِي قيئه فيأكله » .[2]

وفي رواية عنه :

« ليس لنا مثل السَّوء : العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه » .[2]

وفي رواية عنه :

« لا يحلُّ لرجل أنْ يعطى العطيَّة فيرجع فيها إلاَّ الوالد فيما يعطي ولده ، ومثل الَّذي يعطى العطيَّة ويرجع فيها كمثل الكلب أكل حتَّى إذا شبع قاء ثُمَّ رجع فيه » .[2]

مهما بذل الإنسان جهده في الإتيان بصورة تدعو إلى التَّقزُّز من عمل والتَّنفير

---

(١) صحيح مسلم ١١ / ٦٢ وصحيح البخاري ٤ / ٧١ ط الشَّعب .
(٢) صحيح مسلم ١١ / ٦٤ وصحيح البخاري ٣ / ٢١٥ ط الشَّعب كتاب الهبة باب لا يحلُّ لأحد أنْ يرجع في هبته ، والنَّسائي وابن ماجه ٢ / ٧٩٧ والتِّرمذي ٢ / ٢٦٥ وأبو داود ٣ / ٣٩٤ ومسند أحمد ( ط شاكر ) ٣ / ٢٦١ وصحيح الجامع ٥ / ١٩٧ وأقيسة النَّبي ١٠٣ و ١٠٤ و ١٦١ ، وروي الحديث أيضاً عن ابن عمر .





منه فليس بواجد أروع من هذه الصُّورة التي نقف عليها في هذا الحديث الَّذي مثل العائد في صدقته أوْ هبته بالكلب الذي أكل حتَّى شبع ثُمَّ قاء ما أكل ، ثُمَّ عاد في قيئه يأكله . يا لله ما أشدَّ نفورنا من هذه الفعلة التي نجحت الصُّورة أي نجاح في إثارة تقزُّزنا ونفورنا . لو كان الذي يفعل هذا إنساناً لكان شيئاً مقرفاً فما بالنا ونحن نتصوَّر من يفعل ذلك كلباً يقيء ويأكل قيئه مرَّة أُخرى ؟ ولم يستثن رسول الله ﷺ من ذلك إلاَّ الوالد مع ولده ، لأنَّ الولد وما يملك لأبيه كما دلَّت على ذلك أحاديث ، أُخر ، وفي هذا الأدب الكريم سموٌّ وفيه ترفعٌ عن الهبوط والتَّردِّي في الأخلاق المنكرة ، ومحافظة على المستوى الكريم الذي يليق بالإنسان المسلم ، ويقرِّر عليه الصَّلاة والسَّلام أنّ هذا المثل ليس للمسلمين ، إنَّه مثل السُّوء . . ومن هنا كان نهي رسول الله ﷺ عمر بن الخطَّاب أنْ يشتري الفرس الذي سبق أنْ تصدَّق به إلى رجل لم يعرف قدره ومكانته وتوقَّع عمر أنَّه سيبيعه بثمن بخس .

ـ عن عدي بن حاتم قال : سمعت النَّبي ﷺ يقول :

« اتَّقوا النَّار ولو بشقِّ تمرة » .[١]

ـ وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ

« من تصدَّق بعدل تمرة من كسب طيِّب ـ ولا يقبل الله إلاَّ الطَّيب ـ فإنَّ الله يقبلها بيمينه ثُمَّ يربيِّها لصاحبها كما يربِّي أحدكم فلوه[٢] حتَّى تكون مثل الجبل » .[٣]

إنَّ الصَّدقة القليلة مقبولة ما دامت من كسب طيِّب . بل إنَّ لها شأناً ربمَّا لا يخطر على بال المتصدِّق ، فهي تقيه من النَّار . . نعم إنَّ نصف تمرة يقي صاحبه من النَّار .

وحديث عدي فيه أمر صريح بأنْ نتَّقي النَّار ولو بشقِّ تمرة . ولو ذهبنا نتصوَّر

---

(١) متفق عليه ( صحيح مسلم ٧ / ١٠١ وانظر رياض الصَّالحين ١٣٨ و ٢٩٦ ) .

(٢) الفلو : ( بفتح الفاء وضمّ اللام وتشديد الواو ) ويقال أيضاً بكسر الفاء وإسكان اللاَّم وتخفيف الواو ، المهر .

(٣) متفق عليه ( انظر رياض الصَّالحين ٣٨٢ ) ، والتَّرمذي ٢ / ٢٣ ، وقد مرَّ بنا هذا الحديث في الغيبيات عند ذكر رحمة الله ، وانظر صـ ٩١ من هذا البحث .

تحقُّق هذا في الواقع لوجدنا أنَّ نسبة الذِّين يستطيعون أنْ يتصدَّقوا بهذا القليل نسبة عالية . وربما اجتمع لدى الفقير والمحتاج من الصَّدقات القليلة الَّتي تقدَّم إليه ما يغني حاجته ويسدُّ جوعته ويحلُّ أزمته والقطرات المتعدِّدة تملأ الإناء الواسع .

فالصَّدقة القليلة تؤدي مهمَّة اجتماعية ناجحة وهي تحقِّق لصاحبها نجاة من النَّار ﴿فمن زحزح عن النَّار وأُدخل الجنَّة فقد فاز﴾ .

وأمَّا حديث أبي هريرة فإنَّه يحدِّثنا بتفصيل عن ثواب الصَّدقة القليلة وكيف ينمو هذا الثَّواب حتَّى يصبح شيئاً كبيراً جدّاً .

إنَّ الصَّدقة اليسيرة التي تساوي عدل تمرة من كسب طيِّب يقبلُها الله بيمينه وإنَّه لإكرام للمتصدِّق . . فهذه الصَّدقة القليلة يقبلها الله تبارك وتعالى بيمينه ، ثُمَّ يربِّيها وينمِّيها لصاحبها كما يربِّي أُحدكم فلوه ، والعرب تعنى بالخيل عناية كبرى حتَّى إنهَّم ليسقونها الَّلبن ولا يركبونها في الأسفار ولا في الذِّهاب إلى الحروب ، ويدَّخرونها للمعارك والكرّ والفرّ والغارة ، وقد نطقت بذلك أشعارهم ،[١] وما يزال ربُّنا تبارك وتعالى يربيِّها حتَّى تكون مثل الجبل ، وإنَّ انتقال الخيال من رؤية الصَّدقة وهي تمرة إلى رؤيتها مثل الجبل ليقف الإنسان على عظيم الأجر الذِّي يكون للمتصدِّق ويبعث على الصَّدقة وعلى ألاَّ يمتنع المرء من الصَّدقة لقلَّة ما يقدر على بذله . واختيار ( عدل التَّمرة ) في بلد يكثر فيه التَّمر له دلالته الكبيرة في تصوير الصَّدقة القليلة .

وكذلك فإنَّ اختيار النَّبي ﷺ تربية الفلو ليدلُّ على الاهتمام الكبير بالصَّدقة اليسيرة لما أشرنا إليه من أنهَّم كانوا يبذلون عناية بالمهر لا تبذل في الدَّواب الأُخرى .

والحديث تدريب عملي على الجود والكرم ، واعتمد في عناصر الصُّورة على ما كان في بيئة المخاطبين من التَّمر والخيل والجبال .

ـ عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول :

---

(١) انظر وصف الخيل في كتابنا (فنّ الوصف في مدرسة عبيد الشِّعر) .

« يا نساء المسلمات لا تحقرنَّ جارة لجارتها ولو فرسن[1] شاة» .[2]

ـ وعن أمّ بجيد قالت لرسول الله ﷺ :

إنَّ المسكين ليقوم على بابي فما أَجد له شيئاً أُعطيه إِيَّاه .

فقال لها رسول الله ﷺ :

« إن لم تجدي له شيئاً تعطينه إياه إلاَّ ظلفاً محرَّقاً فادفعيه إليه في يده » .[3]

الحديثان يحضَّان على الصَّدقة ، ويحذران من الإحجام عن فعلها لضآلتها وقلَّتها .

وها هو ذا رسول الله ﷺ يخاطب النِّساء وينهاهن عن احتقار الشَّيء اليسير الذي يمكنهنَّ أَنْ يتصدَّقن به .

قال النَّووي في شرحه : ( لا تمتنع جارة من الصَّدقة والهدية لجارتها لاستقلالها واحتقارها الموجود عندها بل تجود بما تيسر وإنْ كان قليلاً كفرسن شاة) .

وفي الحديث أَمر بحسن الجوار لاسيماً إنْ كان الجار محتاجاً فالهدية بين الجيران قد تحقق شيئاً من التَّكافل الاجتماعي لا يحمل معنى المهانة والحرج لقبول الزَّكاة والصَّدقة .

وفي حديث أم بجيد الَّتي جاءت تسأَل رسول الله ﷺ ماذا تعمل عندما يقوم المسكين على بابها فلا تجد شيئاً تعطيه إيَّاه فأَرشدها ﷺ أَنْ تعطيه ما تيسرَّ عندها حتَّى ولو كان ظلفاً محرقاً . إنَّ هذا الذي نحقره ربمَّا كان سداداً لعوز وحاجة لآخرين . وهذه تربية سامية ، فما أكثر ما يمتنع الإنسان عن دفع شيء لقلَّته ويكون المرء السَّائل أو المسكين محتاجاً إليه أَعظم الحاجة .

(١) فرسن الشَّاة هو الظلف ، وهو بكسر الفاء والسِّين وهو في الأَصل خفُّ البعير ويستعار لظلف الشاة كما في هذا الحديث . قال الجرجاني في أَسرار البلاغة : ٤٨ ( وهو للبعير في الأَصل ليس لأَنْ يشبه هذا العضو من الشَّاة به من البعير ، كيف ولا شبه هناك ) .

(٢) متفق عليه : صحيح مسلم ٧ / ١١٩ وانظر رياض الصَّالحين ١٣٢ و ٢٤٥ .

(٣) الترمذي ٢ / ٢٤ .



هذا وإنَّ تعويد المرء نفسه وأهله على الدَّفع والعطاء من الأُمور المهمَّة التِّي تجعل صفة البذل والإنفاق سجيَّة قائمة في شخصيَّة الإنسان فإذا لم يجد إلاَّ القليل أعطاه . وعندما يجد الكثير فإنَّ هذه السَّجية تحمله على بذله وإنفاقه أو بذل شيء كثير منه .

والصُّورة في الحديثين في الإنفاق ولو كان قليلاً كظلف محرَّق أو فرسن شاة .

ـ عن سعد بن أبي وقاص قال : قال رسول الله ﷺ :

« . . . وأنت لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلاَّ أُجرت عليها حتَّى ما تجعل في في امرأتك » .[1]

إنَّ النَّفقة المقبولة عند الله ما توافرت فيها أمور ذكرتها النُّصوص الشرَّعية وقد مرَّ بنا آنفاً أنَّ من هذه الأُمور أنْ تكون من كسب طيِّب . والحديث الذي نحن بصدد دراسته يضيف أمراً آخر وهو أنْ يبتغي بها وجه الله . . فإذا ما تحقَّق هذان الأُمران وغيرهما ممَّا جاء في الكتاب والسُّنة[2] كان لصاحب الصَّدقة الأجر الكبير . . حتَّى اللقمة التي يجعلها المرء في فم زوجته له عليها أجر . . وهذا أمر قد يظنُّ المرء أنَّه من الأُمور الخاصَّة التي لا يؤجر عليها وهو من النَّفقات القليلة .

ـ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« إذا صنع لأحدكم خادمه طعاماً ثُمَّ جاءه به وقد ولي حرَّه ودخانه فليقعده معه فليأكل .
فإنْ كان الطَّعام مشفوهاً[3] قليلاً فليضع في يده منه أكلة أو أكلتين » .
قال داود : يعنى لقمة أو لقمتين .[4]

---

(١) متَّفق عليه : صحيح البخاري ١ / ٢٢ ط الشَّعب وانظر رياض الصَّالحين ٤٤ .
(٢) كالامتناع عن المنِّ والأذى فإنَّه مبطل للصدقة قال تعالى ﴿ . . لا تبطلوا صدقاتكم بالمنِّ والأذى ﴾ .
(٣) المشفوه : القليل لأنَّ الشِّفاه كثرت عليه حتَّى صار قليلاً أي هو قليل بالنِّسبة إلى من اجتمع عليه .
(٤) صحيح مسلم ١١ / ١٣٤ ـ ١٣٥ .





تأديب سام ، وتحقيق للمساواة بين الخادم والمخدوم ، ورعاية لمشاعره وإحساسه .

إنَّه ولي حرَّه ودخانه ، وشمَّ رائحته ، وراقبه بعينه حتَّى نضج وصنعه بيده ، ثُمَّ جاء بالطَّعام يقدمه لسيدِّه فكيف يُحرم منه ؟

إنَّ رسول الله ﷺ يأمر المسلم أنْ يقعده معه ويأكل معه . الخدم إخواننا ليس هناك فرق بيننا وبينهم . فإذا كان الطَّعام قليلاً بالنِّسبة لآكليه ، وربَّما لم يستطع صاحب الطَّعام نفسه أنْ يأكل منه إيثاراً منه لضيوفه فعليه في هذه الحالة أنْ يضع في يد الخادم لقمة أو لقمتين .

ـ عن أبي سعيد الخدري أنَّ أعرابياً سأل النَّبي ﷺ عن الهجرة فقال :

« إنَّ شأن الهجرة شديد . فهل لك من إبل ؟ »
قال : نعم .
قال : «فهل تؤدِّي صدقتها؟»
قال : نعم .
قال : «فاعمل من وراء البحار،[١] فإنَّ الله لن يترك[٢] من عملك شيئاً» .[٣]

الهجرة إلى دار الإسلام لها شأن كبير ، وإنَّنا لنقرأ في كتاب الله بعض أحكامها وفضلها وحال الذِّين يتركونها ، فلقد سماَّهم القرآن ظالمي أنفسهم[٤] وقد قرَّر أنهَّم لا يستحقُّون الموالاة حتَّى يهاجروا .[٥]

وكان ذلك في أوَّل الأمر ثُمَّ خفَّف الأمر بعد فتح مكة إذ قال عليه الصَّلاة

---

(١) أي من وراء القرى والمدن ، وكأنَّه قال : إذا كنت تؤدِّي فرض الله عليك في نفسك ومالك فلا تبال أنْ تقيم في بيتك ولو كنت في أبعد مكان : قال في النِّهاية : ( والعرب تسمى المدن والقرى البحار ) .
(٢) لن يترك : ( بكسر التاء ) أي لن ينقصك من عملك شيئاً ، من وتر يتر ، بمعنى نقص ينقص .
(٣) أبو داود ٣ / ٦ قال المنذري : وأخرجه البخاري ومسلم والنَّسائي .
(٤) سورة النساء : ٩٧ .
(٥) قال تعالى في الأنفال : ٧٢ ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتَّى يهاجروا ﴾ .

والسَّلام: «لا هجرة بعد الفتح» وههنا نجد رسول الله ﷺ يقول للأعرابي: إذا كنت تؤدِّي فرض الله عليك في نفسك ومالك فلا عليك أنْ تقيم في بيتك ولو كنت في أبعد مكان، وقد عبَّر عن ( أبعد مكان) بقوله (فاعمل من وراء البحار).

وقوله ( لن يترك من عملك شيئاً ) فيه تأثر واضح بالقرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السَّلم وأنتم الأعلون ولن يتركم أعمالكم ﴾ .[1]

- عن زينب الثَّقفيَّة امرأة عبد الله بن مسعود قالت :

قال رسول الله ﷺ :

« تصدَّقن يا معشر النِّساء ولو من حليِّكُن » .

قالت : فرجعت إلى عبد الله بن مسعود فقلت له :

إنَّك رجل خفيف ذات اليد ، وإنَّ رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصَّدقة فأته فاسأله ، فإنْ كان ذلك يجزىء عنِّي وإلاَّ صرفتها إلى غيركم .

فقال عبد الله : بل ائتيه أنت .

فانطلقت ، فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ حاجتي حاجتها . وكان رسول الله ﷺ قد أُلقيت عليه المهابة ، فخرج علينا بلال، فقلت له: إئت رسول الله ﷺ فأخبره أنَّ امرأتين بالباب تسألانك:

أتجزىء الصَّدقة عنهما على أزواجهما وأيتام في حجورهما ؟ ولا تخبره من نحن .

فدخل بلال على رسول الله ﷺ فسأله.

فقال له رسول الله ﷺ : «من هما ؟»

قال : امرأة من الأنصار وزينب .

---

(١) سورة محمَّد : ٣٥ .

فقال رسول الله ﷺ : «أيُّ الزَّيانب؟»

قال : امرأة عبد الله .

فقال رسول الله ﷺ : «لهما أجران : أجرُ القرابة وأجر الصَّدقة» .[1]

حادثة وقعت ترويها زينت الثَّقفية ، فكان من روايتها قصَّة جميلة ، وتبينٌ هذه القصَّة الواقعيَّة أنَّ للصَّدقة على الأهل أجرين ، أجر الصَّدقة وأجر القرابة وتنبىء هذه الحادثة عن مدى تأثُّر النِّساء بالموعظة ، فقد أمرهن بالصَّدقة حتَّى ولو بالأمور التِّي لا تستغني عنها امرأة وهـي الحلي . . . ممَّا يدلُّ على ضرورة تصـدُّق المرأة . ولرسول الله ﷺ أكثر من موقف أمر النِّساء فيه بالصَّدقـة رغبـة منـه ﷺ في تربيتهنَّ والسُّمو بهنَّ وتخليصهنَّ من النَّار .

وفي قوله ﷺ ( ولو من حلِّيكن ) كناية عن ضرورة الصَّدقة ولو من الأشياء التي لا تجود بها المرأة عادة .

هذا وفي كلام السَّيدة الفاضلة زينب عدد من الصُّور نشير إليها إشارة لأنَّها ليست من كلام النَّبي ﷺ .

مثل قولها : « إنَّك رجل خفيف ذات اليد » .

وقولها : « وكان رسول الله قد أُلقيت عليه المهابة » .

ـ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« دينار أنفقته في سبيل الله . ودينار أنفقته في رقبة . ودينار تصدَّقت به على مسكين . ودينار أنفقته على أهلك . أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك » .[2]

يسلك الرَّسول ﷺ سبيل السُّهولة في القول ، فيذكر دنانير أربعة أنفقها

---

(١) متفق عليه : انظر رياض الصَّالحين ٢٥٣ .

(٢) صحيح مسلم ٧ / ٨٢ .



المسلم : واحد في سبيل الله ، وآخر في تحرير عبد ، وثالث وضعه في يد مسكين ورابع أنفقه على أهله . أعظم هذه الدَّنانير أجراً دينار الأهل .

إنَّ النَّص اتخَّذ الموازنة بين النَّفقات سبيلاً لتقرير عظم أجر النَّفقة على الأهل .

ـ عن رافع بن خديج قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« العامل على الصَّدقة بالحق كالغازي في سبيل الله حتَّى يرجع إلى بيته » .(١)

لا بدَّ للزَّكاة من ( عاملين عليها ) ، ويقول ﷺ : العامل عليها بحق كالمجاهد في سبيل الله وذلك إذا لم يظلم النَّاس الذين يأخذ منهم الزَّكاة ولم يحابهم . . . بل كان يعاملهم بالعدل التَّام . ولم يقبل رشوة ولم يختلس شيئاً من حق الفقير .

والعامل على الأمور الماليَّة يتعرَّض لإغراءات شديدة ، والشَّيطان والنَّفس وقرناء السُّوء يزيِّنون له في كثير من الأحيان الجريمة ويهوِّنون له الانزلاق ، فإذا عمل بالحق ولم يستجب لشيء من تلك الإغراءات كان كالغازي في سبيل الله حتَّى يرجع إلى بيته ، ومعلوم كم هو أجر المجاهد في سبيل الله ، ومن التَّناسق العجيب المشابهة بين طرفي الصُّورة فمجاهدة النَّفس في قبولها المال الكثير الحرام لاسيَّاً إنْ كان هذا العامل محتاجاً يشبه مجاهدة الكفَّار ، والمال قرين النَّفس .

ـ عن أبي هريرة أنَّه سمع النَّبي ﷺ يقول :

« إنَّ ثلاثة من بيني إسرائيل : أبرص وأقرع وأعمى ، أراد الله أنْ يبتليهم ، فبعث إليهم ملكاً .

ـ فأتى الأبرص فقال : أيُّ شيء أحبُّ إليك ؟

قال : لون حسن ، وجلد حسن ، ويذهب عنِّي هذا الذي قد قذرني النَّاس ، فمسحه فذهب عنه قَذَرهُ ، وأعطي لوناً حسناً .

---

(١) التِّرمذي ٢ / ١٨ وأبو داود ٣ / ١٨٣ .





فقال : وأيُّ المال أحبُّ إليك ؟

قال : الإبل .

فأُعطي ناقة عشراء فقال : بارك الله لك فيها .

ـ فأتى الأقرع : فقال : أيُّ شيء أحبُّ إليك ؟

قال : شعر حسن ، ويذهب عنِّي هذا الذي قذرني النَّاس ، فمسحه .

فذهب عنه ، وأُعطي شعراً حسناً .

قال : فأي المال أحبُّ إليك ؟

قال : البقر .

فأعطي بقرة حاملاً وقال : بارك الله لك فيها .

ـ فأتى الأعمى ، فقال : أيُّ شيء أحبُّ إليك ؟

قال : إنْ يردَّ الله بصري فأُبصر النَّاس . فمسحه ، فردَّ الله إليه بصره .

قال : فأيُّ المال أحبُّ إليك ؟

قال : الغنم .

فأعطي شاة والداً .

فأنتج هذان وولد هذا ، فكان لهذا وادٍ من الإبل ،ولهذا واد من البقر،ولهذا واد من الغنم .

ـ ثُمَّ إنَّه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال :

رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفـري ، فلا بلاغ لي اليوم إلاَّ بالله ثُمَّ بك . أسألك بالذي أعطاك اللَّون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلَّغ به في سفري .

فقال : الحقوق كثيرة .

فقال : كأنِّي أعرفك ؟ ألم تكن أبرص يقذرك النَّاس ؟ فقيراً فأعطاك الله ؟

فقال : إنَّما ورثت هذا المال كابراً عن كابر .

فقال : إنْ كنت كاذباً فصيرَّك الله إلى ما كنت .

ـ وأتى الأقرع في صورته وهيئته ، فقال له مثل ما قال لهذا وردَّ عليه مثل ما ردَّ هذا .

فقال : إنْ كنت كاذباً فصيرَّك الله إلى ما كنت .

ـ وأتى الأعمى في صورته وهيئته فقال :

رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الحبال في سفري . فلا بلاغ لي اليوم إلاَّ بالله ثُمَّ بك . أسألك بالذي ردَّ عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري .

فقال : قد كنت أعمى فردَّ الله إليَّ بصري . فخذ ما شئت ودع ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عزَّ وجلَّ .

فقال : أمسك مالك . فإنَّما ابتليتم ، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك » .(١)

هذه قصَّة ثلاثة من بني إسرائيل كانوا زمنى معدمين فأراد الله أنْ يبتليهم فعافاهم وآتاهم ما يتمنَّون من صنوف المال . . ثُمَّ أرسل إليهم يختبرهم : هل يشكرون النِّعمة ؟ هل يؤدُّون حقَّ الله ؟ هل يعترفون لله بالفضل ؟ هل يدفعون طغيان المال عن أنفسهم ؟

وهؤلاء الثَّلاثة هم أَبرص وأَقرع وأَعمى . . . أُرسل إليهم ملكاً يسأَل كلاًّ منهم : أيُّ شيء أَحبُّ إِليك ؟ ، أَما الأَبرص فطلب الإِبل ، وأَمَّا الأَقرع فطلب البقر ، وأَمَّا الأَعمى فطلب الغنم . . بعد أَنْ طلبوا العافية من أَمراضهم ، وأُوتوا سؤُلهم كلَّه وبورك لكلٍّ منهم فيما أُوتوا حتَّى كان لكلٍّ منهم واد ممَّا طلب . ثُمَّ أَرسل

---

(١) متفق عليه : صحيح مسلم ١٨ / ٩٧ ـ ١٠٠ وانظر رياض الصَّالحين ٩٥ ـ ٩٧ .

إليهم الملك يختبرهم . . ويأتي الملك الأبرص على هيئته أبرص ويستغيث بالثَّريِّ المعافى الَّذي كان فقيراً أبرص ، ويسأله باللّه الَّذي أعطاه اللَّون الحسن والمال الكثير . . . يسأله بعيراً واحد يَستعين به في سفره ، فردَّ عليه ردًّا سيِّئاً ، وقال : الحقوق كثيرة ، فكيف أستطيع أنْ أقوم بها كلّها ؟ فأراد الملك أنْ يذكر هذا العبد الَّذي أطغاه المال ، وجعل قلبه قاسيًا أنْ يذكِّره بحالته الَّتي كان عليها فقال له : كأنِّي أعرفك ألم تكن يا هذا أبرص مثلي يقذرك النَّاس فعافاك اللَّه ؟ أو لم تكن فقيراً تنقطع بك الأسباب مثلي فأعطاك اللَّه ؟ فأخذته العزَّة بالأثم ، وأنكر أنَّه يعرفه كما أنكر طروء هذه النِّعمة عليه بل قال كاذبًا : أنا رجل ثري من قوم أثرياء ، ورثت هذا المال كابرًا عن كابر .

وههنا تنحلُّ العقدة الأولى : فيدعو الملك عليه قائلا :

إنْ كنتَ كاذبًا فصيرَّك اللَّه إلى ما كنت .

ويعود هذا الرَّجل أبرص فقيراً .

وكذلك شأن الأقرع .

أمَّا الأعمى فكان ردُّه اعترافًا بنعمة اللَّه ، وأداء للصَّدقة بجود وسخاء فقال : كنت أعمى فردَّ اللَّه إليَّ بصري ، فخذ ما شئت ودع ما شئت فواللَّه لا أُجهدك اليوم بشيء أخذته للَّه عزَّ وجلَّ .

وتنتهي القصَّة بتقرير الحكمة على لسان الملك قال :

أمسك مالك . فإنَّما ابتليتم فقد رضي اللَّه عنك وسخط على صاحبيك . ويتأكد المعنى الَّذي تدور حوله القصَّة أعظم تأكيد عندما يعرض من خلال أحداثها المشوِّقة الَّتي تشدُّ السَّامع إليها وتقرِّر ما يأتي :

شكر النِّعمة يكون بأداء الصَّدقة .

الأنفاق يصون على الأنسان النِّعمة وهو سبب ليبارك له فيها .

وأداء الصَّدقة يدلُّ على نجاح المرء في الابتلاء . وقد ذكر ربُّنا تعالى ﴿ ونبلوكم بالخير والشرِّ فتنة ﴾[1] وقيل : إنَّ الإبتلاء بالخير ربمَّا كان أشدَّ من الابتلاء بالشرِّ.

ـ من عائشة أُمِّ المؤمنين قالت : قال رسول الله ﷺ :

« أسرعكم لحاقاً بي أطولكن يدًا »

قالت : فكنَّ يتطاولن ، أيَّتُهنَّ أطول يدًا ؟

قالت : فكانت أَطولنا يدًا زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتصَّدَّق [2] .

هذا الحديث من الأَحاديث الَّتي آهتم بها المتقدمون من حيث بلاغته وقد نقلت طرفاً من كلامهم فيه في المقدمة [3]

وقال النَّووي : ( قال أهل اللُّغة : يقال فلان طويل اليد طويل الباع إذا كان سمحًا جوادًا ، وضدُّه قصير الباع واليد ) [4]

وقالوا : فاليد ـ هنا ـ استعارة للصَّدقة ، والطُّول ترشيح لها لأنَّه ملائم للمستعار منه ولقد دلَّ الحديث على أنَّ الصَّدقة مزِيَّة بشر بها النَّبي ﷺ صاحبتها بها وهذه المزيَّة هي أَنْ تكون أَسرع زوجاته لحاقًا به .

ـ عن أبي هريرة عن النَّبي ﷺ قال :

« بينا رجل بفلاة من الأَرض ، فسمع صوتًا في سحابة :

ـ آسقِ حديقة فلان.

فتنحَّى ذلك السَّحاب ، فأَفرغ ماءه في حرَّة ، فإذا شرجة من تلك الشرِّاج قد

---

(١) الأنبياء : ٣٥
(٢) متَّفق عليه ( صحيح مسلم ١٦/ ٨ وصحيح البخاري ٢/ ١٣٧ ط الشَّعب كتاب الزكاة باب أيُّ الصَّدقة أفضل ) .
(٣) أنظر كلام الجرجاني في هذا الحديث في أسرار البلاغة ٣٠٨ وكلام ابن الأثير في المثل السائر ١/ ٨١
(٤) شرح صحيح مسلم ١٦/ ٨

آستوعبت ذلك الماء كلّه ، فتتبع الماء ، فإذا رجل قائم في حديقته يحوّل الماء بمسحاته ـ فقال له : يا عبد اللّه ما اسمك ؟

قال : فلان . للاسم الّذي سمع في السّحابة .

فقال له : يا عبد اللّه لم تسألني عن آسمي ؟

فقال : إنّي سمعت صوتًا في السّحاب الّذي هذا ماؤه يقول : آسقِ حديقة فلان ( لاسمك ) فما تصنع فيها ؟

قال : أَما إذا قلت هذا فإنّي أنظر إلى ما يخرج منها فأَتصدّق بثلثه ، وآكل أنا وعيالي ثلثاً ، وأَردُّ فيها ثلثه [1] .

قصّة تدلُّ على أَنّ المتصدّق ربمّا نال جزاء صدقته في الدُّنيا قبل الآخرة ، بل هذا هو الغالب المشاهد، يخلف الله ما أُنفق المنفق ويبارك له في ماله .

فهذا الّذي يتصدّق بثلث ما يخرج من حديقته كان جزاؤه أَنْ خصّه اللّه عزّ وجلّ بكرامة ظاهرة هي أَنْ يأمر السّحاب بسقي حديقته وقد آستكملت هذه القصّة القصيرة كلّ عناصر الجودة والإتقان ولا سيماً هذا الحوار الجميل .

والغرض من إيراد هذه الصُّور من خلال القصّة غرض ديني وهو الدّعوة إلى الصّدقة بالكثير ، فما نقص مال من صدقة ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾ [2]

ـ عن أَسماء قالت : قال لي رسول اللّه ﷺ :

« لا توكي [3] فيوكي اللّه عليك »

وفي رواية : « أنفقي ـ أو أنفحي أو أنضجي [4] ـ ولا تحصي فيحصي اللّه عليك ، ولا توعي فيوعي اللّه عليك » [5]

---

١ ـ صحيح مسلم ١٨/ ١١٤ ـ ١١٥

٢ ـ سبأ : ٣٩

٣ ـ أوكي : سد فم الوعاء بالوكاء حتّى لا يخرج منه شيء

٤ ـ أنفحي وأنضجي : أي أنفقي

٥ ـ متّفق عليه ( أنظر رياض الصّالحين ٣٨١ )

هذا الحديث يبينٍّ العقوبة الَّتي تنتظر البخلاء، وجزاء المتصدِّقين في الدُّنيا فمعنى قوله ﷺ لا توكي فيوكي اللَّه عليك أي لا تدَّخري وتشدِّي ما عندك وتمنعي ما في يدك فيقطع اللَّه عليك مادَّة الرِّزق .

والمفهوم من هذا أنَّ الإنفاق سبب من أسباب الرِّزق والتَّعويض، وقد دلَّت على ذلك آيات من كتاب اللَّه وأحاديث من كلام رسول الله ، وذلك من نحو قوله تعالى ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾، وقوله ﷺ في الحديث القدسي : «أَنفقْ أُنفق عليك» ، وقوله ﷺ «ما نقص مال من صدقة».

والصُّورة الرَّائعة هنا هي تصوير الادِّخار ، وعدم الإنفاق ، واكتناز الأَموال بربط الوكاء على المال الموجود في الوعاء أَو الكيس . وأَنَّ ذلك يكون سببًا لأَن يوكي اللَّه على هذا البخيل .

- عن عائشة أَنهَّم ذبحوا شاة فقال النَّبي ﷺ :

- «ما بقي منها؟»

قالت : ما بقي منها إلاَّ كتفها

قال ﷺ : «بقي كلّها غير كتفها»[1]

ثواب الصَّدقة يبقى لصاحبه في الآخرة ، وقد عبَّر عن هذا المعنى رسول اللَّه ﷺ بأَنَّ الشَّاة بقيت كلُّها إلاَّ الكتف.

والرَّائع في الحديث هو تقرير الرَّسول ﷺ لأَمر يخالف ما يبدو للمرء في ظاهر الحال ، ويعكس كلام السَّيدة عائشة ويفاجئها بما لم تكن تتوقَّع . . . إنَّ في ذلك لفتًا للنَّظر وشدًّا للانتباه .

- عن الحارث الأَشعري أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قال:

« إنَّ اللَّه أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أَنْ يعمل بها ويأمر بني إسرائيل

---

١ - رواه التِّرمذي وقال : حديث حسن صحيح ، انظر رياض الصَّالحين ٣٨١

أَنْ يعملوا بها ، وإِنَّه كاد أن يبطىء ، قال عيسى بن مريم : إِنَّ اللَّه أَمرك بخمس كلمات لتعمل بها ، وتأمر بني إِسرائيل أَنْ يعملوا بها ، فإِمَّا أَنْ تأمرهم وإِمَّا أَنْ آمرهم . فقال يحيى : أَخشى إِنْ سبقتني بها أَنْ يخسف بي أَوْ أُعَذَّب . فجمع النَّاس في بيت المقدس ، فامتلأ المسجد وقعدوا على الشرُّف فقال : . . . وآمركم بالصَّدقة فإِنَّ مثل ذلك كمثل رجل أَسره العدو فأَوثقوا يده إِلى عنقه وقدموا ليضربوا عنقه فقال : أَنا أُفديه منكم بالقليل والكثير ، ففدى نفسه منهم »[1]

هذا المثل الَّذي ضربه يحيى عليه السَّلام ونقله رسول اللَّه ﷺ يبينٌ ثواب الصَّدقة في الآخرة . . إِنهَّا تنجي صاحبها من العذاب الأَليم المحقَّق .

ـ عن أَبي هريرة أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قال :

« ليس المسكين بهذا الطَّواف الَّذي يطوف على النَّاس فتردُّه اللُّقمة واللُّقمتان والتَّمرة والتَّمرتان »

قالوا : فما المسكين يا رسول الله ﷺ

قال : « الَّذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فَيُتَصَدَّقُ عليه ، ولا يسأل النَّاس شيئاً »[2] .

تعريف للمسكين دقيق ، ويبدو أَنَّ هذا التَّعريف جاء على وجه لم يكن الصَّحابة رضوان اللَّه عليهم يتوقعونه ، لقد نفى النَّبي ﷺ أَنْ يكون المسكين هو ذاك السَّائل الطَّواف الَّذي يسأل النَّاس فتردُّه اللُّقمة واللُّقمتان والتَّمرة والتَّمرتان . عندئذ قالوا : فما المسكين إِذًا ؟ فعرَّفه بأَنَّه الَّذي لا يجد ما يغنيه ولا يفطن له فيتصدَّق عليه ولا يسأل النَّاس شيئًا . على نحو ما نجد في كتاب اللَّه تعالى ﴿ للفقراء الَّذين أُحصروا في سبيل اللَّه لا يستطيعون ضرباً في الأَرض ، يحسبهم الجاهل أَغنياء من التَّعفُّف تعرفهم بسيماهم لا يسألون النَّاس إِلحافاً ﴾[3]

---

١ ـ التِّرمذي ٤/ ٣٧ وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب والحديث طويل

٢ ـ صحيح مسلم ٧/ ١٢٩

٣ ـ سورة البقرة : ٢٧٣



وفي الحديث صورة جاءت بطريق التّشخيص وذلك في قوله «تردُّه اللُّقمة» فهي صورة تقوم على تشخيص اللُّقمة وكأنّها إنسان يردُّ ويدفع .

وفيه صورة جاءت بطريق الوصف وذلك في وصف المسكين وتعريفه فلقد بدت صورة في غاية الدّقة والجمال .

ـ عن قيس بن أبي غرزة قال : خرج علينا رسول اللّه ﷺ فقال :

« يا معشر التجّار إنّ الشّيطان والإثم يحضران البيع فشوبوا بيعكم بالصّدقة »[1]

وفي رواية : « يا معشر التجّار إنّ البيع يحضره اللّغو والحلف فشوبوه بالصّدقة [2]

هذا الحديث ينظر إلى المبدأ القرآني ﴿ إنّ الحسنات يذهبن السّيئات ﴾[3] والحديث الآخر «وأتبع السّيئة الحسنة تمحها».

يحضر البيع عادة اللّغو والحلف والشّيطان ممّا يجرُّ على صاحبه إثماً فأمر رسول اللّه ﷺ أنْ يمزج البيع بالصّدقة ، وفي التّعبير عن إتباع البيع بالصّدقة بقوله « فشوبوه بالصّدقة » صورة تجعل البيع شيئًا يشاب كاللّبن وما إلى ذلك .

والحديث دليل على أنّ الصّدقة تمحو الإثم الّذي يحصل بسبب الحلف واللّغو وما يزيّنه الشّيطان .

ـ عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النّبي ﷺ فقال :

ـ يا رسول اللّه : أيُّ الصّدقة أعظم أجْراً ؟

قال ﷺ : « أنْ تصدّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا

---

١ ـ الترمذي : ٢/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧

٢ ـ أبو داود : ٣/ ٣٣٠

٣ ـ هود : ١١٤





تمهل حتَّى إذا بلغت الحلقوم [1] قلت لفلان كذا ولفلان كذا . وقد كان لفلان » [2]

يقرِّر الحديث أنَّ الصَّدقة الأعظم أجراً هي الَّتي تكون في حال الصِّحة لا في حال القرب من الموت.

وفيه موازنة بين حالين يتصدَّق فيهما نموذجان من النَّاس :

واحد يتصدَّق في حال الصِّحة .

وآخر يتصدَّق في حال النَّزع .

وفيه تصوير بالوصف : فالمرء في حال الصِّحة يكون شحيحاً يخشى الفقر ويأمل الغنى . أمَّا إذا وصلت الرُّوح إلى الحلقوم فإنَّه لا يبالي أين ذهب ماله فالجود الحقيقي والإنفاق الخالص هو الَّذي يكون في الحالة الأُولى وقوله « بلغت الحلقوم» كناية عن النَّزع وقرب انتهاء حياة الإنسان وهي صورة قرآنيَّة : قال تعالى :﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ﴾[3]

ـ عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ

« مثل الذي يعتق أَوْ يتصدَّق عند موته مثل الَّذي يهدي بعدما شبع »[4]

وهذا الحديث يؤكِّد ما ذكرته في التَّعليق على الحديث السَّابق من أنَّ الصَّدقة تكون أعظم أجراً عندما يجود بها المرء في حال الصِّحة.

ويصوِّر الرَّسول الكريم الصَّدقة عند الموت بالَّذي يهدي بعدما شبع هل يستوي هو ومن يهدي ابتداء ؟

ـ عن حكيم بن حزام قال : قال رسول الله ﷺ .

---

١ ـ الحلقوم : مجرى النَّفس . والمريء مجرى الطَّعام

٢ ـ متَّفق عليه : صحيح مسلم ٧/ ١٢٣ وانظر رياض الصَّالحين ١١٤

٣ ـ سورة الواقعة ٨٣ ـ ٨٥

٤ ـ المسند ٥/ ١٩٧ وانظر أقيسة النَّبي ١٩٣



« اليد العليا خير من اليد السُّفلى ، وابدأ بمن تعول ، وخير الصَّدقة ما كان عن ظهر غنى ، ومن يستعفف يُعِفَّهُ الله ومن يستغن يغنه الله »[١]

ـ وعن أبي هريرة قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول :

« لأَنْ يغدو أَحدكم فيحطب على ظهره ، فيتصدَّق به ويستغني به عن النَّاس خير له من أنْ يسأَل رجلاً أَعطاه أَو منعه ذلك ، فإِنَّ اليد العليا أَفضَل من اليد السُّفلى وابدأ بمن تعول » [٢]

ـ وعن عبد اللَّه بن عمر أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قال وهو على المْنبر وهو يذكر الصَّدقة والتَّعفف عن المسأَلة :

« اليد العليا خير من اليد السُّفلى ، واليد العليا المنْفقة والسُّفلى السَّائلة » [٣]

يكره الإِسلام السُّؤال ويأباه وينفر منه ، ويفضل اليد الَّتي تنفق على اليد الَّتي تسأَل ، ومن يستعفف يعفَّه اللَّه ، ومن يستغن يغنه اللَّه .

إِنَّ الأمر يبدأ بإِرادة الخير وٱبتغاء العفاف ، ومن يطلب الغنى من اللَّه يغنه اللَّه .

ويقرِّر رسول اللَّه ﷺ أَنَّ العمل شرف مهما تكن نظرة النَّاس إلى هذا العمل ، وأَنَّ القيام بأَيٍّ عمل شاق غير محترم في أَعين النَّاس أَفضل من سؤال النَّاس أُعطوه أو منعوه ، وذكر الاحتطاب فقال : لأَن يغدو أَحدكم فيحطب على ظهره فيتصدَّق به ويستغني به عن النَّاس خير له من سؤال النَّاس .

ـ عن أَبي كبشة الأَنماري قال : قال رسول الله ﷺ :

« ثلاثة أُقسم عليهن ، وأُحدِّثكم حديثاً فاحفظوه :

---

١ ـ متَّفق عليه ، وانظر رياض الصَّالحين ٣٦٩
٢ ـ صحيح مسلم ٧/ ١٣١ وانظر التِّرمذي ٢/ ٣٠ ورياض الصَّالحين ٢٣٩
٣ ـ صحيح مسلم ٧/ ١٢٤ وأبو داود ٢/ ١٦٥





ما نقص مال عبد من صدقة

ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلاَّ زاده اللَّه عزًّا

ولا فتح عبد باب مسألة إلاَّ فتح اللَّه عليه باب فقر»[1]

الصَّدقة لا تنقص المال ، ولا يفتح عبد باب السُّؤال إلاَّ فتح اللَّه عليه باب الفقر ، ويقسم رسول اللَّه ﷺ على ذلك .

إذن نحن هنا أمام مسألة لها باب وكذلك فللفقر باب .

ـ عن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلَّم :

«من سأل النَّاس أموالهم تكثُّراً فإنَّما يسأل جمراً فليستقلَّ أو ليستكثر»[2]

ـ وعن سهل بن الحنظليَّة قال :

قدم على الرَّسول ﷺ عيينة بن حصن والأقرع بن حابس فسألاه فأمر لهما بما سألا ، وأمر معاوية فكتب لهما بما سألا .

فأمَّا الأقرع فأخذ كتابه فلفَّه في عمامته وانطلق .

وأمَّا عيينة فأخذ كتابه وأتى النَّبي ﷺ مكانه فقال : يا محمَّد ! أتراني حاملاً إلى قومي كتاباً لا أدري ما فيه كصحيفة المتلمِّس .

فأخبر معاوية بقوله رسول الله ﷺ فقال الرَّسول ﷺ :

« من سأل وعنده ما يغنيه فإنَّما يستكثر من النَّار »

وقال النفيلي في موضع آخر : « . . . من جمر جهنَّم »

وقالوا : يا رسول اللَّه ، وما يغنيه ؟

---

١ ـ رواه التِّرمذي وقال : حديث حسن صحيح وانظر رياض الصَّالحين ٣٨ باب الكرم والجود
٢ ـ صحيح مسلم ٧/ ١٣٠

وقال النفيلي في موضع آخر : « . . . وما الغنى الَّذي لا تنبغي معه المسأَلة ؟

قال : «قدر ما يغدِّيه ويعشِّيه»

وقال النَّفيلي في موضع آخر : « أَنْ يكون له شبع يوم وليلة »[1]

ـ عن عبد اللَّه قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« من سأل وله ما يغنيه جاءت يوم القيامة خموش ـ أَو خدوش أَو كدوح ـ في وجهه »

فقيل : يا رسول الله وما الغنى؟

قال : «خمسون درهماً أَو قيمتها من الذَّهب»[2]

ـ وعن سمرة بن جندب قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« إِنَّ المسألة كد يكدُّ بها الرَّجل وجهه [3] »

في الأَحاديث الأَربعة صورتان ، وهما تقرِّران عقوبة السَّائل يوم القيامة . . إِنَّ سؤال النَّاس للتكثر يجلب له العذاب الشَّديد والفضيحة المخزية، وذلك إِن لم تكن حاجة ملجئة للسؤال بأَنْ كان عنده ما يغنيه .

إِنَّه عندئذ يسأَل جمرًا من جهنَّم فليستكثر أَو ليستقل أَو كانت مسأَلته خدوشًا في وجهه .

وقد بينَّ الرَّسول ﷺ أَنَّ المراد بالَّذي يغنيه شبع يوم وليلة أَو خمسون درهماً .

إِنهَّا صورة مؤلمة مخزية :

المال يتحوّل إِلى جمر من جمر جهنَّم ، والمسألة خدوش تملأُ وجه السَّائل .

---

١ ـ أبو داود ٢/ ١٥٧

٢ ـ أبو داود ٢/ ١٥٦

٣ ـ الترمذي وقال : حديث حسن صحيح ٢/ ٣٠

ـ عن أبي ذر أَنَّ ناسًا من أَصحاب النَّبيﷺ قالوا للنبيّﷺ :

ـ يا رسول اللّـه ، ذهـب أَهـل الدُّثـور بالأُجـور ، يصلُّـون كما نصليٍّ ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدَّقون بفضول أموالهم .

قال : «أَوليس قد جعل اللَّه لكم ما تصدَّقون

إِنَّ بكلٍّ تسبيحة صدقه ، وكلٍّ تكبيرة صدقة ، وكلٍّ تحميدة صدقة وكلٍّ تهليلة صدقه ، وأمر بمعروف صدقه ، ونهي عن منكر صدقه وفي بضع أَحدكم صدقة . »

قالوا : يا رسول اللَّه : أَيأتي أَحدنا شهوته ويكون له فيها أَجر ؟

قال : «أَرَأَيتم لو وضعهـا في حرام أكان عليه وزر ؟ فكذلك إِذا وضعهـا في الحلال كان له أَجر»[١]

هناك أَنواع من الصَّدقات لأُولئك الَّذين لا يجـدون ما يتصَّدقـون به من المال والطَّعام والمتاع ، ذكرتها أَحاديث عدَّة ومنها هذا الحديث.

فمن أَنواع الصَّدقات : الذِّكر من تسـبيح وتكبـير وتحميد وتهليل ، والأَمـر بالمعـروف والنَّهـي عن المنـكر ، والعلاقـة الـزَّوجية ، وهـذه الأَنـواع ذكرهـا هذا الحديث .

ومنها ركعتا الضُّحى ، وإِماطة الأَذى عن الطَّريق ومساعدة الآخرين والعدل بين آثنين والكلمة الطَّيبة والخطـوة إِلى المسجـد وغـرس الشَّجـر وكفُّ الأَذى عن النَّاس . وسنرى هذه الأَنواع في أَحاديث آتية .

في هذا النَّص تشبيه نجده في نحو قوله « بكلّ تسبيحة صدقة » إِلى أَشباه ذلك من هذه الجمل .

وفيه أيضاً موازنة بين وضعـه شهوتـه في الحـلال ووضعهـا إِيَّاهـا في الحـرام وآستخدام القياس الموجب للأَجر .

---

١ ـ صحيح مسلم ٣/ ٨٢ ( كتاب الزَّكاة باب بيان أَنَّ اسم الصَّدقة يقع على كلٍّ أَنواع المعروف )

وفي الحديث مواساة وأيّة مواساة للفقراء ، وترغيب لهم بما هو خير ، وهذا توجيه كريم عملي يطابق الواقع ، ذلك أنَّ الأغنياء ـ غالباً ـ يكونون في شغل يلهيهم عن أنفسهم وذويهم ، شغل جسمي وذهني ، فلا يستطيعون أنْ يجدوا من الوقت للأذكار والأعمال الاجتماعية ما يجده الفقراء .

وفي هذا التَّوجيه السَّامي ملء للفراغ عند النَّاس الَّذين يجدون الفراغ . . . لأنَّ العيش في الفراغ والاستسلام له يذهب بصاحبه في متاهات مهلكة مفسدة .

والحديث يصوِّر ذاك المستوى الرَّفيع الَّذي بلغه الصَّحابة من حرصهم على الخير ورغبتهم في الثَّواب ، ويبيِّن فضل اللَّه الواسع الَّذي أتاح للنَّاس أنواعًا من الصَّدقات مبذولة ميسورة لا تحتاج غنى ولا تكلّف عنتًا ولا شدَّة، وقد تكرَّر هذا المعنى في أحاديث أُخرى سنذكر طرفاً منها فيما يأتي .

ـ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« كلُّ سلامى من النَّاس عليه صدقة كلَّ يوم تطلع فيه الشَّمس : تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرَّجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطَّيبة صدقة ، وبكلِّ خطوة تمشيها إلى الصَّلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطَّريق صدقة »[١]

ـ عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ :

« إنَّه خلق كلُّ إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل ، فمن كبَّر اللَّه وحمد اللَّه وهلَّل اللَّه وسبَّح اللَّه واستغفر اللَّه وعزل حجراً عن طريق النَّاس أو شوكة أو عظما عن طريق النَّاس أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر عدد السَّتين والثَّلاثمائة فإنَّه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النَّار »[٢]

---

١ ـ متَّفق عليه ( أنظر رياض الصَّالحين ١٣٢ )
٢ ـ رواه مسلم ، وانظر رياض الصَّالحين ١٣٢

ـ وقريب من هذين الحديثين حديث ثالث رواه أبو ذر عن رسول اللّه [1]

هذه الأحاديث تذكّر الإنسان الّذي يرغب في أنْ يزحزح نفسه عن النّار تذكّره بفعل كثير من أعمال الخير والبرّ ، فكلُّ سلامى ( والسُّلامى المفصل الصّغير ) من جسم الإنسان عليه صدقة كلّ يوم تطلع فيه الشّمس وهذه السُّلاميات كثيرة وقد جاء في حديث عائشة ذكر عدد لها وهو ثلاثمائة وستُّون مفصلاً ، فلنتصوَّر أنّ على الإنسان أَنْ يقدِّم في كلّ يوم ( ٣٦٠ ) صدقة .

قد يحسب المرء أنّ ذلك صعب أو مستحيل ، ولكنّ تتمّة الحديث تدلُّ على أنّه سهل أَو ممكن التّطبيق ، فهناك أعمال ميسورة للنّاس جميعًا لا ترهقهم ولا تثقل كواهلهم ، ولكنّها تحتاج إلى عزم وحركة ، وإلى إنسان إيجابي فعّال .

أمّا المعتزل للنّاس المبتعد عنهم الّذي تغلب عليه السلبية فأنّى له أن يحقّق لنفسه مثل هذه الزّحزحة عن النّار ؟ لقد عبّر الحديث عن كثرة الصّدقات على المرء بأنّ على كلّ مفصل صغير أو كبير في جسدهِ صدقة .

ـ عن أَبي ذر قال :

ـ قلت : يا رسول اللّه أيُّ الأعمال أفضَل ؟

ـ قال : «الإيمان بالله والجهاد في سبيله»

قلت : أيُّ الرِّقاب أفضل ؟

ـ قال : «أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمناً . »

ـ قلت : فإِنْ لم أَفعَل ؟

ـ قال : «تعين صانعاً أو تصنع لأخرق . »

---

١ ـ انظره في صحيح مسلم ٥/ ٢٣٣ وأبي داود ٢/ ٣٦ و٤/ ٤٨٩



قال : قلت : يا رسول اللّه أرَأيت إنْ ضعفت عن بعض العمل ؟

قال : «تكفُّ شرّك عن النَّاس فإنهَّا صدقة منك على نفسك » [١]

شبَّه رسول اللَّه ﷺ موقف الرَّجل في كفّ شرّه من النَّاس بالصَّدقة وهذا توجيه كريم وهو في غاية الأَهمية والنَّفع ، فإنْ لم يستطع المرء أنْ يقوم في مجال الخير بأعمال إيجابية لسبب من الأسباب فلا أقل من أنْ يمتنع عن إيذاء النَّاس واقتراف أيّ نوع من الشرُّور .

وهذا نوع من الصَّدقات الميسورة .

ـ عن جابر قال : قال رسول اللّه ﷺ :

« ما من مسلم يغرس غرساً إلاَّ كان ما أُكل منه له صدقة وما أكل السَّبُع منه له صدقة وما أكلت الطَّير فهو له صدقة ولا يرزؤه أحد إلاَّ كان له صدقة»[٢]

نوع غريب من أنواع الصَّدقات ، وهو أنْ يغرس الإنسان غرسًا يمكن أنْ يستفاد منه فلا يأكل منه إنسان ولا وحش ولا طير إلاّ كان له صدقة . . . إنَّه ترغيب في عمارة الأَرض وزرعها .

ـ وعن عمرو بن شعيب عن أَبيه عن جدّه أنَّ امرأَة أُتت رسول اللّه ﷺ ومعها ابنة لها ، وفي يد آبنتها مسكتان غليظتان من ذهب :

فقال لها : «أتعطين زكاة هذا؟»

قالت : لا

قال : «أيسرُّك أنْ يسوِّرك الله بهما يوم القيامة سوارين من نار؟»

---

١ ـ صحيح مسلم ٢/ ٧٣

٢ ـ صحيح مسلم ١٠/ ٢١٣





قال : فخلعتهما وألقتهما إلى النَّبي ﷺ وقالت : هما للَّه عزَّ وجلَّ ولرسوله[1]

إنَّ جزاء من لا يؤدِّي زكاة المال أنْ يتحوَّل هذا المال يوم القيامة إلى طوق من نار يطوِّق صاحبه . صورة غيبيَّة رهيبة . . . لا يتخيَّلُها المسلم حتَّى يبتعد عن أسبابها كما فعلت المرأة الَّتي ألقت السِّوارين وتصدَّقت بهما .

ونختم هذا الفصل بهذا الحديث الرَّائع :

ـ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ .

« مثل البخيل والمتصدِّق كمثل رجلين عليهما جبَّتان من حديد قد اضطرَّت أيديهما إلى ثديهما وتراقيهما .

فجعل المتصدِّق كلَّما تصدَّق بصدقة انبسطت عنه حتَّى تغشي أنامله وتعفو أثره .

وجعل البخيل كلَّما همَّ بصدقة قلصت وأخذت كلُّ حلقة بمكانها »

قال أبو هريرة : فأنا رأيت رسول اللَّه ﷺ يقول بأصبعه هكذا في جيبه رأيته يوسعها ولا توسع .

وفي رواية :

وإذا همَّ البخيل بصدقة تقلَّصت عليه وانضمَّت يداه إلى تراقيه وانقبضت كلُّ حلقة إلى صاحبتها » قال فسمعت رسول اللَّه ﷺ يقول :

« فيجهد أن يوسعها فلا يستطيع »[2]

---

١ ـ أبو داود ٢/ ١٢٨

٢ ـ صحيح البخاري ٢/ ١٤٢ ط كتاب الشَّعب ( كتاب الزَّكاة باب مثل المتصدِّق ) وصحيح مسلم ٧/ ١٠٨ ـ ١١٠ وانظر كتابي « الحديث النبويّ » الطبعة الثَّالثة ص ٨٢ وما بعدها .

لكلٍّ إنسان في الإنفاق قدر لا بدَّ له منـه ، فأشـدُّ النَّـاس بخـلاً ينفـق على ضروراته ما يقيم أوده ، ثُمَّ يعد ذلك لا يجود بشيء مهما قل .

إذنْ كلٌّ واحد من النَّاس ينفق قدراً معينًا ، سواء أكان كريمًا أَمْ بخيلاً وهذا القدر هو الَّذي شبَّهه رسول اللَّه ﷺ بالجبَّة من الحديد الَّتي تغطي الجسـم من التَّرقوة إلى الثَّديين ، وهي من الضِّيق بحيث تحبس يديه وتضمُّهما إلى التَّراقي .

أمَّا البخيل فيبقى في إنفاقه في حدود الضرَّورة لا يجاوزها إلى غيرها فلا يطعم أحداً ولا يجود بشيء ، وقد يعظم هذا البخل حتَّى يكون على نفسه فيحرمها من كلٍّ شيء إلاَّ ممَّا لا بدَّ له منه ، وهو في هذه الحال محكوم بنفسـه الخسيسـة الشَّحيحـة الدَّنيئة . . . فقد يريد في لحظة ولكنَّه سرعان ما ينهزم أمام نفسه .

وإذا طال به الأَمر آعتاد مثل هذا اللَّون من التَّقتير والبخل والبقاء فيه .

ولنا أَنْ نتصوَّر الإنسان البخيل عاريًا إلاَّ من هذه الجبَّة الَّتي لا تستر من جسمه إلاَّ قدرًا يسيرًا . . ويبقى كلّه عاريًا . . . إنَّ مواطـن الضَّـعف فيه بادية للّعيان ، وعيوبه معروضة على كلِّ إنسان ، تلفت نظر الغادي والرَّائح .

أمَّا الكريم فإنَّه ينفق ويتعوَّد الإنفاق فلا يستطيع أَنْ يعيش بدون إنفاق وكلَّما أنفق سبغت عليه الجبَّة حتَّى تغطِّي جسمه ويديه وتعفو أثره .

وهو بذلك يشعر بحريَّة تغمره بسعادة لا حدَّ لها وسرور لا يوصف . . . إنَّه حر يحرِّك يديه كيفما شاء ، ويمشي في كلِّ طريق مستور العورة لا يرى أَحد منه إلاَّ تلك الجبَّة الَّتي سبغت عليه بسبب الإنفاق فأخفت كلَّ مواطن الضَّعف الَّتي يُستحيى من ظهورها ، وسترت كلَّ عيوبه .

وهذا ما نراه في الواقع فالرَّجل الكريم يحمل النَّاس على السُّكوت عن عيوبه أَو تأويلها تأويلاً يعود لمصلحته . . بل قد يذهب بعضهم إلى قلـب هذه العيوب إلى محاسن ومزايا .

وشيء آخر نفهمه من الحديث وهو أنَّ المتصدِّق يخلف الله عليه ، فكلما أنفق نفقة اتَّسعت حلقات الجبَّة ورزقه اللَّه من عنده ، أمَّا البخيل فإنَّ ما له لا يزيد وربمَّا أصابه التَّلف .

وفي الحديث ما يشير إلى أهميَّة آعتياد الكرم والإنفاق ، فالكريم يروِّض نفسه الَّتي أحضرت الشُّح يروِّضها على البذل والعطاء ، فكلَّما أنفق تطلَّعت نفسه من جديد إلى مزيد من الإنفاق .

## ٣ ـ الصَّوم :

الصَّوم ركن من أركان الإسلام الَّتي بني عليها ، وسنورد فيما يلي نموذجًا من الأَحاديث الَّتي زخرت بالصُّور الفنِّية :

ـ عن ابن عمر قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« إنَّا أُمَّة أُمِّيَّة ، لا نكتب ولا نحسب ، الشَّهر هكذا وهكذا وهكذا » وخنس سليمان ـ أحد الرواة ـ إصبعه في الثَّالثة ، يعني تسعًا وعشرين وثلاثين [١]

إنَّ من رحمة الله بالنَّاس أنْ جعل أُمور الدِّين ممَّا يطيقه النَّاس مثقَّفين وعامَّة ، ولم يكلِّف النَّاس شيئًا فوق طاقتهم ، ومن هذه الأُمور معرفة دخول شهر رمضان شهر الصَّوم . فقد أَمر النَّبي ﷺ المسلمين أَنْ يصوموا لرؤية الهلال ويفطروا لرؤيته ويقول :

إنَّا أُمَّة أُمِّيَّة لا نكتب ولا نحسب ،الشَّهر يكون مرَّة ثلاثين ومرَّة تسعًا وعشرين وقد استخدم الإشارة للدَّلالة على ما يريد . وهذا أُسلوب من أَساليب التَّصوير .

ـ وعن أَبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

---

١ ـ صحيح البخاري ٣/ ٣٤ ـ ٣٥ ط كتاب الشَّعب ، أبو داود ٢/ ٣٩٨

« الصِّيام جُنَّة » [1]

ـ وعن أَبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« الصِّيام جنَّة ، إِذا كان أَحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل . فإِن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إِنِّي صائم . إِنِّي صائم » [2]

وفي رواية : « والصَّوم جنَّة من النَّار » [3]

الصَّوم وقاية تحمي الصَّائم من الإِثم وتصونه من المخالفات الشرَّعية والمعاصي . . تلك المخالفات الَّتي تكون السَّبب في دخول النَّار .

ويوصي الرَّسول الكريم الصَّائم إِن استثاره أَحد فقاتله أَو شاتمه يوصيه بأَنْ يذكِّر نفسه وصاحبه بأَنَّه صائم «فليقل : إِنِّي صائم . إِنِّي صائم » .

والصُّورة الَّتي مرَّت في هذه الرِّوايات للّحديث هي أَنَّ الصِّيام جُنَّة تمنع صاحبها من المعصية وتقيه العذاب يوم القيامة ، فتأكيد معنى الصِّيام بالتِّكرار وقاية من الاستثارة والوقوع في المعصية .

ـ وممَّا يؤكِّد هذا المعنى الحديث الآتي :

عن أَبي هريرة أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قال :

« إِذا جاء رمضان فتحت أَبواب الجنَّة ، وغلِّقت أَبواب النَّار، وصفِّدت الشَّياطين » [4]

---

١ ـ متفق عليه ، صحيح البخاري ٧/ ٣١ ط كتاب الشَّعب ، صحيح مسلم ٨/ ٤٠ ، والجنَّة : السُّترة والمانع .

٢ ـ أبو داود ٢/ ٤١٢ وصحيح البخاري ٣/ ٣١ ط كتاب الشَّعب ، وصحيح مسلم ٨/ ٣٠٨

٣ ـ التّرمذي : ٢/ ٦٠

٤ ـ صحيح مسلم ٧/ ١٨٧ ، وصحيح البخاري ٣/ ٧٣ ط كتاب الشَّعب





قال القاضي عياض في شرح الحديث :

( يحتمل أنَّه على ظاهره وحقيقته وأَنَّ تفتيح أَبواب الجنَّة وتغليق أَبواب جهنَّم وتصفيد الشَّياطين علامة لدخول الشَّهر وتعظيم لحرمته ، ويكون التَّصفيد ليمتنعوا من إِيذاء المؤمنين والتَّهويش عليهم ) .

قال : ( ويحتمل أَنْ يكون المراد المجاز ، ويكون إِشارة إِلى كثرة الثَّواب والعفو ، وأنَّ الشَّياطين يقلُّ إِغواؤهم وإيذاؤهم فيصيرون كالمصفَّدين ويكون تصفيدهم عن أشياء دون أَشياء ولناس دون ناس . . . وأَنْ يكون فتخ أَبواب الجنَّة عبارة عماَّ يفتحه اللَّه تعالى لعباده من الطَّاعات في هذا الشَّهر الَّتي لا تقع في غيره عمومًا كالصِّيام والقيام وفعل الخيرات والانكفاف عن كثير من المخالفات ) [1]

ويبدو لي أنَّ الرَّأي الثَّاني أَقرب للصَّواب ، ومهما يكن من أَمر فإِنَّ الحديث فيه صورة جميلة ، سواء أكانت هذه الأُمور الثَّلاثة ( التَّفتيح والتَّغليق والتَّصفيد ) حقيقة أَم مجازاً .

ـ فإِنْ كانت حقيقة فعرضها علينا كما جاءت في الحديث يتيح لخيالنا أَنْ نتصوَّر هذه الأُمور الثَّلاثة على نحو ما ، إنَّ ترافق حلول الشَّهر مع هذه الأُمور وعرض ذلك في هذا النَّص صورة مثيرة . . صورة تفتَّح فيها أبواب الجنان ، وتغلَّق فيها أَبواب النِّيران ، وتصفَّد فيها الشَّياطين .

ـ وإِنْ كانت مجازًا فقد جاء شرح الصُّورة في الكلام الَّذي نقلناه عن القاضي عياض . . . إِذ كان التَّعبير عن كثرة الخير وقلَّة الشرِّ في هذا الشَّهر بهذه الصُّور الثلاث .

ـ عن أَبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

---

١ - شرح صحيح مسلم ٧/ ١٨٧




« من لم يدع قول الزُّور والعمل به فليس للَّه حاجة في أَنْ يدع طعامه وشرابه » [1]

الصِّيام يؤدِّي مهمة دينية كبرى تَتَّصل بالسُّلوك والمعاملة وقد عبَّر عنها القرآن بالتَّقوى في قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّها الَّذين آمنوا كتب عليكم الصِّيام كما كتب على الَّذين من قبلكم لعلَّكم تتقون﴾ [2]

ومن أهم الأَخلاق الكريمة ترك قول الزُّور والعمل به . فمن لم يستطع بصيامه أَنْ يحقِّق هذه المهمَّة فإِنَّه لا يكون قد صنع شيئًا أكثر من أَنَّه ترك طعامه وشرابه .

وربُّنا عزَّ وجلَّ ليس في حاجة في أَنْ يدع ذلك . وقد عبَّر الحديث عن الصَّوم الَّذي لا فائدة فيه بأَنَّه ترك للطَّعام والشَّراب وأَنَّ اللَّه تعالى ليس له حاجة فيه .

ـ عن عديّ بن حاتم قال :

لَمَّا نزلت هذه الآية ﴿حتَّى يتبينَّ لكم الخيط الأَبيض من الخيط الأَسود من الفجر﴾ قال عديّ :

يا رسول اللَّه : إِنِّي أَجعل تحت وسادتي عقالين : عقالاً أَبيض وعقالاً أَسود أَعرف اللَّيل من النَّهار ، فضحك رسول اللَّه ﷺ وقال :

« إِنَّ وسادك لعريض ، إِنَّما هو سواد اللَّيل وبياض النَّهار » [3]

الآية المذكورة بتمامها هي قوله تعالى ﴿ وكلوا واشربوا حتَّى يتبينَّ لكم الخيط الأَبيض من الخيط الأَسود من الفجر ثُمَّ أَتمُّوا الصِّيام إِلى الليل﴾ [4] وهي تحدِّد المدَّة

---

١ ـ صحيح البخاري ٣/ ٣٣ ط كتاب الشَّعب ، أبو داود ٢/ ٤١٢

٢ ـ البقرة : ١٨٣

٣ ـ صحيح مسلم ٧/ ٢٠٠ وأبو داود ٢/ ٤٠٨ وصحيح البخاري ٣/ ٣٦ ط كتاب الشَّعب .

٤ ـ سورة البقرة : ١٨٧





الَّتي يستطيع المسلم فيها أنْ يتناول المفطرات ، إنهَّا مدَّة تبدأ بغروب الشَّمس وتنتهي بطلوع الفجر ﴿حتَّى يتبينَّ لكم الخيط الأَبيض من الخيط الأَسود من الفجر ﴾

ويحكي عديّ بن حاتم أنَّه ظَنَّ أنَّ الخيط المذكور على معناه الحقيقي فأَخَذ حبلاً أَبيض وآخر أَسود ، وجرى في فهم الآية على الحقيقة فضحك رسول اللَّه ﷺ لفهمه وقال: إنهَّا غفلة منك، وعبَّر عن ذلك بعرض الوسادة.

ـ عن عبد اللَّه بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ :

« لا يمنعنَّ أَحدكم أَذان بلال من سحوره ، فإنَّه يؤذِّن ـ أَو قال ينادي ـ ليرجع قائمكم وينتبه نائمكم » . .

وليس الفجر أَنْ يقول هكذا ـ قال مسدَّد : جمع يحي كفيه ـ حتَّى يقول هكذا ـ ومدَّ يحيى بأُصبعيه السَّبابتين [1]

هذا الحديث في بيان وقت الفجر الَّذي يمسك عند حلوله الصَّائم ، وقد استخدم رسول اللَّه ﷺ الإشارة في هذا البيان.

إنَّ هناك فجراً كاذبًا يسبق الفجر الصَّادق . وأَشار صلوات اللَّه وسلامه عليه إلى كلٍّ منهما إِشارة دالَّة موضِّحة :

فالأَوَّل ساطع مصعد ، والثَّاني معترض أَحمر ، كما دلَّ على ذلك حديث قيس ابن طلق قال: قال رسول الله ﷺ:

« كلوا واشربوا ، ولا يهدينَّكم السَّاطع المصعد ، فكلوا واشربوا حتّى يعترض لكم الأَحمر » [2]

وصف موجز دقيق لكلٍّ من الفجرين ليعرف المسلم وقت سحوره وإمساكه عن المفطرات .

١ ـ أبو داود ٢/ ٤٠٨

٢ ـ أبو داود ٢/ ٤٠٨



ـ عن ابن عمر قال :

كان رسول اللّه ﷺ إذا أفطر قال :

« ذهب الظَّمأ وابتلت العروق وثبت الأَجر إِن شاء اللَّه »[1]

الظَّمأ يذهب . . . في ذلك تشخيص وتصوير جميل . وفي قولـه : « ابتلت العروق» صورة تبدي العروق كأَنَّها شيء يبتل ، وترديد ذلك من الحمد والشكر لله عزَّ وجلَّ ،وفيه إِظهار الفرح بالنِّعمة وهو يزيد في الاستمتاع بفرحة الفطر وفيه تفاؤل بأَن يثبت الأَجر إِنْ شاء اللَّه وعندئذ يتحقَّق الغرضان وتكمل السَّعادة .

ـ عن أَبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« قال اللَّه عزَّ وجلَّ : كلُّ عمل ابن آدم له إِلاَّ الصِّيام فإِنَّه لي وأَنا أُجزي به . والَّذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصَّائم أَطْيبُ عند اللَّه من ريح المسك . للصَّائم فرحتان يفرحهما : إِذاً أَفطر فرح وإِذا لقي ربَّه فرح بصومه»[2]

شأن الصِّيام كبير عند اللَّه ، فرائحة فم الصَّائم الكريهة عادة والَّتي تنطلق منه بعد الزَّوال ـ أَطيب عند اللَّه من ريح المسك .

وهكذا بالموازنة بين الرَّائحتين ( رائحة فم الصَّائم ورائحة المسك ) ،

وتفضيل خلوف الصَّائم يظهر فضل الصَّائم عند الله بشكل جليّ واضح . وليس المعنى أَنْ يحافظ الإِنسان على هذه الرَّائحة كما فهم ذلك بعض أَهل العلم فكرهوا للصَّائم أَنْ يستاك بعد الزَّوال لكيلا تزول منه هذه الرَّائحة .

وهذه الصُّورة واحدة من صور عدَّة جاءت في الحديث لتبـيِّن أَهميَّة الصِّيام فمن ذلك مطلع الحديث الَّذي اخترنا منه قطعة :

---

١ ـ أبو داود ٢/ ٤١١

٢ ـ متَّفق عليه : صحيح البخاري ٣/ ٣١ ط كتاب الشَّعب وصحيح مسلم ٨/ ٣٠٨ ، ورياض الصَّالحين ٦٨٧ ، والتّرمذي ٢/ ٦٠





« قال اللّٰه عزَّ وجلَّ: كلُّ عمل ابن آدم له إلاَّ الصِّيام فإنَّه لي وأنا أجزي به » .

وفي رواية :« كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلاَّ الصَّوم فإنَّه لي وأنا أجزي به».

ـ عن عامر بن مسعود عن النَّبي ﷺ أنَّه قال:

« الغنيمة الباردة الصَّوم في الشِّتاء »[1]

الصَّوم في الشِّتاء غنيمة يحصل عليها المرء بدون أي جهد أو عناء لأنَّه قصير المدَّة في وقت بارد لا يشكو المرء فيه جوعاً ولا ظمأً ولا يحسُّ لقصره بحرمان ممِّا يريد .

إنَّه غنيمة باردة ، ونحن نعلم أنَّ الحصول على الغنيمة ربمَّا اقتضى الإنسان أن يضحِّي بحياته ، فإذا ما جاءته هذه الغنيمة دون جهاد ولا بذل ولا فداء ولا عناء كانت جديرة بأن تكون باردة .

إنهَّا صورة جميلة تقوم على التَّشبيه، والصُّوم الوارد في هذا الحديث هو صوم النافلة في الغالب.

ـ عن عبداللّٰه بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ :

« يا عبد اللّٰه بن عمرو إنَّك لتصوم الدَّهر وتقوم اللَّيل ؟ :

فقلت : نعم قال: «إنَّك إذا فعلت ذلك هجمت [2] له العين ونهكت [3] له النَّفس ، لا صام من صـام الدَّهر . صوم ثلاثة أيَّام صوم الدَّهر كلِّه » [4]

للصَّحابي الجليل عبد اللّٰه بن عمرو قصَّة مع النَّبي ﷺ في صومه وعبادته إذ

---

١ ـ التِّرمذي: ٢/ ٧٠

٢ ـ هجمت : غارت

٣ ـ نهكت بفتح النُّون وبفتح الهاء وكسرها : ضعفت وفي رواية : نفهت ·

٤ ـ صحيح البخاري ٣/ ٥٢ ط كتاب الشَّعب وصحيح مسلم ٨/ ٤٥

كان يأخذ نفسه بالشِّدة ، وكان النَّبى ﷺ يوصيه بالرِّفق وألاَّ يلتزم النَّهج الأشد ، ولكنَّه كان راغباً في العبادة رغبة زيَّنت له إيثار المبالغة في العبادة صلاة وصياماً وتلاوة، ولكنَّه في آخر حياته تمنَّى أنْ لو كان أخَذ بالميسور من العبادة. ورسول اللَّه ﷺ في هذا الحديث يبينّ أنَّ صوم الدَّهر ليس بالصِّيام المرغَّب فيه ، ويحذِّر عبد اللَّه منه . إنَّ هذا العمل يؤدِّي إلى الهزال والضَّعف ، وقد عبَّر عن الهزال بغور العين وبضعفها ثُمَّ قرَّر أنَّ صوم الأَبد ليس من سنته .

ـ عن أُخت عبد اللَّه بن بسر أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال :

« لا تصوموا يوم السَّبت إلاَّ فيما افترض عليكم . فإنَّ لم يجد أَحدكم إلاَّ لحاء عنبة أو عود شجرة فليمضغه »[1]

هذا الحديث نهي عن إفراد يوم السَّبت بالصِّيام ، ولعلَّ ذلك لأنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ أَراد للّمسلمين التَّميُّز ونهاهم عن التَّشبه بالكفَّار أَو أَنْ يوقعوا عبادتهم في وقت يعظِّمونه ، فقد جاء نهي عن مشابهة اليهود في صيامهم يوم عاشوراء وذلك بأَنْ يصوم المسلم يوماً قبله أو يوماً بعده حتَّى لا تتشابه عبادتنا بعبادتهم .

والسَّبت يوم مقدَّس عند اليهود فكان النَّهي عن أَنْ يتعمَّد المسلم الصَّوم في ذها اليوم مفردًا . فإنَّ لم يجد المرء ما يأكل إلاَّ لحاء شجرة أَو عودها فليمضغه حتَّى لا يكون صائماً ، وذلك كناية عن أنَّ المستحبَّ للّمسلم أَنْ يفطر بأيِّ شيء يخرجه من الصَّوم في هذا اليوم . هذا وقد قال أبو داود بعد أن أورد الحديث : وهذا الحديث منسوخ .

ـ عن ابن عبَّاس قال :

جاء رجل إلى النَّبيﷺ فقال :

ـ يا رسول اللَّه ! إنَّ أُمِّي ماتت وعليها صوم أفأَقضيه عنها ؟

---

١ ـ التِّرمذي : ٢/ ٥٥ وأبو داود ٢/ ٤٣١

فقال : «لو كان على أُمِّك دين أكنت قاضيه عنها؟»

قال : نعم

قال : «فدين اللَّه أَحقُّ أَنْ يقضى »[1]

يجوز للولد أَن يقضي عن أَحد والديه ما عليه من الصِّيام . وهنا صورة يراد بها تقريب المسأَلة على الذِّهن وفيها موازنة وأولويَّة . فإذا كان دين النَّاس يقضى فدين اللَّه أَحقُّ بالقضاء .

## ٤ ـ الحـــج :

الحج ركن من أَركان الإسلام ، وهو فرض على من استطاع إليه سبيلاً .

ـ عن أَبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« من أَتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أُمُّهُ »[2]

في هذا الحديث الَّذي يبينِّ فضل الحج وما أَعد اللَّه من الثَّواب لمن يؤدّي هذه العبادة ، صورتان جميلتان .

١ ـ أَمَّا أُولاهما فهي قوله ( من أَتى هذا البيت ) يعني من حج أَو اعتمر ولكنَّ التَّعبير بـ ( من أَتى البيت ) فيه صورة تعتمد على ذكر الأُمور بالشَّكل الحسِّي الملموس .

٢ ـ وأَمَّا ثانيتهما فهي قوله ( رجع كما ولدته أُمُّه ) يريد الخلاص من الذُّنوب .

ـ عن ابن عمر قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« من طاف بهذا البيت أُسبوعاً فأَحصاه كان كعتق رقبة »

---

١ ـ صحيح مسلم ٨/ ٢٤ وفي ط . استنابول ٣/ ١٥٥

٢ ـ صحيح مسلم ٩/ ١١٩

وسمعته يقول : « لا يضع قدمًا ولا يرفع أُخرى إِلاَّ حطَّ اللَّه عنه بها خطيئة وكتب له بها حسنة »[1]

من طاف سبع مرَّات بالبيت العتيق كان ثوابه ثواب من أَعتق رقبة . وعتق الرقاب من أَعظم القربات عند اللَّه .

وفي هذا التَّشبيه بيان فضل الطَّواف وعظيم ثوابه . وكذلك فإِنَّ الرَّسول الكريم ﷺ قرَّر أَنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ يمحو عن الطَّائف الأوزار العديدة ويجعل له الثَّواب الكبير ، وقد عبَّر عن ذلك بهذه الصُّورة المادية الملموسة : ( لا يرفع قدمًا ولا يحطُّ أُخرى إِلاَّ حطَّ اللَّه عنه بها خطيئة وكتب له بها حسنة ) .

ـ عن عائشة قالت :

ـ قلت : يا رسول اللَّه ، أَلا نغزو ونجاهد معكم ؟

ـ فقال : « لكن أَحسن الجهاد وأَجمله الحج ، حج مبرور »

ـ فقالت عائشة : فلا أدع الحج بعد إِذ سمعت هذا من رسول اللَّه صلىَّ اللَّه عليه وسلَّم[2]

الحج جهاد ولكن لا قتال فيه ، ذلك لأنَّ فيه من الأَعمال والتَّنقلات ما يقتضي بذل الجهد وتحمُّل المتاعب حتَّى إنَّ الرِّجال ليحتاجون فيه إلى قوَّة وصبر لا سيَّماً في الازدحام لأداء أَعمال معيَّنة في أوقات محدودة مطلوبة من النَّاس جميعاً .

ويصوِّر هذا الحديث حرص نساء النَّبي ﷺ على الثَّواب ورغبتهن في مشاركة الرِّجال في الجهاد ، فأَرشد النَّبي ﷺ إلى أَنَّ الَّذي يناسب المرأة هو الحج ، فهو أَحسن الجهاد وأَجمله وهو كذلك إذا كان مبروراً مقبولاً .

ـ عن سليمان بن الأَحوص عن أُمِّه قالت :

---

١ ـ التِّرمذي ٢/ ١٢٢

٢ ـ صحيح البخاري ٣/ ٢٤ ط كتاب الشَّعب ( كتاب الحج ـ باب حج النِّساء )

. . . وازدحم النَّاس فقال النَّبي ﷺ :

« يا أَيهًّا النَّاس لا يقتل بعضكم بعضاً ، وإذا رميتم الجمرة فارموا بمثل حصى الخذف »[1]

رمي الجمار من واجبات الحج . . . ولكنَّ الحصاة الَّتي يرمى بها ينبغي أَنْ تكون في حجم لا يؤدِّي إِلى الإِيذاء فعبَّر عن الإِيذاء بالقتل . وعبَّر عن صغر حجم الحصى بتشبيهها بحصى الخذف ،وهو أمر معروف عندهم ،وقد روى مسلم في صحيحه عن جابر قال: رأيت رسول الله ﷺ رمى الجمرة مثل حصى الخذف[2]

ـ عن ابن عبَّاس أَنَّ امرأَة من جهينة جاءت إِلى النَّبي ﷺ فقالت :

ـ إِنَّ أُمِّي نذرت أَن تحج ، فلم تحج حتَّى ماتت أفأَحجُّ عنها؟

ـ فقال : « نعم ، حجِّي عنها . أَرأَيت لو كان على أُمِّك دين أَكنت قاضيته ؟ اقضوا اللَّه ، فاللَّه أَحقُّ بالوفاء »[3].

ـ وعن عبد اللَّه بن الزُّبير قال : جاء رجل من خثعم إلى رسول اللَّه ﷺ قال :

ـ إِنَّ أَبي أَدرك الإِسلام وهو شيخ كبير لا يستطيع ركوب الرَّحل ، والحجُّ مكتوب علينا ، أَفأَحجُّ عنه ؟

ـ قال : «أَنت أَكبر ولده؟»

ـ قال : نعم

ـ قال : « أَرأَيت لو كان على أَبيك دين فقضيته عنه أَكان ذلك يجزي عنه؟»

---

١ ـ أبو داود ٢/ ٢٧١
٢ ـ صحيح مسلم ٤/ ٨٠ ط استانبول
٣ ـ صحيح البخاري ٣/ ٢٣ ط الشَّعب كتاب الحج باب الحج والنَّذر عن الميت والرَّجل يحجُّ عن المرأة ، ومسند أحمد ٤/ ١٤٠ ( ط شاكر )

قال : نعم .

ـ قال : «فاحجج عنه»[1]

الحج الواجب على الإنسان إمَّا لنذر وإمَّا لأداء الفريضة ، دين اللَّه في ذمَّة الميت ، فأولاده ينبغي لهم أداء هذا الدَّين فلو كان الدَّين لناس مخلوقين لقضوا هذا الدَّين . . . إذا كان ذلك كذلك فحقُّ اللَّه أولى بالوفاء .

إنَّها موازنة تنتهي بالسَّامع إلى أن أداء الحجِّ يجزي عن الميت ويبرىء ذمَّته وأنَّ ذلك هو الأَليق والأنسب بالنِّسبة للمرء المسلم .

**٥ ـ الجهاد :**

الجهاد معنى من المعاني الإسلامية المهمَّة ، والَّتي حثَّ عليها القرآن والسُّنة في نصوص كثيرة ، بيَّنت مكانته وثوابه في الآخرة ونتائجه في الدُّنيا وحدَّدت مفهومه ودوافعه ، وذكرت عواقب تركه وتضييعه ، وفصَّلت شؤونه المختلفة تفصيلاً تاماً .

وقد أُلِّفت في هذا الموضوع المؤلَّفات في القديم والحديث ، ولن أَذكر في هذا الفصل الأَحاديث الواردة فيه لأنَّ ذلك يخرج بنا عن موضوع البحث ، ولكنَّني سأقتصر على نماذج من الأَحاديث الَّتي فيها صور فنِّية جميلة .

والجهاد في الإسلام ليس آستعلاءً على النَّاس ولا استعباداً للأُمم ولا سيطرة على الأَموال والثَّروات ، ولا احتلالاً للأَراضي والمواقع الاستراتيجية وإنَّما هو جهاد في سبيل اللَّه . ومن أجل ذلك كانت كلمة ( الجهاد ) مقرونة بالمصطلح الإسلامي ( في سبيل اللَّه )

ـ عن أَبي موسى أَنَّ أَعرابيا جاء إلى رسول اللَّه ﷺ فقال : يا رسول اللَّه ! الرَّجل يقاتل للمغنم ، والرَّجل يقاتل ليذكر ، والرَّجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن في سبيل الله ؟

---

١ ـ مسند أَحمد ٤/ ٥ وانظر أقيسة النَّبي ١٦١





فقال رسول اللَّه ﷺ :

« من قاتل لتكون كلمة اللَّه أَعلى فهو في سبيل اللَّه »[1]

وفي رواية أَبي داود أَيضاً : ويقاتل ليحمد .

هذا الحوار الموجز العفويّ الَّذي جرى بين الأعرابي الصرَّيح ورسول اللَّه ﷺ والَّذي نقله أَبو موسى كشف بكلٍّ وضوح دوافع الجهاد في الإِسلام ، إِنَّه الجهاد المرتبط بمثل أَعلى . . . الجهاد الخالص لإِعلاء كلمة اللَّه في الأرض ، البريء من كلٍّ شوائب النَّفس والمنفعة ، وما إلى ذلك . . . وبكلمة واحدة إنَّه الجهاد في سبيل اللَّه . . .

لقد ذكر الأَعرابي الدَّوافع المعروفة من الحصول على المغنم ، والرَّغبة في أَنْ يذكر المقاتل ، أو يحمد ويرى مكانه .

ثمَّ سأَل : أيٌّ ذلك في سبيل اللَّه ؟

فأَجاب النَّبي ﷺ أنَّ من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل اللَّه .

وفي الحديث الحرص على التَّعبير عن المعاني المجرَّدة بصورة حسيَّة .

فمن ذلك قول السائل :(يقاتل ليرى مكانه)يريد درجته في الشجاعة عبّر عن ذلك برؤية المكان . . ومن ثمَّ الرَّغبة في الثَّناء .

ومن ذلك قول رسول اللَّه ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة اللَّه أَعلى » ( كلمة اللَّه هي المنتصرة ) .

أَمَّا ثوابه فالجنَّة :

- عن أَبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

---

١ - متَّفق عليه ( صحيح البخاري ٤/ ٢٤ - ٢٥ ط الشَّعب كتاب الجهاد باب من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا ، وصحيح مسلم ١٣/ ٤٩ وأبو داود ٣/ ٢١ )




« لا يلج النَّار رجل بكى من خشية اللّه حتَّى يعود اللَّبن في الضرَّع ولا يجتمع غبار في سبيل اللّه ودخان جهنَّم » [1]

رجلان لا يدخلان النَّار :

رجل بكى من خشية اللّه

ورجل جاهد في سبيل اللَّه

فلننظر كيف عبَّر الرَّسول الكريم عن هذا المعنى المجرَّد :

لقد عبَّر عن استحالة دخول الَّذي يبكي من خشية اللَّه النار بقوله :

لا يلج النَّار حتَّى يعود اللَّبن في الضرَّع

وعودة اللَّبن في الضرَّع أمر مستحيل ، ويدرك استحالته أيُّ إنسان مهما كانت ثقافته ومعرفته .

وعبَّر عن نجاة المجاهد من النَّار بهذه الصُّورة المادِّية :

( لا يجتمع غبار الجهاد ودخان جهنَّم)

فالجهاد في سبيل اللَّه يبدو هنا ( غباراً في سبيل اللَّه ) والغبار شيء مرئي ملموس ، أمَّا الجهاد فمعنى ، ونار جهنَّم تبدو هنا ( دخانًا ) مع أنَّ جهنَّم من الأمور الغيبيَّة .

ذاك الغبار وهذا الدُّخان لا يجتمعان أَبداً أَي لا يمكن للمجاهد أَنْ يدخل جهنَّم أبداً .

إنَّ هذه الخاصَّة وهي إيثار التَّعبير بالصُّور المادِّية الملموسة عن الأُمور الفكريَّة المجرَّدة تتَّضح في هذا الحديث على أَتمِّ وجه .

---

١ ـ رواه التِّرمذي وقال : حديث حسن صحيح ، انظر رياض الصَّالحين ٣٢٤ و٧٢٣





ـ عن أبي هريرة قال :

ـ قيل للنَّبي ﷺ : ما يعدل الجهاد في سبيل اللَّه ؟

ـ قال : «لا تستطيعونه .»

ـ قال : فأعادوا عليه مرَّتين أَو ثلاثا ، كلُّ ذلك يقول : «لا تستطيعونه .»

ـ وقال في الثَّالثة : .

« مثل المجاهد في سبيل اللَّه ـ واللَّه أَعلم بمن جاهد في سبيله ـ كمثل الصَّائم القائم الخاشع الرَّاكع السَّاجد القانت بآيات اللَّه ، الَّذي لا يفتر من صيام ولا صلاة ولا صدقة حتَّى يرجع المجاهد في سبيل اللَّه تعالى . وتوكَّل اللَّه تعالى للمجاهد في سبيله إِنْ توفَّاه أَنْ يدخله الجنَّة أَو يرجعه سالمًا مع أَجر أو غنيمة » [1]

الجهاد في سبيل اللَّه طاعة عظمى لا تعدلها طاعة أُخرى ، إنَّ الَّذى يعدله من الطَّاعات أُمر لا يستطيعه النَّاس ،هكذا قرَّر رسول الله ﷺ مرَّات ثلاثاً ثُمَّ جاء بالتَّفصيل الَّذي كان حجَّة مقنعة في أَنَّ الجهاد لا يعدله أمر مستطاع ، إنَّه يساوي عمل رجل صائم أبداً ، قائم لا ينام ، يقنُت بآيات الله أبداً . خاشع ساجد راكع لله تعالى . . لا يفتر من صيام ولا صلاة ولا صدقة حتَّى يرجع المجاهد . . . يالَلّهِ ! ! منْ مِنَ النَّاس يستطيع هذا؟

إذا تصوَّرنا مجاهداً ظَلَّ سنة في الجهاد ، فهل يستطيع إنسان يريد أَنْ يحصل على ما يعادل ثوابه هل يستطيع أَنْ يبقى سنة في عبادة مستمرَّة لا نوم فيها ولا راحة ولا انقطاع عن أَعمال الطَّاعة . .

إِنَّ هذا أَمر مستحيل .

ومن أجل ذلك كان ثوابه كبيراً ، لقد تكفَّل اللَّه للَّمجاهد بأَنْ يؤوب بإِحدى الحسنيين : إِمَّا الجنَّة وإِمَّا الأَجر والغنيمة والنَّصر.

---

١ ـ متفق عليه ( صحيح البخاري ٤/ ١٨ ط كتاب الشَّعب ـ كتاب الجهاد ـ باب فضل الجهاد . وصحيح مسلم ١٣/ ٢٤ ـ ٢٥ ) ، والتِّرمذي والنِّسائي وانظر صحيح الجامع الصَّغير ٥/ ٢٠١ ـ ٢٠٢



في هذا الحديث نجد التَّشبيه القائم على الموازنة ينتهي بسامعه إلى أنَّ الجهاد عمل عظيم يفوق ما يعرف النَّاس من أَعمال الطَّاعات . . . إنَّه يبينً فضل الجهاد وعظيم ثواب المجاهد .

وقد ربط ذلك كلَّه بأَنْ يكون العمل للَّه ، واللَّه أعلم بمن يجاهد في سبيله .

والحوار الَّذي سبق نص الحديث شدَّ الأَذهان وأثار الاهتمام ، وهيَّأ النَّفس إلى سماع الحقِّ والاقتناع به .

- عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« انتدب اللَّه لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلاَّ إيمان بي وتصديق برسلي أن أُرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أَو أُدخله الجنَّة . ولولا أَنْ أَشقَّ على أُمَّتي ما قعدت خلف سريَّة ولوددت أَنِّي أُقتل في سبيل اللَّه ، ثُمَّ أَحيا ثُمَّ أُقتل ، ثُمَّ أَحيا ثُمَّ أُقتل » (١)

هذا الحديث نبويٌّ تخلَّله حديث قدسي :

فالجملة الأولى (انتدب الله لمنْ خَرَج في سبيله) من كلام النَّبي ﷺ ثمّ كان الحديث القدسي :

( لا يخرجه إلاَّ إيمان بي وتصديق برسلي أَنْ أُرجعه بما نال من أَجر أَو غنيمة أَو أُدخله الجنَّة ) .

والجملتان الأَخيرتان من كلام النَّبي ﷺ بيقين .

وقد عبَّر الرَّسول الكريم عن الجهاد في سبيل اللَّه بالخروج في سبيل اللَّه ، إيثارًا للتَّعبير عن المعاني بالأُسلوب الماديِّ الملموس .

هذا الجهاد إنْ كان خالصاً لله منبثقاً عن الإيمان به وبرسله ، لا تشوبه شائبة من شوائب الهوى والمصلحة والجاهلية ، فقد تعهَّد الله تبارك وتعالى لصاحبه أنْ يرجعه سالماً غانماً أَوْ مأجوراً أَوْ أنْ يدخله الجنَّة .

---

١ - متَّفق عليه : صحيح البخاري ١/ ١٥ - ١٦ ط الشَّعب ومسلم ٦/ ٣٣ ط . استانبول .





وهذا المعنى ورد في الحديث السَّابق .

ثُمَّ بيَّن النَّبي الكريم ﷺ فضل الجهاد وقيمته بأمرين :

أوَّلها : أنَّه لولا المشقَّة على أُمَّته لما قعد خلف سريَّة أَرسلها

وثانيهما : أَنَّه وَدَّ أَنْ يقتل في سبيل اللَّه ويعود للجِّهاد مرَّات . .

ـ عن معاذ ـ في حديثه الطَّويل ـ قال : ثمَّ قال رسول الله ﷺ :

« ألا أُخبرك برأس الأَمر وعموده وذروة سنامه ؟ »

ـ قلت : بلى يا رسول اللَّه

ـ قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصَّلاة وذروة سنامه الجهاد»[1]

حديث معاذ هذا قطعة من حديث طويل بدأه معاذ بسؤال النَّبي ﷺ عن عمل يدخله الجنَّة ويباعده من النَّار ، وأَجابه النَّبي ﷺ أَنَّ هذا العمل هو تطبيق أَركان الإسلام الخمسة . ثُمَّ قال له : أَلا أَدُلُّك على أبواب الخير ؟ فذكر له منها الصَّوم والصَّدقة وصلاة اللَّيل ، ثُمَّ كانت هذه القطعة من الحديث المتعلِّقة بالجهاد . وينتهي الحديث بأَنَّ الرَّسول ﷺ قال له : أَلا أُخبرك بملاك ذلك كلِّه ؟ فأخذ رسول الله ﷺ بلسانه وقال: «كفَّ عليك هذا» .

وقد ذكرت هذه المقدمة لنتبينَّ ما المراد من كلمة ( الأمر ) الواردة في قوله ﷺ : أَلا أُخبرك برأس الأمر ؟ المراد من كلمة ( الأمر ) هو الرَّغبة في الخلاص من النَّار ودخول الجنَّة . رأس هذا الأمر هو الإسلام والدُّخول فيه والإيمان بمبادئه وعقائده ، وعموده الصَّلاة ، فإذا سقط العمود سقط هذا الأمر ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل اللَّه ، إِنَّه القمَّة الَّتي لا شيء فوقها .

وقد أَكَّدت هذا المعنى أَحاديث عدَّة تدور على أَنَّه ليس هناك عمل يمكن أَنْ

---

١ ـ رواه التِّرمذي وقال حديث حسن صحيح ، انظر رياض الصَّالحين ـ باب تحريم الغيبة ص ٥٣٥ ط رضوان محمد رضوان ، ورواه أحمد وابن ماجه ٢/ ١٣١٤

يسدّ مسدّ الجهاد أبدًا ، والحديث بجملته قائم على الحوار الَّذي كان يتعمَّده رسول اللَّه ﷺ وواضح ذلك في قوله المتكرر ( أَلا أُخبرك . . ألا أَدُلُّك ) ، وفيه التَّعبير عن المعاني المجرَّدة بالصُّور الحسيَّة الملموسة .

- عن معاذ بن جبل عن رسول اللَّه ﷺ قال :

« الغزو غزوان :

- فأمَّا من ابتغى وجه اللَّه ، وأطاع الإمام وأنفق الكريمة [١] وياسر الشرَّيك [٢] واجتنب الفساد فإن نومه ونبهه [٣] أجر كلُّه .

- وأمَّا من غزا فخراً ورياءً وسمعة ، وعصى الإمام وأفسد في الأَرض فإنَّه لم يرجع بالكفاف »[٤] .

الغزو نوعان : محمود مأْجور ، ومذموم موزور

- أمَّا المَأجور فقد ذكر الرَّسول الكريم ﷺ له خمسة شروط وهي :

١ - الإخلاص وابتغاء وجه الله تعالى وحده ، لا يريد المرء فيه مالاً ولا فخراً .
٢ - وطاعة الإمام ، وهي طاعة مبصرة تبقى في حدود الشرَّع ، إذْ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .
٣ - والبذل والإنفاق ، فالجهاد ليكون مأجوراً عند الله لا بدَّ فيه من بذل المال والوقت والرَّاحة والنَّفس وهذه الأُمور هي أنفس ما يملك المرء .
٤ - حسن معاملة الرُّفقاء والتَّعاون معهم بالرِّفق واليُسرْ.
٥ - البعد عن الفساد في صوره كلِّها.

---

١ - أنفق الكريمة : أيّ المختارة النَّفيسة الجيِّدة ، وقتل نفسه .
٢ - ياسر الشرَّيك : أيّ ساهل الرَّفيق وعامله باليسر .
٣ - نبهه : ( بفتح النُّون ) أَي انتباهه .
٤ - أبو داود ٣/ ٢٠ وقوله : لم يرجع بالكفاف أي لم يرجع لا عليه ولا له من ثواب تلك الغزوة وعقابها، بل يرجع وقد لزمه الإثم، لأنَّ الطَّاعات إذا لم تقع بصلاح سريرة انقلبت معاصي والعاصي آثم .

ـ أمَّا الموزور ـ والعياذ بالله ـ فهو ما تخلّفت فيه الشروط السابقة فمن توافرت فيه هذه الشرُّوط كانت كلّ لحظة تمرُّ من حياته أجراً. سواء في ذلك نومه ويقظته وسكوته وكلامه

١ ـ لم يكن الجهاد ابتغاء وجه الله ، وإنَّما كان للفخر والسُّمعة والرِّياء .

٢ ـ وكان فيه عصيان للإمام ، والإمام إنْ عصي من قبل الجند أفسدوا وعليه رأيه ، لأنَّه لا رأي لمن لا يطاع .

٣ ـ وكان هناك إفساد في الأَرض .

هذا الغزو خاسر أعظم الخسارة .

وإذا تأمَّلنا في الحديث لفت نظرنا ما يأْتي :

ـ عبَّر عن الإخلاص بابتغاء وجه الله وعن كون الحياة كلِّها مأْجورة بأَنَّ نومه وانتباهه أَجر كلُّه .

والتعبير عن الإِثم والوزر كان بهذه الصُّورة ( لم يرجع بالكفاف ) ، فمن كان كذلك لم يرجع إنساناً ليس عليه شيء ولا له شيء ، وإنَّما رجع خاسراً أعظم الخسارة لأَنَّه رجع عاصياً آثماً .

وأخيراً فإنَّنا نجد أَنَّ الرَّسولﷺ استعمل كلمة الغزو محلَّ كلمة الجهاد ، لأَنَّه ليس كلُّه جهاداً بل فيه نوع غير محمود ، ولا يمكن أنْ يدعى جهاداً . وهذا منتهى الدِّقة في استعمال الألفاظ .

ـ عن أَبي سعيد عن النَّبيﷺ أَنَّه سئل : أيُّ المؤمنين أكمل إيماناً؟

قالﷺ : « رجل يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله ، ورجل يعبد الله في شعب من الشعاب قد كفى النَّاس شرّه »[1] .

---

(١) أبو داود ٣/ ٨





ـ وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنَّه قال :

« من خير معاش النَّاس لهم : رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه ، كلَّما سمع هيعة أو فزعة طار عليه يبتغي القتل والموت مظانَّه . أَوْ رجل في غنيمة في رأس شعفة من هذه الشَّعف أو بطن واد من هذه الأَودية يقيم الصَّلاة ويؤتى الزَّكاة ويعبد ربَّه حتَّى يأتيه اليقين . ليس من النَّاس إلاَّ في خير »[1] .

أكمل النَّاس إيماناً من آثر ما عند الله تعالى على كلِّ حطام الدُّنيا ومنافعها ومصالحها ولذَّاتها . فإنْ كان للّجهاد مجال جاهد في سبيل الله بما له ونفسه وقد صوَّره الحديث بصورة تعجز الرِّيشة عن إبراز الصُّورة على ما ترى في هذا الحديث . . . إنَّه رجل ممسك بعنان فرسه ، يطير على متن هذا الفرس طيراناً ، كلَّما سمع صوتاً أو استغاثة طار يبتغي القتل والموت في مظانِّه . إنهَّا صورة في غاية الإمتاع . وهي تدعو إلى الإعجاب بذاك الرَّجل الحريص على الموت في سبيل الله . وهي صورة كانت في تاريخ الصَّحابة والتَّابعين لهم على مرِّ العصور حقيقة واقعة .

وإن لم يكن للّجهاد مجال اعتزل النَّاس في شعب من شعاب الجبال ، أو في بطن واد من الأودية يقيم الصَّلاة ويؤتي الزَّكاة ويعبد ربَّه حتَّى يأتيه الموت .

إنَّه وصف دقيق لكلا الرَّجلين : المجاهد في سبيل الله الحريص على الموت ، والعابد الورع الَّذي اعتزل النَّاس واختار لنفسه طريقة شريفة من طرائق الكسب الحلال .

وهكذا كان الوصف سبيلاً من سبل التَّصوير الفنِّي الجميل ينقلنا إلى أَنْ نشهد بأعين خيالنا ذاك البطل المغوار في ساحات الوغى يطير إلى حيث يكون الموت .

وذاك الرَّاعي العابد في رؤوس الجبال أو بطون الأودية . ونرى في الحديث أيضاً بعض الكلمات الَّتي تدلُّ على صور جميلة :

---

(١) صحيح مسلم ١٣/ ٣٤ ـ ٣٥ .







من ذلك كلمة (يطير ) الَّتي تصوِّر سرعة الرَّجل إلى القتال ، إنَّه لا يمشي ولا يهرول ولكنَّه يطير .

ومن ذلك كلمة ( اليقين ) الَّتي تدلُّ على الموت. ومن ذلك قوله ( قد كفى النَّاس شرَّه ). وقوله « ليس من النَّاس إلاَّ في خير » وهو كناية عن عدم إيذائه أحداً من النَّاس .

**

ـ وعن فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ :

« كلُّ ميِّت يختم على عمله إلاَّ المرابط في سبيل الله . فإنَّه ينمَّى له عمله إلى يوم القيامة ، ويؤمن فتنة القبر»[1] .

ينتهي كسب المرء بالموت ، فإذا مات انقطع عمله ، فلا هو يكسب حسنات ولا سيئات . . . هذا مبدأ إسلامي مقرَّر تدلُّ عليه نصوص دينيةً عدَّة . . وقد عبَّر هذا الحديث عن هذا المبدأ بقوله ﷺ « كلُّ ميِّت يختم على عمله » وهناك استثناء لهذه القاعدة جاء في أحاديث ، منها حديثنا هذا . فقد استثنى رسول الله ﷺ المرابط الَّذي يرابط في سبيل الله ، ويقيم في ثغور المسلمين حارساً بلادهم وحدودها من كيد الأعداء ومكرهم وعدوانهم . . . فإنَّ عمله ينمَّى له . . . وما يزال ينمَّى إلى يوم القيامة . . .

وللمرابط فوق هذا مكافأة أخرى وهي أنَّه يؤمن عذاب القبر .

وفي الحديث هذه الصُّورة الحسِّية لامتناع كسب الحسنات بقوله « يختم على عمله » فالشَّيء الَّذي يختم عليه لا يمكن أنْ ينمو ولا أنْ يزيد .

إنَّ الحديث يدلُّ على عظم أجر المرابط.

**

ـ عن سهل بن سعد قال ، قال رسول الله ﷺ :

---

(١) رواه أبو داود والتِّرمذي وقال : حديث حسن صحيح وانظر رياض الصَّالحين ٧١٦ .

« رباط يوم في سبيل الله خير من الدُّنيا وما عليها . وموضع سوط أحدكم في الجنَّة خير من الدُّنيا وما عليها . والرَّوحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدُّنيا وما عليها»(١)

الحديث يوازن بين أمور لا تبدو قيمتها للناس الآن ، وبين أمر محبوب يرونه شيئاً كبيراً. وهذا الأمر المحبوب هو هذه الدنيا. . . إنَّ بقعة صغيرة من هذه الدُّنيا يتفانى الناس ويتقاتلون من أجلها . . . إنَّ مالاً يسيراً على الأرض يسعى النَّـاس وراءه ويلهثون ويعرِّضون أنفسهم إلى المخاطر والمهالك ، فلنتصوَّر الدُّنيا بقارَّاتها ببرِّها وبحرها وما عليها من بنيان وحيوان وصناعة ومال. . . إنَّ هذا كلَّه لو وضع في كفَّة ووضع واحد من الأُمور الثَّلاثة الَّتي لا تبدو قيمتها للناس الآن في كفَّة لكان كلُّ واحد منها خيراً من الدُّنيا وما عليها:

رباط يوم واحد في سبيل الله خير من الدُّنيا وما عليها.

والمكان الصَّغير جداً في الجنَّة خير من الدُّنيا وما فيها .

والرَّوحة في سبيل الله أو الغدوة خير من الدُّنيا وما عليها .

وللدَّلالة على المكان الصَّغير قالﷺ « وموضع سوط أحدكم في الجنَّة » كم تبلغ مساحة هذا الموضع الَّذي يشغله سوط الإنسان ؟ إنَّها مساحة يسيرة جدًّا ومع ذلك فإنَّ قيمتها تبدو بالشَّكل الَّذي بيَّنه الحديث .

**

ـ عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

« . . . والَّذي نفسي بيده ما من كلم يكلم في سبيل الله إلاَّ جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم : لونه لون دم وريحه ريح مسك»(٢) .

النَّص صورة قائمة على وصف هذا الجرح كيف يكون يوم القيامة . إنَّـه يكون على الهيئة الَّتي كان عليها يوم كلم من حيث اللون والشَّكل ، أمَّا الريح فإنَّه ريح المسك .

---

(١) متَّفق عليه (صحيح البخاري ٤/ ٢٩ كتاب الجهاد باب فضل رباط يوم . وانظر رياض الصَّالحين ٧١٦ ، وأقيسة النَّبي ١٠٧ ) .

(٢) متَّفق عليه : صحيح مسلم ط استانبول ٦/ ٣٣ ـ ٣٤ ، صحيح البخاري ٤/ ٢٢ . ط كتاب الشَّعب .

وفي هذه الصُّورة ترغيب وأيُّ ترغيب في الجهاد في سبيل الله .

ـ عن معاذ بن جبل أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول :

«من قاتل في سبيل الله من رجل مسلم فواق ناقة[1] وجبت له الجنَّة ،ومن سأل الله القتل من نفسه صادقاً ثُمَّ مات أو قتل فإنَّ له أجر شهيد ،ومن جرح جرحاً في سبيل الله أو نكب نكبة فإنَّها تجيء يوم القيامة كأغزر ما كانت: لونها لون الزَّعفران وريحها ريح المسك»[2] .

الحديث فيه صور جاءت عن طريق الوصف والكناية والتَّشبيه . ففيه وصف للّجرح الَّذي يأتي يوم القيامة على هيئته الَّتي كان عليها في الدُّنيا ، يتدفَّق دماً كأغزر ما كان . وهذا الوصف قد مرَّ بنا في الحديث السَّابق . غير أنَّ في هذا الحديث زيادة وهي تشبيه لون الدَّم بلون الزَّعفران وفيه تقدير للّوقت بأمر معلوم عند المخاطبين .

فقد قرَّر أَنَّ الجهاد فواق ناقة يوجب لصاحبه الجنَّة ، وهذه صورة جاءت عن طريق الكناية . . . . وهي مأخوذة من البيئة العربية الَّتي تعتمد على النَّاقة .

وفي الحديث أَنَّ الَّذي يسأل الله القتل صادقاً كان له أَجر شهيد سواء أَمات أَمْ قتل .

**

ـ عن أَبي أُمامة أَنَّ رجلاً قال :

ـ يا رسول الله إئذن لي في السِّياحة .

ـ فقال النَّبي ﷺ « إنَّ سياحة أُمَّتي الجهاد في سبيل الله تعالى »[3]

سياحة أُمَّة محمَّد ﷺ هي الجهاد في سبيل الله ، ولنا أَنْ نتصوَّر السِّياحة للّعبادة ولنا أَنْ نتصوَّرها للمتّعة والنزهة . إنهَّا أُمَّة المجد والمثل الأعلى والبذل والفداء .

---

(١) أيْ مقدار ما بين الحلبتين.

(٢) أبو داود ٣/ ٣٠ والتِّرمذي وقال : حديث حسن ، وانظر رياض الصَّالحين ٧١٩ .

(٣) أبو داود ٣/ ٩ .



ـ عن المقداد بن الأَسود قال :

ـ يا رسول الله ، أرأيت إنْ لقيت رجلاً من الكفَّار فقاتلني ، فضرب إحدى يديّ بالسَّيف فقطعها ثُمَّ لاذ منِّي بشجرة ، فقال : أَسلمت لله ، أفأَقتله يا رسول الله بعد أنْ قالها ؟

ـ قال رسول الله ﷺ : «لا تقتله.»

ـ قال فقلت : يا رسول الله : إنَّه قد قطع يدي ، ثُمَّ قال ذلك بعد أَنْ قطعها . فأَقتله ؟

ـ قال رسول الله ﷺ : «لا تقتله . فإنْ قتلته فإنَّه بمنزلتك قبل أَنْ تقتله وإنَّك بمنزلته قبل أَنْ يقول كلمته الَّتي قالها»[1] .

جميل تفسير شرَّاح الحديث لهذه الموازنة ، فقد قالوا : « إنَّه بمنزلتك قبل أَنْ تقتله » معنى ذلك أنَّه معصوم الدَّم لا يحلُّ قتله . ومعنى قوله ﷺ « إنَّك بمنزلته قبل أَنْ يقول كلمته الَّتي قال » أيْ أنت مهدر الدَّم ، تقتل بالقصاص ، لأَنَّ القاتل يقتل . وقد كان لكفره مهدر الدَّم فعصمه بالإِسلام .

هذه الصُّورة القائمة على الموازنة تبيِّن السَّبب الَّذي من أَجله كان الجهاد أنَّ المشركين يقاَتلون على الكفر . . . فإذا قالوا كلمة التَّوحيد كانوا مسلمين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم .

**

ـ عن أَنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :

« ثلاث من أَصل الإيمان : الكفُّ عمَّن قال لا إله إلاَّ الله ، لا نكفِّره بذنب ولا نخرجه من الإِسلام بعمل ، والجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أَنْ يقاتل آخر أُمَّتي الدَّجال ، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل . والإيمان بالأَقدار»[2]

(١) صحيح مسلم ٢/ ٩٨ وأبو داود ٣/ ٦٢ .
(٢) أبو داود ٣/ ٢٦ .





الأُمور الَّتي من أَصل الايمان هي : كما في هذا الحديث :

(١) الكفُّ عمَّن قال : لا إله إلاَّ الله ، فلا نقاتل من قالها ولا نستبيح دمه ، فكلٌّ من قالها عصم دمه إلاَّ أَنْ يأتي بعمل تحكم هذه العقيدة بعقوبته . لا نكفِّره بذنب ولا نخرجه من الإِسلام بعمل .

(٢) والجهاد من أَصل الإِيمان ، وهو ماض مستمر منذ بعث الله محمَّداً ﷺ إلى آخر الدُّنيا ، فمهما كان الأَمير الَّذي يلي أُمور المسلمين فالجهاد ماض لا يبطل .

(٣) والايمان بالقدر خيره وشرِّه أَصل من أُصول الإِيمان وهو ركن من أَركان الايمان المشهورة .

والتَّعبير عن آخر الدنيا بمقاتلة آخر الأُمَّة الدَّجال كناية مبنيَّة على ما عرف من أَنَّ الدَّجال سيكون في آخر الزَّمان . والحديث أَيضاً يقرِّر الجهاد الَّذي يقوم من أَجل إعلاء كلمة الله ، فمن قال لا إله إلاَّ الله وجب الكفُّ عنه .

**

ـ عن عبد الله عن النَّبي ﷺ قال :

«قفلة كغزوة»[١]

الكرُّ والفرُّ من أَساليب القتال . فالحديث يشبِّه القفلة بالغزوة .

ـ عن أَبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال :

«غزا نبيٌّ من الأَنبياء فقال لقومه : لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة[٢] وهو يريد أَنْ يبني بها ولَمَّا يَبْنِ بها . ولا آخر قد بنى بنياناً ولَمَّا يرفع سقفها . ولا آخر قد اشترى غنماً أَوْ خلفات وهو ينتظر ولادها . . . إلى أَنْ يقول :

فجمعوا ما غنموا فأَقبلت النَّار لتأكله فأَبت أَنْ تطعمه فقال : فيكم

(١) أبو داود ٣/ ٩

(٢) أي عقد نكاح المرأة .

غلول[1]. فليبا يعني من كلِّ قبيلة رجل فبايعوه ، فلصقت يد رجل بيده ، فقال: فيكم الغلول فلتبايعني قبيلتك . فبايعته .

قال : فلصقت يده بيد رجلين أَو ثلاثة . فقال : فيكم الغلول أَنتم غَلَلْتم .

قال : فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب . قال : فوضعوه بالمال وهو بالصَّعيد[2] فأقبلت النَّار فأكلته .

فلم تحلَّ الغنائم لأَحد قبلنا . ذلك بأنَّ الله تبارك وتعالى رأى ضعفنا وعجزنا فطيبَّها لنا »[3]

القصَّة تقرِّر فضل الله على هذه الأُمَّة ومراعاته لها ، لما علم من ضعفها ، فلقد أَحلَّ لها الغنائم ، ولم تكن تحلُّ لأَحد قبلنا .

هذا الغرض الرَّئيس من القصَّة ، وإنْ كانت هناك أَغراض أُخرى بدت من خلال أحداث القصَّة :

ـ ومن ذلك تقرير أَنَّ الَّذي يكتم الحقَّ معرَّض للَّفضيحة على رؤوس الأَشهاد في الدُّنيا قبل الآخرة ، كما حصل لهؤلاء الَّذين غلُّوا ولم يعترفوا بذنبهم .

ـ ومن ذلك تقرير أَنَّ انشغال البال بالمال والزَّوجة والبنيان يصرف المرء عن قصد الجهاد ويجعل بلاءه فيه محدوداً .

ـ ومن ذلك تحريم الغلول .

بدأَت أَحداث القصَّة بحكاية خبر غزو نبي من الأَنبياء للَّكافرين ودعوته قومه إلى الجهاد ونهيه أَنْ يتبعه أَحد متعلِّق قلبه بالدُّنيا من نساء وعمران وأَنعام لأَن أَمثال هؤلاء لا يندفعون إلى الموت . . وهمُّهم أَنْ يعودوا لإنجاز المعلَّق من شؤونهم .

(١) الغلول : الخيانة في الغنيمة وأَنْ يخصَّ المرء نفسه بشيء من الغنيمة دون إذن الأَمير .
(٢) الصَّعيد : الأرض .
(٣) متفق عليه : صحيح البخاري ٤/ ١٠٤ط . كتاب الشُّعب كتاب فرض الخمس باب قول النَّبي ﷺ أُحلَّت لكم الغنائم ، وصحيح مسلم ١٢/ ٥١ ـ ٥٣ ، وانظر رياض الصَّالحين ٨٩ .

ويبدو أنَّ النَّبي وقومه مضوا إلى الحرب وخاضوها، وكتب الله لهم النَّصر والتَّغلُّب على الأعداء ، وغنموا الكثير . . . وكانت الغنائم تجمع في مكان ثُمَّ تأتي النَّار فتأكلها . . ويكون ذلك علامة القبول . . . فجمعوها لتأكلها النَّار ولكنَّ النَّار أبت . . . وكان ذلك علامة على الغلول في القوم . فقال النَّبي : « فيكم غلول . وانتظر أنْ يتوب المسيء ، ويعيد ما غلَّ . . . غير أنَّ ذلك لم يحدث ، وهنا تبرز عقدة تشدُّ اهتمام السامع ليعلم كيف يمكن أنْ يعرف الغالُّ السَّارق ، فطلب النَّبي أنْ يبايعه من كلِّ قبيلة رجل ، فبايعوه ، فلصقت يد رجل بيده ، فأعلن النَّبي أنَّ الغلول في قبيلة هذا الرَّجل ، وطلب أنْ يبايعه كلُّ أفراد القبيلة ، فلصقت يد رجلين أو ثلاثة منهم بيده ، فقال : فيكم الغلول . فلم يسعهم إلاَّ الاعتراف ، وأخرجوا له سبيكة من الذَّهب مثل رَأس بقرة . فعندما جاؤوا بما غلُّوا ووضعوه مع المال على الأرض أقبلت النَّار فأكلته .

قصَّة فيها إثارة وتشويق وعقدة وحل وقد استُخدمت لتصوُّر فضل الله على الأُمَّة الإسلامية الَّتي أحلَّ لها الغنائم .

ـ عن أبي الدَّرداء أنَّ رسول الله ﷺ قال فيمن يريد أنْ يلم بامرأة حامل من السبى :

«لقد هممت أن ألعنة لعناً يدخل معه قبره :
كيف يورِّثه وهو لا يحلُّ له؟
كيف يستخدمه وهو لا يحل له ؟ »[1]

قال النَّووي في شرحه : « ومعنى الحديث أن المرأة المسبيَّة الحامل لا يحلُّ جماعها حتَّى تضع . ومعنى قولهﷺ : كيف يورِّثه وهو لا يحلُّ له ؟ كيف يستخدمه وهو لا يحلُّ له ؟ إنَّه قد تتأخر ولادتها ستة أشهر حيث يحتمل كون الولد من هذا السَّابي ، ويحتمل أنَّه كان ممَّن قبله . فعلى تقدير كونه من السَّابي يكون ولداً له ويتوارثان . وعلى تقدير كونه من غير السَّابي لا يتوارثان هو والسَّابي لعدم القرابة . بل له استخدامه لأنه مملوكه . فتقدير الحديث أنَّه قد يستلحقه ويجعله ابناً له ويورثه

(١) صحيح مسلم ١٠/ ١٥ .

مع أنَّه لا يحلُّ له توريثه لكونه ليس منه . وقد يستخدمه استخدام العبيد ويجعله عبداً يتملَّكه مع أنَّه لا يحلُّ له ذلك لكونه منه . من أجل ذلك وجب عليه الامتناع عن وطئها خوفاً من هذا المحظور »[1] .

الحديث ينظِّم علاقة الرَّجل بالمسبيَّة الحامل ، وهذا جانب من جوانب تكريم الإنسان والسُّمو بالمعاملة إلى مستوى نظيف يرعى الخلق والحقَّ والعدل والإحسان .

فرسول الله ﷺ يمنع الرَّجل من الاتصال بالمرأة المسبيَّة الحامل حتَّى تضع حملها ، ويبينُ الحكمة من ذلك وهي حفظ المجتمع من أنْ تختلط فيه الأنساب ، وضمان بقائها سليمة لا تداخل فيها ولا فوضى .

من أجل ذلك كان هذا التَّهديد الشَّديد لمن أراد أَن يهمَّ بمخالفة هذا الأَدب السَّامي . . . إذْ هَمَّ صلوات الله عليه أنْ يلعنه لعناً يدخل معه في قبره .

وهذه الجملة صورة معبرة فيها كناية عن تعظيم اللعن الَّذي سيلازم صاحبه ذلك لأنَّ الإنسان يتخلَّ عنه كلُّ ما كان متَّصلاً به عند دخوله القبر فلا عقله ولا ماله ولا علمه ولا ملابسه ولا أَهله غير ما استثناه رسول الله في حديث آخر وهو عمله ، وهنا نرى اللعن اللاَّصق به الملازم له يدخل معه أيضاً القبر .

ـ عن أَبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

« ما يجد الشَّهيد من مسِّ القتل إلاَّ كما يجد أَحكم من مسِّ القرصة »[2] .

الحديث ترغيب في الشَّهادة وتهوين لمقدماتها . إنَّ القتل الَّذي ينقل المرء إلى مرتبة الشَّهادة . . . يسير هينٌ على صاحبه لا يجد المرء فيه من الأَلم إلاَّ كما يجد من مسِّ القرصة إذا أَصابته .

والشَّهادة مرتبة عظَّمت من مكانتها الآيات القرآنية والأحاديث النبويَّة .

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٠/ ١٥

(٢) رواه التِّرمذي وقال : حديث حسن صحيح ، انظر رياض الصَّالحين ٧٣١ .

وإطلاق القرصة دون إضافتها إلى قارص معينٍ يتيح للخيال أَنْ يتصوَّر أَهون قرصة ويربط بينها وبين ألم القتل . . . بعوضه فما شابهها .

وأَكاد أَلمح من هذا التَّشبيه أَنَّ الموت في ساحات الوغى أَهون من أَنواع الموت الأُخرى الَّتي تكون بالأَمراض المختلفة ، فقد يجد الإِنسان في أَسباب الموت تلك من صنوف الآلام ما يجعل الموت أمنيَّة غالية يلتمس النَّاس بها الخلاص .

ـ عن أَنس أَنَّ رسول الله ﷺ كان يدخل على أُمِّ حرام بنت ملحان فتطعمه وكانت أُمُّ حرام تحت عبادة بن الصَّامت . فدخل عليها رسول الله ﷺ فأَطعمته ، ثُمَّ جلست تفلي رأسه ، فنام رسول الله ﷺ ثُمَّ استيقظ وهو يضحك :

ـ فقالت : ما يضحكك يا رسول الله ؟
ـ قال : «ناس من أُمَّتي عرضوا عليَّ غزاة[1] في سبيل الله ، يركبون ثبج هذا البحر ، ملوك على الأَسرَّة ـ أَو مثل الملوك على الأَسرَّة . »

ـ قالت : فقلت : يا رسول الله أُدع الله أَنْ يجعلني منهم . فدعا لها ثُمَّ وضع رأسه فنام ثُمَّ استيقظ وهو يضحك :
فقالت : ما يضحكك يا رسول الله ؟
ـ قال : «ناس من أُمَّتي عرضوا عليَّ غزاة في سبيل الله» مثـل ما قال في الأُولى .
قالت فقلت : يا رسول الله أُدع الله أَنْ يجعلني منهم .
فقال : «أَنتِ من الأَوَّلين»[2]

هذا الحديث من أَعلام نبوَّته ﷺ فلقد أَخبر بأمر ، تحقَّق بعد وفاته فلقد كان للّمسلمين غزو بحـريّ واشتـركت أُمُّ حرام في بعض هذه الغـزوات واستشهـدت هناك . والحديث فيه ترغيب في الجهاد بذكر ما رآه ﷺ ومـا عرض عليه من صورة

---

(١) في رواية أَبي داود : رأيت قوماً ممَّن يركب ظهر هذا البحر .
(٢) متَّفق عليه : صحيح البخاري ٤/ ١٩ ط كتاب الشَّعب ـ كتاب الجهاد باب الدُّعاء بالجهاد للرِّجـال والنِّساء ، وصحيح مسلم ١٣/ ٥٨ وأبو داود ٣/ ١٠ وفي صحيح مسلم ط استانبول ٦/ ٤٩ ، وانظر رسالتي ( أمّ سليم ) .



مشوِّقة لأُولئك المجاهدين ، وإذا عرفنا أنَّ العرب كانوا يخشون البحر أَدركنا مدى أَهميَّة هذا التَّرغيب .

والحديث نفسه دليل على أنّ هذا الترغيب قد أثمر حتَّى قامت امرأة تطلب من رسول الله ﷺ أَنْ يدعو الله أَنْ يجعلها من الغزاة في البحر . . . إنَّه يدلُّ على حرص الصَّحابيات على الخير.

والحديث فيه دعوة للّمرأة أَنْ تجاهد كما يجاهد الرَّجل .

والصُّورة الأُولى الجميلة هي أَنَّ البحر أَضحى مركباً «ناس من أُمَّتي غزاة يركبون ثبج هذا البحر » فاجتياز البحر وقطعه على السُّفن ركوب لثبجه .

والصُّورة الثَّانية أَنَّ هؤلاء الغزاة حال ركوبهم البحر كأَنَّهم ملوك على الأَسرَّة.

وجليٌّ من الحديث أَنَّ رسول الله ﷺ كان مسروراً جداً من هذه الرُّؤيا . . . متفائلاً بها . . . ولذلك كان يستيقظ ضاحكاً في المرَّتين .

ـ عن أَنس قال :

رجعنا من غزوة تبوك مع النَّبي ﷺ فقال :

« إنَّ أَقواماً خلفنا بالمدينة ، ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلاَّ وهم معنا . حبسهم العذر »[1]

وفي رواية أبي داود :

« لقد تركتم بالمدينة أَقواماً ما سرتم مسيراً ، ولا أَنفقتم من نفقة ولا قطعتم من واد إلاَّ وهم معكم فيه »

قالوا : يا رسول الله ﷺ وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟

قال : « حبسهم العذر »[2]

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ١٠ط الشّعب وانظر رياض الصَّالحين ٤١ .

(٢) أبو داود ٣/ ١٧ .





ـ وعن جابر قال : كنت مع النَّبيﷺ في غزاة فقال :

« إنَّ في المدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلاَّ كانوا معكم حبسهم المرض »[1]

خرج رسول اللهﷺ إلى تبوك في وقت عصيب ، وعند الرُّجوع من الغزوة أَخبر ﷺ أَنهَّم تركوا ناساً بالمدينة أَقعدهم المرض عن الخروج للقاء العدو ، فحزنوا لذلك حزناً جعل أَعينهم تفيض من الدَّمع لأَنهَّم تخلَّفوا عن رسول اللهﷺ وأَصحابه ، ولولا ذاك العذر لكانوا من السَّابقين المتقدِّمين هؤلاء يجعلهم رسول اللهﷺ غزاة ، لهم مثل ثواب الغزاة يقول :

« ما سرتم مسيراً ، ولا أَنفقتم نفقة ولا قطعتم وادياً إلاَّ كانوا معكم » واستغرب الصَّحابة ذلك فقالوا : كيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟ فبيَّن لهمﷺ أَنَّ الَّذي حبسهم هو المرض .

فالتَّعبير عن المشاركة في الثَّواب والمساواة في الفضل بأَنهَّم كانوا معهم تصوير رائع معبِّر وذكر التَّفصيلات كقطع الوادي والسَّير والنَّفقة يؤكِّد هذه المساواة والمشاركة ، وذلك لأنَّ الأَعمال بالنِّيات ، وهؤلاء كانت نيَّتهم الخروج في سبيل الله فمنعهم العذر ، والتَّعبير عن عدم استطاعتهم الخروج الفعلي بسبب المرض بقولهﷺ « حبسهم المرض ، أَو العذر » صورة تبيِّن أَنَّ عذراً قاهراً لا يد لهم فيه منعهم ، فكأَنَّ هذا حبس .

**

ـ عن أَبي أُسيد السَّاعدي قال : قال النَّبيﷺ :

**يوم بدر :**

«إذا كثبوكم فارموهم بالنَّبل ، ولا تسلُّوا السُّيوف حتَّى يغشوكم»[2]

---

(١) صحيح مسلم ط استانبول ٦/ ٤٩ .

(٢) أبو داود ٣/ ٧١ .

يقول ﷺ : إذا اقترب الأعداء نحوكم وكانوا على مرمى النبل منكم فارموهم بالنبال، ولا تسلُّوا السُّيوف إلاَّ عند اللِّقاء . وهذا توجيه عسكري له قيمته، ولا سيما في حفظ الذَّخيرة والإفادة من السِّلاح . لأنَّ استعمال النَّبل وهم بعيدون يضيِّع الذَّخيرة دون جدوى .

وكذلك محاولة استخدام السَّيف قبل الالتحام يفوِّت على المرء استعمال الأسلحة الفعَّالة كالقوس .

وفي الحديث إشارة إلى سلاحين هما : القوس والسَّيف، وكان التَّعبير عن السِّلاح الأوَّل ( فارموهم بالنَّبل) وهذا تعبير معتمد على الحركة .

وكان التَّعبير عن السِّلاح الثَّاني ( ولا تسلُّوا السُّيوف ) وهو أيضاً تعبير معتمد على الحركة .

وفي الحديث ذكر لنوعين من الاقتراب، أمَّا الأوَّل فهو قرب عبَّر عنه بقوله ( كثبوكم ) وأمَّا الثاني فهو الالتحام واللقاء، وعبَّر عنه بقوله (يغشوكم) وهي صورة أيضاً.

- عن البرَّاء قال :

جعل الرَّسول ﷺ على الرُّماة يوم أُحد وكانوا خمسين رجلاً عبد الله بن جبير وقال :

« إنْ رأيتمونا تخطفنا الطَّير فلا تبرحوا من مكانكم حتَّى أُرسل إليكم وإنْ رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلاتبرحوا حتَّى أُرسل إليكم »[1] .

قصَّة الرُّماة يوم أُحد قصَّة معروفة مشهورة ، لأنهَّم كانوا السَّبب في هزيمة المسلمين في هذه الغزوة ، ذلك لأنَّ المعركة كانت للمسلمين على المشركين في أوَّل الأمر ولكنَّ مخالفة الرُّماة لأمر رسول الله ﷺ وتركهم أماكنهم قلب الوضع رأساً على

---

(١) أبو داود ٣/ ٧٠ .

عقب ، وأخلى ظهر المسلمين ، وأقام فجوة يتسلَّل منها المشركون لينقضُّوا على جموع المسلمين من حيث لم يحتسبوا حتَّى كانت النِّهاية المؤلمة .

والحديث هو وصية الرسول ﷺ للرماة ألاّ يبرحوا أماكنهم، وألاّ يتحرّكوا حتى يرسل لهم، سواء انتصر المسلمون أم انهزموا. وقد عبّر عن الهزيمة بقوله: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير» وعن الانتصار بقوله: «إن رأيتمونا أوطأناهم».

وهما صورتان حسيَّتان جميلتان . والصُّورة الأُولى صورة قرآنية جاءت في قوله تعالى ﴿ ومن يشرك بالله فكأنَّما خرَّ من السَّماء فتخطفه الطَّير أو تهوي به الرِّيح في مكان سحيق ﴾[1] .

## ٦ ـ الذِّكر والدُّعاء :

ـ عن أنس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« قال الله تعالى : يابن آدم ! إنَّك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أُبالي .

« يا بن آدم ! لو بلغت ذنوبك عنان[2] السَّماء، ثُمَّ استغفرتني غفرت لك. يابن آدم ! إنَّك لو أتيتني بقراب[3] الأرض خطايا ، ثُمَّ لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة »[4]

إنَّ للدُّعاء والرَّجاء قيمة كبرى ، وفضلاً عظيما . . . إنهَّما يدلاَّن على الإيمان بالله وأسمائه الحسنى وصفاته الكريمة . . . من الرَّحمة الشَّاملة والقدرة الَّتي لا حدود لها ، والمغفرة الواسعة .

ومن أجل ذلك ورد عنه ﷺ أنَّ الدُّعاء هو العبادة[5] والحديث القدسي المذكور يقرِّر أنَّ مغفرة الله محقَّقة لمن دعاه ورجاه على ما كان منه من الذُّنوب والمعاصي .

---

(١) سورة الحج ٣١ .
(٢) عنان السَّماء (بفتح العين ) : هو ما عنَّ لك منها ، أي ظهر ، إذا رفعت رأسك وقيل : هو السَّحاب .
(٣) قراب الأرض (بضمِّ القاف . وقيل : بكسرها . والضَّم أصحُّ وأشهر ) : وهو ما يقارب ملئها .
(٤) رواه التِّرمذي وقال : حديث حسن ( انظر رياض الصَّالحين ٣١٩ ) .
(٥) أخرجه مسلم ـ ( وانظر أحاديث القصاص ) .



ثُمَّ فصَّل الحديث هذا المعنى بأَنْ أَورد صورتين تدلاَّن على عظيم مغفرة الله وواسع رحمته لمن يدعوه مهما بلغت ذنوبه من الكثرة حتَّى لو بلغت عنان السَّماء ، أو كانت ملء الأَرض .

وفي الحديث هذا النِّداء المؤنس الفيَّاض بالحنان والرَّأفة ( يابن آدم ) نداء لهؤلاء العصاة المسرفين على أنفسهم أَنْ تعالوا إلى جادة الحق . . . فإنَّكم ما دمتم لا تشركون بالله شيئاً وأَقبلتم على الله بالاستغفار حائزون على المغفرة .

**

ـ عن أَبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ :

« مثل الَّذي يذكر ربَّه والَّذي لا يذكر مثل الحيّ والميِّت »(١)

ـ وعنه أَيضاً قال قال رسول الله ﷺ :

« مثل البيت الَّذي يذكر الله فيه ، والبيت الَّذي لا يذكر الله فيه مثل الحيّ والميِّت »(٢) .

روايتان للّحديث والصُّورة فيهما واحدة ، فإحداهما تشبِّه الَّذي يذكر ربَّه بالحيّ والَّذي لا يذكر ربَّه بالميِّت والثَّانية تشبِّه البيت الَّذي يذكر الله فيه بالحيّ والبيت الَّذي لا يذكر الله فيه بالميِّت .

إنَّ هذا يدلُّ على فضل الله ، وعلى عظيم شأن الدُّعاء . . . إنَّ الأَرواح لها حياة ، وحياتها بالاتصال بالله عزَّ وجلَّ واللجوء إليه كلَّما زلَّت قدم الإِنسان أَو أَحس بالضَّعف ينتابه . . إنَّه يجد في هذا الذِّكر حياة لروحه وهل يستوي الأَحياء والأَموات ؟ إنَّه تشبيه يؤدِّي مهمَّة دينيَّة هي الحرص على ذكر الله في كلِّ حال . . . وفي البيوت .

ـ عن الحارث الأَشعري أَنَّ رسول الله ﷺ قال :

« إنَّ الله أَمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أَنْ يعمل بها ويأْمر بني

---

(١) صحيح البخاري ٨/ ١٠٧ ط كتاب الشُّعب كتاب الدَّعوات باب فضل ذكر الله .

(٢) متَّفق عليه (صحيح مسلم ٦/ ٦٨ وانظر صحيح الجامع الصَّغير ٥/ ١٩٥ ) .





إسرائيل . . . وآمركم أَنْ تذكروا الله ، فإنَّ مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أَثره سراعاً حتَّى إذا أَتى على حصن حصين فأَحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشَّيطان إلاَّ بذكر الله . . »[1]

رجل وحيد أَعزل كان يمشي . . . فخرج عليه عدو بعددٍ كثير وانطلقوا في أَثره مسرعين . . فأيقن بالموت المحقَّق . . . لولا أَنَّه أَتى على حصن حصين فدخلـه ، فأَحرز نفسه منهم .

كذلك العبد مع الشَّيطان . . . إنَّه في أَثره مسرع . . . وهو قويٌّ ماكر مسلَّح بأَسلحة فتَّاكة من الشَّهوات والأَهواء والمنافع . . . والإِنسان بمفرده وإمكاناته أَعجز عن أَنْ يواجه هذا الشَّيطان الرَّجيم . . . ولا يستطيع أَنْ يحرز نفسه إلاَّ بذكر الله .

إنهَّا صورة تمثيلية قائمة على قصَّة سريعة . . . فيها موقف الخائف المهدَّد من قبل العدو . . . ثُمَّ أَحرز نفسه بما يعصم دمه ويصون حياته .

-ـ عن الأَغرّ المزنى ـ وكانت له صحبة ـ أَنَّ رسول الله ﷺ قال :

« إنَّه ليغان على قلبي . وإنِّي لأَستغفر الله في اليوم مائة مرَّة »[2]

ـ قال النَّوويّ : ( قال أَهل اللُّغة : الغين ـ بالغين المعجمة والغيم : بمعنى والمراد هنا ما يتغشَّى القلب . قال القاضي : قيل المراد الفترات والغفلات عن الذِّكر الَّذي كان شأنه الدَّوام عليه ، فإذا فتر عنه أو غفل عدَّ ذلك ذنباً واستغفر منه »[3] الفتور عن الذِّكر غين يغشى القلب، وجلاؤه الاستغفار والإِكثار منه .

الصورة في الحديث تبيِّن ضرورة الذِّكر لحياة القلب وإنعاشه وسعادته وانطلاقه وتبينِّ الطَّريقة الفاضلة في التَّحرُّر من هذا الغيم الَّذي يحيط بالقلب ويكبِّله ويعوقه عن كثير من مجالات الخير الإِيجابية هذه الطَّريقة هي الاستغفار .

---

(١) التِّرمذي ٤/ ٣٧ ـ ٣٨ والحديث طويل ، وفيه عدة تمثيلات وقد سبق أَنْ مرَّ بنا جزء منـه في بحث الزَّكاة .

(٢) صحيح مسلم ١٧/ ٢٣ .

(٣) شرح النَّووي ١٧/ ٢٣ ثُمَّ شرع النَّووي يسرد أقوالاً للعلماء تدور حول تبرئة الرَّسول ﷺ من أَنْ يعتري قلبه غيم ، ولكن اهتمامنا بالصورة يحول بيننا وبين التَّفصيل في هذا الموضوع المهم .

وإذا كان رسول الله ﷺ يقرِّر أنَّه إذا فتر عن الذِّكر أحس بمثل ذلك فسارع إلى الاستغفار ليزول هذا الغيم عن قلبه فما القول في النَّاس الَّذي لا يذكرون الله إلاَّ قليلا ؟

ما أَشدَّ حاجتهم إلى ذكر الله واستغفاره ليزيحوا عن قلوبهم تلك الغيوم ويتَّصلوا بالملك القيُّوم ، وهناك تكون السَّعادة ويكون الخير العميم .

ـ عن بلال بن يسار بن زيد مولى النَّبي ﷺ عن أبيه عن جده أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول :

« من قال : أَستغفر الله الَّذي لا إله إلاَّ هو الحيُّ القيُّوم وأَتوب إليه غفر له وإنْ كان قد فرَّ من الزَّحف »(٣) .

إنَّ الفرار يوم الزَّحف من السَّبع الموبقات ، وهو من أَكبر الكبائر لأَنَّه يعرِّض أَمَّة الإِسلام ودولته وعامَّة المسلمين وكرامتهم إلى الخطر .

هذا أَمر استقرَّت في أَعماق نفوس النَّاس ، ودلَّت عليه النُّصوص الدِّينية الكثيرة .

والحديث يدلُّ على فضل الاستغفار الكبير . . : فالَّذي يقع في معصية الفرار من الزَّحف هذه المعصية الضَّخمة لم تسدَّ أَمامه سبل الخير إذا أَراد الرُّجوع إلى الحق وسلوك صراط الله المستقيم . . . إنَّ الطَّريق أَمامه ممَّهدة ليس عليه إلاَّ أَنْ يتوب إلى الله ويستغفره .

وقد ذكر جريمة الفرار يوم الزَّحف لأَنهَّا من أَكبر الكبائر ، فالمعاصي الأُخرى دونها تشملها المغفرة من باب أَولى ، فكنَّى رسول الله ﷺ بذكرها عن الكبائر العظمى .

والحديث يدلُّ على فضل صيغة معيَّنة من صيغ الاستغفار والذِّكر وهي « أَستغفر الله الَّذي لا إله إلاَّ هو الحيُّ القيُّوم وأَتوب إليه » وهي تتضمَّن استغفاراً وتوبة وتوحيداً وثناء على الله فمن قالها غفر له مهما كان قد فعل من الكبائر .

---

(٣) أبو داود ٢/ ١١٣ .

ـ عن أَبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ :

« لأَن أَقول « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاَّ الله والله أَكبر » أَحبُّ إِليَّ مِمَّا طلعت عليه الشَّمس »[1] .

ـ عن أَبي هريرة قال قال أَبو ذر :

ـ يا رسول الله ! ذهب أَصحـاب الدُّثـور بالأُجـور . يصلُّـون كما نصلِّي ويصومون كما نصوم ، ولهم فضول أَموال يتصدَّقون بها ، وليس لنا مال نتصـَّدق به .

ـ فقال رسول الله ﷺ : «يا أَبا ذر! أَلا أُعلِّمك كلمات تدرك بهنَّ من سبقك،ولا يلحقك من خلفك إلاَّ من أَخذ بمثل عملك؟»

ـ قال : بلى يا رسول الله .

ـ قال: «تكبِّر الله دبر كلِّ صلاة ثلاثاً وثلاثين ، وتحمده ثلاثاً وثلاثين ، وتسبِّحه ثلاثاً وثلاثين ، وتختمها بلا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير [فمن قال ذلك ][2] غفرت له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر »[3]

ـ عن أَبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ :

«من سبَّح الله في دبر كلِّ صلاة ثلاثاً وثلاثين ،وحمد الله ثلاثاً وثلاثين ، وكبَّر الله ثلاثاً وثلاثين فتلك تسعة وتسعون ، وقال تمام المائة : لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير غفرت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر »[4] .

---

(١) صحيح مسلم ١٧/ ١٩ وفي ط استانبول ٨/ ٧٠ وانظر رياض الصَّالحين ٧٦٦ .

(٢) جاء في عون المعبود ( قال السُّيوطي : هكذا في نسخ أبي داود وفيه سقط ) ثُمَّ أورد حديث أبي هريرة الَّذي ذكرته بعد هذا الحديث . فلعلَّ السُّقط ما وضعته بين المعقوفتين .

(٣) أبو داود ٢/ ١١٠ ـ وقد ورد بعض هذا الحديث في مسلم على نسق آخر انظره في كتاب الحديث النبوي ص٩٩ ط الثالثة وفي رياض الصالحين باب بيان كثرة طرق الخير .

(٤) صحيح مسلم ٢/ ٩٨ ط استانبول .

هذه الأَحاديث تدلُّ على فضل أذكار معيَّنة مخصوصة هي التَّسبيح والتَّحميد والتَّهليل والتَّكبير .

والحديث الأُول يذكر فضلها مطلقاً وفيه تصوير بالموازنة والكناية . . الموازنة بين الدُّنيا كلِّها وبين الثَّواب المترتِّب على ترديد هذه الأَذكار . . . الدُّنيا المرغوبة المحبوبة ، والثَّواب الَّذي لا ينتبه لفضله إلاَّ القليل ولكنَّه لم يعبر عن الدُّنيا بصراحة كما جاء في أَحاديث أُخرى وإنَّما عبَّر عنها بصورة جميلة هي « ما طلعت عليه الشَّمس » والَّذي تطلع عليه الشَّمس هو هذه الدُّنيا وما عليها .

والحديثان الآخران ذكرا فضل هذه الأَذكار عقب أَداء صلاة الفريضة ، وفيه صورة تنبىء عن الكثرة وذلك في قوله « ولو كانت مثل زبد البحر » فمن قال هذه الأَذكار دبر كلِّ صلاة غفرت له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر كثرة .

ـ عن أَبي موسى الأَشعري قال :

كنت مع رسول الله ﷺ في سفر فلماَّ دنوا من المدينة كبَّر النَّاس ورفعوا أَصواتهم . فقال رسول الله ﷺ :

« يا أَيُّها النَّاس ! إنَّكم لا تدعون أَصم ولا غائباً ، إنَّ الَّذي تدعونه بينكم وبين أَعناق ركابكم » .

ثُمَّ قال رسول الله ﷺ :

«يا أَبا موسى ! هل أَدُلُّك على كنز من كنوز الجنَّة ؟ »

فقلت : وما هو ؟

قال : « لا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله »[1] .

في الحديث صورتان الأُولى كناية عن قرب الله تعالى من عباده وذلك في قوله ﷺ : إن الَّذي تدعونه بينكم وبين أَعناق ركابكم . والثَّانية تشبيه الحوقلة بكنز من كنوز الجنَّة .

(١) أبو داود ٢/ ١١٦ .

ـ عن سعد بن أَبي وقاص أنَّه دخل مع رسول الله ﷺ على امرأة وبين يديها نوى أَو حصى تسبِّح به فقال :

«أُخبرك بما هو أَيسر عليك من هذا ـ أَو أَفضل ؟ »

فقال : «سبحان الله عدد ما خلق في السَّماء .

سبحان الله عدد ما خلق في الأَرض

سبحان الله عدد ما خلق بين ذلك

سبحان الله عدد ما هو خالق

والله أَكبر مثل ذلك ، والحمد لله مثل ذلك ، ولا إله إلاَّ الله مثل ذلك ، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله مثل ذلك »[١] .

في هذا الحديث بيان بطريقة يستكثر من يفعلها من الثَّواب . . . وهذه الطَّريقة هي أَنْ يردِّد التَّسبيح والتَّحميد والتَّهليل والتَّكبير والحوقلة بصيغة تقرن الذِّكر بعدد ما خلق الله في السَّماء وبعدد ما خلق في الأرض وبعدد ما خلق بينهما وبعدد ما هو خالق إلى الأَبد فكأَنَّ قائل ذلك يعلن عن عجزه عن ترديد هذا الذِّكر المرَّات الَّتي يرغب في الحصول على ثوابها الكثير، ويعلن عن عجزه عن الإحصاء فيكل ذلك إلى الله تعالى وذلك كلّه كناية عن الكثرة.

ـ عن أَبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ :

« إنَّ الله طيِّب لا يقبل إلاَّ طيِّباً . وإنَّ الله أَمر المؤمنين بما أَمر به المرسلين فقال : ﴿يا أَيهُّا الرُّسل كلوا من الطَّيِّبات واعملوا صالحاً إِنِّي بما تعملون عليم﴾[٢] وقال : ﴿يا أَيهُّا الذِّين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾[٣] ثُمَّ ذكر الرَّجل :

« يطيل السَّفر ، أَشعث أَغبر ، يمدُّ يديه إلى السَّماء ، يا ربِّ ! يا ربِّ !

---

(١) أبو داود ٢/ ١٠٨ .

(٢) المؤمنون ٥١ .

(٣) البقرة ١٧٢



ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذّي بالحرام . فأنّى يستجاب لذلك » .[1]

رأينا في الأحاديث السّابقة ما يدلُّ على فضل الدُّعاء وعظيم مكانته ولاستجابة الدُّعاء شروط . . فهناك دعاء مستجاب . . وهناك دعاء مردود . والحديث يذكر حالة من الحالات الّتي لا يستجاب فيها دعاء الرَّجل ، وهي أنْ يكون الدّاعي من العصاة الذين يأكلون الحرام ، وقد قدَّم الرَّسول الكريم ﷺ بمقدمة تربط بين هذا الأمر وبين قاعدة مقرَّرة فقال ﷺ :

« إنَّ الله طيِّب لا يقبل إلاَّ طيِّباً » .

فالعاصي الذي يأكل الحرام ، ويكسب الحرام ليس طيِّباً . . فدعاؤه مردود .

ومن تكريم الله للمؤمنين أنَّه عزَّ وجلَّ أمرهم بما أمر به المرسلين ، فلقد أمر هؤلاء وهؤلاء بأنْ يأكلوا من الطَّيبات وإنَّها لمنزلة عالية كريمة أنْ يؤمر ناس عاديُّون بما أُمر به النَّبيون . . فمن استجاب فقد هيّأ نفسه ليكون مقبولاً وليكون دعاؤه مستجاباً .

ثُمَّ ذكر رسول الله ﷺ نموذجاً من النَّاس يطيل السَّفر ، ربمَّا للعبادة ، أشعث الشَّعر ، أغبر الثِّياب ، يبالغ في الدُّعاء فيرفع يديه إلى السَّماء يتضرَّع قائلاً : يا ربِّ ! يا ربِّ ! ولكنَّه يأكل الحرام . . ويشرب الحرام . . ويلبس الحرام . . وقد غذي بالحرام . . ومع ذلك يدعو يورجو الإجابة !!! فكيف يستجاب له ؟ .

إنَّه لم يعرف . . ولم يسلك طريق الاستجابة والقبول . والصُّورة ههنا كانت عن طريق الوصف الذي تناول هيئته وثيابه وصوته ونداءه وتضرُّعه وطعامه وشرابه . . ويلاحظ أنَّ تكرار كلمة ( الحرام ) كان مقصوداً لإظهار مخالفات هذا الرَّجل وأنَّ الحرام كان يملأ كلَّ ذاته وكيانه .

---

(١) صحيح مسلم ٧ / ١٠٠ .





ـ عن ابن عمر قال :

كان رسول الله ﷺ إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبَّر ثلاثاً ثُمَّ قال :

« سبحان الذي سخَّر لنا هذا وما كنَّا له مقرنين[1] وإنَّا إلى ربِّنا لمنقلبون اللَّهم إنَّا نسألك في سفرنا هذا البرَّ والتَّقوى ومن العمل ما ترضى . اللَّهم هوِّن علينا سفرنا هذا واطو عنَّا بعده اللَّهم أنت الصَّاحب في السَّفر والخليفة في الأهل اللَّهم إنِّي أعوذ بك من وعثاء[2] السَّفر ، وكآبة[3] المنظر وسوء المنقلب[4] في المال والأهل » .[5]

وفي رواية ابن سرجس قال :

كان رسول الله ﷺ إذا سافر يتعوَّذ من وعثاء السَّفر وكآبة المنقلب ، والحور بعد الكور[6] ودعوة المظلوم وسوء المنظر في الأهل والمال .[7]

ـ وعن أبي هريرة قال : كان النَّبي ﷺ إذا سافر قال :

« اللَّهم أنت الصَّاحب في السَّفر ، والخليفة في الأهل ، اللَّهم إنِّي أعوذ بك من وعثاء السَّفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال . اللَّهم اطو لنا الأرض وهوِّن علينا السَّفر » .[8]

---

(١) مقرنين : أي مطيقين ، أيْ ماكنا نطيق قهره واستعماله لولا تسخير الله إيَّاه لنا .
(٢) الوعثاء : المشقة والشِّدة .
(٣) الكآبة : تغيرُّ النَّفس من حزن ونحوه .
(٤) المنقلب : المرجع .
(٥) صحيح مسلم ٩ / ١١٠ .
(٦) الحور بعد الكور : الرُّجوع من الاستقامة أو الزِّيادة إلى النَّقص . قالوا ورواية الرَّاء ـ مأخوذة من تكوير العمامة وهو لفها وجمعها ، ومعناه أعوذ بك من الرجوع عن الجماعة بعد أن كنّا فيها . يقال : كار عمامته إذا لفها . وحارها إذا نقضها وقيل : نعوذ بك من أن تفسد أمورنا بعد صلاحها كفساد العمامة بعد استقامتها على الرأس .
(٧) صحيح مسلم ٩ / ١١١ .
(٨) أبو داود ٣ / ٤٦ .



دعاء السفر هذا دعاء جميل جامع ، يربط المرء بالله ، ويذكِّره بالقيم العليا التي في الدِّين . . يطلب الإنسان فيه من ربِّه أنْ يحفظه في شؤون دينه ودنياه في سفره ، وأنْ يحفظ ما ترك من أهل ومال .

وفي الدُّعاء تنزيه لله وثناء عليه وشكر له . والصُّورة الجميلة التِّي تضمَّنها هذا الدُّعاء هي صورة طي الأرض أو البعد .

( اللَّهم اطو لنا الأرض ) أو ( واطو عنَّا بعده ) .

وهذه الصُّورة يبدو أنهَّا أصبحت في الشِّعر شائعة . من ذلك قول عمر بن الفارض :

سائق الأظعان يطوي البيد طي منعماً عرج على كثبان طي

وفي الحديث تعوذ من الحور بعد الكور . والصُّورة مأخوذة من عادة اجتماعية وهي كور العمامة أي لفُّها وجمعها . والحور هو نقضها .

ـ عن البراء بن عازب قال قال رسول الله ﷺ :

« إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصَّلاة ، ثُمَّ اضطجع على شقك الأيمن ، ثُمَّ قل : اللَّهم أسلمت نفسي إليك ، ووجهَّت وجهي إليك وألجأت ظهري إليك وفوضَّت أمري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلاَّ إليك آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيِّك الذي أرسلت » .[1]

دعاء جميل يؤدِّي لحناً موسيقياً هادئاً يناسب حالة النَّوم ، لأنَّه يريح الأعصاب ويهيِّىء المرء للاستغراق في نوم لذيذ عميق .

والصُّورة الأُولى التي نودُّ أنْ نتأملَّها ونقف عندها قليلاً هي قوله ( وألجأت ظهري إليك ) بمعنى اعتمدت عليك واستعنت بك ولجأت إليك فإذا كان النَّاس يعتمدون على بعض أصحاب الطَّاقات والإمكانات فإنَّ المسلم لا يعتمد إلاَّ على الله

(١) صحيح البخاري ١ / ٧١ و٨ / ٨٤ ط الشَّعب وصحيح مسلم ١٧ / ٣٤ وأبو داود ٤ / ٤٢٥ .





ولا يلجىء ظهره إلاَّ إليه، ويستعين به وحده. والصُّورة الثانية قوله (وجهت وجهي إليك) أي ليس لي مقصد في أعمالي كلِّها إلاَّ أنت فأنا قد وجهت وجهي إليك.

وهما صورتان ماديِّتان تعبران عن معنيين مجردين. وبعد فإنَّ الدُّعاء يحمل في طيَّاته لجوءاً إلى الله تبارك وتعالى، وتبرؤاً من الحول والقوَّة، وهذا يضفي على النَّفس لوناً من الاستقرار والطُّمأنينة.. لاسيماً أنَّ الليل مخيف وهو يخفي الويل.[1]

***

ـ عن حذيفة قال:

كان النَّبي ﷺ إذا أخذ مضجعه من اللَّيل وضع يده تحت خدِّه، ثُمَّ يقول: «اللَّهم باسمك أموت وأحيا» وإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذِّي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النُّشور».[2]

الصُّورة في هذا الحديث متأثرة بالصُّورة القرآنية التي تدعو النوم موتاً واليقظة حياة وذلك في نحو قوله تعالى﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنَّهار﴾[3] وقوله﴿ الله يتوفىَّ الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأُخرى إلى أجل مسمَّى ﴾.[4]

وهكذا نجد في الحديث أنَّ النَّوم موت واليقظة إحياء. ومن التَّناسق في الصُّورة أنْ يذكر من أوصاف الله تعالى أنَّ ( إليه النُّشور ) والنُّشور حالة تعقب الموت. وهذا من التَّناسق الرَّائع في البيان النَّبوي.

ـ عن زيد بن أرقم قال:

لا أقول لكم إلاَّ كما كان رسول الله ﷺ يقول: كان يقول: «اللَّهم إنِّي

(١) انظر دراستي لهذا الحديث في كتابي الحديث النَّبوي صـ ٩٢ ـ ٩٣ ط٣.
(٢) متفق عليه ( أخرجه مسلم في صحيحه عن البراء ١٧ / ٣٥ والبخاري في صحيحه عن حذيفة ٨ / ٨٥ وعن أبي ذر ٨ / ٨٨ ـ ٨٩ ط الشَّعب وانظر رياض الصالحين ٥٢٠ )
(٣) سورة الأنعام: ٦٠.
(٤) سورة الزُّمر: ٤٢.

أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل ، والهرم وعذاب القبر . اللَّهم آت نفسي تقواها وزكِّها أنت خير من زكاها ، أنت وليُّها ومولاها . اللَّهم إنِّي أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها » . [١]

دعاء جامع ، وهو كأكثر الأدعية المأثورة حافل بلون موسيقى أخَّاذ ، يوزِّع الإيقاع بين جمله وكلماته توزيعاً يجعل للكلام لحناً جميلاً ، وزاد السَّجع المطبوع من جمال الإيقاع وروعته .

وقد استعاذ رسول الله ﷺ في هذا الدُّعاء من الأُمور الآتية :

من العجز والكسل ، والجبن والبخل ، والهرم وعذاب القبر ومن علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ومن دعاء لا يسمع . وهذه هي العوائق السلبية التي يخشاها المسلم لأنهَّا تفسد عليه دينه ودنياه ، وتجرُّ عليه التَّعاسة والشَّقاء .

ولننظر :

إنَّ العجز عن الفعل نقص في الإنسان خارج عن إرادته وهو مؤلم ، والكسل عن فعل الخير نقص في الإنسان كسبي وهو مؤلم أيضاً . وكلٌّ من العجز والكسل يفوِّت على المرء مجالات من الخير لو عوفي منهما لأدرك كثيراً ممِّا يريد من الثَّواب والأجر .

والجبن آفة ذميمة تجعل المرء يقعد عن نصرة الحق الذي يؤمن به ، وقد يرضى لنفسه أحياناً أنْ تكون في موضع المهانة والذِّلة ، والهرم هو الذي دعاه القرآن أرذل العمر[٢] كما جاء في حديث أنس قال :

---

(١) صحيح مسلم ١٧ / ٤١ ، وقد وردت كثير من جمله في أحاديث أُخرى متفق عليها جاءت عن أكثر من صحابي .

(٢) وذلك في قوله تعالى في سورة الحج ﴿ . . ومنكم من يتوفى ومنكم من يردُّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾ ٥ سورة الحج .

كان النَّبي ﷺ يدعو بهؤلاء الدَّعوات : « اللَّهم إنِّي أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات » .[١]

إذْ يأتي الإنسان في هذه المرحلة من العمر من التَّصرُّفات ما يسيء إلى مكانته السَّابقة أو يهدمها . وعذاب القبر أمر غيبي مخيف . وكذلك فقد استعاذ ﷺ من العلم الذي لا ينفع وهو العلم الذّي لا يعمل صاحبه بمقتضاه وإنَّما يكون أفكاراً تختزن في الذِّهن وكلمات تتردَّد على أطراف اللِّسان وهو حجَّة على صاحبه يوم القيامة .

واستعاذ من القلب القاسي الذي لا يلين للموعظة ولا يخشع للذكرى . . حتَّى يصبح كالحجر أو أشدَّ قسوة كما قال تعالى :

﴿ ثُمَّ قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدُّ قسوة وإنَّ من الحجارة لما يتفجَّر منه الأنهار وإنَّ منها لما يشقَّق فيخرج منه الماء ، وإنَّ منها لما يهبط من خشية الله ﴾ .[١]

واستعاذ من النَّفس التي لا تشبع ، وهي التي تُردي صاحبها في الآخرة ، وأمَّا في الدُّنيا فإنهَّا هي سبب المشكلات والأزمات والجرائم والعقد الاجتماعية والنَّفسية وآخر ما استعاذ منه ﷺ الدَّعوة التي لا يستجاب لها . وسأل ربَّه شيئاً واحداً هو أن يؤتى نفسه تقوها وأنْ يزكيها فهو خير من زكاها .

هذا دعاؤه ومن أعاذه الله من تلك العوائق وسلك بنفسه المسلك السَّليم انتهى إلى السَّعادة التَّامة في الدُّنيا والآخرة .

والصُّورة الجميلة التِّي تطالعنا في هذا النَّص هي صورة النَّفس التي جسَّدت حتَّى غدت كأنهَّا كائن حيٌّ مستقل فهي تؤتى التَّقوى وهي تأكل وربما لا تشبع . . وكذلك فإنَّ التَّعبير عن الشَّيخوخة بأرذل العمر صورة جميلة .

---

(١) صحيح مسلم ١٧ / ٣٠ وقد ورد هذا الدعاء عن صحابة كثيرين في أحاديث متفَّق عليها .
(٢) سورة البقرة الآية ٧٤ .

ـ عن عبد الله بن أوفى ـ يحدِّث عن النَّبي ﷺ أنَّه كان يقول :

« اللَّهم لك الحمد ملء السَّماء ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد . اللَّهم طهرني بالثَّلج والبرد والماء البارد . اللَّهم طهِّرني من الذُّنوب والخطايا كما ينقَّى الثَّوب الأبيض من الوسخ».

وفي رواية « . . كما ينقَّى الثَّوب الأبيض من الدَّرن » .

وفي رواية « . . كما ينقَّى الثَّوب الأبيض من الدَّنس » .(١)

ـ قال عوف بن مالك حفظت من دعائه ﷺ في صلاة الجنازة :

« اللَّهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه ، وأكرم نزله ووسِّع مدخله ، واغسله بالماء والثَّلج والبرد ، ونقِّه من الخطايا كما نقَّيت الثَّوب الأبيض من الدَّنس وأبد له داراً خيراً من داره . . . » .(٢)

ـ عن أبي هريرة قال :

كان رسول الله ﷺ يسكت بين التَّكبير وبين القراءة إسكاته حسنة .

ـ فقلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله !! إسكاتك بين التَّكبير والقراءة . ما تقول ؟

ـ قال ﷺ : « أقول : اللَّهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب اللَّهم نقِّني من الخطايا كما ينقَّى الثَّوب الأبيض من الدَّنس اللَّهم اغسل خطاياي بالماء والثَّلج والبرد ».(٣)

دعاء جميل يدعو به رسول الله في مواضع في مفتتح صلاته . . وعندما يصلي على جنازة . . ويدعو به دعاء مطلقاً . . فيه صور فنِّية عدَّة :

---

(١) صحيح مسلم ٤ / ١٩٣ ( وط استانبول ٢ / ٤٧ ) والمسند ٤ / ٣٥٤ .
(٢) صحيح مسلم ٧ / ٣٠ والترمذي ٢ / ١٤١ .
(٣) صحيح البخاري ١ / ١٨٩ وصحيح مسلم ١٧ / ٢٨ ـ ٢٩ وأبو داود ١ / ٢٨٩ .

ـ اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، والخطايا هنا إمَّا أَنْ يراد بها الخطايا اللاَّحقة والمعنى: اللَّهم باعد بيني وبين الخطايا المقدَّرة عليَّ كما باعدت بين المشرق والمغرب، فلا أُلقاها ولا تلقاني.

وإمَّا أَنْ يراد بها الخطايا السَّابقة والمعنى عندئذ الَّلهم امح خطاياي واغفرها لي واجعل بعدها عنِّي مثل بعد المشرق عن المغرب ، فكما أنَّ التقاءهما مستحيل . . فأسألك يا ربِّ ألاَّ يبقى لها منِّي اقتراب .

وعلى المعنيين فالتعبير صورة حسيَّة وهي دليل على إيثار الصُّورة المجسَّدة لتأدية المعنى المجرَّد .

ـ اللهم نقِّني من الخطايا كما ينقَّى الثَّوب الأبيض من الدَّنس . الثَّوب الأبيض يظهر وسخه بكلِّ وضوح . . إذْ يبدو القليل من الدَّنس فيه كأنَّه شيء كثير .

من أجل ذلك يبالغ من يغسل الثَّوب الأبيض لينقَّى من الدَّنس فهو ههنا يطلب من ربِّه ألاَّ يدع له خطيئة إلاَّ ويغفرها له .

واللَّهم اغسل خطاياي بالماء والثَّلج والبرد .

دعاء فيه مزيد تأكيد لطلب المغفرة فقد عبَّر بذلك عن غاية المحو للسيئات والمغفرة للذنوب ، فإنَّ الثَّوب إذا تكرَّر عليه ثلاثة أشياء منقِّية كان في غاية النَّقاء .

وقد ذكر العلماء نكتاً جميلة تكمن وراء استعمال الثَّلج والبرد فمن ذلك أنَّهما ماءان لم تمسهما الأيدي ولم يمتهنهما الاستعمال ومن ذلك مراعاة البرودة فيهما التي تضادُّ ما يرافق العذاب من الحرارة المرتفعة ، فكأنَّه جعل الخطايا بمنزلة جهنَّم لكونها مسبَّبة عنها ، فعبَّر عن إطفاء حرارتها بالغسل وبالغ فيه استعمال المبردات ومهما يكن من أمر فإنَّ الصُّور الثَّلاث تحوم حول معنى واحد هو طلب المغفرة والرَّحمة من الله تبارك وتعالى ولكن هذا المعنى عرض من خلال هذه الصُّور الحسيِّة الملموسة .

وفي حديث ابن أبي أوفى صورة أُخرى وهي : «الَّلهم لك الحمد ملءَ السَّموات وملءَ الأَرض وملءَ ما شئت من شيء بعد » .



وفي حديث عوف صورة أُخرى هي : ( أكرم نزله ) ولنا أنْ نفهمها أنَّ المراد أكرم من يحلُّ هذا المنزل، ولنا أنْ نفهمها أنَّ النُزل قد شخِّص وهو عندئذٍ أهل للإكرام وفي الحالين صورة واضحة.

وصورة أُخرى في قوله ( وسَّع مدخله ) إذ في الجملة كناية عن إكرامه وطلب مجافاة الأرض عن جنبيه .

***

ـ عن عليٍّ قال، قال لي رسول الله ﷺ :

« قل : اللَّهم اهدني وسدِّدني . واذكر بالهدى هدايتك الطَّريق ، والسَّداد سداد السَّهم » .[1]

قال النَّووي : ( أمَّا السَّداد هنا بفتح السِّين ، وسداد السَّهم تقويمه ، ومعنى سدِّدني وفقِّني واجعلني منتصباً في جميع أُموري مستقيماً . وأصل السَّداد الاستقامة والقصد في الأمور .

وأمَّا الهدى هنا فهو الرَّشاد ، ويذكَّر ويؤنَّث ، ومعنى ( أذكر بالهدى هدايتك الطَّريق والسَّداد سداد السَّهم ) أيْ تذكَّر ذلك في حال دعائك بهذين اللفظين ، لأنَّ هادي الطَّريق لا يزيغ عنه ، ومسدِّد السَّهم يحرص على تقويمه ولا يستقيم رميه حتَّى يقوِّمه .

وكذا الدَّاعي ينبغي أنْ يحرص على تسديد علمه وتقويمه ولزومه السنَّة .

وقيل ليتذكَّر بهذا لفظ السَّداد والهدى لئلاَّ ينساه ) .[2]

إنَّني أجد في هذا الحديث حرص الرَّسول ﷺ على ردِّ النَّاس إلى الصُّور التي كانت تدلُّ عليها هذه الألفاظ في أوَّل الأمر حرصاً منه ﷺ على فهم المعنى

(١) صحيح مسلم ١٧ / ٤٣ .
(٢) شرح مسلم للنووي ١٧ / ٤٣ ـ ٤٤ .





وتمثُّله على أفضل وجه ، ذلك لأنَّ كثيراً من الكلمات التي تدلُّ على معان مجرَّدة كانت في الأصل تدلُّ على أمور حسيَّة ولكنَّ كثرة الاستعمال جعلت دلالتها على المعاني تتمُّ بشكلٍ مباشر .

وإدراك النَّاس للمعاني التَّجريدية أصعب من إدراكهم للأمور الحسيَّة التِّي ترتبط في أذهان النَّاس بصور ملموسة محسَّة ، ومن ذلك كلمتا ( الهداية ) و ( التَّسديد ) .

***

- عن أبي هريرة عن النَّبي ﷺ قال :

« اللَّهم ربَّ السَّموات وربَّ الأرضين . وربَّ العرش العظيم ربَّنا وربَّ كل شيء ، فالق الحبِّ والنوى ومنزل التَّوراة والإنجيل والفرقان . أعوذ بك من شرِّ كلِّ شيء أنت آخذ بناصيته » .

وفي رواية : « . . . من شرِّ كلِّ دابَّة أنت آخذ بناصيتها » .[1]

هذا الدُّعاء استعاذة سبقت بنداءات سبعة جاءت في مطلع الحديث وتتضمَّن الثَّناء على الله .

وقد اختار رسول الله ﷺ فيها من أوصاف الله تعالى ما يدلُّ على أمور ثلاثة هي : عظمة الله ، ودقَّة صنعه ، وهدايته ليستدرَّ الدَّاعي استجابة الله للدُّعاء .

والصُّورة التِّي في الحديث هي ( أعوذ بك من شرِّ كلِّ شيء أو دابَّة - أنت آخذ بناصيته - أو بناصيتها ) .

يريد : أعوذ بك من كلِّ المخلوقات لأنَّها كلَّها في سلطانه وهو آخذ بنواصيها .

والفرق كبير بين تعبيرنا عن المخلوقات باللفظ الصرَّيح والإتيان بهذه الصُّورة .

---

(١) صحيح مسلم ١٧ / ٣٦ .



وهناك تناسق بين تلك النِّداءات وبين هذه الصُّورة فالله ربُّ السَّموات وربُّ الأرضين وربُّ العرش العظيم ، إنَّ الأشياء الضَّخمة العظيمة ـ ممَّا نرى بعضها ونجهل أكثرها ـ ربهُّا الله . . إنَّ قوَّته جلَّ وعزَّ لا تقف أمامها قوَّة ، وإذا كان ذلك كذلك فإنَّه قادر على أن يعيذني من شرُّ مخلوقات هي في سلطانه وهو آخذ بنواصيها .

***

ـ عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

« اللَّهم إنِّي أعوذ بك من الجوع فإنَّه بئس الضَّجيع وأعوذ بك من الخيانة فإنهَّا بئست البطانة » .[1]

الجوع ضجيع ما أسوأه من ضجيع ، إنَّه ينام مع الإنسان وإذا كان الضَّجيع سيئاً فإنَّه ينغِّص على المرء حياته ويستأصل سعادته ، يكره حركاته المزعجة ، وروائحه المنكرة ، وتصرُّفاته المخيفة . . . إنَّه لا يستمتع ولا يطمئن ولا يأمن . وهكذا الجوع .

والخيانة بطانةوبئست البطانة ، وهي ما تكون في الثَّوب من الدَّاخل وهي عكس الظُّهارة ، وعندما تكون البطانة سيئة خشنة فإنَّ إساءتها للمرء تكون مستمرَّة وشديدة ، إنَّ الخائن لا بدَّ أنْ يحسَّ بوخز في داخله . . . . وإنْ لم يحسَّ فإنَّه بالنسبة لصاحبه الذي يأمنه عنصر إساءة وإيذاء .

وقد استعاذ الرَّسول ﷺ منهما .

***

ـ عن أبي هريرة قال : كان النَّبي ﷺ يدعو في القنوت :
« اللَّهم اشدد وطأتك على مضر . اللَّهم اجعلها سنين كسنِّي يوسف» .[2]

(١) أبو داود ٢ / ١٢٢

(٢) صحيح البخاري ٢ / ٣٣ ط الشَّعب ، كتاب الصَّلاة باب دعاء النبي اجعلها عليهم سنين كسنِّي يوسف .





هذه الصُّورة تعتمد على الآية القرآنية ﴿ ثُمَّ يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكُلْنَ ما قدَّمتم لهن إلاَّ قليلاً مِمَّا تحصنون ﴾ ،[1] يدعو عليهم بالمجاعة تشبه المجاعة المعروفة في قصَّة يوسف . . . فهو يدعو عليهم بالسنين التي تشبه السنين الشِّداد السَّبع التي جاءت على أهل مصر أيام يوسف عليه السَّلام .

وفي قوله ( اشدد وطأتك ) صورة شديدة التَّعبير في التَّضييق عليهم .

ـ عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

«رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلِّ عليَّ» .[2]

يدعو ﷺ بالذُّل على من لم يصلِّ عليه عناداً واستكباراً عندما يذكر عنده . وآثر أنْ يكون الدُّعاء عن طريق هذه الصُّورة ( رغم أنفه ) والتَّناسق بين الاستكبار الذي حمله على عدم الصَّلاة عليه وبين المصير الذي ينتظره بالذُّل واضح .

ـ عن ابن عمر قال : قلَّما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتَّى يدعو بهؤلاء الدَّعوات :

« اللهمَّ اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ومن طاعتك ما تبلِّغنا به جنَّتك ، ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصائب الدُّنيا .

الَّلهم متِّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوَّتنا ما أحيَيْتنا ، واجعله الوارث منَّا . واجعل ثأرنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدُّنيا أكبر همِّنا ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلِّط علينا من لا يرحمنا»[3]

دعوات كان رسول الله ﷺ يكثر من ترديدها حتَّى قلَّما كان يقوم من مجلس دون أنْ يدعو بها . ومن شأنه ﷺ في الدُّعاء أنَّه يحبُّ الجوامع من الدُّعاء ، كما نراه في هذا الحديث .

---

(١) سورة يوسف : ٤٨ .

(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن ، انظر رياض الصالحين ٧٦٢ .

(٣) رواه التِّرمذي وقال : حديث حسن ، انظر رياض الصَّالحين ٥٢٦ .



إذْ يسأل ربَّه تبارك وتعالى خشيته وطاعته واليقين ، ويسأله قدراً معيَّناً من كلٍّ من هذه الأُمور . . . فهو يسأله أَنْ يهب له من خشيته ما يحول به بين المعاصي وبينه . . . إنَّ الَّذين يجترئون على ارتكاب المخالفات الشرَّعية قوم ضعفت خشيتهم من الله . ولو كانوا يخافونه حقَّ الخوف لما أَقدموا على ارتكابها .

ولقد قرَّر القرآن الكريم أَنَّ الخوف من الله منزلة تبوِّىء صاحبها الأمن يوم القيامة وتحلُّه الجنَّة وتجلب له المغفرة والأَجر الكريم ، قال تعالى :

﴿ ولمن خاف مقام ربِّه جنَّتان﴾[1]، وقال: ﴿ إنمَّا تنذر من اتّبع الذكر وخشي الرَّحمن بالغيب فبشِّره بمغفرة وأُجر كريم﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿ وأمَّا من خاف مقام ربِّه ونهى النَّفس عن الهوى فإنَّ الجنَّة هي المأوى﴾[3]. . . ونحن نرى في الحياة نفراً ممِّن يخافون قوَّة معيَّنة لا يقدمون على فعل أَمر منعته وهذه القوَّة البشريَّة قوَّة محدودة بالزَّمن القصير ، والمكان اليسير ، والطَّاقة الهزيلة . . . فكيف بمن يخشى ملك الملوك جبَّار السَّموات والأَرض ؟ إنَّ هذه الخشية ستكون حائلاً بينه وبين المعاصي دون شك .

ويسأل رسول الله ﷺ ربَّه أَنْ يقسم له من طاعته ما يبلِّغه الجنَّة ، وهذا الأَمر الثَّاني متلازم مع الأَمر الأَوَّل « الكفُّ عن المعصية وفعل الطَّاعة » وهما معاً ينتهيان بصاحبهما إلى الجنَّة .

ويدعو رسول الله ﷺ ربَّه أَنْ يمنحه من اليقين ما يهون عليه مصائب الدُّنيا :

اليقين بأَنَّ ما قدَّر الله كائن لا محالة ، وأَنَّ الأُمَّة لو اجتمعت على أَنْ يضرُّوا أَحداً من النَّاس لم يضرُّوه إلاَّ بشيء قد كتبه الله عليه ، رفعت الأَقلام وجفَّت الصُّحف . . . . فمن رضي فله الرِّضى ومن سخط فعليه السخط .

ثُمَّ يدعو الله أَنْ يمتِّعه بسمعه وبصره وقوَّته مدَّة حياته وأَنْ يجعل هذه الأَعضاء

---

(١) سورة الرَّحمن : ٤٦ .
(٢) سورة يس : ١١ .
(٣) سورة النَّازعات : ٤٠





سليمة حتَّى موته، وبذلك تكون وارثة منه . . . وإنهًا لنعمة عظمى أَنْ يستمتع المرء بسمعه وبصره وقوَّته مدَّة حياته ، وأَنْ لا يرث هو شيئاً من هذه النِّعم بل تكون هي الَّتي ترث منه .

وبقية الحديث دعاء بأُمور مهمَّة وهي :

- الانتصاف من الظَّالم والتَّغلب عليه .
- والتَّحرُّر من سلطان الدُّنيا حتَّى لا تكون أَكبر همِّنا ولا مبلغ علمنا .
- والنَّجاة من تسلُّط الَّذين لا يرحمون، وتنطبق هذه الدَّعوة على كلٍّ من له سلطة على الإنسان ويدخل فيها الحكَّام الجائرون .
- وأَنْ لا تكون المصيبة في الدين .

والصُّور في الحديث متعدِّدة :

- فخشية الله حائل دون المعصية ، تمنع صاحبها من اقتراف الإثم .
- وطاعة الله تبدو وكأَنهًا كائن حيّ تبلِّغ من تمسك بيده وتقوده إلى الجنَّة .
- واليقين يهوِّن على الإنسان مصائب الدنيا ببراعة وإقناع . . . كأَنَّه إنسان . . .
- والأسماع والأبصار والقوَّة وارثون يموت مورِّثها قبلها فترثه .
- والدُّنيا قد تكون أَكبر همٍّ للإنسان ، فلا يفكِّر في غيرها ولا تتطلَّع نفسه إلى سواها ، ويكون ـ عندئذ ـ قد هبط بنفسه إلى مستوى منحط .

وقد تكون مبلغ علم الإنسان فلا يعلم شيئاً في غير دائرتها ، ويكون ـ عندئذٍ ـ قد أضاع على نفسه كثيراً من الحقائق ومجالات الخير . . . . وتكون خسارته كبيرة جداً .

وهكذا فإنَّ النَّص مزدحم بهذه الصُّور الَّتي تبرز المعنى المجرَّد كائنات حيَّة ، تحول وتبلِّغ وتقنع وترث وما إلى ذلك من صفات الأَحياء .

**

ونختم هذا الفصل بذكر ما جاء في قراءة القرآن ، لأَنَّ تلاوته من أَفضل الأَذكار :




ـ عن أبي موسى عن النّبي ﷺ قال :

« مثل المؤمن الّذي يقرأ القرآن مثل الأُترجّة : ريحها طيِّب وطعمها طيِّب . ومثل المؤمن الّذي لا يقرأ القرآن مثل التّمرة : لا ريح لها وطعمها حلو . ومثل المنافق الّذي يقرأ القرآن مثل الرّيحانة : ريحها طيِّب وطعمها مرٌّ ، ومثل المنافق الّذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة : ليس لها ريح وطعمها مرّ »(١)

تمثيل موفّق لنموذجين من المؤمنين ونموذجين من المنافقين، وهذا التّقسيم مبنيٌّ على موقف الإنسان من تلاوة القرآن .

فالمؤمن حلوٌ على أيّة حال ، لكنّه يجمع مع الحلاوة الرِّيح الطّيِّب إنْ كان قارئاً لكتاب الله .

والمنافق مرٌّ على أيّة حال ، لكنْ قد يجمع مع المرارة الرِّيح الطيِّب إنْ كان يقرأ القرآن .

وهذه الصُّور معتمدة على معرفة بأنواع النّباتات والثّمار الموجودة في البيئة العربيّة وهي تساعد على مزيد التّذوّق والفهم لحالة كلٍّ من المؤمن والمنافق .

*

ـ وعن ابن عبّاس قال ، قال رسول الله ﷺ :

« إنَّ الّذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب »(٢)

قراءة القرآن تشبه الرِّيح الطيِّب . . . أمّا الجوف الّذي ليس فيه شيء من القرآن فهو كالبيت الخرب ، ويعني بذلك عدم حفظ الإنسان لشيء من آيات القرآن .

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٣٥ ط الشّعب كتاب التّفسير باب فضل القرآن على سائر الكلام ، وصحيح مسلم ٦/ ٨٣ ـ ٨٤ ( وفي ط . استانبول ٢/ ١٩٤ ) .

(٢) رواه التّرمذي ٤/ ٥٤ وقال : حديث حسن صحيح ، وانظر رياض الصّالحين ٥٩٨ .





ففي النَّص صورتان :

**أُولاهما : الجوف الَّذي ليس فيه شيء من القرآن ، وهي كناية عن عدم حفظ شيء من القرآن .**

**وثانيتهما : الجوف هذا كالبيت الخرب .**

*

ـ عن أَبي هريرة عن النَّبي ﷺ قال :

« من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدُّنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة .
ومن يسرَّ على معسر يسرَّ الله عليه في الدُّنيا والآخرة .
ومن ستر مسلماً ستره الله في الدُّنيا والآخرة .
والله في عون العبد ما كان العبد في عون أَخيه .
ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنَّة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلاَّ نزلت عليهم السَّكينة وغشيتهم الرَّحمة وحفَّتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده . ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه »[1]

في هذا النَّص موضوعات أَربعة :

(١) قضاء حوائج المسلمين ، وذكر الثَّواب الَّذي أَعده الله لمن يقوم بذلك وإيراد بعض الحالات كالتَّيسير على المعسر وستر المسلم وإعانته .

(٢) طلب العلم ، وذكر أنَّ طريق العلم ينتهي بسالكه إلى الجنَّة ، ويلفت النَّظر هذا التَّقابل بين طريق طلب العلم وطريق الجنَّة .

(٣) فضل قراءة القرآن ، وقد عرض الحديث هذا الموضوع على هيئة ذكر واقع لقوم والثَّواب الَّذي أَعدَّه الله لهم :

---

(١) صحيح مسلم ١٧/ ٢١ ـ ٢٢ وأبو داود ٢/ ٩٥ وانظر رياض الصَّالحين ٢١٢ .

« وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلاّ نزلت عليهم السّكينة وغشيتهم الرّحمة وحفّتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » .

أمّا واقعهم فهو أنهّم اجتمعوا في المسجد لتلاوة القرآن وتدارسه بينهم ، وأمّا الثّواب فقد تمثّل بمكافآت سخيّة عديدة فيها إكرام جليل من الله : من نزول السّكينة ، وغشيان الرّحمة ، وحفّ الملائكة ، وذكر لهم من قبل الله جل جلاله في الملأ الأعلى .

فكأنّ الرّحمة شيء ماديّ يغطيهم . وذكر الله لهم فيمن عنده كناية عن الثّناء عليهم .

(٤) العمل مركوب . . . يركبه صاحبه يوم القيامة ، فمن بطأ به عمله في ذاك اليوم العصيب لم يستطع نسبه أنْ يفعل شيئاً . . . لأنّ الّذي يقدم المرء ويؤخره يوم القيامة إنمّا هو عمله .

**

ـ عن أبي أمامة الباهلي قال : سمعت رسول الله ﷺ فيقول :

« اقرؤوا القرآن ، فإنّه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه .

اقرؤوا الزّهراوين : البقرة وآل عمران ، فإنهّما تأتيان يوم القيامة كأنهّما غمامتان أوْ كأنهّما غيايتان [١] ـ أو كأنهّما فرقان[٢] من طير صوّاف تحاجّان عن أصحابهما . اقرؤوا سورة البقرة ، فإنّ أخذها بركة وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة » .

---

(١) الغمامة والغياية : كلّ شيء أظلّ الإنسان فوق رأسه من سحابة وغيرها قال العلماء : والمراد أنّ ثوابهما يأتي كغمامتين .

(٢) فرقان « وفي رواية : حزقان » ومعناهما واحد ، وهما قطيعان وجماعتان ، يقال في الواحد : فرق وحزق وحزيقه ، أيْ جماعة .

قال معاوية ـ أحد رواة الحديث ـ بلغني أَنَّ البطلة السَّحرة[1] .

ـ وعن النواس بن سمعان قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأَهله الَّذين كانوا يعملون به تقدمهم سورة البقرة وآل عمران » .

وضرب لها رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد : قال : « كأَنَّهما غمامَتان ، أَو ظلَّتان سوداوان بينهما شرق ، أَوْ كأَنَّهما حزقان من طير صوّاف ، تحاجّان عن صاحبهما »[2] .

صور غيبيَّة تقرِّر فضل قراءة القرآن.

في يوم القيامة . . في ذاك اليوم العصيب الَّذي يحتاج المرء إلى الشَّفيع يأتي القرآن شفيعاً لأصحابه . . . من أَجل ذلك كان أَمره ﷺ أَنْ « اقرؤوا القرآن » .

وفي حديث النَّواس إشارة إلى أَنَّ أَصحاب القرآن الَّذين يكون لهم مثل هذا الفضل العظيم هم الَّذين يعملون به . وهذه الإِشارة مهمة لأَنهَّا تحدِّد صفة من صفات النَّاس الَّذين يشفع لهم القرآن لا بدَّ منها . . . فالتِّلاوة وحدها لا تكفي . . . ثُمَّ خصَّ رسول الله ﷺ سورتي البقرة وآل عمران بفضيلة تدعو إلى أَنْ يكثر المرء من قراءتهما ، فدعاهما الزَّهراوين وفي ذلك صورة محبَّبة ، ثُمَّ ضرب لهما ثلاثة أَمثال في مجيئهما يوم القيامة فهما تأتيان :

ـ كأَنهَّما غمامتان .
ـ أَو كأَنهَّما ظلَّتان ،
ـ أَو كأَنهَّما جماعتان من الطَّير الصَّوافَّ .

تأتيان بصورة من هذه الصُّور المتقاربة تحاجَّان عن أَصحابها تبتغي لهم الشَّفاعة .

---

(١) صحيح مسلم ٦/ ٨٩ ـ ٩٠ وانظر رياض الصَّالحين ٥٩٥ .

(٢) صحيح مسلم ٥/ ٩٠ ـ ٩١ ومسند أحمد ٤/ ١٨٣ وانظر رياض الصَّالحين ٥٩٦ .

ثُمَّ عاد مرَّة أُخرى يخصُّ البقرة بأَنَّ أَخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها السَّحرة . وهذا يقرِّر فضلها العظيم وليس من شكٍّ في أَنَّ ضرب أَمثال ثلاثة لأَمر واحد يدلُّ على غزارة الخيال المصوِّر كما يدلُّ على أَهميَّة هذا الَّذي تضرب له هذه الأَمثال .

*

ـ عن عبد الله قال ، قال رسول الله ﷺ :

« بئسما لأَحدهم يقول : نسيت آية كيت وكيت . بل هو نُسِّـي . استذكروا القرآن . فلهو أَشدُّ تفصِّياً[1] من صدور الرِّجال من النَّعم بعقلها »[2] .

ـ وعن ابن عمر أَنَّ رسول الله ﷺ قال :

« إنَّما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإِبل المعلَّقة . إنْ عاهد عليها أَمسكها ، وإنْ أَطلقها ذهبت »[3] .

ـ وعن أَبي موسى قال ، قال رسول الله ﷺ :

« تعاهدوا هذا القرآن . فوالَّذي نفس محمَّد بيده لهو أَشدُّ تفلُّتاً من الإِبل في عقلها »[4] .

هذه الرِّوايات تتضمَّن أَمرين اثنين :

أَوَّلهما : التَّأَدُّب مع القرآن في استعمال الأَلفاظ الَّتي قد تستعمل في سواه من غير حرج ، فلا يليق أَنْ يقول المرء ( نسيت ) بل عليه أَنْ يقول (نُسِّيتُ) .

---

(١) التَّفصِّي : الانفصال والتَّفلُّت .

(٢) صحيح البخاري ٦/ ٢٣٨ط الشَّعب كتاب التَّفسير باب استذكار القرآن وتعاهده وصحيح مسلم ٥/ ٧٦ ـ ٧٧ ومسند أحمد ٧/ ٧٤ط أحمد شاكر .

(٣) صحيح البخاري ٦/ ٢٣٧ ط الشعب (باب استذكار القرآن وتعاهده )، وصحيح مسلم ٦/ ٧٥ ومسند أحمد ٧/ ٧٤ ط أحمد شاكر.

(٤) متَّفق عليه (صحيح البخاري ٦/ ٢٣٨ط الشَّعب وانظر رياض الصَّالحين ٥٩٩ ) .

وثانيهما : ـ وهو المقصود ـ الأمر بتعهُّد القرآن، لأنَّه يسرع في التَّفلُّت من الصدور ولا بدَّ للّحافظ من استذكاره وتعهده بالتِّلاوة ، وإلاَّ تفصَّى منه فهو أَشدُّ تفلُّتاً من الإبل .

قال صاحب « أَقيسة النَّبي » :

« وإنمَّا ضرب رسول الله ﷺ المثل بالإبل دون غيرها من الخيل والحمير والبغال ، وإنْ كانت إذا لم تربط ذهبت وشردت ، لِمَا بين القرآن والإبل من التناسب : ومن ذلك أنَّ الإبل تنقاد مع الضَّعيف والقويّ ، والصَّغير والكبير ، والذَّكر والأُنثى ،مع شدَّة قوَّتها وعظم خلقها ، والقرآن مع علوِّ قدره، وجلالة أمره وعجز الخلق عن الإتيان بمثله ميسرٌ منقاد للضعيف والقوي ، والصَّغير والكبير ، والذَّكر والأُنثى .

ـ ومن ذلك أَنَّ الإبل تحمل الثِّقل .

والقرآن يحمل أثقال المذنبين ، فبكلِّ حرف منه عشر حسنات ، كلُّ حسنة تكفِّر سيئَة .

ـ ومن ذلك أَنَّ الإبل هي المعدَّة لحمل الَّذين يؤمُّون البيت الحرام وحمل أثقالهم قال الله تعالى ﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلاَّ بشقِّ الأَنفس ﴾[1] .
والقرآن العظيم بقراءة العبد له ، يناجي ربَّه عزَّ وجلَّ .

ومن ذلك أَنَّها ـ أَي الإبل ـ أَعون شيء إلى إيصال العبد إلى بيت ربِّه عزَّ وجلَّ .

والقرآن بتلاوته يحصل للعبد القرب والمناجاة للَّرب جلَّ وعلاَ . والله عزَّ وجلَّ ضرب المثل بالإبل فقال :

﴿ أَفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾[2]

فاقتدى رسول الله ﷺ بربِّه في ضرب المثل وقال رسول الله ﷺ :

---

(١) سورة النّحل : ٧

(٢) سورة الغاشية : ١٧

«للقرآن أَشدُّ تفلّتاً من صدور الرِّجال من الإبل من عقلها»[1] .

*

ـ عن النَّواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال :

« ضرب الله مثلا : صراطاً مستقيماً ، وعلى جنبتي الصرِّاط سوران فيهما أبواب مفتَّحة ، وعلى الأَبـواب سـتـور مرخـاة ، وعلى باب الصرِّاط داع يقـول : يا أَيـُّهـا النَّاس : ادخلوا الصرِّاط جميعاً ولا تتعوَّجوا وداع يدعو من فوق الصرِّاط ، فإذا أراد الإِنسان أنْ يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال :

ويحك لا تفتحه ، فإنَّك إنْ تفتحه تلجه . فالصرِّاط الإِسـلام ، والسُّـوران حدود الله ، والأَبواب المفَتَّحة محارم الله ، وذلك الدَّاعي على رأس الصرِّاط كتاب الله عزَّ وجلَّ ، والدَّاعي فوق الصرِّاط واعظ الله في قلب كلِّ مسلم»[2]

الحديث نبوّي في ظاهره ، ولكنَّه في الحقيقة حديث قدسّي ، لأَنَّ رسول الله ﷺ ينسب هذا المثل إلى الله تبارك وتعالى فيقول : « ضرب الله مثلاً » . والمثل صورة مركبة تمثِّل لنا طريق الحقِّ والهداية ، ومزالق المعاصي والغواية . وتدلُّ هذه الصُّورة على أنَّ طريق الإسلام طريق مستقيم لا عوج فيه ولا التواء ، وهـو ميسرٌ لمن أراد السُّلوك .

ولتقوم الحجّة على النَّاس كان القرآن الكريم ناطقاً يدعو النَّـاس جميعـاً إلى سلوك الصرِّاط المستقيم ، وأقام الله في نفس كلِّ مسلم وازعاً يذكِّره بالخير وواعظاً يحذِّره مغبَّة الانزلاق والانحراف .

وتدلُّ هذه الصُّورة المركبَّة على أنَّ طريق الغواية خطيرة جدًّا وأَنَّ الخطوة الأُولى هي أخطر الخطوات في الطَّريق لأنهَّا تقود صاحبها إلى الهلاك وتورِّطه فلا يهون عليه التراجع . . . . إنَّ سرقة البيضة تؤدِّي إلى سرقة الكنـوز . . . وإنَّ الـكأس الأُولى تجعل من صاحبها مدمناً ، ولننظـر في معالـم هذه الصُّورة الرَّائعة :

---

(١) أقيسة النَّبي ١٦٨ .

(٢) مسند أحمد ٤/ ١٨٢ ـ ١٨٣ ، الترمذي ٤/ ٣٥ والحاكم وانظر صحيح الجامع الصَّغير ٤/ ٤ وأقيسة النَّبي ٢٠١ .

هناك طريق مستقيم ، وعلى جانبيه سوران ، وفي هذين السُّورين أبواب مفتَّحة عليها ستور مرخاة . وهناك داعيان أحدهما يقف على رأس الطَّريق إنَّه كتاب الله عزَّ وجلَّ يدعو ويقول : يا أيُّها النَّاس : ادخلوا الصِّراط جميعاً ولا تتعوَّجوا . دعوة إلى الإسلام عامَّة للخلق كلّهم بلا استثناء وكانت الدَّعوة هنا أمراً بدخول الصِّراط ، وعدم الانحراف يميناً أو يساراً .

وواضح أنَّ التَّعبير هنا يؤثر النَّاحية الحسيَّة البحتة .

إنَّه أمر ونهي : أمر بالدُّخول ، ونهي عن الانحراف . والحياة ابتلاء ليظهر فيها الخير والشرُّ . . . .

والدَّاعي الثَّاني يدعو من فوق الصِّراط . . . إنَّه واعظ الله في قلب المسلم يقول لمن يريد أنْ ينحرف ويرفع السِّتار عن أحد الأبواب المفتَّحة في الجانبين يقول له : ويحك لا تفتحه فإنَّك إنْ تفتحه تلجه ، إنَّ فيه إغراء وجذباً وإنَّ الخطوة الأُولى تقود إلى خطوات . ومن دخل باباً أوغل في الانحراف والانزلاق . . . وهكذا يتعاون كتاب الله وواعظ الله في قلب المسلم على البيان والتَّحذير .

***

ـ قال عمر بن الخطَّاب :

وجئت رسول الله ﷺ فسلَّمت عليه فقال :

«لقد أُنزلت عليَّ اللَّيلة سورة، لهي أحبُّ إليَّ ممَّا طلعت عليه الشَّمس» ثُمَّ قرأ ﴿ إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ .[1]

سورة الفتح أحبُّ إلى رسول الله ﷺ من الدُّنيا كلِّها . والتَّعبير عن الدُّنيا كان بقوله ( أحب إليَّ ممَّا طلعت عليه الشَّمس ) ، وهي صورة . والصُّورة الأُخرى الموازنة بين الدُّنيا وبين هذه السُّورة .

ـ عن عقبة بن عامر الجهني قال :

---

(١) صحيح البخاري ٥ / ١٦٠ ـ ١٦١ ط الشَّعب باب غزوة الحديبية ، أقيسة النَّبي ١١٦ .

خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في الصُّفة فقال :

« أيُّكم يحبُّ أن يغدو كلَّ يوم إلى بطحان - أو إلى العقيق -[1] فيأتي منه بناقتين كوماوين[2] في غير إثم ولا قطع رحم ؟ »
فقلنا : كلُّنا يا رسول الله نحبُّ ذلك .

قال ﷺ : فلأن يغدو أحدكم إلى المسجد فيتعلَّم - أو يقرأ - آيتين من كتاب الله عزَّ وجلَّ خير له من ناقتين ، وثلاث خير له من ثلاث ، وأربع خير له من أربع ، ومن أعدادهن من الإبل » .[3]

- عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« أيحبُّ أحدكم إذا رجع إلى أهله أنْ يجد فيه ثلاث خلفات[4] عظام سمان ؟ »

قلنا : نعم .
قال : « فثلاث آيات يقرأ بهنَّ أحدكم في مُصلاَّه خير له من ثلاث خلفات سمان » .[5]

حديثان في فضل القرآن وتلاوة آياته وتعلُّمها . . . يوازن الرَّسول ﷺ بين أمر واضح نفعه للناس ، وأمر آخر لا يعرف نفعه إلاَّ الخاصَّة أولو الألباب .

وفي كلٍّ من الحديثين حوار سبق تقرير هذه الحقيقة وكان تمهيداً جيِّداً لذلك .

- ففي حديث عقبة سألهم ﷺ : أيُّكم يحبُّ أن يغدو إلى مكان قريب من المدينة ، ويأتي منه بناقتين سمينتين ضخمتين مكتنزتين باللَّحم والشَّحم من طريق حلال لا إثم فيه ولا قطع رحم ، وكان الجواب كلُّنا نحبُّ ذلك .

---

(١) بطحان والعقيق موضعان .
(٢) الكوماء : الناقة العظيمة السَّنام .
(٣) صحيح مسلم ٦ / ٨٩ ، وأبو داود ٢ / ٩٦ .
(٤) الخلفات : ( بفتح الخاء وكسر اللام ) : الحوامل من الإبل ، إلى أن يمضي عليها نصف أمدها ثُمَّ هي عشار ، والواحدة خلفه وعشراء .
(٥) صحيح مسلم ٦ / ٨٩ .





ـ وفي حديث أبي هريرة سألهم : أيحبُّ أحدكم إذا رجع إلى أهله أنْ يجد في بيته ثلاث نوق حوامل سمان ، وكان الجواب: نعم ، فقرَّر ﷺ أنَّ القرآن وقراءته خير للمرء من كلٍّ هذه الأموال .

وهذا القول يطابق الحقَّ والواقع ، فإنَّ قراءة القرآن خير من هذه النُّوق لأنَّ ثواب القراءة باق ويفيد صاحبه في يوم القيامة ، أمَّا الأموال والنُّوق فهي زائلة .

هذه الموازنة استطاعت أنْ تضع الشَّيء المعنوي في محله وتنبِّه على فضله وتبيِّنُ أنَّه خير ممَّا يحسب النَّاس إنَّه شيء ثمين .

***

ـ عن عياض بن حيار المجاشعي أنَّ رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته :

« ألا إنَّ ربِّي أمرني أنْ أعلِّمكم ما جهلتم ممَّا علَّمني يومي هذا: كلُّ مال نحلته عبداً حلال ، وإنِّي خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنَّهم أتتهم الشَّياطين ، فاجتالتهم عن دينهم ، وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أنْ يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً. وإنَّ الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلاَّ بقايا من أهل الكتاب وقال :

إنَّما بعثتك لأبتليك وابتلي بك ، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء ، تقروءه نائماً ويقظان . . . » .[1]

الحديث بعضه قدسي وبعضه نبوي ، وقد امتزجا امتزاجاً. والشَّيء الذي أودُّ أنْ أعلِّق عليه من هذا الحديث هو ما يتَّصل بالقرآن وذلك قوله :

(وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء) .

يريد أنَّ هذا الكتاب خالد باق ما بقيت الدُّنيا ، محفوظ بحفظ الله . وكانت الكتب تغسل فتمحى ، لكن هذا القرآن لا يغسله الماء ، لأنَّ حفظه في الصُّدور ، وقد تكفَّل به الله العلي الأعلى .

(١) صحيح مسلم ١٧ / ١٩٨ .



- عن أبي موسى الأشعري قال ، قال لي رسول الله ﷺ :

« لو رأيتني وأنا استمع لقراءتك البارحة . لقد أُوتيت مزماراً من مزامير آل داود » .[1]

في الحديث ما يدلُّ على استحباب تحسين الصوت بالقرآن والثَّناء على صاحب الصَّوت الجميل الذي يسخره في ترتيل آيات القرآن. ونلمح منه هذه الصُّورة التي تجعل الصَّوت الحسن مزماراً من مزامير آل داود .

- عن عبادة بن الصَّامت :

. . . فقلت : يا رسول الله ، رجل أهدى إليَّ قويساً مِمَّن كنت أعلِّمه الكتاب والقرآن ، وليست بمال ، وأرمي منها في سبيل الله .

قال : « إن كنت تحبُّ أنْ تطوَّق طوقاً من نار فاقبلها » .[2]

الحديث في النَّهي عن أخذ الأجرة على تعليم القرآن ، واستفتاء عبادة في هذا الموضوع وإجابة النَّبي ﷺ عن هذا الاستفتاء يدلُّ على التَّشدُّد في المنع .

فلقد عرض عبادة مسوِّغات تقنع بالسَّماح والإذن من مثل : أنَّ الرَّجل أهدى هدية ولم يعطه أجرة ، وأنَّ القوس ليست مالاً ، وأن هذه القوس المهداة سيستعملها في الجهاد في سبيل الله . وعلى الرَّغم من هذا كلِّه فالجواب كان منعاً مغلفاً بتهديد : « إنْ كنت تحبُّ أنَّ تطوَّق طوقاً من نار فأقبلها » .

والطَّوق من النَّار صورة غيبيَّة مخيفة ، وقد ترك الرَّسول ﷺ للسَّائل أنْ يوازن بين الامتناع عن قبول القوس والنَّجاة من النَّار وبين أخذها والتَّطوق بطوق من نار . . . وهذه الموازنة ستنتهي بالمؤمن إلى الامتناع .

***

---

(١) صحيح مسلم ٢ / ١٩٣ ، وفي المتفق عليه ( لقد أُوتيت مزماراً من مزامير آل داود ) وانظر : رياض الصالحين ٦٠٠ .

(٢) أبو داود : ٣ / ٣٦٠ .





## ٧ ـ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر :

الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر سنة الأنبياء عامَّة ، ونبيِّنا محمَّد ﷺ خاصَّة ، وهو وسيلة للحفاظ على المستوى الكريم الرَّفيع الذِّي تبلغه الأُمَّة ووقاية لها تحفظها من كلِّ عوامل الانحراف . ولقد أعدَّ الله للقائمين به أجراً عظيماً يفوق حدود الخيال . يجدونه في اليوم الآخر ، عندما يكونون في أشدِّ الحاجة إلى الشَّفيع والنَّصير والثَّواب .

وترك الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر سبب العقوبة الشَّديدة من الله في الدُّنيا والآخرة ، وبتركه يكثر الأشرار ، وعندئذٍ يكون الهلاك .

وإنكار المنكر درجات تختلف من إنسان إلى آخر بحسب إمكاناته وطاقاته وتركه بكلِّ مستوياته ودرجاته دليل على عدم الإيمان .

ولا بدَّ من أنْ تكون هناك مفاصلة لأهل الشرِّ ومقاطعة لهم إن أصرُّوا على ضلالهم .

أمَّا من أمر بمعروف ونهى عن منكر وخالف فعله قوله كان له يوم القيامة العذاب الغليظ الشَّديد .

ولنشرع في استعراض بعض النَّماذج :

ـ عن العرباض بن سارية قال :

وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ، وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون ، فقلنا : يا رسول الله : كأنَّها موعظة مودِّع فأوصنا . قال « أُوصيكم بتقوى الله والسَّمع والطَّاعة وإنْ تأمَّر عليكم عبد حبشي وإنَّه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً . فعليكم بسنتَّي وسنَّة الخلفاء الرَّاشدين المهديِّين . عضُّوا عليها بالنَّواجذ وإيَّاكم ومحدثات الأُمور ، فإنَّ كلَّ بدعة ضلالة » .[1]

---

(١) رواه أبو داود ٤ / ٢٨١ باب في لزوم السُّنَّة ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، وانظر رياض الصالحين ١٥٢ .

قول العرباض دليل واضح على مدى تأثير البيان النبوي في المخاطبين فلقد كانت مواعظه ﷺ مواعظ بليغة ، وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون حتَّى كأنها موعظة مودِّع . وهذا يدلُّ على نجاحه ﷺ في مهمَّة التَّبليغ أعظم النَّجاح . فالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر سبيل الدُّعاة والمصلحين والأنبياء والمرسلين ، والتَّابعين لهم بإحسان . أمَّا الوصية الَّتي أوصاهم بها فقد كانت تدور حول أمور ثلاثة هي :

(١) تقوى الله ، وهذه من أجمع الخصال الفاضلة لصنوف الخير والبر .

(٢) والسَّمع والطَّاعة للأمير المسلم والتحذير من الفرقة والاختلاف . وأخبر عليه السَّلام أنَّهُ سيكون اختلاف كثير في هذه الأمَّة ، فأوصاهم بالسَّمع والطَّاعة ولو كان الأمير عبداً حبشياً .

(٣) البعد عن البدعة والتزام السُّنَّة والاستمساك بها وفي النَّص صور فنية عدَّة ، بعضها للعرباض وبعضها للرسول الكريم ﷺ .

* فمن ذلك قوله ﷺ : « وإنْ تأمَّر عليكم عبد حبشي » .

أيْ وإنْ تأمَّر عليكم أمير ترونه دونكم ، فالعبد في عرفهم وعرف الشَّرع أيضاً لا يستوي مع الحرّ ، وكذلك العربي القرشي لا يستوي مع الحبشي لاسيماً في موضوع الخلافة . ونحن نعلم أنَّه استفاض في النَّاس أنَّ العرب لا تدين إلاَّ لهذا البيت من قريش .

* ومن ذلك قوله ﷺ : « عضُّوا عليها بالنَّواجذ » .

أي استمسكوا بها . وفي هذا التَّعبير صورة فنِّية جميلة فالشَّيء الذِّي يحرص المرء عليه يعضُّه بأسنانه . والمبالغة جاءت في النَّص أنَّ العضّ على السُّنَّة ينبغي أنْ يكون بالنَّواجذ .





ـ عن سهل بن سعد السَّاعدي أنَّ رسول الله ﷺ قال يوم خيبر:

« لأُعطين الرَّاية غداً ـ رجلاً يفتح الله على يديه ، يحبُّ الله ورسولـه ويحبُّـه الله ورسوله » .

فبات النَّاس يدوكون[1] ليلتهم : أيهُّم يعطاها ؟
فلما أصبح النَّاس غدوا على رسول الله ﷺ كلُّهم يرجو أن يعطاها .
فقال : أين علي بن أبي طالب ؟

قيل : يا رسول الله ، هو يشتكي عينه .

قال : فأرسلوا إليه .

فأُتيَ به ، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له ، فبرىء حتَّى كأنْ لم يكن به وجع . فأعطاه الرَّاية . فقال عليٌّ : يا رسول الله أُقاتلهم حتَّى يكونوا مثلنا ؟

فقال : انفذ على رسلك حتَّى تنزل بساحتهم ثُمَّ ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقِّ الله تعالى فيه . فوالله لأنْ يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النَّعم » .[1]

المناسبة الشَّيِّقة تبينُ لنا الجوَّ الرُّوحي العام الذِّي كان يغمر النَّاس أيَّام النُّبوَّة . ذلك أنَّ حمل الرَّاية عمل فدائي يعرض صاحبه للموت بنسبة تفوق ما يتعرَّض له الباقون من المجاهدين ، ومع ذلك فقد كانوا يتسابقون لحملها ، وكلٌّ منهم يرجو أن يعطاها . . . وفاز بها علي بن أبي طالب . . . وبرئت عينه بعد أنْ بصق فيها رسول الله ﷺ بمعجزة منه . ثُمَّ ذكر رسول الله ﷺ عن طريق الموازنة الأجر العظيم الذي أعدَّه الله تبارك وتعالى لمن يكون سبباً في هداية رجل واحد.

---

(١) يدوكون : أي يخوضون ويتحدثون .
(٢) متفق عليه : صحيح البخاري ٤ / ٥٧ ـ ٥٨ ط الشَّعب . كتاب الجهاد باب دعاء النَّبي ﷺ إلى الإسـلام ، وصحيح مسلـم ١٥ / ١٧٨ كتـاب فضائـل الصَّحابـة باب فضائـل عليّ ـ وأبـو داود ٣ / ٤٣٨ ، وانظر رياض الصَّالحين ١٦٨ ـ ١٦٩ .
وحمر النَّعم : أجود الإبل ، وهي أنفس أموال العرب .

إنَّ حمر النَّعم من أنفس الأموال عندهم ، يقول ﷺ :

والله لأنْ يهدي الله بك رجلاً واحداً خير من حمر النَّعم كلِّها .

وإنهَّا لصورة عميقة التَّأثير في نفس العربي ، وهي في خدمة الغرض الدِّيني .

وشيء آخر يدلُّ عليه الحديث وهو الغاية من الحروب في الإسلام إنهَّا هداية البشر وإخراجهم من ظلمات الشرْك والوثنية إلى نور التَّوحيد والإسلام . . . فيسبق القتال الدَّعوة إلى الإسلام والإخبار بأحكام الله تعالى .

ويدلُّ السِّياق على التَّرغيب في أنْ يصل المجاهدون إلى هداية النَّاس المدعوِّين أكثر من محاربتهم .

ـ عن زينب بنت جحش أنَّ النَّبي ﷺ دخل عليها فزعاً يقول :

« لا إله إلاَّ الله ، ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب . فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه » .

وحلق باصبعيه الأبهام والتي تليها .
فقلت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصَّالحون ؟
قال : نعم . إذا كثر الخبث » .[1]

دخل رسول الله ﷺ على زوجته أمِّ المؤمنين زينب فزعاً وهو يقول لا إله إلاَّ الله . وهذا يدلُّ على أنَّه يستحب لمن يواجه أزمة أو يفاجأ بأمر مفزع أن يذكر الله ، وأخبرها ﷺ أنَّ شرّاً قد اقتربت . . . وأنَّه مصيب العرب . . . وذكر أنَّه فتح في ذاك اليوم من ردم يأجوج ومأجوج ثقب مثل الدَّائرة الصَّغيرة ، وأشار إليها بأصبعيه ﷺ . وردم يأجوج ومأجوج يهدم عندما تقترب السَّاعة ، كما قال تعالى على لسان ذي القرنين: ﴿ قال هذا رحمة من ربِّي فإذا جاء وعد ربِّي جعله دكَّاء وكان وعد ربِّي حقّاً﴾ .[2]

(١) متفق عليه : انظر رياض الصَّالحين ١٧٨ .
(٢) سورة الكهف : آية ٩٨ .

وعندما سمعت السَّيدة الفاضلة أُمُّ المؤمنين زينب بأنَّ ويلاً وشرّاً سيصيب هذه الأُمَّة ، سألت رسول الله ﷺ أنهلك وفينا الصَّالحون ؟ فقال لها : نعم إذا كثرت أعمال الفسق والفجور وازداد الأشرار في المجتمع .

وهذا مبدأ إسلامي مقرَّر ، وهو أنَّ الفتنة لا تختص العصاة بل تعمُّ الأُمَّة كلَّها قال تعالى ﴿ واتقّوا فتنة لا تصيبنَّ الذِّين ظلموا منكم خاصَّة ﴾[1] فإذا كان ذلك كذلك فلا بدَّ من إنكار ولا بدَّ من العمل على تطهير المجتمع من المعاصي .

وفي النَّص صورتان :

صورة كثرة الخبث من فسق وجور وأشرار .

وتشبيه الثقب الذي فتح في ردم يأجوج ومأجوج بالاشارة بأُصبعيه .

ـ عن أَبي بكر الصِّدِّيق قال :

« يا أَيهُّا النَّاس : إنَّكم تقرؤون هذه الآية :
﴿ يا أَيهُّا الَّذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرُكم من ضلَّ إذا اهتديتم ﴾[2]

وإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إنَّ النَّاس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أَوشك أَن يعمَّهم الله بعقاب منه »[3]

آية من كتاب الله أُسيء فهمها أَيَّام سيِّدنا أَبي بكر ، إذْ يبدو أَنهَّا حملت على ترك الأَمر بالمعروف والاكتفاء بإصلاح المرء نفسه وعدم المبالاة بحالة الآخرين ، ويصحِّح الخليفة الرَّاشد الأَوَّل ذاك الفهم السَّقيم الَّذي ربمَّا قاد إليه النَّظر السرَّيع في الآية ، وينقل عن رسول الله ﷺ قولاً يخالف هذا الفهم ويردُّ عليه .

---

(١) سورة الأنفال : آية ٢٥ .

(٢) سورة النِّساء : ٨٥ .

(٣) رواه أبو داود والتِّرمذي والنِّسائي بأسانيد صحيحه ، انظر : رياض الصَّالحين ١٨٣ .

إنَّ النَّاس إنْ لم يغيرِّوا المنكر ، ويردعوا المسيء ، ويعاقبوا المجرم ويحولوا بين الظَّالم والظُّلم عمَّهم الله بالعقاب ، ولم يجعل البلاء خاصاً بالظَّالم .

وهذا المعنى قريب من معنى الحديث السَّابق ، غير أنَّ في هذا الحديث لوناً من الحضّ على مواجهة الظُّلمة والجرأة في الوقوف في وجوههم والأَخذ على أَيديهم ، وهذه روح نضاليَّة لا ترضى بالفساد . . . . بل تتصدَّى للمفسدين المنحرفين وتوقفهم عند حدِّهم .

والصُّورة الجميلة هي الأَخذ على الأيدي بمعنى الرَّدع ومعاقبة المسيء وزجره والحيلولة بينه وبين ما يريد .

*

ـ عن أُسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«يؤتى بالرَّجل يوم القيامة فيلقى في النَّار، فتندلق أَقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار في الرَّحى، فيجتمع إليه أَهل النَّار فيقولون: يا فلان، مالك؟ أَلم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى. كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأَنهى عن المنكر وآتيه»[1] .

مرَّ بنا هذا الحديث في وصف النَّار[2]، وأَكتفي هنا بإيراده للتَّنبيه على أنَّ الأَمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر يقتضي من صاحبه أَنْ يحقِّق ما يقول وإلاَّ تعرَّض لهذه العقوبة الشَّديدة الَّتي بدت ههنا قصَّة رجل دجَّال تكشف حقيقته بلسانه هو.

*

ـ عن ابن مسعود أَنَّ رسول الله ﷺ قال :

«ما من نبيٍّ بعثه الله في أُمَّة قبلي إلاَّ كان له من أُمَّته حواريُّون وأَصحاب يأخذون بسنَّته ويقتدون بأمره، ثُمَّ إنهَّا تخلف من بعدهم خلوف ، يقولون ما لا

---

(١) صحيح البخاري ٨/ ٩٧ وصحيح مسلم ٨/ ٢٢٤ ومسند احمد ٥/ ٢٠٥ .
(٢) انظر : ص ١٨٧ من الرِّسالة .

يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن. وليس وراء ذلك من الإيمان حبَّة خردل»[1].

لكلِّ نبيّ أَصحاب من أُمَّته، صنعهم الله على عينه، وأَعدَّهم لمتابعة حمل رسالة رسله وتبليغ أَحكامها للنَّاس بعد انتقالهم من عالم النَّاس، ولذلك فإنهَّم يحيون وفق ما تقضي به أَديان أَنبيائهم، يأخذ كلُّ فريق بسنَّة نبيِّهم ويقتدون بأمره، ويصبحون امتداداً له ولتعاليمه.

وهذا من فضل الله على الأجيال المقبلة، الَّتي تأتي بعد انتقال النَّبي إلى الرَّفيق الأعلى... تلك الأَجيال الَّتي لا تستطيع أَنْ تقف على المستوى الرَّفيع الَّذي كان يحيا فيه النَّبي إلاَّ من خلال هؤلاء الحواريينَ والأَتباع الكرام. ولكنْ من سنة الله في هؤلاء الأَصحاب أنهَّم جيل مثاليّ لا يتكرَّر على مرِّ الأَيَّام، فتأتي من بعدهم خلوف يضيِّعون المثل العليا ويتبِّعون الشَّهوات ويقولون ما لا يفعلون، ويقترفون المنكرات والمعاصي، يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويفعلونه... إزدواجية بغيضة تزهِّد النَّاس في الخير وتشكِّكهم في الحقّ.

إنهَّم قوم مفسدون... ولا بدَّ من الوقوف في وجوههم ومجاهدتهم بكلِّ وسيلة، كلٌّ حسب طاقته، فمن استطاع أَن يجاهدهم بيده ففعل كان مؤمناً فإنْ لم يستطع فبلسانه كان مؤمناً، فإن لم يستطع فبقلبه كان مؤمناً... وذلك أَضعف الإيمان... بل ليس وراء ذلك من الإيمان شيء... لا حبَّة خردل ولا أكثر من ذلك.

إنَّ المجاهدة القلبيَّة تهيِّء النَّفس للّمجاهدة الفعليّة... إن الانهزام الحقيقي هو في القلب، أَمّا اللّسان واليد فإنّ الأَمر فيهما عائد إلى عوامل خارجيّة لا دخل للإنسان فيها. ولذلك فهو معذور إن لم يستطع.. ويبقى مؤمناً، وقد شهد له رسول الله ﷺ بأنَّه مؤمن.

---

(1) صحيح مسلم ٢/ ٢٧، وانظر رياض الصَّالحين ١٧٤.

أمّا القلب فلا يطلّع عليه أحد إلاّ الله علاّم الغيوب . . . فلا يعذر إنسان لا يجاهد بقلبه أُولئك الظلّمة الدجّالين ، والطّغاة الجائرين .

إنّ القلب الذي يشعره صاحبه معنى الجهاد يعصم اللسان واليد من أن تتورطا فتعينا على باطل ، ويهيئهما للحظة الحاسمة الّتي تستطيعان فيها تحقيق ما كان مخبوءاً في الجوانح .

والصُّورة صورة خلوّ القلب من أقل كميّةٍ من الإيمان حتّى لا تجد فيه حبّة خردل من إيمان .

وفي الحديث صورة وصفيّة موجزة لأُولئك الخلوف المنحرفين .

*

ـ عن ابن مسعود قال ، قال رسول الله ﷺ :

« إنّ أوّل ما دخل النّقص على بني إسرائيل أنّه كان الرّجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتقّ الله ، ودع ما تصنع فإنّه لا يحلّ لك . ثُمّ يلقاه من الغد وهو على حاله ، فلا يمنعه ذلك أنْ يكون أكيله وشريبه وقعيده .

فلمّا فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض » ثُم قال :

﴿ لعن الّذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيراً منهم يتولّون الّذين كفروا لبئس ما قدّمت لهم أنفسهم أنْ سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنّبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ، ولكنّ كثيراً منهم فاسقون ﴾[1]

ثُمّ قال : «كلاّ والله ، لتأمرُنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر ولتأخذُنّ على يد الظّالم ولتأطرنّه على الحقّ أطراً ولتقصرنّه على الحقّ قصراً ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بيعض ثُمّ ليلعنكم كما لعنهم »[2] .

---

(١) سورة المائدة : ٧٨ ـ ٨١ .

(٢) رواه أبو داود والترمذي وهذا لفظ أبي داود ، وانظر رياض الصّالحين ١٨١ .

قصَّة حال كانت في بني إسرائيل ، تلك الأُمَّة الغنيَّة مواقفها بالعظات والدورس ، ومن أَجل ذلك ورد كثير من أَخبارها في الكتاب والسُّنة . وهذه القصَّة المشوِّقة الممتعة الحيَّة بالحوار والتَّحليل تنبيء عن ضرورة وجود صفة لا بدّ من توافرها في الدُّعاة الآمرين بالمعروف النَّاهين عن المنكر هذه الصِّفة هي المفاصلة . . . مفاصلة القوم ومقاطعتهم في حالة اليأس من الاستجابة ، لأَنَّ استمرار مخالطتهم مع إصرارهم على المعصية يؤدِّي إلى أمرين :

(١) الإِساءة إلى هؤلاء الدُّعاة حيث يمارس أَمامهم وتحت أَبصارهم ومسامعهم ما كانوا ينكرون ، وفي ذلك إساءة لهم بالغة وإهانة شديدة لا ينبغي أَنْ يقبلوها .

(٢) الدَّلالة على أَنهَّم غير جادِّين فيما كانوا يدعون النَّاس إليه أو غير مقتنعين بصحَّته ، وإلاَّ فكيف يفسرَّ رضاهم عن أولئك المخالفين لهم ومعايشتهم .

إن استشهاد الرَّسول ﷺ بالآية يدلُّ على أنَّ مؤاكلة العصاة ومجالستهم تنفي عن الدُّعاة صفة النهْي عن المنكر « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » . إذن لا بدّ من المفاصلة وإعلان البراءة من المخالفين وأَعمالهم إنَّه لا بدَّ من اتخّاذ موقف حاسم يوفِّر على الدَّاعية كرامته واحترامه ، ويعطي لعلمه ودعوته صفة الجدّ .

وهذه القصَّة السرَّيعة تعلِّل لعن بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، وبعد أن أورد رسول الله ﷺ القصَّة واستشهد بالآية وجَّه تهديداً لهذه الأُمَّة أنهَّا ان لم تأمر بالمعروف وتنه عن المنكر وتأخذ على يد الظَّالم وتأطره على الحق أطراً لقيت ما لقيه بنو إسرائيل . . . . . فضرب الله قلوب بعضها ببعض ولعنوا كما لعن أولئك . . .

قصَّة سريعة عن بني إسرائيل تصوِّر عقوبة الَّذين لا يتناهون عن المنكر . . . وربط بينها وبين هذه الأُمَّة على وجه مؤثِّر فعَّال .

وجاء في الحديث صورة الأَخذ على يد الظَّالم وأَطره على الحقِّ أطراً وصورة ضرب قلوب بعض الأُمَّة ببعض .

*



ـ عن النُّعمان بن بشير قال : قال النَّبي ﷺ :

« مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أَعلاها وبعضهم أَسفلها ، وكان الَّذين في أَسفلها إذا استقوا من الماء مرُّوا على من فوقهم فقالوا : لو أَنَّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ! فإن تركوهم وما أَرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أَخذوا على أَيديهم نجوا ونجوا جميعاً »[1]

المجتمع سفينة تسير بركابها المختلفين صلاحاً وفساداً ، وفكراً وسلوكاً ، ولكن تجمعهم سفينة واحدة وتسير بهم جميعاً في طريق واحد . . . إنهَّا تقطع بهم بحر الدُّنيا . . . . . فهم إلى مصير واحد متَّجهون وإن كانوا مختلفين . . . .

لقد أَخذ كلٌ من هؤلاء الرُّكاب مكانه من السَّفينة برضاه بعد الاستهام والاقتراع ، فكان بعضهم في أَعلاها ، وهؤلاء يكونون على الأَطراف في موقع جيِّد نشيط مشرف قريب من الماء ، وكان بعضهم في أَسفلها وهؤلاء يكونون في وسط السَّفينة بعيدين عن الماء لا يتمتَّعون بما يتمتَّع به إخوانهم من الإشراف والنَّشاط . وحاجة كلُّ إنسان إلى الماء حاجة فطريَّة لا يستطيع أَنْ يستغني عنها ، وكان هؤلاء السُّفَليُّون إذا أَرادوا الماء يضطرُّون إلى أَنْ يمرُّوا على من فوقهم يستأذنونهم ليصلوا إلى الماء فيأخذوا منه حاجتهم . ولمَّا طال عليهم الأَمد أَصاب سكَّان الأَعالي أذى من المرور المتكرِّر عليهم ، ويظهر أنهَّم كانوا يتعرَّضون لقطرات من الماء تنصبُّ عليهم أَو على أمتعتهم في الصُّعود أَو النُّزول . . . فأَظهروا تبرُّمهم واستنكارهم لهذا الفعل وحصلت خلافات ومناقشات . . . . ولاحت فكرة لسكَّان أَسفل السَّفينة فأَعجبتهم قالوا : لماذا نتعب أَنفسنا ورفاقنا والماء ههنا تحتنا على ضربة معول لا نحتاج إلى أَكثر منها؟ وأَعربوا عن فكرتهم هذه قائلين :

لو أَنَّا خرقنا في نصيبنا خرقاً حتى لا نؤذي من فوقنا . قصد دافعه طيِّب وهو عدم إيذاء شركائهم في السَّفينة .

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٨٢ ط الشَّعب ، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه ، ومسند أحمد والتِّرمذي ، وانظر رياض الصَّالحين ١٧٦ وصحيح الجامع الصَّغير ٥/ ١٩٦ وأقيسة النَّبي ١٠٣ .





وسمع أَهل السَّفينة هذا القول . . . . فأُذهل عقلاءهم واستنكروا مثل هذا التَّفكير ، وليس من شك في أَنهَّم منعوهم بالقوَّة من تنفيذ فكرتهم ولم يقبلوا حجَّتهم الَّتي تزعم أَنَّ تصرُّفهم كائن في نصيبهم . . . صحيح أَنَّه في نصيبهم . . . ولكن التَّضامن بين ركاب السَّفينة قائم شاؤوا أم أَبوا . فالخرق خرق هدَّام مميت في أيٍّ موضع كان من السَّفينة سواء كان في هذا الموضع أَو ذاك . . . . في موضعك أَنـت أَم في موضع خصمك الَّذي تكرهه ولا تطيق رؤيته . . .

فإنْ تركوهم وما أَرادوا ، وقبلوا حجَّتهم ، ورأَوا أَنَّ لهم أَنْ يمارسوا حريَّتهم الشَّخصية هلكوا جميعاً ، وإنْ منعوهم من هذا العمل الإجرامي وأَخذوا على أَيديهم نجوا ونجا أُولئك الَّذين همُّوا بالفعل أَيضاً . . .

والمجتمع فيه ناس في منازل متعدِّدة . . . وفي اتجاهـات مختلفة، فيه فسَّـاق يرتكبون المعاصي ويقترفون المنكرات ، وفيه صالحون يقيمون حدود الله ، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر . . . . وإذا كان وجود الفريق الأَوَّل من العصاة أَمراً لا بدَّ منه لما ركب في الفطرة البشرية من الضَّعف والتَّعرض للخطأ والزلَّل فإنَّ وجود الفريق الثَّاني من الصَّالحين الأَمَّارين بالمعروف النَّهائين عن المنكر ضرورة ماسَّة . فإنْ لم يوجد هذا الفريق تقوَّض المجتمع وذهب ريحه ، لأَنَّ المفسدين لا يجدون من يأخذ على أَيديهم . . . إنهَّم يخرقون سفينة المجتمـع ولا يلقـون من يصدُّهـم عن ذلك . . . وفي ذلك دمار المجتمع .

إنَّ المعاصي خروق تعرِّض حياتنا إلى الدَّمار والضَّياع ، وإنَّ الصَّالحين إنْ لم تكن لديهم الوسائل الَّتي يستطيعون بها أَنْ يأخذوا على أَيدي المفسدين لم يحقِّقوا المهمّة الَّتي تصون المجتمع من الانهيار فيتعرَّضـون للنِّقمـة . . . . ذلك لأنَّ آثـار المعاصي والمخالفات لا تقتصر على العصاة بل تشمل الأُمَّة كلَّها ، وتنـال فيما تنـال أُولئك السَّاكتين الَّذين رأوا أَسباب الانهيار ولم يقفوا ضدَّها .

وتدلُّ هذه الصُّورة العظيمة على أَنَّ الحـريَّة الفـرديَّة ليسـت مطلقة، بل هي محدودة بمصلحة الأُمَّة، فليس المرء حراً في أَنْ يصنع ما يشاء من المعاصي، لأَنَّ ذلك سيعرِّض كيان الأُمَّة إلى الهدم والانهيار ، كما تدلُّ على أنَّ فائدة الإنكار إنَّما تتحقَّق إذا

كانت قبل استفحال المعاصي وشيوعها وذيوعها . . . أمَّا إذا عمَّت وشاعت كان الخرق ثم الغرق ولا ينفع في تلك السَّاعة النُّصح ولا يجدي الإنكار .

## ٨ ـ صلة الأرحام وبرُّ الوالدين :

إنَّ صلة الأرحام من القربات الَّتي أعدَّ الله لفاعليها الثَّواب العظيم وهدَّد الَّذين يقطعونها بأشدِّ العقوبات . ورغَّب في أَنْ يصل المرء من قطعه من أقاربه ولو كانوا على وضع لا يرضاه إنْ أمن الفتنة .

وبرُّ الوالدين يأتي في صلة الأرحام في الذروة ، لأَنَّه أفضل من صلاة النَّافلة ، وهو يعدل الجهاد في سبيل الله ، وهو سبب في كشف الضرِّ وزوال البلاء ، والوالدان باب الجنَّة ، والبارُّ بوالديه مجاب الدَّعوة في الدُّنيا وهو يوم القيامة من السُّعداء .

ـ عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

« إنَّ الله خلق الخلق حتَّى إذا فرغ منهم قامت الرَّحم
فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة
قال : نعم . أَما ترضين أَنْ أَصل من وصلك وأَقطع من قطعك ؟
قالت : بلى يا ربِّ .
قال : فذاك لك . »
ثُمَّ قال رسول الله ﷺ :

«اقرؤوا إنْ شئتم : ﴿ فهل عسيتم إنْ تولَّيتم أَنْ تفسدوا في الأَرض وتقطِّعوا أَرحامكم أُولئك الَّذين لعنهم الله فأَصمَّهم وأَعمى أَبصارهم أَفلا يتدبَّرون القرآن أَمْ على قلوب أَقفالها﴾»[2] .

---

(١) سورة محمد : ٢٢ ـ ٢٤ .
(٢) متَّفق عليه : صحيح البخاري ٨/ ٦ ط الشَّعب وصحيح مسلم ١٦/ ١١٢ ـ ١١٣ . وانظر رياض الصَّالحين ٢٤٨ .

وفي رواية للبخاري :

«فقال الله تعالى : من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته »[1] .

ـ وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ :

« الرَّحم معلَّقة بالعرش : تقول : من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله »[2] .

الرَّحم ههنا كائن يتكلَّم ويحاور ويطلب ويستجاب لطلبه . . . إنهَّا تستعيذ بالله من القطيعة ، فيعيذها ويعد من يصلها بالوصل ومن يقطعها بالقطع .

وما أعظم كارثة من يقطعه الله .

وفي حديث عائشة نرى الرَّحم معلَّقة بالعرش وهي تقول : من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله .

ويستشهد الرَّسول ﷺ على عظم قطيعة الرَّحم بالآية الكريمة التي تجعل اللَّعنة جزاء لقاطع الرَّحم وتصفه بأنَّه ممَّن أصمَّهم الله عن سماع الحقّ وأعمى أبصارهم عن رؤية سبيل الهدى . إنهَّا قصَّة سريعة تقوم على حوار موجز مركَّز بين الرَّحم والخالق تبارك وتعالى وتجسيم للمعاني .

***

ـ عن أبي هريرة أنَّ رجلاً قال :

ـ يا رسول الله : إنَّ لي قرابة أصلهم ويقطعونني وأحسن إليهم ويسيئون إلي ، وأحلم عنهم ، ويجهلون علي .

---

(١) انظر رياض الصَّالحين ٢٤٨ .

(٢) صحيح مسلم ١٦/١١٣ .

ـ فقال : « لئن كنت كما قلت فكأنّما تسفُّهم المل[1] ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك » .[2]

ـ عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النَّبي ﷺ قال :

« ليس الواصل بالمكافىء ولكنَّ الواصل الذّي إذا قطعت رحمه وصلها » .[3]

حديثان يدلأن على فضل الرَّجل الذي يصل أقاربه وهم يقاطعونه ويقرِّر رسول الله ﷺ أنَّ هذا هو الواصل الحقيقي لرحمه ، أمَّا الذي يكافىء الواصل بالوصل فهو إنسان يرد الجميل ويجزي بالمعروف .

في حديث أبي هريرة نحن أمام قصَّة واقعة تعتمد على موقف يقفه هذا الرَّجل من أقربائه ، فهو يصلهم وهم يقطعونه ، ويحسن إليهم ويسيئون إليه ، ويحلم عنهم ويجهلون عليه . فذكر له رسول الله ﷺ أنهَّم بعملهم هذا استحقُّوا عقوبة شديدة ، وأنَّه سيكون له عون من الله عليهم ، فلن يؤثروا عليه .

وفي حديث عبد الله بن عمرو يبيِّن رسول الله ﷺ أنَّ وصل الرَّحم الحقيقي هو الواصل الذّي يكون من إنسان يصل أقرباء ، وهم يقطعونه ، إنَّ ذلك يدلُّ على حرص هذا الرَّجل على فعل الخير وإصراره عليه ، أمَّا الذي يقابل الزِّيارة بزيارة فذاك مكافىء .

والصُّورة الأُولى في قوله ( كأنَّما تسفُّهم الملّ ) أيْ كأنَّما تطعمهم الرَّماد الحار . وقد ذكرنا شرحها في تعليق سابق .

والصُّورة الثَّانية في قوله ( قطعت رحمه ) فالرَّحم ههنا إنسان ذكر شيء من خصائصه وهو القطع .

***

(١) الملّ : ( بفتح الميم وتشديد اللام ) : الرَّماد الحارّ . قال النَّووي في رياض الصالحين صـ ٢٥٠ ( أي كأنَّما تطعمهم الرَّماد الحار ، وهو تشبيه لما يلحقهم من الاثم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم . ولا شيء على هذا المحسن إليهم لكن ينالهم إثم عظيم بتقصيرهم في حقه ، وإدخالهم الأذى عليه ) .

(٢) صحيح مسلم ١٦ / ١١٥ وانظر رياض الصالحين ٢٥٠ .

(٣) صحيح البخاري ٨ / ٧ ط كتاب الشَّعب ، وأبو داود ٢ / ١٧٩ وانظر رياض الصالحين ٢٥٢ .

ـ عن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ جهاراً غير سرٍّ يقول :

« إنَّ آل بني فلان ليسوا بأوليائي ، إنَّما وليّيَ الله وصالح المؤمنين ، ولكنْ لهم رحم أبلها[1] ببلالها » .[2]

ـ وعن أبي هريرة قال :

لَمَّا نزلت هذه الآية ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾[3] دعا رسول الله ﷺ قريشاً ، فاجتمعوا ، فعمَّ وخصَّ . وقال :

يا بني عبد شمس . يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النَّار .
يا بني مرَّة بن كعب . أنقذوا أنفسكم من النَّار .
يا بني عبد مناف . أنقذوا أنفسكم من النَّار .
يا بني هاشم . أنقذوا أنفسكم من النَّار .
يا بني هاشم . أنقذوا أنفسكم من النَّار .
يا بني عبد المطلب . انقذوا أنفسكم من النار .
يا فاطمة أنقذي نفسك من النَّار .

فإنِّي لا أملك لكم من الله شيئاً غير أنَّ لكم رحماً سأبلها ببلالها » .[4]

يعالج الحديثان وضعاً دقيقاً مهما قلَّ أنْ ينتبه إليه أحد من الحكَّام أو الوجهاء أو أصحاب المسؤولية أو العلماء وهو وضع الأقارب . . .

في أخبار التاريخ وأحداث الواقع المعاصر على حدٍّ سواء نرى أنَّ كثيراً من أقارب أصحاب المسؤولية وذوي المكانة والسُّلطان يكونون فوق النِّظام والمنطق :

---

(١) البلال : ( بفتح الباء وكسرها ) الماء ، قال النّووي في شرح مسلم :
( والبلال الماء . ومعنى الحديث سأصلها . شبهت قطيعة الرَّحم بالحرارة ، ووصلها باطفاء الحرارة ببرودة الماء . ومنه : بلوا أرحامكم أي صلوها ) .

(٢) متفق عليه : صحيح البخاري ٨ / ٧ ط كتاب الشّعب ، وانظر رياض الصالحين ٢٥٦ .

(٣) سورة الشُّعراء ٢١٤ .

(٤) صحيح مسلم ٣ / ٧٩ ـ ٨٠ .



ينالون ما ليس لهم بحق أنْ ينالوه . . ويفعلون ما يشاؤون . . . ولا تلاحقهم سلطة ولا تترتب عليهم مسؤولية ولا تكاد تحلُّ عليهم عقوبة .

من أجل ذلك كان هؤلاء الأقارب من زوجة وأولاد وإخوة ظلمة متغطرسين يعتدون ويسلبون ويسيطرون ويظلمون دون أنْ يخشوا حساباً أو مساءلة .

وكثيراً ما يكون مثل هذا الوضع سبب انهيار الدُّول وهلاك الأمم كما أخبر صلوات الله وسلامه عليه في حديث عائشة ، : «إنمَّا أهلك من قبلكم أنهّم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضَّعيف أقاموا عليه الحدّ وايمُ الله لو أنَّ فاطمة بنت محمَّد سرقت لقطعت يدها» .(1)

ولذلك فقد حسم رسول الله ﷺ هذا الموضوع بشكل قاطع كما نرى في هذين الحديثين وقال عن ناس من أقاربه « ليسوا بأوليائي إنمَّا وليي الله وصالح المؤمنين » ونادى أقاربه فخذاً فخذاً وعمَّ وخصَّ وقال لهم جميعاً : « أنقذوا أنفسكم من النَّار فإنِّي لا أملك لكم من الله شيئاً غير أنَّ لكم رحماً سأبلها ببلالها » .

فالأولياء هم الله وصالح المؤمنين ، أمَّا الصِّلة بالأقارب فهي صلة للرحم وقد نقلت كلام الإمام النَّووي في شرح هذه الصُّورة في التَّعليق الذي أثبته في حاشية الحديث حيث رأى أنَّ قطيعة الرَّحم شُبِّهت بالحرارة وشبِّه وصلها بإطفاء هذه الحرارة ببرودة الماء .

وقد بدا لي فهم للصُّورة على نحو آخر ، فذهبت إلى أنَّ البلل إحياء لأنَّ الأرض عندما تبتل تحيا ، وكذلك النَّبات من زرع مغروس وورد مقطوع ، فإنَّ بلَّه بالماء إحياء له وإنعاش ، وليس الموضوع موضوع إطفاء . فقوله ( أبلها ببلالها ) يريد أُحييها وأَصلها ولا أُميتها وأقطعها .

ـ عن أبي الدَّرداء أنَّ رجلاً أتاه فقال :
إنَّ لي امرأة وإنَّ أُمي تأمرني بطلاقها ؟ فقال أبو الدَّرداء : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

---

(1) متفق عليه ، انظر رياض الصالحين صـ ٢٨٠ ط رضوان محمد رضوان .





( الوالد أوسط أبواب الجنَّة )

فإن شئت فأضع ذلك الباب أو احفظه .[1]

الوالد أوسط أبواب الجنَّة كلمة موجزة تضمنَّت صورة معبِّرة . إنَّ برَّ الوالد وسيلة يدخل المرء بها الجنَّة . فمن يضيع ذلك الباب الذي يقود سالكه إلى السَّعادة الحقَّة والنَّعيم الدائم ؟؟

***

**ـ عن عبد الله بن عمرو قال :**

جاء رجل إلى النَّبي ﷺ يستأذنه في الجهاد قال:

ـ « أحيٌّ والداك؟»

ـ قال: نعم.

ـ قال: «ففيهما فجاهد».[2]

إنَّ منزلة الجهاد في الإسلام عالية، وهي معلومة ، فرسول الله ﷺ يجعل برَّ الوالدين جهاداً ، بل يدعو الرَّجل إلى أنْ يعكف على برِّهما وخدمتهما ويقدم ذلك على القتال.

وليس من شك في أنَّ ظروفا معيَّنة كانت تحيط بالرجُل وبالمسلمين عندما تقدَّم للاستئذان فلم يأذن له النَّبيﷺ.

وقول الرَّسول ﷺ : «ففيهما فجاهد » يرسم أمامنا صورة ترفع من شأن برِّهما إلى درجة عالية جداً.

***

(١) رواه الترمذي ٣/ ١١٦ وقال: حديث حسن صحيح وانظر المسند ٥/ ١٩٨ و٦/ ٤٤٥ وابن ماجه ١/ ٦٧٥ والمستدرك ٣/ ١٩٧ و٤/ ١٥٢ ورياض الصالحين ٢٥٧.

(٢) صحيح البخاري ٤ / ٧١ ط الشَّعب ـ كتاب الجهاد ـ الجهاد بإذن الوالدين ـ وصحيح مسلم ١٦ / ١٠٤ ، وأبو داود ٣ / ٢٥ .

ـ عن عمر بن الخطَّاب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« يأتي عليكم أُويس بن عامر مع أمداد[1] أهل اليمن من مراد ثُمَّ من قرن .

كان به برص فبرأ منه إلاَّ موضع درهم . له والدة هو بها برٌّ ، لو أقسم على الله لأبره ، فإن استطعت أنْ يستغفر لك فافعل » .[2]

قصَّة هذا التَّابعي أُويس قصَّة طويلة ممتعة أوردها مسلم بروايات عدَّة . وأقتصر هنا على إيراد كلام النَّبي ﷺ :

ويدلُّ هذا الحديث على أنَّ الرَّجل كان بارّاً بأُمِّه وأنَّه كان مجاب الدَّعوة .

وفي الحديث صورة بالوصف لأُويس حدَّدت بلده وقبيلته وأخلاقه وحاله .

ـ عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ :

« انطلق ثلاثة نفر مِمَّن كان قبلكم ، حتَّى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدَّت عليهم الغار . فقالوا : إنَّه لا ينجيكم من هذه الصَّخرة إلاَّ أنْ تدعوا الله بصالح أعمالكم .

ـ قال رجل منهم : اللَّهم كان لي أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً . فنأى بي طلب الشَّجر يوماً ، فلم أُرح عليهما حتَّى ناما فحلبت لهما غبوقهما ، فوجدتهما نائمين فكرهت أنْ أُوقظهما وأنْ أغبق قبلهما أهلا أو مالاً . فلبثت ـ والقدح على يدي ـ أَنتظر استيقاظهما حتَّى برق الفجر ، والصبية يتضاغون عند قدمي ، فاستيقظا فشربا غبوقهما .
اللَّهم إنْ كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنَّا ما نحن فيه من هذه الصَّخرة .

فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه .

ـ قال الآخر : اللَّهم كانت لي ابنة عمّ كانت أَحب النِّساء إليَّ ( وفي رواية : كنت

---

(١) أمداد : جمع مدد وهم الأعوان والناصرون الذين كانوا يمدُّون المسلمين في الجهاد .
(٢) رواه مسلم ، وانظر رياض الصالحين ٢٧٦ ـ ٢٧٩ .

أُحبُّها كأشدِّ ما يحبُّ الرِّجال النِّساء ) فأردتُّها على نفسها ، فامتنعت منِّي ، حتَّى أَلمت بها سنة من السِّنين ، فجاءتني ، فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أنْ تخليَ بيني وبين نفسها ففعلت . حتَّى إذا قدرت عليها ( وفي رواية : فلماً قعدت بين رجليها ) قالت : اتَّق الله ولا تفضَّ الخاتم إلاَّ بحقِّه ، فانصرفت عنها وهي أحبُّ النَّاس إلي وتركت الذَّهب الذي أعطيتها .

اللَّهم إنْ كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنَّا ما نحن فيه .

فانفرجت الصَّخرة غير أنهَّم لا يستطيعون الخروج منها .

ـ وقال الثَّالث : اللَّهم إنِّي استأجرت أُجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ، ترك الذي له وذهب ، فثَّمرت أجره حتَّى كثرت منه الأموال ، فجاءني بعد حين فقال : يا عبد اللهَّ أَد إليَّ أجري ، فقلت : كلُّ ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرَّقيق .

فقال : يا عبد الله لا تستهزىء بي .

فقلت : لا أستهزىء بك .

فأخذه كله فاستاقه ، فلم يترك منه شيئاً .

اللهم إنْ كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنَّا ما نحن فيه .

فانفرجت الصخرة . فخرجوا يمشون »[1]

قصَّة مثيرة ذات فصول ثلاثة ، كلُّ فصل قصَّة مستقلَّة قائمة بذاتها :

ثلاثة رجال صالحين كانوا في طريق يمشون ، فآواهم المبيت إلى غار ، فدخلوه ، وأخذ كلٌّ منهم مضجعه ، وانحدرت صخرة من الجبل . . . صخرة كبيرة . . . فسدَّت عليهم الغار . وكانت هذه الصَّخرة من الثِّقل ومن إحكام السَّد بحيث لا يمكن زحزحتها . . وكأنهَّا أضحت جداراً من جدران الغار . . ونحسب أنهَّم حاولوا بقواهم العضلية إزاحتها فما استطاعوا . . ويئسوا من إمكانية الخروج . . . ولم يبق

(١) صحيح البخاري في مواضع متعددة منها ٣ / ١٠٥ ط كتاب الشَّعب وصحيح مسلم ١٧ / ٥٥ ـ ٥٧ وانظر رياض الصالحين ٤٨ ـ ٥١ .

أمامهم إلاَّ الدُّعاء والتوسل إلى الله بصالح الأعمال. . .لم يبق إلاَّ اللُّجوء إلى القوة الرَّبانية التِّي لا يحول دونها شيء . . وإلاَّ فإنَّ بقاءهم يعني انتظار الموت جوعاً وعطشاً . . .

وكان الدُّعاء . . . قالوا : إنَّه لا ينجيكم من هذه الصَّخرة إلاَّ أنْ تدعوا الله بصالح أعمالكم .

- وبدأ الأوَّل وذكر عملاً صالحاً من أعماله وقص قصَّة . . ودعا . . . وتحصل المعجزة . . وتنفرج الصخرة شيئاً . . غير أنهَّم لا يستطيعون الخروج منه . . . وارتاحت نفوسهم ، وبرقت أمامهم سواطع الرَّجاء وأيقنوا ببداية الخلاص وانفراج الأزمة . . .

- وجاء الثاني وذكر قصَّته ودعا وانفرجت الصَّخرة شيئاً لا يستطيعون الخروج منها .

- ثمَّ جاء الثالث ، وذكر قصَّته ودعا فانفرجت الصَّخرة وخرجوا يمشون وانحلَّت العقدة . . . نهائيّاً وكان قد بدأ حلُّها منذ الانفراج الأول .

أمَّا الأول فكانت قصته في برِّ والديه ، ولو ذهبنا نرسم لوحة للبرِّ الصادق ولآثاره في حياة الفرد بكلِّ أنواع التصوير والبيان لما وجدنا أبلغ من هذه القصة التي جاءت في هذا الحديث . فلنستمع إليه :

قال : كان لي أبوان شيخان كبيران ، وكنت راعياً أطلب المرعى لماشيتي ، وكنت أعود إلى بيتي في وقت محدَّد ألفه أولادي ووالداي فكنت أبدأ بوالديَّ أسقيهما اللَّبن ولا أغبق قبلهما أحداً لا من الأهل ولا من الخدم ، ونأى بي طلب الشَّجر والمرعي يوماً . . . فتأخرَّت في العودة . . . ولم أرح عليهما . . حتَّى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين وكان صبيتي ينتظرونني بفارغ الصبر وكانوا يتضاغون من الجوع . . . وكانت لحظة حرج شديد يتنازعني فيها البرُّ بالوالدين والرَّأفة بالأولاد . . . ماذا أصنع ؟ هل أوقظ والديَّ وأزعجهما ؟ هل أسقي أولادي وهم صبية صغار لا يقوون على احتمال الجوع . ولكنِّني آثرت الوقوف انتظر استيقاظهما في أيَّة لحظة لأقدِّم لهما غبوقهما ، والصِّبية يتضاغون عند قدمي . . . واستغرق هذا

الوقوف اللَّيل كلَّه . . . فما استيقظا إلاَّ بعد أنْ برق الفجر . . . فاستيقظا فشربا غبوقهما . . .

ثُمَّ قال : اللهم إنْ كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنَّا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه.

ثُمَّ جاء الثَّاني وذكر قصَّته ودعا وانفرجت الصَّخرة شيئاً غير أنهَّم لا يستطيعون الخروج منه . . .

ثُمَّ جاء الثَّالث وذكر قصَّته ودعا . . . فانفرجت الصخرة وخرجوا يمشون . . . وتنحلُّ العقدة انحلالاً تاماً .

إنَّ التصوير بالقصَّة دلَّ على عظيم ثواب برِّ الوالدين وعلى أنَّه قد يعجل لصاحبه في الدُّنيا .

ـ عن أبي هريرة عن النَّبي ﷺ قال :

« لم يتكلَّم في المهد إلاَّ ثلاثة : عيسى بن مريم ، وصاحب جريج ، وكان جريج رجلاً عابداً فاتخذ صومعة، فكان فيها فجاءته أُمُّه وهو يصلِّي فقالت: يا جريج : فقال : يا ربِّ أُمِّي وصلاتي !!

فأقبل على صلاته ، فانصرفت ، فلما كان من الغد أتته وهو يصلِّي فقالت : يا جريج ، فقال : أيْ ربِّ ، أُمِّي وصلاتي . . فأقبل على صلاته ، فلماَّ كان من الغد أتته وهو يصلِّي فقالت : يا جريج . فقال : أي ربِّ ، أُمِّي وصلاتي ، فأقبل على صلاته . فقالت : اللَّهم لا تمته حتَّى ينظر إلى وجوه المومسات . . .[1] فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته . . . وكانت امرأة بغي يتمثل بحسنها فقالت : إنْ شئتم لأفتننَّه . فتعرَّضت له فلم يلتفت إليها . فأتت راعياً كان يأتي إلى صومعته فأمكنته من نفسها ، فوقع عليها ، فحملت ، فلماَّ ولدت قالت : هو من جريج ، فأتوه ، فاستنزلوه ، وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه .

---

(١) المومسات :( بضم الميم الأُولى وإسكان الواو وكسر الميم الثَّانية ) جمع مومسة وهن الزَّواني .

فقال : ما شأنكم ؟

قالوا : زنيت بهذه البغي فولدت منك .

قال : أين الصَّبي ؟

فجاءوا به ، فقال : دعوني حتَّى أصلِّي .

فصلىَّ ، فلَّما انصرف أتى الصَّبي فطعن في بطنه .

وقال : يا غلام ! من أبوك ؟

قال : فلان الرَّاعي .

فأقبلوا على جريج يقبِّلونه ، ويتمسحون به .

وقالوا : نبني لك صومعتك من ذهب .

قال : لا ، أعيدوها من طين كما كانت .

ففعلوا .

« وبينا صبيٌّ يرضع من أمِّه فمرَّ رجل راكب على دابة فارهة[1] وشارة حسنة .[2]

فقالت أمُّه : اللَّهم اجعل ابني مثل هذا .
فترك الثَّدي وأقبل إليه ، فنظر إليه فقال :

ـ اللَّهم لا تجعلني مثله ، ثمَّ أقبل على ثديها فجعل يرضع

( فكأنِّي أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بأصبعه السَّبابة في فيه فجعل يمصها . ثمَّ قال ) :

---

(١) دابة فارهة : أي حاذقة نفيسة .
(٢) الشَّارة : الجمال الظَّاهر في الهيئة والملبس .





ومرُّوا بجارية وهم يضربونها ويقولون :

زنيت ، سرقت .

وهي تقول : حسبي الله ونعم الوكيل .
فقالت أُمُّه : اللَّهم لا تجعل ابني مثلها.
فترك الرِّضاع ، ونظر إليها ، فقال:
اللَّهم اجعلني مثلها .
فهنالك تراجعا الحديث :(١)

فقالت : مرَّ رجل حسن الهيئة فقلت : اللَّهم اجعل ابني مثله .
فقلت : اللَّهم لا تجعلني مثله ، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها .
ويقولون : زنيت ، سرقت . فقلت : اللَّهم لا تجعل ابني مثلها .
فقلت : اللَّهم اجعلني مثلها ! ؟

قال : إنَّ ذلك الرَّجل جبَّار فقلت : اللَّهم لا تجعلني مثله وإنَّ هذه يقولون :زنيت .
ولم تزن ، وسرقت ولم تسرق فقلت : اللَّهم اجعلني مثلها » .(٢)

ثلاثة من بني إسرائيل تكلَّموا في المهد وهم :

- عيسى بن مريم : وقصَّته معروفة مستفيضة يعرفها النَّاس لورودها في الكتاب الكريم ، ولعلَّ هذا هو السَّبب في عدم تفصيل القول فيها هنا .
- وصاحب جريج ، ذاك الطِّفل الوليد الذِّي أُنطقه الله ، فكان نطقه براءة لجريج من افتراء تلك البغي الحسناء .
- وصبي رضيع كانت أُمُّه تحمله في الطَّريق فكلَّمها وخالفها في أكثر من مسألة .

---

(١) حدَّثت الصبيَ وحدَّثها.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ٢٠١ ط الشعب كتاب الأنبياء باب ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾ وصحيح مسلم ١٦/ ١٠٥ ـ ١٠٨ كتاب البر والصِّلة باب تقديم برِّ الوالدين على التطوُّع بالصَّلاة، وانظر رياض الصَّالحين ٢٢١ .

وعلى هذا ففي الحديث قصَّتان ، وكلامنا هنا عن الأُولى : قصَّـة جريج ، ونرجىء الحديث عن الأُخرى إلى مبحث الغنى والفقر .

قصَّة العابد جريج تدلُّ على أنَّ برَّ الوالدين أفضل من صلاة النَّافلة ، ولو كان جريج فقيها لأجاب أمه . . . فجريج عابد وليس عالماً . . والعبادة تبلغ كمالها عندما تكون مبنيَّة على العلم .

ولقد كان هذا التَّصرف من جريج تصرُّفا مسيئاً له ولأمه . . . فلقد انكسرت وانقهرت وعادت إلى بيتها مرتين دون أنْ تلقاه . وفي المرَّة الثَّالثة دعت عليه ، فقالت : اللَّهم لا تمته حتَّى ينظر إلى وجوه المومسات . واستجيبت دعوتها . . . وهذا يدلُّ على أنَّ دعاء الأم مستجاب لا يردُّ . .

وكانت هناك امرأة حسناء بغي يتمثَّل بحسنها ، فقالت : إن شئتم لافتنَّنه .

ويبدو أنهَّم استبعدوا أنْ تنجح في إغوائها إيَّاه فحرضها ذلك على أن تبالغ في إغرائه وفتنته لتبقى بطلة الإغواء والفتنة ، فمضت وتعرَّضت له بكلِّ صنوف الإثارة والفتنة والإغراء فلم يلتفت إليها . . . وانصرف إلى صلاته وكأنَّه لم يحس بشيء . وذلك يدلُّ على صدق تديُّنه وتماسك خلقه . فلما أرادت أنْ تبدو أمام قومها أنهَّا قد أخفقت فتزلزل قيمتها عندهم . فأتت راعياً كان يأتي إلى صومعة جريج فأمكنته من نفسها ، فوقع عليها ، فحملت.

فلَّما ولدت قالت : هو من جريج .

وهنا ثارت ثائرة العوام ، فانقضُّوا كالصَّواعق على صومعته قبل أن يتحقَّقوا من صدق هذه المرأة ، وما كان لهم أنْ يتحقَّقوا لأنَّ هذا شأن العوام في كلِّ زمان ومكان !! فاستنزلوه وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه وهو لا يدري سبباً لتصرُّفهم .

فقال : ما شأنكم ؟

قالوا : زنيت بهذه البغي ، فولدت منك هذا الغلام .

قال : أنا ؟

قالوا : أنت .

قال : أين الصَّبي؟

فجاءوا به ، فقال : دعوني أصلي ، فصلى ، فلماً انصرف أتى الصَّبي فطعن في بطنه وقال : يا غلام من أبوك ؟ قال الصَّبي : فلان الرَّاعي . وحدثت الكرامة التي برىء بها هذا الرَّجل الصَّالح . .

وكان الذِّي حصل كافياً لتأديب جريج على موقفه من أمِّه . وعندئـذٍ تبـيَّن النَّاس أنهَّم تسرَّعوا في العدوان عليه واتهامه بالباطل فأقبلوا عليه يقبِّلونه ويتمسَّحون به . وقالوا : نبني لك صومعتك من ذهـب ، قال : لا ، أعيدوهـا من طـين كما كانت . . . .

في القصَّة دلالات على أمور كثيرة ليس من همِّنا أنْ نستقصيها، ونكتفي هنا بالإشارة إلى بعضها :

فمن ذلك أنهَّا تدلُّ على أنَّ الله عزَّ وجلَّ يكرم أولياءه، بأَنْ يؤيدهم ويدافع عنهم وقد يجري الخوارق من أجلهم .

ومن ذلك أنَّ رؤية وجوه العصاة والعاصيات فتنة وبلاء شديد وأنَّ الصالحين لا يلقون أحداً من هؤلاء وأنَّ مجرد رؤية وجوههم أمر مكروه يدعى به على من أساء .

وبعد فالقصَّة صورة تبرز قيمة برِّ الوالدين وفضله وتقديمه على أجلِّ عبادة وهي الصَّلاة .

***

## ٩ ـ المؤمن المسلم :

ورد وصف للمؤمـن والمسلـم في عدد من الأحـاديث من خلال صور فنِّية جميلة ، سأختار بعضاً منها فيما يأتي ، وسأتبع ذلك بإيراد نماذج من الأحاديث جاءت في ذكر المنافقين واليهود والنَّصارى والمارقين من الدِّين :

ـ عن ابن عمر قال ، قال رسول الله ﷺ :

« بني الإسلام على خمس : شهادة أنْ لا إله إلاَّ الله وأنَّ محمَّداً رسول الله ، وإقام الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة والحج وصوم رمضان » .[1]

الإسلام بناء قام على أركان خمسة . . وهي صورة تبرز أهمية هذه الأركان وأنَّ ترك واحد منها يعني ضعضعة لهذا البنيان وتعريضاً له للهدم .

ـ عن عبدالله بن مسعود قال :

خطَّ رسول الله ﷺ خطاً بيده ثُمَّ قال :
( هذا سبيل الله مستقيماً )
وخطَّ عن يمينه وشماله ثُمَّ قال :

« هذه السُّبل ليس منها سبيل إلاَّ عليه شيطان يدعو إليه » .

ثُمَّ قرأ ﴿ وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبَّعوه ولا تَتَّبعوا السُّبل فتفرَّق بكم عن سبيله ﴾ .[2]

سبيل الله هو الإسلام . . . وهو سبيل مستقيم ميسَّر لسالكه وكتاب الله يدعونا أنْ نتبَّع هذا السَّبيل وبيَّن رسول الله ﷺ هذا المعنى بياناً توضيحياً شافياً بطريقة الرَّسم :

فخطَّ ﷺ بيده الشرَّيفة خطاً ، وخطَّ عن يمينه وشماله خطوطاً وقال : هذه سبل الشَّيطان . وليس منها سبيل إلاَّ عليه شيطان يدعو إليه ليكون داخلوه من أصحاب السَّعير .

ثُمَّ وضع (ﷺ ) يده في الخط الأوسط وتلا الآية الكريمة ﴿ وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتَّبعوه ولا تَتَّبعوا السُّبل فتفرَّق بكم عن سبيله ﴾ .

(١) رواه البخاري وغيره ، صحيح البخاري ١ / ٩ .
(٢) المسند ١ / ٤٦٥ ، وابن ماجه ١ / ٦ وتفسير الطَّبري ١٢ / ٢٣٠ ط شاكر ، والمستدرك ٢ / ٣١٨ والآية هي الآية ١٥٣ من سورة الأنعام .

إنَّ هذه السُّبل اليمينية واليسارية تتفرَّق بنا عن سبيله تعالى وتودي بنا في مهاوي الضَّياع والهلاك .

والتَّصوير هنا بالرَّسم وهو يوضح معنى الآية أتمَّ توضيح .

***

ـ عن عبد الله بن عمر قال :

كنت عند النَّبي ﷺ وهو يأكل جمَّاراً[1] فقال :

« إنَّ من الشَّجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنهَّا مثل المسلم أو كالرَّجل المؤمن فحدِّثوني ما هي ؟ »

فوقع النَّاس في شجر البوادي ، قال عبد الله : ووقع في نفسي أنهَّا النَّخلة وأردت أنْ أقول ، فإذا أنا أحْدَثُهم فاستحييت .

ثُمَّ قالوا : حدِّثنا ما هي يا رسول الله ؟

فقال : « هي النَّخلة » .

فذكرت ذلك لعمر . قال : لأن تكون قلت ( هي النَّخلة ) أحبُّ إلي من كذا وكذا .[2]

ـ وعن ابن عمر قال ، قال رسول الله ﷺ :

« مثل المؤمن مثل النَّخلة . ما أُخذت منها من شيء نفعك » .[3]

إنَّ المؤمن عظيم النَّفع لكلٍّ من يلقاه ، فلا يعاشره أُحد ولا يجاوره إنسان ولا

---

(١) الجمار : جمع جمارة وهي قلب النَّخلة وشحمتها ( انظر النِّهاية في غريب الحديث ١ / ٢٠٤ ط المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٢٢ هـ )

(٢) صحيح البخاري في مواضع عدَّة منها ١ / ٢٣ ـ ٢٤ وصحيح مسلم ١٧ / ١٥٣ وفي ط . استانبول ٨ / ١٣٧ .

(٣) رواه الطَّبراني في الكبير ( انظر صحيح الجامع الصغير ٥ / ٢٠١ ) .



يعامله مخلوق إلاّ انتفع منه . ويمثّل الرّسول ﷺ للمؤمن بالنّخلة . . . فكلُّ شيء فيها نافع ( ثمرها ونواها وسعفها وجذعها ، ولحاؤها ، وجمارها ) .

ولكن رسول الله ﷺ أراد أنْ يثير حواراً يشدُّ السّامعين إلى ما يقول ، فسأل أصحابه عن الشّجرة التي تشبه المؤمن .

ولم يظنُّوا أنَّ هذه الشّجرة ستكون ممِّا ألفوه وعرفوه ، فوقعوا في شجر البوادي يغربون ويبالغون في الإغراب . . . ووقع في نفس عبد الله أنهَّا النّخلة ، ولكنّه وجد نفسه أصغر القوم فاستحيا ولم يقل .. وعندما ذكر ذلك لأبيه ودَّ أنْ لو قال ذلك .

إنَّ التّصوير هنا اعتمد على أمر يعرفه المخاطبون أتّم معرفة .

***

ـ عن ابن عمرو قال ، قال رسول الله ﷺ :

« مثل المؤمن مثل النّحلة [1] ، إنْ أكلت أكلت طيِّباً وإنْ وضعت وضعت طيّباً ، وإنْ وقعت على عود نخر لم تكسره . ومثل المؤمن مثل سبيكة الذّهب : إنْ نفخت عليها احمَّرت وإن وزنت لم تنقص » . [2]

ـ وعن أبي رزين قال ، قال رسول الله ﷺ :

« مثل المؤمن مثل النَّحلة ، لا تأكل إلاَّ طيباً ولا تضع إلاَّ طيِّباً » . [3]

المؤمن لا يأكل إلاَّ طيباً ، ولا يسمع إلاَّ طيِّباً ، ولا يبصر إلاَّ طيباً ، ولا يقول إلاَّ طيباً ولا يعمل إلاَّ طيباً . ومثله مثل النَّحلة لا تأكل إلاَّ أطايب الأكل من الحلو والزَّهر والثَّمر . . . ولا تضع إلاَّ العسل الذي هو شفاء للناس ، وهي خفيفة الوزن والظل . . . فلو اعتمدت على عود نخر لم تكسره .

---

(١) النحلة : بالحاء المهملة ، وهي معروفة .
(٢) رواه البيهقي في ( شعب الإيمان ) وانظر صحيح الجامع الصغير ٥ / ٢٠٠ .
(٣) رواه الطبراني في ( الكبير ) وابن حبَّان في ( صحيحه ) وانظر الجامع الصغير ٥ / ٢٠١ .





ولم يشر ﷺ إلى جانب مهم منها وإنَّما تركه للسامع وهو أنَّ من اعتدى عليها أذاقته من لسعها الشَّيء الموجع المؤلم تركه إيثاراً لبقاء جوّ الحديث المحبَّب الطَّيب . وشبَّه الرَّسول ﷺ المؤمن تشبيهاً آخر فقال :

إنَّه كسبيكة الذَّهب ، لا ينقص وزنها ، ولا يحول لونها إنْ نفخت عليها زال ما علق بها من غبار ، وظهرت حمراء تتوهج . . . وهكذا المؤمن . . إنَّه ذو أُصالة . . لا تلويه الأَحداث ولا تغيِّره . . ولا تعصف به المحن ولا تحطِّمه ، ولا تؤثِّر فيه الكوارث ولا تنقصه . . . إنَّه بإيمانه ثابت راسخ ، وإنْ علاه شيء فهو كالغبار يزول بنفخة يسيرة عليه ويعود إلى معدنه وحقيقته .

***

**ـ وعن أبي سعيد الخدري عن النَّبي ﷺ قال :**

« مثل المؤمن كمثل الفرس في آخيَّته [1] : يجول ثُمَّ يرجع إلى آخيَّته . وإنَّ المؤمن يسهو ثُمَّ يرجع إلى الإيمان »[2]

ابن آدم خطَّاء . . واللَّه غفَّار

يعرف المؤمن هاتين الحقيقتين فلا يحمله الزَّلل على الانقطاع عن الخير واليأس من رحمة اللَّه . . . ولا يوغل في طريق الشرِّ . من أجل ذلك تراه أَوَّاباً سريع العودة إلى اللَّه عزَّ وجلَّ وذلك مصداق قوله تعالى في وصف المتَّقين :

**﴿ والذَّين إذا فعلوا فاحشة أَو ظلموا أَنفسهم ذكروا اللَّه فاستغفروا لذنوبهم . ومن يغفر الذُّنوب إلاَّ اللَّه ولم يصرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون أُولئك جزاؤهم مغفرة من ربهِّم وجنَّات تجري من تحتها الأَنهار خالدين فيها ونعم أَجر العاملين ﴾**[3]

---

١ ـ الآخيَّة : ( بالمد والتشديد ) : حبيل أو عويد يعرض في الحائط ويدفن طرفاه فيه ، ويصير وسطه كالعروة وتشدُّ فيها الدَّابة والجمع : أواخي وأخايا : قال ابن الأثير : ١/ ٢٤ : ومعنى الحديث أنَّه يبعد عن ربِّه بالذُّنوب وأصل إيمانه ثابت .

٢ ـ مسند أحمد ٣/ ٣٨ ، وانظر أقيسة النَّبي ١٥٧

٣ ـ آل عمران : ١٣٥ ـ ١٣٦

وقوله سبحانه :﴿ وهو الَّذي يقبل التَّوبة عن عباده ويعفو عن السَّيئات ويعلم ما نفعلون ﴾[1]

وقد عبَّر الرَّسول الكريم ﷺ عن ذلك بهذه الصُّورة الجميلة : المؤمن كالفرس في آخيَّته : يجول ما يجول ثُمَّ يعود إلى حيث كان .. لأنَّه ربط نفسه بعقيدة فلا ينطلق في مجالات الغواية ، ولا يوغل في طريق الإثم والمعصية ... إنَّه رجَّاع إلى اللَّه ... يسهو ويزلُّ ويخطىء ويعصي ولكنَّه يرجع إلى الإيمان ...

- عن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« المؤمن مرآة المؤمن ، والمؤمن أخو المؤمن . يكفُّ عليه ضيعته ، ويحوطه من ورائه »[2]

- وعن أبي موسى قال ، قال رسول اللَّه ﷺ :

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا » ثُمَّ شبَّك بين أصابعه[3]

التَّعاون أَساس مهمّ من أُسس الحياة الإِسلامية ، وهو السِّمة الَّتي تميِّز حياة المسلم مع أَخيه المسلم . التَّعاون على البرِّ والتَّقوى .. والتَّكافل التَّام بين المسلمين ، إنَّ المسلم أَخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يتخلَّى عن نصرته وعونه ... إنَّه يقف إلى جانبه ، ويشاركه آلامه وآماله وبذلك يتكامل المجتمع الإِسلامي .

وقد شبَّه الرَّسول ﷺ في حديث أَبي هريرة المؤمن بمرآة يرى أَخوه فيه وجهه وحقيقة أَمره ، فيتلافى عيوبه ويستكمل نقصه ، وما كان ليدرك لولاه شيئًا من هذه العيوب ولا شيئًا من تلك النَّقائص ، إنَّه ينصحه ويبينِّ له أَغلاطه ، ولا يستطيع أن يزيل هذه الأغلاط بمفرده على نحو ما روى عنه ﷺ في حديث آخر « إنَّ المؤمن

١ ـ الشُّورى : ٢٥

٢ ـ أبو داود ٤/ ٣٨٥

٣ ـ صحيح البخاري ١/ ١٢٩ كتاب الصَّلاة باب تشبيك الأَصابع و١٨/ ١٤ ط . الشَّعب كتاب الأدب باب تعاون المؤمنين . وصحيح مسلم ٦/ ١٣٩ ، وانظر رياض الصَّالحين ٢٠٤

للّمؤمن كاليدين تغسل إِحداهما الأُخرى» ، فإِنَّ اليد لا تستطيع أَن تغسل نفسها .

والإِنسان عادة لا يرى عيوبه ولا يتنبَّه إلى أَغلاطه ولـذلك كان الصَّالحـون يفرحون بمن يهدي إليهم عيوبهم ويرون له فضلاً كبيراً في ذلك .

وشبَّـه رسـول اللَّـه ﷺ في حديث أَبـي موسى المؤمـن بالبنيان . . إذ أَنَّ الإِنسان ضعيف بنفسه ، قويٌّ بإِخوانه ، إِنَّه عاجـز عن أَنْ يحقِّـق كلَّ شيء يريده لنفسه أَو لأمّته ، وغير قادر على مواجهة قوى الشرِّ العاتية التَّي تَترَبَّص له ولدينه وإِخوانه وغير قادر وحده أَنْ يصنع كثيراً مِمَّا يحبُّ أَنْ يتحقَّق .

ولكنَّه مع أَخيه المؤمن قويٌّ يستطيع أَنْ يفعل الكثير وأَنْ يحقِّق للدُّنيا ما يودُّ من مثل الحقّ والخير والعدالة والإِحسان .

فهو كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا . . . إنَّ جدارًا واحدًا لا يستـطيع أَنْ يبقـى منتصبًا ثابتًا لمدَّة طويلة . . . بل تراه أَكثر تأَثُّراً بعوامل الطَّبيعة من الرِّياح العاصفة والأَمطار الثَّجاجة وفعل النَّاس المستمرّ من استناد إليه وآرتطام به وربـط للّحيوان به . . فلا تلبث أَنْ تراه ينقضّ ويقع إلى الأَرض . ولكنَّ هذا الجدار عندما ينضَمُّ إلى جدران وسـقف وبيوت من عن يمينـه ويسـاره يكون أَكثـر قوَّة واحتمالاً ورسوخًـا وثباتًا . . إنَّ ذلك يعطيه قوَّة ومقاومة وشدَّة .

وفي الحديث آستخدام للإِشارة ( تشبيك الأَصابع ) .

ـ عن النعمان بن بشير قال ، قال رسول الله ﷺ :

« مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا آشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمّى »

وفي رواية :

« المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كلُّه وإن اشتكى رأسه آشتكى كلُّه » [1]

---

١ ـ صحيح البخاري ٨/ ١٢ ط الشّعب ـ كتاب الأَدب ـ باب رحمة النَّاس والبهائـم ـ وصـحيح مسلـم =




ـ وعن سهل بن سعد عن النَّبيﷺ قال :

« إنَّ المؤمن من أَهل الايمان بمنزلة الرأس من الجسد يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس » [1]

المؤمنون متضامنون متَّحدون ، متوادُّون متعاطفون متراحمون ، الوحدة بينهم وحدة حقيقية تغوص في الأَعماق والمشاعر ، وتبدو على الوجوه والأَلسنة ، الوحدة بينهم وحدة عضوية . . . إذا أَلَمَّت كارثة بواحد منهم أو مجموعة تداعى لذلك سائرهم بالمشاركة في الأَلم والرِّعاية والحماسة للحقّ والعناية .

إنَّ إِحساس المرء بأَنَّ هناك ناسًا يشاركونه شعوره يخفِّف عنه كثيرًا من الأَلم ، ويغرس في نفسه أَملاً بالمستقبل يحمله على أَنْ يتخطَّى العقبات ، ولقد مثَّل الرَّسول ﷺ لهذا المعنى بهذا التَّمثيل الرَّائع فقال : ( مثلهم كمثل الجسد الواحد ) .

وفي هذا التَّشبيه أَنَّ أَعضاء البدن كلَّها وإن لم تكن متساوية في الأَهمية لكنَّها متساوية من حيث تأَلُّم الجسد لحلول أَيّ ضرر عليها فالأُصبع والظُّفر والعين واليد والرأس كلٌّ أُولئك إِذا حصل لها مكروه تأَلَّم صاحبها وسهر من أجل ذلك .

وهكذا فليس هناك عضو في المجتمع الإِسلامي مهما كان شأْنه هيِّنًا لا تتأَثَّر الأُمَّة من أَجل ضرٍّ أصابه ، إِنهَّم لا بدَّ أَنْ يتأَلَّموا لأَنهَّم جسد واحد . وهذا يدلُّ على أَنهَّم أَحياء ، أَمَّا إِنْ لم يبالوا فمعنى ذلك أَنهَّم مصابون بشلل أَو حلَّ بهم الموت .

والرِّواية الأُخرى تشبه المؤمن بالنِّسبة للْمؤمنين بالرَّأس من الجسد فكما أَنَّ الجسد يألم لما في الرَّأس أَلَمًا يفوق الأَلم في سواه ، لأَنَّ الرَّأس مجمع الحواس ، وفيه مراكز الإِحساس . . . والحياة متعلِّقة به تعلُّقًا واضحًا ، فكذلك المؤمن يألم لما يحلُّ بأَهل الإِيمان أَلم الرَّأس لأَيّ وجع ينتاب عضوًا ما من الأَعضاء .

---

= ٦/ ١٤٠ ، وفي ط . استانبول ٨/ ٢٠ ـ وصحيح الجامع الصَّغير ٥/ ٢٠١ وعزاه إلى أحمد ومسلم ، وانظر رياض الصَّالحين ٢٠٤ وأقيسة النَّبي ٨٥ و١٢٨

١ ـ مسند أحمد ٥/ ٣٤٠ وانظر أقيسة النَّبي ١٥٨





ـ عن أبي بكرة قال :

قعد النَّبي ﷺ على بعيره ، وأَمسك إنسان بخطامه ـ أَو بزمامه ـ قال : «أيُّ يوم هذا ؟ »

فسكتنا حتَّى ظنَّنا أنَّه سيسمِّيه سوى آسمه .

قال : «أَليس يوم النَّحر؟»

قلنا : بلى

قال : «فأيُّ شهر هذا؟»

فسكتنا حتَّى ظنَّنا أنَّه سيسمِّيه بغير اسمه .

فقال : «أَليس بذي الحجَّة؟»

قلنا : بلى .

قال :«فإنَّا دماءكم وأَموالكم وأَعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . ليبلِّغ الشَّاهد منكم الغائب فإنَّ الشَّاهد عسى أنْ يبلِّغ من هو أوعى له منه » [1]

استقرَّت في نفوس العرب حرمة مكَّة وشهر ذي الحجَّة وحرمة يوم النَّحر، ويريد رسول اللَّه ﷺ أَنْ يقرِّر لهم أَنَّ دماءهم وأَموالهم وأَعراضهم حرام عليهم ، فشبَّهها بحرمة هذه الأُمور الَّتي درجوا على تحريمها .

وآخر الحديث دعوة إِلى أَن يبلِّغ المرء ما يسمع ، فربَّ مبلَّغ يكون أَوعى للكلام منه. وفي الحديث دليل على رغبة الرسول ﷺ في الحوار وإثارته .

ـ عن عمرو بن شعيب عن أَبيه عن جدِّه قال : قال رسول الله ﷺ :

« المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمَّتهم أَدناهم ويجير عليهم أَقصاهم

---

١ ـ صحيح البخاري ١/ ٢٦



وهم يد على من سواهم . يردُّ مشدُّهم على مضعفهم [١] ، ومتسرِّيهم [٢] ، على قاعدهم ، لا يقتل مؤمن بكافر ، ولا ذو عهد في عهده » [٣]

الحديث كناية عن تكافؤ المسلمين : فدماؤهم واحدة وذمَّتهم واحدة ، يسعى بها أدناهم ، ويجير عليهم أقصاهم ، فمن قتل مسلماً قتل به مهما ادَّعى أنَّ بينه وبينه من الفوارق، وأدنى المسلمين يستطيع أنْ يسعى بذمَّتهم، وهم قوَّة على الأعداء .

ثمَّ أشار الحديث إلى ما يدعِّم هذا المبدأ ويؤيِّده في الغنائم إذ يشارك صاحب الدَّابة الضَّعيفة أخاه صاحب الدَّابة القويَّة ، ويشارك القاعد الَّذي قعد لمهمَّة فيها مصلحة للمسلمين يشارك من ذهب إلى السرِّية لأنَّهم كلَّهم شيء واحد ، فكرة قررت بأكثر من طريقة لتبيِّن أنَّ المسلمين متساوون متكافئون .

ـ عن أبي هريرة قال ، قال رسول اللَّه ﷺ :

« مثل المؤمن كمثل الزَّرع ، لا تزال الرِّيح تميله ، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء ، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد » [٤]

وفي رواية عن أبي هريرة قال ، قال رسول اللَّه ﷺ :

« مثل المؤمن كمثل خامة الزَّرع من حيث أتتها الرِّيح كفأتها فإذا سكنت آعتدلت ، وكذلك المؤمن يكفأ بالبلاء . ومثل الفاجر كالأرزة صماًء معتدلة حتَّى يقصمها اللَّه تعالى إذا شاء »[٥]

---

١ ـ المشدّ : الَّذي تكون دوابُّه شديدة قويّة ، والمضعف الَّذي تكون دوابُّه ضعيفة ، يريد أنَّ القويَّ من الغزاة يساهم الضّعيف فيما يكسبه .

٢ ـ المتسرِّي : الَّذي يخرج في السريّة ، أي يردُّ متسريهم على قاعدهم . قال في النهاية : ومعنى الحديث أنَّ الإمام أو أمير الجيش يبعثهم وهو خارج إلى بلاد العدو ، فإذا غنموا شيئًا كان بينهم وبين الجيش عامة لأنَّهم ردء لهم وفئة .

٣ ـ أبو داود ٣/ ١٠٧

٤ ـ صحيح البخاري ٧/ ١٤٩ ط الشّعب وصحيح مسلم ١٧/ ١٥١ وفي ط . استانبول ٨/ ١٣٦ ، ومسند أحمد ١٢/ ١٧٨ ط شاكر ، والتّرمذي وصحيح الجامع الصّغير ٥/ ١٩٩ وأقيسة النّبي ٨٧ .

٥ ـ متّفق عليه وانظر صحيح الجامع الصّغير ٥/ ٢٠٠





ـ وعن كعب قال ، قال رسول اللّٰه ﷺ :

« مثل المؤمن كمثل الخامة [1] من الزَّرع ، تفيئها الرِّيح ، تصرعها [2] وتعدلها [3] أُخرى حتَّى تهيج[4] . ومثل الكافر كمثل الأَرزة المجذية [5] على أَصلها لا يفيئها شيء حتَّى يكون انجعافها [6] مرَّة واحدة » [7]

ـ عن أُبيّ بن كعب قال ، قال رسول اللّٰه ﷺ :

« مثل المؤمن مثل الخامة تحمَّر مرَّة وتصفَّر أُخرى » [8]

ـ وعن جابر قال ، قال رسول اللّٰه ﷺ :

« مثل المؤمن مثل السُّنبلة تستقيم مرَّة وتخرُّ مرَّة ومثل الكافر مثل الأَرزة لا تزال مستقيمة حتَّى تخرَّ ولا تشعر »[9]

ـ عن أَنس قال ، قال رسول اللّٰه ﷺ :

« مثل المؤمن مثل السُّنبلة تميل أَحيانًا وتقوم أحيانًا » [10]

قال العلماء : معنى الحديث أَنَّ المؤمن مبتلى كثير الآلام في بدنه أَو أَهله أَو ماله ، وذلك مكفِّر لسيِّئاته ورافع لدرجاته ، وأَمَّا الكافر فقليلها .

---

١ ـ الخامة : الطَّاقة والقصبة : اللَّينة من الزَّرع

٢ ـ تصرعها : تخفضها

٣ ـ تعدلها : ترفعها

٤ ـ تهيج : تيبس

٥ ـ الأَرزة : شجر معروف يشبه شجر الصنُّوبر يكون بالشَّام ، والمجذية : الثَّابتة

٦ ـ الانجعاف : الانقلاع

٧ ـ صحيح البخاري ٧/ ١٤٩ ط الشّعب وصحيح مسلم ١٧/ ١٥١ وفي ط استانبول ٨/ ١٣٦ ومسند أَحمد وصحيح الجامع الصَّغير ٥/ ١٩٩

٨ ـ مسند أحمد ٥/ ١٤٣

٩ ـ رواه أحمد والضِّياء ، انظر صحيح الجامع ٥/ ٢٠٠

١٠ - رواه أبو يعلي والضِّياء ، انظر صحيح الجامع ٥/ ٢٠٠

والمؤمـن بسبـب من إيمانـه يصبـر على البـلاء ، ويرضى بالقضـاء ، فيكون مأجورًا ، ويناله خير كبير .

أمَّا المنافق والكافر والفاجر فإنَّه لا يصيبه شيء من البلاء حتَّى يأتيه الموت .

إنَّ هذا الحديث تعزية للمصابين المنكوبين ومواساة لهم . ألا فلا ييأس هؤلاء المصابون ولا يحزنوا وليعلموا أنَّ كثرة البلاء أمارة على أنهَّم من المؤمنين ﴿أم حسبتم أنْ تدخلوا الجنَّة ولمَّا يأتكم مثل الَّذين خلوا من قبلكم مسَّتهم البأساء والضرَّاء وزلزلوا حتَّى يقول الرَّسول والَّذين آمنوا معه متى نصر اللَّه إلا إنَّ نصر اللَّه قريب﴾[1]

﴿أحسب النَّاس أنْ يتركوا أنْ يقولوا آمنَّا وهم لا يفتنون﴾[2]

وفي هذا التَّشبيه الجميل جوانب عدَّة :

ـ منها أنَّ الأرزة ذات منظر بهيّ وحجم كبير ، أمَّا السُّنبلة والخامة من الزَّرع فمنظرها بسيط تقتحمه العين .

ـ وهكذا نجد المنافقين والكفَّار يحرصون على المظهر الخارجي دون أيِّ مبالاة للأشياء الأُخرى .

ـ ومنها أنَّ الأَرزة في الغالب ذات منظر ولكن غناءَها الغذائي قليل أو معدوم أمَّا السُّنبلة فإنهَّا تقدِّم المادَّة الأُولى لغذاء النَّاس وكذلك فإنَّ المنافقين والكفَّار لا خير فيهم لأَنفسهم ولا لأُمَّتهم ، بينما الخير كلُّ الخير في المسلم ودينه .

ـ ومنها أنَّ الأَرزة إذا واجهتها ريح عاصف انجعفت وتحطَّمت . أمَّا السُّنبلة فإنَّ أَعتى الرِّياح لا تنال منها .

وهكذا فإنَّ المؤمن لا يتحطَّم أَمام النَّوازل بل يقابلها بصبر وثبات أَمَّا الكافر فإنَّه يتحطَّم وينهار. والبقاء للإيمان وأَهله .

---

١ ـ البقرة : ٢١٤
٢ ـ العنكبوت : ٢

ـ عن أبي هريرة عن النَّبي ﷺ أنَّه قال :

« لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرَّتين »[1]

قالوا في شرحه :

ليكن المؤمن حازمًا حذرًا لا يؤتى من ناحية الغفلة فيخدع مرَّة بعد أُخرى وقد يكون ذلك في أمر الدِّين كما يكون في أمر الدُّنيا وهو أولاهما بالحذر .

وسبب الحديث أنَّه ﷺ أسر أبا عزَّة الشَّاعر الجمحيّ يوم بدر ، فمنَّ عليه وعاهده ألاَّ يحرِّض عليه ولا يهجوه فأطلقه ، ولحق بقومه ، ثُمَّ رجع إلى التَّحريض والهجاء ثُمَّ أُسرِ يوم أحد ، فسأله المنّ . فقال ﷺ : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرَّتين »[2]

المؤمن بعيد عن الغفلة ، يأخذ من كلِّ حادثة يراها درسًا في الحياة لا ينساه .

واللَّدغ يكون من ذوات السُّموم، فالمؤمن عاقل فطن فلا يمكن أنْ يلدغ من جحر ثُمَّ يعود مرَّة أُخرى فيعرِّض نفسه لمثل هذا اللَّدغ. إنَّ الحذر من النَّاس بعد معاملتهم واليقظة الواعية في الحياة لا تتعارض مع حسن الظَّن بالنَّاس ولا مع الودِّ والمحبَّة والإحسان إلى أهل الإحسان .

ولقد شاع هذا الحديث حتَّى أصبح يتمثَّل به في محاورات النَّاس وكلامهم .

ـ عن جرير بن عبد اللَّه قال : قال رسول الله ﷺ :

« أنا بريء من كلِّ مسلم يقيم بين أظهر المشركين »

قالوا : يا رسول اللَّه ! ولم ؟

قال : « لا تراءى نارهما »[3]

---

١ ـ صحيح البخاري ٨/ ٣٨ ط الشّعب كتاب الأدب ـ باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرّتين ، وصحيح مسلم ١٨/ ١٢٤ وأبو داود ٤/ ٣٦٨

٢ ـ انظر شرح صحيح مسلم للنّووي ٨/ ١٢٤

٣ - التّرمذي ٢/ ٣٩٧ وأبو داود ٣/ ٦٢ ورواه ابن ماجه والطّبراني .

إنَّ التمايز بين المسلمين والكفَّار أمر يدعو إليه الدِّين في نصوص كثيرة ، لأَنَّ الاختلاط والمؤاكلة والمعايشة والمجالسة كلٌّ أولئك يدخل الجور على كثير من المبادىء والقيم الإسلامية .

إنَّ المسلم المقيم في ربوع المشركين لا يستطيع أَنْ يحقِّق شعائر دينه ، ولا أَنْ يشعر بالعزَّة ولا أَنْ يدعو لمبادىء عقيدته .

بل إنَّه مضطرٌ ليحافظ على حياته ومصالحه وبقائه في وسط أولئك الكفَّار أَنْ يعطى الدَّنيَّة في دينه وأَنْ يرى استعلاء سلطان الكفَّار في مكان يقيم فيه أمرًا طبيعيًّا لا ينكره ولا يعمل على إزالته ، وربمَّا كان في قرارة نفسه معجبًا بأَحوالهم وأمورهم .

ولذلك جاء الأَمر ملزمًا بالهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام وجاء التَّهديد الشَّديد لأولئك الَّذين يؤثرون العيش في ديار الشرِّك فرسول اللَّه ﷺ يعلن براءته من كلِّ مسلم يقيم بين أظهر المشركين وذلك يعني خسرانه وضياعه ، لأنَّ رسول اللَّه ﷺ يتبرأً منه . بل يكاد يصل هذا إلى كفره وخروجه من الدِّين .

فعمله هذا محظور ممنوع . . .

والصُّورة الرَّائعة الَّتي عبَّر بها رسول اللَّه ﷺ عن مفاصلة المشركين والبعد عنهم هي :

لا تراءى نارهما .

أي يجب على المسلم أَنْ يجعل منزله بعيدًا عن منزل المشركين ولا ينزل بالموضع الَّذي إنْ أُوقدت فيه ناره تلوح وتظهر للمشرك إذا أوقدها في منزله . . بل ينزل مع المسلمين .

أَي لا يجوز أَنْ يساكن الكفَّار في بلادهم بحيث إذا أوقدوا نارًا كان منهم بحيث يراها .

ولقد درج على هذا المسلمون حتَّى فيما يتعلَّق بأَهل الذِّمة حيث كانوا يقيمون

في أَحياء خاصَّة بهم . . إلى أن احتلَّت بلاد المسلمين من قبل المستعمرين الكفرة فشجَّعوهم على الانتشار بين المسلمين ليحقِّقوا غرضين :

أَوَّلهما تزوير وجه البلد وإظهارها على غير حقيقتها وذلك ببناء معابدهم وإِظهار شعاراتها في مداخل البلد وضمن أَحيائه المختلفة .

وثانيهما إفساد تصوُّرات أبناء المسلمين في كثير من أُمور السُّلوك والعادات . . . وحتَّى العقيدة عن طريق المعايشة والاختلاط الزَّائد .

- عن أَبي أَيُّوب الأَنصاري أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قال :

«لا يحلُّ لمسلم أن يهجر أَخاه فوق ثلاث ليال ، يلتقيان فيعرض هذا ، ويعرض هذا . وخيرهما الَّذي يبدأ بالسَّلام » [1]

- وعن أَبي خراش السَّلمي أَنَّه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول :

« من هجر أَخاه سنة فهو كسفك دمه » [2]

إِنَّ المجتمع الإِسلامي صفٌّ متماسك مرصوص ، تسوده المحبَّة والرَّحمة ، يحبُّ الواحد فيه لإِخوانه ما يحبُّ لنفسه . . ويؤثر أَحدهم أَخاه على نفسه ولو كان به خصاصة . . هذا المجتمع الَّذي يصدق فيه قول اللَّه عزَّ وجلَّ : ﴿ أَذلَّة على المؤمنين أَعزَّة على الكافرين﴾[3] . أفراده متراحمون فيما بينهم رحمة تكاد تصل إلى الذُّل .

هذا المجتمع صان اللَّه وحدته وسلامته بأُمور منها تحريم التَّهاجر بين أَفراده فالمدَّة القصوى للمقاطعة بين أخوين هي ثلاث ليال لا تزيد عن ذلك .

تهدأ خلالها الأَعصاب الثَّائرة ، وتذهب حدَّة الغضب ، وتزول مظاهر الانفعال . . وتعود المعاملة الحسنة والصِّلة الطَّيبة إلى ما كانت عليه .

والحديثان يعالجان هذا الموضوع :

---

(١) صحيح البخاري ٨/ ٢٤ ط الشَّعب ( كتاب الأَدب - باب الهجرة وقول رسول اللَّه ﷺ لا يحلُّ لرجل أَنْ يهجر . . . ) وصحيح مسلم ١٦/ ١١٧

(٢) أبو داوود ٤/ ٣٨٤ .

(٣) المائدة : ٥٤

ففي دنيا الواقع لا بدَّ أنْ يحصل خلاف بين الأخوة ولكنَّ هذا الخلاف لا يجوز أنْ يصبح أساسًا تبنى عليه العلاقات الاجتماعية . . . بل على المسلم أنْ يتجاوزه صافحاً مسامحاً مبتغيًا المغفرة والأجر .

وقد صوَّر حديث أبي أيُّوب المتهاجرين بأنَّهما ( يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا) . . إنَّه تصوير قائم على وصف الواقع الَّذي يكون عليه المتغاضبان المتقاطعان . . ويعقِّب رسول اللَّه ﷺ قائلا : ( وخيرهما الَّذي يبدأ بالسَّلام ) .

وأما حديث أبي خراش فإنَّه ينفر من المقاطعة الطَّويلة أشدَّ التَّنفير ويجعل هجر الإنسان أخاه سنة مساويًا لقتل النَّفس وسفك الدَّم . . وإنَّه لتصوير منفِّر ومعبِّر .

إنَّ هجر الإنسان أخاه سنة استغناء عن نصرته ومعونته . . فهو كأنَّه قتل إنسانًا كان من الممكن أنْ يقف إلى جانبه . . والنَّاس يحيون بعلاقتهم الاجتماعية . . ومعروف في الشَّريعة عظم جريمة قتل المسلم وسفك دمه .

ـ عن أبي بكرة قال رسول اللَّه ﷺ :

« إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النَّار »

فقلت : يا رسول اللَّه ! هذا القاتل . فما بال المقتول ؟

قال : « إنَّه كان حريصًا على قتل صاحبه » [١]

ـ وعن أبي سعيد وأبي هريرة قالا : قال رسول اللَّه ﷺ :

« لو أنَّ أهل السَّماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبَّهم اللَّه في النَّار » [٢]

ـ وعن ابن عمرو قال قال رسول اللَّه ﷺ :

« لزوال الدُّنيا أهون على اللَّه من قتل رجل مسلم » [٣]

---

١ ـ صحيح البخاري ١/ ١٥ ط الشَّعب وصحيح مسلم ٨/ ١٧٠ ط استانبول
٢ ـ التِّرمذي ٢/ ٣٠٦

شأن المسلم عند اللَّه عظيم . . وقتله من أعظم الكبائر الموبقات ، ودمه مصون لا يحلُّ سفكه إلاَّ في حالات حدَّدها الكتاب والسُّنة . ومن استهان بالدِّماء كان في نار جهنَّم تحوطه اللَّعنة ويحدق به العذاب .

بل إنَّ الحرص على قتل الرَّجل المسلم سبب لدخول النَّار كما في حديث أَبي بكرة .

وفي قوله ﷺ «التقى المسلمان بسيفيهما» كناية عن الاقتتال وذلك بعرض هذه الصُّورة المتحركة ( التقيا بالسُّيوف ) وعقوبة القاتل عقوبة شديدة ولا يخفَّف عنه العذاب اشتراك غيره معه في القتل ، فلو اشترك أَهل الأَرض وأَهل السَّماء في دم مؤمن لأَكَبَّهم اللَّه في النَّار . .

صورة مفترضة عن الاشتراك في القتل وهي أَنْ يتعاون أَهل الأَرض كلّهم ويشترك معهم أَهل السَّماء أيضا في قتل رجل مسلم إذن لكانت العقوبة من اللَّه لهم جميعًا .

أَما هذه العقوبة فقد عرضها النَّبي ﷺ بصورة لما يكون لهم في النَّار . . صورة واقعيَّة لعقوبتهم يوم القيامة وهي أَن اللَّه سيكبُّهم على وجوههم في النَّار .

وإضافة أَهل السَّماء لتبرز الغاية في عظم جريمة القتل لأَنَّ أَهل السَّماء عادة هم أَهل التَّكريم . . فلو فرضنا أَنهَّم اشتركوا في القتل عمَّتهم العقوبة . إنَّ زوال الدُّنيا كلِّها أَهون عند اللَّه من قتل رجل مسلم . . موازنة تبينِّ ضخامة جريمة القتل .

ـ عن محمود بن لبيد أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قال :

« إنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ ليحمي عبده المؤمن من الدُّنيا وهو يحبُّه كما تحمون مريضكم الطَّعام والشرَّاب تخافون عليه » [1]

الدُّنيا حلوة خضرة . . والنَّفس تميل إِليها . . وربمَّا كان في حيازتها ما يروي الإِنسان وما يشقيه .

---

١ ـ مسند أحمد ٥/ ٤٢٧

فإذا أَحبَّ اللَّه عبداً من عباده حماه هذه الدُّنيا بأَنْ يحول بينه وبين الغنى الواسع والشَّهوات المبتغاة كما يحمي النَّاس مريضهم من الطَّعام الطيِّب والشرَّاب العذب خوفًا عليه من أَنْ يتفاقم عليه المرض أو أَنْ يكون ذلك سببًا في هلاكه .

ـ عن أَنس قال قال رسول اللَّه ﷺ :

« مثل أُمَّتي مثل المطر : لا يُدرى أَوَّله خير أَم آخره » [1]

في الحديث تشبيه للمسلمين بالمطر .

ولهذا التَّشبيه قيمته الكبرى في بيئة تقلُّ فيها المياه ويكون المطر فيها عنوان اليسر والبحبوحة .

المسلمون هم الحياة للدُّنيا . أَوَّلهم وآخرهم . . فكما أَنَّ المطر لا يُدرى أَيهُّما خير أَوَّله أَم آخره وكذلك المسلمون إنهَّم مثل المطر .

ـ عن ثوبان قال قال رسول اللَّه ﷺ :

« يوشك أَن تداعى عليكم الأُمم كما تداعى الأَكلة إلى قصعتها »

فقال قائل : ومن قلَّة نحن يومئذ ؟

قال : « بل أَنتم كثير ولكنَّكم غثاء كغثاء السَّيل . ولينزعنَّ اللَّه من صدور عدوِّكم المهابة منكم وليقذفنَّ في قلوبكم الوهن »

فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟

قال : « حبُّ الدُّنيا وكراهية الموت » [2]

---

١ ـ مسند أَحمد والنَّسائي ( انظر صحيح الجامع الصَّغير ٥/ ٢٠٣ ) وروى هذا الحديث عن رسول اللَّه (ﷺ) عمار وقد أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٥٤ ط شاكر . ورواه علي وأخرجه أبو يعلى . ورواه أيضًا ابن عمر وابن عمرو وأخرجه الطَّبراني في الكبير وأقيسة النَّبي ١٩٠ .

٢ ـ أبو داود ٤/ ١٥٨ ومسند أحمد ٢/ ٣٥٩

في الحديث صورتان :

صورة تشبه واقع المسلمين اليوم ، الَّذين يبلغون مليار نسمة أَي ما يعادل ثلث سكان الأَرض ، ولكنَّهم لا شأن لهم . لا يهابهم أَحد ، ولا يحسب لهم أيُّ حساب . . إنهَّم في نظر أَعدائهم متاع . . بل طعام يؤكل . . إنهَّم غثاء كغثاء السَّيل له حجم وله منظر ولكنَّه لا يروي ولا ينفع .

وصورة أُمم الكفر الاستعمارية الَّتي تتداعى إلى اقتسام بلادهم والسَّيطرة عليها وعلى موارد الثَّروة فيها كما يتداعى الآكلون إلى قصعة الطَّعام ، والسَّبب في هذا كلِّه حبُّ المسلمين للدّنيا وكراهيتهم للّموت .

إنَّ هذه الأُمَّة الَّتي هي خير أُمَّة أُخرجت للنَّاس سيكون حالها كما وصف رسول اللَّه ﷺ . وقد كان ورأينا ذلك . وها نحن أولاء نعيش فيه .

وهذا من أَعلام نبوَّته ﷺ .

والطَّريق إلى العلاج واضح بينٌ لا لبس فيه ولا غموض إنَّه ترك الوهن .

لا بدَّ من أَن تخلع الأُمَّة حبَّ الدُّنيا ولا بدَّ لها من حبِّ القتال والاستعداد له والتَّطلع إلى الموت في ساحاته . إنهَّا إِن فعلت هذين الأَمرين عاد لها ما كان لها واللَّه غالب على أَمره .

ـ عن مرداس الأَسلمي ـ وكان من أَصحاب الشَّجرة ـ أَنَّه قال : [١]

« يقبض الصَّالحون : الأوّل فالأَوَّل ، وتبقى حفالة كحفالة [٢] التَّمر والشَّعير لا يعبأ اللَّه بهم شيئًا » [٣]

---

١ ـ هذا الحديث ـ وإن كان موقوفا على مرداس ـ هو في حكم المرفوع لأنَّ مضمونه لا يمكن أن يقال من جهة الرَّأي . هذا وقد أورد النَّووي الحديث معزوًّا إلى البخاريِّ مرفوعاً إلى النَّبي ﷺ كما جاء في رياض الصَّالحين ٩٩٦ باب المنثورات والملح وانظر تخريجه في التَّعليق رقم ٣ من هذه الصَّفحة .

٢ ـ الحفالة : الحثالة وزنًا ومعنًى

٣ ـ صحيح البخاري ٥/ ١٥٧ ط الشَّعب



ـ عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« كيف بكم بزمان ـ أو يوشك أَنْ يأتي زمان ـ يغربل النَّاس فيه غربلة ، تبقى حثالة من النَّاس قد مرجت عهودهم وأَماناتهم وآختلفوا فكانوا هكذا» وشبَّك بين أصابعه .

فقالوا : كيف بنا يا رسول اللّه ؟

قال : « تأخذون ما تعرفون . وتذرون ما تنكرون . وتقبلون على أمر خاصَّتكم ، وتذرون أَمر عامَّتكم » [1]

ـ عن أَبي هريرة قال قال رسول اللّه ﷺ :

« إنَّ اللّه يبعث ريحًا من اليمن أَلين من الحرير فلا تدع أَحدًا في قلبه مثقال حبة ـ أو ذرَّة ـ من إيمان إلاَّ قبضته » [2]

ـ عن عبد اللّه بن عمرو قال قال رسول اللّه ﷺ :

« . . . ثُمَّ يرسل اللّه ريحًا باردة من قبل الشَّام فلا يبقى على وجه الأَرض أحد في قلبه مثقال ذرَّة من خير أَو إيمان إلاَّ قبضته ، حتَّى لو أَنَّ أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتَّى تقبضه » .

قال : سمعتها من رسول اللّه ﷺ قال :

« فيبقى شرار النَّاس في خفَّة الطَّير ، وأحلام السِّباع لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا » [3]

هذه الأَحاديث تقرِّر أَنَّ الصَّالحين من المؤمنين يقبضون في آخر الزَّمان ولا يبقى منهم أَحد .

---

١ ـ صحيح البخاري ١/ ١٢٩ ط الشَّعب كتاب الصَّلاة باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره وأبو داود ٤/ ١٧٤ واللَّفظ لأَبي داود .

٢ ـ صحيح مسلم ٢/ ١٣٢ .

٣ ـ صحيح مسلم ١٨/ ٧٦





وقد ذكرت هذه الأَحاديث طريقة موتهم وحال النَّاس الَّذين يبقون من بعدهم بصور رائعة ، وذكرت وصيَّة رسول اللَّه ﷺ لمن يبقى إلى هذه المدَّة قبل أن يأتيه أَجله .

أمَّا وفاة الصَّالحين فإنهَّا تكون في غاية الإكرام :

إنَّ ريحًا أَلين من الحرير تأتي من جهة اليمن ، وريحًا أُخرى باردة تأتي من قبل الشَّام . . فلا يبقى على وجه الأَرض أحد في قلبه مثقال ذرَّة من خير أَو إيمـان إلاَّ قبضته .

والموت كثيراً ما يكون إكرامًـا لكيلا يشقـى المرء برؤية أَنمـاط من الأَشرار يتحكَّمون في رقاب العباد يضطَّهدون الكرام الأحرار ويعيثون في الأَرض الفساد .

يقول ﷺ : « حتَّى لو أَنَّ أَحدهم دخل في كبد جبل لدخلت عليه هذه الرِّيح الباردة حتَّى تقبضه ».

ولا يبقى إلاَّ الأَشرار . . حثالة من السَّفلة والرَّعاع لا عهود لهم ولا مواثيق ولا أمانة عندهم ولا استقامة يكونون في خفَّة الطَّير وعقول الوحوش لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا .

ويوصي رسول اللَّه ﷺ إذا بدأت هذه الغربلة للنَّاس أَنْ ينصرف المرء إلى خاصَّة نفسه ويدع عنه أَمر العامَّة . . لأَنَّ العمل عندئذ ميؤوس منه .

هذا هو حال هذه الأُمة الكريمة في آخر الزَّمان. فما هي الصُّور الجميلة الَّتي وقفنا عليها في هذه الأَحاديث.

ـ النَّاس يغربلـون . . فيتـوفىَّ الصَّالحـون . . وتبقـى حثالـة كحثالة التَّمـر والشَّعير . .

ـ الرِّيح الَّتي تقبض الصَّالحين أَلين من الحرير .

يتوفىَّ الأوَّل فالأوَّل حتَّى لا يبقى أَحد في قلبه مثقال ذرَّة من إيمان إلاَّ وتقبضه .

هؤلاء السَّفلة الأَشرار هم في خفة الطَّير حركةً وإفساداً وفي أحلام السِّباع غفلة وغباء وبلادة .

ـ لو أنَّ أحدًا من الصَّالحين دخل كبد الجبل دخلت عليه الرِّيح حتَّى تقبضه

إنهَّا صور منتزعة من بيئة السَّامعين يتذوَّقونها ، ورافقتها إشارة معبِّرة من النَّبي ﷺ عند تقريرها .

ـ عن عبد الله بن بسر المازني عن رسول اللَّه ﷺ قال :

« ما من أُمَّتي أَحد إلاَّ وأَنا أَعرفه يوم القيامة »

قالوا : كيف تعرفهم يا رسول اللَّه في كثرة الخلائق ؟

فقال : «أرأيت لو دخلت صبرة [1] فيها خيل بهم ، وفيها فرس أَغرّ محجَّل أما كنت تعرفه منها ؟»

قال : بلى :

قال : «فـإِنَّ أُمَّتي يومئذ غرٌّ من السُّجود محجَّلون من الوضوء » [2]

مرَّ بنا حديث مقارب لهذا الحديث في مبحث المؤمن الطَّائع يوم القيامة وكان الحديث ذاك عن أبي هريرة [3]

ولذلك فإنِّي أكتفي بإيراده هنا والأَشارة إلى أنَّ المسلم يوم القيامة يأتي أَغرَّ من السُّجود محجَّلاً من الوضوء وبذلك يتميّز عن الخلق وبهذه العلامة يعرفه رسول اللَّه ﷺ

ـ عن أبي موسى عن النَّبي ﷺ أنَّه قال :

« مثل المسلمين واليهود والنَّصارى كمثل رجل استأجر قومًا يعملون له عملاً إلى اللَّيل :

---

١ ـ الصبرة : حظيرة تتَّخذ للدَّواب من الحجارة .
٢ ـ مسند أحمد ٤/ ١٨٩
٣ ـ انظر ص **١١٩** من هذا الكتاب

فعملوا إلى نصف النَّهـار . فقالـوا : لا حاجة لنـا إلى أَجـرك . فاستأجـر آخرين ، فقال : أكملوا بقيَّة يومكم ، ولكم الَّذي شرطت . فعملوا حتَّى إذا كان حين صلاة العصر قالوا : لك ما عملنا . فاستأجر قومًا فعلوا بقيَّة يومهم حتَّى غابت الشَّمس واستكملوا أجر الفريقين »[1]

ـ عن عبد اللَّه بن عمر أنَّه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول :

إنمَّا بقـاؤكم فيما سلف قبلـكم من الأُمـم كما بـين صلاة العصر إلى غروب الشَّمس :

أوتي أَهل التَّوراة التَّوراة فعملوا حتَّى إذا انتصف النَّهار عجزوا ، فأُعطوا قيراطاً قيراطاً .[2] ثُمَّ أُوتي أَهل الانجيل الإِنجيل فعملـوا إلى صلاة العصر، ثُمَّ عجـزوا فأُعطوا قيراطاً قيراطاً . ثُمَّ أُوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشَّمس فأُعطينا قيراطين قيراطين .

فقال أَهل الكتابين : أَي ربَّنا أَعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأَعطيتنا قيراطاً قيراطاً ونحن كنَّا أكثر عملاً .

قال قال اللَّه عزَّ وجلَّ : هل ظلمتكم من أَجركم من شيء ؟

قالوا : لا

قال : فهو فضلي أُوتيه من أَشاء »[3]

كرَّم اللَّه الأُمَّة الإِسلامية بخصائص ومزايا ليست لغيرها من الأُمم ولقد كانت على المستوى المطلوب منها طاعة وامتثالاً وبذلاً وبطولة فكانت خير أُمَّة أُخرجـت

---

١ ـ صحيح البخاري ١/ ١٤٦ ط الشَّعب وفتح الباري ٢/ ٣٨

٢ ـ كرَّر القيراط ليدلَّ على تقسيم القراريط على العمال .

٣ ـ صحيح البخاري ١/ ١٤٦ ط الشَّعب كتاب الصَّلاة باب : من أَدرك ركعة من صلاة العصر وفتـح الباري ٢/ ٣٨ .

للنَّاس أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر وآمنت باللَّه . وقد مثَّل لها الرَّسول ﷺ وللنَّصارى واليهود بمثل جاء على هيئة قصَّة أكثر من مرَّة ورواه أكثر من صحابي .

ومعنى قوله ( إنَّما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم ) إنَّ نسبة مدَّة هذه الأُمَّة إلى مدَّة من تقدَّم من الأُمم مثل ما بين صلاة العصر وغروب الشَّمس إلى بقيَّة النَّهار ، فكأنَّه قال : إنَّما بقاؤكم بالنِّسبة إلى ما سلف .

وقال ابن حجر في شرحه : ( وحاصله أنَّ ( في ) بمعنى إلى وحذف المضاف وهو لفظ ( نسبة ) . ).

وهناك فرق بين حديث أَبي موسى وحديث ابن عمر بأنَّ القوم في الحديث الأَوَّل حرموا الأَجر لأَنهَّم قالوا : لا حاجة لنا إلى أَجرك .

أَمَّا الآخرون فإنهَّم كانوا حريصين على الأجر ولذلك فقد آشتكوا أَنهَّم كانوا أَكثر عملاً ومع ذلك أُعطي غيرهم أكثر منهم فكان الجواب أَنَّه فضل اللَّه .

ـ عن ابن عمر قال قال رسول اللَّه ﷺ :

« مثل المنافق كمثل الشَّاة العائرة [1] بين الغنمين تعير [2] إلى هذه مرَّة وإلى هذه مرَّة ، لا تدري أَيهَّما تتبع »[3]

ـ وعن أَبي هريرة قال قال رسول اللَّه ﷺ :

« إنَّ من شرِّ النَّاس ذا الوجهين الَّذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»[4]

جاء في وصف المنافق نصوص كثيرة في الكتاب والسُّنة، ولقد مرَّ بنا في هذا

---

١ ـ العائرة : المتردِّدة الحائرة .
٢ ـ تعير : تردَّد وتذهب .
٣ ـ صحيح مسلم ١٧/١٢٨ ( وفي ط استانبول ٨/ ١٢٤ ) ومسند أحمد والنَّسائي ( وانظر صحيح الجامع الصَّغير ٥/ ٢٠٣ وأقيسة النَّبي ٨٦ )
٤ ـ صحيح مسلم ١٦/ ٧٨ و١٥٦ .

الفصل تشبيه للمنافق بأنَّه كشجرة الأرز، ورأيت أنْ أتبع الكلام عن المؤمن بدراسة لبعض الأحاديث الَّتي جاءت في وصف المنافق لتتميَّز معالم صورة كلٍّ منهما .

يشبِّه الرَّسول ﷺ المنافق الشَّاة العائرة المتردِّدة بين القطيعين تنظر أيْنَ المصلحة الرَّاجحة وأين المستقبل المأمون فهي تتردَّد بينهما ولا تدري أيهَّما تتبع .

والمنافق يتردَّد بين من يخافهم ويرجو نفعهم وإنْ كان لا يشاركهم عقيدتهم وبين شياطينه الَّذين هم على رأيه، ويحار في كثير من الأحيان في اتخاذ الموقف الحاسم .

ووصفه رسول اللَّه ﷺ في الحديث الثَّاني بأنَّه ذو وجهين ، يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه .

وقد عبَّر ﷺ عن المنافق تعبيراً مصوَّراً بدقَّة . إذْ يلبس لكلٍّ قوم الوجه الَّذي يرضون عنه ، ويظهر أمام كلٍّ فريق من النَّاس بما يسرُّهم .

إنَّ من يكون كذلك هو من شرار النَّاس .

ـ عن أبي سعيد الخدريّ قال :

بينما نحن عند رسول اللَّه ﷺ وهو يقسم قسماً أتاه ذو الخويصرة ـ وهو رجل من بني تميم ـ فقال :

ـ يا رسول اللَّه ! اعدل .

ـ قال رسول اللَّه ﷺ : « ويلك ! ومن يعدل إنْ لم أعدل ؟ قد خبت وخسرت إنْ لم أعدل . »

ـ فقال عمر بن الخطَّاب : يا رسول اللَّه ! ائذن لي فيه أضرب عنقه .

ـ قال رسول اللَّه ﷺ : «دعه ، فإنَّ له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يقرءون القرآن ولا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السَّهم من الرَّميَّة : ينظر إلى نصله [1] فلا يوجد فيه شيء ، ثُمَّ ينظر

---

١ ـ النَّصل : حديدة السَّهم

إلى رصافه [1] فلا يوجد فيه شيء . ثُمَّ ينظر إلى نضيِّه [2] فلا يوجد فيه شيء ( وهو القدح ) [3] ثُمَّ ينظر إلى قذذه [4] فلا يوجد فيه شيء ، سبق الفرث والدَّم . . . » [5]

وفي رواية البخاري :

« . . يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم أو حلوقهم ، يمرقون من الدِّين كما يمرق السَّهم من الرَّمية ، فينظر الرَّامي إلى سهمه إلى نصله إلى رصافه فيتمارى في فوقه[6] : هل علق بها من الدَّم شيء »[7]

ـ وعن عليّ قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول :

« يأتي في آخر الزَّمان قوم حدثاء الأسنان ، سفهاء الأَحلام ، يقولون من قول خير البريَّة ، يمرقون من الإِسلام كما يمرق السَّهم من الرَّميَّة لا يجاوز إيمانهم حناجرهم » [8]

وهكذا نختتم هذا الفصل بذكر نموذج من النَّاس خرج من الدِّين ولم يتأثَّر به في شيء . . مع أَنَّ مظاهرهم تدلُّ على تديُّن وتقوى .

إنهَّم قوم يحرصون على الشَّعائر والعبادات : فصلاتهم طويلة خاشعة ، وصيامهم صيام كثير وقراءاتهم للقرآن قراءة مستمرَّة ، وهم صغار السِّن سفهاء العقول يقولون أحسن الكلام ولكنَّهم على الرَّغم من ذلك كلِّه خارجون من الدِّين . . لقد ضلَّ سعيُهم وهم يحسبون أَنَّهم على شيء حسن !

---

١ ـ الرُّصاف : مدخل النَّصل من السَّهم .
٢ ـ النَّض : القدح
٣ ـ القدح : أي عوده .
٤ ـ القذذ : جمع قذة وهي ريش السَّهم
٥ ـ صحيح مسلم ٧/ ١٦٥ ـ ١٦٦
٦ ـ الفوق : الحزُّ الَّذي يجعل فيه الوتر
٧ ـ صحيح البخاري ٩/ ٢١ ط الشَّعب كتاب استتابة المرتدِّين باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجَّة عليهم .
٨ ـ أبو داود ٤/ ٣٣٦ باب في قتال الخوارج .

هذا المعنى عبَّر عنه رسول اللّه ﷺ بصور في غاية الجمال والدِّقة .

فالصلاة الحسنة والصِّيام الجيِّد عبَّر عنهما في الحديث بقوله ﷺ :

«يحقر أحدكم صلاته وصيامه مع صيامهم» فإذا تذكَّرنا أنَّ الكلام موجَّه إلى الصَّحابة الكرام عرفنا مدى حسن صلاة هؤلاء القوم وصيامهم . إنَّ الخيال ليذهب بعيداً في تحديد معالم حسنهما بشكل لا تستطيع الكلمات تصويره .

وعبَّر عن بعدهم عن الدِّين بهاتين الصُّورتين :

١ ـ صورة عدم قبول قراءتهم للقرآن وبعدهم عن تحقيق مضمونه بأَنهَّا لا تجاوز حناجرهم وحلوقهم (وفي الرِّواية الأخرى: لا تجاوز تراقيهم).

٢ ـ صورة خروجهم من الدِّين بسرعة بعد أَن دخلوا فيه بأَنهَّم يشبهون السهم الَّذي مرق من الرَّمية بسرعة هائلة حتَّى إنه لم يعلقَ فيه شيء من دم الرميَّة وجاء النَّاس والرَّامي ينظرون في هذا السَّهم إلى حديدته . . إلى عوده . . إلى ريشه . . إلى مقدمته . . إلى مؤخرته . . هل علق به شيء فلا يرون أنَّه قد علق به شيء من الدَّم .

وهكذا هؤلاء القوم دخلوا في الدِّين وخرجوا منه دون أنْ يعلق بهم منه شيء

وقد عرض علينا مشهد الرَّامي وهو يتفقَّد السَّهم بعد أن مرق من الرَّمية وينظر إلى مواضع مختلفة منه عرضه على وجه يدلُّ على تعجّب هذا الرَّامي ، ويثير هذا العرض تعجُّبنا نحن أيضاً .

وكذلك الأَمر بالنِّسبة لهؤلاء كيف لا يكون فيهم أيُّ أثر من الدِّين وهم قد دخلوا به . . إنَّه أَمر عجيب . . ولكنَّه واقع لا شكَّ فيه .

## ١٠ ـ الإنســـــان :

إنَّ النَّظرات الَّتي يقف عليها المرء في حديث رسول اللّه ﷺ والَّتي تناقش موضوع الإنسان هي أعمق ما يمكن أَن يعثر عليه الدَّارس في التُّراث القديم



والحديث . . فلقد نفَذ صلوات اللّه وسلامه عليه إلى أعماق الإنسان وفصَّل القول فيه من حيث هو إنسان ، ولم يخضع في تقرير هذه المعاني لضغط طبقة أو زمن أو قوم أو جنس أو مكان .

وإنَّه لموضوع طريف أنْ يبحث باحث عن الإنسان في حديث رسول اللّه ﷺ ، ولكنَّنا هنا لن نعرض إلاَّ الأحاديث الَّتي نجد فيها الصُّور الفنِّية وسنرى أنَّ الكرام في النَّاس قليل لأنَّ النَّاس كالمعادن .

وسنرى الإنسان بين أمله العريض وأجله المحدود ، كما نرى الجوانب الطَّيِّبة فيه والجوانب السَّيِّئة فيه، وختمت الفصل بذكر بعض النماذج الشَّامخة الَّتي تبدو منارات تضيء معالم الطَّريق :

- عن أبي هريرة عن النَّبي ﷺ أنَّه قال :

« النَّاس معادن كمعادن الذَّهب والفضَّة . خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا .

والأَرواح جنود مجنَّدة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف »[1]

النَّاس معادن . حقيقة لا شكَّ فيها إذ يختلف النَّاس بعضهم عن بعض اختلاف المعادن في خصائصها ومزاياها .

فبعضها ثمين كالذَّهب والفضَّة ، وبعضها رخيص كالحديد والنُّحاس ، وهذا التَّشبيه الموَّفق يدلُّ على أنَّ المرء لا يقوى على التَّخلُّص من خصائصه فهو كالمعدن لا يمكن أن يتخلَّى عن مزاياه وصفاته ، وعلى أَنَّ النَّاس الكرام قليل عددهم ، فالذَّهب والفضَّة من المعادن النَّادرة إذا قيسا بالحديد مثلاً .

---

١ - صحيح البخاري ٤/ ٢١٦ - ٢١٧ ط كتاب الشَّعب . وروى البخاري قوله (ﷺ) ( الأرواح جنود مجنَّدة ) أيضاً من رواية عائشة ٤/ ١٦٢ ، وصحيح مسلم ١٦/ ٧٨ و١٨٥ ( وفي طبعة استانبول ٨/ ٤١ ) وأبو داود ٤/ ٣٥٩ .





وعلى أنَّ المعدن إذا كان في وسط سيِّء غير كريم فإنَّ هذا لا يغيرٌ من نفاسته شيئًا ، لكنَّه إذا انتقل إلى وسط فاضل جمع بين الحسنيين وكان في موضعه اللاَّئق به .

والمعدن الخسيس لا يرفع من شأنه كونه في وسط محترم عند النَّاس .

وقرَّر ﷺ أنَّ في الجاهلية خيارًا في صفاتهم الذَّاتية وخصائصهم الشَّخصية فهؤلاء في الإسلام خيار إذا فقهوا وقوله ﷺ « الأَرواح جنود مجنَّدة » صورة أُخرى ملموسة فهذه الأَرواح إنْ كانت متعارفة وهي من نوعيَّة واحدة ومزاج واحد وجدَتها مؤتلفة ، أمَّا إنْ كانت متناكرة وجدتَها مختلفة .

ولا بدَّ من الإِشارة إلى موسيقى الحديث الرَّائعة الَّتي نقف عليها في هذا النَّص إذ بلغت حدًّا فائقًا في التأثير والحسن .

ـ عن عبد اللَّه بن عمر قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول :

« إنَّما النَّاس كإبل مائة ، لا تكاد تجد فيها راحلة »[1]

إنَّ المرضيَّ الأَحوال من النَّاس ، الكامل الأَوصاف فيهم قليل . . إنَّك لا تجد من المائة من الإبل راحلة تصلح للركوب ، لأنَّ الَّذي يصلح للرَّكوب ينبغي أَن يكون وطيئاً سهل الانقياد ، وكذا لا تجد في مائة من النَّاس من يصلح للصَّحبة بأَن يعاون رفيقه ويلين جانبه . . نعم لا تجد الرَّجل الجواد الَّذي يحمل أَثقال النَّاس ويكشف كربهم . . إنَّه عزيز الوجود كالرَّاحلة في الإبل الكثيرة .

والصُّورة منتزعة من البيئة العربية الَّتي تعرف أَوصاف الرَّاحلة وأنها نادرة عزيزة الوجود .

أَلا ما أَقلَّ الكرام الصَّالحين الصَّادقين .

ـ عن أَبي هرير قال قال رسول اللَّه ﷺ :

---

١ ـ صحيح البخاري ٨/ ١٣٠ ط الشَّعب ( كتاب الرِّقاق ـ رفع الأَمانة ) وصحيح مسلم ١٦/ ١٠١ وفتح الباري ١١/ ٣٣٥ وأقيسة النَّبي ١٣٣ .



« ربَّ أشعث أَغبر مدفوع بالأبواب لو أَقسم على اللَّه لأَبرَّه»[1].

- وعن أَبي هريرة قال قال رسول اللَّه ﷺ :

« إنَّه ليأتي الرَّجل العظيم السَّمين يوم القيامة لا يزن عند اللَّه جناح بعوضة آقرؤوا ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾[2] »[3]

عرض الحديثان لرجلين يكون وضعهما عند النَّاس شيئًا ولكنَّ هذا الوضع يكون شيئًا آخر مختلفًا كلاًّ الاختلاف يوم القيامة وعند اللَّه . فهذا رجل عظيم سمين في الدُّنيا يأتي يوم القيامة لا يزن جناح بعوضة . صورة تنقل خيالنا من طرف إلى طرف يقابله ففي الدُّنيا يكون هذا الرَّجل سمينًا جدًّا وفي الآخـرة لا يكون هزيلاً فحسب بل يتحوَّل إلى أَقلّ من جناح بعوضة . .

والنَّظرة الدُّنيوية نظرة موقوتة لا تفيد صاحبها شيئًا . أَمَّا النَّظرة الأُخرويَّة فهي الَّتي تقرِّر مصير صاحبها وتنتهي به إما إلى الجحيم وإما إلى النَّعيم .

وذاك رجل أَشعث أغبر منفوش الشَّعر يعلوه الغبار مدفوع بالأَبواب . . يردُّه النَّاس ويأنفون من قبوله . . ولا يأبهـون له . . ولكنَّـه لو أَقسـم على اللَّـه لأَبَّـره واستجاب دعوته .

والموازنة ههنا بين وضع هذا الرَّجل عند النَّاس وعند اللَّه لا في يوم القيامـة ولكنْ بشكل مطلق، فاستجابة اللَّه لدعوته في الدُّنيا وقد تكون في الآخرة أيضًا. إدن ليس السَّمين العظيم بالدُّنيا عظيماً يوم القيامة وليس المدفوع بالأَبواب مدفوعًا عند اللَّه .

إنَّ للنَّاس مقاييس ليسـت صحيحـة لارتباطهـا بمصالحهـم ولارتكازهـا إلى

---

١ ـ صحيح مسلم ٨/ ١٥٤ ط إستانبول وانظر رياض الصَّالحين ٢٢٠ ـ ٢٢١ .

٢ ـ الكهف : ١٠٥

٣ ـ صحيح البخاري ٦/ ١١٧ ط الشَّعب كتاب التَّفسير : سورة الكهف باب ﴿ أُولئك الَّذين كفروا بآيات ربهم﴾ صحيح مسلم ٨/ ١٢٥ ط استانبول وآنظر: رياض الصَّالحين ٢٢٠ .





طاقات بشريَّة محدودة بالزَّمان والمكان والمعرفة الإنسانية . وفي الحديثين موازنة بين حالين وهو لون من ألوان التَّصوير الفنِّي في الحديث .

وفيها كنايات حلوة رائعة : مثل قوله ﷺ أَشعث أغبر مدفوع بالأَبـواب وذلك كناية عن هوان قيمته في نظر النَّاس ومثل قوله ﷺ لو أَقسم على اللَّه لأَبرَّه وذلك كناية عن كونه مستجاب الدَّعوة وعن أنَّ له مكانة عظيمة عند اللَّه . ومثل قوله ﷺ لا يزن عند اللَّه جناح بعوضة وهو كناية عن تفاهته وقلَّة شأنه .

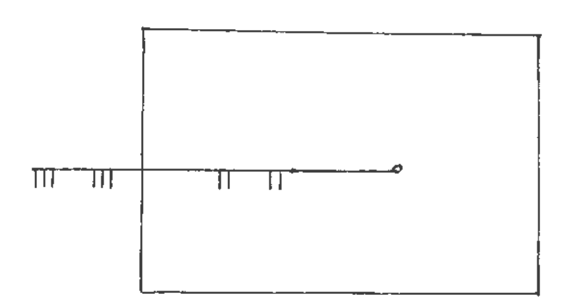
ـ عن عبد اللَّه قال :

خطَّ النَّبي ﷺ خطًّا مربَّعًا ، وخطَّ خطًّا في الوسط خارجًا منـه ، وخـطَّ خططا صغارًا إلى هذا الَّذي في الوسط من جانبه الَّذي في الوسط فقال :

« هذا الإنسان ، وهذا أجله محيط به ـ أو قد أحاط به ـ وهذا الَّذي هو خارج أَمله ، وهذه الخطط الصِّغار الأَعراض .

فإنَّ أخطأه هذا نهشه هذا ، وإنْ أخطأه هذا نهشه هذا »[1]

ذكر ابن حجر في فتح الباري [2] اجتهادات أَهل العلم في رسم النَّبيﷺ ورجَّح أنْ يكون الرَّسم كما يلي :



---

١ ـ صحيح البخاري ٨/ ١١٠ ـ ١١١ ط الشَّعب كتاب الرِّقاق باب في الأجل وطوله .
٢ ـ فتح الباري ١١/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨ .



والمراد بالأَعراض الآفات العارضة له ، فإنْ سلم من هذا لم يسلم من هذا ، وإنْ سلم من الجميع ولم تصبه آفة من مرض أو فقد مال أو غير ذلك بغته الأجل . وكما قال القائل : من لم يمت بالسَّيف مات بغيره ، قال ابن حجر : وعبَّر بالنَّهش وهو لدغ ذات السُّم مبالغة في الإصابة والإهلاك . ومهما يكن من أمر فإنَّ هذا اللَّون من التَّصوير لون جديد يجسِّم المعنى ويقرِّبه من ذهن السَّامع ، ويجعله يتمثَّل المراد .

إنَّ الأَمل أكبر من الأَجل . . وهذا أَمر مشاهد . . فما أكثر ما يضع الإنسان من المشروعات التِّجارية والصِّناعية والعمرانية والثَّقافية لأَعمال متعدِّدة بعيدة المدى يتصوَّر أنهَّا تجرُّ له النَّفع وتأتي له بالمال، ولا يدري أنَّه ميِّت بعد أمد قصير. . لأنَّ أجله يحيط به وهو مترصِّد له ينتظر الموعد المحدود لينهي حياته ويذهب بكلِّ هاتيك الخطط والآمال .

والغرض من هذه الصُّورة المؤثِّرة غرض ديني . . وهو الكفكفة من الإقبال على الدُّنيا ، والعمل لما بعد الموت ، ومعالجة الإغراق في المسائل المادِّيَّة الَّتي إنْ سيطرت على القلوب قضت على القيم وفي ذلك شقاء الفرد والمجتمع .

وقريب من هذا الحديث ، الحديث الآتي :

ـ عن أنس قال : خطَّ النَّبي ﷺ خطوطاً فقال :

« هذا الأمل ، وهذا أجله . فبينما هو كذلك إذْ جاءه الخطُّ الأَقرب »[1]

هناك خطَّان : خطٌّ بعيد وخطٌّ قريب . . فبينما يعيش المرء في الآمال العريضة الواسعة يأتيه الخطُّ الأَقرب . . الأَجل .

عن بريدة قال ، قال النَّبيﷺ :

« هل تدرون ما مثل هذه وهذه ؟ »

ورمى بحصاتين .

---

١ ـ صحيح البخاري ٨/ ١١١ ط الشَّعب





قالوا : اللَّه ورسوله أعلم .

قال: «هذاك الأمل، وهذاك الأَجل»[1]

ـ عن أنس أنَّ رسول اللَّه ﷺ جمع أصابعه فوضعها على الأرض ثمَّ قال :

« هذا ابن آدم » ثمَّ رفعها فوضعها قبل ذلك قليلاً وقال :

« هذا أجله » ثُمَّ رمى بيده أمامه وقال : « وثَمَّ أمله»[2]

المعنى السَّابق يتكرَّر هنا بأُسلوب تصويري آخر باستخدام الحصى تارة واستخدام اليد تارة أخرى .

في حديث بريدة يقوم الرَّسول ﷺ بإلقاء حصاتين أحداهما قريبة والأُخرى بعيدة ، ثُمَّ يسأل أصحابه مثيرًا للحوار :

هل تدرون ما مثل هذه وهذه ؟

فأَجابوا قائلين : اللَّه ورسوله أَعلم .

فبينَّ لهم عندئذ أَنَّ الحصاة البعيدة تمثِّل الأَمل والحصاة القريبة تمثِّل الأَجل .

وفي حديث أَنس نجد التَّصوير بتحريك اليد أَمامهم ، فلقد جمع أَصابعه الشرَّيفة ووضع يده على الأرض ، وقال : هذا ابن آدم ، ثُمَّ نقلها إلى موضع قريب وقال : هذا أَجله . ثم رمى بها أَمامه بعيداً وقال : هناك أَمله .

إِنَّه تصوير بالإِشارة والحركة والعمل .

ـ عن أَنس قال ، قال رسول اللَّه ﷺ :

« يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنان : حبُّ المال وطول العمر » [3]

---

١ ـ التِّرمذي ٤/ ٤٠ وجاء في تحفة الأحوذي : أنَّ إحداهما قريبة والأخرى بعيدة أي فيشتغل الإنسان بما يأمله ويريد أن يحصله فيلحقه الموت قبل أن يصله .

٢ ـ مسند أحمد ٣/ ١٢٣ .

٣ ـ صحيح البخاري ٨/ ١١١ ط الشَّعب



وفي رواية : « يهرم ابن آدم وتشبُّ منه اثنتان : الحرص على المال والحرص على العمر »[1]

ـ عن أبي هريرة قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول :

« لا يزال قلب الكبير شابًّا في اثنتين : في حبِّ الدُّنيا وطول الأَمل »[2]

وفي رواية مسلم :

« قلب الشَّيخ شاب على حبِّ اثنتين : العيش والمال »[3]

ـ عن أَنس بن مالك قال ، قال رسول الله ﷺ :

« لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلاَّ التراب ، ويتوب الله على من تاب »[4] .

وفي رواية :

« لو أَنَّ لابن آدم وادياً من ذهب أَحبَّ أَنْ يكون له واديان ولن يملأ فاه إلاَّ التراب ، ويتوب الله على من تاب » .

الإِنسان محبٌّ للمال ولطول البقاء حبًّا جمًّا ، زُيِّن حبُّهما في صدره ، فهو متعلِّق بهما ، لا يقوى على أَنْ يتحوَّل عنهما أَبداً ، إنَّه يهرم ويشيخ . . . ويكبر معه حبُّ المال والحرص على البقاء . . . . وإذا كان جسمه قد تعرَّض للضَّعف والوهن بسبب عقود السِّنين الَّتي قضاها حتَّى انتهى إلى الهرم . . . فإنَّ قلبه لا يهرم ولا يضعف بل يبقى شاباً في حبِّ المال والحرص على الحياة .

---

١ ـ صحيح مسلم ٧/ ١٣٨ ، وفي ط استانبول ٣/ ٩٩

٢ ـ صحيح البخاري ٨/ ١١١ ط الشّعب

٣ ـ صحيح مسلم ٧/ ١٣٨ .

٤ـ صحيح البخاري ٨/ ١١٥ط الشّعب ، وصحيح مسلم ٧/ ١٣٩ ، وقد رُوي هذا الحديث بهذا اللَّفظ وألفاظ مقاربة في الصَّحيحين عن ابن عبَّاس وأبي موسى وابن الزُّبير .





وأَحسب أنَّ هذه المقابلة بين هرم الشَّيخ في السِّن وشباب القلب في حبِّ المال وطول العمر تزيد في وضوح الصُّورة ، وهي تؤدِّي دوراً في استنكار هذا الطَّمع البغيض والحرص العجيب .

والصُّورة تعرض واقعاً يشمل النَّاس جميعاً في كلِّ زمان ومكان . . . . وهو واقع مشاهد مألوف . . . وهو خلاف ما يقود إليه النَّظر المجرَّد .

إنَّ الشَّيخ أَخذ حظَّه من ملَّذات الحياة وطيِّباتها ، ورأى مفاتنها ومناظر الطَّبيعة الجميلة فيها ، ونال من خيراتها ما نال . . . أَفلا يجدر به أَنْ يقنع وأَلاَّ يكون مترامياً عليها ، متعلِّقاً بالبقاء فيها ؟ ولماذا يتعاظم حرصه على المال وهو عمّاً قليل مغادر هذه الدُّنيا ؟

أَو ليس عجيبا ألاَّ نرى من الشَّباب الحرص على هذين الأمرين كما نراه عند الشُّيوخ . . وهم ناشئون . . . لم يأخذوا بعد شيئاً من حظوظ النَّفس في هذه الحياة . . . وأَمامهم طريق طويل ؟

في الحديث تشخيص للَحرص على المال والعمر . . . فهما يشبَّان ويكبران .

وتشخيص للقلّب الَّذي يبدو شاباً على حبِّ المال والعيش . . . ولا يزال شابًّا مهما هرم صاحبه .

وفي الحديث الثَّالث تصوير رائع لطمع الإنسان بأَنَّنا لو فرضنا أَنَّ وادياً من ذهب كان لابن آدم لأَحبَّ أَنْ يكون له واديان اثنان ، ولو كان له واديان لا بتغى واديًا ثالثاً ، ولا يملأ جوفه أو فاه إلاَّ التُّراب عندما يوارى في القبر ، وينقطع طمعه وحرصه .

إنهَّا كناية جميلة تصوُّر الطمع والحرص.

* *

عن كعب بن مالك قال ، قال رسول الله ﷺ :

« ماذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأَفسد لها من حرص المرء على المال والشرَّف[1] لدينه »[2] .

من طبيعة الإِنسان الحرص على المال والجاه . . . . وهذا الحرص مفسد لدينه إفساداً شديداً ، لا يكاد يترك له منه شيئاً . ومن فسد دينه تقوضت سعادته وانهارت ومهما كسب مقابل ذلك فهو الخاسر الخسارة الَّتي لا تقدر بمالٍ ولا بمنصب .

لقد عبَّر النَّبي ﷺ عن هذا المعنى بصورة يتذوَّقها الصَّحابة رضوان الله عليهم أتمَّ التَّذوق لأَنهَّا مستمدَّة من واقعهم وبيئتهم . وهي الصُّورة الآتية :

« هناك ذئبان جائعان مضى عليهما حين من الدَّهر لم يأكلا شيئاً ثُمَّ أُرسلا في غنم . . . . كيف يكون إفسادهما للّغنم وقد أُرسلا فيه . . . . ولا حارس يصدُّهما ، ولا راعي يذودهما ؟ إنَّه إفساد كبير .

يقول ﷺ : إنَّ إفساد الحرص على المال والجاه لدين المرء أَشدُّ من إفساد هذين الذِّئبين للّغنم .

إنَّ الحرص على المال ، والحرص على الجاه ذئبان يغتالان الدِّين فلينتبه المرء إلى نفسه . . . فإنَّه الخطر الماحق .

*

ـ عن عبد الله بن الشَّخير قال : قال رسول الله ﷺ :

« مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منيَّة . إنْ أَخطأته المنايا وقع في الهرم حتَّى يموت »[3]

---

(١) الشرَّف : الجاه .

(٢) رواه التِّرمذي وقال : حديث حسن صحيح ، وانظر رياض الصَّالحين ٣٤١ ـ ٣٤٢ .

(٣) رواه التِّرمذي والضِّياء ( انظر صحيح الجامع الصَّغير ٥/ ١٩٤ ) .

ـ عن أَبي هريرة في حديث منكر ونكير :

« . . . . فيقولان : نَمْ كنومة العروس الَّذي لا يوقظه إلاَّ أَحبُّ أَهله إليه حتَّى يبعثه الله من مضجعه ذلك . . »[1]

المرء صائر إلى الموت . . . ولا مفرَّ من هذا المصير وما أكثر المنايا الَّتي ترصد للمرء في طريقه ، وفي النَّاس الَّذين يعاملهم ، وفي الوحوش الَّذين قد يصادفهم ، بل في أَجهزة جسمه الَّتي في حناياه ، وفي الجراثيم الَّتي تحيط به من كلِّ جانب .

فإنْ أَخطأَته هذه المنايا كلُّها المختبئة والظاهرة وقع في الهرم ، فعانى صعوباته حتَّى يموت. ما كان لأَحد أَنْ يبقى في هذه الدُّنيا كلٌّ من عليها فان .

وفي حديث أَبي هريرة يقول الملكان للرجل الصَّالح بعد أَنْ يدفن في قبره: نَمْ كنومة العروس الَّذي لا يوقظه إلاَّ أَحبُّ أَهله إليه . . . حتَّى يبعثه الله من مضجعه ذلك .

*

ـ عن أَبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ :

« إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أَيديكم . فمن كان أَخوه تحت يده فليطعمه ممَّا يأكل ، وليلبسه ممِّا يلبس . ولا تكلِّفوهم ما يغلبهم . فإنْ كلَّفتموهم فأَعينوهم »[2] .

ـ عن أَبي هريرة عن النَّبي ﷺ أَنَّه قال :

« من أَعتق رقبة مؤمنة أُعتق الله بكلِّ إرب منها إرباً منه من النَّار»[3] .

تتجلَّى رعاية الإسلام لإنسانية الإنسان وتكريمه إيَّاه في أَحكامه وتشريعاته

---

(١) رواه التِّرمذي : ٢/ ١٦٣

(٢) صحيح البخاري ١/ ١٤ ط الشَّعب .

(٣) صحيح مسلم ١٠/ ١٥ .

المختلفة ، ولعلَّ بحثَ الرِّق والأَرقاء في الشرَّيعة الإِسلامية من أكثر البحوث إبرازاً لهذه الرِّعاية وذاك التَّكريم .

إنَّ الرَّقيق إنسان . . . إنسانيته محترمة إلى أَبعد حدٍّ ، أَنصفه الإِسلام فحفظ حياته، وراعى عواطفه ومنع ظلمه ورغَّب في عتقه وطلب من أُتباعه الإِحسان إلى الأَرقاء في المعاملة.

وها هوذا الرَّسول ﷺ يقرِّر أَنَّ الأَرقَّاء إخواننا جعلهم الله تحت أَيدينا . . . حديث يفيض بعاطفه المحبَّة والودّ . . . إنَّ هؤلاء إخوان . . . فمن كان أخوه تحت يده فإنَّه لا يظلمه ولا يسيء إليه ولا يرهقه .

وفي حديث أَبي ذر طلب النَّبيﷺ من المسلمين أَنْ يسوُّوا بينهم وبين عبيدهم وعبَّر عن ذلك بالإِطعام مِمَّا يأكلون والإِلباس مِمَّا يلبسون . . . . وهذا طبيعي ما داموا إخواناً متحابِّين .

ونهاهم عن تكلِّيفهم فوق طاقتهم وعبَّر عن ذلك بتكليفهم ما يغلبهم وهي صورة جميلة فكأنَّ الّذي كلِّفوا به إنسان غالبهم فغلبهم ، وعبَّر عن الملك بقوله( تحت أَيديكم ) .

وفي حديث أَبي هريرة ترغيب شديد بعتق العبيد ، فالمعتق يعتق الله بكلِّ عضو من الرَّقبة الَّتي أَعتقها عضواً منه من النَّار .

وفي الحديث على قصره صور :

فيه تصوير بالموازنة فهو يريد أَنْ يؤكد أَنَّ العتق من النَّار جزاء من يعتق ، فعرض هذا التَّأكيد بذكر هذه الموازنة في التَّفاصيل (أُعتق الله بكلٍّ إرب منها إرباً منه ) .

وفيه تصوير بالمجاز المرسل ـ كما يقول علماء البلاغة ـ من أعتق رقبة مؤمنة أي عبداً فذكر الرَّقبة وأَراد الجسم كلَّه.

وفيه تصوير الخلاص من النَّار بالعتق .

وقد زادت المقابلة بين « عتق الرَّقبة والعتق من النَّار » الصُّورة جمالاً .

*

ـ عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ :

« من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجَّة له . ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهليَّة »[1]

ـ وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« من خرج من الطَّاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية »[2]

هذا الحديثان وهما في معنى واحد بيان لجانب سيء في الإنسان هو تفتيت وحدة الأُمَّة وإشاعة الفوضى والإسهام بالفتن والتَّمرُّد على الحاكم المسلم والنِّظام العام للدَّولة .

والَّذي يلفت نظرنا ويستحوذ على إعجابنا هو التَّعبير عن هذه المعاني بالصُّور الحسيِّة الجميلة :

فقوله « من خلع يداً من طاعة » صورة مادية متحركة ترسم في خيالنا مشهداً لهذا الإنسان المتمرِّد الهدَّام .

وكذلك قوله « من خرج من الطَّاعة وفارق الجماعة » ، وجزاء هذا الإنسان المفسد في الأرض الخزي يوم القيامة ، والنَّار ، وقد عبَّر الحديث عن ذلك بقوله :

« لقي الله يوم القيامة ولا حجَّة له » ، إنسان محكوم عليه يبحث عن حجَّة ينقذ نفسه بها ولا يجد ، فتعلوه الكآبة ويُجلِّله الخزي ويقاد إلى النَّار .

وصورة أُخرى للخروج على الحاكم والتَّمرُّد على النِّظام جاءت في قوله « ليس في عنقه بيعة » .

(١) صحيح مسلم ٦/ ٢٢ ط استانبول وانظر رياض الصَّالحين ٤٣٧ .
(٢) صحيح مسلم ٦/ ٢١ ط استانبول وانظر رياض الصَّالحين ٤٣٧ .



وكذلك قوله ﷺ « مات ميتة جاهلية » جزاء شديد بالنِّسبة للمسلم الَّذي يموت على غير الإسلام ، ويكون بذلك قد كتب على نفسه الخلود في نار جهنَّم .

**

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« مثل الَّذي يستمع الحكمة ويتبَّع شرَّ ما سمع كمثل رجل أتى راعياً
فقال : احرز لي شاة من غنمك .
فقال : اذهب فخذ بأُذن خير شاة
فذهب فأخذ بأُذن كلب الغنم »[1]

في حياة النَّاس أَفراد جبلوا على الشرِّ ، لا يستطيعون سلوك سبيل الخير ولا التزام قواعد الخلق الكريم . يستمع الحكمة فيتبَّع شرَّ ما سمع . . .

. . . تتلى عليه آيات القرآن فيتولىَّ غير سبيل المؤمنين . . . . هؤلاء الأشرار موجودون في النَّاس ، وقد مثَّل رسول الله ﷺ للَّواحد منهم بهذه القصَّة السرَّيعة الَّتي كانت موقفاً غريباً أَعظم الغرابة . . . . إنسان يأتي راعياً فيطلب منه شاة من غنمه ويبدو أنَّه جائع . . . وكان ذاك الرَّاعي كريماً فقال للسائل : اذهب فخذ أَحسن شاة تعجبك من هذا القطيع . سمع هذا الكلام . . . وذهب ولكنَّه أخذ كلب الغنم . . . .

أَخذ شيئاً لا ينفعه . . . أَخذ شرَّ ما في القطيع وهكذا نرى في حياتنا ناساً لا يستجيبون للحقِّ بل يحملهم سماع الحقِّ على سلوك طرق الباطل . . . .

إنهَّا قصَّة تمثِّل لنا حماقة هؤلاء الضَّالين ، وعدم انتفاعهم من حواسهم . . . سمعوا وكأَنهَّم لم يسمعوا . . .

وأَقف قليلاً عند أحد التَّعبيرات في هذا الحديث :

(١) المسند : ٢/ ٤٠٥ .





فقوله ﷺ على لسان الرَّاعي : إذهب فخذ بأُذن خير شاة مثل لإيثار النَّبي ﷺ التَّعبير بالصُّور الحسيِّة .

**

ـ عن أَبي بكرة قال : مدح رجلٌ رجلاً عند النَّبي ﷺ فقال :

« ويحك ! قطعت عنق صاحبك . قطعت عنق صاحبك » مراراً[1]

ـ وعن أَبي موسى قال : سمع النبيّ ﷺ رجلاً يثنى على رجل ويطريه في المدحة فقال :

«لقد أَهلكتم ـ أَو قطعتم ـ ظهر الرَّجل »[2]

ـ وعن المقداد قال : إنَّ رسول الله ﷺ قال :

« إذا رأيتم المدَّاحين فاحثُوا في وجوههم التُّراب »[3]

هذه الأَحاديث تعالج ناحية سيئة في الإنسان . . . هناك منافقون يزوِّرون الحقائق ، ويقولون ما لا يعتقدون بصحَّته ، فتراهم يمدحون الحكَّام والأَغنياء وأَصحاب الجاه يمدحونهم بالباطل ليكسبوا مودَّتهم ويسرفون في المدح ، هؤلاء في حقيقة الأَمر يسيئون إلى من يمدحونه فإنْ كانوا يدَّعون صداقتهم فهم من أَشدِّ النَّاس عداوة لهم . . . لأَنَّ الممدوح سيصدِّق ما يقال فيه لسببين:

(١) لكثرة التَّكرار لأَنَّ هؤلاء المنافقين المدَّاحين لا يكفُّون عن هذا المديح ما دام يجلب لهم المنفعة . والتَّكرار لا بدَّ من أَنْ يترك أَثراً واضحاً .

---

(١) صحيح مسلم : ١٨/ ١٢٦ وأبو داود : ٤/ ٣٥٢ .*

(٢) صحيح مسلم : ١٨/ ١٢٧ .

(٣) صحيح مسلم : ١٨/ ١٢٨ وقال النَّووي في شرحه : « وهذا الحديث قد حمله على ظاهره المقداد . . . ووافقه طائفه ، وكانوا يحثون التراب في وجهه حقيقة. وقال آخرون : معناه خيبوهم فلا تعطوهم شيئا لمدحهم . وقيل : إذا مدحتم فاذكروا أنَّكم من تراب فتواضعوا ولا تعجبوا . وهذا ضعيف » .قلت : والَّذي ضعفه النَّووي ضعيف حقاً بل هو باطل والتكلُّف فيه ظاهر.



(٢) ولأنَّ الإنسان ميَّال إلى تصديق ما يناسبه ، قد يتردَّد في بادىء الأَمر . . . ولكنَّه سرعان ما يصدِّق ما يقال فيه .

عبَّر الحديث عن الإيذاء بقطع العنق أو قطع الظَّهر وكلٌّ من القطعين يعني الهلاك والموت، والمدح إنْ ترك أثره في الممدوح قضى عليه.

ولذلك كان حديث المقداد علاجاً ناجعاً يقابل به هؤلاء المنافقون الكذَّابون وهو ألاَّ يهتَّم الإنسان لكلامهم وأنْ لا يعطيهم شيئاً .

إنَّ هذا يحول بين الممدوح والمخاطر الَّتي ذكرها حديثا أَبي بكرة وأَبي موسى ويردعهم عن الاستمرار في هذا الطَّريق .

ـ عن جندب قال :

جاء أَعرابي ، فأَناخ راحلته ، ثُمَّ عقلها ، ثُمَّ دخل المسجد فصلى خلف رسول الله ﷺ ، فلماَّ سلَّم رسول الله ﷺ أَتى راحلته فأَطلقها، ثُمَّ ركب، ثُمَّ نادى :

اللَّهم ارحمني ومحمداً ، ولا تشرك في رحمتنا أَحداً .

فقال رسول الله ﷺ :

« أتقولون : هو أَضلُّ أَم بعيره ؟ أَلم تسمعوا إلى ما قال ؟ »

قالوا : بلى .[1]

إنسان جاهل ، صدرت منه أَعمال لا تدلُّ على الرَّزانة والعقل والاتزان، ومناسبة الحديث ربطت ربطاً قوِّياً بينه وبين راحلته فبعد أنْ صلىَّ دعا دعاء يدلُّ على جهله وأَنانيته وذلك عندما سأل الله تعالى أنْ يرحمه ومحمَّداً وأَلاَّ يشرك في رحمتها أَحداً . إنَّه يضيِّق واسعاً. ولماذا ؟ فأنكر الرَّسول فعله، ومضى لسبيله، فقال ﷺ

أَتقولون هو أَضلُّ أَم بعيره ؟

---

(١) أبو داود : ٤ / ٣٧٤ باب من ليست له غيبة .





إنَّه لا يختلف عن بعيره إلاَّ بالنُّطق . . . لأنَّه لم يستطع أنْ يرتقي إلى معرفة رحمة الله الواسعة .

استغلَّ رسول الله ﷺ الحادثة الواقعة ليقرِّر لهم أمراً من أمور هذا الدِّين ، وهو أنَّ رحمة الله أوسع ممَّا تصوَّر هذا الجاهل الجافي . . . . والتَّصوير ههنا عن طريق الموازنة .

ـ عن أبي سعيد وأبي هريرة . . قال رسول الله ﷺ :

« لا تسبُّوا أصحابي . لا تسبُّوا أصحابي . فوالَّذي نفسي بيده لو أنَّ أحدكم أنفق مثل أُحد ذهباً ما أدرك مدَّ أحدهم ولا نصيفه » .[1]

ـ عن أبي موسى قال :

. . . فرفع رأسه إلى السَّماء وكان كثيراً ما يرفع رأسه إلى السَّماء فقال :

« النجوم أمنة للسَّماء ، فإذا ذهبت النُّجوم أتى السَّماء ما توعد . وأنا أمنة لأصحابي ، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون . وأصحابي أمنة لأُمتي ، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون » .[2]

الصَّحابة جيل مثالي يمثِّل قمَّة شامخة في الفضل والدين والتَّقوى . . . . إنهَّم مصابيح الهدى ، ولا يستطيع أحد من بعدهم أن يدرك المستوى المتقدِّم الذِّي بلغوه . ويوازن رسول الله ﷺ بين جبل من الذَّهب ينفقه واحد من النَّاس وبين مدّ أو نصيف ينفقه واحد من الصَّحابة ،ويقول :إنَّ ذاك الجبل لا يبلغ ذاك المدَّ ولا النَّصيف .

وفي الحديث الثَّاني يشبِّه الرَّسول نفسه بالنَّجم الذِّي يكون وجوده أمنة

---

(١) صحيح البخاري : ٥ / ١٠ ط الشَّعب ، وصحيح مسلم : ١٦ / ٩٢ ، وأبو داود ٤ / ٢٩٨ ، والمدّ والنّصيف: مكيالان صغيران.

(٢) صحيح مسلم : ١٦ / ٨٣ .



للسَّماء، فوجوده ﷺ أمنة لأصحابه ﴿ وما كان الله ليعذِّبهم وأنت فيهم ﴾ وأيُّ أمان كهذا الأمان.

ويبشرِّ رسول الله ﷺ أمتَّه بأنَّ وجود الصَّحابة فيهم أمنة لهم، فإذا ذهب أصحاب رسول الله ﷺ أتاهم ما يوعدون.

وإنهَّا لصورة حافلة بالإيحاءات، فالنُّجوم أدوات الهداية ﴿ وعلامات وبالنَّجم هم يهتدون ﴾، وكذلك حال الرَّسول ﷺ، والصَّحابة من بعده.

هذا وقد ورد في حديث أنس:

« مثل العلماء في الأرض كمثل النُّجوم في السَّماء، يهُتدى بها في ظلمات البرِّ والبحر فإذا انطمست النُّجوم أوشك أنْ يضلَّ الهداة » .[1]

والصَّحابة هم علماء الشرَّيعة الذِّين نقلوا لنا علم النَّبي ﷺ.

***

ـ عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ:

« ... لو سلك النَّاس وادياً، وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار » .[2]

ـ وعن أنس أنَّ رسول الله ﷺ قال:

« إنَّ الأنصار كرشي وعيبتي » .[3]

---

(١) مسند احمد: ٣/١٥٧.
(٢) صحيح البخاري: ٥/٣٨ ط كتاب الشِّعب وصحيح مسلم ٧/١٥٢.
(٣) صحيح البخاري: ٥/٤٣ ط الشِّعب وصحيح مسلم: ١٦/٦٨، قال النَّووي: ( قال العلماء: معناه جماعتي وخاصتي الذين أثق بهم وأعتمدهم في أموري، قال الخطابي: ضرب مثلاً بالكرش لأنه مستقرُّ غذاء الحيوان الذي يكون به بقاؤه، والعيبة: وعاء معروف أكبر من المخلاة يحفظ الإنسان فيها ثيابه وفاخر متاعه ويصونها، ضربها مثلاً لأنهَّم أهل سرِّه وخفيِّ أحواله).





ـ وعن ابن عبَّاس قال : خرج رسول الله ﷺ وعليه ملحفة متعطِّفاً بها على منكبيه ، وعليه عصابة دسماء حتَّى جلس على المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثُمَّ قال :

« أمَّا بعد ، أيهُّا النَّاس ! فإنَّ النَّاس يكثرون وتقلُّ الأنصار حتَّى يكونوا كالملح في الطَّعام ، فمن ولي منكم أمراً يضرُّ فيه أحداً أو ينفعه فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم » .[1]

ـ وعن عبد الله بن زيد أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« الأنصار شعار والنَّاس دثار ، ولولا الهجرة لكنت آمرءاً من الأنصار » .[2]

من تتمَّة الكلام عن الصَّحابة ، الكلام عن الأنصار . . . الذِّين كان لهم دور عظيم في تاريخ الدَّعوة ونصرة النَّبي ﷺ ، من أجل ذلك فلقد كان رسول الله يحبُّهم حبّاً جمّاً ويعدهم أصفياءه وخاصته ،ولولا الهجرة لكان آمرءاً من الأنصار وأثنى عليهم أطيب الثَّناء .

ولننظر في هذه الصُّور الجميلة :

النَّاس دثار ، أمَّا الأنصار فهم شعار، إنهَّم هم البطانة والخاصَّة والأصفياء وألصق بي من سائر النَّاس . . . إنهَّم الملامسون لقلبي ولولا الهجرة لكنت واحداً منهم .

لو كان النَّاس في جانب وانحاز الأنصار إلى جانب لما تردَّدت في الانحياز إليهم وسلوك طريقهم . وهذا يدلُّ على حبِّه لهم وإيثاره ما يرون .

أمَّا الصُّورة الغريبة جدّاً فهي التي تجعلهم كرشه وعيبته . . . ومهما يكن من أمر فإنهَّا لتدلُّ على مدى حبِّه لهم وثقته بهم .

---

(١) صحيح البخاري ٥ / ٤٣ ط الشَّعب .
(٢) صحيح البخاري ٥ / ٣٨ ط الشَّعب ، صحيح مسلم : ٧ / ١٥٧ ، والشِّعار : الثَّوب الذِّي يلي الجسد ، والدِّثار : الثَّوب يكون فوقه .

وقد أوصى بهم عندما يقلُّون حتَّى يصبحوا كالملح في الطَّعام،ولهذا التَّشبيه معنى مهم ،وهو أنهَّم مع قلَّتهم لا غنى للأُمَّة عنهم ، فهم كالملح لا يصلح الطَّعام إلاَّ بهم .

وبعد :

فلقد استعرضت في هذا الباب عدداً كبيراً من الصُّور الفنِّية الَّتي وردت في موضوعات أركان الإسلام من صلاة وصوم وزكاة وحج وفي موضوعات مهمَّة كالجهاد والذِّكر والأمر بالمعروف وصلة الأرحام والإنسان وما إلى ذلك .

وقد وجدت أنَّ الاستمرار في عرض ما اخترت من نماذج أُخرى يضخِّم الرِّسالة وربَّما لا يؤدِّي غرضاً ذا أهمية فاكتفيت بما مرَّ مشيراً إلى أهمِّ الموضوعات الأُخرى كالرَّسول ودعوته ، والدُّنيا ، والمرأة ، والصَّبر والحبِّ في الله ، والغيبة والزِّنا والظُّلم ، والحيوان ، وما إلى ذلك من الموضوعات .

وقد وجدت أنَّ الصُّور المتعلِّقة بعالم الشَّهادة كلَّها مرتبطة بالغرض الدِّيني أوثق الارتباط ، وأنهَّا حافلة بمزايا عدَّة كالجِدَّة والإثارة والوضوح والارتكاز على الأُمور المعروفة عند السَّامعين .

ولذلك كانت البيئة العربية مصدراً أصيلاً من مصادر الصُّورة الفنية في الحديث، وكذلك فإنَّ التَّحليل النَّفسي والاعتماد على النَّاحية الموسيقية من الخصائص الَّتي تمتاز بها الصُّورة الفنِّية في الحديث.

وإذا كانت صور عالم الغيب تقرب للإنسان ما يعجز عن رؤيته أو إدراكه ، فإنَّ صور عالم الشَّهادة تجلو له ما يدركه وتزيِّن له صالح العمل وتنفِّره من المقابح ، وتتغوَّر في أعماق الدُّنيا لتصف له معنى الحياة والموت وقيمة الإنسان في سعيه من أجل حياته الدُّنيا والآخرة .



# البَابُ الثّالِث

## الصُّوَرُالحِسِّيَّة وَالمَعنَوِيَّة

### في وسائل التّصوير وعلاقاته

لم تعد الصُّورة في النَّقد الحديث تعني مجرد التَّشبيه أو الاستعارة أو المجاز بصفة عامة ، بل هي في مفهومها البسيط كما يعرفها « راي لويس » لوحة مصنوعة من الألفاظ، وقد تخلق الاستعارة أو التَّشبيه صورة ولكن من الممكن أيضاً أنْ تصنع الصُّورة الرَّائعة عبارة وصفية بحتة تحمل إلى تصوُّرنا شيئاً أكثر من مجرَّد الانعكاس الحرفي للحقيقة الخارجية .[١]

والصُّورة وثيقة الصِّلة بملكة الخيال ولا تقتصر على الدّلالة البصرية المحدودة فهي في رأي « جون مسرى » وليدة الكلمة التّي اشتقت منها وهي كلمة Imagination أيْ ملكة التَّصوير والتَّخيُّل .[٢]

وقد انتهى معظم الباحثين المحدثين إلى القول بأنَّ الصُّورة تعنى كلَّ عناصر الشّكل بحيث توضع بإزاء المضمون وهي متَّحدة معه تماماً بحيث لا يمكن الفصل بينهما ، ودراسة أي نص ينبغي أنْ تكون في إطار العلاقات التي تقيمها لغة النَّص من حيث التراكيب والصُّور والرُّموز وليست اللُّغة مجرَّد مفردات حديثة قائمة بذاتها ولكنَّها أهمُّ من ذلك بكثير إنهَّا علاقات متداخلة متشابكة، والنَّص نسيج متكامل يتداخل فيه إيقاع الذّات وإيقاع البيئة والمجتمع والثَّقافة .

---

(١) انظر: The Poetic Image صـ ٢٥

(٢) انظر : النَّقد التَّحليلي لمحمد عناني صـ ٥٩ .





وقد يغالى بعض الباحثين في الاهتمام بالصُّورة في أيَّة جزئية من جزئيَّاتها بحيث ينادى بإسقاط الاهتمام بالمعاني أو الأفكار التِّي يمكن أنْ تدلَّ عليها الكلمات أو العبارات ومن هؤلاء « بلومفيلد » الذِّي كان من ألد أعداء ما يسمى بالعقليَّة Le mentalisme أيْ الاهتمام بالمضمون ، وكان يعتقد أنَّه من المستحيل أنْ نحدِّد المعنى الدَّقيق للتَّراكيب اللُّغوية ، ولذلك ينبغي إهمالها وإسقاطها ، وكلُّ ما كان يهمه وصف الظَّواهر الصَّوتية اللَّغوية وتسجيلها ، ولكن « شومسكي » كان يدعو إلى دراسة علاقة الظَّواهر اللَّغوية بالفكر .[1]

وأنصار التَّحليل البنيوي يركزِّون تحليلهم على بنية العمل الأدبي اللُّغوية ووصفها ودراستها دراسة علميَّة استقصائية ثُمَّ هم بعد ذلك لا يمانعون في القيام بمحاولة اكتشاف العلاقات المتبادلة التِّي تربط العمل الأدبي بالوسط الخارجي كالظُّروف التاريخية والتَّأثيرات الأدبية المقارنة والسِّيرة الذَّاتية للكاتب، ثُمَّ التَّحليل النَّفسي لشخصيَّته .[2]

إنَّ التَّصوير الفنِّي بالمفهوم الحديث كان الإطار العام الذي بنى عليه هذا البحث وقد قدَّمت في البابين السَّابقين صوراً حديثية كثيرة على أساس تحليل العلاقات المتشابكة في النَّص وإدراك التَّيار العاطفي فيه وتصوير ما فيه من خطرات نفسيَّة تقيم جسراً من الإقناع وعمق الفهم بين الحديث وسامعه أو بين الشَّكل والمضمون ، وغايتي في هذا الباب أنْ أُفصِّل القول في وسائل التَّصوير وعلاقاته في الحديث النَّبوي ، أو بمعنى آخر دراسة جوانب من الشَّكل تعتمد على وسائل مختلفة لأحداث الصُّورة ودراسة علاقات الصُّورة بظواهر مهمَّة وتأثير ذلك كلِّه على المضمون ، وسنجد في الحديث النَّبوي صوراً فنِّية جديدة تماماً تبعد عن إطار الصُّور المألوفة المتكرِّرة في الشِّعر الجاهلي ونثره ، وتلك النَّتيجة تؤكِّد حقيقة مهمَّة وهي الطبيعة الرَّمزية للغة التِّي تلد جديداً من التَّعبير في كلِّ لحظة ، وأنَّ الصِّدق الفنِّي والبصيرة النَّافذة من العناصر الأصيلة في التَّعبير في الحديث النَّبوي بحيث يبتعد عن

---

(١) انظر مقال ( البنيوية والحداثة ) لهاشم صالح ـ مجلة مواقف العدد ٣٦ سنة ١٩٨٠ .

(٢) انظر : ص ٥٨ : Truth and Art

الأشكال التَّقليدية المألوفة وتقدِّم نصوصه تصوُّرات جديدة لا من حيث المضمون فحسب بل من حيث الصُّورة أيضاً وسنجد أنَّ الحديث النَّبوي اعتمد على وسائل كثيرة في تصويره ، بعضها كان معروفاً لدى العرب في شعرهم ونثرهم كالتَّشبيه والاستعارة والكناية وبعضها لم يكن واضحاً في نتاجهم الأدبي كالوصف والقِّصة والتَّجسيم والتَّشخيص والموازنة والإشارة والرَّسم .

وسنجد الحديث النَّبوي في الوسائل المألوفة يقدِّم تصوُّراً جديداً ويفتح آفاقاً جديدة للتَّخيُّل والإدراك ، على الرُّغم من وجود علاقة واضحة بين صوره والبيئة والمجتمع والتَّقاليد والعادات المألوفة .

***

## أولاً ـ في وسائل التَّصوير :

### التَّصوير بالوصف :

رُبَّما كان الوصف الدَّقيق النَّابع من البصيرة النَّافذة وحسن الإدراك والتَّدفُّق العاطفي أبلغ من التَّشبيه أو الاستعارة أو الكناية أو الوسائل المألوفة في التَّصوير إنَّه ينقل لك أمام عينيك المشهد حتَّى تكاد تحسُّ به بحواسِّك وتلمسه بيديك .

وهو ليس مجرد تصوير فوتغرافي آلي ولكنَّه تصوُّر إدراكي، فيه إلى جانب موضوعيته قدر كبير من ذاتية صاحبه .

ويعلو شأن الوصف في التَّصوير عندما يكون الموصوف أمراً غيبياً لا سبيل إلى نقله إلاَّ عن هذا الطَّريق الذَّي يتخيَّله السَّامع واقعاً ملموساً يراه بعينيه ويتقرَّاه بيديه .

وقد مرَّت بنا خلال دراستنا لكتب السُّنة لوحات وصفيَّة رائعة تعجز ريشة الفنَّان أنْ تأتي بأجمل منها أو أبدع مع الدِّقة في الوصف والصِّدق في الأداء والجمال في التَّعبير . والموضوعات التَّي تطالعنا في الحديث متنوِّعة ، فمنها ما يتعلَّق بالإنسان والحيوان . . وأكثرها متعلِّق بالأمور المعنويَّة .





ـ عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ :

« ما تعدُّون الصُّرَعة فيكم؟ »

قالوا : الذِّي لا يصرعه الرِّجال .

قال : «ليس بذاك ولكنَّه الذِّي يملك نفسه عند الغضب » .[1]

في هذا التَّعريف الجديد للصرُّعة مخالفة لما أُلف النَّاس وعرفوا . . وفيه يقرِّر ﷺ أنَّ الإنسان إنَّما يكون إنساناً بإرادته لا بعضلاته فليس الشَّديد هو الذِّي يصرع النَّاس بقوَّته ، ولكنَّ الرَّجل الصُّرعة الشَّديد هو الذِّي يملك السَّيطرة على أعصابه ، ويستطيع أنْ يتصرَّف التَّصرُّف الموزون اللبق حالة الغضب والانفعال وبذلك يكون الإنسان إنساناً .

ـ عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« لا تقوم السَّاعة حتَّى يقاتل المسلمون التركَ قوماً :

وجوههم كالمجان المطرقة ،[2] يلبسون الشَّعر ويمشون في الشَّعر » .[3]

وفي رواية : « . . قوماً . نعالهم الشَّعر صغار الأعين ذلف الآنف كأنَّ وجوههم المجانّ المطرقة » .[4]

قالوا في شرحه : فيه تشبيه وجوه التُّرك في عرضها وتنوُّر وجناتها بالتُّرس المطرقة .

فالحديث في دقَّته في وصف هؤلاء النَّاس والإخبار بأنَّ المسلمين سيقاتلونهم من أعلام نبوَّته ﷺ وقد استخدم التَّشبيه في توضيح الموصوف وقد قلت في كتابي « الحديث النَّبوي » :

(١) صحيح مسلم ٨ / ٣٠ ط استانبول .

(٢) المجانّ : جمع مجن وهوالتُّرس .

المطرقة : ( باسكان الطَّاء وتخفيف الرَّاء ) وهي التي أُلبست العقب وأُطرقت به طاقة فوق طاقة .

(٣) صحيح مسلم ١٨ / ٣٧ .

(٤) أبو داود ٤/ ١٦٠ وذلف : جمع أذلف أي فطس الأنوف

( وقد اتخَذ الحديث وسائل عديدة للوصف من أهمها التَّشبيه .

فلقد كان الرَّسول العظيم ﷺ يؤثر أنْ يستخدم التَّشبيه المحكم وسيلة فعليَّة للوصف الدَّقيق الذِّي يستجمع شرائط الجودة كلها ) .[1]

ـ عن عبد الله بن عمر أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« أراني ليلة عند الكعبة ، فرأيت رجلاً آدم كأحسن ما أنت راء من أدم الرِّجال له لَمَّة كأحسن ما أنت راء من اللِّمم ، قد رجلَّها فهي تقطر ماء ، متكئاً على رجلين ـ أو على عواتق رجلين ـ يطوف بالبيت .

فسألت : من هذا ؟ فقيل : هذا المسيح بن مريم . ثُمَّ إذا أنا برجل جعد قطط[2] أعور العين اليمنى كأنَّها عنبة طافية . فسألت : من هذا ؟ فقيل : هذا المسيح الدَّجال » .[3]

يحكى لنا رسول الله ﷺ أنَّه رأى في المنام عيسى بن مريم ثُمَّ المسيح الدَّجال فإذا هو جعد الشَّعر قصير أعور العين اليمنى كأنَّها عنبة طافية .

والجميل أنْ يجمعهما موصوفين في موضع واحد ليقدِّم العلامة على كذب الدَّجال الذِّي يدَّعى أنَّه هو المسيح .

***

ومن وصف النَّاس هذا النَّص الجميل :

ـ عن عمر بن الخطَّاب قال قال رسول الله ﷺ :

« إنَّ من عباد الله لأناساً ، ما هم بأنبياء ولا بشهداء ، يغبطهم الأنبياء والشُّهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى » .

---

(١) الحديث النَّبوي صـ ٨١ .
(٢) القطط : القصير الجعد من الشَّعر .
(٣) صحيح مسلم ٢ / ٢٣٣ ـ ٢٣٥ .

قالوا : يا رسول الله ! تخبرنا من هم؟

قال : « هم قوم تحابُّوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطون فوالله إنَّ وجوههم لنور وإنَّهم على نور . لا يخافون إذا خاف النَّاس ولا يحزنون إذا حزن النَّاس » .[1]

هؤلاء المتحابُّون في الله وصف مكانتهم الكريمة التِّي تجعل الأنبياء والشُّهداء يغبطونهم على مكانتهم .

محبَّة بعضهم لبعض خالصة لله فلا أرحام بينهم ولا مصالح ماليَّة تجمعهم ولا علاقات نفعيَّة تحرِّكهم . إنَّ وجوههم لنور وإنَّهم على نور .

إذا خاف النَّاس كانوا آمينن ، ولا يحزنون إذا حزن النَّاس .

نص يفيض بالودِّ والمحبَّة ، ويشرق بالأمن والتَّفاؤل والعيش الكريم الرَّخي .

***

ـ عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« أتدرون ما المفلس ؟ »

ـ قالوا : المفلس فينا من لادرهم ولا متاع .

ـ قال : «إنَّ المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا . فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته . فإنْ فنيت حسناته قبل أنْ يقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثُمَّ طرح في النَّار » .[2]

---

(١) أبو داود ٣ / ٣٩١ .

(٢) صحيح مسلم ١٦ / ١٣٥ ـ ١٣٦ ( وفي ط استانبول ٨ / ١٨ )



هذا هو المفلس الحقيقي فما أهون تحصيل الدَّراهـم والأمتعـة والعمـل على إيجادها . أمَّا الإفلاس الحقيقي فهو حالة هذا الرَّجل الـذي أضـاع الحسنـات يوم القيامة في ذلك اليوم الذي لا يتاح للمرء أنْ يكسب شيئاً . . ويطرح في النَّار .

وهذا الوصف الدَّقيق الحيّ يؤدِّي غرضاً دينياً هو الامتناع من الظُّلم في الدُّنيا فقد تكون للظالم قوَّة يتمكن بها أنْ يفعل ما يشاء ولكن عليه أنْ يتذكَّر أنَّه سيجرَّد من هذه القوَّة ، إنْ لم يكن في الدُّنيا ففي الآخرة .

إنَّ العدالة الإلهيَّة لن تدع مظلوماً في ذاك اليوم حتَّى تنتصف له من ظالمه .

***

ـ عن النَّواس بن سمعان قال :

سألت رسول الله ﷺ عن البرِّ والإثم .

فقال : « البرُّ حسن الخلق . والإثم ما حاك في صدرك وكرهـت أنْ يطلِّـع عليه النَّاس » .[1]

ما البرُّ وما الإثم ؟

البرُّ حسن الخلق . كلمتان جمعتا كلَّ خصال البرّ . ومعظم المفاسد الاجتماعية والشَّخصية نابعة من سوء الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أنْ يطلَّع عليه النَّاس ولكن الله عزَّ وجلَّ مطلَّع عليه ، فما دمت كرهت أنْ يطلع عليه ـ أحد ـ فاتهم نفسك .

وهناك حديث آخر رواه وابصة بن معبد يشرح هذا الحديث وهو :

ـ عن وابصة بن معبد قال : أتيت رسول الله ﷺ فقال : «جئت تسأل عن البر؟»

قلت : نعم .

(١) صحيح مسلم ١٦ / ١١١ ( وفي ط استانبول ٨/ ٧ ) ومسند أحمد ٤ / ١٨٢ والترمـذي ٣ / ٢٨٢ والمستدرك للحاكم ٢ / ١٤ .





قال : «استفت قلبك . البرّما اطمأنّت إليه النَّفس واطمأنّ إليه القلب والإثم ما حاك في النَّفس وتردَّد في الصَّدر وإنْ أفتاك النَّاس وأفتوك .»[1]

وهذا من الوصف المعنوي الرَّائع الذّي يتغلغل إلى أعماق النَّفس .

ومن وصف الحيوان وصف الكلب الذّي كاد يقتله العطش :

ـ عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ :

« بينما رجل يمشي بطريق اشتدَّ عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثُمَّ خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثَّرى من العطش . . .»[2]

إنَّه يلهث يريد أنْ يشرب وليس أمامه شيء إلاَّ الثَّرى فها هو ذا يأكله علَّه يجد فيه ما يطفىء عطشه .

ـ وعن عمر عن النَّبي ﷺ أنَّه قال :

« لو أنَّكم تتوكَّلون على اللهَّ حقَّ توكلُّه لرزقكم كما يرزق الطَّير تغدو خماصاً وتروح بطانا » .[3]

فهذه الطُّيور تكون في الصَّباح خماصاً[4] ضامرة البطون من الجوع ، وتروح في المساء وقد امتلأت بطونها . إنَّ الله يزرقها من غير حيلة منها ولا تخطيط .

ـ عن أنس أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« أُتيت بالبراق وهو دابَّة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه » .[5]

---

(١) مسند أحمد ٤ / ٢٢٧ وسنده الدَّارمي ٢ / ٢٤٦ .
(٢) متَّفق عليه وقد مضى تخريجه .
(٣) رواه التِّرمذي ( انظر رياض الصَّالحين ٥٧ ط عمارة والأحاديث الصَّحيحة ٣١٠ ) .
(٤) جاء في القاموس : وخميص الحشى ضامر البطن وهي خمصانة وخميصة من خمائص وهم خماص جياع .
(٥) صحيح مسلم ٢ / ٢١٠ ـ ٢١١ .

وفي رواية : « يقع خطوة عند أقصى طرفه » .[1]

البراق دابَّة جاء وصفها الدَّقيق في هذا الحديث وأمثاله وقد ذكر العلماء تعليلاً لتسميتها بالبراق فقالوا : سُمِّي البراق بالبراق لنصوع لونه وشدَّة بريقه ، وقيل لسرعة حركته ، شبَّهه فيهما بالبرق .[2]

وهذا الوصف السرَّيع ذكر أموراً ثلاثة هي لونه وحجمه وسرعة عدوه وأنَّ له طرفاً وحافراً .

والبراق دابَّة ركبها النَّبي ﷺ ليلة الإسراء وجاء ذكرها في حديث المعراج .

وهي من عالم الغيب الذّي خصَّ الله بمعرفته رسول الله ﷺ وبعض الملائكة .

ونطالع وصفاً لحال العبد يوم القيامة من خلال حوار يجري بين العبد وربِّه ثُمَّ حوار بين العبد وجوارحه . هذا الوصف الرَّائع صورة ناطقة لحال النَّاس يوم القيامة فلنستمع إلى هذا الحوار :

ـ عن أنس قال :

كنَّا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال :

ـ «هل تدرون مِمَّ أضحك؟»
ـ قال قلنا : اللهّ ورسوله أعلم .
ـ قال : «من مخاطبة العبد ربَّه يقول : يا ربِّ ألم تجرني من الظُّلم ؟
ـ قال : بلى .
ـ قال فيقول : فإنِّي لا أُجيز على نفسي إلاَّ شاهداً منِّي.
ـ قال فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً .

---

(١) صحيح مسلم ٢ / ٢٢٣ .
(٢) النهاية لابن الأثير ١ / ١٢٠ .

ـ قال : فيختم على فيه . فيقال لأركانه : انطقي .
ـ قال : فتنطق بأعمإله . قال : ثُمَّ يخلىً بينه وبين الكلام قال فيقول : بعداً لكنَّ وسحقاً فعنكنَّ كنت أُناضل .»[1]

من خلال هذا الحوار وصف حيّ لحالة هذا الرَّجل الذِّي طلب أَنْ تشهد عليه أركانه ظنّاً منه أنهَّا ستراعيه فإذا هي تنطق بأعمإله .

وقد مرَّ في البـاب الأَوَّل عندمـا تكلَّمنـا عن الغيبيات نصـوص كثـيرة في التَّصوير بالوصف سأُورد واحداً منها .

ـ عن عبد الله بن قيس عن النَّبي ﷺ قال :

« إِنَّ للمؤمن في الجنَّة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستُّون ميلاً للمؤمن فيها أهلون . يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً .»[2]

إِنَّ هذا الوصف يؤلِّف صورة مثيرة تروع بمادتها وتخلب بجمالها وبه يقرِّب هذا الأمر الغيبي الذِّي لا يستطيع الإنسان أَنْ يدركه إلاَّ بعقله ووجدانه معاً ، والوصف هنا أجدى من أيَّة وسيلة أُخرى من وسائل التَّصوير .

***

## التَّصوير بالقصَّة :

إِنَّ التَّصوير بالقصَّة من أجمل أَساليب التَّصوير وأعمقها أثراً في النَّفس ، ذلك أَنَّ النَّفس البشريَّة ميَّالة لسماع القصَّة ، تجد الأُنس والمتعة في متابعة أحداثها وقد تجد فيها ما تريده أو ما تحياه فيترك ذلك فيها من التأثير والاستمتاع ما لا تبلغه وسيلة أُخرى .

ومن أَجل ذلك كانت القصَّة أُسلوباً ناجحاً في الدَّعوة إلى الـدِّين جعـل في

---

(١) صحيح مسلم ١٨ / ١٠٥ .
(٢) متَّفق عليه ( صحيح مسلم ١٧ / ١٧٥ وانظر رياض الصَّالحين ١٠٤٤ ) .




تاريخنا الأدبي والدِّيني فئة من النَّاس يمتهنون الكلام وإلقاء القصص حتَّى عرفوا بالقَّصاص.[1]

ومن أجل ذلك لا يستطيع أن يستغني عنها داعية ولا مصلح . والقصَّة تسكت عن ذكر المغزى وتترك للسَّامع أنْ يستخرجه وهو بذلك يكون أكثر تأثُّراً لأنَّه يتبنَّى المغزى عن قناعة، وقد يحسُّ بأنَّه هو صاحب الفكرة، لم يفرضها واعظ عليه ولم يوح معناها إليه أحد. والنَّفس تنفر من الأسلوب الوعظي التَّقريري لا سيما إن أسرف فيه الواعظون أو فقدوا التَّوفيق في عرضه واللُّطف في أدائه.

وكتاب الله وسنَّة رسوله مليئان بالقصص الجميل السَّاحر الممتع وليس من قصدنا دراسة القصَّة والتَّفصيل فيها فذاك ليس مجال البحث ولكنَّنا نشير إليها هنا وسيلة من وسائل التَّصوير. والقصَّة التِّي نجدها مستخدمة في التَّصوير في الحديث أنواع ، فمنها الطَّويلة ومنها القصيرة ومنها التي اقتصرت على ذكر موقف ، وهي إمَّا حكاية واقع تاريخي مضى وانقضى وإمَّا حكاية واقع سيكون في آخر الزَّمان .

وربمَّا كانت عن الحيوان والإنسان وربمَّا كانت خاصَّة بأحدهما إلى غير ذلك .

ولنأت إلى استعراض النَّماذج : فمن ذلك قصَّة إبراهيم وإسماعيل :

ـ عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال :

جاء إبراهيم ﷺ بأمِّ إسماعيل وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتَّى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذٍ أحد ، وليس بها ماء فوضعهما هناك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثُمَّ قفَّى إبراهيم منطلقاً فتبعته أمُّ إسماعيل ، فقالت : يا إبراهيم ، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذِّي ليس فيه أنيس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها قالت له : آلله أمرك بهذا؟ قال : نعم ، قالت : إذن لا يضيِّعنا ، ثُمَّ رجعت ، فانطلق

(١) درست هذه الظَّاهرة في مقدمات عدد من الكتب حقَّقتها ونشرتها وهي كتاب أحاديث القصاص لابن تيمية وكتاب الباعث على الخلاص من حوادث القصاص للحافظ العراقي وقد نشرتها لأوَّل مرَّة وكتاب تحذير الخواص من أكاذيب القصاص وقد حقَّقته ونشرته عن مخطوطات عدَّة. وكتاب القصاص والمذكرين لابن الجوزي.





إبراهيم ﷺ حتَّى إذا كان عند الثَّنية ، حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ، ثُمَّ دعا بهؤلاء الدَّعوات ، فرفع يديه فقال : ﴿ربِّ إنِّي أسكنت من ذريَّتي بواد غير ذي زرع﴾ حتَّى بلغ ( يشكرون ) وجعلت أُمُّ إسماعيل ترضع إسماعيل ، وتشرب من ذلك الماء حتَّى إذا نفد ما في السِّقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوَّى أو قال يتلبَّط .[1]

فانطلقت كراهية أنْ تنظر إليه فوجدت الصَّفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ثُمَّ استقبلت الوادي تنظر : هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً فهبطت من الصَّفا حتَّى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ، ثُمَّ سعت سعي الإنسان المجهود[2] حتَّى جاوزت الوادي، ثُمَّ أتت المروة، فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرَّات. قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال النَّبي ﷺ: فلذلك سعى النَّاس بينهما، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فقالت : صَهْ - تريد نفسها - ثُمَّ تسمعت فسمعت أيضاً فقالت : قد أسمعت إنْ كان عندك غواث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه - أو قال بجناحه - حتَّى ظهر الماء فجعلت تحوِّضه[3] وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف .

وفي رواية : بقدر ما تغرف . قال ابن عبَّاس رضى الله عنهما : قال النَّبي ﷺ : رحم الله أُمَّ إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عينا معينا .[4] قال : فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافوا الضَّيعة ، فإنَّ ههنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإنَّ الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرَّابية تأتيه السُّيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله فكانت كذلك حتَّى مرَّت بهم رفقه من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة ، فرأوا طائراً عائفاً فقالوا : إنَّ هذا الطَّائر ليدور على ماء ،

(١) أي يتمرَّغ ويضرب نفسه بالأرض .
(٢) المجهود : الذي أصابه الجهد .
(٣) أي تجعله مثل الحوض .
(٤) أي ظاهراً جارياً على الأرض .

لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء ، فأرسلوا جرياً[1] أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم فأقبلوا وأمّ إسماعيل عند الماء فقالوا : أتأذنين لنا أنْ ننزل عندك ؟ قالت : نعم ولكن لا حق لكم في الماء. قالوا : نعم قال ابن عبَّاس : قال النَّبي ﷺ : « فألفى ذلك أمّ إسماعيل وهي تحبُّ الأُنس فنزلوا فأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم ، حتَّى إذا كانوا بها أهل أبيات، وشبَّ الغلام وتعلَّم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شَبَّ ، فلما أدرك زوَّجوه امرأة منهم وماتت أمُّ إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوَّج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه ، فقالت : خرج يبتغي لنا .

ـ وفي رواية يصيد لنا ـ ثُمَّ سألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بشرّ نحن في ضيق وشدَّة، وشكت إليه . قال: فإذا جاء زوجك اقرئي عليه السَّلام وقولي له يغيرِّ عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل كأنَّه آنس شيئاً ، فقال هل جاءكم من أحد قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا ، فسألنا عنك فأخبرته : فسألني كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنَّا في جهد وشدَّة قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم أمرني أنْ أقرأ عليك السَّلام ويقول : غيرِّ عتبة بابك . قال : ذاك أبي وقد أمرني أنْ أفارقك إلحقي بأهلك ، فطلَّقها وتزوَّج منهم أخرى فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثُمَّ أتاهم بعد فلم يجده ، فدخل على امرأته فسأل عنه . قالت : خرج يبتغي لنا . قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم . فقالت : نحن بخير وسعة وأثنت على الله فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللَّحم والماء. قال النَّبي ﷺ : ولم يكن لهم يومئذ حبّ ولو كان لهم دعا لهم فيه «قال : فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكَّة إلاَّ لم يوافقاه، وفي رواية فجاء فقال أين إسماعيل فقالت امرأته : ذهب يصيد، فقالت امرأته ألا تنزل فتطعم وتشرب؟ قال: وما طعامكم وما شرابكم؟ قالت : طعامنا اللَّحم وشرابنا الماء، قال: اللَّهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم قال: فقال أبو القاسم ﷺ : «بركة دعوة إبراهيم» قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السَّلام، ومر به يثبِّت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل

---

(١) الجري : الرَّسول .

قال : هل أتاكم من أحد؟ قالت : نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته فسألني : كيف عيشنا فأخبرته أنَّا بخير قال : فأوصاك بشيء؟ قالت : نعم يقرأ عليك السَّلام ويأمرك أنْ تثبِّت عتبة بابك . قال : ذاك أبي . وأنت العتبة أمرني أنْ أمسكك . ثُمَّ لبث عنهم ما شاء الله ، ثُمَّ جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلماّ رآه قام إليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد . قال: يا إسماعيل إنَّ الله أمرني بأمر قال : فاصنع ما أمرك ربُّك قال وتعينني قال وأعينك قال فإنَّ الله أمرني أنْ أبني بيتاً ههنا وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها فعند ذلك رفع القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتَّى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿ ربَّنا تقبَّل منَّا إنَّك أنت السَّميع العليم . ﴾

وفي رواية :

إنَّ إبراهيم خرج بإسماعيل وأُمِّ إسماعيل معهم شنة[1] فيها ماء فجعلت أُمُّ إسماعيل تشرب من الشَّنَة فيدرُّ لبنها على صبيّها ، حتَّى قدم مكَّة فوضعها تحت دوحة ، ثُمَّ رجع إبراهيم إلى أهله فاتبعته أُمُّ إسماعيل حتَّى لما بلغوا كداء نادته من ورائه يا إبراهيم إلى من تتركنا ؟ قال إلى الله .

قالت : رضيت بالله .

فرجعت وجعلت تشرب من الشَّنَة ويدُّر لبنها على صبيِّها حتَّى لما فني الماء قالت: لو ذهبت فنظرت لعليِّ أُحسُّ أحداً قال فذهبت فصعدت الصَّفا فنظرت ونظرت: هل تحسُّ أحداً فلم تحس أحداً.

فلماّ بلغت الوادي سعت ، وأتت المروة وفعلت ذلك أشواطاً ثُمَّ قالت : لو ذهبت فنظرت ما فعل الصَّبي فذهبت ، فنظرت فإذا هو على حاله كأنَّه ينشغ[2] للموت فلم تقرَّها نفسها . فقالت : لو ذهبت فنظرت لعليِّ أُحسُّ أحداً فذهبت

---

(١) الشَّنة : السِّقاء .

(٢) ينشغ : أي يشهق .

فصعدت الصَّفا ، فنظرت ونظرت فلم تحسَّ أحداً حتَّى أتمت سبعاً ، ثُمَّ قالت : لو ذهبت فنظرت ما فعل ، فإذا هي بصوت فقالت : أغث إنْ كان عندك خير ، فإذا جبريل ﷺ فقال بعقبيه هكذا ، وغمز بعقبه على الأرض ، فانبثق الماء ، فدهشت أمُّ إسماعيل ، فجعلت تحفن .[3] وذكر الحديث بطوله .

وفي هذه القصَّة دروس وعبر نذكر أهَّمها :

- فيها قصَّة بناء البيت العتيق الذي يتجِّه المسلمون شطره في صلاتهم ، ويحجُّون إليه مرَّة في العمر على الأقل إنْ استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .
- انفجار زمزم وظهورها وكيف كان ذلك معجزة أكرم الله بها من امتثل أمره واتَّكل عليه .
- أصل العرب المستعربة الذين انحدروا من إسماعيل .
- المستوى الرَّفيع الذِّي كانت عليه هاجر ، ترضى بما قدر الله وتمتثل ما أمر وتصدِّق بوعده .
- برُّ الوالدين وإلى أيِّ مستوى يرتقى . . . حتَّى يطيعهما في أخصِّ شؤونه ، وذلك واضح من تطليق إسماعيل زوجته امتثالاً لأمر أبيه .
- شكر المنعم سبب السَّعادة ، والتَّسخط يذهب بالنِّعمة ، ولا يغيرِّ من البؤس شيئاً .
- ارتباط بعض مناسك الحج بأمور تَتَّصل بأُسرة إبراهيم وإسماعيل .

إنهَّا صورة متراكبة متَّصلة تتفاعل فيها الأحداث مع المواقف والمشاهد والشَّخصيات وتؤدِّي دورها في الوصول بالمضمون إلى نفس القارىء أو السَّامع وإدراكها ، وليس ثمَّة وسيلة لإدراك ذلك كلِّه إلاَّ القصَّة في هذه الصُّورة التَّعبيرية المتكاملة .

---

(1) صحيح البخاري ٧ / ١٧٢ ـ ١٧٥ قال النَّووي : رواه البخاري بهذه الروايات انظر رياض الصالحين صـ١٠٢٣ ـ ١٠٣١ .

ومن القصص الطَّويلة التِّي تحكي واقعاً سيكون في آخـر الزَّمـان قصَّـة لن أوردها هنا وإنمَّا أذكِّر بها لأنَّني جئت بها في موضع سابق . وهي قصَّـة النَّـاس في المحشر ، عندما يضيق الأمر بهم ، حتَّى تخطر لهم فكرة الاستشفاع فيذهبـون إلى الأنبياء بدءاً بآدم إلى عيسى عليهم السَّلام ، وكلٌّ واحد منهم يقول : نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ويذكر ذنبه ويذكر غضب ربِّه في هذا اليوم .

وعندما يصلون إلى محمَّد ﷺ يقول : أنا لها . أنا لها . ويتقدَّم للشَّفاعة فيشفع ويقبل الله شفاعته .

***

ومن القصص القصيرة التِّي تحكي واقعاً سيكون يوم القيامة قصَّة الرَّجل الذِّي أمر أهله أنْ يحرقوه ويذروه في البر وفي البحر . . قصَّة هذا الرَّجل يوم القيامة :

ـ عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« قال رجل لم يعمل حسنة قطُّ لأهله : إذا مات فحرِّقوه ثُمَّ اذروا نصفه في البر ونصفه في البحر . . . فوالله لئن قدر الله عليه ليعذِّبنَّه عذاباً لا يعذِّبه أحـداً من العالمين . فلماَّ مات الرَّجل فعلوا ما أمرهم . فأمر الله البرّ فجمع ما فيه ، وأمـر البحر فجمع ما فيه . ثُمَّ قال: لم فعلت هذا؟
قال : من خشيتك يا ربّ وأنت أعلم .
فغفر الله له » .[1]

قصَّة في غاية الإمتاع . . . نقرؤها مدهوشين من صنيع الرَّجل بنفسه، وتتعاظم دهشتنا عندما نقف في نهايتها على مغفرة الله له .

إنَّه إنسان لم يعمل خيراً . . . وفاته الوقت . . . وعلم أنَّه غير قادر على أنْ يفعل شيئاً يمحو به ذلك التَّاريخ الأسود الطَّويل . . فزيَّنت له نفسه أنْ يوصى أهله

---

(١) صحيح مسلم : ١٧ / ٧٠ ـ ٧١ .



أنْ يحرِّقوه بعد أنْ يموت ويذروا نصفه في البر ونصفه في البحر . . . ظنّاً منه أنَّه سينجو من مقابلة الله ومحاسبته لأنَّه يتوقَّع عذاباً لا يلقاه أحد من العالمين . وقال بسذاجة وغفلة : إنَّه يريد أنْ يفلت من قبضة الله . قال : فوالله لئن قدر الله عليه ليعذِّبنَّه . . . مسكين . . يظنُّ أنَّه بهذا يسبق قدرة الله !!

ولكنَّ المفاجأة تتمّ . . فأمر الله البحر فجمع ما فيه وأمر البرّ فجمع ما فيه . . . ومثل أمام الله تبارك وتعالى ، فسأله : لم فعلت هذا ؟ فأجابه وساق البرهان على صدق قوله : قال : من خشيتك وأنت تعلم . . . لأنَّك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصُّدور . . . فغفر الله له .

إنَّ خشية الله سبب الفوز والمغفرة . وإنَّ قدرة الله لاحدَّ لها ، وإنَّ الخضوع للمحاسبة والمساءلة أمر لا مفرَّ منه أينما كانت الوفاة وكيفما تمَّت .

إنَّ رحمة الله ومغفرته تشمل الخلق أجمعين وعفوه تبارك وتعالى . . . والقصَّة تدلُّ على أنَّ الله عزَّ وجلَّ عرف صدق هذا العبد فغفر له على الرَّغم من تصرُّفه الأحمق الذِّي لا يتَّفق والإيمان بصفات الله .

قال النَّووي : ( وقالت طائفة : اللَّفظ على ظاهره ، ولكنْ قاله هذا الرَّجل وهو غير ضابط لكلامه ولا قاصد لحقيقة معناه ومعتقد لها . بل قاله في حالة غلب . . . عليه فيها الدَّهش والخوف وشدَّة الجزع بحيث ذهب تيقُّظه وتدبُّر ما يقوله ، فصار في معنى النَّاقل والنَّاسي ، وهذه الحالة لا يؤاخذ فيها . وهو نحو القائل الآخر الذِّي غلب عليه الفرح حين وجد راحلته : أنت عبدي وأنا ربك . . وقد جاء في هذا الحديث في غير مسلم ( فلعليِّ أضلُّ الله ) ، أيْ أغيب عنه . وهذا يدلُّ على أنَّ قوله ( لئن قدر الله) على ظاهره.

وقالت طائفة : هذا من مجاز كلام العرب وبديع استعمالها يسمُّونه مزج الشَّك باليقين كقوله تعالى ﴿ وإنَّا أو إيَّاكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ فصورته صورة شكٍّ والمراد به اليقين ) .(١)

---

(١) شرح صحيح مسلم : ١٧ / ٧١ .





ومن القصص القصيرة قصَّة المرأتين اللَّتين تنازعتا ولداً :

ـ عن أبي هريرة عن النَّبي ﷺ أنَّه قال :

« بينما امرأتان معهما ابناهما جاء الذِّئب ، فذهب بابن احداهما .
فقالت هذه لصاحبتها : إنمَّا ذهب بابنك أُنت .
وقالت الأُخرى : إنمَّا ذهب بابنك .
فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى . فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه .
فقال : ائتوني بالسّكين أُشقَّه بينكما .
فقالت الصُّغرى : لا . يرحمك الله . هو ابنها.
فقضى به للصُّغرى » . (١)

قصَّة فيها مفاجآت عدَّة وعقدتان وحوار غنيٌ بالحيويَّة والايحاء وهي تؤدِّي أغراضاً كثيرة منها أنَّ صاحب الحجَّة القويَّة يؤثِّر على القاضي كما فعلت الكبرى صاحبة التَّجربة والحنكة والبيان ممَّا جعل داود يقضي لها . ومنها أنَّ القاضي إذا التبست أمامه المسالك فعليه أنْ يستخدم ذكاءه وطرائقه للوصول إلى الحقّ كما فعل سليمان . ومنها أنَّ حنان الأمّ يحملها على أن تضحّي بما كانت ترجوه من الانتفاع بولدها وترضى أنْ يحكم به للأُخرى ليبقى حيّاً . ويبدو أنَّ سليمان تظاهر أنَّه فاعل ذلك لا محالة .

إلى غير ذلك من الدُّروس التِّي تكمن في أحداث هذه القَّصة وفي الحوار الحي المستخدم فيها والذي يُعَدّ جزءاً أساسياً في تتابع أحداثها.

***

ـ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« بينا أيوب يغتسل عرياناً ، فخرَّ عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحتثي في ثوبه .

(١) صحيح البخاري ٧ / ١٩٨ ط كتاب الشَّعب وصحيح مسلم ١٢ / ١٨ ـ ١٩ .

فناداه ربُّه : يا أيُّوب ! ألم أكن أغنيتك عماً ترى ؟ قال : بلى وعزَّتك ، ولكن لا غنى بي عن بركتك » . [١]

إنَّ مقاومة الإغراء صعبة ، فهذا نبيُّ الله أيُّوب يختبره ربُّه في حالة اغتساله عرياناً ، فيرسل إليه جراداً من ذهب ، فلا يراه أيُّوب حتَّى ينسى نفسه واغتساله وعريه ويسارع يحشو ثوبه من هذا الذَّهب فيعاتبه ربُّه على صنعه قائلاً : يا أيُّوب ألم أكن أغنيتك عماً ترى ؟
ويعتذر أيوب .

إنهَّا قصَّة سريعة فيها مفاجأة وعقدة وحوار .
إنهَّا تصوِّر حبَّ الإنسان للمال وحرصه عليه ورغبته في الازدياد منه .

***

ـ ومن ذلك قصَّة الرَّجل الذّي يزور أخاً له في الله :

ـ عن أبي هريرة عن النَّبي ﷺ أنَّه قال :

« إنَّ رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى ، فأرصد الله له على مدرجته ملكاً ، فلمَّا أتى عليه قال :

ـ أين تريد ؟
ـ قال : أُريد أخاً لي في هذه القرية .
ـ قال : هل لك عليه من نعمة تربهُّا ؟
ـ قال : لا . غير أني أحببته في الله عزَّ وجلَّ .
ـ قال : فإنِّي رسول الله إليك بأنَّ الله قد أحبَّك كما أحببته فيه » . [٢]

قصَّة تصوِّر المحبَّة الخالصة والنِّية الصَّادقة . . . انظر إلى هذا الحوار الجميل

---

(١) صحيح البخاري : ١ / ٧٨ ط الشَّعب .
(٢) صحيح مسلم : ١٦ / ١٢٤ .

الذّي يبرز نيَّة الرَّجل في زيارة أخيه ، فلم تكن له عليه نعمة يربهُا غير أنَّه أحبَّه في الله عزَّ وجلَّ . فكان جزاؤه أنَّ الله قد أحبَّه وما أعظمه من جزاء !! وما أجلَّها من مكافأة !!

***

ـ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« كان رجلان في بني اسرائيل متواخيين ، فكان أحدهما يذنب ، والآخر مجتهد في العبادة ، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذَّنب فيقول : أقصر .

فوجده يوماً على ذنب فقال له : أقصر .

فقال : خلِّني وربِّي . أبعثت عليّ رقيباً ؟

فقال : والله لا يغفر الله لك ـ أو لا يدخلك الله الجنَّة ـ

فقبض أرواحهما ، فاجتمعا عند ربِّ العالمين ، فقال لهذا المجتهد : أكنت بي عالماً ؟ ـ أو كنت على ما في يدي قادراً ؟ ـ

وقال للمذنب : اذهب ، فادخل الجنَّة برحمتي .

وقال للآخر: اذهبوا به إلى النَّار» . [1]

درس للوّعاظ الذّين يتصدَّون إلى دعوة النَّاس وتوجيههم . . . . درس بليغ لو تدَّبروه . . . الأسلوب الحسن هو الوسيلة التّي بها يكسبون قلوب النَّاس ، والتَّبرؤ من الأنانية والتَّعالي والعجب بالطَّاعة إنَّ ذلك كلَّه ممَّا يخفِّف من ظلِّ هؤلاء الدُّعاة ويجعلهم مقبولين من عامَّة النَّاس . والله تعالى يخاطب سيِّد الرُّسل قائلاً :

﴿ ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضُّوا من حولك﴾ .

ثُمَّ ما هذا التَّألِّي على الله . . . والتَّحكُّم في مصائر النَّاس ؟ كيف يقول إنسان صالح مثل هذا القول : أنْ يحلف أنَّ الله لا يغفر لفلان أو لا يدخله الجنَّة ؟؟

***

(١) أبو داود : ٤ / ٣٨٠ .

ـ وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« اشترى رجل من رجل عقاراً له ، فوجد الرَّجل الذِّي اشترى العقار في عقاره جرَّة فيها ذهب . فقال له الذِّي اشترى العقار : خذ ذهبك منِّي . إنَّما اشتريت منك الأرض . ولم أبتع منك الذَّهب .

فقال الذِّي شرى[1] الأرض : إنَّما بعتك الأرض وما فيها .

فتحاكما إلى رجل . فقال الذِّي تحاكما إليه :

ـ ألكما ولد ؟

فقال أحدهما : لي غلام .

وقال الآخر : لي جارية .

قال : أنكحوا الغلام الجارية وأنفقوا على أنفسكما منه وتصدَّقا »[2]

قصَّة على إيجازها حافلة بالمعاني الكثيرة فهي تقدِّم لنا نموذجاً من النَّاس الورعين . . . الذِّين يمتنعون من أخذ ما لا يظنون أنَّ لهم فيه حقّاً ، وكذلك فإنَّ في القصَّة بياناً لتصرُّف الحكم الموفَّق الذِّي يصلح فيه بين المتخاصمين على وجه يرضيهما ويكون موافقاً للحقّ أيضاً .

***

ومن القصص التِّي اقتصرت على موقف قصَّة الرَّجل المتكبِّر الآتية :

ـ عن أبي هريرة عن النَّبي ﷺ أنَّه قال :

« بينما رجل يمشي في حلَّة تعجبه نفسه مُرجّل جُمَّته يختال في مشيته ، قد أعجبته جمَّته وبرداه إذ خسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل في الأرض حتَّى تقوم السَّاعة » .[3]

---

(١) شرى : باع .

(٢) صحيح البخاري ٧ / ٢١٢ ط الشَّعب وصحيح مسلم ١٢ / ١٩ ـ ٢٠ .

(٣) صحيح البخاري ٧ / ١٨٣ ط الشعب وصحيح مسلم ١٤ / ٦٤ ، ويتجلجل : أي يتحرَّك وينزل مضطرباً .

لم يعرض علينا من القصَّة إلاَّ هذا الموقف الـذِّي أعقبتـه المفاجـأة الأليمـة القاسية .

رجل يمشي أعجبته نفسه وحُلَّته وشعره فهو يختال إذ خسف الله به الأرض فنال جزاءه الأليم الطَّويل .

ـ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« مرَّ رجل بغصن شجرة على ظهر طريق فقال : والله لأنحينَّ هذا عن المسلمين ، لا يؤذيهم . فأُدخل الجنَّة » .

وفي رواية : « . . . غصن شوك على الطَّريق فأخَّره فشكر الله له فغفر له » .

وفي رواية : « لقد رأيت رجلاً يتقلَّب في الجنَّة في شجرة قطعها من ظهر الطَّـريق كانت تؤذي المسلمين » .[1]

قصَّة ذات موقف يبرز ثواب من يميط الأذى اليسير عن طريق المسلمين .

ومن القصص الطَّريقة القَّصة التِّي مرَّت بنا في نهاية الباب الأوَّل :

« عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« مثل الذِّي يستمع الحكمة ويتبِّع شرَّ ما سمع كمثل رجل
أتى راعياً : فقال : احرز لي شاة من غنمك
فقال : اذهب فخذ بأذن خير شاة
فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم » .[2]

هذه قصَّة تصوِّر حماقة المعرض عن الحق الذِّي يسمـع ولكنَّـه لا ينتفـع بمـا يسمع . وقد درستها دراسة كافية في الموضع الذِّي أشرت إليه آنفاً .

***

(١) صحيح البخاري : ١ / ١٦٧ ط الشَّعب وصحيح مسلم : ١٣ / ٦٢ ، و ١٦ / ١٧٠
(٢) المسند : ٢ / ٤٠٥ .



ومن القصص التّي جاءت عن الحيوان والإنسان هذه القصّة :

ـ عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها ، فشرب ، ثُمَّ خرج ، فإذا كلب يلهث يأكل الثَّرى من العطش .
فقال : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذّي كان بلغ منّي فنزل البئر ، فملأ خفَّه ماء ، ثُمَّ أمسكه بفيه حتَّى رقي ، فسقى الكلب ، فشكر الله له ، فغفر له » .

قالوا : يا رسول الله : وإنَّ لنا في هذه البهائم لأجراً ؟

فقال : « في كلِّ كبد رطبة أجر » .[1]

**وفي رواية لهما عن أبي هريرة :**

« بينما كلب يطيف بركية قد كاد يقتله العطش إذْ رأته بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل فنزعت موقها[2] فاستقت له به فغفر لها به» .[3]

كان هذا الرجل أو المرأة ذا إحساس مرهف، لقد كاد يموت من العطش وما إنْ رأى البئر حتَّى فرح بعودة الحياة إليه . . . . وهذا الحيوان الأعجم أصابه مثل ما أصابه وهو لا حيلة له . . . . . فنزل فسقاه . . . . .

والرِّواية الأُخرى أبلغ في الدّلالة لأنَّ المرأة كانت بغيّاً وقد غفر لها بهذا الفعل .

***

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٤٦ ، و٨/ ١١ ط الشّعب وصحيح مسلم ١٤/ ٢٤٢وفي ط استانبول ٨/ ٩ وأبو داود ٣/ ٣٣.
(٢) الموق : خفٌ غليظ يلبس فوق الخف جمعه أمواق .
(٣) صحيح مسلم : ١٤ / ٢٤٢ والبخاري : ٤ / ٢١١





ـ وعن عبد الله وأبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« عذِّبت امرأة في هرَّة سجنتها حتَّى ماتت ، فدخلت فيها النَّار . لا هي أطعمتها وسقتها ، إذْ هي حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض » .[1]

ـ وعن أسماء بنت أبي بكر ، قالت : قال رسول الله ﷺ :

« . . . ودنت منِّي النَّار ، حتَّى قلت : أيْ ربِّ وأنا معهم ؟
فإذا آمرأة ـ حسبت أنَّه قال ـ تخدشها هرَّة
قلت : ما شأن هذه ؟
قالوا : حبستها حتَّى ماتت جوعاً لا أطعمتها ولا أرسلتها تأكل من خشيش ـ أو من خشاش ـ الأرض . . . » .[2]

هذا الحديث المشهور قصَّة عن امرأة تعذَّب لأنَّها أساءت معاملـة الحيوان ، والحديث السَّابق كان قصَّة مغفرة لمن أحسن إلى الحيوان .

***

ومن القصص التَّي لم يذكر فيها إلاَّ الحيوان هذه القصَّة ، قصَّة آكلة الخضر :

ـ عن أبي سعيد الخدري أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« ـ أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدُّنيا »
قالوا : وما زهرة الدُّنيا يا رسول الله ؟
قال : «بركات الأرض . »
قالوا : يا رسول الله : وهل يأتي الخير بالشرِّ ؟
قال : «لا يأتي الخير إلاَّ بالخير. لا يأتي الخير إلاَّ بالخير. لا يأتي الخير إلاَّ بالخير.

---

(١) صحيح البخاري : ٤ / ٢١٥ ط الشَّعب ، وصحيح مسلم ١٤ / ٢٤٠ و ١٦ / ١٧٢ و ١٧ / ٧٢ وفيه : ( حتَّى ماتت هزلاً ) .
(٢) صحيح البخاري : ١ / ١٩٠ .



إنَّ كلَّ ما أنبت الرَّبيع يقتل أو يلم ، إلاَّ آكلة الخضر فإنهَّا تأكل حتَّى إذا امتدَّت خاصرتاها استقبلت الشَّمس ، ثُمَّ اجترت وبالت وثلطت ثُمَّ عادت فأكلت .

إنَّ هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بحقِّه ووضعه في حقِّه فنعم المعونة هو . ومن أخذه بغير حقِّه كان كالذي يأكل ولا يشبع » .[1]

قال الأزهري : وفيه مثلان : ضرب أحدهما للمفرط في جمع الدُّنيا مع منع ما جمع من حقِّه .

والمثل الآخر ضربه للمقتصد في جمع المال وبذله في حقِّه .

فأمَّا قوله ﷺ : « وإنَّ ممَّا ينبت الرَّبيع ما يقتل حبطاً » فهو مثل الحريص والمفرط في الجمع والمنع ،وذلك أنَّ الرَّبيع ينبت أحرار العشب التِّي تحْلَوليها الماشية ، فتكثر منها حتَّى تنتفخ بطونها وتهلك . كذلك الذِّي يجمع الدُّنيا ويحرص عليها ويشحُّ على ما جمع حتَّى يمنع ذا الحقِّ حقَّه منها ، يهلك في الآخرة بدخول النَّار واستيجاب العذاب .

وأمَّا مثل المقتصد المحمود فقوله ﷺ :

إلاَّ آكلة الخضر فإنهَّا أكلت حتَّى إذا امتلأت خواصرها استقبلت عين الشَّمس فثلطت وبالت ثُمَّ رتعت .

وذلك أنَّ الخضر ليس من أحرار البقول التِّي تستكثر منها الماشية فتهلكها أكلاً ، ولكنَّه من الجنبة التِّي ترعاها بعد هيج العشب ويبسه .

قال : وأكثر ما رأيت العرب يجعلون الخضر ما كان أخضر من الحَلَى الذِّي لم يصفرَّ ، والماشية ترتع منه شيئاً شيئاً ولا تستكثر منه فلا تحبط بطونها .

قال : وقد ذكره طرفة فبينَّ أنَّه من نبات الصَّيف في قوله :

كبنات المخر يمأدن إذا أنبت الصَّيف عساليج الخضر

(1) صحيح البخاري ٤ / ٢٢ و ٨ / ١١٣ ط الشعب وصحيح مسلم ٧ / ١٤٢ ، وهناك روايات مقاربة للرواية المذكورة، والحبط أنْ تأكل الماشية فتكثر حتى تنتفخ لذلك بطونها ولا يخرج عنها ما فيها .





فالخضر من كلأ الصَّيف في القيظ ، وليس من أحرار بقول الرَّبيع ، والنَّعم لا تستوبله ولا تحبط بطونها عنه .

وقال : وبنات مخر أيضاً وهي سحائب يأتين قبيل الصَّيف .

قال : وأمَّا الخضارة فهي من البقول الشَّتوية وليست من الجنبة .

فضرب النَّبي ﷺ آكلة الخضر مثلاً لمن يقتصد في أخذ الدُّنيا وجمعها ولا يسرف في قمّها والحرص عليها وأنَّه ينجو من وبالها كما نجت آكلة الخضر .

ألا تراه قال : فإنَّها إذا أصابت من الخضر استقبلت عين الشَّمس فثلطت وبالت ، وإذا ثلطت فقد ذهب حبطها ، وإنَّما تحبط الماشية إذا لم تثلط ولم تبل وانطمَّت عليها بطونها .

وقوله ( إلاَّ آكلة الخضر ) معناه : لكن آكلة الخضر .

وأمَّا قول النَّبي ﷺ :

«إنَّ هذا المال خضرة حلوة» فهو ههنا النَّاعمة الغضة .[1]

***

## التَّصوير بالموازنة :

الموازنة أسلوب كثير الورود في الحديث النَّبوي ، وقد جمع هذا الأسلوب بين الإمتاع والإقناع ، أمَّا الإمتاع فلأنَّ السَّامع والقارىء يكونان أمام صورة تربط بين شيء معروف وأمر جديد يتعرَّفانه ، وأمَّا الإقناع فلانَّ الموازنة تجعل الإنسان يأخذ بالرَّأي يدلُّ عليه الدَّليل .

وسأورد بعض النَّماذج ولن استطيع سوقها كلها لكثرة الصُّور التَّي كانت تعتمد على الموازنة . ، لا سيماً وأنَّ كثيراً منها قد مرَّ معنا في البابين السَّابقين :

---

(١) لسان العرب : مادة حبط ، ط . بيروت ٧ / ٢٧٠ .

ـ عن المستورد بن شداد قال : قال رسول الله ﷺ :

« ما الدُّنيا في الآخرة إلاَّ مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه ـ وأشار يحيى بالسَّبابة ـ في اليم فلينظر بما يرجع » .[1]

إن شأنها ضئيل ، ما هي بالنِّسبة إلى الآخرة إلاَّ مثل ما يعلق بالسَّبابة إذا أُدخلت البحر .

هذه الدُّنيا وما فيها لا تكاد تذكر أمام الآخرة . ومن يقرن كميَّة الماء العالقة بالسَّبابة بالبحر العظيم المحيط ؟

***

ـ عن سهل بن سعد السَّاعدي قال : قال رسول الله ﷺ :

« لو كانت الدُّنيا تعدل عند الله جناح بعوضه ما سقى كافراً منها شربة ماء » .[2]

إنهَّا عند الله أقل من جناح بعوضه ، لأنَّنا نرى الكفَّار يسقون وتتاح لهم وسائل النَّعيم .

***

ـ عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ :

« رباط يوم في سبيل الله خير من الدُّنيا وما عليها وموضع سوط أحدكم في الجنَّة خير من الدُّنيا وما عليها والرَّوحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدُّنيا وما عليها » .[3]

هذه الدُّنيا وما عليها ليست شيئاً أمام هذه الأُمور الثَّلاثة . إنَّ المساحة اليسيرة من الجنَّة التِّي تعدل موضع السَّوط خير من هذه الدُّنيا وما عليها .

---

(١) صحيح مسلم : ١٧ / ١٩٢ .

(٢) رواه الترمذي : وقال : حديث حسن صحيح وانظر رياض الصالحين ٣٣٨ .

(٣)) متَّفق عليه ( صحيح البخاري : ٤ / ٢٩ وانظر رياض الصالحين ٧١٦ ) .

وفي رواية لأبي هريرة عن النَّبي ﷺ أنَّه قال :

« لقاب قوس في الجنَّة خير ممَّا تطلع عليه الشَّمس أو تغرب » .[1]

وقاب القوس هو مقدار ما بين المقبض والسية من القوس .

والتعبير بما طلعت عليه الشَّمس عن الدُّنيا وارد كثيراً وهو يزيد الصُّورة جمالاً إذ يجعل الصُّورة مركَّبة ومن ذلك الحديث الآتي :

ـ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاَّ الله والله أكبر أحبُّ إليَّ ممَّا طلعت عليه الشَّمس » .[2]

ـ وعن عمر بن الخطَّاب قال :

. . . وجئت رسول الله ﷺ فسلَّمت عليه فقال :
« لقد أُنزلت عليَّ اللَّيلة سورة فهي أحبُّ إليَّ ممَّا طلعت عليه الشَّمس . . . » .[3]

فرسول الله ﷺ يقرِّر أنَّ قول أذكار معينة أحبُّ إليه من الدُّنيا ، وسورة الفتح أحبُّ إليه من الدُّنيا .

إنَّ المؤمن المحبَّ لرسول الله ﷺ عندما يسمع هذا الكلام يقدر الدُّنيا قدرها ، وتهون عليه مآسي الحياة ، ويدفعه إلى الجهاد واختيار ما عند الله وما يؤثر رسول الله ﷺ .

***

ـ عن أنس عن النَّبي ﷺ قال :

« يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النَّار عذاباً :

---

(١) متفق عليه ( وانظر رياض الصالحين ١٠٤٥ ) .
(٢) صحيح مسلم : ١٧ / ١٩ .
(٣) صحيح البخاري : ٥ / ١٦١ ط الشَّعب .

لو كانت لك الدُّنيا وما فيها أكنت مفتدياً بها ؟

فيقول : نعم .

فيقول : قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك ولا أُدخلك النَّار فأبيت إلاَّ الشرِّك » .[1]

يخبرنا رسول الله ﷺ عن حوار سيجري يوم القيامة بين أهون أهل النَّار عذاباً وبين الله ، ويسأله ربُّنا تبارك وتعالى : لو كانت لك الدُّنيا وما فيها أتقبل أنْ تتنازل عنها لتفتدي نفسك بها من هذا العذاب ، فيقول نعم .

فالدُّنيا وما فيها لا تساوي أقل عذاب يمكن أنْ يلقاه إنسان في النَّار فما بالنا والعياذ بالله بأشدِّ النَّاس عذاباً ؟

إنَّ هذا نذير لهؤلاء الذِّين ما زالوا في الفسحة .

***

ـ عن أبي هريرة قال :

جاء رجل من بني فزارة إلى النَّبي ﷺ فقال :

ـ إنَّ امرأتي ولدت غلاماً أسود ـ وهو حينئذٍ يعرض بأن ينفيه ـ

ـ فقال النَّبي ﷺ : «هل لك من إبل؟»

ـ قال : نعم

ـ قال : «فما ألوانها؟»

ـ قال : حمر

ـ قال : «هل فيها من أورق؟»

ـ قال : إنَّ فيها لورقاً .

ـ قال : «فأنَّى أتاها ذلك؟»

ـ قال : عسى أن يكون نزعه عرق .

---

(١) صحيح مسلم : ١٧ / ١٤٧ .

ـ قال : « وهذا عسى أن يكون نزعه عرق» .

ولم يرخص له في الانتفاء منه » .[1]

لقد تركه ﷺ يستخلص الحجَّة بنفسه ، ولم يقرِّرها هو حتَّى لا يحسَّ بأنَّ شيئاً فرض عليه ، وكان هذا الحوار الحيّ مفحماً للرجل عن طريق الموازنة ، وواضح أنَّه اعتمد على ما هو معروف عند المخاطب الذِّي كان له إبل .

***

ومن الأمثلة التِّي يقيم الرَّسول الموازنة فيها على الإبل الحديث الجميل الآتي :

ـ عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال :

« ما من مولود يولد إلاَّ على الفطرة . وأبواه يهودانه وينصرِّانه كما تنتجون الإبل : فهل تجدون فيها جدعاء حتَّى تكونوا أنتم تجدعونها ؟ »[2]

وفي رواية :

« . . . فأبواه يهوِّدانه وينصرِّانه كما تناتج الإبل من بهيمة جمعاء . . . هل تحسُّ من جدعاء ؟[3] »

التَّربية هي التِّي تفسد الفطرة ، فالنَّاس كالإبل في سلامتها وأصحابها هم الذِّين يجدعونها ، فتهويد الأب ابنه ، وتنصيره إيَّاه تشويه وإفساد .

ومن الأمثلة التِّي يوازن فيها بين أمر طيِّب فاضل وبين الإبل حديث عليٍّ الذي يرويه عن النَّبي ﷺ :

---

(١) البخاري ٧ / ٦٨ ـ ٦٩ ط الشَّعب ، ومسلم ١٠ / ١٣٣ وفي ط استانبول ٤ / ٢١١ وفتح الباري ٩ / ٤٤٢ ومسند أحمد ١٢ / ١٧٦ وأقيسة النَّبي : ٨٠ و ١٨١ .

(٢) صحيح البخاري ٨ / ١٥٣ ط الشَّعب وصحيح مسلم ٨ / ٥٢ ط استانبول ومسند أحمد ٢ / ١٧١ ط شاكر .

(٣) أبو داود : ٤ / ٣١٧ .



« فوالله لأنْ يهدي الله بك رجلاً واحداً خير من أنْ يكون لك حمر النَّعم » .[1]

فحمر النَّعم أنفس أموال العرب . . . فيوازن لهم ﷺ بين حيازتها وهداية رجل واحد .

وقريب منه حديث عقبة بن عامر الذي يفضّل فيه رسول الله ﷺ قراءة آيتين من كتاب الله على ناقتين كوماوين زهراوين يأخذهما المرء من غير إثم ولا قطع رحم .[2]

ـ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« أما يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أنْ يجعل الله رأسه رأس حمار » .[3]

إنَّه تهديد لمن يرفع رأسه قبل رأس الإمام أنْ يجعل الله رأسه يوم القيامة رأس حمار . . . يا لها من فضيحة . . . والرأس هو الذي تكون به الحياة والذي يتعارف به النَّاس .

***

ـ عن النَّواس بن سمعان قال : قال رسول الله ﷺ :

« . . . ويحصر نبيُّ الله عيسى وأصحابه حتَّى يكون رأس الثَّور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم » .[4]

رأس الثَّور الذي يزهد به النَّاس أمام فخذه وسائر لحمه هذا الرَّأس يكون في المجاعة بسبب الحصار خيراً من مائة دينار لأحدنا اليوم .

ورائعة هذه الموازنة بين الرَّجل في حالين :

ـ عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال :

---

(١) البخاري ٤ / ٥٧ ط الشَّعب وصحيح مسلم ١٥ / ١٧٨ وأبو داود ٣ / ٤٣٨ .
(٢) صحيح مسلم ٦ / ٨٩ ، وابو داود ٢ / ٩٦ .
(٣) صحيح البخاري ١ / ١٧٧ .
(٤) صحيح مسلم ١٨ / ٦٨ .





« إنَّه ليأتي الرَّجل العظيم السَّمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة » .[1]

في الدُّنيا سمين عظيم . . وحقيقته فارغة . . . لأنَّه خلا من الإيمان فهو عند الله لا يزن جناح بعوضه .

وهناك موازنة تعاكس هذه الموازنة نجدها في الحديث الآتي :

ـ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« ربَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرَّه » .[2]

هو هنا مدفوع بالأبواب يطردونه أوَّل ما يواجهونه . . . أشعث الرَّأس أغبر ولكنَّه عند الله ذو شأن عظيم فهو لو أقسم على الله لأبرَّه .

***

ويريد رسول الله ﷺ أنْ يبين عظم توبة تائب أو تائبة فيقول : «إنهَّا لو وزِّعت بين سبعين لوسعتهم[3] أوْ لو وزِّعت بين أمَّة لوسعتهم[4] أو لو تابها أهل المدينة لقبل منهم[5] أو لو تابها صاحب مكس لغفر له . » .[6]

ويوازن بين الهجاء الموجع وبين رشق النِّبال فيقول كما تروي السَّيدة عائشة :

« آهجوا قريشاً فإنَّه أشدُّ عليها من رشق بالنَّبل » .[7]

ويوازن بين فعل اللِّسان في الفتنة ووقع السَّيف فيقرِّر أنَّه أشدُّ من وقع السَّيف :

(١) متفق عليه ( وقد مضى تخريجه ) .
(٢) رواه مسلم ( وقد مضى تخريجه ) .
(٣) مسلم : ١١ / ٢٠٥ .
(٤) مسلم : ١١ / ٢٠١
(٥) التِّرمذي : ٢ / ٣٣٥ .
(٦) مسلم : ١١ / ٢٠٣
(٧) صحيح مسلم : ١٦ / ٤٨ .

ـ عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ :

« واللِّسان فيها [1] أشد من وقع السَّيف » . [2]

والجلوس على القبر ممنوع ، وقد وازن رسول الله ﷺ بينه وبين الجلوس على الجمر :

ـ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير من أن يجلس على قبر » . [3]

ويحرِّم رسول الله فخر العرب بأجدادهم المشركين الذِّين هم فحم من فحم جهنَّم ويهدِّد أولئك الذِّين لا يدعون هذا النَّهج الجاهلي بأنْ يكونوا عند الله أهون من الجعلان :

ـ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« إنَّ الله قد أذهب عنكم عبيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء. مؤمن تقي، وفاجر شقي .
أنتم بنو آدم ، وآدم من تراب .
ليدعنَّ رجال فخرهم بأقوام إنَّما هم فحم من فحم جهنَّم أو ليكوننَّ أهون على الله من الجعلان [4] التِّي تدفع بأنفها النَّتن [5] » . [6]

ولنا أنْ نتصوَّر أولئك الأشراف الذين يتيهون على النَّاس بأحسابهم . . . ويكونون في حقيقة أمرهم أهون على الله من الجعلان التِّي تعيش في الأقذار .

***

(١) أي في الفتنة .
(٢) أبو داود : ٤ / ١٤٤ .
(٣) صحيح مسلم ٧ / ٣٧ ، وأبو داود ٣ / ٢٩٤ .
(٤) الجعلان : بكسر الجيم وسكون العين : جمع جعل بضم ففتح : دويبة سوداء تدير الخراء بأنفها .
(٥) النَّتن : أي العذرة .
(٦) أبو داود : ٤ / ٤٥٠ .

ـ عن عبد الله بن مغفل قال : قال رجل للنبي ﷺ :

ـ يا رسول الله : والله إنِّي لأُحبُّك .

ـ فقال : «انظر ماذا تقول؟»

ـ قال : والله إني لأُحبُّك ـ ثلاث مرَّات ـ

ـ فقال ﷺ : « إنْ كنت تحبُّني فأعدَّ للفقر تجفافاً ؛[1] فإنَّ الفقر أسرع إلى من يحبُّني من السَّيل إلى منتهاه » .[2]

السَّيل يسرع إلى منتهاه . . . والفقر يسرع إلى من يحبُّ النَّبي ﷺ لأنَّه سيجود بماله في سبيل الله .

والموازنة بين الحالين تقرِّر أنَّ الصَّالحين مبتلون ليعرف صدقهم من كذبهم .

***

والموازنة بين ريح المسك وبين أُمور يظنُّ خبثها ، أو بين المسك وبين رائحة ربمَّا لا يستحسنها النَّاس . فمن ذلك حديث رجم ماعز وفيه :

« ثُمَّ رميناه بالحجارة حتَّى هدأ ، فجاء رجل يسأل عن المرجوم فانطلقنا به إلى النَّبي ﷺ فقلنا : هذا جاء يسأل عن الخبيث ، فقال رسول الله ﷺ :

« لهو أُطيب من ريح المسك »

فإذا هو أبوه ، فأعنَّاه على غسله وتكفينه ودفنه . . » .[3]

ـ وحديث أبي هريرة عن الصَّائم :

« والذي نفس محمَّد بيده لخلوف فم الصَّائم أُطيب عند الله من ريح المسك » .[4]

---

(١) التَّجفاف : بكسر التاء وإسكان الجيم : وبالفاء المكرَّرة : وهو شيء يلبسه الفرس ليتَّقي به الأذى . وقد يلبسه الانسان .

(٢) رواه التِّرمذي وقال : حديث حسن وانظر رياض الصَّالحين ٣٤١ .

(٣) أبو داود ٤ / ٢١٠ .

(٤) متفق عليه ( وقد مضى تخريجه ) .

وكذلك فإنَّ رسول الله ﷺ يوازن بين أمر معلوم وأمر غير واضح كما في قضاء صوم الميِّت . . . فوازن بين دين الله ودين النَّاس :

ـ عن ابن عبَّاس قال :

جاء رجل إلى النَّبي ﷺ فقال : يا رسول الله . إنَّ أُمِّي ماتت وعليها صوم أفأقضيه عنها ؟

فقال : « لو كان على أُمِّك دين أكنت قاضيه عنها ؟ »

قال : نعم .

قال : « فدين الله أحقُّ أنْ يقضى » .(١)

ـ عن أمِّ سلمة : أنَّ امرأة توفيِّ زوجها ، فخافوا على عينها ، فأتوا النَّبي ﷺ فاستأذنوه في الكحل .

فقال رسول الله ﷺ :

« قد كانت إحداكن تكون في شرِّ بيتها ، في أحلاسها ـ أو في شرِّ أحلاسها ـ في بيتها حولاً فإذا مرَّ كلب رمت ببعرة فخرجت . أفلا أربعة أشهر وعشراً ؟ »(٢)

وفي رواية البخاري :

« عن أمِّ سلمة قالت : جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ! إنَّ ابنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفتكحَلُها ؟

فقال رسول الله ﷺ : لا ـ مرَّتين أو ثلاثاً ـ

كلُّ ذلك يقول : لا .

ثُمَّ قال رسول الله ﷺ :

«إنَّما هي أربعة أشهر وعشرٌ وقد كانت إحداكن في الجاهلية ترمي بالبعرة على رأس الحول » .

(١) صحيح مسلم ٨ / ٢٤ .
(٢) انظر صحيح البخاري المثبت مع فتح الباري ٩ / ٤٨٤ ـ ٤٨٥ .

قال حميد ( الرَّاوي ) فقلت لزينب : وما ترمي بالبعرة على رأس الحول ؟ .

فقالت زينب : كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت حفشاً ولبست شرٍّ ثيابها ولم تمسَّ طيباً حتَّى تمرَّ بها سنة ، ثُمَّ تُؤْتَى بدابَّة ، حمار ، أو شاة ، أو طائر فتفتضُّ به ، فقلَّما تفتَضُّ بشيء إلاَّ مات . ثُمَّ تخرج فتعطى بعرة فترمي ، ثُمَّ تراجع بعدما شاءت من طيب أو غيره .

سئل مالك ( أحد رجال السَّند ) : ما تفتضُّ به ؟

قال : تمسح به جلدها .[1]

وفي هذا النَّص موازنة بين سماحة الإسلام وحسن معاملته ورعايته للمرأة وبين ما كانت عليه في الجاهلية ، ومع ذلك فهي تتبرم من المدة اليسيرة التي أوجبها عليها الاسلام .

وفي النص معلومات وافية لما كانت عليه المرأة التي يتوفى عنها زوجها في الجاهلية وكيف كانت تعامل وتخضع لأساطير باطلة .

***

ـ عن جابر أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ بالسُّوق داخلاً من بعض العالية والنَّاس كنفيه ، فمرَّ بجدْي أَسك[2] ميِّت ، فتناوله فأخذ بأذنه ثُمَّ قال : « أيُّكم يحبُّ أنَّ هذا له بدرهم ؟ »

فقالوا : ما نحبُّ أنَّه لنا بشيء . وما نصنع به ؟

قال :«أتحبُّون أنَّه لكم؟»

قالوا : والله لو كان حيّاً كان عيباً فيه ، لأنَّه أسكُ فكيف وهو ميِّت ؟

فقال : « فوالله للدُّنيا أهون على الله من هذا عليكم » .[3]

---

(١) صحيح البخاري المثبت مع الفتح ٩/ ٤٨٤

(٢) أي صغير الأذنين .

(٣) صحيح مسلم : ٨ / ٢١٠ ـ ٢١١ ط استانبول .




موازنة بين أمر يملك مجامع قلوبهم ويتنازعون على التَّافه منه وهذا الأمر هو الدُّنيا ، وبين أمر لا يحبُّون أنْ يكون لهم بشيء . . . إنَّه جديٌ ميِّت أسكّ لا يساوي شيئاً . . . بل لو كان حيّاً لم يرغبوا فيه لهذا العيب الكبير الذي فيه ، بعد أنْ وصل معهم إلى هذا التَّقويم لهذا الجدي أقسم أنَّ الدُّنيا أهون على الله من هذا عليكم .

***

## التَّصوير بالإشارة والحركة والرَّسم :

وهذا اللَّون من التَّصوير نقل إلينا ووصف ، وهو لون من ألوان التَّصوير التِّي توضِّح الفكرة وتبينُ المراد .

ذلك أنَّ الإشارة لغة إنسانيَّة يستطيع أنْ يتفاهم بها ناس من بلاد مختلفة لا يعرف بعضهم لغة بعض كما يتفاهم بها البكم فيما بينهم ومع النَّاطقين أيضاً. وهي إذْ كانت في محلِّها كانت معينة على الفهم ، ملفتة للنَّظر ، طاردة الشرُّود مشركة في المتابعة أكثر من حاسَّة ، فالنَّاظر يرى الإشارة ويسمع العبارة، ويذكر كلٌّ منهما بالأُخرى .

وكانت لحركته ﷺ وإشارته موضع كبير في إجادة الأداء فحركته معبِّرة تلفت النَّظر وتنبِّه الغافل وتعين على الحفظ والتَّذكر .[1]

أمَّا الرَّسم فإنَّه أُسلوب تعليمي يجلو الأمر ويوضحه أتَّم توضيح . . . وإنَّه لمستوى رفيع في التَّوجيه والإبلاغ أنْ يكون الرَّسم أداة في قوم أُميِّين .

***

(١) انظر صفحة ٥٧ من كتابي : الحديث النَّبوي ـ الطبعة الثالثة.





## استخدامه الاصبعين السَّبابة والوسطى :

ـ عن سهل بن سعد عن النَّبي ﷺ قال :

« أنا وكافل اليتيم في الجنَّة هكذا »

وأشار بأُصبعيه السَّبابة والوسطى .[1]

ـ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« كافل اليتيم له أو لغيره ، أنا وهو كهاتين في الجنَّة »

وأشار مالك ( أحد الرُّواة ) بالسَّبابة والوسطى .[2]

ـ عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ :

« من عال جاريتين حتَّى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين » وضمَّ أُصابعه .[3]

القيام بأُمور اليتيم والبنات عمل يرشح صاحبه ليكون مع رسول الله ﷺ في الجنَّة . ويستخدم رسول الله ﷺ الإشارة بأُصبعيه ليدلَّ على أنَّ من يفعل ذلك يكون مرافقاً له في الجنَّة .

وكذلك فإنَّه يستعمل الإشارة نفسها عندما يريد أنْ يقرِّر أنَّ بعثته مقاربة لقيام السَّاعة ، والقرب والبعد أُمور نسبيَّة .

ـ عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ :

« بعثت أنا والسَّاعة كهاتين » .[4]

وأشار بالوسطى والسَّبابة .

---

(١) صحيح البخاري ٨/ ١٠ ط الشّعب . والإصبع فيها عشر لغات بتثليث الهمزة والباء . والعاشرة أصبوع على وزن عصفور . واشهرها بفتح الهمزة وكسر الباء

(٢) صحيح مسلم ١٨ / ١١٣ .

(٣) صحيح مسلم ٨ / ٣٨ ط استانبول .

(٤) مسند أحمد ٣ / ١٢٤ ( وانظر أقيسة النَّبي ١٤٣ ) .

ـ عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ :

« بعثت أنا والسَّاعة كهاتين » .

ويقرن بين أُصبعيه السَّبابة والوسطى .[1]

***

## الإشارة باليد حاثياً إلى الأمام والخلف واليمين والشِّمال :

وردت هذه الإشارة عندما يريد صلوات الله وسلامه عليه أنْ يذكر توزيع المال في المستحقِّين وهو تصوير رائع :

ـ عن أبي ذر قال : انتهيت إلى النَّبي ﷺ وهو جالس في ظلِّ الكعبة فلماَّ رآني قال : «هم الأخسرون وربِّ الكعبة».

فجئت حتَّى جلست ، فلم أتقارَّ أنْ قمت فقلت : فداك أبي وأُمي من هم ؟ قال : « هم الأكثرون أموالاً ـ إلاَّ من قال هكذا وهكذا وهكذا » ـ من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله .[2]

ـ وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ :

« ما أُحبُّ أنَّ أُحداً ذاك عندي ذهب ، أمسي ثالثة عندي منه دينار ، إلاَّ ديناراً أرصده لدين ، إلاَّ أنْ أقول في عباد الله هكذا ـ حثا بين يديه ـ وهكذا عن يمينه وهكذا عن شماله » .[3]

***

(١) رواه مسلم ( وانظر رياض الصَّالحين ١٦٤ ) .
(٢) صحيح مسلم ٧ / ٧٣ .
(٣) صحيح مسلم ٧ / ٧٥ والبخاري وانظر رياض الصَّالحين ٣٣٣ .

## الإشارة باليد إلى الفمّ:

وقد استعمل رسول الله ﷺ هذه الإشارة عندما كان يتحدَّث عن موقف النَّاس يوم القيامة وعن مكان ارتفاع بحيرة العرق بالنِّسبة إلى أجسامهم .

ـ عن المقداد بن الأسود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« تُدنى الشَّمس يوم القيامة من الخلق حتَّى تكون منهم كمقدار ميل » . (١)

« فيكون النَّاس على قدر أعمالهم في العرق : فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكون إلى حقويه ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً» .

قال : فأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه . (٢)

***

## الإشارة بأصابع يده للدّلالة على الأرقام :

هناك دلالات على الأرقام بالأصابع ، وقد حدَّدت هذه الإشارات في كتب الفقه وفي الكتب التِّي تحكي عادات العرب في الأمور الاجتماعية .

فعندما أراد رسول الله ﷺ أنْ يقرِّر أنَّ الشَّهر القمري يأتي مرَّة تسعاً وعشرين ومرَّة ثلاثين استخدم من أجل ذلك الإشارة بالأصابع . وقد نقل الصَّحابة عنه مثل هذا الاستعمال :

ـ عن ابن عمر قال : قال النَّبي ﷺ :

« إنَّا أمَّة أمية لا نكتب ولا نحسب ، الشَّهر هكذا وهكذا وهكذا » .

---

(١) قال سليم بن عامر راوى الحديث : فوالله ما أدرى ما يعنى الميل أمسافة الأرض أم الميل الذِّي تكحل به العين .

(٢) صحيح مسلم ١٧ / ١٩٦ .

وخنس سليمان أصبعه في الثَّالثة ، يعني تسعاً وعشرين ، وثلاثين .[١]

***

## الإشارة باليدين مجموعتين ثُمَّ بسط السَّبابتين :

وذلك في بيانه ﷺ الفجر الذِّي يمسك عند حلوله الصَّائم وفي هذه الإشارة حكاية لانفجار الفجر وكيف يكون ذلك على وجه التَّقريب فلقد جمع كفَّيه ثُمَّ مدَّ أُصبعيه السَّبابتين إلى الأمام :

ـ عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ :

« لا يمنعنَّ أحدكم أذان بلال من سحوره ، فإنَّه يؤذِّن ـ أو قال ينادي ـ ليرجع قائمكم وينتبه نائمكم . وليس الفجر أنْ يقول هكذا ( قال مسدَّد : جمع يحيى كفَّيه ) حتَّى يقول هكذا ( ومدَّ يحيى بأُصبعيه السَّبابتين ) » .[٢]

## الإشارة باليد إلى رأس المخاطب :

وذلك للدَّلالة على القرب الشَّديد . وقد فعل ذلك رسول الله ﷺ ليقرِّر أنَّ السَّاعة يومئذٍ أقرب من النَّاس من يده ﷺ من رأس المخاطب .

ـ عن ابن حوالة قال : قال رسول الله ﷺ :

« يا بن حوالة : إذا رأيت الخلافة قد نزلت أرض القدس فقد دنت الزلازل والبلابل والأُمور العظام . والسَّاعة يومئذٍ أقرب من النَّاس من يدي هذه من رأسك » .[٣]

***

(١) أبو داود ٢ / ٣٩٨ . وأخرجه البخاري ومسلم وابن ماجه
(٢) أبو داود ٢ / ٤٠٨ وأخرجه البخاري ومسلم وابن ماجه
(٣) أبو داود : ٣ / ٢٨ .

## تشبيك الأصابع :

- عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ :

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً » .[1]

وشبَّك بين أصابعه .

وهذه الإشارة للدَّلالة على القوَّة والتماُسك وتقوية بعضهم لبعض . وقد استخدم الرَّسول ﷺ التَّشبيك أكثر من مرَّة .

***

## الإشارة باليد إلى الصَّدر للدَّلالة على مكان التَّقوى :

- عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« . . وكونوا عباد الله إخواناً . المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره . التَّقوى ههنا » .

ويشير إلى صدره ثلاث مرَّات .[2]

## وضع السَّبابة في الفم إشارة إلى الرضاع :

وذلك في حديث الثَّلاثة الذين تكلَّموا في المهد ، فقد كلَّم الطِّفل الرَّضيع أُمَّه ثُمَّ رجع إلى الرَّضاعة فحكى النَّبي ﷺ رضاعته .

- عن أبي هريرة قال : قال النَّبي ﷺ :

« . . . فترك الثَّدي ، وأقبل إليه ، فنظر إليه ، فقال: اللَّهم لا تجعلني مثله . ثُمَّ

---

(١) متفقٌ عليه : انظر رياض الصَّالحين ٢٠٤ .
(٢) صحيح مسلم : ٨ / ١١ ط استانبول .

أقبل على ثديه فجعل يرضع فكأنِّي أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بأصبعه السبابة في فيه فجعل يمصُّها . . . » .[1]

***

## تغيِّر جلسته ﷺ :

وكان يفعل ذلك إذا أراد أنْ يؤكِّد أهمية الموضوع الذِّي يتحدَّث فيه . فيغيرِّ جلسته كما في الحديث الآتي :

ـ عن أبي بكرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» .

قلنا : بلى يا رسول الله .

قال : « الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين» وكان متكئاً فجلس .

فقال : «ألا وقول الزُّور» .

فما زال يكرِّرها حتَّى قلنا ليته سكت .[2]

***

## الإشارة باليد ووضعها على الأرض ونقلها :

فلقد جمع أصابعه فوضعها على الأرض ثُمَّ قال :

« هذا ابن آدم» .

---

(١) صحيح البخاري ٤ / ٢٠١ وصحيح مسلم ١٦ / ١٠٥ .
(٢) متَّفق عليه ، وانظر رياض الصَّالحين ٥٥٢ ط رضوان محمد رضوان .

ثُمَّ رفعها فوضعها قبل ذلك قليلاً وقال :

« هذا أجله » .

ثُمَّ رمى بيده أمامه وقال :

« وثَمَّ أمله » .[1]

إنَّ هذا التَّنقل باليد من مكان إلى مكان ليصوِّر قرب الأجل وطول الأمل وبعده وسيلة من وسائل ترسيخ الفكرة واستيعابها في أذهان السَّامعين .

***

**الرَّسم :**

وإنَّه لتصوير يجسِّد المعنى ويبيِّنه ببساطة ووضوح ولقد استخدمه الرَّسول ﷺ في توضيح عدَّة معان وسنذكر معنيين :

**(١) الدَّعوة الإسلامية والدَّعوات الباطلة المنحرفة :**

ـ عن عبد الله بن مسعود قال :

خطَّ رسول الله ﷺ خطاً بيده ثُمَّ قال :

« هذا سبيل الله مستقيماً » .

وخطَّ عن يمينه وشماله ثُمَّ قال :

« هذه السُّبل ليس منها سبيل إلاَّ عليه شيطان يدعو إليه » ثُمَّ قرأ ﴿ وأنَّ هذا صراطي مسقياً فاتبَّعوه ولا تتَّبعوا السُّبل فتفرَّق بكم عن سبيله ﴾ .[2]

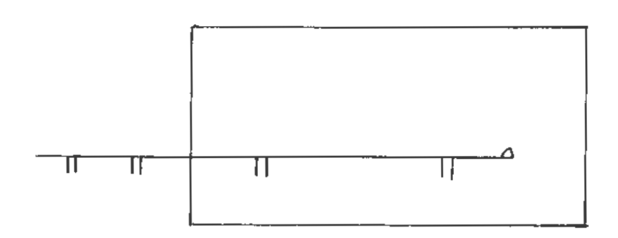
---

(١) المسند : ٣ / ١٢٣ .

(٢) المسند : ١ / ٤٦٥ وسنن ابن ماجه ١ / ٦ والمستدرك ٢ / ٣١٨ . والآية ١٥٣ من سورة الأنعام

وما أحسب أنَّ هناك تفسيراً يبسط معنى الآية ويقرِّبها للأذهان يفوق هذا التَّفسير الموضح بالرَّسم .

## (٢) الأمل والأجل :



عن عبد الله قال :

خطَّ النَّبي ﷺ خطاً مربَّعاً ، وخطَّ خطاً في الوسط خارجاً منه وخطَّ خططاً صغاراً إلى هذا الذِّي في الوسط من جانبه الذِّي في الوسط فقال :

« هذا الإنسان ، وهذا أجله محيط به ، وهذا الذِّي هو خارج أمله . وهذه الخطط الصغار الأعراض . فإنْ أخطأه هذا نهشه هذا ، وإنْ أخطأه هذا نهشه هذا » .[1]

***

ـ وروى أنس قال : خطَّ النَّبيﷺ خطوطاً فقال :

« هذا الأمل ، وهذا أجله ، فبينما هو كذلك إذْ جاءه الخطُّ الأقرب » .[2]

***

(١) صحيح البخاري : ٨ / ١١٠ ـ ١١١ ط كتاب الشَّعب ، وفتح الباري : ١١ / ٢٣٧ ـ ٢٣٨
(٢) صحيح البخاري : ٨ / ١١١ ط كتاب الشَّعب .

### استخدام الرَّسول الحصى مع الإشارة في التّصوير :

ويبدو أنَّ موضوع الأجل والأمل حرص رسول الله ﷺ على توضيحه فقد رأينا في هذا الفصل كيف نوَّع الوسائل التِّي تدور كلُّها على أنَّ الأمل أوسع من الأجل وفيها تحذير للمرء ودعوة إلى أنْ يحسب حساباً للمنيَّة التِّي تنتظره .

فرمى رسول الله ﷺ حصاتين إحدهما قريبة والأُخرى بعيدة ثُمَّ شرح حقيقتهما كما في الحديث الآتي :

ـ عن بريدة قال : قال النَّبي ﷺ :

« هل تدرون ما مثل هذه وهذه ؟ »

ورمى بحصاتين .

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : « هذاك الأمل وهذاك الأجل » .[1]

***

## التَّصوير بالموسيقى

لا شكَّ أنَّ الموسيقى من العناصر الرَّئيسية في التَّصوير وهي تنبع من نظم العبارة ومن العلاقات المتشابكة بين الألفاظ ومن تآلف عناصر الشَّكل والمضمون ومن التَّيار العاطفي الَّذي يربط بين نفس المتكلِّم وتعبيره الحسّي . والموسيقى أولاً وقبل كلِّ شيء إحساس يستشعره المرء في وجدانه قبل أنْ يدرك عناصره ويحلِّل جزئياته ، والكلمة الواحدة بحروفها وظلالها المعنويَّة لا تصنع الموسيقى في الصُّورة ولكن بتضامّها مع إخواتها في النَّظم بحيث نستشعر الصُّورة الكليَّة .

---

(١) التِّرمذي : ٤ / ٤٠ .

ولقد كان للّرسول الكريم المقدرة الفائقة الكبيرة على اختيار الكلمات ذوات الإيقاع الموسيقي المحبَّب بحيث يتوافر لكلٍّ كلمة منها أمران اثنان لهما أهميَّة كبرى في إعطاء الكلمة موسيقاها الحلوة هما :

أ ـ التَّعاطف بين المعنى واللَّفظ .

ب ـ والانسجام في إيقاع الحروف

أمَّا التَّعاطف بين المعنى واللفظ فهو واضح في الكلمة الحديثيَّة وهو يضفي على الكلمة موسيقى معيَّنة حتَّى أصبحت هذه الموسيقى تخدم المعنى وتقود إليه وتدلُّ عليه . ويفيدنا هنا التَّمثيل ، وما أكثر الأَمثلة المسعفة :

فمن ذلك كلمة ( يغرغر ) الَّتي تحكي صوت من يعالج الموت في حنجرته والَّتي وردت في الحديث الآتي :

ـ عن عبد الله بن عمر عن النَّبي ﷺ أنَّه قال :

«إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقبل توبة العبد ما لم يغرغر »[1]

إنَّ موسيقى هذه الكلمة ساعدت على تصوير المعنى وتقريبه . وتكرار المقطع في هذا الفعل جعلنا نستشعر الحركة الشَّاقة المضنية عند الموت .

ـ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« قال الله تبارك وتعالى : يا بن آدم أَنفق أُنفق عليك »

وقال « يمين الله ملأى سحَّاء لا يغيضها شيء اللَّيل والنَّهار أرأَيتم ما أَنفق مذ خلق السَّماء والأَرض فإنَّه لم يغض ما في يمينه »[2]

وإنَّنا لنحس روعة الموسيقى في هذا التَّصوير من التَّقطيع المتوازن في العبارة

---

(١) رواه التّرمذي وقال : حديث حسن وانظر رياض الصَّالحين ١٢ ط رضوان محمد رضوان .

(٢) صحيح البخاري ٦/ ٩٢ ط الشّعب وصحيح مسلم ٧/ ٧٩ ـ ٨٠ .

الَّذي يصاحب المعنى مصاحبة واعية فقد بدأ بهذا النِّداء : « يا ابن آدم » ، ثُمَّ كان هذا الأَمر ( أَنفق ) وفيه قطع حاسم أَدَّته الموسيقى بحيث لم يورد المفعول به ، ثُمَّ جاءت الجملة الثَّالثة ( أُنفق عليك ) لتبينَ بصوتها هذا الثَّواب .

ونلاحظ هذا التَّقطيع الصَّوتي المتوازن في جمل بقيَّة الحديث وفي الصَّوت الَّذي دلَّت عليه كلمتا ( ملأى ) و( سحَّاء ) .

وسحَّاء : أَيْ دائمة الصَّب والهطل بالعطاء .

وملأى : وصفها بالامتلاء لكثرة عطائها فجعلها كالعين الَّتي لا ينقصها كثرة الاستقاء منها ، ويؤكِّد هذا المعنى قوله ( لم يغض ) أَيْ لم ينقص .

إنَّ هاتين الكلمتين بإيقاعهما وبصيغتيهما تؤدِّيان صورة العطاء الغزير المستمرّ الَّذي لا ينقطع ، ولو بدِّلت هاتان الكلمتان بما يرادفهما لما كانت الصُّورة نفسها . إنَّ صيغة ( فعال ) ومجيء الحاء وهي من حروف الحلق مشدَّدة وبعدها أَلف وهمزة توحي في نفسي ونفس من يسمع هذا الحديث معنى الغزارة المستمرَّة .

وكذلك كلمة (ملأى ) بالأَلف المقصورة تؤدِّي مثل هذه الصُّورة

ومن براعة الموسيقى في هذه الصُّورة الاضطرار إلى الوقف لتجسيم المعنى فانتصاب اللَّيل والنَّهار على الظَّرفية أَدَّى معنى الاستمرار والطُّول .

وتستشعر مرونة الموسيقى في التَّصوير في كلمات الحديث الآتي في وصف الحوض .

ـ عن أَبي ذر قال :

قلت : يا رسول الله : ما آنية الحوض ؟

قال : « والَّذي نفسي بيده لآنيته أَكثر من عدد نجوم السَّماء وكواكبها أَلاَ في اللَّيلة المظلمة المصحية . آنية الجنَّة ، من شرب منها لم يظمأ ، آخر ما عليه يشخب

فيه ميزابان من الجنَّة من شرب منه لم يظمأ، عرضه مثل طوله، ما بين عمان إلى أَيلة ماؤه أَشدُّ بياضاً من اللَّبن وأَحلى من العسل »[1]

النَّص هذا مليء بالصُّور المتعدِّدة الَّتي تعاونت وسائل التَّصوير كلّها لتقديم لوحة واضحة تامَّة الوضوح عن أَمر غيبيّ لا نعرف عنه في دنيانا شيئاً، فالوصف الدَّقيق، والتَّشبيه المبين، والتَّقدير للأبعاد بما يقرب المعنى من أذهان السَّامعين والموسيقى الدَّاخلية للكلمة.

إنَّ كلمة ( المصحية ) بصيغتها وجرسها تؤدِّي ههنا صورة تبرز لنا نجوم السَّماء بشكل نافر واجتماعها مع كلمة ( المظلمة ) بهذا التَّقابل والتَّناظر مع الاتّفاق في صيغة اسم الفاعل يؤدِّي كذلك جانباً من التَّصوير، يدركه الذَّوق وتتجاوب معه النَّفس، وقد يقصر عن إيضاحه البيان وكذلك فإنَّ كلمة (يشخب ) كلمة كأَنَّها تحكي لنا صوت الماء الَّذي يصبُّ في الحوض من الميزابين الواردين من الجنَّة.

إنَّنا لا ننتهي من قراءة الحديث حتَّى تتمثَّل أَمام أَعين خيالنا لوحة رائعة الجمال فتَّانة المنظر لا نستطيع أَنْ نتحوَّل عنها لما نجد من المتعة والسِّحر في استجلائها والتَّأمُّل في جوانبها. إنَّه الحوض الذي لا يظمأ من يشرب منه في يوم شديد عطشه عزيز شرابه. ومع ذلك فإنَّ ماءه أَحلى من العسل.

ـ ومن ذلك الحديث الآتي :

ـ عن أبي هريرة أ ن رسول الله ﷺ قال:

« إيَّاكم والظنَّ فإنَّ الظنَّ أَكذب الحديث . ولا تحسَّوا ولا تجَسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً كما أَمركم . المسلم أَخو المسلم : لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره . التَّقوى ههنا . التَّقوى ههنا (ويشير إلى صدره ) بحسب امرىء من الشر أَنْ يحقر أَخاه المسلم . كلُّ المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله . إنَّ الله لا ينظر إلى أَجسامكم ولا إلى صوركم وأَعمالكم ولكنْ ينظر إلى قلوبكم » .

---

(١) صحيح مسلم : ١٥/ ٦١ـ ٦٥ .

وفي رواية :

« لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسَّسوا ولا تحسَّسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخواناً »[1]

إنَّ الموسيقى هي أبرز عناصر الشَّكل في هذا الحديث فهي متغيرِّة الإيقاع بحسب المضمون وقد أدَّت الحروف المتجاورة دوراً بارعاً في الصُّورة كذلك أدَّى التَّوازن والتَّقطيع الصَّوتي دوراً بديعاً ، والانسجام في أصوات الحروف وإيقاعها بلغ في الكلمة الحديثية درجة تقرب من الإعجاز .

لو ذهبنا نبحث عن كلمة تتنافر حروفها في الحديث لما استطعنا أَنْ نجد شيئاً منها .

إنَّ كلمات الحديث تتمتَّع بجرس موسيقي رائع ، تنساب حروفها على اللِّسان انسيابا وتَتَّحد مع مضمونها في إطار تصويري بديع .

ويفيدنا هنا أَنْ نأتي بالأَمثلة وما أَكثرها أيضاً .

فمنَّ ذلك كلمات الحديث الآتي :

ـ عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ :

« إنَّ في الجنَّة لسوقاً يأتونها كلَّ جمعة فتهبُّ ريح الشَّمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسناً وجمالاً . فيرجعون إلى أَهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً .

فيقول لهم أَهلوهم : والله لقد ازددتم حسناً وجمالاً .

فيقولون : وأَنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً »[2]

لا ينقضي عجبي وإعجابي من روعة كلمة (فتحثو ) .

---

(١) رواه مسلم قال النَّووي في رياض الصَّالحين ص ٥٦٠ ط رضوان محمد : رواه مسلم بكلٍّ هذه الرِّوايات وروى البخاري أكثرها .

(٢) صحيح مسلم ٨/ ١٤٥ ط استانبول .

لقد جمعت هذه الكلمة كميَّة من الصُّور بإيقاعها المأنوس العذب وبالحركة الَّتي ترتسم في الخيال عند سماعها وبمعناها الّذي تدلُّ عليه .

ولو أعدنا قراءة الحديث نتأمَّل في جرس كلٍّ كلمة لبدا لنا هذا الانسجام في أصوات الحروف وإيقاعها في كلِّ كلمة ، ولعلَّنا ندرك ما أحدثه تكرار عبارة (ازددتم حسناً وجمالاً) من جمال الموسيقى في تصوير المعنى وتأكيد مغزاه .

ولنأخذ مثالاً آخر:

ـ عن أنس أنَّ رسول الله ﷺ قال :

«حفَّت الجنَّة بالمكاره . وحفَّت النَّار بالشَّهوات»(١)

إنَّ كلَّ كلمة في الحديث تثير بجرسها معاني شتَّى وتصوِّر ما ينبغي للإنسان من تحمُّل المشقَّات في سبيل الوصول إلى الجنَّة وما يغريه بالوقوع في الشَّهوات والمعاصي ليتلظَّى جسده بالنَّار .

إنَّ لغة الحديث تسترعي وجدان القارىء والسَّامع بموسيقها وروعة نظمها الَّذي يؤلِّف صوراً بديعة ولا يعتمد على الكلمات المفردة في جمال إيقاعه ، ذلك لأنَّه قد تكون الكلمة مقبولة في ذاتها ولكنَّها عندما تجتمع مع كلمات أُخر يحصل تنافر بينها ، ونبو لها عن الأُذن واستثقال للنُّطق بها .

ولكنَّ الكلمات الحديثيَّة عندما تضمُّ الواحدة منها إلى أخواتها يحلو جرسها وتزيد عذوبتها ويحسن إيقاعها .

ولعل ذلك يعود إلى الموهبة الفذَّة الَّتي منحها الله عبده ورسوله محمَّداً ﷺ في نظم الكلمات . وإلى التَّآلف المدهش بين مخارج الحروف إذ لا نرى ازدحاما بحرف ثقيل في الحديث .

وإلى التَّسلسل في الإيقاع فلا نجد انتقالاً مفاجئاً من إيقاع إلى إيقاع إلاَّ إذا تطلَّب المضمون ذلك .

---

(١) صحيح مسلم ٨/ ١٤٢ط . استانبول والحديث متَّفق عليه من حديث أبي هريرة . وقد مضى تخريجه .

وإلى البعد عن التكلُّف وإرسال النَّفس على سجيَّتها .

ولننظر في بعض الأحاديث :

ـ عن أَبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« إنَّ الله لا ينظر إلى من يجرُّ إزاره بطراً »[1]

إنَّ موسيقى الجملة تكاد تدلُّ السَّامع على المعنى فقد بدأ بهذا التَّأكيد القاطع باستخدام ( إنَّ ) ، واستخدم الفعل المسبوق بلا النَّافية لزيادة تأكيد انصراف الله عمَّن يرتكب هذه المخالفة .

وقد تعانقت الصُّورة مع الموسيقى في الحديث ، فَبَدا هذا المتكبر الَّذي يجرُّ إزاره بطراً ، ولعلَّنا لا نغفل عن أثر الرَّاء المتكرِّرة أربع مرَّات في العبارة في الموسيقى المصوِّرة للمضمون .

**

ـ عن أَبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« مثلي كمثل رجل استوقد ناراً فلماً أَضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدَّواب الَّتي في النَّار يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيتقحمن فيها . قال : فذلكم مثلي ومثلكم وأنا آخذ بحجزكم عن النَّار : هلمَّ عن النَّار ، هلمَّ عن النَّار ، فتغلبوني وتقحمون فيها »[2] .

إنَّ الموسيقى في هذا الحديث متغيرِّة الإيقاع بحسب المضمون علوًّا وانخفاضاً للدَّلالة على المعنى فهذا الرَّجل (استوقد) النَّار (فأضاءت) فتساقط فيها الفراش والدَّواب ، وعبَّر عن ذلك بفعل الوقوع وهو رائع في تصوير معنى التَّهافت على المعصية ، ثُمَّ نرى في الموسيقى صورة هذه المغالبة (يحجزهن ) و( يغلبنه ) وصورة الإصرار على الوقوع في المعصية المردية باستخدام لفظة (فيتقحمن ) .

---

(١) صحيح مسلم ٦/ ١٤٨ ط استانبول .

(٢) صحيح مسلم ٧/ ٦٤ ط استانبول .

ـ عن أبي ذر ومعاذ عن النبيﷺ أنَّه قال :

« اتقِ الله حيثما كنت . وأتبع السَّيِّئة الحسنة تمحها ، وخالق النَّاس بخلق حسن »[١] . إنَّ موسيقى الجملة في هذا الحديث تنساب على طرف اللِّسان ، وتستمتع بها الأُذن ، وكأنَّ هذا الكلام موزون لا يمكن أَنْ ننقل كلمة عن موضعها إذْ يؤدِّي ذلك إلى اختلال انسياب الإيقاع في مجراه ، وهذا الانسياب الموسيقي راجع إلى تصويره للمعنى إذْ يبدأ الحديث بفعل الأمر الحساسم القاطع ( اتَّقِ الله ) ثُمَّ نحس في عبارة ( حيثما كنت ) الاتّساع المكانيّ والزَّماني معاً وتزداد نبرة الإيقاع سرعة حين يطلب من الإنسان محوَ الإساءة بالحسنة ، ثُمَّ يكون هذا الأَمر الهادىء الإيقاع باستخدام الفعل ( خالق ) والمجانسة بينه وبين الخلق .

وكثيراً ما تعتمد لغة الحديث في موسيقاها على التَّقابل والتَّوازن الصَّوتي وعلى السَّجع أحيانا .

ومن الأمثلة على ذلك الحديث الآتي :

عن أبي موسى الأشعري قال ، قال رسول الله ﷺ :

« إنَّ الله عزَّ وجلَّ يبسط يده باللَّيل ليتوب مسيء النَّهار ، ويبسط يده بالنَّهار ليتوب مسيء اللَّيل ! حتَّى تطلع الشّمس من مغربها »[٢] .

إنَّ التَّقابل والتَّوازن الصَّوتي واضح بين طرفي الكلام ، ففي الطَّرف الأَوَّل بسط اليد في اللَّيل ليتوب مسيء النَّهار . وفي الطرَّف الثَّاني بسط اليد في النَّهار ليتوب مسيء اللَّيل . إنَّ هذا التَّقابل والتَّوازن الصَّوتي زاد في وضوح الصُّورة وكانت الموسيقى نفسها ههنا أداة مصوِّرة .

* عن صهيب قال ، قال رسول الله ﷺ :

« عجباً لأمر المؤمن ، إنَّ أمره كلَّه له خير ، وليس ذلك لأَحد إلا للمؤمن . إنْ

---

(١) رواه التّرمذي ( وانظر رياض الصَّالحين ٤٧ ط عمارة ) .
(٢) صحيح مسلم ٨ / ١٠٠ ط استانبول .

أَصابته سرَّاء شكر فكان خيراً له ، وإنْ أَصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له »[1] .

فقوله ﷺ : « إنَّ أَمره كلَّه له خير » جملة تقابلها الجملة الَّتي بعدها من ناحية الجرس وهي « وليس ذلك لأحد إلاَّ للمؤمن » والجملتان الأَخيرتان مثل واضح على التَّوازن الصَّوتي الدَّقيق والمقابلة التَّامة وانظر في الجملتين ، فإنَّك لا ترى الجملة الثَّانية تزيد حرفاً واحداً على الجملة الأُولى وكلُّ ما في الأَمر وضع كلمتي « ضرَّاء » و« صبر » مكان «سرَّاء» و «شكر» .

إنَّ هذا التَّقابل في الصُّورة يكسب الصُّورة مزيداً من الوضوح ذلك لأنَّ جمع الشَّيء إلى ما يخالفه يبرزه ويبينُّ خصائصه كما نجد في الحديث الآتي :

ـ عن أَبي موسى قال ، قال رسول الله ﷺ :

«إنَّ الله عزَّ وجلَّ يملي للظَّالم فإذا أَخذه لم يفلته » ثُمَّ قرأ ﴿ وكذلك أَخذ ربِّك إذا أَخذ القرى وهي ظالمة إنَّ أَخذه أَليم شديد ﴾ .[2]

إملاء للظَّالم وترك له ثم إمساك وعدم إفلات ، إنَّ هذا التَّقابل يزيد في وضوح الصُّورة ويغرس في النَّفس الخوف من الوقوع في مثل هذه الحالة .

فإنْ ظلم الإنسان نفسه أَو غيره ولم يلق العقوبة الرَّادعة فليتريث وليفكِّر ولا يمض في طريق الغواية ، فلربَّما كان هذا من الإملاء الَّذي يتبعه إمساك وعدم إفلات .

وبذلك تكون الصُّورة قد أَدَّت غرضها الدِّيني ، وقد اكتملت كلُّ جوانب التَّأثير : الصُّورة نفسها والتَّقابل في الصُّورة والتَّوازن الصَّوتي والموسيقيّ المؤثِّرة .

ـ عن ابن مسعود قال ، قال رسول الله ﷺ :

---

(١) صحيح مسلم ٨/ ٢٢٧ .

(٢) صحيح البخاري ٦/ ٩٤ ط الشّعب وصحيح مسلم ١٦/ ٣٧ .والآية من سورة هود رقم ١٠٢ .

« من أصابته فاقة فأنزلها بالنَّاس لم تسدَّ فاقته ، ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى : إمَّا بموت عاجل أو غنى عاجل »[1] .

هذا التَّقابل بين من ينزل فاقته بالنَّاس وبين من ينزلها بالله ، أمَّا ذاك الَّذي أنزلها بالنَّاس فإنَّه سيبقى فقيراً . . . يبقى فقيراً في نفسه على أقل تقدير . . . ويبقى مهدداً بالمنِّ والأذى كلَّ يوم من صاحب النِّعمة أو مهدّداً بالتَّعيير ممَّن يعرفون كيف آل إلى الغنى . هذا ولن يستطيع إنسان أنْ يغني إنساناً مثله ، لأنَّ خزائن الإنسان الضَّعيف العاجز محدودة مهما اتَّسعت وحاجات المرء متجدِّدة لا حدود لها ، وهناك أُمور لا يملكها إلاَّ الله ربُّ العالمين . . . فأنَّى للإنسان الضعيف أن يزيل فاقة نزلت في آخر .

وأمَّا الَّذي أنزلها بالله فإنَّ الغنى سيأتيه ، وذكر الحديث أنَّ من الغنى ما لا يخطر ببال كثير من النَّاس فالغنى نوعان : موت عاجل فيستغني عن النَّاس جميعاً ويموت وهو عزيز لم يرق ماء وجهه .

أو غنىً عاجل من ملك الملوك الذي لا تنفد خزائنه .

هذا والغنى الحقيقي غنى النَّفس . ونحسُّ في موسيقى الحديث تغيرُ الإيقاع للوّاو انخفاضاً بحسب المضمون الّذي بيَّنته ، فحَركات المدّ في العبارة الأُولى أعطت إحساساً بامتداد الماضي « أصابته فاقة » والإيقاع في عبارة « أنزلها بالنَّاس » يدلُّ على الرَّغبة في سرعة التَّخلص والميل إلى الشرَّ ، أمَّا عبارة « لم تسدّ فاقته » فموسيقاها تدلُّ على انقطاع الأمل ، وتحسُّ سرعة الإيقاع الفائقة في قوله «موت عاجل أُو غنى عاجل» .

ـ عن أَبي مالك الأَشعري قال ، قال رسول الله ﷺ :

« الطّهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأُ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السّموات والأرض ، والصَّلاة نور ، والصَّدقة برهان ، والصَّبر ضياء ، والقرآن حجَّة لك أو عليك ، كلُّ النَّاس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها »[2] .

---

(١) أبو داود ٢/ ١٦٤ .

(٢) صحيح مسلم ٣/ ٩٩ ـ ١٠٠ و ١/ ١٤٠ ط استانبول .

إنَّ تقابلاً واضحاً بين جمل هذا النَّص يؤدِّي إيقاعا معيَّناً . . .

بل إنَّ ترتيله بإيقاع ونغم ليبرز لنا الطَّاقة الموسيقية الضَّخمة الَّتي تكمن في هذا الحديث .

لقد لمست تقابلاً بين الجمل وبين أَجزاء الجملة الواحدة فقوله « الطّهور شطر الإيمان» يقابل «الحمد لله تملأُ الميزان » وكذلك فإنَّ الجملة الأولى يستطيع أَنْ يوَزِّع المتكلّم إلقاءها بين ( الطهّور ) و(شطر الإيمان ) وكذلك فإن قوله ( القرآن حجَّة لك أو عليك ) فيها تقابل عجيب .

والجملة الأَخيرة : كلُّ النَّاس يغدو فبائع نفسه فمنهم من يعتقها من النَّار بفعل الصَّالحات ، ومنهم من يوبقها في جهنَّم بفعل المنكرات .

ـ عن أَبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ :

« من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدُّنيا ، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة . ومن يسرَّ على معسر يسرَّ الله عليه في الدُّنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أَخيه . ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنَّة »[١] .

إنَّ الحديث بمجموعه يؤدِّي موسيقى تعاونت عليها الجمل المتقابلة والمتوازنة ، وكانت هذه الموسيقى صورة عميقة النَّفاذ في النَّفس الإنسانية .

وكأَنَّ بعض الحروف الَّتي كثرت في الحديث قد كان لها دور في إلقاء بعض الظِّلال على الحديث ، فمثلاً تكرار السِّين مشدَّدة حيناً ومخفَّفة حيناً وكذلك الفاء يوحي في نفسي معنى التَّنفيس والتَّيسير . إنَّ قراءة الحديث وترديده كفيلان بإبراز عنصر الموسيقى لمن كان له أذن مرهفة وحسٌ مدرك لهذه الأُمور .

ـ عن ابن عبّاس قال ، قال رسول الله ﷺ :

---

(١) صحيح مسلم ١٧/ ٢١ وابو داود ٢/ ٩٥ .

« يا غلام ، إنّي أُعلّمك كلمات :

احفظ الله يحفظك . احفظ الله تجده تجاهك . إذا سألت فاسأل الله . وإذا استعنت فاستعن بالله . تعرَّف إلى الله في الرَّخاء يعرفك في الشِّدَّة . واعلم أنَّ الأُمَّة لو اجتمعت على أنْ ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاَّ بشيء قد كتبه الله لك . وإن اجتمعوا على أنْ يضرُّوك بشيء لم يضرُّوك إلاَّ بشيء قد كتبه الله عليك .

رفعت الأَقلام . وجفَّت الصُّحف .

واعلم أنَّ ما أَخطاك لم يكن ليصيبك ، وأَنَّ ما أَصابك لم يكن ليخطئك .

واعلم أَنَّ النَّصر مع الصَّبر ،وأَنَّ الفرج مع الكرب ، وأَنَّ مع العسر يسراً »[1]

ففي الشرَّط وجوابه ( احفظ الله يحفظك . . . إذا سألت فاسأل الله . . . تعرَّف إلى الله في الرَّخاء يعرفك . . ) في ذلك توازن يضفي على الأُسلوب إيقاعاً موسيقيّاً واضحاً .

وفي نهاية الحديث تقابل بين جملتين : إحداهما تقرِّر سعي النَّاس في أمر وتقرِّر الأُخرى قضاء الله وقدره المحتَّم .

ونحسُّ سرعة الإِيقاع في هذا المعنى الحاسم ( رفعت الأَقلام وجفَّت الصُّحف ) كما تعتمد الموسيقى في بعض العبارات على أَلوان من التَّجانس والتَّكرار ( أخطأك ) و ( ليخطئك ) و ( أصابك ) و ( ليصيبك ) وعلى أَلوان من التَّوازن ( النَّصر مع الصَّبر ) و ( الفرج مع الكرب ) و ( مع العسر يسراً ) .

* ومن التَّقابل الذِّي يجعل الكلام لوناً من الموسيقى التَّقابل في الحديثين التَّاليين ونقتصر على جزء يسير منهما وقد تقدَّماً آنفاً :

ـ عن حذيفة قال : كان النَّبي ﷺ يقول إذا استيقظ :

« الحمد لله الذِّي أحيانا بعد ما أماتنا » . [2]

---

(١) من رواية التِّرمذي وغيره وانظر الرِّوايتين في رياض الصَّالحين ص٤٨ وقال التِّرمذي : حديث حسن صحيح .

(٢) رواه البخاري ( وانظر رياض الصالحين ٥٢٠ ) .





ـ وعن أسماء قالت : قال لي رسول الله ﷺ :

« لا توكي فيوكي الله عليك » .[1]

فبين الإحياء والإماتة تقابل في اللَّفظ والمعنى وكذلك في قوله ( لا توكي ) وجاء المقابل أطول ليدلَّ على التَّشديد ، وإنْ كان من جنس العمل .

* ومن التَّقابل الرَّائع الذي في الحديث الآتي :

عن أبي كبشة عمرو بن سعد الأنصاري قال ، قال رسول الله ﷺ :

« ثلاثة أُقسم عليهنَّ وأُحدثكم حديثاً فاحفظوه :
ما نقص مال عبد من صدقة .
ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلاَّ زاده الله عزّاً .
ولا فتح عبد باب مسألة إلاَّ فتح الله عليه باب فقر » .[2]

وعن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

« ما نقصت صدقة من مال .
وما زاد الله عبداً بعفو إلاَّ عزّاً .
وما تواضع أحد لله إلاَّ رفعه الله » .[3]

والأمثلة كثيرة جداً .

أمَّا اعتماد موسيقى الحديث على السجع أحياناً فقد درست ذلك في كتابي ( الحديث النبوي ) وقرَّرت فيه أنَّه ﷺ كره سجع الكهان وأنكر على من حاول استعماله من أصحابه فقال لمن حاول تقليد الكهّان : «أسجعاً كسجع الكهان» .[4]

---

(١) متفق عليه ( وانظر رياض الصَّالحين ٣٨١ ) .
(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ( انظر رياض الصَّالحين ٢٤٨ ط رضوان ) .
(٣) صحيح مسلم ٨ / ٢١ ط استانبول .
(٤) انظر تخريجه في كتاب الحديث النبوي فقد توسَّعت هناك في تخريجه ( ص ٦٩ ) .



وذكرتُ أهمَّ الخصائص التي تجعل ذاك السجع سجعاً يأباه الذوق وثقيلاً تنفر منه النفس وهذه الخصائص هي:

١ ـ المعنى في سجع الكهّان يتبع اللفظ . أي انَّ السَّجع يقصد لذاته .

٢ ـ الغموض في العبارة حتَّى يحتمل كلام الكاهن كثيراً من المعاني المتوقعَّة .

٣ ـ الإكثار من الكلمات الغريبة والحوشيَّة .

٤ ـ الاعتماد على الإيقاع الرَّنان للألفاظ الموحى بألوان من المشاعر الغامضة ، يبتغي الكاهن بذلك خداع النَّاس وإيهامهم أنَّهم يستمعون من خلال كلامه إلى طلسمات الشَّياطين .

من أجل ذلك وغيره كره ﷺ سجع الكهَّان وأنكره لأنَّه أداة للباطل وعدَّة للتدجيل ، وإسفاف في الكلام ولكنَّه لم يكره السَّجع على الإطلاق . بل لقد جاء منه بالبديع الرَّائع فكان آية الجودة والسِّحر الحلال .

ولنعرض بعض الأمثلة التي تبينً أثر هذه الموسيقى في الأحاديث .

ـ عن عبد الله بن سلام قال ، سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« يا أيُّها النَّاس ، أفشوا السَّلام ، وأطعموا الطَّعام وصلوا الأرحام ، وصلُّوا والنَّاس نيام ، تدخلوا الجنَّة بسلام » .(١)

كلمات مأنوسة ، وجمل متناسقة ، وسجع لم يجر اللَّفظ فيه على المعنى ولا تعسف قائله ولا تكلُّف ، وإنمَّا جاء تابعاً للمعنى ، فقد ذكر الحديث أسباب السَّعادة الأخروية من العبادة الخالصة لله تبارك وتعالى والإحسان إلى النَّاس بالسَّلام عليهم وإطعامهم الطَّعام . فذلك يقود إلى دخول الجنَّة بسلام .

ـ وعن أبي هريرة عن النَّبي ﷺ أنَّه قال :

« تعوَّذوا بالله من جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء » .(٢)

---

(١) رواه الترمذي ( انظر رياض الصَّالحين ص ٣٥٦ ط عمارة ) .

(٢) متَّفق عليه ( وانظر رياض الصَّالحين ٥٣٠ ط عمارة ) .





والملاحظ في هذه الجمل التّساوي في الحروف فقوله ( جهد البلاء ) يساوي ( درك الشّقاء ) و ( سوء القضاء ) وهي في المعنى جامعة لعناصر السّعادة التّامة .

ـ وعن زيد بن أرقم قال : كان رسول الله ﷺ يقول :

« اللهم آت نفسي تقواها . وزكّها أنت خير من زكّاها ، أنت وليُّها ومولاها . اللّهم إنّي أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها » .(١)

ومِمّا يؤكّد أنّ السَّجع لم يكن مقصوداً لذاته الجملة الأخيرة فقد جاء فيها ( ومن دعوة لا يستجاب لها ) وفي حرف المدّ هذا الذّي تنتهي به الجملة مجال لأنْ يستريح من يلقى الحديث بأنْ يدع صوته ممتداً .

ـ وعن المغيرة بن شعبة أنّ النّبي ﷺ قال :

« إنّ الله تعالى حرّم عليكم عقوق الأُمهّات ، ومنعاً وهات ، ووأد البنات . وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » .(٢)

ـ وعن أمّ سلمة قالت : كان النّبي ﷺ إذا خرج من بيته قال :

« بِسم الله . توكّلت على الله . اللّهم أعوذ بك أنْ أَضلّ أو أُضلّ . أو أَزلّ أو أُزلّ . أو أَظلم أو أُظلم . أو أَجهل أو يجهل عليّ» .(٣)

---

(١) صحيح مسلم ٨ / ٨١ ط استانبول .

(٢) صحيح البخاري ٩ / ٧٨ وصحيح مسلم ٥ / ١٣١ ط استانبول ، وانظر فتح الباري ١٣ / ٢٦٤ ، قال النووي : ( منعاً : معناه منع ما وجب عليه . وهات : طلب ما ليس له . ووأد البنات : دفنهن في الحياة . وقيل وقال : معناه الحديث بكلّ ما يسمعه فيقول قيل كذا ، وقال فلان كذا مِمّا لا يعلم صحتّه ولا يظنُّها . وكفى بالمرء كذباً أنْ يحدّث بكلّ ما سمع . وإضاعة المال : تبذيره وصرفه في غير الوجوه المأذون فيها من مقاصد الآخرة والدُّنيا وترك حفظه مع إمكان الحفظ . وكثرة السُّؤال : الإلحاح فيما لا حاجة إليه ) .

(٣) رواه أبو داود واللّفظ له . والتّرمذي وقال : حديث حسن صحيح وانظر رياض الصّالحين صـ ٥٨ ط عمارة .

وأودُّ أنْ أشير إلى أنَّ موسيقى الحديث ذات ألوان تختلف باختلاف الغرض .

* ففي الذِّكر الذي يسنُّ أن يقرأه المسلم قبل أن ينام نجد اللَّحن الهادىء الخفيف :

عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ :

« يا فلان إذا أويت إلى فراشك فقل :

اللهم إنِّي أُسلمت وجهي إليك . وفوَّضت أمري إليك . وألجأْت ظهري إليك . رغبة ورهبة إليك . لا ملجأ ولا منجا منك إلاَّ إليك . آمنت بكتابك الذِّي أنزلت ونبيِّك الذي أرسلت .

فإنَّك إنْ متَّ من ليلتك متَّ على الفطرة وإن أصبحت أصبت خيراً » .[1]

إنهَّا موسيقى تتناسب وجوَّ النَّوم الهادىء الذي يهيىء الجوَّ المأنوس المأمون الذي يشعر صاحبه بالطُّمأنينة لأنَّه يسلم نفسه إلى الله ولأنَّه يتوجَّه شطره ويلجأ إليه .

ما أشبه هذا الحديث باللحن الحلو الذِّي يريح الأعصاب ويمهِّد للنوم .

أضف إلى ذلك ترديد كلمة ( إليك ) التي هي بمثابة قفل موسيقي ينهى الجملة .

وكذلك فإنَّ الدُّعاء ختم بمخاطبة الله سبحانه بصيغة المفرد وبأفعال تنتهي بالتَّاء المهموسة التِّي تلائم جو الاسترسال في النَّوم .

وفي الزَّجر تكون موسيقى الحديث ميَّالة إلى القوَّة والعنف ، فمن ذلك الحديث الآتي :

ـ عن أبي ذرٍّ قال : قلت يا رسول الله ألا تستعملني ؟

فضرب بيده على منكبي ثُمَّ قال :

« يا أبا ذر إنَّك ضعيف . وإنهَّا أمانة وإنها يوم القيامة خزيٌ وندامة إلاَّ من أخذها بحقِّها وأدَّى الذي عليه منها » .[2]

(١) متفق عليه ( وانظر رياض الصَّالحين ص ٥٧ ط عمارة ) .
(٢) صحيح مسلم ٦ / ٦ ط استانبول .

أسلوب ميَّال إلى العنف الممزوج بالإشفاق ، يقول ( إنَّك ضعيف وإنهَّا أمانة وإنهَّا يوم القيامة خزيٌ وندامة ) الموسيقى المنبعثة منها ذات إيقاع فيه عنف واضح .

ـ والحديث الآتي :

عن أبي ذر عن النَّبي ﷺ أنَّه قال :

« ثلاثة لا يكلِّمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيِّهم ولهم عذاب أليم » قال : فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرَّات . فقال أبو ذر : خابوا وخسروا ، من هم يا رسول الله ؟ قال : « المسبل إزاره ، والمنَّان ، والمنفق سلعته بالحلف » .[١]

في هذا الحديث أيضاً موسيقى قويَّة عنيفة .

أمَّا في التَّرغيب والدَّعوة فنجد الموسيقى اللَّينة الرَّقيقة كما في حديث ابن عبَّاس الذَّي مرَّ بنا آنفاً وأوله :

« يا غلام ، إنِّي أعلِّمك كلمات احفظ الله يحفظك . . . » .

وحديث أبي ذر ومعاذ وقد مرَّ بنا وهو :

« اتقِّ الله حيثما كنت وأتبع السَّيئة الحسنة تمحها وخالق النَّاس بخلق حسن » .

وكما في حديث أبي سعيد الخدري عن النَّبي ﷺ أنَّه قال :

« إنَّ الدُّنيا حلوة خضرة وإنَّ الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ، فاتَّقوا الدُّنيا واتَّقوا النِّساء ، فإنَّ أوَّل فتنة بني إسرائيل كانت في النِّساء » .[٢]

وهناك مسألة تتَّصل بلغة الحديث وبالموسيقى التَّي تستعين بها الصُّورة التَّعبيرية في الحديث وهي مسألة عني بها الأقدمون من لغويِّين وبلاغيِّين وهي الغرابة .

وقد نشأ علم قائم بذاته هو علم غريب الحديث وأُلفِّت فيه كتب تجمع غريب الحديث ، أي الألفاظ التي تحتاج إلى شرح وتفسير . قال أبو سليمان الخطَّابي :

---

(١) صحيح مسلم ١ / ٧١ ط استانبول .

(٢) صحيح مسلم ٨ / ٨٩ ط استانبول .

( والغريب من الكلام إنَّما هو الغامض البعيد عن الفهم . . والغريب على وجهين :
أحدهما أنْ يراد به أنَّه بعيد المعنى غامضه ، لا يتناوله الفهم إلاَّ عن بعد ومعاناه فكر .
والآخر أنْ يراد به كلام من بعدت به الدَّار من شواذّ قبائل العرب ) .[١]

وأودُّ هنا أنْ أقرِّر أنَّ الغرابة وصف طرأ على بعض ألفاظ الحديث لما آل إليه أمر اللُّغة من التَّأثُّر بالعجمة وداخلها من فساد السليقة .

ومن ينظر في حديث رسول الله ﷺ يجد أنَّه قد جمع بين الجزالة والوضوح . . وضوح لا تحجبه مفردات غريبة على السَّامعين . . بل وجدت في كتب الأدب والبلاغة .[٢] أحاديث خاطب بها رسول الله ﷺ وفوداً من القبائل العربية الأخرى ، فكان من أجل إفهامهم وإبلاغهم يترك لهجته القرشيَّة ، ويكلِّمهم بالأسلوب المألوف لديهم ويأتي بالمفردات الغريبة على القرشيين ، ولكنَّها كلمات يستعملونها عادة في أحاديثهم .

ويذكرون أنَّ عليَّ بن أبي طالب سمعه يخاطب وفد بني نهد[٣] فقال : يا رسول الله نحن بنو أبٍ واحد ونراك تكلِّم الوفود بما لا نفهم أكثره فقال : «أدَّبني ربِّي فأحسن تأديبي وربيت في بني سعد» .[٤]

إنَّ هذا وأمثاله إنْ صحَّ فهو دليل على رغبة النَّبي ﷺ في الإفهام وعلى بعده عن الغريب على السَّامعين ، إنَّه يدلُّ على حرص الرَّسول ﷺ على أنْ يتكلَّم بالكلام الواضح لسامعيه ولو ركب في سبيل ذلك الصَّعب الذي لا يألفه .

لقد حلَّلت فيما مضى من هذا الباب بعض وسائل التَّصوير الفنِّي في الحديث

---

(١) كشف الظنون ٢ / ١٢٠٣ .
(٢) مثل صبح الأعشى والمثل السائر ولم أقف عليها في الكتب الستة التي أعدت قراءتها من أجل إعداد هذا البحث .
(٣) انظر النَّص في كتاب الحديث النَّبوي ص ٦٦ .
(٤) والحديث ( أدَّبني ربِّي . . ) ضعيف انظر « أحاديث القصاص » بتحقيقي رقم ٧٨ وأخرج السَّمعاني نحوه في أدب الإملاء والاستملاء ص ١ .

التي تكاد أنْ تكون جديدة ، وقلت إنَّ الحديث اعتمد في تصويره أيضاً على الوسائل المألوفة التي كثر استخدامها في أدب العرب ، ومع ذلك كان فيها جديد من حيث تعبيرها عن معان مبتكرة.

وسأورد فيا يلي أمثلة لهذه الوسائل التَّصويرية المألوفة :

## التَّشبيه والصُّورة :

التَّشبيهات التِّي جمعتها من خلال دراستي للصورة في الحديث كثيرة جداً حتَّى بلغت أكثر من إحدى عشرة كراسة ، وما كان لي أنْ آتي بها ههنا فعمدت إلى الاختيار فوجدت الذي وقع عليه اختياري يشكِّل حيزاً كبيراً فاقتصرت من ذلك كلِّه على نماذج تدور حول موضوعات مختلفة :

كالغيبيَّات والإنسان والحيوان وبعض المعاني .

وقد وجدت هذه التَّشبيهات تمتاز بالوضوح والدِّقة والواقعيَّة والجدَّة وقد اقتصدت في التعليق لأنَّ معظمها درس في البابين الأولين.

ـ عن أبي هريرة قال ، سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« يدخل الجنَّة من أُمتِّي زمرة هم سبعون ألفاً تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر » .[1]

وهذا إخبار عن أمر غيبي لحال طائفة مختارة من أُمَّة محمَّد يدخلون الجنَّة تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر .

ـ عن ثوبان وأبي هريرة عن النَّبي ﷺ أنَّه قال :

« ضرس الكافر مثل أُحد ، وغلظ جلده مسيرة ثلاث » .[2]

---

(١) صحيح مسلم ٣ / ٨٨ .

(٢) صحيح مسلم ١٧ / ١٨٦ وصحيح الجامع الصغير ٤ / ٤ .

تشبيه مفزع مخيف يصوِّر بشاعة منظر الكافر إلى جانب العذاب الأليم الذي يعانيه وهي صورة غيبيَّة لا ينتهي تعجُّبنا منها ودهشتنا .

***

ـ عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

« المرأة كالضِّلع إنْ أقمتها كسرتها ، وإنْ استمتعت بها استمتعت بها ، وفيها عوج ، وكسرها طلاقها » .[1]

تشبيه رائع يبينٌ أنَّ العوج في المرأة لا مفرَّ منه فمن رضي بما قسم الله له منها استمتع وسر ، ومن أراد أنْ يعارض سنَّة الله في خلقه ويحاول تقويم العوج استحال عليه أنْ يعيش معها وكان الطَّلاق .

ـ وعن أبي موسى عن النَّبي ﷺ قال :

« إنَّما مثل الجليس الصَّالح والجليس السُّوء كحامل المسك ونافخ الكير .
فحامل المسك إمَّا أنْ يحذيك وإمَّا أن تبتاع منه وإمَّا أن تجد منه ريحاً طيِّبة .
ونافخ الكير إمَّا أنْ يحرق ثيابك وإمَّا أن تجد منه ريحاً خبيثة » .[2]

الجليس يؤثِّر على جليسه ، ويتفاوت هذا التأثير قوَّة وضعفاً ولكنَّه لا ينعدم .

وكان التَّشبيه محكماً إلى أبعد درجات الإحكام ، فحامل المسك إمَّا أنْ يحذيك وإمَّا أن يكون تاجراً فتشتري منه فإنْ لم يكن هذا ولا ذاك فأنت تجد منه الرِّيح الطَّيِّبة .

ونافخ الكير أنت بين أمرين اثنين : إمَّا أنْ يحرق ثوبك وجسمك وإمَّا أنْ تجد ريحاً خبيثة .

---

(١) متفق عليه ( مسلم ١٠ / ٥٧ ورياض الصَّالحين ٢٣٩ ) .
(٢) صحيح البخاري ٧ / ١٢٥ ط الشعب وصحيح مسلم ١٦ / ١٧٨ ( ط استانبول ٨ / ٣٨ ) .

ولكلمة نافخ الكير ظلال منفِّرة ، فهو نافخ ، وكلامه لا يزيد عن النَّفخ ، والجليس النَّافخ يجعل الصَّدر والقلب في ضيق .

***

ـ عن كعب بن مالك قال ، قال رسول الله ﷺ :

« مثل المؤمن كمثل الخامة من الزَّرع تفيؤها الرِّيح مرَّة وتعدلها أُخرى .
ومثل المنافق كمثل الأَرزة لا تزال حتَّى يكون انجعافها مرَّة واحدة » .[1]

ـ وعن ابن عمرو قال ، قال رسول الله ﷺ :

« مثل المؤمن مثل النَّحلة إنْ أكلت أكلت طيِّباً ، وإن وضعت وضعت طيباً ، وإنْ وقعت على عود لم تكسره . ومثل المؤمن مثل سبيكة الذَّهب إنْ نفخت عليها احمرَّت وإن وزنت لم تنقص » .[2]

وقد درستها وبينت الرَّوعة في هذا التَّشبيه ، والتَّشبيهان جديدان وظلالهما ظلال محبَّبة ، والموسيقى التي تنبعث منهما موسيقى رائعة .

ـ عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

« المؤمن مرآة المؤمن . والمؤمن أخو المؤمن يكفُّ عليه ضيعته ويحوطه من ورائه » .[3] المؤمن ينصح أخاه المؤمن ويحوطه من ورائه .

ـ عن عبد الله بن عمرو أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« إنَّ الله يبغض البليغ من الرِّجال الذِّي يتخلَّل بلسانه كما تتخلَّل البقرة » .[4]

هناك ناس متكلفون ثرثارون ليس لهم إلاَّ أنْ يتكلَّموا وترى لسانهم يمسح

---

(١) متَّفق عليه ( وقد مضى تخريجه ) .
(٢) شعب الايمان للبيهقي ( صحيح الجامع الصَّغير ٥ / ٢٠٠ ) .
(٣) أبو داود ٤ / ٣٨٥ .
(٤) الترمذي ٤ / ٣٤ .




شفاههم التّي جفّت من كثرة الكلام ويبالغون في المسح حتّى يصبح منظرهم كمنظر البقرة تتخلّل بلسانها .

وغالباً ما يكون ذلك نتيجة للتقعُّر في الكلام والتّشدّق والتفخيم في إظهار حروفه لفتاً منهم للأذهان وانتباه النّاس ، إنّها صورة رائعة وأُحسّ بجمالها لأنّ مشهداً لبعض هؤلاء المتكلفين المتشدّقين ارتسم في خيالي عندما قرأت هذا الحديث . . وكأنّي بكلمة البليغ قد جاءت في مساق التّهكم .

ـ عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« أنا أولى النّاس بابن مريم . الأنبياء أولاد علاّت وليس بيني وبينه نبيٌ» . [1]

قال النّووي في شرحه :

( وفي رواية : « أنا أولى النّاس بعيسى بن مريم في الأُولى والآخرة » قالوا : كيف يا رسول الله ؟ قال : « الأنبياء إخوة من علاّت وأُمهاتهم شتّى ودينهم واحد وليس بيننا نبيٌ قال العلماء : أولاد العلاّت ( بفتح العين المهملة وتشديد اللام ) هم الإخوة لأب من أمهّات شتّى . وأمّا الإخوة من الأبوين فيقال لهم : أولاد الأعيان . قال جمهور العلماء : معنى الحديث أصل إيمانهم واحد ، وشرائعهم مختلفة ، فإنّهم متفقون في أُصول التّوحيد وأمّا فروع الشّرائع فوقع فيها الاختلاف ) . [2]

وفي حديث الإسراء قوله ﷺ : ثُمّ ذهب بي إلى سدرة المنتهى ، وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال ، [3] وغرابة التّشبيه هنا أنّ الفيلة لم تكن معروفة في الجزيرة العربية ، وهذا هو سرُّ روعة هذا التّشبيه لأنّ الرّسول ﷺ أراد أنْ يقرِّب صورة هذا الأمر الغيبي البالغ الرّوعة فاختار هذا التّشبيه لادراك ذلك .

---

(١) صحيح البخاري ٤ / ٢٠٣ ط الشعب وصحيح مسلم ١٥ / ١١٩ ـ ١٢٠ وأبو داود ٤ / ٣٠٢ .
(٢) شرح صحيح مسلم ١٥ / ١١٩ ـ ١٢٠ .
(٣) شرح صحيح مسلم ٢ / ٢١٤ .





ـ عن أبي الدَّرداء قال ، قال رسول الله ﷺ :

« إنكم قادمون على إخوانكم ، فأصلحوا رحالكم ، وأصلحوا لباسكم حتَّى تكونوا كأنَّكم شامة في النَّاس ، فإنَّ الله لا يحبُّ الفحش ولا التَّفحُّش » .[1]

إنَّ هذا الحديث يعالج مسألة يخطىء كثير من النَّاس في فهمها ، فيحسبون أنَّ الزُّهد والتَّواضع يوجبان لبس الممزق القذر من الثِّياب . . وهذا فهم سقيم وخطأ فاحش .

والحديث رد على هذا الفهم الخاطىء ، وفيه يطلب رسول الله ﷺ من المسلمين أنْ يصلحوا لباسهم إذا أقبلوا على إخوانهم ويريد أن يكونوا كأنَّهم شامة في النَّاس .

وينتهي الحديث بأنَّ الله تبارك وتعالى لا يحبُّ الفحش ولا التَّفحش .

ـ عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

« مثل الذي يتعلَّم العلم ثُمَّ لا يحدِّث به كمثل الذِّي يكنز الكنز فلا ينفق منه » .[2]

إنَّه إنسان محسود مهدَّد في حياته . . متعب قلق في المحافظة على هذا الكنز ، تتوق نفسه إلى اللذة والطَّعام والتَّكريم فيهينها وكذلك الذي لا يعلِّم الناس .

ـ وعن أَبي برزة وجندب قالا ، قال ﷺ :

« مثل الَّذي يعلِّم النَّاس الخير وينسى نفسه مثل الفتيلة تضيء للنَّاس وتحرق نفسها »[3] .

إنَّ الَّذي يعظ النَّاس ولا يتَّعظ ، ويدلُّ النَّاس على الخير وينسى نفسه ينفع الآخرين ويؤذي نفسه .

---

(١) أبو داود ٤ / ٨٢ .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط ( انظر صحيح الجامع الصَّغير ٥ / ١٩٧ ) .

(٣) رواه الطَّبراني في الكبير والضِّياء (انظر صحيح الجامع الصَّغير ٥/ ١٩٨) .

ـ عن أبي هريرة أنَّ النَّبيﷺ قال :

«إيّاكم والحسد، فإنّ الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النَّار الحطب»[١] .
إنَّ الحسد نار تأكل الحسنات وتأكل قلب صاحبها أيضاً .

ـ عن جابر قال : جاء أعرابي إلى النَّبيﷺ فبايعه على الإسلام فجاء من الغد محموماً فقال : أَقلني « ثلاث مرَّات » فقالﷺ :

« المدينة كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها »[٢] .
وكان هذا الأَعرابي خبثاً نفته عن نفسها .

ـ عن عبد الله بن مسعود قال :

نام رسول اللهﷺ على حصير ، فقام وقد أَثَّر في جنبه فقلنا : يا رسول الله لو اتخَّذنا لك وطاء .

فقال : «ما لي وللدُّنيا ؟ ما أنا فيها إلا كراكب استظلَّ تحت شجرة ثُمَّ راح وتركها »[٣] .

إنَّه مثل يقرِّب المكث في الدُّنيا . . . إنَّه يسير . . . . لا يزيد عن لحظات في عمر هذه الدُّنيا يستظلُّ الرَّاكب تحت شجرة ثُمَّ يروح ويتركها . . . ويستمرّ في طريقه ، إنهَّا لا تستحق أنْ يجعلها أكبر همِّه ولا مبلغ علمه .

ـ عن أَبي هريرة قال ، قال رسول اللهﷺ :

« الدُّنيا سجن المؤمن وجنَّة الكافر »[٤] .
إنهَّا إذا قيست بما سيلقى المؤمن في الآخرة من صنوف النَّعيم والمتعة سجن . . . وهي إذا قيست بما سيلقى الكافر من صنوف العذاب والإهانة والتَّضييِّق جنَّة .

---

(١) أبو داود ٤/ ٣٨٠ .
(٢) متَّفق عليه (مسلم ٩/ ١٥٦ .
(٣) مسند أحمد ٥/ ٢٦٤ ط شاكر والترِّمذي (رياض الصَّالحين ٣٤٢ ) .
(٤) صحيح مسلم ١٨/ ٩٣ .

ـ عن ابن عمر أَنَّ رسول الله ﷺ قال :

« لا يحلبنَّ أَحد ماشية أَحد إلاَّ بإذنه . أيحَبُّ أَحدكم أَنْ تؤتى مشربته فتكسر خزانته فينتقل طعامه ؟ إنما تخزن لهم ضروع مواشيهم أطعمتهم ، فلا يحلبنَّ أَحد ماشية أَحد إلاَّ بإذنه »[1].

خزائنهم ضروع مواشيهم . فهل يرضى امرؤ أَنْ يقتحم أَحد عليه داره ويأتي إلى غرفته ويأخذ منها طعامه وشرابه ؟ أَلا فلا يحلبنَّ أحد ماشية أحد إلاَّ بإذنه .

## التَّصوير بالتَّشخيص والاستعارة :

وهذه الطَّريقة تعطي الصُّورة الحيوية التَّامة . . . إنَّ المعاني الَّتي لا تقع تحت الحسّ مباشرة . . . . والجمادات الّتي لا حياة فيها . . . والحيوانات الَّتي لا تعقل تتحوَّل إلى كائنات حيَّة تتحرَّك وتتكلَّم وتستقلُّ بالفكر والتَّصرُّف وسنورد بعض الأَمثلة :

ـ عن أَبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

«من تطهَّر في بيته ثُمَّ مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطواته إحداها تحطُّ خطيئة والأُخرى ترفع»[2].

فالخطوة هنا تحطُّ خطيئة وترفع درجة إنهَّا كائن حيّ .

ـ وعن أَبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

« . . . فإذا دخل المسجد كان في الصَّلاة ما كانت الصَّلاة تحبسه »[3].

---

(١) المشربة : (بضم الرّاء وقد تفتح ) : الغرفة ـ صحيح البخاري ٣/ ١٦٥ط الشَّعب وصحيح مسلم ١٢/ ٢٨ وط استانبول ٥/ ١٣٧ وأبو داود ٣/ ٥٥ ومسند أحمد ٦/ ١٣٤ (ط شاكر ) وفتح الباري ٥/ ٨٨ .

(٢) صحيح مسلم ٥/ ١٦٩ .

(٣)، متَّفق عليه (رياض الصَّالحين ٤٦) .



كذلك فإنَّنا نرى الصَّلاة ههنا كائناً يحبس .

ـ وعن ابن عمر قال ، قال رسول الله ﷺ :

« إذا طلع حاجب الشَّمس فأَخرِّوا الصَّلاة حتَّى ترتفع ، وإذا غاب حاجب الشَّمس فأَخرِّوا الصَّلاة حتَّى تغيب »[1] . فالشَّمس إنسان له حاجب .

ـ عن أنس قال ، قال رسول الله ﷺ :

« هذا جبل يحبُّنا ونحبُّه »[2] . والجبل يحبُّ وإنَّنا لنبادله الحبّ بحبٍّ .

ـ وعن أبي الدَّرداء عن النَّبي ﷺ قال :

« حبُّك الشَّيء يعمي ويصمّ »[3] . فالحبُّ كائن قويّ يعمي العين ويصمُّ الأُذن .

ـ وعن ابن عمر قال ، قال رسول الله ﷺ :

« إنَّ اليدين تسجدان كما يسجد الوجه »[4] .

ـ وعن أبي هريرة عن النَّبي ﷺ في حديث السَّبعة الَّذين يظلُّهم الله تحت ظلِّ العرش يوم لا ظلّ إلاَّ ظلُّه :

« ورجل تصدَّق بصدقة فأَخفاها فلم تدر شماله ما أنفقت يمينه »[5] .

اليد كما نراها في هذين الحديثين كائن مستقلٌّ بالتَّصرُّف فهي تسجد . . . . وتدري وتعرف . . . والرَّجل الماهر هو الَّذي يستطيع إخفاء الصَّدقة عن تلك اليد .

---

(١) صحيح البخاري ١/ ١٥٢ وصحيح مسلم ٦/ ١١٣ .
(٢) مسلم ٩/ ١٣٩ .
(٣) أبو داود ٤/ ٤٥٤ .
(٤) أبو داود ١/ ٣٢٦ .
(٥) البخاري ١/ ١١١ ومسلم ٣/ ٩٣ وأحمد ٢/ ٤٣٩ .





ـ عن أَبي هريرة أَنَّه ﷺ قال لبلال حين قفل من غزوة خيبر :

« اكلأ لنا الليل »[1] .

وفي رواية « اكلأ لنا الفجر »[1] .

فالفجر والليل قادمان يراقبان ويحرسان .

***

ـ وعن زيد بن خالد الجهني أنَّ رسول الله ﷺ قال عندما سئل عن ضالة الإبل :

« مالك ولها ؟ معها حذاؤها وسقاؤها حتَّى تلقى ربَّها »[2] .

فللنَّاقة حذاء ومعها سقاء فلا يخشى عليها الأذى ولا الضيَّاع . . . لقد أَضفى صفات الإنسان على الحيوان .

***

ـ عن أَوس قال ، قال رسول الله ﷺ :

« إنَّ الله عزَّ وجلَّ حرَّم على الأَرض أَجساد الأَنبياء »[3] . الأَرض تأكل ولكنَّ الله حرَّم عليها أَجساد الأَنبياء .

ـ عن ابن مسعود قال :

«إنه ستكون عليكم أُمراء يؤخرون الصلاة عن ميقاتها ويخنقونها إلى شرق الموتى»[4]

الصلاة ستتعرض إلى عدوان من أُمراء آخر الزمان ، وذلك عندما يخنقونها من عنقها حتى تصل إلى الشرق الذي تشرق فيه الموتى عادة قبل لفظ الروح ، فإذا بلغت الصلاة هذا المبلغ أقاموها.

---

(١) صحيح مسلم ٥/ ١٨٢ .

(٢) صحيح البخاري ١/ ١١٣ ط الشَّعب والتِّرمذي ٢/ ٢٩٥ .

(٣) أَبو داود ١/ ٣٧٨ .

(٤) صحيح مسلم ٥/ ١٦ .

عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال :

« إذا توضَّأ العبد المسلم فغسل وجهه خرج من وجهه كلُّ خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء .

فإذا غسل يديه خرج من يديه كلُّ خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء .

فإذا غسل رجليه خرجت كلّ خطيئة مشتها رجلاه مع الماء .

حتَّى يخرج نقياً من الذُّنوب »[1] .

هذا النَّص مثل واضح على أنَّ الرَّسول ﷺ يؤثر دائماً التَّعبير بالصُّورة ، ولا يكتفي بالاستعارة ـ كما نجد هنا ـ بل يربط بينها وبين أُمور مرئية ظاهرة تأكيداً لها ، فالذُّنوب تبدو في الحديث كائنات تخرج من العضو المغسول مع نزول الماء حتّى يخرج نقيّا من الذّنوب .

**

ـ وعن أَنس قال ، رجعنا من غزوة تبوك مع النَّبي ﷺ فقال :

« لقد تركتم بالمدينة أقواما ، ما سرتم مسيراً ، ولا أَنفقتم من نفقة ، ولا قطعتم من واد إلاَّ وهم معكم فيه »

قالوا : يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟ قال : « حبسهم العذر »[2] .

(١) صحيح مسلم ٣/ ١٣٢ ـ ١٣٣ .

(٢) صحيح البخاري ٦/ ١٠ ط الشّعب وصحيح مسلم ٦/ ٤٩ ط استانبول عن جابر وأبي داود ٣/ ١٧ .

فالعذر والمرض يحبسهم لأنَّه أضحى شخصاً بهذا التَّصوير وأولئك الأقوام المرضى كانوا مع المجاهدين في سيرهم ونفقتهم وقطعهم للوديان .

ـ وعن أنس قال ، قال رسول الله ﷺ :

« عليكم بالدُّلجة فإن الأرض تطوى بالليل »[1] .

الأرض تطوى في الليل . إنَّ المسافر يستطيع أنْ يقطع المسافات الطَّويلة في الليل دون أنْ يحسَّ بالعناء الَّذي يلاقيه في النَّهار .

ـ عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« ليأتين على النَّاس زمان لا يبقى أحد إلاَّ أكل الرِّبا فإن لم يأكله أصابه من بخاره»[2] .

فالرِّبا طعام وله بخار فمن لم يأكل منه أصابه من بخاره .

ـ عن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«الغناء ينبت النِّفاق في القلب »[3] .

فالغناء كالماء والقلب كالأرض والنِّفاق كالزَّرع وواقع المسلمين اليوم مؤلم فالنِّفاق كثير . . . والغناء لا تكاد أُذن تنجو من سماعه .

ـ عن أنس قال ، قال رسول الله ﷺ :

« ويحك يا أنجشة رويداً سوقك بالقوارير »
وفي رواية : «رويداً يا أنجشة لا تكسر القوارير»[4] .

---

(١) أبو داود ٣/ ٣٩ .
(٢) أبو داود ٣/ ٣٣٢ .
(٣) أبو داود ٣/ ٣٨٨ .
(٤) البخاري ٨/ ٤٦ ط الشَّعب ومسلم ١٥/ ٨٠ .

قال النَّووي : إنَّ أنجشة كان حسن الصَّوت وكان يحدو بهنّ . . . والمراد الرِّفق في السَّير لأنَّ الإبل إذا سمعت الحداء أسرعت في المشي واستلذَّته . فأزعجت الرَّاكب وأتعبته ، فنهاه عن ذلك ، لأنَّ النِّساء يضعفن عند شدَّة الحركة ويخاف ضررهنّ وسقوطهنّ[1] .

ـ عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

« من ولي القضاء ـ أو جعل قاضياً ـ فقد ذبح بغير سكِّين »[2] .

القضاء ذبح للّقاضي ، استعارة حلوة تجعل القضاء بمثابة السِّكين والقاضي بمثابة الذَّبيحة .

ـ عن ابن عمر قال : قلَّما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتَّى يدعو بهؤلاء الدَّعوات :

« اللهمّ اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك ما تبلِّغنا به جنَّتك ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصائب الدُّنيا .

اللَّهم متِّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوَّتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منَّا واجعل ثأرنا على من ظلمنا . . . »[3] .

فالأسماع والأبصار والقوَّة يمكن أنْ تكون وارثة أو موروثة ، والسَّعيد من كانت هذه الأعضاء وارثة منه .

ـ عن ابن عمر قال ، قال رسول الله ﷺ :

« إذا كان الماء قلَّتين لم يحمل الخبث »[4] . الماء الكثير لا يحمل خبثاً . . . إنَّه تشخيص يدلُّ على أنَّ النَّجاسة لا تؤثِّر في الماء الكثير .

---

(١) شرح صحيح مسلم للنَّووي ١٥/ ٨١ .
(٢) التِّرمذي ٢/ ٢٧٥ وأبو داود ٣/ ٤٠٦ .
(٣) التِّرمذي (انظر رياض الصالحين ٥٢٦ ) .
(٤) التِّرمذي ١/ ٧٠ وأبو داود ١/ ٤٨ .

ـ عن أَبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

«لَمَّا قضى الله الخلق كتب في كتابه على نفسه فهو موضوع عنده : إنَّ رحمتي تغلب غضبي »[1] .

ـ وأخيراً ، فسأُورد هذا الحديث الرَّائع :

عن أَبي سعيد قال ، قال رسول الله ﷺ :

« يجاء بالموت يوم القيامة كأنَّه كبش أَملح فيوقف بين الجنَّة والنَّار ، فيقال : يا أَهل الجنَّة هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبُّون وينظرون . ويقولون : نعم هذا الموت .

ويقال : يا أَهل النار هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبُّون وينظرون . ويقولون : نعم هذا الموت . فيؤمر به فيذبح .

ثُمَّ يقال : يا أهل الجنَّة خلود فلا موت . ويا أَهل النَّار خلود فلا موت .

ثُمَّ قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وأَنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأَمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ وأَشار بيده إلى الدُّنيا »[2] .

إنَّه تجسيد لمعنى الخلود الَّذي لا يتهدده موت. فالموت يؤتى به على هيئة كأَنَّها الكبش، ويعرض على أَهل الجنَّة وأهل النَّار فيعرفونه ثُمَّ يذبح.

## التَّصوير بالكناية :

إنَّ حرص النَّبي ﷺ على التَّعبير عن المعاني بالصُّور الحسيَّة جعل نصيب الكناية كبيراً جدًّا ، ولن أَلتزم بتقسيمات علماء البلاغة للكناية ولكنَّني سأورد نماذج منها دلَّت على القلَّة والكثرة ، والقرب والبعد ، والاستحالة وتقليد الكفَّار والمصيبة اليسيرة والتَّوصية بالجار ، وإجابة الدَّعوة وما إلى ذلك .

---

(١) صحيح مسلم ١٧/ ٦٨ .
(٢) صحيح مسلم ١٧/ ١٨٥ . والآية من سورة مريم ورقمها ٣٩

وكانت مادة هذه الصُّور معتمدة على الأَرقَام والمسافات والأَوزان والنَّبات والحيوان والطَّعام والحشرات وما إلى ذلك ممّا يعرفه السَّامعون .

ففي مجال التَّرغيب في الصَّدقة بأَنْ يتصدَّق الإنسان بما يجد حتَّى ولو كان شق تمرة فإنَّ هذا القليل يقيه النَّار يوم القيامة يقول ﷺ : « اتَّقوا النَّار ولو بشقِّ تمرة»[١] «ومن تصدَّق بعدل تمرة من كسب طيِّب . فإنَّ الله يقبلها بيمينه»[١] ولا يحقرَّن المرء ما يجد حتَّى ولو كان فرسن شاة «يا نساء المسلمات لا تحقرَّن جارة لجارتها ولو فرسن شاة»[١] .

وفي مجال التَّهوين من شأن الدُّنيا جاء أَنهَّا لا تساوي جناح بعوضة ولو كانت تساوي هذا الشَّيء التَّافه الحقير ما سقى كافراً منها شربة ماء[٢] .

وإنهّا بالنِّسبة للآخرة لا تعدل كميَّة الماء الَّتي تعلق بأُصبع المرء إذا أَدخلها البحر « ما الدنيا في الآخرة إلاَّ مثل ما يجعل أحدكم أُصبعه في اليم فلينظر بم يرجع »[٣] .

وفي مجال الدَّعوة إلى الجهاد وذكر فضله جاء أَنَّ المقاتلة في سبيل الله مدَّة قصيرة توجب لصاحبها الجنَّة قدّرها بفواق ناقة وهي ما بين الحلبتين .

عن معاذ قال ، قال رسول الله ﷺ :
« من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنَّة »[٤] .

ويطلب الرَّسول ﷺ من رجل يريد الزَّواج من امرأة أَنْ يقدِّم مهراً فيقول : ليس عندي شيء فيطلب منه أَنْ يقدِّم أَيَّ شيء ولو كان هيِّناً ولو كان خاتماً من حديد :

عن سهل بن سعد السَّاعدي قال ، قال رسول الله ﷺ :
« . . . التمس ولو خاتماً من حديد »[٥] .

---

(١) متَّفق عليه وقد مضى تخريجه .
(٢) رواه التِّرمذي وقد مضى تخريجه .
(٣) رواه مسلم ١٧/ ١٩٢ .
(٤) أبو داود ٣/ ٣٠ .
(٥) البخاري ٧/ ٨ومسلم ٤/ ١٤٣ط استانبول والتِّرمذي ٢/ ١٨٣ .

ويحذِّر عليه الصَّلاة والسَّلام أنْ يقتطع أحد حقَّ امرىء مسلم مهما كان هذا الحق يسيراً حتَّى ولو كان قضيباً من أراك:

عن أَبي أُمامة إياس بن ثعلبة أَنَّ رسول الله ﷺ قال :

« من اقتطع حقَّ امرىء مسلم بيمينه فقد أَوجب الله له النَّار وحرَّم عليه الجنَّة » .

فقال رجل : وإنْ كان شيئاً يسيراً يا رسول الله ؟

فقال : « وإنْ قضيبا من أَراك »[١] .

ويعدﷺ الرَّجل من عمَّاله الّذي يختصُّ نفسه بشيء قليل غالاً حتَّى ولو كان إبرة .

عن عدّي بن عميرة قال ، قالﷺ :

« من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطاً فما فوقه كان غلولاً يأتي به يوم القيامة »[٢] .

ويزهدﷺ في الأَمَةِ الَّتي يتبينَّ زناها ويأمر ببيعها ولو بحبل من شعر وكذلك العبد إذا سرق فليبعه ولو بنش .

عن أَبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إذا زنت أَمة أَحدكم فتبينَّ زناها فليجلدها الحدَّ ولا يثرِّب[٣] عليها ثُمَّ إنْ زنت فليجلدها الحدَّ ولا يثرِّب عليها ، ثُمَّ إنْ زنت الثَّالثة فتبينَّ زناها فليبعها ولو بحبل من شعر »[٤] .

---

(١) مسلم ١/ ٨٥ط استانبول .
(٢) مسلم ١٢/ ٢٢٢ وأبو داود ٣/ ٤٠٩ .
(٣) التَّثريب : التَّوبيخ واللوم.
(٤) متّفق عليه (صحيح مسلم ١١/ ٢١١ ورياض الصَّالحين ٢١٠) والترّمذي ٢/ ٣٢٨ .



وهذا الحديث شبيه بحديث آخر يذكر فيه النَّبي ﷺ النَّش وهو عشرون درهماً ، وهو نصف أوقية ، كما يقال للخمسة نواة .

عن أَبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

« إذا سرق المملوك فبعه ولو بنش »[1] .

ومن الكنايات الَّتي جاءت على لسان رسول الله ﷺ تدلُّ على الشَّيء اليسير قوله ﷺ فيما رواه أَبو هريرة : «لو دعيت إلى كراع أَو ذراع لأَجبت ، ولو أهدي إليَّ ذراع أَو كراع لقبلت »[2] .

والتَّعبير عن القلَّة بمثقال ذرَّة أَو مثقال حبَّة من خردل أَو وزن الشَّعيرة أَو البرَّة جاء في الأَحاديث كثيراً جدًّا وقد مرَّ بنا بعضها .

من ذلك الحديث الآتي :

ـ عن أَنس قال ، قال النَّبي ﷺ :

« يخرج من النَّار من قال لا إله إلاَّ الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير

ويخرج من النَّار من قال لا إله إلاَّ الله وفي قلبه وزن برَّة من خير

ويخرج من النَّار من قال لا إله إلاَّ الله وفي قلبه وزن ذرَّة من خير »[3] .

ـ وعن عبد الله قال ، قال رسول الله ﷺ :

«لا يدخل النَّار أَحد في قلبه مثقال حبَّة من خردل من إيمان

ولا يدخل الجنَّة أَحد في قلبه مثقال حبَّة من خردل من كبرياء »[4] .

---

(١) أبو داود ٤/ ٢٠١ .

(٢) رواه البخاري (انظر رياض الصَّالحين ٤١٢) .

(٣) صحيح البخاري ١/ ١٧ وصحيح مسلم ٣/ ٥٩ .

(٤) صحيح مسلم ٢/ ٨٩ وأبود ادود ٤/ ٨٤ .





في هذه النُّصوص وجدنا التَّعبير عن معنى القلَّة بصور حسيّة كلّها ممَّا يعرفه القوم أتَّم المعرفة . . . من مثل التَّمرة . . . . ظلف الشَّاة . . . . والبعوضة . . . وبلل الأُصبع بماء البحر بالنِّسبة إلى البحر . . . . وفواق النَّاقة . . . وخاتم الحديد . . . . وقضيب الأَراك . . . وحبل الشَّعر . . . . والإبرة . . . والنَّش وهو عملة يتعاملون بها . . . . والكراع والذّراع ومثقال الذَّرة والحبَّة من خردل ووزن الشَّعيرة والبرّة .

ونود أنْ نورد نصوصاً دلَّت على الكثرة :

ـ عن أَنس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« قال الله تعالى : يابن آدم إنَّك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أُبالي

يابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السَّماء ثُمَّ استغفرتني غفرت لك

يا بن آدم إنَّك لو أَتيتني بقراب الأَرض خطايا ثُمَّ لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأَتيتك بقرابها مغفرة »[1] .

عن سعد بن أَبي وقَّاص أَنَّ رسول الله ﷺ دخل على امرأة وبين يديها حصى تسبِّح به فقال :

« أخبرك بما هو أَيسر عليك من هذا ؟
سبحان الله عدد ما خلق في السَّماء
وسبحان الله عدد ما خلق في الأَرض
وسبحان الله عدد ما هو خالق

والله أَكبر مثل ذلك والحمد لله مثل ذلك ولا إله إلاَّ الله مثل ذلك ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله مثل ذلك »[2] . وإنَّ الَّذي خلق الله ممَّا ذكر شيء لا يحصيه العدّ .

(١) رواه التّرمذي (انظر الرّياض ٣١٩) .
(٢) أبو داود ٢/ ١٩٨ .

وذكر زبد البحر في أحاديث كثيرة منها : عن معاذ بن جبل أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« من قعد في مصلاَّه حين ينصرف من صلاة الصُّبح حتَّى يسبِّح ركعتي الضُّحى لا يقول إلاَّ خيراً غفر الله له خطاياه وإنْ كانت أكثر من زبد البحر »[1] .

وعن قرب السَّاعة جاءت هذه الكناية الرَّائعة :

عن أبي سعيد الخدرِّي قال: قال رسول الله ﷺ :

«كيف أُنعم وصاحب القرن[2] قد التقم القرن واستمع الإذن: متى يؤمر بالنَّفخ فينفخ؟»[3]

ما أروعها من صورة . تظهر أمام أعيننا صورة الملك إسرافيل وقد التقم الصُّور وأصغى ينتظر الإذن لينفخ نفخة الإفناء الَّتي تنهي الحياة . . . وعندئذ تكون السَّاعة قد أتت .

وفي تقدير الزَّمان جاءت الصُّورة الحسيَّة مرتبطة بأمر ملموس . وذلك في الحديث الآتي :

عن جابر أنَّ رسول الله ﷺ قال لبلال :

« واجعل بين أذانك وإقامتك قدر ما يفرغ الآكل من أكله ، والشَّارب من شربه ، والمعتصر إذا دخل لقضاء حاجته »[4] .

فالوقت الَّتي يستغرقه الآكل والشَّارب والمعتصر معروف لأنَّ هذه الأُمور ضرورات يوميَّة لا بدَّ للإنسان منها . وكلمة (المعتصر ) هي نفسها صورة بالغة الدَّلالة .

***

---

(١) أبو داود ٢/ ٣٧ .
(٢) القرن : هو الصُّور الَّذي جاء فيه قوله تعالى ﴿ونفخ في الصُّور . .﴾ .
(٣) رواه الترمذي (انظر رياض الصَّالحين ٢٩٨).
(٤) التِّرمذي ١/ ١٧٥ .

إنَّ تقدير المسافة المكانيَّة بالمدَّة الَّتي يستغرقها قطعها أُسلوب حيّ حتَّى الآن .
ونورد بعض الأَمثلة عن المسافات الطَّويلة :

ـ عن أَنس بن مالك قال ، قال النَّبي ﷺ :

« من توضَّأ فأَحسن الوضوء وعاد أَخاه المسلم محتسباً بوعد من جهنَّم مسيرة سبعين خريفاً »[1] .

ـ وعن أَبي سعيد قال ، قال رسول الله ﷺ :

« ما من عبد يصوم يوماً في سبيل الله إلاَّ باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النَّار سبعين خريفاً »[2] .

ـ عن أَبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال :

« نَّ في الجنَّة لشجرة يسير الراكب في ظلِّها مائة سنة »[3] .
كان التَّقدير هنا السَّير سنين .

وهذا حديث يقدِّر المسافة الغيبيَّة بالبعد بين الجهات .

عن أَبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

« إِنَّ العبد ليتكلَّم بالكلمة ما يتبينَّ منها[4] يزلُّ بها إِلى النَّار أَبعد ممَّا بين المشرق والمغرب » .[5]

والنَّار وأَحوالها من عالم الغيب يبينِّ الرَّسول ﷺ المسافة التِّي يزلُّ بها الإِنسان الذِّي لا يحفظ لسانه في نار جهنَّم .

---

(١) أبو داود ٣/ ٢٥٢ .
(٢) متّفق عليه (صحيح مسلم ٨/ ٣٣ وانظر رياض الصَّالحين ٧٣٥ ) .
(٣) صحيح مسلم ١٧/ ١٦٧ .
(٤) يتبينَّ منها : يفكِّر أنهَّا خير أمْ لا .
(٥) متَّفق عليه ( صحيح مسلم ١٨ / ١١٧ وانظر رياض الصَّالحين ٨٢٥ ) .

ونورد أمثلة أخرى عن المسافات القصيرة التي كانت الذِّراع والشِّبر وهي مقاييس معروفة لاسيماً عند الأمم البدويَّة :

ـ عن ابن عبَّاس قال ، قال رسول الله ﷺ :

« من كره من أميره شيئاً فليصبر ، فإنَّه من خرج من السُّلطان شبراً مات ميتة جاهليَّة » .[1]

ـ وعن أبي ذر قال ، قال رسول الله ﷺ :

« من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربقة[2] الإسلام من عنقه » .[3]

ـ وعن ابن مسعود قال ، قال رسول الله ﷺ :

« . . . إنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنَّة حتَّى ما يكون بينه وبينها إلاَّ ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النَّار فيدخلها » .[4]

ومن وسائل التَّصوير التي يمكن أنْ تدخل في الكناية **استخدام الأرقام** .

إنهَّا وسيلة رائعة تقرِّب المعنى وتبرزه بشكل ملموس ، ولننظر في الأمثلة :

ففي مضاعفة الأجر جاءت أحاديث كثيرة نذكر منها هذه النماذج :

ـ عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

« إذا أحسن أحدكم إسلامه فكلُّ حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . وكلُّ سيئة تكتب له بمثلها » .[5]

---

(١) متفق عليه ( انظر رياض الصالحين ٤٤٠ ) .

(٢) الربقة : ما يجعل في عنق الدَّابة كالطوق تمسكها لئلا تشرد .

وقد جاء في شرح الحديث :

من خرج عن طاعة الجماعة وفارقهم في الأمر المجمع عليه فقد ضلَّ وهلك وكان كالدَّابة إذا خلعت الرِّبقة التي هي محفوظة بها ، فإنَّه لا يؤمن عليها عند ذلك الهلاك والضَّياع .

(٣) أبو داود ٤ / ٣٣٣ .

(٤) صحيح البخاري ٤ / ١٣٥ ط الشَّعب وصحيح مسلم ٨ / ٤٤ ط استانبول وأبو داود ٤ / ٣١٤ .

(٥) صحيح البخاري ١ / ١٧ ط الشَّعب .

إنَّ هذا الحديث يصوِّر رحمة الله ورأفته بعبادة وكأنَّ هذا التَّصوير بواسطة الأرقام :

فالحسنة تضاعف حتَّى تصبح ٧٠٠ والسَّيِّئة لا تكتب إلاَّ واحدة .

ـ وعن أبي سعيد الخدري قال ، قال رسول الله ﷺ :

« الصَّلاة في جماعة تعدل خمساً وعشرين ، فإذا صلاَّها في فلاة فأتَّم ركوعها وسجودها بلغت خمسين » .(١)

لأنَّه بصلاته مع الجماعة نال ٢٥ وبإتمام سجودها وركوعها وهو في السَّفر الذِّي هو مظنَّة التَّخفيف نال ٢٥ أخرى فبلغت بذلك خمسين .

ـ وعن أبي هريرة عن النَّبي ﷺ أنَّه قال :

« صلاة الجميع تزيد على صلاته في بيته وصلاته في سوقه خمساً وعشرين درجة » .(٢)

ـ وعن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« من قال لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير في يوم مائة مرَّة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة . . . » .(٣)

وآخر الأمثلة التِّي نوردها عن الأرقام هو هذا المثال الذِّي يصوِّر رحمة الله الكبرى وأنهَّا تسعون جزءاً من مائة ، وأنَّ جزءاً واحداً أنزله الله في الأرض تتراحم الخلائق منه .

---

(١) أبو داود ١ / ٢١٩ .

(٢) صحيح البخاري ١ / ١٢٢ ط الشَّعب ، صحيح مسلم ٥ / ١٦٥ ، أبو داود ١ / ٢١٩ .

(٣) صحيح مسلم ١٧ / ١٧ .



ـ عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« جعل الله الرَّحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنـزل في الأرض جزءاً واحداً فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتَّى ترفع الدَّابة حافرها عن ولدها خشية أنْ تصيبه » .[1]

## ثانياً : التَّصوير الفنِّي وعلاقاته :

### التَّصوير والنَّفس :

من أدوات التَّصوير النَّاجحة التَّحليل النَّفسي الذِّي يتجلىَّ في الصُّورة فترى النَّص أمامك يموج بالانفعالات ويختلج بالعواطف وبـذلك تستكمـل الحيوية كلّ عناصرها .

فهذه المرأة السَّبية أضاعت ولدها بسبب ويلات الحرب . . وكلَّما رأت ولداً أسرعت نحوه . . تطفيء لوعتها وتلقمه ثديها ، تخفِّف من ألـم احتقـان اللَّبـن ، وتسليٍّ نفسها بتذكُّر وليدها . . وبينا هي كذلك وجدت ابنها فضمَّته إليها وألصقته ببطنها وأرضعته . . في هذه اللَّحظة يسأل رسول الله ﷺ قائلاً :

« أترون هذه طارحة ولدها في النَّار ؟ »

قلنا : لا وهي تقدر على ألاَّ تطرحه .

فقال : « لله أرحم بعباده من هذه بولدها» .[2]

إنَّ هذا الكشف عن عواطفها الملتهبة وتعلُّقها بوحيدها يساعد في بيان رحمتها به وحدبها عليه ومع ذلك فإنَّ الله أرحم بعباده من هذه بولدها .

---

(١) صحيح مسلم ١٧ / ٦٨ .
(٢) متفق عليه (وقد مضى تخريجه ) .





عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

« من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ألا إنَّ سلعة الله غالية . ألا إنَّ سلعة الله الجنَّة » . [1]

هذا مثل جيِّد على التَّحليل الدَّاخلي لهذا الرَّجل المجد الذِّي يأخذ نفسه بالعزيمة ولا يتهاون في أمر ولا يقصرٍ في واجب .

إنَّه إنسان مسافر يخاف أنْ تنقطع به السُّبل فلا يبلغ المنزل الذِّي يقصد ، ولا يحقِّق البغية التِّي يسعى إليها ولا يحصل السِّلعة النَّفيسة التِّي ارتحل من أجلها ، ولذلك فإنَّه يسير من أوَّل اللَّيل مجداً في سيره ، صابراً على التَّعب لا يبالي ما يلقى في الطَّريق .

وهكذا شأن من يقطع هذه الحياة الدُّنيا . . يريد الجنَّة تلك التِّي هي سلعة الله الغالية فإنَّك لترى على وجهه آثار الخوف من أنْ تنقطع به السُّبل ، وترى في سلوكه آثار هذا الخوف من تشمير في الطَّاعة وإقبال على فعل النَّوافل وعزم على ترك المنكرات . . إنَّ المطلوب غال . . إنَّه الجنَّة .

وصورة أُخرى حديثيَّة تعتمد على التَّحليل النَّفسي الدَّقيق ، فعن أنس قال : مرَّ رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه وصبيٌّ في الطَّريق فلَّما رأت أُمَّه القوم خشيت على ولدها أنْ يوطأ فأقبلت تسعى وتقول : ابني ابني ! ! ، وسعت فأخذته . فقال القوم : يا رسول الله ما كانت هذه لتلقى ابنها في النَّار . قال : فخفضهم النَّبي ﷺ وقال : «والله لا يلقي حبيبه في النَّار . » [2]

ومن براعة استخدام التحليل النَّفسي ما حدَّث به المقداد بن الأسود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« تدنى الشَّمس يوم القيامة من الخلق حتَّى تكون منهم كمقدار ميل ، فيكون

---

(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن و ( رياض الصالحين ٢٩٩ ) .
(٢) مسند أحمد ٣ : ١٠٤ وأقيسة النَّبي : ١٤٤ .

النَّاس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون إلى كعبيه ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه . ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً» .[١]

لقد اعتمدت الصُّورة في هذا الحديث على التَّحليل النَّفسي الدَّقيق فالشَّمس بحرِّها الفظيع وخاصَّة في الصَّحراء المهلكة ينفر النَّاس منها جميعاً ويبتعدون عنها فكيف بها إذا دنت منهم وزاد حرُّ لهيبها حتَّى كاد يحرق البشر ، إنَّها صورة مخيفة تثير الاضطراب والوجل في النَّفس وتجعل الإنسان يتوقَّى هذا العذاب ما وسعه الجهد .

ومن روائع التَّحليل النَّفسي الذِّي يعتمد عليه التَّصوير الفنِّي في الحديث ما جاء عن ابن عمر قال ، قال رسول الله ﷺ :

« إذا جمع الله الأولِّين والآخرين يوم القيامة يرفع لكلِّ غادر لواء فقيل : هذه غدرة فلان بن فلان » .[٢]

لقد أراد الرَّسول صلوات الله عليه أنْ يبيِّن ما يصيب الغادر من خزي يوم القيامة فلم يجد إلاَّ هذه الصُّورة صورة اللِّواء المرفوع الذِّي يدلُّ على غدر صاحبه ، وقد أبدع في إثباته بتساؤل النَّاس عن هذا اللِّواء وبفضيحة صاحبه بينهم بالاستدلال عليه وذكر اسمه واسم أبيه .

وشبيه بهذا التَّحليل النَّفسي الرَّائع ما جاء في الحديث عن أبي هريرة عن النَّبي ﷺ قال :

« من كانت له آمرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقة مائل » .[٣]

فقد أراد الرَّسول أنْ يحثَّ الرِّجال على العدل في معاملة زوجاتهم فلجأ إلى التَّحليل النَّفسي بالتَّخويف بإعلان ظلم المائل إلى زوجة دون أُخرى في هذا اليوم العظيم ، وإذا كان اللِّواء سيدلُّ على الغادر ، فالشِّق المائل هنا سوف يدلُّ على الظَّالم .

---

(١) صحيح مسلم ١٧ : ١٩٦ وانظر مجازات الشَّريف الرَّضي ٢٣٩ .
(٢) شرح صحيح مسلم ١٢ : ٤٢ .
(٣) أبو داود ٢ : ٣٠٦ .

## التَّصوير والبيئة والمجتمع :

من البراعة الفنِّية التي نقف عليها في الحديث النَّبوي أنَّنا نرى في النَّص من عناصر الإثارة والتَّأثير ما يجعل السَّامع مقتنعاً بالفكرة ، منفِّذاً لها ، وذلك باعتماده على عناصر مستوحاة من البيئة والمجتمع .

بل إنَّنا لنجد حالات يحسُّ فيها السامع المنفعل بالنَّص إنَّه يرى في النَّص نفسه وفكره لا يجد فيه غربة ولا يشعر أنَّ شيئاً يملى عليه . ولا شكَّ أنَّ الصُّورة الفنية تستمدُّ عناصر تأثيرها من البيئة والمجتمع لتبلغ درجة عميقة من الواقعيَّة ولتصل إلى وجدان القارىء أو السَّامع وعقله ، ولا يكون فيها من غرابة الوسط أو الجو ما يقف حائلاً دون التأثير والاقتناع .

ولننظر في بعض النَّماذج :

ـ عن أبي أمامة قال : إنَّ فتى شابّاً أتى النَّبي ﷺ فقال :

يا رسول اللهَّ ائذن لي بالزِّنا .

فأقبل القوم عليه ، فزجروه فقالوا : مه . مه

فقال : ادنه . فدنا منه قريباً قال : فجلس .

قال : أتحبُّه لأمك ؟

قال: لا والله ـ جعلني الله فداك ـ

قال : ولا النَّاس يحبُّونه لأمهاتهم . قال : أفتحبُّه لابنتك ؟

قال : لا والله يا رسول الله ـ جعلني الله فداك ـ .

قال : ولا النَّاس يحبُّونه لبناتهم . قال : أتحبُّه لأختك ؟

قال : لا والله ـ جعلني الله فداك ـ .

قال : ولا النَّاس يحبُّونه لأخواتهم . قال : أتحُّبه لعمَّتك ؟

قال : لا والله ـ جعلني الله فداك ـ .

قال : ولا النَّاس يحبُّونه لعمَّاتهم . قال : أتحبَّه لخالتك ؟

قال : لا والله ـ جعلني الله فداك ـ .



قال : ولا النَّاس يحبُّونه لخالاتهم .

قال : فوضع يده عليه وقال : اللَّهم اغفر ذنبه ، وطهِّر قلبه ، وحصِّن فرجه .

قال : فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء .[1]

أنت من النَّاس فإذا كنت لا تحبُّ الزِّنا لأهلك فكذلك النَّاس . . ومن تكون المرأة إنْ لم تكن أختاً أو بنتاً أو أماً أو خالة أو عمة ؟

ولم يكتف بهذه العملية المزدوجة من الإقناع وإثارة عاطفة الغيرة . . وإنَّما وضع يده الشَّريفة عليه ودعا له فغدا هذا الفتى شيئاً آخر .

ولا شك في أنَّ سعة صدر النَّبي له واحتماله لجرأته التَّي دفعت إليها الصرَّاحة البريئة ترك ذلك كلُّه في نفس الفتى حبّاً للنَّبي وتقديراً له واستعداداً لقبول كلامه .

إنَّ هذا النَّص يستطيع أنْ يصوِّر لنا نظرة المجتمع إلى الفساد الخلقي ، كما يصوِّر لنا وجود نزعة فردية أنانية تريد لنفسها اللَّذة غير مبالية بما تعارف عليه النَّاس من أعراف وما اجتمعوا عليه من قيم ومثل ونرى أنَّ الرَّسول ﷺ اعتمد على التَّذكير بهذه القيم عندما سأله أتحبُّه لأمِّك . . . ولأختك . . .

واستغلال الوقائع اليومية أمر له تأثيره البالغ كما سبق أنْ قلنا لأنَّه يعمِّق أثر الكلام في النَّفس ويحمل السَّامع على الاقتناع ويعين على تذكره فلا ينساه بعد .

ومن الأمثلة على ذلك حديث أبي هريرة في رجم ماعز بعد أن اعترف بالزِّنا وأصرَّ على الاعتراف .

قال أبو هريرة :

. . . قال رسول الله : «فما تريد؟» قال ماعز: أنْ تطهِّرني.

فأمر به ، فرجم .

---

(١) مسند أحمد ٥ / ٢٥٦ ـ ٢٥٧ .





فسمع النَّبي ﷺ رجلين من أصحابه يقول أحدهما لصاحبه :
انظر إلى هذا الذِّي ستر الله عليه ، فلم تدعه نفسه حتَّى رجم رجم الكلب .
فسكت عنهما ، ثُمَّ سار ساعة حتَّى مرَّ بجيفة حمار شائل برجله فقال : أين فلان وفلان ؟
فقالا : نحن ذان يا رسول الله .
قال : انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار .
فقالا : يا نبي الله من يأكل من هذا ؟
قال : فما نلتما من عرض أخيكما آنفاً أشدُّ من أكل منه . والذي نفسي بيده إنَّه الآن لفي أنهار الجنَّة ينغمس فيها » .[1]

ـ عن النُّعمان بن بشير قال ، قال النَّبي ﷺ :

« مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، وكان الذِّين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرُّوا على من فوقهم فقالوا :

لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا .
فإنْ تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإنْ أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » .[2]

المجتمع سفينة وركابها متضامنون ، وتصرُّف فئة منهم يؤثِّر على الآخرين ، لاسيماً إنْ كان هذا التَّأثير متَّصلاً ببنية المجتمع ، إنَّ هذا التَّضامن قائم فيما بينهم سواء أرادوا أم أبوا ، فالخرق خرق هدَّام مميت في أيِّ موضع كان من السَّفينة .

ولا بدَّ من مواجهة أيِّ عمل تخريبي في المجتمع بالقمع قبل أنْ يحلَّ البلاء ويعمَّ النَّاس كلَّهم ، مثلهم في ذلك مثل ركاب السَّفينة .

وقد درست هذا الحديث الرَّائع العظيم في الباب الثَّاني والذِّي أودُّ تقريره هنا هو ارتباط الصُّورة بالمجتمع ودلالتها على أموره المعقَّدة المتشابكة .

---

(١) أبو داود ٤ / ٢٠٧ ـ ٢٠٨ .
(٢) صحيح البخاري ٣ / ١٨٢ .

ـ عن أمّ سلمة قالت ، قال رسول الله ﷺ :

« إنّما أنا بشر وإنّكم تختصمون إلي ، ولعلّ بعضكم أنْ يكون ألحن بحجّته من بعض فأقضي له بنحو ما أسمع . فمن قضيت له بحقّ أخيه فإنّما أقطع له قطعة من النّار » .[1]

تصوير لواقع اجتماعي يحصل في خصومات النّاس ، وذلك أنّ بعض أصحاب البيان والمقدرة يستطيعون أنْ يلبسوا على القاضي حتّى يحكم لهم . . يقرّر رسول الله ﷺ أنّ حكم القاضي لا يغيرّ من حقيقة الأمر شيئاً إنّه يقطع له قطعة من النّار إنْ أخذها .

ودلالة الحديث أنّ هذا الحكم هو المقرّر حتّى ولو كان القاضي رسول الله .

ونجد من تأثير المجتمع في الصّورة الحديثية اعتمادها على أسلوب التّجارة الذّي كان شائعاً في الجزيرة العربية ويدلّنا على ذلك قوله ﷺ : ألا إنّ سلعة الله غالية ألا إنّ سلعة الله الجنّة . وتأثير هذه الصّورة في مجتمع يقوم على التّجارة واضح كلّ الوضوح . ومثله في ذلك كلّ الأحاديث الأخرى التّي تصوّر الأعمال الصّالحة وأعمال السّوء بالبيع أو الشرّاء أو الرّبا . وعلى هذه الصّور نفسها اعتمدت آيات قرآنية كثيرة .

أمّا أثر البيئة في التّصوير الفنّي في الحديث فيبرز بقوّة بحيث نرى مناخ الجزيرة العربية بحرها وبردها ورياحها ومطرها وسيولها ، ونرى حيوانها الوحشي والأليف وتكثر في الحديث صور البعير والشّاة ،[2] كما نرى في صور حديثية كثيرة صور النّبات في الجزيرة العربيّة وخاصةً النّخلة ، كما نرى مواضع بعينها كاستخدام جبل أحد في كثير من الصّور .

---

(١) صحيح البخاري ط الشعب ٣ / ١٧١ ـ ١٧٢ ، مسلم ٥ / ١٢٩ ط استانبول .

(٢) انظر قوله ﷺ : فيذب منّي كما يذب البعير الضّال ، وقوله : بعير من إبل له رغاء ، وقوله : الشّاة الجلحاء والشّاة القرناء وقوله : أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ، وقوله : إذا كنت في غنمك أو باديتك . . . الخ .





## التَّصوير والحس :

إنَّ الصُّورة الفنِّية في الحديث النبوي تعتمد اعتماداً كبيراً على الحواس في بلوغ تأثيرها في النَّفس ، وهذه العلاقة ليست سطحية تعنى مجرد الرُّؤية أو السَّمع أو الشَّم أو اللَّمس أو التَّذوق ، بل تصل إلى درجة عميقة بحيث يستشعر الإنسان الصُّورة بحواسه التِّي قد يشترك بعضها في الصُّورة وقد تشترك جميعاً فيها .

فعن أنس قال ، قال رسول الله ﷺ :

« تلك صلاة المنافق يجلس يراقب الشَّمس حتَّى إذا كانت بين قرني الشَّيطان قام فنقر أربعا لا يذكر الله فيها إلاَّ قليلاً » .[1]

إنَّ الصُّورة هنا تعتمد على البصر الذِّي يتابع الحركة متابعة دقيقة بتصوير حال هذا المنافق الذِّي لا يكاد يلامس وجهه الأرض في صلاته حتَّى يرتفع . .

ونرى في قوله ﷺ عن النَّائحة وهي تقام يوم القيامة عليها سربال من قطران ودرع من جرب ، صورة غنية بالمشاهد الحيَّة التِّي تعتمد على البصر اعتماداً كبيراً في استجلاء هذه البشاعة التِّي سوف تكون عليها تلك النَّائحة في يوم الهول العظيم .

ويتعاظم قدر الحواس في الصُّورة وتتآلف معاً في التَّأثير في النَّفس حين يصف الرَّسول ﷺ الجنَّة والنَّار .

عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :

« ما تصدَّق أحد بصدقة من طيِّب ـ ولا يقبل الله إلاَّ الطيِّب ـ إلاَّ أخذها الرَّحمن بيمينه وإنْ كانت تمرة فتربو في كفِّ الرَّحمن حتَّى تكون أعظم من الجبل كما يربِّي أحدكم فلوه أو فصيله » .[2]

---

(١) التَّرمذي ١ : ١٤٩ .

(٢) انظر صحيح مسلم ٧ : ٩٨ ـ ٩٩ .

والصُّورة هنا تعتمد على الحسّ المباشر الذّي يدرك المشاهد متابعة وتتجسَّم أمامه الأشياء تجسيماً واضحاً يخلب النَّفس .

وجاء في وصف الحوض قوله ﷺ :

« حوض مسيرة شهر وزواياه سواء ، وماؤه أبيض من الورق ، وريحه أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السَّماء فمن شرب منه فلا يظمأ بعده أبداً » .

وفي هذه الصُّورة تشترك عدَّة حواس : البصر والشَّم والتَّذوُّق ، وقد أُترعت هذه الحواس بهذا الفيض من الجمال لتقريب هذا الأمر الغيبي البعيد عن التَّصوُّر .

وانظر هذه الصُّورة البصريَّة الرَّائعة التّي يصف فيها الرَّسول ﷺ الملحف في سؤال النَّاس حين يأتي يوم القيامة وقد تآكل لحم وجهه . يقول ﷺ :

« ما يزال الرَّجل يسأل النَّاس حتَّى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم » .[1]

وتعتمد صور من الحديث على حاسَّة اللمس في تصوير طيب الجنة ولينها ، قال البراء : أُهديت لرسول الله ﷺ حلَّة حرير فجعل أُصحابه يلمسونها ، ويعجبون من لينها . فقال :«أتعجبون من لين هذه ؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنَّة خير منها وألين ! » .[2]

ويضيق بنا المقام إذا ما تتبَّعنا مثل هذه الصُّور الحديثية التّي تعتمد على إرهاف الحواس والإلحاح عليها لتجسيم الصُّور .

***

إنَّ الصُّورة الفنِّية في الحديث النَّبوي بكلّ وسائلها وعلاقاتها تتغوَّر في النَّفس الإنسانية لتترك فيها ما شاءت من الأثر ، والصُّورة قد تستخدم وسيلة ما أو تستخدم

(١) انظر صحيح مسلم ٧ : ١٣٠ .
(٢) انظر صحيح مسلم ١٧ : ٢٢ ـ ٢٣ .





عدَّة وسائل معاً ، وقد تكون لها علاقة بأمـر ما ، وربمَّـا تكون لهـا علاقـة بأمـور عديدة ، وهي في بعض الأحيان مفردة ، وفي أحيان أُخرى متتابعة مترابطة حتَّـى لتتألف منها لوحة كاملة غنيَّة بالألوان والمشاهد والحركات .

وغاية القول ، إنهَّا أدب رفيع يتـآلف مع المضمـون العميق ذي الأهـداف السَّامية النَّبيلة ليخرج للنَّاس بياناً خالداً على مرِّ الأزمان .

***

# خـاتمـة

وبعد فإنِّي أودُّ بعد هذه الجولة الممتعة في الصُّور الفنِّية الحـديثيَّة في عالـم الغيب وعالم الشَّهادة وبعد دراسة الصُّورة الفنِّية في وسائلها وعلاقاتها أودُّ أنْ أذكر في هذه الخاتمة بعض الملاحظات وبعض النَّتائج :

أولاً : إنِّني لا أدعى أنَّني جئت بشيء كبير في هذه الرِّسالة ، ذلك لأنَّ الثُّغرة ضخمة . . . وأنهَّا ما تزال قائمة تنتظر إمكانات عدَّة وطاقات كثيرة .

وإنِّي لأرجو أنْ تنبِّه هذه الرِّسالة من تقع تحت يده من علمائنا المعاصرين أو العلماء القادمين إلى ضرورة سدِّ هذه الثُّغرة وأنْ تكون هذه المحاولـة عامـل إثـارة وتحريض على استكمال دراسة البيان النَّبوي .

ثانياً : جمعت طائفة ليست بالقليلـة من الأحـاديث الحافلـة بالصُّـور الفنِّية الجميلة ، استقيتها من كتب السُّنة الأصليَّة أو التِّي نقلت عن مصادر ليست توجد بين أيدينا ، كالجامع الصَّغير للسُّيوطي أو مجمع الزَّوائد للهيتمي ، فقد نقلت من كتب بعضها لم يطبع وبعضها ما يزال غير مكتشف لا سيما إنْ حظيت بجهود بعض المحقِّقين من أهل العلم بالحديث.[1] وإذا ذكرت حديثاً ورددته إلى أحـد الكتـب السِّتـة فليـس يعني هذا أنَّه لا يـوجـد في غـيره ذلـك لأنَّ اختياري كان للدِّراسة

---

(١) من ذلك الخدمة المشكورة التِّي قام بها محدِّث العصر الشَّيخ محمَّد ناصر الدِّين الألباني لكتاب الجامع الصَّغير حيث قسَّمه إلى صحيح وضعيف وصدر في اثني عشر جزءاً .





الفنِّية فقد يكون الحديث في البخارى ونقلته من مسلم أو أبي داود واكتفيت في العزو إلى المصدر الذي نقلت منه .

وأنا أعلم أنَّ هذا أمر منتقد عند المحدِّثين ، ويتعقَّب بعضهم بعضاً فيه ، وقلَّما تجد في رسالتي منه ، لكنَّه إنْ وجد فعذرى ما قدَّمت من أنَّ اختياري كان للدِّراسة التَّحليلية . وقد أستقصي العزو مستقبلاً إذا هيَّأ اللهً لهذه الرِّسالة أن تنشر مرة أخرى ، فأنظر فيها نظرة حديثيَّة .

ثالثاً : درست هذه النُّصوص وحلَّلتها مراعياً ناحية التَّصوير مع الاهتمام بمعنى النَّص وارتباطه بالمجتمع ، لكنَّ الاهتمام كان منصبَّاً على التَّصوير بصورة خاصَّة لعلاقته بموضوع الرِّسالة .

رابعاً : ذكرت وسائل في التَّصوير لم يكن كثير من السَّابقين يهتمُّ بها ، وحلَّلت الصُّور التِّي وردت بها في دراستي للحديث وأبرزتها ، ذلك أنِّي لم أحصر نفسي في القواعد والقوالب التِّي ذكرها السَّابقون في علم البلاغة لأنني رأيتها تحجب كثيراً من نواحي الجمال وأسراره وأشرت إلى هذه الوسائل في الباب الثَّالث .

خامساً : درست العلاقات التِّي تربط هذه الصُّورة بالمجتمع والبيئة والحس وكنت أبينً هذا في أثناء التَّحليل الفنِّي للصورة .

سادساً : وبعد فهذا جهدي في خدمة حديث رسول الله ﷺ فإنْ أحسنت فذلك فضل من الله ، وإنْ قصرَّت فحسبي أنَّني بذلت جهدي وأرجو أنْ لا أحرم الثَّواب .

ربَّنا لا تؤاخذنا إنْ نسينا أو أخطأنا ، ربَّنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذِّين من قبلنا ، ربَّنا ولا تحمِّلنا ما لا طاقة لنا به وآعف عنَّا وآغفر لنا وآرحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

***

# مَراجع البَحث

- الآثار المرفوعة في الأخبار الموضوعة ، عبد الحي اللكنوي ـ نشر إدارة إحياء السُّنة ـ كهرجاك كوجرا نواله بباكستان ـ بدون تاريخ .

- الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصَّحابة ، بدر الدِّين الزَّركشي تحقيق سعيد الأفغاني المكتب الإسلامي في بيروت سنة ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م .

- الأحاديث القدسيَّة ، إصدار المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر .

- أحاديث القصَّاص ، أحمد بن عبد الحليم .. ابن تيمية تحقيق مُحمَّد الصَّباغ ، نشر المكتب الإسلامي بيروت سنة ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م .

- الإحكام ، علي بن حزم الأندلسي ـ مطبعة السَّعادة بمصر على نفقة الخانجي سنة ١٣٤٥ هـ .

- إحياء علوم الدِّين ، محمد بن محمد الغزالي ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٥٨ هـ .

- اختصار علوم الحديث ، لابن كثير ، تحقيق أحمد شاكر ، محمد علي صبيح بمصر ١٣٧٧ هـ .

- أدب الأحاديث القدسيَّة ، أحمد الشرَّباصي .

- أدب الإملاء والاستملاء ، السَّمعاني ، طبع أوروبا ـ ليدن سنة ١٩٥٢ م .





ـ أدب الحديث النَّبوي ، بكري الشَّيخ أمين .

ـ أدب الدُّنيا والدِّين ، علي بن الماوردي تحقيق مصطفى السَّقا ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ط ٣ سنة ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥ م .

ـ الأدب ومذاهبه ، محمد مندور .

ـ إرشاد السَّاري في شرح صحيح البخاري ، القسطلاني .

ـ أساس البلاغة ، محمود بن عمر الزَّمخشري ، تحقيق عبد الرحيم محمود ، مطبعة أولاد اورفاند بمصر سنة ١٣٧٢ هـ ـ ١٩٥٣ م .

ـ الاستيعاب في أسماء الأصحاب يوسف بن عبد الله بن عبد البر ـ مطبوع أسفل « الإصابة » مطبعة مصطفى محمد بمصر ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ م .

ـ أسرار البلاغة ، الجرجاني ، مطبعة المنار .

ـ الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة ، علي بن محمد بن سلطان المعروف بملاً علي القاري تحقيق مُحمَّد الصَّباغ ـ مطبعة دار القلم ببيروت ١٣٩١ ـ ١٩٧١ م .

ـ أسنى المطالب ، محمد بن درويش الحوت ـ مطبعة مصطفى محمد سنة ١٣٥٥ هـ .

ـ الإشارة إلى الإيجاز ، العز بن عبد السَّلام .

ـ الإصابة في تمييز الصَّحابة ، ابن حجر العسقلاني ، مطبعة مصطفى محمد بمصر سنة ١٣٥٨ هـ سنة ١٩٣٩ م .

ـ إعجاز القرآن ، الباقلاَّني ، تحقيق السَّيد صقر .

ـ إعجاز القرآن والبلاغة النَّبوية ، مصطفى صادق الرَّافعي .

ـ إغاثة اللَّهفان من مصايد الشَّيطان ، ابن القيِّم ، طبع مصر .

ـ أقيسة النَّبي ، النَّاصح الحنبلي ، تحقيق أحمد حسن جابر وعلي أحمد الخطيب ،

مطبعة السّعادة بمصر سنة ١٣٩٣ هـ سنة ١٩٧٣ م .

- ألفيّة الحديث ، عبد الرَّحيم بن الحسين الحافظ العراقي تحقيق أحمد محمد شاكر وعلي محمد شاكر - نشرت في مجموعة الرَّوائع دار المعارف بمصر سنة ١٣٧٣ هـ .

- الإلماع ، القاضي عياض ، تحقيق السيد أحمد صقر - مطبعة السنة المحمدية ١٣٨٩هـ .

- الأمالي ، أبو علي القالي ، المطبعة الأميرية ، تصوير بيروت بالأوفست .

- الأم ، محمد بن إدريس الشّافعي ، بولاق بمصر سنة ١٣٢١ هـ .

- الإمتاع والمؤانسة ، أبو حيان التَّوحيدي .

- أمثال الحديث مع تقدمة في علوم الحديث ، عبد المجيد محمود ، مطبعة السُّنة المحمديّة بمصر سنة ١٩٧٥ .

- الأنوار الكاشفة ، عبد الرَّحمن المعلمي اليماني .

- الإيضاح في تاريخ الحديث والاصطلاح ، سعدي ياسين ، المكتب الاسلامي ببيروت ١٩٧٣ .

- الإيمان ، ابن تيمية ، المكتب الإسلامي بدمشق .

- الباعث الحثيث ، أحمد شاكر ، مطبعة محمد علي صبيح بمصر ، الطَّبعة الثَّالثة سنة ١٣٧٧ هـ .

- الباعث على الخلاص ، الحافظ العراقي ، تحقيق محُمَّد الصَّباغ ، نشر في مجلة أضواء الشريعة الرياض سنة ١٣٩٣ هـ .

- البداية والنِّهاية ، إسماعيل بن عمر بن كثير الدِّمشقي ، مطبعة السَّعادة بمصر ١٣٥١ هـ .

- البصائر والذَّخائر، علي بن محمد أبو حيان التَّوحيدي ، مطبعة لجنة التأليف والتَّرجمة والنَّشر بمصر، ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٣م.

- بطل الأبطال ، عبد الرَّحمن عزَّام .

- البيان النَّبوي ، عدنان زرزور ، دار الفتح بدمشق ١٣٩٨ هـ .

- البيان والتَّبيين ، عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق عبد السَّلام هارون .

- تاج العروس في شرح القاموس ، محمد مرتضى بن محمد الزبيدي ، المطبعة الخيريَّة بمصر ١٣٠٧ هـ .

- تاريخ آداب العرب ، مصطفى صادق الرَّافعي .

- تاريخ التُّراث العربي فؤاد سزكين ، ترجمة فهمي أبو الفضل - المطبعة الثقافية بمصر .

- تاريخ الطَّبري أو « تاريخ الرسل والملوك » محمد بن جرير الطبري - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبع دار المعارف بمصر - الطَّبعة الثَّانية سنة ١٣٨٧هـ ، ١٩٦٧م .

- تأويل مختلف الحديث ، ابن قتيبة ، طبع النَّجار بمصر سنة ١٣٨٦ هـ .

- تحذير الخواص من أكاذيب القَّصاص ، عبد الرَّحمن بن أبي بكر السُّيوطي - تحقيق محُمَّد الصَّباغ . المكتب الإسلامي ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .

- تحفة الأحوذي شرح جامع التِّرمذي ، محمد بن عبد الرحمن المباركفوري - طبع الهند سنة ١٣٤٣ هـ .

- تدريب الرَّاوي شرح تقريب النَّواوي ، عبد الرحمن بن أبي بكر السُّيوطي ، نشر المكتبة العلمية سنة ١٣٧٩ هـ - ١٩٥٩ م .

- الترغيب والتَّرهيب ، عبد العظيم بن عبد القوي المنذري ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية بمصر .



- نفسير الطَّبري ، محمد بن جرير الطَّبري - الطَّبعـة الثَّانية - مكتبـة ومطبعـة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م .

- نفسير القرآن العظيم ، إسماعيل بن عمر بن كثير الدِّمشقي - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي .

- تلبيس إبليس ، عبد الرَّحمن بن علي بن الجوزي - طبعة منير الدِّمشقي - مطبعة النَّهضة بمصر سنة ١٩٢٨ .

- تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرَّافعي الكبير ، أحمد بن علي بن حجر - بعناية عبد الله هاشم اليماني شركة الطباعة القومية المتحدة بالقاهرة .

- تمييِّز الطِّيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة النَّاس من الحديث ، عبد الرَّحمن بن علي ابن الديبع - مطبعة محمد علي صبيح بمصر ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢م.

- تنزيه الشريعة الموضوعة عن الأخبار الشَّنيعة الموضوعة ، علي بن محمد بن عراق - تحقيق عبد الله الصِّديق وعبد الوهاب عبد اللطيف - مطبعة عاطف بمصر .

- تهذيب الأسماء واللُّغات ، يحيى بن شرف النَّووي - المطبعة المنيرية بمصر .

- تهذيب التَّهذيب ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، طبع حيدر أباد الدَّكن - الهند سنة ١٣٢٥ هـ .

- تهذيب مختصر أبي داود ابن القيم ، تحقيق محمد حامد الفقـي ، مطبعـة السنـة المحمَّدية بمصر .

- توجيه النَّظر إلى أصول الأثر ، طاهر بن صالح الجزائري - طبـع مصر وتصـوير بيروت بالأوفست .

- الجاحظ ، طه الحاجري - دار المعارف بمصر ١٩٦٣ .

- جامع الأصول ، تحقيق محمَّد حامد الفقي - مطبعة السُّنة المحمـدية بمصر بسنـة





١٣٦٨ هـ سنة ١٩٤٩ م .

ـ جامع بيان العلم وفضله ، يوسف بن عبد الله بن عبد البر ـ المطبعة المنيرية بمصر .

ـ جامع التِّرمذي ، محمد بن عيسى التِّرمذي ـ مطبوع مع تحفة الأحوذي في الهند ١٣٤٣ هـ .

ـ الجامع الصَّغير في أحاديث البشير النَّذير ، عبد الرَّحمن بن أبي بكر السُّيوطي ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر .

ـ الجرح والتَّعديل لابن أبي حاتم .

ـ الجمال والفن ، ماهر كامل ـ ط القاهرة ١٩٧٥ .

ـ الحاوي ، عبد الرَّحمن بن أبي بكر السُّيوطي ـ تحقيق محيي الدِّين عبد الحميد ـ الطبعة الثالثة ـ مطبعة السعادة بمصر ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٩ م .

ـ حجاب المرأة المسلمة ، ناصر الدِّين الألباني ، المكتب الإسلامي بدمشق .

ـ الحديث النَّبوي ، مُحمَّد بن لطفي الصباغ ـ المكتب الإسلامي بيروت ـ الطبعة الثَّالثة سنة ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م .

ـ الحديث النَّبوي من الوجهة البلاغية ، عزّ الدِّين السَّيد ـ مكتبة وهبة مصر ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م .

ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، أحمد بن عبد الله أبو نعيم الأصبهاني ـ مطبعة السَّعادة بمصر سنة ١٣٥١ هـ .

ـ الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السَّلام هارون .

ـ خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرِّجال ، أحمد بن عبد الله الخزرجي ـ المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٢٢ هـ .

- الخلاصة في أصول الحديث ، الحسين بن عبد الله الطيبي ـ تحقيق صبحي السَّامرائي مطبعة الارشاد ببغداد سنة ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م .

- دراسات في العربية ، محمد الخضر حسين ، المكتب الاسلامي ـ ودار الفتح دمشق .

- الدُّرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ، عبد الرَّحمن بن أبي بكر السُّيوطي ( مطبوع على هامش الفتاوى الحديثة لابن حجر الهيتمي ) المطبعة الميمنية بمصر سنة ١٣٠٧ هـ .

- دفاع عن البلاغة ، أحمد حسن الزَّيات ،

- دلائل النُّبوة ، أحمد بن عبد الله أبو نعيم ـ ط حلب ١٣٩٠ .

- دلائل الإعجاز ، الجرجاني ، طبعة المنار .

- رسائل الجاحظ ـ المطبعة الرَّحمانية بمصر ١٩٣٣ م .

- رسالة أبي داود إلى أهل مكَّة أبو داود سليمان بن الأشعث ـ تحقيق مُحمَّد الصبَّاغ طبع المكتب الاسلامي ودار العربية ببيروت سنة ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م .

- الرسالة ، محمد بن إدريس الشَّافعي ـ تحقيق أحمد محمد شاكر ـ مطبعة البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٥٨ هـ ـ ١٩٤٠ م .

- الرِّسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السُّنة المشرفة ، محمد بن جعفر الكتَّاني ـ الطبعة الثَّالثة ـ مطبعة دار الفكر بدمشق سنة ١٣٨٣ ـ ١٩٦٤ م .

- روائع من أقوال الرَّسول ، عبد الرَّحمن حبنّكة .

- الروَّض الأنف ، عبد الرَّحمن بن عبد الله السُّهيلي ـ طبع شركة الطِّباعة الفنيِّة المتحَّدة بمصر سنة ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م .

- رياض الصَّالحين ، يحيى بن شرف النَّووي ، تعليق مصطفى عمارة دار إحياء الكتب العربية بمصر .

- رياض الصَّالحين ، تحقيق الدُّكتور صبحي الصَّالح ، دار العلم للملايين ببيروت .
- رياض الصَّالحين ، تحقيق رضوان محمَّد رضوان بمصر .
- زاد المسير ، عبد الرَّحمن بن علي بن الجوزي ، المكتب الإسلامي بدمشق - سنة ١٣٨٤ هـ سنة ١٩٦٤ م .
- زاد المعاد ، محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيِّم الجوزيَّة - الطبعة الثَّالثة سنة ١٣٩٢ هـ سنة ١٩٧٣ ، المطبعة العصرية بمصر .
- سرُّ الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي ، عبد المتعال الصَّعيدي ، مطبعة محمد علي صبيح .
- سلسلة الأحاديث الصَّحيحة ، محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الاسلامي بدمشق .
- سلسلة الأحاديث الموضوعة ، محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الاسلامي بدمشق .
- سنن ابن ماجه ، محمد بن يزيد بن ماجه - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار احياء الكتب العربية سنة ١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م .
- سنن أبي داود ، سليمان بن الأشعث - تحقيق محيي الدين عبد الحميد . مطبعة مصطفى محمد بمصر سنة ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥ م .
- سنن الدارقطني ، على بن عمر الدَّارقطني - طبعة عبد الله هاشم اليماني المدني - دار المحاسن للطبَّاعة بمصر سنة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م .
- سنن الدَّارمي ، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي - تحقيق محمد أحمد دهمان - مطبعة الاعتدال بدمشق سنة ١٣٤٩هـ .

- سنن النَّسائي مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤م

- سيرة ابن هشام ، عبد الملك بن هشام طبع شركة الطِّباعة الفنِّيَّة المتحدة بمصر سنة ١٣٩١هـ - سنة ١٩٧١م طبع مع الرَّوض الأُنف .

- شرح الشِّفا لملاَّ علي القاري - طبع استانبول .

- شرح مسلم ، يحيى بن شرف النَّووي - المطبعة المصريَّة بمصر ١٣٤٧هـ .

- شرح المواهب اللَّدُنِّيَّة للزُّرقاني .

- شرح نخبة الفكر ، ابن حجر

- الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى ، عياض بن موسى ، استانبول مطبعة خليل أَفندي سنة ١٢٩٠هـ .

- صبح الأَعشى ، القلقشندي ، دار الكتب المصريَّة .

- صحيح ابن خزيمة ، محمد بن اسحاق بن خزيمة - تحقيق محمد مصطفى الأَعظمي - المكتب الاسلامي ، دار القلم بيروت سنة ١٣٩١هـ - ١٩٧١م .

- صحيح البخاري محمد بن إسماعيل البخاري - تحقيق محمود النَّواوي وأبي الفضل إبراهيم ومحمد خفاجي - مطبعة الفجَّالة الجديدة بمصر سنة ١٣٧٦هـ .

- صحيح البخاري ، طبعة كتاب الشَّعب في مصر وهي طبعة مصوَّرة عن طبعة قديمة ممتازة .

- صحيح الجامع الصغير وزيادته - محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الاسلامي ١٣٨٨ هـ

- صحيح مسلم ، مسلم بن الحجَّاج ، مطبعة محمد علي صبيح بمصر وهي مصوَّرة عن طبعة استانبول .

- صحيح مسلم ، تحقيق محمَّد فؤاد عبد الباقي .

ـ صحيح مسلم ، المثبتة أَعلى شرح النَّووي وهي الّتي رجعت إليها إنْ لم أَذكر أَمام رقم الصَّفحة والجزء طبعة أخرى.

ـ الصِّناعتين ، أَبو هلال العسكري .

ـ الصُّورة الأَدبية ، مصطفى ناصف ط القاهرة ١٩٥٨ .

ـ ضعيف الجامع الصَّغير وزيادته ، محمد ناصر الدِّين الأَلباني ـ المكتب الإِسلامي بدمشق ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م .

ـ طبقات الشَّافعية ، السُّبكى ، تحقيق الحلو والطناحي مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٨٣ .

ـ الطَّبقات الكبرى ، ابن سعد ، دار صادر ، بيروت .

ـ عبقرية محمّد، عباس العقّاد.

ـ العلم ، زهير بن حرب ـ تحقيق محمد ناصر الدِّين الأَلباني ـ المطبعة العمومية بدمشق .

ـ علوم الحديث ، عثمان بن عبد الرَّحمن المعروف بابن الصَّلاح وتحقيق نور الدِّين عتر مطبعة الأَصيل في حلب سنة ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م .

ـ العمدة ، ابن رشيق القيرواني ، تحقيق محيي الدِّين عبد الحميد ، مطبعة السَّعادة بمصر .

ـ عمدة القاري في شرح صحيح البخاري ، العيني .

ـ عون المعبود ، شرح سنن أَبي داود ، محمَّد شمس الحق العظيم آبادى ، طبع الهند .

ـ عيون الأخبار ـ ابن قتيبة ، دار الكتب المصريَّة ، مصوَّرة .

ـ الفائق ، الزَّمخشري. تحقيق علي البجاوي وأبي الفضل إبراهيم ـ طبع عيسى البابي الحلبي بمصر ـ دون تاريخ.

- فتح الباري ، شرح صحيح البخاري ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، المطبعة السلّفية بمصر ١٣٨٠هـ .

- الفتح الكبير في ضمّ الزِّيادة إلى الجامع الصَّغير ، يوسف النَّبهاني ، مطبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر .

- فتح المغيث ، محمد بن عبد الرحمن السَّخاوي ،مطبعة العاصمة بمصر ١٣٨٨هـ .

- الفتن والملاحم ، إسماعيل بن عمر بن كثير الدِّمشقي ، بتحقيق إسماعيل الأنصاري ، مطابع مؤسسة النُّور بالرِّياض ، ١٣٨٨هـ .

- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ، محمد بن علي الشوكاني ، تحقيق عبد الرَّحمن بن يحيى المعلمي اليماني ، مطبعة السُّنة المحمدية بمصر ١٣٨٠هـ - سنة ١٩٦٠م . وطبعة المكتب الاسلامي ببيروت .

- الفوائد الموضوعة في الأَحاديث الموضوعة ، مرعي بن يوسف الكرمي ، تحقيقُ محمَّد الصَّباغ دار العربية - بيروت سنة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

- فيض القدير شرح الجامع الصَّغير ، محمد عبد الرَّؤوف المناوي ، مطبعة مصطفى محمد بمصر سنة ١٣٥٦هـ - ١٩٣٨م .

- في الأَدب والنَّقد ، محمد مندور .

- في الحديث النَّبوي ، مصطفى الزَّرقا ، مطبعة الجامعة السُّورية دمشق ١٩٥٣ .

- في ظلال القرآن ، سيِّد قطب .

- القاموس المحيط ، محمّد بن يعقوب الفيروز آبادي ، مطبعة دار المأمون بمصر ، سنة ١٣٥٧هـ سنة ١٩٣٨م .

- قواعد التَّحديث ، جمال الدِّين القاسمي ، مطبعة ابن زيدون بدمشق ١٣٥٣هـ - ١٩٣٥م .

ـ الكافي الشّاف في تخريج أحاديث الكشّاف ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، مطبعة مصطفى محمد بمصر ـ الطَّبعة الأولى ١٣٥٤هـ ( وهو ملحق بآخر الجـزء الرَّابع من الكشّاف ) .

ـ الكامل : محمد بن يزيد المبرد.

ـ الكشّاف على حقائق التّنزيل وعيون الأَقاويل في وجوه التّأويل : محمود بن عمر الزّمخشري .

ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأَحاديث على أَلسنة النَّاس : إسماعيل ابن محمد العجلوني ، مكتبة القدسي بمصر ١٣٥١هـ .

ـ كشف الظُّنون على أسامي الكتب والفنون : مصطفى بن عبد الله المعروف بحاجِّي خليفه طبعة الأُوفست ـ طهران ١٣٨٧هـ .

ـ الكليّات: أبو البقاء تحقيق د. عدنـان درويش ومحمـد المصري ـ مطبعـة وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٧٤م

ـ الكنايات : الجرجاني . مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٦ (١٩٠٨م)

ـ اللآلىء المصنوعة في الأَحاديث الموضوعة : عبد الرَّحمن بن أَبي بكر السُّيوطـي ، المكتبة التّجارية الكبرى بمصر .

ـ لسان العرب : ابن منظور ، طبع دار صادر بيروت .

ـ لسان الميزان : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، حيدر آباد ـ الدكّن في الهنـد ١٣٢٩هـ .

ـ لمحات في علوم القرآن ، محمّد الصَّباغ ، المكتب الإسلامي ، دمشق .

ـ اللُّؤلؤ والمرجان ، محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتـب العـربية بمصر سنـة ١٣٦٨هـ .

ـ ما لا يسع المحدِّث جهله ، للميانشي ، تحقيق صبحي السَّامرائي طبع بغداد

ـ المثل السَّائر ، ابن الأثير ، تحقيق دكتور بدوي طبانة .

- المجازات النَّبوية ، الشَّريف الرَّضي .

- مجلاَّت : البعث الإسلامي ، وحضارة الإسلام ، والمجمع ، والكتاب ، والتَّمدُّن الإسلامي ، والفتح ، والزَّهراء ، والأزهر ، ولواء الإسلام ، والمنار والرِّسالة ، والثَّقافة ، ومواقف ، والبعث الإسلامي .

- مجمع الأمثال ، الميداني .

- المجموع : يحيى بن شرف النَّووي ، طبعة منير الدمشقي ، إدارة الطِّباعة المنيرية بمصر .

- مجموع فتاوى ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، جمع عبد الرحمن بن قاسم مطابع الرِّياض سنة ١٣٨١هـ .

- المحدِّث الفاصل ، الرَّامهرمزيّ ، تحقيق الدكتور محمد عجاج الخطيب ، دار الفكر بيروت .

- محمدٌ رسول الله ، محمد الخضر حسين ، تحقيق علي الرِّضا الوُنسي ، دمشق .

- مدرسة الشَّيطان ، محمد خير وانلي ، دمشق .

- مختار الصِّحاح ، محمد بن أبي بكر الرَّازي ، مطبعة التَّرقي بدمشق ١٩٣٨ .

- مختصر صحيح مسلم ، عبد العظيم بن عبد القوي المنذري ، تحقيق محمد ناصر الدِّين الألباني طبع وزارة الأوقاف الكويتية . ثم طبعة المكتب الاسلامي .

- مختصر المقاصد ، محمّد بن عبد الباقي الزُّرقاني ، تحقيق محمَّد الصباغ ، طبع دار عكاظ في جدة ، ونشره المكتب العربي لدول الخليج سنة ١٤٠١ هـ .

- المزهر ، السُّيوطي. تحقيق جاد المولى والبجاوي ومحمد أبو الفضل - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي.

- مسائل في فلسفة الفنّ المعاصر ، ترجمة سامي الدُّروبي .

- المستدرك ، محمدّ بن عبد الله الحاكم النَّيسابوري ، طبع حيدر آباد - الدكن ١٣٣٣هـ .





ـ المستطرف ، الإبشيهي .

ـ المستصفى ، الغزالي .

ـ المسند ، أحمد بن محمد بن حنبل ، المطبعة اليمينة بمصر ١٣١٣هـ .

ـ المسند ، أحمد بن محمد بن حنبل ، تحقيق أحمد شاكر ، دار المعارف بمصر .

ـ مشكاة المصابيح ، محمد بن عبد الله التبريزي ـ تحقيق محمَّد ناصر الدين الألباني طبع المكتب الإسلامي بدمشق ١٣٨٠هـ .

ـ مشكل الآثار ، أحمد بن محمد الطَّحاوي ، طبع حيد آباد الدكن في الهند ١٣٣٣هـ .

ـ المصباح المنير ، الفيومي . تحقيق عبد العظيم الشنادي ـ دار المعارف بمصر ١٩٧٧م

ـ معالم السُّنن ، الخطَّابي ـ تحقيق محمد حامد الفقي ، مطبعة السُّنة المحمدية بمصر .

ـ معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، مطبعة صادر في بيروت .

ـ المعجم الصَّغير ، سليمان بن أحمد الطَّبراني ، مطبعة دار النَّصر للطباعة بمصر ١٣٨٨هـ سنة ١٩٦٨م .

ـ معجم المطبوعات العربية والمعربة ، يوسف إليان سركيس ـ مطبعة سركيس بمصر سنة ١٣٤٦هـ ١٩٢٨م .

ـ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ـ فنسنك ولفيف من المستشرقين ، مطبعة بريل في ليدن سنة ١٩٣٦ حتى ١٩٦٧ .

ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ، محمد فؤاد عبد الباقي ، مطابع الشَّعب ١٣٧٨هـ .

- معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة ، مطبعة التَّرقي بدمشق ، من ١٣٧٦هـ حتى ١٣٨٠هـ .

- معرفة علوم الحديث ، الحاكم النَّيسابوري .

- المغني عن حمل الأسفار في الأسفار ، عبد الرَّحيم بن الحسين العراقي ، مطبعة مصطفى محمد سنة ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م . ( مطبوع مع إحياء علوم الدِّين للغزالي ) .

- مفتاح كنوز السُّنة ، فنسنك - ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي ، مطبعة مصر ١٣٥٣هـ - سنة ١٩٣٣م .

- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة ، محمد بن عبد الرحمن السَّخاوي - نشر الخانجي مطبعة دار الأَدب العربي بمصر ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م .

- مكارم الأَخلاق ، محمد بن جعفر الخرانطي ، طبع المطبعة السَّلفية بمصر ١٣٥٠هـ .

- المنار ، محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيِّم الجوزِّية ، طبع بيروت ١٣٩٠هـ .

- مناقب الشَّافعي ، أَحمد بن الحسين البيهقي - تحقيق السَّيد أحمد صقر - مكتبة دار التُّراث في مصر ، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م .

- من كنوز السُّنة ، محمد علي الصَّابوني .

- من مكايد الشَّيطان ، طه عبد الله العفيفي ، مصر ١٩٧٨ .

- منهاج السُّنة ، أَحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، المطبعة الأَميرية ببولاق مصر ١٣٢١هـ .

- موارد الظَّمآن إلى زوائد ابن حبَّان ، الهيثمي ، تحقيق محمد عبد الرَّزاق حمزة .

- الموافقات ، الشَّاطبي .

ـ الموضوعات ، عبد الرَّحمن بن علي المعروف بابن الجوزي ، مطبعة المجد بمصر سنة ١٣٨٦هـ .

ـ الموضوعات الصُّغرى ـ علي بن محمد بن سلطان المعروف بملاً علي القاري ـ طبع بيروت ١٣٨٩هـ .

ـ الموطَّأ ، مالك بن أنس ، تحقيق محمَّد فؤاد عبد البَاقي ، دار إحياء الكتب العربية بمصر .

ـ ميزان الاعتدال ، محمد بن أَحمد الذَّهبي ـ تحقيق محمّد علي البجاوي ـ دار إحياء الكتب العربية .

ـ نظرية المعنى في النقد العربي ، مصطفى ناصر ، مطبعة دار القلم ١٩٦٥م

ـ النَّقد التَّحليلي ، محمد محمد عنان ، نشر الأَنجلو المصرية ـ دون تاريخ.

ـ النِّهاية في غريب الحديث ، مبارك بن محمد ـ المطبعة الخيرية بمصر .

ـ هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنِّفين ، إسماعيل باشا البغدادي طبعة الأوفست طهران ١٣٨٧هـ .

ـ وحي الرِّسالة أحمد حسن الزيَّات .

ـ وحي القلم ، مصطفى صادق الرَّافعي.



# المراجع الأجنبية

Day Louis, S : The Poetic Image, London 1951

Hafstadter, A: Truth and Art, Minerva Press 1965.





# فهرس الموضوعات

## الباب الأول

## الصورة الحسية والمعنوية في عالم الغيب





## الباب الثاني

## الصور الحسية والمعنوية في عالم الشهادة

## الباب الثالث

## الصور الحسية والمعنوية في وسائل التصوير وعلاقاته.

